

المركز القومي للترجمة

موسوعة البلاغة

الجزء الثالث

تحرير: توماس أ. سلوان

ترجمة: نخبة

إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف

2701

مراجعة: عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب

احتفت الموسوعة بتاريخ علم البلاغة؛ فقد قدَّمت نُبذًا ـ ربما تتسم بالإيجاز المقتضب ـ عن البلاغات العربية والصينية والهندية والسلافية والعبرية. كما أفردت مساحات شاسعة للمنجز البلاغي اليوناني واللاتيني، ويكاد الحديث عن هاتين البلاغتين يستغرق أكثر من ثلث صفحاتها. كذلك اختُصَّت البلاغة الأوروبية في الألفية الثانية مِن الميلاد بمداخل مستقلة، رُتِّبت بحسب الحقب التاريخية؛ فقد أفردتْ مداخل مستقلة لكلٍّ من: البلاغة في العصور الوسطى؛ وعصر الإحياء؛ والقرن الثامن عشر؛ والقرن التاسع عشر؛ والبلاغة الحديثة؛ والبلاغة فيما بعد الحداثة.





تصميم الغلاف: جاسر سعدوح

موسوعة البلاغة

(الجزء الثالث)

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2701
- موسوعة البلاغة (الجزء الثالث)
- توماس أ. سلوان
- نخبة
- عماد عبد اللطيف، ومصطفى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

Encyclopedia of Rhetoric First edition

By: Thomas O.Sloane

موسوعة البلاغة: نشرت الطبعة الأولى في الأصل باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠١، ونشرت هذه الترجمة بالاتفاق مع مطبعة جامعة أكسفورد

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

موسوعة البلاغة

(الجزء الثالث)

تحرير : توماس أ. سلوان

إشراف وتقديم : عماد عبد اللطيف

ترجمة

بدر مصطفى — عماد عبد اللطيف

حجاج أبو جبر — محمد الشرقاوي

حسام أحمد فرج — محمد فوزي الغازي

خالد توفيق — محمد مشبال

عزة شبل — مريم أبو العز

مها حسان

مراجعة

عماد عبد اللطيف

مصطفى لبيب



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

موسوعة البلاغة / تحرير: توماس أ.سلوان؛ إشـــراف وتقـــديم: عماد عبد اللطيف؛ ترجمة: بدر مصطفى ...إلخ؛ مراجعة: عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب مج٣.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٩٠٤ ص، ٢٤ سم
١- البلاغة - موسوعات
(أ) عبد اللطيف ، عماد (مشرف ومقدم)
(ب) مصطفى ، بدر (مترجم)
(ج) العنوان ٤١٤,٠٣

رقم الإيداع: ٤٧٣٧ /٢٠١٦
الترقيم الدولى 0 - 0583 – 92 – 977 – 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

المناسبة/الحدث Occasion

لقد أصبحنا معتادين على التفكير فى كل مواقف الاتصال على أنها مواقف بلاغية؛ بل إن أرسطو نفسه (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) يرى أن البلاغة لا تعدم أن تجد لنفسها دورًا فى مجرد حوار عابر لا يجمع إلا طرفين (انظر كتاب "البلاغة" Rhetoric لأرسطو ٢. ١٨). وهذه الفكرة الرنانة والمحدثة قد تؤدي إلى تشويه حقيقة أن المنظِّرين اليونانيين القدماء كانت لديهم أفكار عميقة عن ارتباط البلاغة بعنصر الحدث، تلك الأفكار التى كانت متأصلة على نحوٍ عميق فى مؤسساتهم الثقافية؛ وهى مؤسسات انعكست بصفة خاصة فى أنواع الخطابة الثلاثة حسبما يرى أرسطو؛ وهى الخطابة التشاورية (deliberate) والتوضيحية (epideictic) والقضائية (Forensic) (انظر Deliberate genre و Epideictic genre و Forensic genre). وكل نوع من هذه الأنواع كان متسقًا مع مناسبة أو موقف معين فى مجتمع أثينا؛ فالخطابة التشاورية مثلاً تقوم على الحجج المتعلقة بالمزايا والعيوب، كما تختص بالخطب الملقاة فى المجلس المدني، وكان الهدف منها تحريك الجمهور نحو اتخاذ موقف معين فيما يُستقبل، بينما كانت الخطابة القضائية هي تلك التي تقوم على حجج التفريق بين العدل والظلم، وتختص بالخطب الملقاة فى ساحات القضاء، وكان الهدف منها حث هيئة القضاء على إصدار حكم يتعلق بحدث فى الماضي؛ بينما اعتمدت الخطابة المحفلية (التشاورية) على الحجج المتعلقة بالمدح والذم، وكانت تختص بمناسبات كان الهدف منها تحريك جمهور ما نحو اتخاذ موقف

معين فى الحاضر. ومن الواضح إذن، رغم أن أرسطو لم يذكر ذلك بنفسه، أن أيًا من هذه الأنواع الخطابية كان يُستدَعى وفق حدث معين وليناسب حدثًا معينًا سواء أكان هذا الحدث مدنيا أم غير مدني.

وفي حين أن التصور اليوناني لفكرة مناسبة الحدث (Kairos) يفرض نفسه على أي نقاش يتعلق بالجانب البلاغي للحدث فإن السياق الدلالي لذلك أوسع مما هو مُتعارف عليه أحيانًا فى حقيقة الأمر، إذ تجسَّد الحدث وارتبط باللاهوت كما حدث للعديد من الأفكار المجردة؛ وقد ذكر بوسانيوس (Pausanias) (٥. ١٤. ٩) - أحد الجغرافيين المعروفين - فى القرن الثاني الميلادي إحدى المذابح الخاصة بالإله كيروس (Kairos) فى مدينة أوليمبيا Olympia وأورد بعض الأخبار، وفيها أن هذا الإله يُعد "الابن الأصغر لزيوس Zeus". كذلك فإن ليسباس Lysippus وهو أحد النحاتين (في منتصف القرن الرابع عشر ق. م.) قد وصف كيروس فى صورة شاب يمسك موسى فى يده - وهذا يرمز - بلا شك - إلى صفاته اللاهوتية - وله شعرٌ طويل على جبهته، قصير من الخلف. أما الشعراء ابتداء من هيسيود Hesiod إلى بيندار Pindar (من القرن الثامن إلى القرن الخامس ق. م.) فقد رأوا كيروس صاحب اختيارات صحيحة وتحفظ حكيم وصاحب إحساس بما يليق وما لا يليق، بل وصاحب لباقة وتعقل وعدل فى العطاء والقياس (كما ذكر فرانكل Fränkel (١٩٧٣: ص ٤٤٧ - ٤٩٨)). أما عند الفلاسفة الفيثاغوريين Pythagoreans فإن "مناسبة الحدث" تتجلى فى فكرة الانسجام harmonia والتي تشير إلى اجتماع الصفات المتناقضة فى الكون فى وحدة واحدة متسقة (انظر أنترشتينر Untersteiner ١٩٥٤: ص ٨٢).

إن الثنائية التصوُّرية كانت ولا شك أحد أسس الفكر اليوناني: ونستطيع أن نستشهد هنا كمثال بثنائية "الحب" و"الكفاح" (neikos and philotes)

للفيلسوف إمبيدكليس Empedocles وكذلك "الحجج المتعارضة" (antikeimenoi logi) للفيلسوف بروتاجوراس Protagoras، وأيضًا الحجج "الأقوى" و"الأضعف" (kreitton and Hetton logos) كما هو مذكور عند كلٍ من بروتاجوراس وأرستوفانيس. ولما كان التناقض هو أحد أهم المحركات لنشوء فكرة الحدث (أو المناسبة) فلعل الترابط الفلسفي الفيثاغوري بين "مناسبة الحدث" Kairos والتناقض والتعارض هو ما أكد ارتباط فكرة الحدث بالبلاغة الجدلية.

وفي أعمال السوفسطائيين مثل جورجياس Gorgias وبروديكوس Prodicus وأنتيفون Antiphon (وهم معاصرون لبيندر، الشاعر اليوناني) – وهو ما ذكر في كتابات الأبقراطيين Hippocratic Writings – فإن "مناسبة الحدث" Kairos تُجَلِّي بوضوح إحساسًا بالزمن، أو بنقطة زمنية معينة على وجه الخصوص (بالمقارنة مع كلمة chromos وتعنى التتابع الزمنى وبالمقارنة أيضًا مع كلمتي occasio (أي مناسبة) و tempus على التوالي، رغم أن الأخيرة تشير فى بعض الأحيان إلى نفس معنى كلمة Kairos المذكورة أنفا). أما من ناحية مدلولها المحدود فكلمة kairos من الناحية البلاغية تمثل اللحظة المناسبة/اللائقة لتحقيق وجهة نظر معينة فى لحظة ما. ولأن المصادر الأساسية عن السوفسطائيين الأوائل لم يتوفر منها إلا أجزاء متناثرة غير كافية فلا يمكن لنا أن نحدد طبيعة التعاليم الخاصة بتقليد "مناسبة الحدث" kairos على وجة الدقة؛ بيد أن جورجياس Gorgias، والذي هو معروف فى الأخبار القديمة بأنه حواري الفيلسوف إمبيديكليس Empedocles، والذي يحتمل تأثره بالفكر الفلسفي الفيثاغوري، قد اعتبر "مناسبة الحدث" Kairos أمرًا مهمًا يستحق النقاش، ويقال إنه كتب عن هذا الأمر على وجه الخصوص؛ ولعل هذا التقليد يعزز من شهرة جورجياس – المذكور فى إحدى محاورات أفلاطون تحت عنوان "جورجياس" – على اعتبار أنه ممارس محترف للبلاغة المرتجلة. ومن المحتمل أنه منذ عهد الفلاسفة السوفسطائيين الأوئل، وتحديدًا

مع قدوم الحقبة الهيلينستية Hellenistic period فقد ارتبط مفهوم "مناسبة الحدث" Kairos بفكرة أخرى يُشار إليها لغويًا بـــ "to prepon"، والتي تشير في اللاتينية إلى "الملاءمة"؛ كما تشير إلى أن الخطيب يتعين عليه أن يجعل خطابه ملائمًا ليس فقط لنفسه أو لجمهوره بل أيضًا لزمان ومكان الحدث (انظر كتاب "الخطيب" Orator لشيشرون Cicero)؛ وكلها جوانب متعلقة بفكرة المناسبة كما سلف الذكر (انظر مدخل "اللياقة/الذوق" Decorum).

وتمثل الرسالة الفلسفية السوفسطائية المعروفة تحت عنوان Dissoi Logi (أي "كلمات مختلفة") وأحيانا بعنوان Dialexeis (وتشير إلى الجدل) (٢. ٢٠) – وهي تعود إلى بداية القرن الرابع قبل الميلاد – مثالاً واضحًا على فكرة "مناسبة الحدث" Kairos، بل وتعتبرها دليلاً عامًا للسلوك الإنساني. وقد كتب ألسيداماس Alcidamas، وهو أحد تلاميذ جورجياس Gorgias، عن "مناسبة الحدث" Kairos من الناحية البلاغية وعن مدلولها الزمني؛ وبالمقارنة يتضح أن أحد معاصريه وهو إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ – ٣٣٨)، والذي هو أحد تلاميذ كل من جورجياس Gorgias وبروديكيوس Prodicus، قد نظر إلى "مناسبة الحدث" في الخطابة على أنها التناسب الدقيق والتناغم في الاختيار الأولي لموضوع محاضرة أو عرضٍ ما (انظر أوسلوفان O'Sullivan: ١٩٩٢، ص ٩٣). ولا شك أن هذا يعكس عمله كباحث في علم العلامات اللغوية أكثر من كونه خطيبًا للسياقات الملفوظة المرتجلة. على أن كلا من ألسيداماس وإيزوقراط يؤكدان على التفرقة بين ما هو منطوق وما هو مكتوب مشيرَين إلى أن هذين الشكلين الحواريين يعكسان أشكالاً مختلفة لمفهوم المناسبة، وهو ما يستلزم متطلبات مختلفة من قبل الخطيب rhētōr. فبالنسبة للخطاب الشفاهي فإن عنصر "مناسبة الحدث" Kairos، فيما يتعلق بالمواقف المرتجلة، سيكون له دلالة زمنية، بمعنى أن الوعي الآني وردة الفعل السريعة تجاه ما تقتضيه لحظة معينة يزيد من قوة الاتصال؛ بينما ليس

للكاتب أن يتوقع أو يعلل مقدمًا لكل ما تقتضيه حاجة الموقف، ولذا فمفهوم "المناسبة" occasion فيما يتعلق بالنصوص المكتوبة يشير ولا ريب إلى الموقف الذي استدعى عملية الكتابة ابتداءً، بينما مفهوم "مناسبة الحدث/Kairos" نفسه سيشير على الأرجح إلى عملية الصياغة المتناغمة واللائقة لنصٍ مناسب.

ويمكن للمرء من خلال الاعتماد على نظرته الواسعة وكذا الفلسفة التعليمية pedagogical philosophy أن ينظر إلى مفهوم مناسبة الحدث kairos إما على أنه أمرٌ إرشادي مُعَدّ سلفًا يُقصد به أن ينصبّ تركيز الخطيب على ما يليق بموقف ما، أو على أنه مبدأ تكيُّفي يقبل النهايات المفتوحة ويرى "أن إنتاج المعنى فى لغة ما هو عملية متصلة من تعديل الموقف نفسه، بل وخلقه" (انظر وايت White، ١٩٨٧ ص ١٤). وبلغة أخرى فهناك نظرة متشددة إزاء مفهوم "اللائقية" prepon (أي ما يليق وما لا يليق) تقضي بأن يكون هناك آداب محددة سلفًا، ووفق تقييم مصنف للصيغ التي تتطلبها مناسبة بلاغية ما؛ ومثالاً على ذلك الشخص الذي يتعين عليه أن يكون وقورًا وجادًا لا ثرثارًا أو مهرجًا فى خطبة جنائزية. بيد أن مدخلاً متطرفًا يتعامل مع مفهوم "مناسبة الحدث" kairos على اعتبار أنه ما دام أن كل مناسبة تتكون من عناصر عدَّة تجعل من الترتيب المسبق لها أمرًا مستحيلاً من الناحية الفعلية فإن الخطيب الماهر يتعين عليه أن يكون قادرًا على اتخاذ ردود أفعال فى اللحظة نفسها، بل ويحدد الاستراتيجيات المثلى التي تليق وتلك المناسبة المعينة. وهذا الموقف الأخير دائما ما يقدَّم على أنه المذهب السوفسطائي إزاء مفهوم "مناسبة الحدث". ولعله من قبيل المفارقة أن الحوارَين الأفلاطونييَّن (وهما بعنوان) "سقراط" Socrates و"أفلاطون" Plato – رغم عدم ارتباطهما تمامًا بالتقليد السوفسطائي – يعتنقان هذا النوع المتطرف من

المهارة المتعلقة بمناسبة الحدث؛ فأما "أفلاطون" فقد ورد فيه أن الخطيب عليه أن يتمتع بفهم عقلية ووجدان جمهوره psychai وأن يكيف خطابه على نحو دقيق يناسبهم (انظر Phaedrus، ص ٢٧١)، أما "أرسطو" فبتعريفه البلاغة على أنها "القدرة dynamis على إدراك الوسيلة المناسبة للإقناع في كل موقف" (انظر كتاب "البلاغة"، ١,٢,١).

هناك منهج أكثر تمسكًا بالقواعد الموضوعة سلفًا، وقد شرحه من يعرفون بمُنَظِّري "الموقف" (stasis في اليونانية أو status في اللاتينية)، وتشير اللفظة ها هنا إلى نظام استحدثه بلاغيون متأخرون أمثال هيرماجوراس Hermagoras وهيرموجينيس Hermogenes ثم تأصلت تعاليمه وانتقلت إلى النظريات الرومانية من خلال كتّاب أمثال مؤلف كتاب "تاريخ البلاغة" Rhetorica ad Herennium وشيشرون Cicero وكينتليان Quintillian (انظر مدخل "الموقف" Stasis). فنظرية الموقف Stasis Theory كانت تطبق على نطاق واسع وخصوصًا في الخطابة القضائية. وكلمة stasis، والتي اشتقت من الفعل stand، تعني حرفيًا "موقف" أو "وضع" ولكن مع اتساع معناها فتعني "الموقف البلاغي" الذي يُتَخَذ في خطاب ما؛ على أنها في السياقات السياسية يمكن أن تعني "حزبًا" أو حتى "فتنةً" أو "شقاقًا" وهو ما يعود بنا إلى الجانب الجدلي لمفهوم "المناسبة". على أن هدف "نظرية الموقف" كان عبارة عن تحديد المسألة التي تتعلق بقضية ما، بل وتفصيل الخطاب الذي يناسبها. وعلى ذلك فلو أن هناك شخصًا (أو من وكّله) لم يقترف جريمة تم اتهامه فيها فله أن يحتج باستخدام "موقف الحقيقة" (stasis of fact)؛ وإذا كانت القضية جريمة قتل وكان المتهم متورطًا حقًا فله أن يحتج باستخدام "موقف التعريف" (stasis of definition) على أن الوفاة حدثت نتيجة لواقعة انتحار مثلاً وليست واقعة قتل مع سبق الإصرار؛ وإذا كان القتل مع

سبق الإصرار حقًا ولكن هناك ظروفًا مخفِّفة (كأن تكون الضحية هنا ظالما طاغية) فله أن يطعن باستخدام "موقف الكيف" (stasis of quality) على أن الفعل كان مبررًا. أما إذا لم ينفع شيء مما سبق فيستطيع الشخص الطعن باستخدام "موقف التحويل" (stasis of transference) على أن المحكمة لم تكن صالحة لمناقشة الدعوى. وإذن فنظرية الموقف هي نظام إرشادي ذو قواعد موضوعة سلفًا وقائمٌ على المناسبة أو الموقف، ويسمح، على الرغم من ذلك، بشيء من المرونة فى طريقة التناول. وكان شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.)، على سبيل المثال، فى خطبه دائمًا ما يصف وبوضوح 'الموقف" stasis الذي يستخدمه (أو يعدل عنه)، ولكنه فى بعض الأحيان كان يتصرف وكأنه يحتج بأكثر من "موقف" (stasis) فى آنٍ واحد.

وفيما يتعلق بالمبادئ الخمسة للبلاغة الكينتليانية (نسبة إلى كينتليان Quintillian أحد البلاغيين فى القرن الأول ق. م.) فإن الابتكار والنظم والترتيب والأسلوب والتذكر والإلقاء جميعها تتعلق فى أحد جوانبها بعنصر الحدث (أو المناسبة) (انظر مدخل النظم والترتيب Arrangement، مقالة عن النظم والترتيب التقليدي Traditional Arrangement، وانظر كذلك مداخل الإلقاء Delivery والابتكار Innovation والتذكر Memory والأسلوب Style)؛ وبالنسبة للابتكار، ويقصد به إيجاد الحجة، فيظهر فيه هذا الأمر بصفة خاصة. على أن نظرية الموقف stasis theory كانت هي الاستراتيجية الابتكارية الأكثر شيوعًا فى الحقبة الرومانية؛ غير أن نظام أرسطو الابتكاري - ويقصد به الحجج المبنية على صفات أو مناقب ethos الخطيب، واستثارة مشاعر الجمهور pathos، والاستدلال المنطقي logos - يتعلق فى جوهره بالحدث (أو المناسبة) أيضًا؛ فمعرفة استخدام أيٍّ من هذه الحجج فى موقفٍ ما يعد من الأمور الحرجة التي يمكن أن يترتب عليها نجاح الفرد

بلاغيًا (انظر مداخل Ethos و Logos و Pathos). أما "النظم والترتيب"، وهو ترتيب أجزاء الخطاب، فيُحتمل أنه كان متعلقًا بصُلب النظام السوفسطائي للممارسة الخطابية (انظر سولمسن Solmsen، ١٩٤١)؛ وفي مثل هذه الحال فقد يعتقد المرء أنه (أى النظم والترتيب) كان يدرَّس جنبًا إلى جنب مع نظرية "مناسبة الحدث" kairos، إذ منزلة الأسلوب بالنسبة للشكل تماثل منزلة الابتكار بالنسبة إلى المحتوى، وذلك يؤثر ولا ريب على قوة عرض الأفكار؛ كما يُعتقد أن مبدأ اللائقية prepon (أى ما يليق وما لا يليق) كان له دورٌ فعالٌ فى كل ما سبق ذكره. أما التذكر والإلقاء فيتعلقان بالحدث المنطقي بصفة أساسية؛ فالمرء يمكن أن يحفظ خُطبًا أُعدت سلفًا لمناسبات، أما المهارة المتعلقة بـــ"مناسبة الحدث" فتسمح للفرد بمعالجة المواقف البلاغية حسب مقتضاها. فالإلقاء، سواء أكان يتعلق بخطاب محفوظ سلفًا أم مرتجلا، هو عنصر مهم لتكيُّف الخطباء بما يوافق "الحدث"؛ ومن وجه آخر فهو أكثر المبادئ الخمسة اعتمادا على عنصر "المناسبة".

أما عن أزمنة ما بعد العصور الكلاسيكية postclassical times فكانت أهم المواضيع المطروحة للنقاش والمتعلقة بعنصر "المناسبة" متمحورة حول ما أسماه لويد بيتسر Lloyd Bitzer "الموقف البلاغي" (انظر مدخل الموقف البلاغي Rhetorical situation). ويرى بيتسر أن الموقف البلاغي يتكون من عناصر "الضرورة" و"الجمهور" و"بعض المقيِّدات"؛ ويعرِّف الموقف البلاغي على أنه "خليط مركب من أشخاص وأحداث وأشياء وعلاقات متشابكة تمثل كلها حاجة ملحة واقعية أو متوقعة، يمكن أن تزال إذا ما استطاع الخطاب أن يكبح جماح القرار أو الفعل البشري بحيث يؤدي إلى تعديل تلك الحاجة الملحة" (١٩٦٨، ص ٦)؛ ثم يكمل تعريفه لاحقا بقوله "هو حالة واقعية ترتبط بحالة اهتمام ما" (١٩٨٠، ص ٢٨). وأن الحاجة الملحة نفسها "عبارة عن حالة نقص تتطلب تدخلاً سريعًا" أو قل "هى عيبٌ أو عائقٌ، أو أمرٌ

يتطلب اتخاذ فعل ما، أو شيء لا ينبغي أن يكون على حالته التي هو عليها" (١٩٦٨، ص ٦). بيد أن "الجمهور" يجب تمييزه عن "مجرد السامعين أو القراء نظرًا لإمكانية تأثرهم بالخطاب أو قدرتهم على إحداث التغيير كوسطاء" (١٩٦٨، ص ٨). أما "المقيدات" فتشير إلى أمورٍ مثل "الأشخاص والأحداث والأشياء بل والعلاقات التي لديها قدرة تقييد القرار والفعل اللازمين لتعديل الحاجة الملحة" (١٩٦٨، ص ٨). ولقد كان لنموذج بيتسر أثره الفعال حيث انبثقت عنه ردود فعل متباينة كـ"المحاكاة" و"التكييف" (أو التعديل) و"الرفض" (انظر من بين آخرين كلا من: بوميروي Pomeroy (1972) وبيرك Burke (1973) وفاتز Vatz (1973) وكونساينى Consigny (١٩٧٤) وباتن Patton (١٩٧٩) وجارت وزيو Garret and Xiao (١٩٩٣)). على أن طبيعة الحاجة الملحة البلاغية (أو المقتضى البلاغي) وكذلك طبيعة الجمهور - وذلك من منظور فلسفة الجوهر أو البنائية - كانا محلَ جدلٍ فى مثل هذه النقاشات.

لطالما كان للمناسبة تاريخ طويل مع الشعر كذلك، بل ارتبطت على نحوٍ وثيقٍ بمسألة الأنواع (الأدبية) (انظر مدخل الشعر Poetry). ولعلنا هنا نعودُ إلى التقاليد اليونانية مرة أخرى حيث اقتضت مناسبات معينة أنواعًا خاصة من الشعر؛ مثل الترانيم الموجهة لعبادة الآلهة hymns، وقصائد العرس epithalamia احتفاءً بالزفاف، والترانيم الجنائزية threnoi، وأغاني النصر epinikia للاحتفال بالفائزين فى المسابقات الرياضية كالأولومبياد Olympics، والقصائد الغنائية odes، وقصائد المديح encomiums للاحتفاء بمناسبات أخرى متنوعة. كذلك فالدراما الأثينية Attic Dram (نسبة إلى أثينا)، والتي تطورت متعلقةً باحتفالات دينية سنوية، ارتبطت بالمناسبات على نحو أكثر تعقيدًا؛ على أن ما وحَّد كلَ هذه الأنواع كان هو الجانب الجماهيري أو الاجتماعي فى طريقة عرضها (انظر ماينر Miner وآخرين، 1993، وكذلك دولان Dolan، ٢٠٠٠).

إن شعر المناسبات أمرٌ واسع الانتشار، بل هو مؤهل ليصبح ظاهرة عالمية؛ إذ يجده المرء فى الآثار الإسلامية كما يجده فى آثارٍ آسيوية عديدة. وفي بعض الثقافات نجد أن الشاعر (كشاعر البلاط الملكي فى إنجلترا مثلاً) قد يُعَين بصفة رسمية لإنتاج مثل هذا النوع من الشعر. على أن تزايد الاتجاه العاميّ لكثير من أشكال الثقافة العصرية، إضافة إلى ارتفاع الصوت الخاص على الصوت العامِ فيما يخص النظم الشعري، قد أزاح شعر المناسبات عن مكانته ليتبوأ منزلةً دُنيا وليلعب دورًا ثانويًا فى ثقافتنا. وعلى وجه الإجمال، يبدو أن الغربيين الآن نافرون من الاحتفاء بالمناسبات العامة من خلال النظم الشعري الخاص (انظر مداخل البلاغة الكلاسيكية Classical Rhetoric، ومناسبة الحدث Kairos، والسوفسطائيين Sophists).

المراجع (Bibliography)

Bitzer, Lloyd F. "The Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 1 (1968), pp.pp. 1–14.

(المقال يُعد علامة أدبية بارزة، وهو ذو اتجاه فلسفي وضعي، ويرسي كثيرًا من المصطلحات التي ظهرت في نقاشات تالية ذات صلة)

Bitzer, Lloyd F. "Functional Communication: A Situational Perspective." In *Rhetoric in Transition: Studies in the Nature and Use of Rhetoric*, edited by Eugene E. White, pp.pp. 21–38. University Park, Pa., 1980.

Burke, Kenneth. "The Rhetorical Situation." In *Communication: Ethical and Moral Issues*, edited by Lee Thayer, pp.pp. 263–275. New York, 1973.

(المرجع ذو منهج مختلف جدًا عن منهج بيتسر Bitzer فيما تناوله من آراء سابقة).

Consigny, Scott. "Rhetoric and Its Situations." *Philosophy and Rhetoric* 7 (1974), pp.pp. 175–186.

(المرجع محاولة لدرء التعارض بين بيتسر Bitzer وواتس Vatz بالقول إن البلاغة هي أحد فنون الجدل art of topics).

Dolan, John. Poetic Occasion from Milton to Wordsworth. New York, 2000.

(من أكثر المراجع قراءةً فيما يخص فكرة "المناسبة الشعرية")

Fränkel, Hermann. *Early Greek Poetry and Philosophy*. Translated by Moses Hadas and James Willis. New York, 1973.

(من أفضل المراجع ذات المجلد الواحد التي تغطي الأدب اليوناني الكلاسيكي)

Garret, Mary, and Xiaosui Xiao. "The Rhetorical Situation Revisited." Rhetoric Society Quarterly 23 (1993), pp.pp. 30–40.

(المرجع يعطى نظرة طوبغرافية شاملة ومفيدة، ويحتوى على إسهامات جديدة تعد إضافة للموضوع)

Kennedy, George A. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1968.

(هو أحد الأعمال المرجعية الأساسية فيما يخص البلاغة اليونانية القديمة وبه العديد من الصفحات المفيدة حول فكرة "مناسبة الحدث" kairos)

Kinneavy, James L. "Kairos: A Neglected Concept in Classical Rhetoric." In Rhetoric and Praxis, edited by Jean Dietz Moss, pp.pp. 79–105. Washington, D.C., 1986.

(يعد معالجة علمية مفصلة حول الموضوع)

Miner, Earl, A. J. M. Smith, and T. V. F. Brogan. "Occasional Verse." In The New Princeton Encyclopedia of Poetry and Poetics, edited by Alex Preminger and T. V. F. Brogan, pp.p. 851. Princeton, 1993.

(المقال عبارة عن مادة موجزة ومعالجة مفيدة للموضوع)

O'Sullivan, Neil. Alcidamas, Aristophanes and the Beginnings of Greek Stylistic Theory. Stuttgart, 1992.

(المرجع يمثل مادة علمية عميقة رغم أنه يتمتع بنسبة قراءة عالية، ويمثل إضافة جديدة فى مجال تاريخ البلاغة الكلاسيكية)

Patton, John H. "Causation and Creativity in Rhetorical Situations." Quarterly Journal of Speech 65 (1979), pp.pp. 36–55. Builds on Bitzer (1968).

Pomeroy, R. "Fitness of Response in Bitzer's Concept of Rhetorical Discourse." Georgia Speech Communication Journal 4 (1972), pp.pp. 42–71. Builds on Bitzer (1968).

(المصدر يعد امتدادا لكتابات بيتسر (١٩٦٨)

Poulakos, John. Sophistical Rhetoric in Classical Greece. Columbia, Mo., 1995.

(المرجع يعد معالجة حديثة ومهمة للموضوع)

Solmsen, Friedrich. "The Aristotelian Tradition in Ancient Rhetoric." American Journal of Philology 62 (1941), pp.pp. 32–50, pp.169–190.

(من أهم المقالات التي كتبت فى القرن العشرين حول البلاغة الكلاسيكية)

Untersteiner, Mario. The Sophists. Translated by Kathleen Freeman. New York, 1954.

(لايزال يعد مصدرًا مهمًا للمعلومات والآراء المثيرة)

Vatz, Richard E. "The Myth of the Rhetorical Situation." Philosophy and Rhetoric 6 (1973), pp.pp. 154– 161. A head - on rebuttal of Bitzer (1968).

(المصدر يعد مواجهة لدحض حجج بيتسر Bitzer (١٩٦٨)

White, Eric Charles. Kaironomia: On the Will - to - Invent. Ithaca, N.Y., 1987.

(المصدر يعد تقييمًا مثيرًا للنظر فيما يتعلق بالابتكار البلاغي، ويحتوي على معالجة شيقة لفكرة "مناسبة الحدث" kairos.)

المؤلف: John T. Kirby

المترجم: محمد فوزي

المراجع: عماد عبد اللطيف

المشافهة والتدوين (الكتابة) Orality and Literacy

تنبثق فكرة المشافهة عن - وكذا تتعلق بـــ - الأوصاف العرقية الثقافية التي تميز الشعر المتوارث مشافهةً على وجه الخصوص، وكذلك الآثار المنقولة مشافهةً على وجه العموم؛ ومن الكتابات التأسيسية في هذا المجال والتي قام بها ألبرت ب لورد Albert B. Lord (٢٠٠٠) كتاب "منشد الحكايات" The Singer of Tales، والذي يوثِّق البحث الرائد الذي قام به ميلمان باري Milman Parry بشأن الآثار/الأخبار المنقولة شفاهة في يوغوسلافيا السابقة (فيما بين ١٩٣٣ - ١٩٣٥). وقد توفي باري عام ١٩٣٥ في بدايات عمله الأكاديمي قبل أن ينشر نتائج بحثه حول الآثار الحية المنقولة شفاهة. بيد أن ما نشره باري كان محدودًا إلى حدٍ بعيد ومقصور على بحثه السابق، والذي بُني على الدلائل النصية في شعر هوميروس Homeric poetry. وباعتباره أستاذًا للتراث اليوناني القديم فقد كان باري يبحث عن حلول جديدة لما عرف بـــ "مسألة هوميروس"، والتي تمحورت حول الملابسات التاريخية التي أدت إلى تأليف الإلياذة والأوديسا لهوميروس Iliad and Odyssey؛ وتنحصر تلك المسألة بصفة أساسية في سؤال، هو: هل أُلِّفت قصائد هوميروس واستقرت بمعونة الكتابة؟ فمشروع باري، وهو مقارنة شعر هوميروس بالآثار الحية المنقولة شفاهةً للشعر البطولي السلافي الجنوبي (south Slavic)، قاده لأن يقول بأن نصوص هوميروس كانت ولا شك نتاجًا للمشـــافهة. على أن تلميـــذ باري، ألبرت لـــورد، قد قام ببحثه الميداني في يوغسلافيا السابقة بعد موت باري (وخصوصًا عامي ١٩٥٠و ١٩٥١) وكتب " منشد الحكايات"، والذي يمثل تراثهم المشترك معًا.

إن مجموع ما قام به كلّ من باري Parry ولورد lord يعد بصفة عامة هو العمل الوحيد الأكثر نجاحًا لحل ما عُرف بمسألة هوميروس رغم استمرار الجدل بين الكلاسيكيين بخصوص الملابسات التاريخية التي أدت لإمكانية ظهور مؤلفات هوميروس. على أن النجاح المطلق لكل من باري ولورد يمكن، رغم ذلك، أن يُقاس من خلال تتبع إمكانية تطبيق منهجيهما على قطاع عريض من الآثار المتوارثة مشافهةً أو كتابةً فيما يتجاوز التركيز على الأدب اليوناني القديم. وفي حالة الآثار المتوارثة مشافهةً فنلحظ أن كتاب لورد "راوي الحكايات" قد أصبح عملاً تأسيسيًا للدراسة الإثنوجرافية (نسبة للأعراق وثقافات الشعوب) المتعلقة بالأخبار المنقولة مشافهةً ولهجاتها المتنوعة، وكذلك فيما يخص قطاعًا عريضًا من الآثار الشفاهية التي لا تزال حية على أرجاء المعمورة، ومن أمثلة ذلك القصائد الغنائية الأسكتلندية والحكايات الشعبية الوعظية فى جنوب أمريكا وشعر المديح لقبائل الكوزا Xhosa (جنوب أفريقيا)؛ على أن القائمة طويلة ويمكن أن تمتد لمئات الأمثلة الأخرى (انظر قائمة المراجع فى فولي Foley (١٩٨٥)؛ مجلة Oral Tradition؛ أي "الآثار المنقولة مشافهة"، تحقيق جون م فولي John M. Foley، عام ١٩٨٦، والتي تعطي فكرة عن ذلك القطاع العريض المذكور أعلاه؛ وانظر كذلك إلى المداخل المذكورة فى المراجع أدناه).

وفي حالة الكتابات الأدبية نجد أن تطبيق منهج كل من باري Parry ولورد Lord على الآثار اليونانية القديمة قد امتد ليشمل آثار أو أخبار العصور الوسطى فى الإنجليزية القديمة، وكذلك الفرنسية القديمة، بل اتسع من خلال جهود علماء آخرين ليشمل تطبيقات على اللغات الجرمانية الشمالية القديمة وكذلك الإنجليزية الوسطى والألمانية الوسطى والأيرلندية واللهجة الويلزية (نسبة إلى ويلز بإنجلترا)، بل وآثارًا أخرى ترجع للعصور الوسطى بأوروبا.

وعلاوة على ذلك، فقد طبق نفس منهج باري ولورد على قطاع عريض ومتنوع من الآثار الأدبية غير الأوروبية مثل العربية الفصحى والفارسية الكلاسيكية والهندية والصينية (انظر مرة أخرى المداخل المذكورة فى قائمة المراجع أدناه). ومن الناحية الفعلية نجد أن منهجية كل من باري ولورد قد تخطت مسألة هوميروس، إذ إن العمل الذي قاما به قد نجم عنه فكرة أساسية تتخطى سياق الشعر الهوميروي بل والآثار الأخرى؛ وهى – على حد قولهما – أن الآثار المنقولة مشافهةً قد شكلت جوهر كل الآثار الأدبية.

ولا يعنى ما سبق أن نقول بأن مثل هذا الاتجاه فى التفكير ظهر دون سابقة تدل عليه، فواقع الأمر أنه قد نشأ نتيجة لجدال دار بين الكلاسيكيين الذين ركزوا على المسألة الهوميروية. كما أننا نجد أشكالاً نمطية لتلك الفكرة قد ظهرت على نحو تنظيري يتعلق بهوميروس كما عند كل من فرانسوا هيدلن Francois Hedelin؛ وآبي دوبينك Abbe d'Aubignac فى كتابه "Conjectures academiques ou dissertation sur L'Iliade" (تأملات أكاديمية بشأن أطروحة عن الإلياذة)، وقد نُشر بعد وفاته عام ١٧١٥)؛ وكذلك توماس بلاكويل Thomas Blackwell فى كتابه "An Enquiry into the life and Writings of Homer" (بحث فى حياة هوميروس وكتاباته) عام ١٧٣٥؛ وجيامباتيستا فيكو Giambattista Vico فى كتابه "Principi di una scienza nuova" (مبادئ علم جديد) عام ١٧٤٤؛ وروبرت وود فى كتابه "Essay on the Original Genius and Writings of Homer" (مقالٌ عن كتابات هوميروس الأصلية ونبوغه) عام ١٧٦٧، وهو أحد المنشورات الخاصة وله طبعة أخرى صدرت بعد وفاة المؤلف عام ١٧٦٩. على أن تلك الفكرة قد وصلت إلى مرحلة فاصلة فى عمل اثنين من أهم من حققوا أعمال هوميروس فى التاريخ وهما جان بابتيست – واسمه كاملاً – Jean Baptiste Gaspard d'Ansse de Villoison وذلك فى مقدمته النقدية

عام ١٧٩٥ للمخطوطة التي حققها للإلياذة (والتي يشار إليها فى الدراسات الكلاسيكية بالمخطوطة "Venetus A" عام ١٧٨٨؛ وكذلك فريدريك أوجست وولف Friedrich August Wolf فى مقدمته النقدية لمخطوطات الإلياذة عام ١٧٩٥ و١٨٠٤ والأوديسا عام ١٨٠٧. فالعالمان الكلاسيكيان يقولان بوجود تاريخٍ لم يكتب من الشعر المتوارث شفاهةً والذي صاحب ظهور الإلياذة والأوديسا لهوميروس، بل إن تلك الفكرة - وهي وجود حقبة تاريخية للملاحم اليونانية القديمة لم تُسجَّل كتابةً - قد ظهرت فى عام ١٨٠٢، كما ورد فى التعليق على الإلياذة لأحد العلماء الرئيسيين فى مجال الكلاسيكيات وهو كرستيان جوتلوب هين Christian Gottlob Heyne. وقد كان لهذه الأفكار أثرها فى تشجيع النظرة الرومانسية للشعر الشفاهي كما يتضح ذلك عند جوهان جوتفريد هيردر Gohann Gottfried Herder الذي قارن تلك الحقبة الخاصة بشعر هوميروس غير المكتوب بالأخبار الشعبية الجرمانية (انظر كتاب "Homer، ein Gunstling der Zeit " (هوميرس وأشقاء عصره)[1] عام ١٧٩٥. كما أن هذه النظرة الرومانسية للشعر الشفاهي قد أدت إلى ظهور مؤلفات فولكلورية كما تجلى ذلك فى الملحمة الفنلندية "كاليفالا" (Kalevala) عام ١٨٤٩ (طبعة أولى عام ١٨٣٥) لمؤلفها إلياس لونروت Elias Lonnrot، وهى عملٌ بُنيَ على أخبارٍ فنلندية أصيلة انتقلت مشافهة. على أن الافتئات على الآثار الشفاهية قد أدى إلى بعض المثالب؛ وهى أن المؤلفات الأدبية المتعلقة بالأعراق لم تكن موثّقة الأصول كما اتضح ذلك فى أعمال جيمس ماكفرسون James Macpherson الذي حاول بعث الفولكلور الشعبي الأسكتلندي فى كتابه "الأعمال الكاملة لأوشان (البطل الملحمي)" (The Complete Works of Ossian).

---

(١) ملحوظة: لقد ترجمت هذا العنوان من الألمانية وغير واثق منـه تمامًا فالرجاء قيام متخصص ألماني بمراجعته.

وبالنظر إلى كل ما سبق فقد نتساءل لماذا نُسب إلى لورد وباري أمر صياغة الفكرة العامة التي تقول إن كل المرويات الشفاهية قد شكلت جوهر الآثار الأدبية؛ والجواب المباشر هو أن باري ولورد كانا أول من وضعا طريقة منهجية لمقارنة الدلائل الداخلية للمرويات الشفاهية الحية (كما هو ملحوظ فى عمليهما الميداني) بالدلائل الداخلية للآثار الأدبية. وبصفة أساسية فإن منهجيهما، كما نعتقد، ينعكس فى استخدام مصطلحات مثل "Orality" (المشافهة/الشفاهية) و"Oral Theory" (نظرية المشافهة)؛ (لمعرفة ما يقع من أخطاء بشأن استخدام مصطلح "نظرية المشافهة/الشفاهية" Oral Theory انظر المؤلف Nagy ١٩٩٦، ص ١٩ - ٢٠).

ولقد اقتضت منهجية المقارنة لباري Parry ولورد Lord وجود ناحية تجريبية قوية لتحليل الدلائل الداخلية للمرويات الشفاهية الحية؛ وفي حالتهما فقد طُبق ذلك على أدب الجنوب السلافي South Slavic والذي قورِنَ بالدلائل النصية لهوميروس؛ وهناك نماذج أخرى قد عضدت تلك المنهجية للتحليل الداخلي، ومن أمثلته الواضحة ذلك البحث الإثنوغرافي (نسبة للأعراق) الذي قام به ماتيجا موركو Matija Murko عن ملاحم الجنوب السلافي للشعوب المسلمة فى منطقة البوسنة والهرسك (عام ١٩١٣؛ وانظر بصفة خاصة لورد Lord ٢٠٠٠، ص ٢٨٠ - ٢٨١، ج ١). ومن الروّاد فى هذا المجال أيضًا ويلم رادلوف Wilhelm Radloff الذي بحث المرويات الشفاهية الشعرية لمنطقة كارا كيرجيز Kara Kirghiz بآسيا الوسطى (١٨٨٧؛ انظر أيضًا لورد ٢٠٠٠، ص ٢٨١، ج ١). على أن مثل هذه المشاريع كانت وصفية descriptive فى طبيعتها ولم تكن ذات طابع مقارن comparative؛ بينما فى حالة ملاحم آسيا الوسطى، على سبيل المثال، كان تطبيق منهج المقارنة مبنيًا وبشكل مباشر على جهود كل من باري ولورد، كما هو واضح فى أعمال كارل ريشل Karl Reichl (٢٠٠٠).

وعلى ذلك فالذي يميز باري ولورد عن سابقيهم هو تطويرهم لمنهج مقارن منظم لدراسة المرويات الشفاهية؛ وكانت نقطة انطلاقهم لعملهم المقارن - وهى المرويات الملحمية الإسلامية ليوغوسلافيا السابقة - قد منحتهم الفرصة لاختبار التفاعلات الحية بين المرويات الشفاهية والمرويات الأدبية المكتوبة. وقد لاحظا أن تقنية الكتابة بما لها من بريق بل وتعزيزها للثقافة المكتوبة قد أزاحت ثقافة المرويات الشفاهية عن موقعها، وذلك فيما يخص الفترة التاريخية التي درساها. إلا أن ما قد لاحظاه، رغم ذلك، والذي يمثل نقطة مقارنة صارمة مع حالات أخرى قابلة للبحث، لا يمكن أخذه على أنه نموذج يمكن تطبيقه عالميًا فى كل مكان (انظر ميشيل وناجي Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص XIII؛ وانظر كذلك فينيان Finnegan، ١٩٧٦)؛ إذ إن لورد على سبيل المثال يوضح فى كتابه الأخير أن هناك الكثير من الثقافات التي لا يتسبب فيها الأدب المكتوب فى إزاحة المرويات الشفاهية بل يمكن أن يتعايشا معًا (انظر لورد ١٩٩١؛ كذلك انظر بصفة خاصة لورد ١٩٨٦ الكتاب الثاني لنفس العام). وعلى وجه الإجمال، تجب التفرقة بين الثقافة "النصية" المتعلقة بالمرويات والثقافة المتعلقة بالـــ"الكتابة" أو "معرفة القراءة والكتابة" (أو كما وردوا فى الألمانية على التوالي Verschriftung و Verschriftlichung و schriftlichkeit).

لقد نظر كلٌ من باري ولورد للتعارض بين الشفاهية والكتابية (وبالألمانية Schriftlichkeit و Mundlichkeit) على أنه متغير ثقافي وليس عالميا عاما؛ وعلاوة على ذلك فإن تجاربهما الميدانية قادتهم لأن ينظرا للكتابة والمشافهة على أنهما متغيرات معرفية (انظر ميتشل وناجى Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص xiv)؛ بل قالوا بأنه إذا كان مفهوم المشافهة لا يقبل إصدار حكم عام بشأنه فإن مفهوم الكتابة له نفس الصفة، فميكانيكيات أو حتى مفاهيم القراءة تختلف باختلاف الثقافات (انظر ناجي Nagy، ١٩٩٨ بالمقارنة مع فينبرو Svenbro، ١٩٩٣)؛ ومما يُشار إليه هنا تلك الحالات

المثيرة لظواهر ثقافية متنوعة مما عرف بـــ "السيناريو (السرد) المستمر" scriptio continua أو "القراءة الصامتة" silent reading (انظر Nagy، ٢٠٠٠؛ وجافريلوف Gavrilov، ١٩٩٧.

ويعتقد باري ولورد أن تاريخ الآثار المروية والأدبية، وكذلك تاريخ عصر ما قبل الكتابة أو عصر الكتابة، كانا وثيقي الصلة ببعضهما بعضًا؛ بل لقد عزز لورد من ملاحظته بشأن حراك وجماليات الآثار المروية والأدبية المكتوبة بقوله بوجود أدب شفاهي حقيقي عبر التاريخ (لورد، ١٩٩٥؛ انظر بصفة خاصة الفصل الثامن). وعلاة على ذلك طور لورد الدراسات المقارنة للآثار الأدبية الكتابية والشفاهية وجعلها نوعًا من الأدب المقارن (انظر جويلن Guillen، ١٩٩٣، ص ١٧٣ – ١٧٩).؛ فليس من المصادفة إذن أن كتاب لورد "راوي الحكايات" قد نُشر أساسًا فى سلسلة مقالات للأدب المقارن، وأن مؤلف مقدمة الطبعة عام ١٩٦٠ كان هاري ليفن Harry Levin الذي عُرف حينها بعميد الحقل العلمي الجديد للأدب المقارن؛ والذي بالفعل لعب دورا كبيرًا فى الدفاع عن أطروحة لورد (انظر ميتشل وناجى Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص xvii).

وعلى الرغم من هذا الموقف لباري ولورد، فقد زُعم، فى أحيان كثيرة وبطرق عدَّة، أن نظرية باري ولورد قد تأسست على تمييز صارم بين المشافهة والكتابة؛ على أن تلك المزاعم تنجم من عدم الألفة مع البعد الإثنوغرافي فى أعمال لورد وباري، وبصفة أكثر عمومية فقد نجمت عن الجهل بآليات الموروث الشفاهي وجمالياته. فعدم الألفة هذا يشعل العصبيات كما ظهر فى النقد الذي وُجِّه إلى لورد لمجرد محاولته عقد مقارنة للمرويات الشفاهية للجنوب السلافي South Slavic بالآثار الأدبية المكتوبة للثقافات الكلاسيكية وحضارات العصور الوسطى الأكثر تقدمًا للغرب الأوروبي؛

فالافتراضات المسبقة بأن المرويات الشفوية أدنى منزلةً من الأدب الغربي المكتوب بجمالياته وقواعده ارتبطت بتصورات وهمية تتعلق بالتمييز بين المكتوب والمروي؛ وهو ما قال به كلٌ من ميتشل وناجي (Mitchell and Nagy، ٢٠٠٠، ص xiv)؛ فقد قالا إن مثل هذا النوع من النقد، كما وثقه لورد لاحقًا فى كتبه الأخيرة (١٩٩١ و١٩٩٥)، قد تشكل بسبب الجهل العام بالحقائق التاريخية بشأن مفهوم الكتابة ومضامينه الثقافية فى مناطق البلقان. وإلى جانب ذلك العائق يوجد عائق آخر متعلق به وهو أن العديد من الباحثين الغربيين ينظر نظرة رومانسية (غير موثقة علميا) إلى مسألة الكتابة كما لو كانت ظاهرة موحدة عالميًا، اللهم إلا من بعض الملابسات التاريخية التي تتعلق بمتغيرات ثقافية ومعرفية. وإن مثل هذا الاتجاه الرومانسي (غير الموثَّق علميًا) إضافة إلى الجهل بالمضامين الأيديولوجية لمفهوم الكتابة فى الجنوب السلافي فى تلك المنطقة من العالم قد أدى ولا شك إلى إجحاف قائل (في الرأى) ضد كل أنواع الآثار المنقولة مشافهةً. وفي بعض الأحيان، فقد أدَّى هذا الإجحاف، مصحوبًا بجهل مطبق، إلى ظهور مخطط أيديولوجي لاستغلال عملية الكتابة فى سياقات تاريخية معينة.

وبناءً على ما سبق يتضح أن خطر تلك النظرة الرومانسية له وجهان؛ فالعديد من علماء الدراسات الإنسانية فى القرن التاسع عشر قد نظروا إلى الآثار الشفاهية كما لو كانت ظاهرة عامة قائمة بذاتها؛ وبعضهم اليوم قد تغريه نزعة النظر إلى مفهوم الكتابة والمعرفة الكتابية على أنها مفتاح الوصول إلى فهم "الأدب"، بل وفهم الثقافة "العليا" (وهذا بحسب المناهج التي تفرق بين ثقافات "عليا" و"دنيا"، كما هو الحال فى التفرقة ما بين المأثورات (الأخبار) الشفاهية والآثار المكتوبة) (انظر بوسنجر Bausinger, 1980). على أن التفرقة العامة بين المأثورات الشفاهية والكتابية لا يعدو أن يكون شيئًا من

قبيل الأسبقية التاريخية، بمعنى الاعتراف بما ظهر أولاً وما لحقه ثانيًا. بل لو نظرنا فيما وراء تلك المقارنة لوجدنا أنه لا معنى لأن نُصِرَّ على تعريفات عامة واسعة للشفاهية أو التراث المنقول مشافهةً. كذلك فإن كلا من "التراث الشفاهي" وكذلك "الشعر الشفاهي" يعتبران مصطلحين قائمين على تصورات ارتبطت بما دُوِّنَ كتابةً عن "التراث الشفاهي" و"الشعر الشفاهي"؛ بل فى الثقافات التي لا تعتمد على تقنية الكتابة نجد أن مفهوم الشفاهية لديها أمرٌ لا معنى له (انظر لورد، ١٩٩٥، ص ١٠٥، ج ٢٦). كذلك فإذا نظرنا من وجة نظر إثنوغرافية (نسبة للأعراق) مقارِنة فسنجد أن "المكتوب" ليس بشيء غير "قابل للرواية"، وهذه القابلية أمرٌ إضافي فى ذاتها، وعليه فإن هذا الأمر الإضافي يتباين من مجتمع إلى آخر (انظر ناجي Nagy، ١٩٩٠، ص ٨). وإن غياب هذه التقنية (أى الكتابة المشار إليها أعلاه) ليس له علاقة بمسألة أن يكون هناك تراثٌ شعريٌ بلاغيٌ للشعوب من عدمه، فالشعر والبلاغة يمكن أن يوجدا حتى لو انعدمت الكتابة (أو التدوين).

ومن الاعتقادات الخاطئة حول التراث المنقول مشافهةً هو أنه يتسم بالعشوائية وعدم التنظيم والارتباط أو الوحدة. والمشكلة تكمن مرة أخرى فى عدم الألفة مع مسألة الدلائل الإثنوغرافية (نسبة للأعراق) النابعة من الآثار الشفاهية الحية، والتي يمكن أن تستخدم لتوثيق قطاع عريض من المأثورات الشعرية والبلاغية (انظر لورد بصفة خاصة، ١٩٩٥). فالفن الملفوظ "Kunstsprache" للمرويات الشفاهية يمكن أن يصل إلى مستويات من البراعة الفنية يمكن مقارنتها وبشدة بالآداب الكلاسيكية لنصوص ومطبوعات تثير إعجابنا فى الثقافات الكتابية. بل فى بعض السياقات التاريخية نجد أن الآثار الشفاهية يمكن أن تكون أكثر موثوقية من مثيلاتها من الآثار المكتوبة، لأن أنواع الشعر والبلاغة تميل إلى سهولة حفظها أو الاحتفاء بها (انظر سميث

Smith، ١٩٧٤ وكذلك بن عاموس Ben - Amos ١٩٧٦ وسلاتكن Slatkin، ١٩٨٧). وبالنظر إلى تاريخ الأدب المكتوب فإن الأنواع الأدبية يمكن أن تجنح أو تَشِذ أثناء صراعها لتحقيق العظمة الفردية، بل من منظور بنيديتو كروس Benedetto Croce (١٩٠٢) فإن العمل الأدبي الأعظم هو ذلك الذي يتحدى الأنواع الأدبية الأخرى ليكون متفردًا.

وبالمقارنة يتضح أن أشكال الأنواع الأدبية للمرويات الشفاهية يدعمها أشكال الحديث الشفاهي اليومي المعتاد؛ وعليه فالفن الملفوظ "Kunstsprache" للآثار الشفاهية يتيح لمستخدميه شكلاً من أشكال التواصل، حتى فى عالم اليوم المتقدم (انظر مارتن Martin، ١٩٩٣، ص ٢٢٧) – وتفصيل ذلك ما يلي:

إن من يستمع اليوم لملحمة تقليدية فى الثقافات التي لا تزال تحتفظ بحَبك الغناء يلاحظ أنهم يُعلِّقون وبشكل إيجابي على أدنى التغيرات اللفظية – ليس بطريقة الصغير الذي يسعى لفهم أقل الكلمات فى حكاية ما قبل النوم، ولكن عن دراية تامة بعشرات الطرق التي يمكن أن يتوسل بها الراوي فى نقطة معينة أثناء الحكي (السرد القصصي). ففي الآثار المروية الحية يمكن للناس أن يحتكوا بالفن الملفوظ على نحو مستمر، وليس فقط فى مناسبات معينة، وهو ما يمكن أن يحدث فى كل ليلة فى مواقف معينة؛ فعندما يعملون أو يأكلون أو يشربون أو يقومون بأعمالٍ على مستوى مجموعتهم الاجتماعية الصغيرة، فإن الأسطورة والأغنية والقول السائر، جميعها تتداخل فى حديثهم؛ وبالتالي ليس من الخطأ أن نصفهم بأنهم من أصحاب اللسانين أو ننعتهم بطلاقة اللسان فيما يخص لغتهم الطبيعية، بل أيضًا بطلاقتهم فى آثارهم المروية Kunstsprache المتعلقة بأشكال فنهم المحلية الشفاهية.

المراجع (Bibliography)

Bakker, E. J. *Poetry in Speech. Orality and Homeric Discourse*. Ithaca, N.Y., 1997.

(المرجع يعد دراسة تجريبية للأنماط النحوية للآثار الشفاهية بل للحديث اليومي العادي، كما هو موجود فى نصوص أشعار هوميروس).

Bauman, R. *Verbal Art as Performance*. Prospect Heights, Ill., 1977.

(تحليلٌ مهم لأنواع ودرجات متباينة للتفاعل ما بين الأداء والتأليف باعتبارهما من الجوانب المشتركة للآثار الشفاهية).

Bausinger, H. *Formen der "Volkspoesie."* 2d ed. Berlin, 1980.

(دراسة تاريخية عن التفرقة الأيديولوجية والثقافية بين "الفن الأعلى" و"الفن الأدنى" بالنظر إلى التراث الشفاهي والمدون).

Ben - Amos, D. "Analytical Categories and Ethnic Genres." *Folklore Genres*. Edited by D. Ben - Amos, pp.pp. 215–242. Austin, 1976.

(تغطية واسعة النطاق للأشكال المتنوعة لوظائف وأنواع الآثار الشفاهية وأنواعها).

Blackburn, S. H., P. J. Claus, J. B. Flueckiger, and S. S. Wadley, eds. *Oral Epics in India*. Berkeley, 1989.

(يضم مداخل إثنوغرافية للآثار الشفاهية كما حللها الباحثون فى سياقاتها التاريخية، إضافة إلى التركيز على ميكانيكيات انتشارها (وكذلك التغييرات المتعلقة باتساع أو تضييق ذلك الانتشار). وهو مثال باهر على الامتداد المتساوي الممكن للآثار المكتوبة والشفاهية على حد سواء؛ مع ملاحظة أن الآثار الشفاهية قد يشد بعضها بعضًا شأنها شأن الآثار المدونة (ص ٣٢، ج ٢٥).

Croce, B. *Estetica*. 2d ed. Bari. 1902.

(يعد المرجع عملا تأسيسيا ووسيطا فيما يتعلق بالتوتر القائم بين الأعمال الأدبية العظيمة وبين الأنواع الأدبية التي يفترض أن تنتمي إليها تلك الأعمال).

Davidson, O. M. *Comparative Literature and Classical Persian Poetry*. Bibliotheca Iranica, Intellectual Traditions Series, no. 4. Costa Mesa, Calif., 1999.

(المرجع يكتشف التاريخ الفكري لمسألة توسيع نطاق منهجية الأدب المقارن من خلال تضمين دراسة التراث الشعري الشفاهي، وخصوصًا بالإشارة إلى الأشكال الأدبية الكلاسيكية، والتي نجمت فى النهاية عن الآثار الشفاهية).

Finnegan, R. "What is Oral Literature Anyway? Comments in the Light of Some African and Other Comparative Material." In *Oral - Formulaic Theory: A Folklore Casebook*. Edited by J. M. Foley, pp.pp 243–282. New York, 1990.

(المرجع نشر للمرة الأولى عام ١٩٧٦ويناقش رافضًا تعميم أمر التفرقة بين "الشفاهية" و"الكتابة/التدوين" قائلاً بأن باري ولورد قد حاولا وضع أساس هذه التفرقة. ومن فرضيات الكتاب أن فكرة "المشافهة" يمكن أن تكون مساوية لأى شيء له صفة "الأداء" (أي يمكن أن يؤدى ويعرض). على أن لورد يدحض صحة هذا "القول" وتلك "الفرضية" (١٩٩٥).

Foley, J. M. *Oral - Formulaic Theory and Research: An Introduction and Annotated Bibliography*. New York, 1985.

(مقدمة المحرر تعطى استعراضًا عامًا لقطاع عريض من الآثار الشفاهية عبر العالم، إضافةٍ إلى قائمة مراجع مكثفة مما يتعلق بالبحوث الجارية التي تطبق مناهج كل من باري ولورد وآخرين).

Gavrilov, A. K. 1997. "Techniques of Reading in Classical Antiquity." *Classical Quarterly* 47 (1997). pp.pp. 56–73.

(يبحث المتغيرات الثقافية والمعرفية لمفهوم "القراءة الصامتة" والجهرية؛ وينتهي إلى أن تلك التفرقة الحصرية يتعذر القول بها أو الدفاع عنها).

Goody, J., and I. Watt. "The Consequences of Literacy." In *Literacy in Traditional Societies*. Edited by J. Goody, pp.pp. 27–68. Cambridge, U.K., 1968.

(المرجع يقول بأن "الكتابة أو القدرة عليها" تسفر عن فروق يمكن قياسها فيما يتعلق بالسعة المعرفية؛ إلا أن تلك الحجة ضعفت لخلوها من (منهجية) الخصوصية الوصفية التي تأخذ أشكال الآثار الشفاهية بعين الاعتبار فى أي سياق تاريخي).

Guillén, C. *Entre lo uno y lo diverso. Introducción a la literatura comparada*. Barcelona, 1985.

Guillén, C. *The Challenge of Comparative Literature*. Harvard Studies in Comparative Literature, no. 42. Cambridge, Mass., 1993.

(يقول بوضع دراسة الآثار الشفاهية ضمن مبحث الأدب المقارن أكاديميًا).

Johnson, J. W. "Yes, Virginia, There Is an Epic in Africa." *Research in African Literatures* 11 (1980), pp.pp. 308–326.

(يعد هجومًا جريئًا بخصوص تطبيق المعايير العامة فى وصف أنواع الآثار الشفاهية).

Lord, A. B. "Perspectives on Recent Work on the Oral Traditional Formula." In *Oral - Formulaic Theory: A Folklore Casebook*. Edited by J.M. Foley, pp.pp. 379–405. New York, 1990. First published 1986a.

(يعد المرجع استمرارا للاستعراض البيليوجرافي للورد (١٩٧٤)، وهو إضافة حيوية للموضوع).

Lord, A. B. "The Merging of Two Worlds: Oral and Written Poetry as Carriers of Ancient Values." In *OralTradition in Literature: Interpretation in Context*. Edited by J. M. Foley, pp.pp. 19–64. Columbia, Mo., 1986b.

(دراسة عن التطور والتزامن التاريخي بين الشعر الذي يؤدَّى فى المقاهي، حسبما لاحظ باري ولورد، والشعر المؤدَّى فى بلاط الخلفاء فى الأيام الخوالي أيام الحكم العثماني).

Lord, A. B. "Perspectives on Recent Work on Oral Literature." In *Oral - Formulaic Theory: A Folklore Casebook*. Edited by J. M. Foley. New York, 1990. First published 1974.

(مقال ببليوجرافي يستعرض البحث المتواصل للآثار المروية فى شتى بقاع العالم؛ ويعد تتمة للمراجع المختصرة والمذكورة هنا).

Lord, A. B. *Epic Singers and Oral Tradition*. Ithaca, N.Y., 1991a.

(المرجع يستكشف القصيدة الغنائية الشفاهية وكذلك الملحمة، ويناقش بعمق إعادة تقييم مسألة "الشفاهية" و"الكتابية").

Lord, A. B. "Homer's Originality: Oral Dictated Texts." In *Epic Singers and Oral Tradition*. Ithaca, N.Y.,1991b. First published 1953.

(طبع للمرة الأولى عام ١٩٥٣ مع بعض التغيرات الطفيفة بالنسبة للطبعة الحالية، ص ٣٨ - ٤٨ (إضافة لملحق ١٩٩٠، ص ٤٧ - ٤٨). ويعد أيضًا محاولة لمصالحة انتقال القصائد الهوميروية عبر الرواية الشفاهية، كأحد المعطيات التاريخية، مع الملاحظات التجريبية بشأن عملية "التأليف خلال الأداء" كما تبين فى بعض الآثار (المرويات) الشفاهية الحية).

Lord, A. B. *The Singer Resumes the Tale*. Edited by M. L. Lord. Ithaca, N.Y., 1995.

(نُشر بعد وفاة كاتبه وأُريد به فى الأصل أن يكون امتدادًا مباشرًا لكتاب "راوي الحكايات"؛ ويعد دحضًا لفكرة النقاد الذين قالوا بأن منزلة "الشفاهية" أدنى من منزلة "الكتابة/التدوين").

Lord, A. B. *The Singer of Tales*. 2d ed. Harvard Studies in Comparative Literature, no. 24. Cambridge, Mass., 2000.

(نشر للمرة الأولى عام ١٩٦٠، ويصاحبه مقدمة جديدة لميتشل Mitchell وناجي Nagy. ويظل هذا الكتاب هو المقدمة الأكثر دقة للبحث الرائد الذي قام به باري ولورد؛ ويوثق الكتاب في جزئه الأول النتائج التي توصلا إليها أثناء بحثهم الإثنوغرافي بشأن الآثار الشفاهية الحية التي سجلاها في دولة يوغسلافيا السابقة؛ بينما يتناول الجزء الثاني تطبيقات هذه النتائج باعتبارها نقاطا يمكن مقارنتها بالدلائل النصية للملحمة اليونانية القديمة والملحمة الأوروبية الوسطي (نسبة للعصور الوسطى).

Martin, R. P. *The Language of Heroes: Speech and Performance in the Iliad*. Ithaca, N.Y., 1989.

(دراسة حالة للأنواع الأدبية الفرعية الشفاهية للشعر كما تجسدت في الملحمة باعتبارها "جنسًا فرعيًا"، مع التركيز على تطبيقات نظرية "الفعل الكلامي" speech - act theory).

Martin, R. P. "Telemachus and the Last Hero Song." *Colby Quarterly* 29 (1993), pp.pp. 222–240.

(إعادة تقييم نقدية للملحمة باعتبارها الجنس الأساسي لجنس الشعر الملحمي "البطولي").

Mitchell, S., and G. Nagy. "Introduction." In *The Singer of Tales*, by A. B. Lord, pp.pp. vii–xxix. Cambridge, Mass., 2000.

(يمثل خلفية تاريخية لنشوء وتطور عمل لورد وتطوره، وعلاقاته بأعمال باري السابقة؛ كما يلخص أثر تراث لورد وباري المشترك على مثل هذه الحقول البحثية كالكلاسيكيات والأدب المقارن والدراسات الفلكلورية (الأدبية الشعبية).

Nagy, G. *Pindar's Homer: The Lyric Possession of an Epic Past*. Rev. ed. Baltimore, 1994. First published 1990.

(يفحص المرجع التداخل والتفاعل بين "الموضوع" و"الصيغ" و"الإيقاع" فى كل من "الملحمة" و"القصيدة الغنائية"، مع التركيز على الإشارة إلى السياق التاريخي لبعض آثار الحقبة اليونانية القديمة".

Nagy, G. *Homeric Questions*. Austin, 1996.

(يعالج عشرة أفكار خاطئة أساسية بشأن باري ولورد؛ ويزود القارئ بنماذج شارحة عن الإمكانية التاريخية للانتقال من الآثار الشفاهية إلى المكتوبة (المدونة).

Nagy, G. 1998. "Homer as 'Text' and the Poetics of Cross - Reference." In *Script Oralia*, edited by C. Ehler and U. Schaefer, vol. 95, *Verschriftung und Verschriftlichung: Aspekte des Medienwechsels in verschiedenen Kulturen und Epochen*, pp.pp. 78–87. Tübingen, 1998.

Nagy, G. "Reading Greek Poetry Aloud: Evidence from the Bacchylides Papyri." *Quaderni Urbinati di Cultura Classica* 64 (2000), pp.pp. 7–28.

(المرجع يدرس ظواهر الكتابة التي تدحض فكرة التعميم، كما يتضح فى فكرة "السيناريو (السرد) المستمر" فى الحقبة اليونانية الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية، مقابلتها بمسألة ترك مسافات معينة عند حدود الكلمات، كما هو الحال فى تقاليد الكتابة العبرية).

Nagy, J. F. "Orality in Medieval Irish Narrative." *Oral Tradition* 1 (1986), pp.pp. 272–301.

(استعراض مفصل للدلائل الموجودة فى نصوص وأعراف الحكايات السردية نفسها).

Niditch, S. *Oral World and Written Word: Ancient Israelite Literature*. Library of Ancient Israel. Louisville, Ky., 1996.

(يمثل مواجهة حية بين "المخطوطة" باعتبارها منتهى الكلمة المكتوبة وبلاغة الكلمة المنطوقة (الشفاهية).

Oesterreicher, W. "*Verschriftung* und *Verschriftlichung* im Kontext medialer und konzeptioneller Schriftlichkeit." In *Schriftlichkeit im frühen Mittelalter*. Edited by U. Schaefer, pp.pp. 267–292. Tübingen, 1993.

(يبين أن الملابسات التاريخية للتحول من عصر مجتمعات المشافهة إلى مجتمعات الكتابة كانت متباينة).

Okpewho, I. *The Epic in Africa: Toward a Poetics of the Oral Performance*. New York, 1979.

(استعراض إثنوغرافي وأدبي متعمق يهدف إلى إعادة التقييم النقدي للملحمة باعتبارها جنسًا أدبيًا).

Opland, J. "Xhosa: The Structure of Xhosa Eulogy and the Relation of Eulogy to Epic." In *Traditions of Heroic and Epic Poetry*, edited by J. B. Hainsworth and A. T. Hatto, vol. 2, *Characteristics and Techniques*. pp.pp. 121–143. London, 1989.

(هذه الدراسة تصف جنسًا أدبيًا متميزًا، وهو شعر المديح لدى قبائل الكوزا Xhosa (جنوب أفريقيا)، ثم يشرع فى مقارنة هذا النوع من الشعر مع الملحمة اليونانية القديمة. وبملاحظة أن شعر المديح يختلف عن شعر الملاحم فإن هذا العمل يتجنب فرض النماذج الخارجية على الدلائل الداخلية للآثار الشفاهية موضع البحث).

Parry, M. *The Making of Homeric Verse: The Collected Papers of Milman Parry*. Edited by A. Parry. Oxford, 1971.

(يختص الجزء الأول بعمل باري على النصوص الهوميروية، وذلك قبل أن يشرع فى بحثة الميداني فى دولة يوغسلافيا السابقة؛ بينما يجمع الجزء الثاني ما بين خبرته الميدانية وخبرته فى تنظيم شعر هوميروس).

Radloff, W. *Proben der Volksliteratur der nördlichen türkischen Stämme*, vol. 5, *Der Dialekt der Kara - Kirgisen*. Saint Petersburg, 1885.

(بحثٌ متميز فى ميدانه؛ ويركز على الآثار الشفاهية لأسيا الوسطى).

Reichl, K. *Singing the Past: Turkic and Medieval Poetry*. Ithaca, N.Y., 2000. Continues where Radloff left off, a century later.

(يواصل، ويبدأ، هذا المرجع البحث من حيث انتهى Radloff، بعدَ مرور قرن من الزمن. ويركز على مقابلة الآثار الشفاهية التي درسها كلٌ من باري ولورد).

Slatkin, L. M. "Genre and Generation in the *Odyssey*." *METIS: Revue d'Anthropologie du Monde Grec Ancien* 1 (1987), pp.pp. 259–268.

(يقول بأن أنواع الآثار الشفاهية الآدبية يُكمل بعضها بعضًا من حيث التدرج التاريخي ومن حيث تزامنها التاريخي).

Smith, P. "Des genres et des hommes." *Poétique* 19 (1974), pp.pp. 294–312.

(يستخدم المرجع المداخل المتزامنة على نحو دقيق فيما يخص اعتماد الأنواع الأدبية الشفاهية على بعضها بعضا).

Svenbro, J. *Phrasikleia: Anthropology de la lecture en Grèce ancienne*. Paris, 1988.

Svenbro, J. *Phrasikleia: An Anthropology of Reading in Ancient Greece*. Rev. ed. Translation by J. Lloyd. Ithaca, N.Y., 1993.

(يحاول تفنيد التعاريف العامة للقراءة باعتبارها نشاطًا إدراكيًا، كما يدرس العقلية التي تسوي بين مهارة القراءة (الجهرية) وبين قراءة الأعين (التي يقرأ فيها المرء بعينيه الأحرف المكتوبة).

Toelken, J. B. "An Oral Canon for the Child Ballads: Construction and Application." *Journal of the Folklore Institute* 5 (1967), pp.pp. 75–101.

(تطبيقٌ قوي للدلائل الإثنوغرافية المقارنة على مجموعة نصوص شُكِّلت وفق معايير تحديد النص التي وضعها Child).

Zumthor. P. *La Poésie de la Voix dans la civilisation médiévale*. Paris, 1984.

(يستخدم الدلائل النصية لأدب العصور الوسطى لتبيان حركة الآثار الشفاهية عبر التغيرات الكامنة فى روايتها النصية).

Zwettler, M. J. *The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry*. Columbus, Ohio, 1978.

(يدرس التوثيق المتين التي تتسم به نصوص متنوعة فى تاريخ الشعر العربي باعتباره انعكاسًا لأشكال متباينة من الشعر الشفاهي).

تأليف: Gregory Nagy

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الخطابة Oratory

على الرغم من أننا ربما نربط -شكليًا - ممارسة الخطابة فى اليونان القديمة بتطور فن البلاغة فى القرن الخامس قبل الميلاد، فإن الخطابة فى الحقيقة ترجع إلى عصر أقدم بكثير. نجد توظيفًا للمناظرة والخطابة فى عديد من المناسبات حين يخاطب المتكلمون الجمهور العام بشكل مطول نسبيًا، ففي الإلياذة والأوديسا لهوميروس، وهما النصان اليونانيان الأقدم والأوسع انتشارًا. يتم تصوير الرجال المرموقين بأنهم يحوزون الشهرة ليس بفضل كفاءتهم القتالية على أرض المعركة فحسب، بل كذلك بفضل حكمتهم وقدرتهم على إقناع الآخرين بنصائحهم فى المنتديات والمجالس السياسية.

وهناك شخصيتان صاغهما هوميروس، ارتبطا على نحو وثيق بالكفاءة الخطابية. الأول هو نيستور Nestor، وهو رجل دولة عجوز حكيم، وصف بأنه "صاحب الكلام الرزين، متحدث بيلوس Pylos ذو الكلام المتزن المعقول.. الذي تنساب من بين شفتيه قطرات كلام أشهى من العسل" (*Iliad* 1. 247–249). ولو أن نستور يجسد بوضوح الأبعاد الإيجابية للنصائح السياسية المعقولة التي يتم التعبير عنها بواسطة كلام واضح أمين له قوة إقناع، فإن شخصية أوديسيوس Odysseus تنطوي على الطاقات الأوسع للكلمة المنطوقة. اشتهر أوديسيوس كذلك بقدرته على الإقناع والنصح ورسم الاستراتيجيات، لكن هذه القدرة فى حالته، ترتبط على نحو وثيق بالخداع والاحتيال والأكاذيب. ذلك ما نراه من توبيخ الآلهة أثينا على نحو مثير عندما كشفت عن نفسها فى الكتاب الثالث عشر من الأوديسا "أنت - أيها التعس - مخادع للغاية، لا تملّ أبدًا من الألاعيب، إذن

فلن تقلع عن أساليبك فى الغش وحكاياتك اللصوصية حتى فى بلدك. هذه القصص مماثلة لما أنت عليه، لكن هيا، دعنا لا نتكلم عن هذا أكثر من ذلك، لأنني أنا وأنت مشهوران بالماهرة، ما دام أنت بين البشر الفانين أفضل من يقدم النصح والحكايات، وأنا من بين كل الآلهة مشهودٌ لي بالسخرية والحدة" (*Odyssey* 293–299).

إن المكانة المتميزة التي احتلتها هاتان الشخصيتان فى مجمع هوميروس للأبطال تمثل وجهين للخطابة اليونانية لـــ"المدينة الكلاسيكية" فيما بعد. قد يُقرَّظ المتحدثون العظام للقدرة الإقناعية لنصائحهم الحكيمة، وقد يُلعنون بوصفهم مخادعين محتالين، وشعبويين لا تشغلهم سوى مصالحهم الخاصة، يقودون العامة إلى الضلال. وفي حين كان لقدرات أوديسيوس الفضل فى إكسابه شهرة لا تنفد فى الثقافة التي تقدس البطولة التي صورها هوميروس، ففي عالم المدينة الكلاسيكية يقود الاحتفاء بالقدرة المدمرة لمثل هذه "الممارسة الحادة" كُتاب المآسي إلى استخدام شخصية أوديسيوس لتجسيد شخصية السياسي/الخطيب المفتقد للأخلاق والقيم، كما فى مسرحية سوفوكليس *Philoctetes*. ولكي نفهم علة احتلال البلاغة هذه المكانة المركزية والغامضة فى ثقافة المدينة، لابد أن نعود إلى الوراء لننظر إلى طبيعة المؤسسات السياسية والقانونية الكلاسيكية.

السياق المؤسساتي

يضع أرسطو فى الاعتبار مسألة الحجم، فى مناقشته لطبيعة خصوصية المفهوم اليوناني للجماعة السياسية الذي تُعبِّر به كلمة "المدينة polis". فلو أن جماعة سياسية ما صغيرة فى حجمها فإنها لا يمكن أن تكون مدينة، لأنها سوف لا تكون قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي. ويحاجج، من ناحية أخرى، بأنه لو كان حجم السكان ضخمًا جدًا فإنها ستكون أمة وليست

مدينة، لأنه، من بين أشياء أخرى، لن يكون لدى أيٍّ من البشر صوت عالٍ بما يكفي لمخاطبة السكان المحتشدين (*Politics* 1326b1-8). فالمدينة بالنسبة لأرسطو - وهو هنا يمثل الفكر اليوناني والأثيني منه بخاصة - هي تجمع سياسي يحكم نفسه عبر وسيط الكلام المعقول (*logos*). [انظر، **Logos**]

هذه القدرة هي التي تميز الكائنات البشرية عن الحيوانات. فمواطن المدينة، بالنسبة لأرسطو، هو شخص يستخدم القدرة على "أن يَحكم، وأن يُحكم"؛ أي أن يشترك في مؤسسات مدينته السياسية والقضائية. بالطبع، فإن ما يوحي به كل هذا، هو أن الخطابة تقع في قلب حياة المدينة، وهو ما يتحقق على نحو كبير في المدن الديمقراطية. (ويسلم أرسطو بأن تعريفه للمواطنة يتناسب على أفضل نحو مع المدن التي لديها شكل من الديمقراطية). ففي أثينا، وهي المدينة اليونانية التي نعرف عنها الكثير إلى حد بعيد، لم تكن القرارات السياسية والقضائية تُتخذ وراء الجدران المغلقة، لكن في علانية، أمام المواطنين. والآلية التي كانت تُصنع بها تلك القرارات كانت هي الخطابة والمناظرة. تلفت هذه النقطة الاهتمام إلى ملمح آخر حاسم للخطابة اليونانية، هي أنها كانت تُمارس عمومًا في سياق تنافسي. فالمجتمع اليوناني القديم ربما يمكن تصنيفه على أنه مجتمع لا أدري Agnostic(١)، لأن معظم مجالات الحياة السياسية والثقافية تقريبًا كانت مشبعة بروح منافسة قوية. وإذا وضعنا في الحسبان الطبيعة التشاركية للمواطنة، والحكم الذاتي الموصوف فيما سبق، فإن هذا يعني أن المواطنين كانوا يستطيعون - بشكل مبدئي - أن يأملوا في المنافسة على عدد من المناصب العامة المشهورة ذات المكانة. وكان امتلاك ناصية الكلمة المنطوقة ضروريًا لنجاح أي شخص في تحقيق مثل هذه الطموحات.

---

(١) أي: مرتاب لا تحكمه نزعات يقينية. (المراجع).

يصعب على هؤلاء الذين اعتادوا التفكير فى الحياة العامة بمنظورات حديثة أن يقدروا أهمية الخطابة فى الثقافة التي يسودها الطابع الشفاهي لمجتمع مثل أثينا الديمقراطية. سوف يساعد التأمل السريع لطبيعة المؤسسات السياسية الأثينية فى حقبة "الديمقراطية الراديكالية" ومنتصف القرن الخامس حتى أواخر الرابع قبل الميلاد- فى شرح علة ذلك. كانت المؤسستان الأكثر أهمية فى أثينا هما الجمعية التشريعية والمحاكم القضائية. كانت الأولى مفتوحة أمام أي مواطن يرغب فى الحضور. وكان بمقدور أي مواطن (ما عدا هؤلاء الذين عوقبوا بالحرمان من الحقوق القانونية؛ ولم يكن النساء يُعتبرن مواطنين) أن يخاطب الجمعية التشريعية أو يقترح إجراءً يخصها. كان يتم التناقش حول الاقتراحات وكانت القرارات تؤخذ عبر التصويت من قِبَل الحاضرين. كان الدخول فى النقاش يتطلب مخاطبة جمع غفير من الجمهور ربما يتجاوز ستة آلاف مواطن يتجمعون فى مسرح مكشوف من جانبيه amphitheater. كان يتعين على المتكلم أن يطوع صوته ليصل لجمهور بهذا الحجم؛ لم يكن الأثينيون متسامحين بأي حال مع ذوي الصوت الواهن. كان على المرء كذلك أن يكون مستعدًا لأن يعلو صوته على أصوات الاستهجان boos والتمتمات mutterings والصفير catcalls التي يطلقها هؤلاء الذين يخالفونه وجهة النظر. وبحسب ما يخبرنا العديد من نقاد الجمعية التشريعية الأثينية فإن الجمهور (على الأقل من وجهة نظرهم) كان من المحتمل بوجه خاص أن يتبع نصيحة هؤلاء المتكلمين الأكثر مهارة وقوة.

وبحسب ما يتوقع المرء، فإن التدريب على أفضل الطرق لإقناع جمهور مثل هذا كان يُقدره الشباب الطامحون إلى امتهان السياسة. وفي الواقع فإن اليونانيين كانوا يُطلقون على هؤلاء المتنافسين على الأدوار القيادية فى إدارة أمور المدينة Polis – ممن كانوا يُسمون "السياسيين" – البلغاء *rhētors*، أي الخطباء الذين ينخرطون فى أنشطة بلاغية. كانت

البلاغة، من هذا المنظور، غير منفصلة عن النشاط السياسي. ولم تكن مكانة القيادة السياسية هِبَةً لترشيحات الأحزاب السياسية، بل كانت هبة لقدرة المرء على أن يخطب بتناغم ليقنع الجمعية التشريعية بأنه الشخص الذي لديه أفضل نصيحة يمكن إعطاؤها.

ولم تكن المحاكم القضائية أقل عرضة لهيمنة الخطابة. فكما هو الأمر فى السعي وراء مناصب القيادة السياسية فإن القضايا القانونية كان يُنظر إليها على أنها مباراة أو تنافس. كانت القضايا القانونية غالبًا ما توصف فى اليونان بكلمة *agōn*، وتعني صراعًا تنافسيًا. كانت المرافعات، التي سوف نناقشها بالتفصيل فيما بعد، تتكون مما يزيد قليلا على خطبتين متعارضتين. فى المفتتح يستمع القضاة إلى خطبة افتتاحية بواسطة المدَّعي plaintiff ثم خطبة للرد عليها من الدفاع. بعد الخطبتين، يصوِّت القضاة فى التو، من غير أن يتناقشوا حول القضية فيما بينهم.

كان المشاركون جميعًا من المواطنين العاديين. وكان على المتقاضين Litigants أن يتكلموا بالأصالة عن أنفسهم. لم يكن هناك محامون، وإن كان المرء يستطيع أن يستفيد من خدمات كتبة الخطب المحترفين logographos. لكن كان ما يزال على المرء أن يلقي الخطبة الطويلة بنفسه أمام جمهور غفير يتراوح بين ٢٠١ و٥٠١ قاضيًا عاديًا. أن يكون المرء مدافعًا يعني أنه لا يستطيع ببساطة أن يقرأ نصًا معدًا سلفًا لأن المرء كان عليه أن يكيِّف حجته تبعًا للادعاءات التي قدمها المدعي. وهكذا فإنه حتى المواطنين العاديين ممن ليست لديهم أي تطلعات للسلطة السياسية كان من المحتمل أن يجدوا أنفسهم فى هذا المجتمع الذي يشيع فيه رفع القضايا فى مواجهة ضرورة إلقاء خطبة رسمية أمام جمهور كبير. وفي قضايا معينة، كان يتم اختيار القضاة من حشد يتكون من خمسة آلاف مواطن عمرهم أكبر من ٣٥

سنة ممن يتطوعون للقيام بالخدمة (كانوا يمنحون مبلغًا ماليًا صغيرًا في المقابل في مرحلة ما). ونظرا لأن القضاة لم يكن عندهم أي تدريب خاص من أي نوع فإنهم، بمعنى ما، كانوا – فيما يشبه إلى حد كبير – جمهور الحاضرين في الجمعية التشريعية، يمثلون الشعب *dēmos*، أهل أثينا (وبشكل أكثر دقة يمثلون المواطنين الذكور البالغين). للأسباب التي سأوضحها لاحقًا، ويمكن للمرء أن يرى كيف أن التنافس السياسي للجمعية التشريعية استطاع التوغل في المجال القضائي، ومن ثَمَّ كان على الخطباء الأثينيين أن يكونوا مستعدين على نحو متساو للعمل في ظروف المؤسستين كلتيهما.

تطور التقاليد الخطابية في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد

يخبرنا التراث أن الدراسة الرسمية للبلاغة قُدمت للأثينيين في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد. والمتعارف عليه أن الشخص البارز الذي ارتبط بهذا التطور هو جورجياس السوفسطائي، الذي زار أثينا في ٤٢٧ قبل الميلاد. [انظر: السوفسطائيون]. من المؤكد على نحو كبير أن خطابة جورجياس تركت انطباعًا قويًّا على الأثينيين. اشتهر جورجياس بتبنيه للأساليب الشعرية في كلامه للجمهور وأسلوبه بالغ الرقي واضح بقوة في أعماله الباقية القليلة مثل *Encomium of Helen*. وبغض النظر عن مدى دقة تصوير أفلاطون لشخصية جورجياس الحقيقية في محاورته "جورجياس" فإنها بلا شك تصف بدقة الطريقة التي يصطف بها الراغبون في أن يصبحوا مدرسين للخطابة (مثل بولس Polus في محاورة جورجياس) أو شباب السياسيين الطموحين (مثل كاليكليس Callicles) للاستماع إلى شروح خطابية من الشخصيات البلاغية المشهورة. كانوا كذلك يطلبون إرشادات، وكانوا مستعدين لدفع أموال في مقابلها. لقد وصفت طبيعة نوع التربية التي يقدمها مشاهير الخطباء ونقائص هذه التربية في محاورة أفلاطون الشهيرة "فيدروس"،

على الرغم من أنه لابد من تذكر أن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧) لم يكن بأي حال مراقبًا محايدًا. تم تصوير فيدروس فى المحاورة على أنه يحفظ الخطبة التي سمع إلقاءها من ليسياس Lysias - كاتب الخطب والخطيب البارز فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد - ويكرر إعجابه بها. ينتقد أفلاطون المحاكاة غير النقدية والتعليم التلقيني الذي يراه ملمحًا من ملامح التدريب البلاغي المعاصر له. هل يعني هذا - مع ذلك - أن التقاليد البلاغية الأثينية بدأت مع هذا التدريب الشكلي فى فن البلاغة؟ الإجابة الواضحة هي لا، كما نفهم ضمنيًا بالفعل من القسم الافتتاحي حول الخطابة المتضمَّن فيما ذكره هوميرس Homer. فعلى الرغم من أن معرفتنا بالفترات المبكرة غير مكتملة للغاية، فإن السيرة المهنية لبيركليس Pericles، على أقل تقدير، تبرهن على أن البلاغة العظيمة كان يتم تقديرها وممارستها فى أثينا بوصفها أساس القيادة السياسية، وذلك فى وقت سابق كثيرا على زيارة جورجياس لأثينا، وتقديم التدريبات البلاغية الرسمية. كذلك فإن السيرة المهنية للخطيب والسياسي وكاتب الخطب الأثيني المشهور أنتيفون Antiphon تبدأ قبل زيارة جورجياس بأكثر من عقد من الزمان.

يصف ثوسيديدس (ت ٤٠١ قبل الميلاد) أثينا فى تأريخه للحرب البيلوبونيزية *The Peloponnesian War*، وهي تحفل بخطابة سياسية بالغة التطور، وهي علاوة على ذلك الأداة المحورية للتشاور السياسي. يشغل بيركليس مساحة كبيرة من الجزء المبكر من تاريخ ثوسيديدس، حتى وفاته بعد عامين من نشوب الحرب فى عام ٤٣١ تقريبًا. على الرغم من شبه اليقين بأن الخطب - التي كانت أداة رئيسية لتحليله التاريخي - كان يكتبها غالبًا ثوسيديدس وليس المتكلمون الذين يصورهم وهم يلقونها، فإننا مع ذلك لا نستطيع أن نكون واثقين تمامًا من أن تلك النقاشات تعكس الثقافة السياسية والخطابية لتلك الفترة. [انظر، التاريخ **History**].

يصف ثيوسيديدس بيركليس بكلمات تعكس التصور اليوناني للبراعة السياسية بوصفها متضمَّنة على نحو كبير في شخص عظيم كمتحدث بالكلمات ومنجز للأعمال. (التعارض بين الكلمة والفعل مترسخة في الفكر السياسي اليوناني، وفي سياقات أخرى عديدة، منذ زمن هوميروس وما تلاه). ويقدم لخطب بيركليس الثلاث الأول بالتعليق الآتي: "من بين المفوهين كان بيركليس، ابن زينثيبوس، الرجل القائد في عصره بين الأثينيين والأكثر قوة في أفعاله ونقاشاته" (139 .1، ترجمة وارنر، ١٩٥٤). وبفضل ذكائه واتساقه وقوة خطابته، استطاع بيركليس الهيمنة على السياسة في عصره، "ففي إطار ما كان يُسمى بالديمقراطية، كانت القوة بالفعل في أيدي المواطن الرائد" (2. 65). وهكذا، كان بيركليس قادرًا على الفوز دومًا في نقاشاته طوال حياته، وكانت سياسات الجمعية التشريعية الأثينية متطابقة افتراضيًا مع رؤية خطيبها المفوه. ولابد أن يفسر هذا جزئيًا لماذا اقترنت خطب المتكلمين الآخرين الذين يوردهم ثيوسيديس مع نقاشات خطب خصم ما، في حين تقف خطب بيركليس بمفردها. ما سر نجاح بيركليس كخطيب؟ بحسب ما يصف ثوسيديدس، فإن خطابة بيركليس السياسية كانت نموذجًا للتشاور السياسي بوصفه حسابًا عقلانيًا. ففي خطبتيه الرئيسيتين لوضع السياسات في الكتاب الأول والثاني، يفسر لجمهوره العوامل المختلفة التي لابد أن توضع في الاعتبار، ويزن المحاسن والعيوب، ويحلل الاحتمالات المتنوعة والإمكانيات المتقابلة بواسطة أعداء أثينا، ويشرح كيف أن سلسلة الأفعال التي يقترحها سوف تخدم مصالح الأثينيين. وهكذا فإن أحد الملامح المركزية لخطابة بيركليس هو اعتماده على الحجج العقلانية. ومع ذلك ينضاف ملمح آخر إلى القوة الإقناعية لحججه، هو شخصيته. [انظر Ethos]. ويعلق ثوسيديدس بأنه بسبب استقامة بيركليس المعروفة، استطاع قيادة الأثينيين دون إثارة الشكوك بأنه فعل ذلك بدافع من مصالحه الشخصية. وقد مكنه ذلك

من الكلام بصراحة وأمانة مع الجمعية التشريعية، لكي يدفعهم إلى تبني المسار الأكثر حكمة (من وجهة نظره) فى أوقات الأزمة. يستخدم بيركليس نفسه هذه الحجة المأخوذة من شخصيته حين بدأ يدرك أن مصاعب شديدة سوف تنجم عن سياسته لشن الحرب على إسبرطة، على الأقل فى المدى القصير:

"بقدر ما يعنيني الأمر، فإنه لو أنكم غاضبون مني فإنني أعتقد أنكم غاضبون من شخص لديه على الأقل – فيما أظن – الكثير من القدرات كأي شخص آخر، بوسعه أن يرى ما يجب فعله وأن يشرح ما يراه، شخص أحب مدينته وهو أبعد ما يكون عن غواية المال".

على ضوء هذا، فإن ثوسيديدس ربما يؤسس لنموذج الخطيب الذي لا يعبأ بالدهماء، فى مثال بركليس. فالعناصر الجوهرية هي الأمانة فى التعبير عن الرأي، وتقديم الحسابات العقلية للسياسة من منظور بعيد المدى، وسمة الاستقامة الصارمة التي تعطي لحجج المرء قوة إقناعية أعظم. يهيئ ثوسيديدس خشبة المسرح للتقابل بين أولئك القادة الذين ظهروا عقب وفاة بيركليس. لقد سار الأثينيون خلف بيركليس "لأنه لم يطلب السلطة سعيًا وراء أغراض دونية.. [و] لم يكن يتملقهم تحت أي حاجة". على العكس من ذلك كان تابعوه: "فقد كانوا جميعًا فى نفس المستوى، وكان هدف كل منهم أن يحتل المكانة الأولى، فقد تبنى كل منهم أساليب ديماجوجية نتج عنها فقدانهم السيطرة على الإدارة الفعلية للأمور". يصف ثوسيديدس السياسة فيما بعد وفاة بيركليس بأنها عملية تشاور حيث يتبنى فيها الخطباء – فى سعيهم نحو التأثير – أسلوبًا مختلفًا عن النموذج المضاد للشعبوية. جسد ثوسيديدس هذا الأسلوب الخطابي على أوضح نحو فى شخصية كليون Cleon، الذي يعتمد على مهاجمة شخصية الخصم ودوافعه، وإثارة مشاعر الجمهور.

يمسك ثوسيديدس فى سرده المشهور للمناظرة الميتيلنية[^1] Mytilenean Debate بالمعضلات السياسية التي أوجدتها تلك الحالة الجديدة للأمور بواسطة وضع خطبتين إلى جوار بعضهما بعضًا من بين خطب عديدة قُدِّمت فى الجمعية التشريعية الأثينية حين كانت تكافح للوصول إلى قرار. فى موضوع لم يكن فحسب متعلقًا بمصير مدينة (هي مدينة ميتيلين، على جزيرة ليسبوس) استسلمت للأثينيين، لكنه كان كذلك ملمحًا مهمًا للخطاب العام فى أثينا. كان معنى هذا بالنسبة لثوسيديدس وعديد من المفكرين الأثينيين الآخرين على الأقل أن المصير السياسي لديمقراطية أثينا (وإمبراطوريتها) على المحك في هذا الصراع على طبيعة الخطابة ودورها السليم كوسيط لاتخاذ القرار السياسي.

لقد ثارت مدينة ميتيلين Mytilene على اليونانيين تحت تأثير عصبة الأوليجاركية[^2] oligarchic faction. وبعد حصار طويل استسلمت المدينة، وقررت الجمعية التشريعية الأثينية "في حالتها المزاجية الغاضبة" أن يموت ليس كل الأوليجاركيين (الذين ثاروا عليهم) فحسب بل كل الذكور الذين يوجدون فى المدينة، وأن يبيعوا كل النساء والأطفال عبيدا. لا يقول لنا ثوسيديدس أي شيء تقريبًا عن الخطب التي أدت إلى هذا القرار. ويركز بدلا من ذلك على الجدل الذي حدث فى اليوم التالي "عندما حدث *تغير مفاجئ فى المشاعر* وبدأ الناس يرون إلى أي حد كان قرارهم وحشيًا وغير مسبوق تتركز هذه المناظرة بدرجة دالة على الموضوع العام المتعلق بما إذا كان الغضب المتصاعد والمشاعر الأخرى أم الحساب العقلاني للمصالح الأثينية هو الذي يجب أن يكون مصدر الأسلوب الإقناعي الصحيح الذي يتم توظيفه

[^1]: (١) نسبة إلى مدينة ميتيلين الواقعة في الشمال الشرقي من بحر إيجة. (المراجع).
[^2]: (٢) حكومة تسيطر عليها قلة من أجل مصالحها الذاتية. (المراجع).

فى الخطابة السياسية. [انظر، Pathos] وليس من قبيل المصادفة، إذن، أن يصف ثوسيديدس كليون Cleon الذي يتحدث مدافعًا عن تدمير ميتيلين كما يلي: "كان معروفًا بين الأثينيين بعنف شخصيته، وفي هذا الوقت مارس إلى حد بعيد التأثير الأكبر على الشعب" (3. 36). وفي الواقع فإن خطبة كيلون تمثل البورتريه الذي رسمه ثوسيديدس لجوهر الخطابة الديماجوجية.

لقد سُكب الكثير من المداد فى التعليق على المناظرة الميتلينية. مع ذلك فإن هناك ثلاث نقاط لها أهمية مركزية فى خطبة كيلون بالنسبة لأهداف هذا المقال. الأول، أنه يهاجم تصور أن المناظرات الخطابية هي النهج الأمثل للمدينة الديمقراطية لكي تحكم نفسها، وذلك بقوله: "لقد مررت شخصيًا بعديد من المناسبات التي جعلتني ألاحظ أن الديمقراطية غير قادرة على حكم الآخرين، وأنا أصبح مقتنعًا بهذا أكثر عندما أرى كيف تغيرون رأيكم بشأن الميتلينيين". ثانيًا: هو يهاجم خصومه بادعاء أن أي شخص حث الأثينيين ليتجادلوا حول أي السياسات التي سيتبعونها ستكون أكثر حكمة، لابد أنه فعل ذلك بدوافع مشكوك فيها أو مدانة بشكل كبير. وهكذا يدَّعي أن خصومه الذين يُطالبون بالمناقشة الوافية للمسألة هم "مثقفون"، "غالبًا ما يجلبون لوطنهم الدمار" فى سعيهم لاستعراض قدراتهم، وأنهم "قد حصلوا على رشوة لكي يؤلفوا خطبًا منمقة سوف يحاولون بواسطتها أن يُزيحوكم عن الطريق المستقيم". (38 :3) ثالثًا: أن الطريقة السليمة للجمعية التشريعية الأثينية للوصول إلى القرارات هي فى التوقف عن إضاعة وقتها فى سماع الخطب الماهرة، وأن تتصرف بسرعة قبل أن يهدأ غضبهم 2:83). إن الدور الصحيح الذي يجب أن يلعبه الخطيب، كما تم شرحه بواسطة القوة المركزية لخطبة كليون، هو أن يستخدم كلماته لإثارة غضب الجمهور وتشجيعهم على التصرف انطلاقًا من ذلك.

لإنجاز نقد عنيف لكليون، يضع ثوسيديدس –عبر شخصية غير مشهورة يسمَّى ديودوتس – النموذج اللاديكاجوجي للمساجلة الخطبية بوصفه الأداة الوحيدة المتاحة للحسابات العقلانية للسياسة، وللحوكمة الرشيدة. وتستحق كلماته الافتتاحية أن تقتبس بكاملها: لا ألوم هؤلاء الذين اقترحوا أن نتناقش مجددًا بشأن موضوع الميتيلني، وأنا غير مقتنع بوجهة النظر التي ترى أن وجود مشاورات متكررة حول المسائل المهمة هو أمر سيئ. فالتسرع والغضب – فيما أرى – هما أخطر العقبات التي تحول دون الوصول إلى مشورة حكيمة.. وأي شخص لا يقتنع بأن الكلمات لابد وأن تقودنا إلى الأفعال، إما أنه غبي أو شخص يسعى لتحقيق مصالحه الخاصة؛ فهو غبي لو تصور أنه من الممكن التعامل مع احتمالات المستقبل عن طريق أي وسيط آخر.. إن المواطن الصالح – بدلا من محاولة إرهاب المعارضين – يجب عليه أن يُبرهن على قضيته بواسطة حجج معقولة ..(٣,٤٢)

يقدم ثوسيديدس للقراء سلسلة من الخطباء والقادة (من أثينا وإسبرطة وسيراقوزة) جسدوا نموذجه في الخطابة. وفيما يتعلق بهذا الشأن، فإنه يتباين بشكل جذري مع أفلاطون – أكثر النقاد القدامي عنفًا في نقد الخطابة – الذي أدان في محاورته جورجياس حتىَ رجالا مثل بيركليس وتيمستوكليس بوصفهم مجرد قوادين للغوغاء.

في حين آمن أفلاطون (حتى في أكثر آرائه أريحية كما صاغها في محاورة فايدروس) أن الخطابة تأمل في أحسن حال أن تكون خادمة مفيدة للفلسفة فإن رؤية ثوسيديدس مختلفة على نحو تام وتقدم تبصرات مهمة بشأن الطريقة التي نظر بها الأثينيون إلى الخطابة، وهم أشهر ممارسيها اليونانيين. لقد كان ثوسيديدس مدركًا على نحو حسن للضرر الذي يمكن أن تُحدثه الخطابة للعملية السياسية. وهو في الواقع في روايته لأحداث الحرب الأهلية

فى كورسيرا، من خلال "المناظرة الميتلينية"، وفي غيرها من المقطوعات، يعرض بوضوح شامل ماهية الضرر الذي يمكن أن يقع بالفعل عندما يصبح الخطاب العام منتهكًا بواسطة قادة أنانيين تحت وطأة حرب أو أزمات وطنية. لكنه في الوقت نفسه – وفق حجة ديودوتس – يعي أن الجماعات السياسية المحكومة ذاتيًا (على عكس تلك التي يحكمها الطغاة) ليس لها من خيار آخر إلا أن توظف الخطاب الإقناعي لأن اللوجوس (اللفظة، الكلام، الحجة، الخطاب، العقل) هو الوسيط الوحيد الذي يمكِّن الكائنات البشرية من أن تحكم تجمعًا سياسيًا حسن التنظيم حكمًا رشيدًا. وهو – فى هذا الشأن – قريب للغاية من وجهات نظر أرسطو التي سبق أن ذكرتها. وهو يعبر أيضًا عن الفهم الثقافي الشائع للخطابة فى المجتمع الأثيني. ويجب ألا تعمينا خطبة أفلاطون المقرعة عن حقيقة أن الأثينيين كانوا مدركين جيدًا لمخاطر الخطابة. هذه المخاطر تُكتشف فى الكوميديا والتراجيديا وكتب التاريخ وخطب الخطباء الأثينيين أنفسهم. هذا الوعي يتضح كذلك فى اتجاه الأثينيين نحو محاكمة الخطباء الذين شعروا –خطأً أو صوابًا – بأنهم قادوهم إلى الضلال ومعاقبتهم عقابًا قاسيًا. لكنهم أدركوا أيضًا أن الديمقراطية الحقة والخطابة أمران غير منفصلين. وفي الواقع فإنه – بحسب مفردات ديودوتوسDiodotus – فإن المسائل التشاورية (السياسية) التي تواجه جماعة سياسية ما "لا يمكن التعامل معها بأي وسيط آخر غير الخطابة". [انظر **Deliberative genre**].

يقدم لنا ثوسيديدس وجهة نظر؛ هي وجهة نظره حول كيفية تطور الخطابة فى أواخر القرن الخامس منذ استخدامها على يد بيركليس من كونها وسيلة لتوجيه الشعب *dēmos* نحو فعل حكيم، إلى هويتها الممتحنة حين ظهر جيل جديد من الخطباء بعد وفاة بيركليس. وبشكل ما، يمكن قراءة **تاريخه** على أنه كتالوج للإمكانيات المتاحة أمام الخطباء فى ظل ظروف الأزمات

حين تجابَه الدول بضرورة اتخاذ قراراتها الأكثر صعوبة. كان الكثير من هذه الظروف لا يزال موجودًا فى القرن الرابع، العصر الذهبي للخطابة الإغريقية، وظل للقلاقل والتنازعات التي أنتجتها حضور قوي. جزء من رؤية ثوسيديدس الحاسمة للخطابة يتمثل فى أن بيركليسَ هو أعظم ممارسي فن الخطابة فى عصره. فى حين سيعتبر خطباء آخرون مثل شيشرون فى أواخر العصر اليوناني أن ديموستين (٣٨٤ - ٣٢٢) هو أعظم متكلم أثيني، وقد يكون المستقر الآن هو أن أفضل خطبة إغريقية ليست لواحد من بين مشاهير الخطابة اليونانيين العشرة. (وعلى الرغم من أن هذا المبدأ تم تأسيسه لاحقًا فإنه لعب دورًا كبيرًا فى تحديد أي أعمال الخطباء ستبقى. هؤلاء الخطباء الإغريق العشرة العظام هم أنتيفون وأندوسيدس وإيزوقراط وليسياس وإيزاوس وديموستين وآيسشين وليكورجوس وهيبريدس وديناركوس).

أما الخطبة الأعظم - فى المقابل - فهي خطبة بيركليس الجنائزية، والتي جاءت فى الكتاب الثاني لثوسيديدس (35–46). إنها ليست خطبة سياسيةً ولا قضائية، بل هي بالأحرى تندرج فى الفئة الثالثة من الخطابة أي الخطابة البيانية أو الاستعراضية: أي الخطب التي يتم إلقاؤها فى مسابقات أو فى مناسبات تذكارية عامة عظيمة. [انظر Epideictic genre]. هذه الخطبة الجنائزية (دع جانبًا الموضوع الشائك الخاص بإلى أي مدى تعبر عن مفردات بيركليس ذاته) برهنت بحيوية على قوة الخطابة العظيمة على تجاوز قيودها الخاصة وعلى المناسبة التي ألقيت فيها. وتعرض رؤية لهوية أثينا بوصفها جماعة سياسية تعبر عن مُثل الديمقراطية الأثينية وعن الرسالة الثقافية لأثينا بقوة عظيمة بما يكفي لتلهم عصورا تالية بأن يشكلوا أنفسهم وفقًا لبناء متخيل للعصر البيركلي. لقد ظهر التقابل بين تلك المثل ووقائع السلوك الأثيني تحت ضغوط الحرب والكوارث الأخرى فى الوصف التالي للطاعون، وكذلك فى الحوار الميليني Melian الشهير فى الكتاب الخامس (2. 47–54).

في حين أن بيركليس كانت لديه عبقرية فطرية للخطابة، كما تتمثل فى خطبته الجنائزية وخطبه الأخرى، فإن معلمي الخطابة ادعوا أنهم قادرون على تدريب هؤلاء الذين يفتقدون هذه الهبة ليكونوا متكلمين مؤثرين وقادة. هذا النوع من التعليمات أضفى طابعًا مهنيًا ومعياريًا على الخطابة، وشجع على الإيمان بأن أي شخص يستطيع أن يصبح خطيبًا، وأن الأمر ليس مقصورًا فحسب على قلة نادرة من المتكلمين العظام الموهوبين بالفطرة مثل بيركليس. هنا تكمن بداية نقاش استمر بين البلاغيين لقرون لاحقة (كما يتضح فى كتابي "الخطابة" و"بروتس" لشيشرون) حول دور التدريب فى مقابل الموهبة، وما إذا كان الخطيب العظيم حقًا، فى مقابل الخطيب الماهر فقط، يمكن أن يظهر إلى الوجود من خلال هذه التربية. لقد أدى إتاحة التدريب الشكلي وتوزيع كتب البلاغة التعليمية فى أثينا إلى توسيع دائرة النفاذ إلى الخطابة، على الأقل من قِبَل هؤلاء الذين كانوا يستطيعون دفع تكلفة التدريب أو الكتب. هذه مجموعة محدودة لكنها بكل تأكيد أوسع بكثير من النخبة الاجتماعية الطبيعية التي انتمى إليها بيركليس. وفي الواقع فإن جزءًا من الاتهام بالديماجوجية كان يرجع إلى أن الخطابة مكنت شريحة "أدنى" من المنافسة بنجاح على إحداث التأثير السياسي. فقد قدم التدريب البلاغي إمكانيات للحراك الاجتماعي والقدرة على شق الطريق نحو الزعامة للشباب الطموحين ممنْ استطاعوا امتلاك تقنياتها. ومع ذلك، فإن معظم الزعماء، فيما عدا استثناءات بالغة الأهمية، أتت من الشريحة الأغنى لأنها امتلكت كلا من القدرة على دفع أجور معلمي الخطابة ورفاهيات القدرة على مواصلة السعي لحيازة مناصب سياسية. وبتحولنا إلى الخطابة فى القرن الرابع سوف ندرس كيف قامت الخطابة بوظائف فى منافسات هذه النخبة فى مجال السياسة والقضاء الأثينيين.

القرن الرابع: البلاغة تؤدي مهمة العصر

إن فهمنا لأثينا فى القرن الرابع تشكله البلاغة على نحو كبير. ففي حين أن المؤرخين (مثل هيرودوت وثوسيديدس) والمسرحيين (مثل إسخليوس وسوفوكليس ويوربيدوس وأرسطوفانيس) هم مرايا أثينا فى القرن الخامس، فإننا نرى المجتمع والسياسة الأثينية فى القرن الرابع- إلى حد بالغ الدلالة - من خلال عيون الخطباء، خاصة ديموستين وإيسشين وإيزوقراط وإزاوس Isaeus. كانت الفلسفة هي التراث الفكري الرئيسي الآخر الباقي من القرن الرابع. [انظر الفلسفة، مقال ضمن البلاغة والفلسفة]. لقد كان إيجاد علاقة مناسبة بين الفلسفة والبلاغة هو أحد المشاريع الفكرية العظيمة للقرن الرابع. وهي علاقة تحولت من الموقف العدائي أفلاطون إلى محاولات إيزوقراط وأرسطو لوصف إطار تكاملي بينهما. وفي حين أن مدرسة أفلاطون الفلسفية (الأكاديمية)، وكذلك فيما بعد مدرسة تلميذه أرسطو) مثلت النمط الأول من أنماط التعليم العالي الأثيني فإن تدريب إيزوقراط للشباب الطموح (الذي كان يستطيع تحمل أجره الباهظ المشين) على الخطابة والمهارات الأخرى المطلوبة للزعامة السياسية مثل النمط الآخر. وعلى الرغم من أن مجموعة أعمال إيزوقراط تشمل العديد من الخطب، فإنه نفسه لم يكن ممارسًا للخطابة؛ ربما بسبب صوته الضعيف أو علل أخرى. لقد بدأ حياته العملية بكتابة الخطب القضائية مقابل أجر، لكنه تحول فى القرن الرابع إلى تعليم السياسيين - الخطباء، وكتابة نصوص حول مجموعة من الموضوعات السياسية، أخذت شكل الخطب، لكنها نشرت فحسب فى صيغ مكتوبة. [انظر **Forensic genre**]. ربما كانت أكثر إسهامات إيزوقراط فى الخطابة شهرة هي محاولته البرهنة على أن الفضائل الأخلاقية والإقناع التأثيري فى المجال السياسي متكاملان، وهي فرضية دحضها أفلاطون بشدة. ومع ذلك يمكن القول استنادًا إلى الخطب التي وصلت إلينا من القرن الرابع إن نموذج إيزوقراط التعليمي ترك أثرًا بارزًا على الممارسة البلاغية.

لو أن بيركليس هو الشخصية التي تعطي السياسة فى عصره هويتها، فإن ديموسنين هو الذي احتل مكانة مشابهة فى أثينا القرن الرابع. والفروق البارزة بينهما تخبرنا بالكثير عن التحول فى الثقافة الأثينية السياسية عمومًا وفي الخطابة على وجه الخصوص. فعلى خلاف بيركليس – الذي كانت أنشطته منصبة على الحقلين السياسي والعسكري – فإن ديموستين حاز شهرته فى البداية كخطيب محترف وكاتب للخطب. لم يحظ بيركليس بالثروة العريضة فحسب بل بالنسب الأرستقراطي أيضًا، وبالجمع بين الأمرين إضافة إلى مواهبه الفطرية أمكنه أن يحظى فى زمانه بدور الزعامة فى المجتمع. ومع ذلك، فإن ديموستين – الذي لم تكن أسرته فقيرة بأي حال – كان يكافح فى البداية ليصنع لنفسه اسمًا فى المحاكم القانونية. وفعل ذلك من خلال سبيلين أحدهما هو رفع دعاوى قضائية أسرية طويلة الأمد بشأن ميراثه، والثاني هو كتابة الخطب للزبائن الذين طلبوا خدماته. وبعد ما يقرب من عقد من بناء سمعته من خلال مثل هذا النشاط، دخل إلى الحياة العامة فى عام ٣٥١ بأول خطبه السياسية. ومع أنه ركز فى الشطر الأخير من حياته المهنية على أنشطته السياسية، فإنه استمر فى الاشتغال فى المحاكم لأنها أصبحت فى عصره حقلا ملحقًا بالنزاع السياسي. وقبل أن نفحص هذه الظاهرة، يجدر بنا أن نتأمل حالة الخطابة القضائية فى القرن الرابع.

من الجلي أن ديموستين كان أستاذًا فى خطابة المحاكم. وبغض النظر عن سيطرته على التقنيات البلاغية والأسلوبية، فإن المرء ربما يجد أيضًا في بعض خطبه أفضل العروض للمسائل التشريعية فى قانون الخطابة Canon للقرن الرابع بأكمله. وما إن قيل ذلك، فمن الصحيح أيضًا، مع ذلك، القول إن القوة الدافعة فى خطابته النيابية يتم نقلها بواسطة الاستمالة العاطفية والهجاء (*pathos*). يقوم ديموستين بتشكيل هذه الاستمالة العاطفية بمهارة تامة وكثافة عظيمة. وفي الواقع كان مشهورًا بين القدماء بكثافة وجاذبية خطبه

القضائية والتشاورية. وفي خطب تتميز بالطول الكبير والتعقيد، كان قادرًا على تنظيم كم هائل من الحقائق والحجج والسرديات المساندة، والدعاوى، فى حين يحافظ فى الوقت ذاته على نبرة عاطفية عالية، وتركيز مقنع على نقطة محورية، يضرب عليها بدأب مرة بعد أخرى. وبفعله ذلك، فإنه لا يستحقر فى أعماله أي اتهام صغير يمكن أن يوجهه لخصمه، ولا ينظر إلى أي استمالة عاطفية بوصفها مبالِغة فى العاطفية. على سبيل المثال، فى قضية رفعها ضد رجل أثيني بارز ومؤثر وبالغ الثراء يُدعى ميدياس Meidias، يتجاوز كثيرًا الأعمال التي تتم مناقشتها قانونيًا؛ لكي يرسم صورة لخصمه بأكثر الكلمات سوادًا. فبعد أن وضع قائمة بأفعال ميدياس الشريرة التي هي بلا حصر، والتي طالت أثينيين آخرين، يثير سؤالا عن مولد ميدياس، مدعيًا أنه فى الواقع ذو أصول أجنبية، ومن ثمَّ فإنه ليس مواطنًا حقيقيًا: ومن منكم لا يعلم القصة الغامضة لميلاده – التي تشبه الميلودراما؟... الأم الحقيقية التي ولدته كانت الأكثر حكمة بين الخالدين، أما أمه ذات الصيت السيئ التي تبنته فقد كانت أغبى النساء على وجه البسيطة. ألا تسألون لماذا؟ الأولى باعته فور مولده، أما الثانية فقد اشترته فى حين كان بوسعها أن تحصل على بيعة أفضل بالسعر نفسه إن هي أحسنت المساومة. والآن، على الرغم من أنه أصبح يمتلك مزايا لا يستطيع ادعاءها [أعني أن يكون مواطنًا أثينيًا]، فإن أصله البربري الحقيقي وكراهيته للآلهة يسيطران عليه بقوة (*Meidias* 149–15، ترجمة ج.إتش.فينس).

كان ديموستين ماهرًا فى التلاعب بمشاعر جمهوره بالقدر نفسه. ففي هذه الخطبة أثار بمهارة خوف القضاة وغضبهم وحافظ عليه، موحيًا بأنهم قد يكونون الضحايا القادمين لهذا المرعب المتوحش الذي تجعله ثروته يظن أنه فوق القانون. كذلك يعزز من الاستمالة العاطفية لمشاعر الخوف والغضب من خلال خلق شعور بالشفقة نحو هؤلاء الذين وقعوا ضحية لميدياس بالفعل.

ففي واحدة من أكثر الاستثارات الانفعالية براعة فى البناء فى كل التراث الخطابي، يقدم لجمهوره رجلا هو ستراتو Strato الذي فقد حقوقه فى المواطنة (التي تشمل الحق فى التحدث فى المحكمة أو فى مجلس الشيوخ) بسبب مناورات ميدياس:

"إنني أدعو ستراتو، ضحية هذه المحاكمة، للمثول؛ لأنه بلا شك سوف يكون قادرًا على الوقوف فى ساحة المحكمة. هذا الرجل، أيها الأثينيون، ربما كان رجلا فقيرا، لكنه بالتأكيد ليس رجلا شريرًا. لقد كان مواطنًا أثينيًا يومًا ما، وخدم.. فى كل الحملات العسكرية، لم يقترف خطئًا، لكنه يقف اليوم صامتًا، لم تُنتزع منه ميزاته العامة فحسب، بل انتُزِع منه أيضًا حقه فى الكلام أو الاحتجاج؛ فهو غير قادر حتى على أن يخبركم ما إذا كان ما عاناه عدلا أم ظلمًا. لقد تحمل كل هذا.. بسبب ثروة وكبرياء ميدياس، لأنه هو نفسه فقير، وبلا أعوان، ومجرد واحد من العامة" (*Ag. Meidias* 95–96).

وعلى الرغم من أن مثل هذه التقنيات استخدمت على نطاق واسع فى الخطابة القانونية الأثينية، فإن بعض الممارسين كانوا أكثر اعتدالا فى أسلوبهم وتجنبوا الخداع الزائد عن الحد الذي يجده المرء لدي ديموستين أو خصمه أيسشين Aeschines. ففي العديد من خطب ليسياس يتأسس عرض القضية على الحقائق، وتكون المشاعر رزينة. وهذا ما نجده حتى لدى إيزاوس، وهو متخصص فى قضايا الميراث، اتسمت خطبه بالحجج العقلية التي تحلل الحقائق، وتزن الاحتمالات. بالطبع وظف إيزاوس وليسياس أدوات الاستمالة العاطفية والأخلاقية، لكن التوازن والنبرة مختلفة للغاية عادة. فما الذي يفسر هذا الاختلاف فى أساليب الخطابة؟

يوجد تقابل دال بين خطابة ديموستين القضائية والعديد من الخطب التي ألقاها فى سياقات سياسية. وعلى خلاف ليسياس وإيزاوس، كان ديموستين

منخرطًا فى سباق على القيادة السياسية فى أثينا. كان ديموستين وخصومه فى رفعهم للقضايا أمام المحاكم الديمقراطية، يضعون شخصياتهم العامة، وهويتهم الشخصية والسياسية على المحك، لأنهم كانوا يعلمون أنه فى مثل هذه الحالات فإن قرار القضاة سوف يكون إلى حدٍّ كبير مؤسَّسًا على تقييم حياتهم وعلى وجهة نظرهم إلى الخصوم لا على موضوع التقاضي الذي أدى بهم إلى الذهاب إلى المحكمة. وهكذا كان لديه القليل للغاية من حرية ألا يتبنى تقنيات مثل اغتيال الشخصية التي يقاضيها، لأن هذا - كما سنرى فيما يلي - هو السبيل الوحيد لكسب التنافس السياسي الذي يخوضه ديموستين.

إن الإعجاب الذي حازه من المعلقين المحدثين يرجع على نحو كبير إلى سياساته المضادة للمقدونيين كما تم التعبير عنها فى خطابته السياسية. لقد بنى ديموستين شخصيته السياسية بشكل كبير من خلال محاولته حشد أثينا لمواجهة المخاطر التي تواجه استقلالها نتيجة تنامي قوة المقدونيين تحت حكم فيليب. وفي سلسلتين من الخطب، معروفتين باسم *Philippics* & *Olynthiacs*، يكرس كل مهارته وطاقته لأجل هذا الغرض. تقوم هذه الخطب إلى حد كبير على تحليل متنوع للقضايا السياسية والعسكرية التي سوف تخدم مصالح الأثينيين إلى أقصى مدى. وفي حين نجح بيركليس فى إقناع الأثينيين باتباع سياساته، لم يتمكن ديموستين مطلقًا من تحقيق مثل هذه التأثير المتميز الذي لا يُختلف عليه تقريبًا. مما لا شك فيه أنه كانت هناك أسباب عديدة وراء فشل خطابة ديموستين بانتظام غالبًا فى إقناع الأثينيين باتباع سياساته. أحد هذه الأسباب ربما كان عدم قدرته على تأسيس صورة الشخص الذي لا غبار على نزاهته، وهو ما رآه ثوسيديدس حجر الزاوية فى نجاح بيركليس كخطيب وقائد. وربما كانت نشاطات ديموستين كمؤلف خفي للخطب التي يلقيها آخرون والجدل الذي كان يثيره من العوامل التي قوضت شخصيته،

لأن النشاطين كليهما كانا مشكوكًا فيهما فى الثقافة السياسية الأثينية فى القرن الرابع قبل الميلاد. كذلك وجد مذنبًا، فى أواخر حياته المهنية، فى قضية قبول رشوة. لكن ربما كان هناك تفسير آخر له ارتباط بالخصومة السياسية فى أثينا فى القرن الرابع قبل الميلاد.

في عصر ديموستين، كانت المحاكم الأثينية ميدانًا ثانويًا يتم فيه التباري على المكانة المرموقة بين النخبة الأثينية. وقد تورط ديموستين طوال حياته المهنية فى صراعات طويلة المدى، سعى فيها خصومه السياسيون إلى استخدام المحاكم كسلاح فى صراعاتهم معه. حفلت الخطابة القضائية فى تلك الفترة بالموضوعات البلاغية المتنوعة المرتبطة بالدور الذي تلعبه العداوة الشخصية فى التقاضي [انظر Topics]. كانت مقاضاة ديموستين لميدياس، التي تمت مناقشتها فيما سبق، أحد الأمثلة لهذا السلوك العدائي. وهناك خصومة ربما كانت أكثر شهرة هي خصومة ديموستين للخطيب أيسشين. كان صراعهما المرير للسيطرة على السلطة قد بدأ أمام الجمعية التشريعية – حيث كان لكل منهما رأي مختلف من المقدونيين –، وأيضًا أمام المحاكم. وقد أدى هذا إلى أن يتهم أحدهما الآخر بارتكاب التملق الذليل sycophancy (دعوى قضائية كيدية لأجل تحصيل مغنم شخصي أو مالي)، وهو نوع من السلوك كان مذمومًا بشدة فى الثقافة السياسية الأثينية.

كان شن الهجوم بواسطة الدعاوى القضائية إما أن يكون بشكل مباشر أو غير مباشر. فعلى سبيل المثال، استطاع أيسشين أن يقاضي أحد مساعدي ديموستين فى قضية خلّدها فى خطبته "ضد تيمارخوس *Against Timarchus*"، استخدم فيها ببراعة متناهية أساليب الاستمالة العاطفية والانتقادية ليثير اشمئزاز الجمهور تجاه خصمه.

وأدت القضية إلى تأجيل مقاضاة ديموستين لأيسشينيس نفسه، فيما يتصل بسلوكه أثناء وجوده فى سفارة إلى فيليب. وقد واجه كلاهما الآخر مباشرة مرة أخرى كما ورد فى مؤلف ديموستين "حول السفارة الزائفة *On the False Embassy*" وفي مؤلف أيسشينيس "حول السفارة *On the Embassy*"، أو على نحو أكثر شهرة فى خطبتيهما المتعارضتين "ضد كتيسفون *Against Ctesiphon*" لأيسشين و"حول التاج *On the Crown*" لديموستين. يدافع ديموستين فى هذه الخطبة الأخيرة عن حياته المهنية بأكملها، لكنه يهاجم شخصية أيسشين بكل الوسائل التي يمتلكها. هذه الخطبة لم يعتبرها بعض النقاد أفضل خطب ديموستين فحسب، بل أيضًا الأعظم من بين التراث البلاغي بأكمله. وربما يدعو للسخرية أن تكون أشهر خطب ديموستين هي خطبة يلعب فيها الانتقاد الشرس لشخصية الخصم والمناورات العاطفية مثل هذا الدور البارز. فقد تجلى نجاح مثل هذه التكتيكات، وكذلك عِظم ما كان موضوعًا على المحك فى مثل هذه التحديات البلاغية من خلال حقيقة أن أيسشين تعرض للمهانة بسبب خسارته للقضية، وترك أثينا تجنبًا لدفع غرامة ضخمة لأنه لم يحصل على خمس الأصوات. لقد انتصر ديموستين.

ولأن ديموستين اشترك بفاعلية فى ثقافة سياسية يجُرُّ فيها الخطباءُ خصومهم إلى ساحات القضاء الشعبي فى قضايا كان اغتيال شخصياتهم الأداة الأساسية فيها، لم يكن من المستغرب أنه لم يكن قادرًا على أن يرفع نفسه فوق خصومه بنزاهة شخصية لا ريب فيها، على طريقة بيركليس. وربما أدى اللجوء إلى المحاكم كآلية للشعب للتوسط فى الصراعات حول الفوز السياسي إلى استقرار الديمقراطية الأثينية فى القرن الرابع، لكنه ترك بالتأكيد سمعة معظم المشاركين فى العملية مجروحة. لقد هيمن الخطباء العظام على السياسة فى أثينا القرن الرابع، أو أولئك الذين مارسوا فنهم بمهارة تقنية كاملة. لكنهم - مع ذلك - لم ينجحوا فى النهاية فى تجاوز

الموقف المتناقض حول البلاغة والذي ظل مصاحبًا على نحو مزمن لازدهارها كأحد الأشكال المركزية للتعبير السياسي فى العالم اليوناني الكلاسيكي. تلك، على الأقل، كانت أسس تقاليد الخطابة التي امتدت من اليونان القديمة حتى روما الجمهورية، وصولا إلى عصر ازدهار النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوروبي (عندما نُظر إلى "الخطابة" بوصفها مشتملة على الشعر كذلك)، ويمكن المحاجة بأن تلك التقاليد انتهت مع الخطباء العظام للعالم الناطق بالإنجليزية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وظهور التكنولوجيا الحديثة فى القرن العشرين [انظر **Public speaking**، وانظر أيضًا البلاغة الكلاسيكية **Classical rhetoric** والقانون **Law**].

قائمة مصادر ومراجع

يمكن الرجوع إلى كل خطب الخطباء الأثينيين العظام فى ترجمات باللغة الإنجليزية فى إصدارات مكتبة لويب Loeb Library للخطباء الأفراد، مصحوبة كذلك بالأصل اليوناني فى صفحة مقابلة. يمكن الرجوع إلى ترجمات فرنسية فى إصدارات بيود Bude، مصحوبة كذلك بالنص اليوناني. هناك أيضًا مجموعات من مختارات الخطب اليونانية مثل R. Connor"s *Greek Orations* (Ann Arbor, 1966). لا يزال الكتاب الألماني الكلاسيكي *Die attische Beredsamkeit* الشرح الأمثل للخطابة اليونانية، ولم يتم تجاوزه فى مجاله كعمل مرجعي.

Cohen, D. Law, Violence, and Community in Classical Athens. Cambridge, U. K., 1995.

يفحص هذا الكتاب دور البلاغة والخطابة فى الدعاوى القضائية والسياسة الأثينيين، ويقدم تأويلا جديدًا للدعاوى القضائية وارتباطها بالتوسط فى الخصومة، والصراع فى أثينا الديمقراطية.

Connor, W. R. *The New Politicians of Fifth Century Athens*. Princeton, 1971. A seminal account of fifthcentury Athenian politics and, hence, an important work on the political oratory of the period.

مساهمة أساسية حول السياسة الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثمَّ فهي عمل مهم حول الخطابة السياسية فى تلك الفترة.

Dover, K. *Lysias and the Corpus Lysiacum*. Berkeley, 1968.

العمل القياسي حول ليسياس Lysias ومدونة خطبه، كتَبه أحد أعظم العلماء الكلاسيكيين فى عصرنا.

Finley, M. I. "Athenian Demagogues." *Past and Present* 21 (1962), pp. pp. 3–24.

مقال تأسيسي حول الشعبوية demagogy، ومعناها ودورها فى السياسة الأثينية.

Guthrie, W. *The Sophists*. Cambridge, U. K., 1971.

عمل مرجعي قياسي حول الخلفية الفكرية للحركة السوفسطائية، يشمل ارتباطها بالخطابة. ويغطي شخصيات مهمة فى تطور البلاغة اليونانية، مثل جورجياس.

Hansen, M. H. The Athenian Assembly in the Age of Demosthenes. New York, 1987; and The Athenian

Page 564 / 837

Democracy in the Age of Demosthenes. Oxford, 1991.

عملان مرجعيان مهمان حول كتابات الجمعية التشريعية الأثينية Athenian Assembly وممارسة الديمقراطية فى عصر الخطباء.

Harris, E. *Aeschines and Athenian Politics*. New York, 1995.

أحدث دراسة وافية حول الخطيب أيسشين، وخصومته مع ديموستين Demosthenes، ودوره المهم فى السياسة الأثينية فى القرن الرابع.

Jaeger, W. *Demosthenes: The Origin and Growth of His Policy*. Berkeley, 1938; and *Paideia: The Ideals of Greek Culture*. 3 vols. New York, 1939–1944.

أول هذين الكتابين يفحص سياسة ديموستين، كما تُرى بشكل أساسي من خلال خطابته. الثاني هو عمل كلاسيكي حول المثل اليونانية العليا فى التربية، ويحتوي على مناقشات مهمة لشخصيات مرموقة مثل إيزوقراط فى سياقهم الفكري.

Jebb, R. C. *The Attic Orators from Antiphon to Isaeos*. 2 vols. London, 1875–1876.

لا يزال عمل جيب – مثل عمل بلاس عاليه – قيّمًا بوصفه عملا مرجعيًا.

Kennedy, G. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

إطلالة وسيعة مفيدة على مجمل التراث اليوناني البلاغي، يتضمن معالجات مطولة لخطابة ديموستين وأيسشين.

Loraux, N. *The Invention of Athens: The Funeral Oration in the Classical City*. Cambridge, Mass.. 1986.

تحليل بالغ الأصالة للخطب الجنائزية، وخاصة خطبة بيركليس Pericles الجنائزية، بوصفها وسيلة لتشكيل الهوية المدنية.

Ober, J. *Mass and Elite in Democratic Athens*. Princeton, 1989.

أفضل المعالجات الحديثة لدور الخطابة السياسية فى الديمقراطية الأثينية وأكثرها أهمية.

Schaefer, A. *Demosthenes und seine Zeit*. 3 vols. Leipzig, Germany, 1856–1858.

الدراسة الكلاسيكية الشاملة لديموستين، وتتضمن مناقشات حول مجمل خطبه.

Sinclair, R. *Democracy and Participation in Athens*. Cambridge, U. K., 1988.

إضافة مهمة للكتابات حول الديمقراطية الأثينية. والعديد من الفصول وثيقة الصلة بفهم سياق الخطابة السياسية وممارساتها، وبطبيعة الجمهور المدني واستجاباته أيضًا.

Thomas, R. *Oral Tradition and Written Record in Classical Athens*. Cambridge, U. K., 1989.

شرح ممتاز للطريقة التي واصلت التقاليد الشفاهية من خلالها لعب دور محوري فى أثينا بعد ظهور الكتابة.

Worthington, I. *A Historical Commentary on Dinarchus: Rhetoric and Conspiracy in Fourth - Century Athens*. Ann Arbor, 1991.

معالجة مطولة لخطابة رجل السياسة ديناركوس فى أواخر القرن الرابع.

Wyse, W. *The Speeches of Isaeus*. Cambridge, U. K., 1904.

لا يزال الشرح النموذجي لخطب إيزاوس Isaeus، وهو شخصية رئيسية فى تطور البلاغة القانونية، وأحد أكثر الأثينيين أهمية فى مجال الخطب المؤلفة التي يلقيها آخرون logographers.

تأليف: David Cohen

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

الإرداف الخلفي Oxymoron

الإرداف اللفظي هو مركب لفظي يتكون من كلمتين أو أكثر يتعارض معناهما منطقيًا ومعجميًا، ويجمع بين الكلمتين معنى أشمل يمثل مشتركًا دلاليًا بينهما. وعلى سبيل المثال فإن كلمة "ثِقَل/وزن weight"، هي المشترك الدلالي بين كلمتي "ثقيل heavy" و"خفيف light"، في الإرداف الخلفي "الخفة الثقيلة heavy lightness" المأخوذ من مسرحية روميو وجولييت لشكسبير (Shakespeare, *Romeo and Juliet*, 1.1.178). يمكن أن يتحقق الإرداف الخلفي من خلال البنى التركيبية الآتية:

١) صفة (أو فعل منتهي بـــing) + اسم؛ كما في عبارة ميلتون "موت حي living death" Milton, *Samson Agonistes*, 1671, v.100؛

٢) صفة (أو فعل منتهي بـــing) + صفة (أو فعل منتهي بـــing) + اسم، كما في المثال الآتي: "الأبدية، فكر مبهج قاتل" (Addison, *Cato*, 1713, 5.1)، أو فعل + ظرف "سر سريعًا ببطء"؛

٣) صفة + فعل مساعد be + صفة، كما في عبارة شكسبير في ماكبث: "الإنصاف حُمقٌ، والحمقُ إنصاف" (Shakespeare, *Macbeth*, 1.1.11). وقد قدم أو.هنري في وصفه لمدينة نيويورك في قصة "*The Duel* (1910)" أمثلة للنمطين (١)، و(٢)، في عبارته: "نيويورك فيها أفقر المليونيرات، وأضأل الرجال العظام، وأكثر المتسولين تعجرفًا، وأكثر الجمال عادية، وأكثر ناطحات السحاب انخفاضًا، وأكثر اللذات الغبية التي رأيتها في أي مدينة

قط". يقع الإرداف الخلفي بانتظام فى الشعر الأخلاقي (مثل *discordia concors*) *أو فى النصوص الدينية المسيحية (مثل* felix culpa). ويمكن النظر إلى الإرداف الخلفي على أنه مقولة فرعية من المفارقة، التي تضم مجالا وسيعًا من اللاتكافؤ المنطقي واللغوي والتواصلي.

انظر أيضًا: **Figures of speech** و **Paradox**].

مصادر ومراجع

Evans, Robert O. *The Osier Cage: Rhetorical Devices in "Romeo and Juliet."* Lexington, Ky., 1966.

يؤكد المؤلف فى الفصل الثاني أن الإرداف الخلفي هو المفتاح لبنية المسرحية.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: عماد عبد اللطيف

المديح Panegyric

يرجع مصطلح panegyric (المديح أو الإطراء) فى اشتقاقه إلى تعبير يوناني قديم يتعلق بخطاب كان يُلقَى عادة فى الاحتفالات العامة (panegyrikos logos فى اللاتينية)؛ ومن أمثلته كذلك Panegyricus للخطيب اليوناني إيزوقراط Isocrates، والذي كتبَ خصيصًا للألعاب الأولومبية عام ٣٨٠ ق. م.، وقد مدح فيه أثينا وشجع على توحيد الولايات اليونانية. وفي روما استمر السياق الاحتفالي علامة على معنى هذا المصطلح حتى زمن الحقبة الرومانية الأولى (انظر المؤرخ Dionysius of Halicarnassus Lysias، 3،3.7 - 16.2). وقد كان البلاغيّ الروماني كينتليان Quintilian فى القرن الأول الميلادي يعرِّف المديح panegyric على أنه فرع من الخطابة التوضيحية epideictic ويقول بأنه يتخذ الشكل النصحي الإرشادي (٣،٤،١٤) على الرغم من كونه من المحسنات اللفظية التي تهتم بتحقيق المتعة لدى الجمهور (انظر كتاب "تأسيس الخطابة" Institutio oratoria لكينتليان، 2.10.11،3.8.7؛ وانظر كذلك مدخل "جنس الخطابة التوضيحية" Epideictic genre). على أن هيرموجينيز Hermogenes (في القرن الثاني الميلادي) كان أكثر اتساعًا وفاعلية فى تعريفه إذ يسوِّى بين المصطلح وبين الخطابة التوضيحية بإنزاله أو تطبيقه على أعمال المؤرخيين والشعراء بل حتى أعمال أفلاطون، وذلك وفق معايير أسلوبية معينة (انظر كتاب "في أنواع الأساليب" (On Types of Style)، 388.2 - 387.5). بيد أن عناوين الكتب التي ظهرت لاحقًا فى أواخر القرن الأول الميلادي قد عكست استخدامًا متأخرًا للمصطلح (انظر عناوين مثل " Panegyricus Messallae" (مختارات مديحية) لتبيولس Tibullus، 3.7) أو "Panegyric of Pliny" (المديح عند بليناي) (انظر أدناه).

وبالمقارنة مع الخطابة التوضيحية، كما يلاحظ كينتليان، فإن خُطَب (كلمات) المديح الرومانية (Laus, Laudatio في اللاتينية) - كالخطب الجنائزية فى الحقبة الجمهورية الرومانية وخطب النصر المديحية الملقاة فى مجلس الشيوخ أو ساحات القضاء - كلها كانت تتميز بأداء دور تداولي (نسبة إلى علم التداولية Pragmatics)(١). على أن مجال المديح فيما يخص مديح الآلهة أو الأبطال الغابرين كان محدودًا (انظر كينتليان، 4 - 3.7.1.؛ وانظر شيشرون "De oratore" (عن الخطيب)، 2.341). أُلقِيَت الخطبة الجنائزية المديحية الأولى فى جنازة القنصل الروماني جونيوس بروتس L. Junius Brutus (انظر المؤرخ Dionysius of Halicarnassus Lysias، كتاب "Roman Antiquities" (آثار رومانية)، 5.17.2؛ وانظر كذلك "Publicola" "بابليكولا (قنصل روماني شهير) لبلوتارك Plutarch، 7 - 9.6؛ وانظر كذلك "بوليبياس" (Polybius)، 2 - 6.53.1). وعلى عكس أمثال هذا النوع الأدبي لأعمال أثينا الكلاسيكية التي امتدحت ليس فحسب الجنود الذين صُرِعوا مدافعين عن مدنهم بل المدينة نفسها (انظر مثالاً على ذلك Pericles in Thucydides، 46 - 2.34؛ وانظر Plato Menexenus)، فقد ركزت الخطبة المدائحية الجنائزية فى روما على فرد واحد (وفي حدث تاريخي بعينه) متغنيةً بنسبه وبخدماته للدولة. وكان العمل النثري "Evagoras" (٣٦٥ ق م) لإيزوقراط والذي كُتِب احتفاءً بملك "سالاماس" salamis المتوفي حديثًا آنذاك، وكذلك العمل الأدبي "أجيسيلاس" Agesilaus (٣٦٠ ق. م.) لزينوفون Xenophon (الكاتب والجندي اليوناني) قد مثّلا سابقة يونانية مبكرة لمثل هذا القالب الفني. وكذلك فقد كتب شيشرون مثل هذا المديح عن كاتو يوسينيز Cato Uticensis بعد انتحاره. وعلى الرغم من ذلك فقد كان عمل شيشرون

---

(١) التداولية pragmatics في علوم اللغة تختلف عن البراجماتيــة pragmatism فــي الفلــسفة، والخلط خطأ شائع (المترجم)

"Pro lege Manilia" عام ٦٦ ق. م، الذي يؤيد فيه تخويل سلطات للجنرال بومبي Pompey، وكذلك خطاباته ليوليوس قيصر Julius Caesar (انظر Pro Marcello و Pro Ligario و Pro Rege Deiotaro، ٤٦ – ٤٥ ق. م.) – وكلها كانت تسعى للتقرب من أُناسٍ معاصرين عن طريق امتداح المخاطَبين – كانت نماذج احتذاها المداحون فى أزمنة لاحقة.

وهناك مجموعة لا تزال موجودة من خطب مديح ما قبل العصور الوسطى وهى "المدائح اللاتينية الاثنتا عشرة" (XII Panegyrici Latini)؛ وهى تحتوى باستثناء عمل واحد على أعمال الخطباء الرومان (Gallo - Roman orators)، وكذلك أعمال معلمي الكتابة البلاغية فى الحقب القسطنطينية والتترا ركية – (Tetrarchic and Constantinian periods، نسبة إلى زمن قسطنطين وزمن الحكم الرباعي فى أواخر القرنين الثالث والرابع الميلادي). وقد كانت تلك الخطب دائمًا ما توجَّه إلى الإمبراطور الروماني أمثال ماكسيميان Maximian (٢٨٩ م) وحتى ثيودوسيوس Theodosius (٣٨٩ م). ويأتي على رأس هذه المجموعة (المشار إليها أعلاه)، وإن كان يعود إلى عام ١٠٠ م، ما عُرف بمديح السيناتور الروماني بلينى الأصغر Pliny the Younger، وهو بمثابة خطاب شكر وعرفان (gratiarum actio) موجه إلى الإمبراطور تراجان Trajan، وقد أُلقى الخطاب بمناسبة تنصيب بلينى فى منصب القنصل (خلفًا للقنصل المتوفى قبله). على أن صيغ الشكر والعرفان – والتي بدأت فى ظل حكم الإمبراطور أغسطس Augustus – قد مزجت ما بين شخصيات المتحدث والحاكم والجمهور، وهو ما أضحى علامة على المديح الإمبراطوري فى عصره المتأخر وما تلاه من أشكال مديحية لاحقة. وهناك أعمالٌ مديحية نثرية أخرى قابعة ضمن أعمالٍ فردية لبعض المؤلفين والتي تشتمل، فى اللاتينية، على أعمال أسونيوس وسيماشيوس Ausonius and Symmachus، وفي اليونانية على أعمال ثيميستيوس Themistius وليبانيوس

Libanius ويوسيبيوس Eusebius وكذلك إليوس أريستاديس Aelius Aristides، وهو البلاغي اليوناني، فى القرن الثاني الميلادي، الذي جمع ما بين مديح المدن المشهورة ومديح الإمبراطور الروماني.

وأما القرن الثالث الميلادي فقد شهد مراجع خُصِّصَت للمديح الإمبراطوري ومنها على سبيل المثال ما ينسب إلى ديونسيوس (pseudo - Dionysius) كما فى مؤلّفه "Peri epideiktikon" وما ينسب كذلك إلى ميناندر ريتور Menander Rhetor كما فى المقالة التي تتكون من جزأين بعنوان " Peri epideiktikon". وقد مثّلت هذه الأعمال خطوطًا عريضة للخطب المديحية الموجهة إلى شخص الإمبراطور وإلى الشخصيات الرفيعة فى مناسبات عدة كأعياد الميلاد الإمبراطورية وحفلات التتويج واحتفالات دخول المدن وكذلك حفلات الزواج. وتحت عنوان "خطابٌ إلى الإمبراطور" يُضَمِّن ميناندر ريتور عملَه المسمى "basilikos logos" – عن المبدأ العقلاني – 368.3 - 377.30) العديد من المواضيع كتلك التي تتعلق بالموطن الأصلي للمخاطَب، أو الأسرة أو الميلاد أو التعليم أو إنجازات هذا المخاطب فى الحرب والسلام (انظر كتاب ميناندر عن البلاغة "Rhetorica ad Herennium؛ 15 - 3.10؛ وانظر كذلك كينتليان، 19 - 3.7.10). كذلك فقد اشتمل المديح على تلك الفضائل الأربع، وهى الاعتدال والحكمة والشجاعة والعدل. على أن المدائح المتأخرة فى أواخر القرن الثالث الميلادي وما بعده تظهر خليطًا من العناصر المؤثرة والمتشابكة، وتتمثل فيما يلي: المبادئ النظرية التي وضعها كلّ من ميناندر Menander وديونيسيوس (حسبما يُنسَب إليه) pseudo - Dionysius، الكتابات اليونانية الرومانية المتعلقة بالخطابة التوضيحية منذ كتاب "البلاغة حتى عصر الإسكندر" Rhetrocia ad Alexandrum وكتاب "البلاغة" لأرسطو، الاقتباسات التي أُخذت من شعر الملاحم الرومانية، السياق السياسي وإنجازات

الإمبراطور المُخاطَب، تكاتف الدعايا الإمبراطورية والذي ظهر فى أشكال فنية مرئية أو أشكال تتعلق بالصياغة (اللفظية). ولقد أُلقيَت كل من تلك الأشكال المديحية فى حضرة إمبراطور مسيحي؛ وهنا يمكن أن نستحضر مقارنة تقليدية تتعلق بكبير الآلهة الرومانية جوبيتر Jupiter وكذلك الأبطال الوثنيين، على أننا نرى تقاربًا بين شخص الإمبراطور والقديسين أو الأساقفة فيما يتعلق بالمديح؛ وإن كان المديح يركز الضوء أيضًا على بعض الصفات المسيحية كالتواضع إلا أنه كان على نحو أقل. بيد أن المديح الوثني قد تبعته أشكالاً فنية كالرثاء الخاص بالقديسين وذلك على الرغم من العداوة التي ظهرت ضده والتي قال بها (الأسقف والقديس الفيلسوف) أغسطين Augustine (انظر كتاب "الاعترافات" Confessions، 6.6 400)؛ وانظر كذلك لاكتنتيوس Lactantius فى كتابه "القوانين الإلهية" Divine Institutes، 1.15.3 ,313 - 303، وآخرين).

وكما هو الحال عند بلينى Pliny فقد كانت المقارنة من الوسائل المفضلة وذلك لمقارنة المخاطَب الحالي (حال المديح) مع المخاطَب السابق (أحد الأسلاف)، على حساب السابق بطبيعة الحال. وعلى هذا النسق فقد كان الخيط الفني المسيطر هو موضوع الإصلاح وكذلك تأكيد المتحدث (أى المادح) على صراحته وإخلاصه. وقد مدح بلينى على نحو مستفيض تراجان Trajan (الإمبراطور الروماني) بل أدان المديح الذي وُجِّه لسابقه دوميشان Domitian باعتباره كذبًا ملتبسًا لا معنى له، ومشيرًا إلى ولائه (انظر كتابه Panegyric "المديح"، 3.4،3.1)؛ وقد كان فيلسوف القرن الرابع الميلادي ثيميستيوس Themistius يقول بأن الفيلسوف وحده هو الذي يستطيع أن يقدم المديح الحقيقي (انظر Orationses "الخطب"، 1.1a،d - 3c) غير أنه كان يواصل مديحه لجوفيان Jovian وفالينز Valens وثيودوسيوس Theodosius فى الوقت ذاته. وفي منتصف القرن الأول قبل الميلاد كان شيشرون بالفعل قد

انتقد المدائح (الخطب) الجنائزية التي كانت مصدرًا للمداهنة والزور (انظر بروتس Brutus، ٦٢)، ثم تبعه على نحو متأخر أيسودور Isidore of Seville (٥٧٠ - ٦٣٦ م) - والذي اتبع لكتانتيوس Lactantius قبله - وقد كان يسمي المديح الوثني بالشر الذي جلبه اليونانيون، وأنه (أي المديح) جيد فقط في إثارة زوابع الكذب والبهتان (انظر كتاب "الأصول" Origins، 6.7.8.). على أن أوجه الانتقاد التي وُجِّهت إلى هذا النوع الفني كانت في الوقت ذاته أوجه دفاع كذلك، وهذا بعد ازدياد الاهتمام بالمديح إثر اكتشاف مخطوط "المدائح اللاتينية الاثنتى عشرة" (XII Panegyrici Latini) الذي قام به جيوفاني أورسيبا Giovanni Aurispa عام ١٤٣٣. وقد كان إيرازموس Erasmus يقول في خطبته "Panegyricus" (خطبة المديح العامة) عام ١٥٠٤ الموجهة إلى فيليب دوق مقاطعة برجندي Burgundy بأنه "من خلال إظهار صورة الفضيلة؛ فالأمراء السيئيون يمكن أن يتحولوا إلى الأفضل، فالجيد منهم سيتشجع ويثبت، والجاهل يمكن إرشاده، والمخطئ يمكن أن يُقَوَّم (انظر "Epistula" ١٧٦، "رسائل إيرازموس"، ترجمة ف. م. نيكولاس F.M. Nicholas، لندن، ١٩٠١). على أنه كانت هناك نظرة ريبة تجاه المديح كذلك كما عند توماس بلونت Thomas Blount، والذي عرَّف المديح في قاموسه (Glossographia، ١٦٥٦) بأنه "نوع لا أخلاقي من الكلام أو الخطابة لمديح وإطراء الملوك وكبار الشخصيات تمتزج فيه الأكاذيب بالمداهنة". وفي الواقع فإن المداحين كانوا يكافحون لهدف مزدوج، جانبه الأول هو إشاعة السياسة الإمبراطورية وجانبه الثاني هو رجائهم كبح جماح الاستغلال السيئ للسلطات.

وفي كل من العصور القديمة من جانب والعصر الإليزابيثي (نسبة للملكة إليزابيث) وكذلك عصر أسرة استيوارت في إنجلترا من جانب آخر نجد أن المديح الإمبراطوري (الملكي) قد اتخذ أشكالاً شعرية؛ ومثال ذلك العديد مما كتبه ستاشيوس Statius (انظر كتابه "Silvae" (الغابة/الأشجار)) في القرن الأول الميلادي والذي وجَّهَهُ لدوميشان Domitian (الإمبراطور

الروماني) يمتدحه (1.1, 1.6., 4.1.. 4.3)؛ ومن الأمثلة أيضًا ملحمة كلوديان المديحية (وكتبت فيما بين ٣٩٥ و٤٠٤ م) وتحتفي بمآثر أونوريوس Honorious والحروب القوطية Gothic wars. أما عن الاستخدام الإنجليزي الأول للشكل المديحي الرثائي فيرجع إلى قصيدة صمويل دانيال Samuel Daniel عن خلافة أسرة ستيوارت Stuart عام ١٦٠٣. على أن هناك أشكالا مديحية شعرية أخرى مشهورة ترجع للقرنين السادس عشر والسابع عشر وتتضمن قصيدة "كارمن" Carmen Gratulatorium لتوماس مور Thomas More والتي وجهها إلى الملك هنري الثامن عام ١٥٠٩، وكذلك قصيدة درايدن Dryden المديحية "Panegyrick" المتعلقة بتتويج شارلز الثاني عام ١٦٦١. وإذا ما ابتعدنا عن الغرب نجد أن أشهر الأمثلة لهذا الجنس الأدبي شعرًا هي تلك التي تزودنا بها القصيدة العربية أو الفارسية رفيعة الأسلوب، وهى التي نشأت فى الفترة الجاهلية (قبل الإسلام)؛ وقد كان المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥ م) هو سيد هذا الجنس الأدبي (الذي غالبا ما كان ينتهى بقسم مديحي يحتفي بالخلفية، والذي - كغيره من الأشكال المديحية بصفة عامة - كان أداة لتعزيز شرعية الممدوح (انظر كذلك مدخل "البلاغة الكلاسيكية" Classical Rhetoric).

مصادر رئيسية مترجمة

Nixon, C.E.V., and B.S. Rodgers. In Praise of Later Roman Emperors: The Panegyrici Latini. Berkeley, 1994.

(طبعة وترجمة لكتاب المدائح اللاتينية الاثنتى عشرة، بالإضافة إلى تعليق تاريخى).

Russell, D. A., and N.G. Wilson. Menander Rhetor. Oxford, 1981. A commentary, edition, and translation of the two - part, late third - century handbook Peri epideiktikōn.

Braund, Susanna Morton. "Praise and Protreptic in Early Imperial Panegyric: Cicero, Seneca, Pliny." In *The Propaganda of Power: The Role of Panegyric in Late Antiquity*. Edited by Mary Whitby, pp.pp. 53–76. Leiden, 1998.

(دراسة لعناصر وسياقات الخطب (الكلمات) القيصرية الرومانية لشيشرون، وكذلك لدراسة أعمال كل من سينيكا Seneca (*De Clementia*) وبليني Pliny (*Panegyricus*)، والتي تتعلق بالمديح).

Garrison, James D. *Dryden and the Tradition of Panegyric*. Berkeley, 1975.

(دراسة لمديح القرن السابع عشر وخصوصًا شعر درايدن، وما يتعلق بالآثار المديحية).

MacCormack, Sabine. "Latin Prose Panegyrics." In *Empire and Aftermath. Silver Latin*, vol. 2. Edited by T. A. Dorey, pp.pp. 143–205. London, 1975.

(مقال أساسي فيما يخص المديح اللاتيني فى عصورة المتأخرة).

MacCormack, Sabine. *Art and Ceremony in Late Antiquity*. Berkeley, 1981.

(دراسة للسياقات الاحتفالية ومضامينها لمديح العصور القديمة المتأخر وعلاقته بالفنون المرئية (البصرية).

Mause, Michael. *Die Darstellung des Kaisers in der lateinischen Panegyrik*. Stuttgart, 1994.

(دراسة لعناصر تصوير الإمبراطور فى النثر والشعر اللاتينى المدائحي).

Nixon, C. E. V. "The Use of the Past by the Gallic Panegyrists." In *Reading the Past in Late Antiquity*. Edited by G. W. Clarke, Brian Croke, Alanna Nobbs, and Raoul Mortky, pp.pp. 1–36. Rushcutters Bay, Australia, 1990.

(دراسة الإشارات الأسطورية والجمهورية والإمبراطورية لتاريخ (ماضي) روما القديمة حسبما ورد فى المدائح "الغالية" (Gallic) (وهى نسبة إلى قبائل أو أناس قطنوا مناطق فى غرب أوروبا قديمًا).

Pernot, Laurent. *La rhétorique de l'éloge dans le monde gréco - romain*. Paris, 1993.

(معالجة منهجية لتاريخ الرثاء اليوناني الروماني ونظريته وقضاياه وأسلوبه، مع التركيز على الحركة السوفسطائية الثانية (وهى التي تركز على إحياء التراث البلاغي اليوناني).

Russell, Donald. "The Panegyrists and their Teachers." In *The Propaganda of Power: The Role of Panegyric in Late Antiquity*. Edited by Mary Whitby, pp.pp. 17–50. Leiden, 1998.

(تلخيص جيد لوضع المديح الإمبراطوري خلال آثار البلاغة المحفلية).

Stetkevych, S.P. "Umayyad Panegyric and the Poetics of Islamic Hegemony: Al - Akhtal's 'Kaffa al - Qatinu.' " *Journal of Arab Literature* 28 (1997), pp.pp. 89–122.

(مناقشة لمعنى ووظيفة القصيدة المدائحية العربية فى القرن السابع الميلادي عند الأخطل).

Whitby, Mary ed., *The Propaganda of Power: The Role of Panegyric in Late Antiquity*. Leiden. 1998.

(مجموعة من المقالات عن المدّاحيين فى البلاط الإمبراطوري، إضافة إلى بعض أجزاء مخصصة للنظرية والتطبيق وأخرى لإعطاء خلفية رومانية وأخرى للمديح الوثني والمسيحي).

تأليف: Shadi Bartsch

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المفارقة البلاغية Paradox

يشير أصل المصطلح إلى "ما يخالف معتقد شائع أو رأي اعتيد عليه"، وهو مصطلح بلاغي متعلق بكل من "الابتكار البلاغي" (Invention) و"الأسلوب" (Style). وباعتباره إحدى فئات "الابتكار البلاغي" فالمصطلح له علاقة بمفهوم السبب - أو الحِيَل السببية فى البلاغة الكلاسيكية القديمة - ويشير إلى سبب معين (causa فى اللاتينية)، وتحديدًا "سبب تافه أو لا أخلاقي" (causa turpis فى اللاتينية)، أو كما يشير إليه أيضًا توماس ويلسون Thomas Wilson (١٥٢٥ - ١٥٨١) على أنه "أمر تافه أو لا أخلاقي" (filthy matter)، معرفًا هذا الأمر فى كتابه "فن البلاغة" The Arte of Rhetorique (١٥٥٣) ومشيرًا إليه بقوله: "ومن ثم نتبنى أو ندافع عن "أمرٍ لا أخلاقي سواء عندما نعبر عن ضمائرنا بطريقة شريرة، أو نقاوم حقيقة واضحة" (ص ٢٥ - ٢٦). وعلى العكس من النوعين الآخرين وهما "السبب الصادق" (causa honesta) والسبب المشكوك فيه (causa dubia)، وبهما يمكن أن يتأكد رأيٌ شائعٌ أو يظل رأيٌ موضع ريبة وغموض، فإن الخطيب عند اضطلاعه بقضية قائمة على "المفارقة البلاغية" تواجهه مهمة صعبة فى الاحتجاج والجدل على نحو ما أوضح كينتليان Quintilian (القرن الأول الميلادي) وأوجستين Augustine (٤٢٧ م) وروفينيانوس Rufinianus (القرن الرابع الميلادي) فى أعمالهما اللاتينية - على التوالي - "preter opinionem hominum" و"contra opinionem" و"contra expectationem auditoris" (والتي تتعلق بتفنيد الرأي والجدل والبلاغة). ومن قبيل هذا ما ذكره جون بولوكار John Bullokar فى كتابه "الشارح

الإنجليزي" (The English Expositor، ١٦١٦) قائلاً فيه: "كما لو أن إنسانًا يؤكد على أن الأرض تدور وأن السماء ثابتة في مكانها". ومن النفائس الأدبية في هذا الشأن ما ذكره أليكساندر بونت أميرس Alexandre Pont - Amerys (١٥٩٦) من أقوال. وقد ورد في الدراما الشكسبيرية "عطيل" Othello أمثال هذه الحيلة السببية البلاغية causa turpis من خلال شخصية إياجو Iago الذي استطاع غواية سيده؛ وقد كانت ديزدامونة Desdemona نموذج الوفاء في الزوجية. وتعتبر المفارقة البلاغية أحد أساليب التأنق في الكلام، والتي تدل على ذكاء مستخدمها؛ ولذا تجد أن بالتسار جريسيان Baltasar Gracian يخصص لها فصلاً كاملاً (رقم ٢٢) في كتابه عن "فن الإبداع" Agudeza y arte de ingenio (١٦٤٢). وقد استُخدم هذا النوع البلاغي أحيانًا لمدح أشياء من المفترض أن تُذَم على نحو ما فعل إيرازموس Erasmus في كتابه "مدح الحماقة" (Encomium Morae (١٥١١))، وكذلك سينيسيوس Synesius في كتابه "مدح الفظاظة" (Praise of Baldness) (القرن الرابع الميلادي)، ولوشيان Lucian في كتابه "مدح الذبابة" (Praise of the Fly)، أو حتى كتابه "مدح العدم" (Praise of Nothing) (القرن الثاني الميلادي). كذلك وخلال عصر النهضة فقد جُمعت العديد من أشكال المفارقة أو التناقض البلاغي في بعض الكتب العامة، ومنها كتاب "Paradossi" (مفارقات) على سبيل المثال لكاتبه أورتنسيو لاندو Ortensio Lando (١٥٤٣)، أو كما في "المفارقات الأرثوذوكسية" (Orthodox Paradoxes) (١٦٤٧) لكاتبه رالف فينينج Ralph Venning. كذلك فهناك أعمال كبيرة حوَت العديد من أعمال المفارقة البلاغية المدائحية كتلك التي جمعها كاسبر دورنافيوس Caspar Dornavius (١٦١٩).

وقد أضفى بعض الكُتّاب الصبغة الإنجليزية على هذا المحسن البديعي - "المفارقة البلاغية" - ومنهم بتنام Puttenham في كتابه " The Arte of

"English Poesie" (فن الشعر الإنجليزي) (١٥٨٩). ولعله من الملاحظ هنا أن من بين المحسنات البديعية الأكثر ارتباطا "بالمفارقة البلاغية" هو ما يعرف "بالإرداف الخلفي[١]" Oxymoron (انظر مدخل "Oxymoron"). وكذلك فباعتباره من محسنات الأسلوب بصفة عامة فقد اشتق بيير فونتانير Pierre Fontanier (١٨٢١ - ١٨٣٠) من المصطلح - أي "المفارقة البلاغية" - لاحقًا مصطلحًا آخر وهو "paradoxisme" (والذي يشير إلى حركة فنية وأدبية فلسفية مولعة باستخدام المفارقات). على أنه قد أُطلق على أوسكار وايلد Oscar Wilde لقب "أمير المفارقة البلاغية/التناقض البلاغي" (Prince of Paradox) نظرًا لألمعيته في استخدام هذا اللون الأدبي. وعلى كلٍ فقد لعبت المفارقة البلاغية دورًا كبيرًا في الفلسفة (انظر شيشرون "Paradox Stoicorum" (عن التناقض/المفارقة، القرن الأول ق. م.) وفي اللاهوت المسيحي، بيد أنه فيما يخص التواصل الحياتي اليومي استخدمت المفارقة للتعبير عن الدهشة أو عدم التصديق بشيء غير عادي أو غير متوقع (انظر مدخل "المحسنات البلاغية"[٢] (Figures of Speech).

(١) يقصد به (في الإنجليزية) كلمتان أو عبارتان متناقضتان تمامًا يتبع بعضهما بعضًا، كقولك "هو الضعيف القوي" أو "الجرىء الجبان".

(٢) تترجم كثيرًا بالمحسنات البديعية، ولكن لدراستي للمحسنات البديعية العربية تفصيلا أرى ترجمتها بـ "المحسنات البلاغية" لأن اللفظ الإنجليزي يشتمل على محسنات أخرى تدخل في نطاق البيان لا البديع حسب البلاغة العربية، ولذا فحصرها في البديع خطأ من وجهة نظري، والصواب هو ترجمتها بـ "المحسنات البلاغية" لإشارة اللفظ إلى البيان والبديع معًا (د. محمد فوزي).

المصادر والمراجع (Bibliography)

Colie, Rosalie L. *Paradoxia Epidemica: The Renaissance Tradition of Paradox*. Princeton, 1966. Reprint, Hamden, Conn., 1976.

Geyer, Paul, and Roland Hagenbüchle, eds. *Das Paradox*. Tübingen, 1992.

Malloch, A. E. "The Techniques and Function of the Renaissance Paradox." *Studies in Philology* 53 (1956), pp.pp. 191–203.

Margolin, Jean - Claude. "Le paradoxe, est - il une figure de rhétorique?" *Nouvelle revue du seizième siècle* 6 (1988), pp.pp. 4–14.

Miller, Henry Knight. "The Paradoxical Encomium with Special Reference to Its Vogue in England, 1600– 1800." *Modern Philology* 53 (1956), pp.pp. 145–178.

Plett, Heinrich F. "Das Paradoxon als rhetorische Kategorie." In *Das Paradox*, edited by Paul Geyer and Roland Hagenbüchle, pp.pp. 89–104. Tübingen, 1982.

المؤلف: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوازي الصوتي/حسن التقسيم (النظمي) Parallelism *

ظهرت صياغة المصطلح "Parallelism" على هذا النحو فى العصور المتأخرة (الحديثة) نسبيًا، فهو لا ينتمي إلى المصطلحات البلاغية التقليدية. وغالبًا ما يشير المصطلح إلى طائفة من الظواهر (الاستخدامات) اللغوية المنطقية التي تتجلى فى جانبين، أحدهما شكلي والآخر دلالي؛ ويُشار إلى المصطلح نفسه فى العصور القديمة فى اليونانية بلفظتي "parison" أو "parisosis"؛ وتوقيع هذين المصطلحين على الحِيَل البلاغية بصفة عامة يشير إلى حيلة تقسيم العبارات أو الجمل الكلامية على نحو متواز أو متكافئ يمكن من خلاله مقارنة مفرداتها كذلك(١).

ومن منظور لغوي شكلي فإن أساس تلك الظواهر يكمن فى أمرين: الأول هو تركيب عناصر الجملة ونظمها من ناحية الشكل على نحو متساوٍ، والثاني هو تقسيم ووضع هذا الشكل نفسه فى مواطن متوازية من الحيز الذي يشغله النص إجمالاً أو أجزاء معينة منه. وتأمل التراكيب أدناه على سبيل المثال؛ وهى مقتبسة من كيفودو Quevedo الشاعر الإسباني ومصحوبة بأنماط توضح أمثال هذه التراكيب من ناحية التقسيم والوظيفة (انظر الحاشية للتوضيح فى العربية):

(١) من الأمثلة الواضحة في العربية على هذا الأسلوب، وتلك الموازاة النظمية والنحوية في الكلام هاتان العبارتان القرآنيتان المتتاليتان: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها".

A A'

a b a b

Arderán tu victoria y tus despojos:

Y ansí, fuego el Amor nos dará eterno:

A ti en mi corazón, a mí en tus ojos

(ترجمة الأبيات)

انتصاراتك وغنائمك ستحترق

ولسوف يبقي حبنا يلهبنا بحق

بذكيك وأنت فى قلبي، يذكيني وأنا فى عينك

ويلاحظ أن هذه العناصر (في أصلها) متكافئة فى الشكل والفئة النحوية والتقسيم. ومما يستنتج من هذا المثال وتلك الصيغ الشكلية أن هناك عناصر لغوية وتركيبية تحاكي أو تكرر بعضها بعضًا. وفي أغلب الأحوال فإن هذه الصيغ المتكافئة فى الشكل والوظيفة والتقسيم، من منظور شكلي فني، تتوازى فى الوقت ذاته مع الدلالة إما من خلال الترادف (Synonymic parallelism) – وهو ما يمكن أن نسميه "التوازي الصوتي الترادفي" أو "حسن التقسيم الترادفي" – أو من خلال التضاد والتقابل (antithetic parallelism) – وهو ما يمكن أن نسميه "التوازي الصوتي الطباقي"[(١)]. ويمكن أن تستخدم "التوازي الصوتي/حسن التقسيم" بصفة عامة بطرق متنوعة عند نظم النص أو أجزاء معينة منه؛ فالمثال أعلاه يمكن تطبيقه على نص ما بالكلية؛ كما هو الحال فى بعض القصائد الزاخرة بالتوازي الصوتي كالأشعار الدينية الإنجيلية أو كما فى شعر العصور

---

(١) يماثل في العربية تقريبًا الجناس التام على مستوى الكلمات (المترجم).

الوسطى البرتغالي الجالي Galician - Portuguese Poetry (نسبة إلى منطقة Galicia قديمًا، بوسط أوروبا). (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" (Figures of speech) و"المحسنات البديعة الجورجية (نسبة إلى البلاغي والفيلسوف جورجياس)" (Gorgianic figures) و"التوازي الصوتي الممتد/حسن التقسيم الممتد" (Isocolon).

المراجع (Bibliography)

Lanham, R. A. A Handlist of Rhetorical Terms. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. Handbuch der literarischen Rhetorik. pp.Pp. 719, 722, 736. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. Figuras retóricas. pp.Pp. 168–172. Madrid, 1994.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة إلى العربية: محمد فوزي

مراجعة الترجمة العربية: عماد عبد اللطيف

الاعتراض Parenthesis

يعـــرّف فـــونتينيه Fontanier المصطلـــح فى كتابه "محسنات الخطاب" (Les figures du discours) (١٨٢١ - ١٨٣٠) بأنه "إقحام معنى تام ومنفصل فى سياق معنى آخر بحيث يقطع المعنى الأول امتداد المعنى الثاني، وسواء كان هذا المعنى الأول له علاقة بالمعنى الثاني أم لا". ووفق بعض التراجم الحديثة فيعرّف المصطلح على أنه مُكوِّن نصي دلالي مضاف، أو هو إقحام لوحدة نحوية مستقلة يمكن الرمز إليها بالرمز "ع" (أي اعتراض) فى سياق الجملة اللغوي المتصل، والذي يمكن الإشارة إليه بالرمز "ج" (أي جملة)، وهي الجملة التي يتم اعتراضها. أما صفة هذا الاعتراض فتتحدد وفق ثلاثة عوامل: الأول هو صفة الترابط الدلالي بين "ع" و"ج"؛ والثاني هو طول (أو امتداد) "ع"؛ والثالث هو صفة الوحدة النحوية التي تتخذها "ع". فلو لم تكن هناك علاقة دلالية وثيقة بين "ع" و"ج"، أو كان امتداد "ع" كبيرًا، أو كان "ع" يفصِل مكونين نحويين مترابطين جدًا كأداة تعريف وصفة مثلاً، فإن هذا الاعتراض قد يكون مشوهًا (من ناحية الشكل أو الصياغة). وبينما يُستخدَم الاعتراض بحسب ما ورد فى المقالات الكلاسيكية القديمة لغرض الإسهاب فى النص فإن هناك نظرة خطابية تداولية حديثة (نسبة إلى علم التداولية Pragmatics) ترى فى هذا اللون التعبيري أداة لنطاق واسع من الوظائف؛ كأن يكون هناك - على سبيل المثال - مستويان من الاتصال، أحدهما لإعطاء معلومات أساسية، والآخر لإعطاء ملعومات إضافية؛ أو أن يكون

هناك مستوى لخطاب ظاهر وآخر لخطاب باطن (انظر مدخل "الإسهاب/الإفاضة" Amplification. كذلك فالاعتراض قد يضفي على تعبير ما "مسحة دلالية إضافية أو أثرًا عاطفيًا منوعًا" (انظر جالبرين I.R. Gal' Perin فى كتابه "Stylistics" (علم الأسلوب، ط ٢، موسكو، ١٩٧٧). (انظر كذلك مدخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech.

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الجناس Paronomasia

يشير المصطلح - ومقابله فى اللاتينية annominatio - إلى نوع من الحيل اللفظية؛ على أن الحيل اللفظية بصفة عامة يمكن وصفها من خلال علاقات خاصة بين الكلمات وبعضها بعضًا داخل إطار الثلاثية التي تجمع ما بين البناء الصوتي (phonology) والتهجئة (graphemics) والدلالة (semantics). وإذا ما بدأنا بهذه المقدمة (المنطقية) فبالإمكان وضع ستة أنواع من الحيل اللفظية، على النحو التالي:

- حيلة التطابق الصوتي (homophonic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق البناء الصوتي" و"اختلاف التهجئة" و"اختلاف المعنى". ومثالها فى الإنجليزية كلمتي sole و soul.

-حيلة تطابق التهجئة (homographic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق التهجئة" و"اختلاف البناء الصوتي" و"اختلاف المعنى". ومثالها فى الإنجليزية كلمة wind (والتي يمكن أن تنطق بطريقتين مختلفتين /wind/ و /waind/.

-حيلة تطابق المعنى (homosemic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق المعنى" و"اختلاف البناء الصوتي" و"اختلاف التهجئة". ومثالها فى الإنجليزية كلمتي big و great، أو عبارتي "my old lord of the castle" و" Sir John Oldcastle" (والإشارة إلى الشخص نفسه، انظر شكسبير).

-حيلة اختلاف الهجاء (Metagraphic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق الصوت" و"تطابق المعنى" و"اختلاف التهجئة". ومثالها فى الإنجليزية الكلمات light وlite وفي الفرنسية gauch وgoche وفي الألمانية Telephon وTelefon (قبل أن تتعدل تهجئة الأخيرة عام ١٩٩٩).

-حيلة المشترك اللفظي (Homonymic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق الصوت" و"تطابق التهجئة" و"اختلاف المعنى". ومثالها فى الإنجليزية الفعل lie (بمعنى ينحنى) وlie (بمعنى يكذب)، وفي الألمانية Schein (بمعنى ضوء) وSchein (بمعنى شكل أو شبيه).

-حيلة اختلاف البناء الصوتي (Metaphonic wordplay)، وسماتها تتمثل فى "تطابق المعنى" و"تطابق التهجئة" و"اختلاف البناء الصوتي". ومثالها فى الإنجليزية الطريقتين المختلفتين لنطق اسم الشاعر John Donne.

وقد ورد تعريف مصطلح الجناس paronomasia فى كتاب "تاريخ البلاغة" Rhetorica ad Herennium (القرن الأول قبل الميلاد، 4.21.29) والمنسوب (على وجه غير دقيق) إلى هوميروس على أنه "المحسن البديعي الذي يتوسل بتغيير الأصوات والحروف لأسماء أو أفعال بغية التعبير عن أشياء مختلفة بكلمات متشابهة". وعلى غرار ذلك يعرّف فونتينير Fontanier المصطلح فى كتابه "محسنات الخطاب" (Les figures du discours) (١٨٢١ - ١٨٣٠) بأنه "الكلمات التي لها الصوت نفسه بينما تختلف فى معناها تمامًا" (ص ٣٤٧). كذلك فإن البلاغيين فى عصر النهضة قد صنفوا الجناس كأحد المحسنات الأسلوبية (انظر باتلر Butler، ١٥٩٨)، و"كأحد محسنات الإيجاز" (انظر بتنام Puttenham فى كتابه "The Arte of English Poesie" (فن الشعر الإنجليزي) (١٥٨٩)، و"كأحد المحسنات المتنوعة الشكل" (انظر هوسكنز Hoskins، ١٥٩٩ - ١٦٠٠). على أن بتنام (أعلاه) يفضل تهجئة المصطلح

هكذا "Prosonomasia" ويعرفه بأنه "محسن بديعي يمكن من خلاله أن تتلاعب بكلمتين أو اسمين يتشابهان إلى حد بعيد، ولأن إحدى الكلمتين تحاكي الأخرى تقريبًا بشيء من الإيهام حتى تبدوان وكأن إحداهما اسم والأخرى لقب، فأنا أسميه "اللقب". ويستأنف بتمام توضيحه قائلاً: "ولمّا كان الإمبراطور تيبيريوس Tiberius سكيرًا معاقرًا للخمر فقد أسموه Caldius Biberius Mero بدلاً من Claudus Tiberius Nero (ولاحظ المحاكاة الصوتية على الرغم من اختلاف الاسمين لغرض السخرية، والأولى تعنى الولهان السكير[١]).

وبناءً على تصنيف الحيل المذكور أعلاه يتضح أن الجناس paronomasia يقوم على تشابه التهجئة أو التشابه الصوتي ثم انحراف أحدهما عن الآخر على أن تكون المكونات جميعها غير متطابقة وإنما التشابه فى الأصوات أو الحروف؛ فالتشابه يمكن تحقيقه من خلال عملية تحويل ذات أربعة أوجه: **الوجه الأول** هو "الإضافة"، ومثله فى الإنجليزية كلمة "summer" (صيف) ثم الإضافة إليها (بتصرف) وجعلها "summary" (خلاصة، موجز، عاجل... إلخ)؛ **والوجه الثاني** هو "الحذف" ومثله فى الألمانية كلمة "strauchein" (يزل، يتعثر) ثم الحذف منها لتصبح "Strauch" (شجيرة)؛ **والوجه الثالث** هو "التبديل" ومثله فى اللاتينية كلمة "Roma" لتصبح "amor"؛ والوجه الرابع هو "الإحلال" ومثله فى الإيطالية كلمة "traduttore" (مترجم) لتصبح "traditore" (خائن)، أو المثل الفرنسي "Vouloir c'est pouvir" (على نحو ما تتمنى يكون). وكثيرًا ما يكون أثر الجناس قائما على تشابه اشتقاقي للعبارات، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى دراما شكسبير "كما تهواها" As you like it (3.3.7 - 9) على لسان شخصية تاتشستون Touchstone: " I am here with thee and thy goats, as

---

(١) إيضاح من المترجم.

"the most capricious poet, honest Ovid, was among the Goths (أنا بينكم وبين خرافكم كالشاعر المحنك أوفيد بين قومه). وكان الأحمق تاتشستون Touchstone – الذي ظن نفسه ذكيًا بمقارنته بالجارية أودري Audrey وقومها القرويين السُذَّج – يُشَبِّه نفسه على نحو ضمنى بأكثر الشعراء الرومانيين دهاء، أوفيد، الذي نُفي إلى مقاطعة القوطيين. كذلك فهو يقارن – متوسلاً بالجناس – بين حيوان وضيع وبين القبيلة الجرمانية، والتي طالما اشتهرت فى التاريخ بأن أُناسها غير متحضرين. (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech، و"الأسلوب" Style).

(Bibliography) المراجع

Brown, J. "Eight Types of Pun." *Proceedings of Modern Language Association*, 71 (1956), pp.pp. 14–26.

Butler, Charles. *Rhetoricae Líbri Duo*. Oxford, 1598.

Hoskins, John. *Directions For Speech and Style*, edited by Hoyt H. Hudson. Princeton, 1935.

Mahood, M. *Shakespeare's Wordplay*. London, 1979.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

Redfern, Walter. *Puns*. Oxford, 1984.

Stingelin, Martin. " 'Au quai?'—'Okay' Zur stilistischen Leistung des Wortspiels (ein Forschungsbericht)." In *Rhetorica Movet: Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*, edited by Peter L. Oesterreich and Thomas O. Sloane, pp.pp. 447–469. Leiden, 1999.

(نقد للدراسات الحديثة فى الحيل الكلامية وإيضاح وظائفها الأسلوبية)

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

المثير العاطفي/ مثيرات العواطف Pathopoeia

المصطلح – ومقابله فى اللاتينية imaginatio أي الخيال (انظر شيري وبيتشام Sherry and Peacham) – هو أحد محسنات الكلام التي تستهدف إثارة العواطف سواء من خلال استثارة العواطف ذاتيًا أو بتقديم حجة مثيرة لمشاعر الجمهور. ويعد هذا المحسن الكلامي – حسبما يرى هنري بيتشام Henry Peacham فى كتابه "Garden of Eloquence" (جنة الفصاحة) (١٥٩٣) – من المحسنات المناسبة لإثارة انفعالات معينة – كتلك التي حددها سلَفهُ فى المجال ريتشارد شيرى Richard Sherry فى مؤلَّفه " A Treatise of Schemes and Tropes" (رسالة فى أشكال البلاغة والمجازات) (١٥٥٥) – وهى الخوف والغضب والاندفاع والكراهية "وما شابه ذلك من حالات الاندفاع والاضطراب الذهنى". ويرى بيتشام أن الأمثلة على هذا المحسن كثيرًا ما توجد فى الأعمال المأساوية (التراجيدية)، كما هو الحال فى الكلمات التي ألقتها بطلة الدراما المأساوية التاريخية "ريتشارد الثالث" لشكسبير. (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech و"الاستمالة العاطفية" Pathos).

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الباتوس Pathos

يعد الاهتمام بالباتوس أحد أكثر المظاهر المميزة للمقاربة البلاغية للغة، وأكثرها إثارة للجدل. واللفظ نفسه مرتبط بصيغة الفعل اليوناني paskhein؛ أي يعاني، يجرب، أو بشكل عام، أن يكون المرء فى حال أو فى وضع ما. وتحتفظ صيغة الاسم اليوناني pathos (استمالة النفوس) بهذا الخط الدلالي. فى البلاغة اليونانية يحيل اللفظ بشكل متنوع إلى حال أو وضع النفس الإنسانية، باعتبار ذلك فى العادة نتيجة من نتائج تجربة النفس، ويحيل اللفظ بشكل موسع إلى ضرب من اللغة يمكنه أن يحدث مثل هذه الأحوال. ويرجع تداول المصطلح إلى كتاب أرسطو "الخطابة"، الذي حدد فيه الباتوس بوصفه أحد المصادر الثلاثة الأساس للحجج البلاغية، إلى جانب الإيتوس واللوجوس. [انظر: الإيتوس واللوجوس.] غير أن الاهتمام بالباتوس (مهما تكن التسمية) كان سابقا لأرسطو بفترة طويلة، والفهم المضبوط للمصطلح بعد أرسطو تغير مع الزمن والثقافة. يحمل المصطلح، بالنسبة إلى بعض البلاغيين، معنى يتجاوز الحال الذهنية للمتلقي التي يمكنها أن تحجب أو تعطل طاقاته العقلية فى اتخاذ القرارات. وبالنسبة إلى البعض الآخر، يستدعي المصطلح تحليلا شاملا للنفس الإنسانية وعلاقاتها الواسعة باللغة والإدراك.

مع انبعاث الاهتمام بالبلاغة طوال القرن العشرين، برز إجماع فى الحلقات التربوية الأمريكية حول طبيعة الباتوس، بوصفه مرتبطا بشكل خاص بتعليم الإنشاءcomposition. [انظر: الإنشاء.] هذا الإجماع هو مزيج من الأفكار غير المتناسبة فى معظم الأحيان، والمأخوذة من أزمنة وكتاب

مختلفين. باختصار، الباتوس هو استمالة مبنية على العاطفة والانفعال (الكلمتان مأخوذتان عن التقاليد اليونانية والرومانية بالتعاقب، واستعملتا على نحو لا يقبل الاستبدال)، وهي استمالة تجبر الجمهور على الفعل بخلاف استمالتي اللوجوس والإيتوس. وتمتد الانفعالات من الاعتدال إلى الشدة؛ بعضها، مثل السعادة، يمثل مواقف ووجهات نظر معتدلة، بينما يربك بعضها الآخر بشدته، مثل الغضب المفاجئ، التفكير العقلي. وتعد الصور ذات فعالية خاصة فى إثارة الانفعالات، سواء كانت هذه الصور مرئية ومباشرة مثل الإحساسات، أو إدراكية وغير مباشرة مثل الذاكرة أو الخيال. ويتمثل جزء من مهمة البلاغي فى ربط الموضوع بمثل هذه الصور. ولقد ظهرت كل الأجزاء المكونة لهذا الإجماع المعاصر فى أزمنة مختلفة من تاريخ البلاغة، ولكنها لم تظهر إطلاقا مجتمعة فى وقت واحد عند مؤلف معين أو فى زمن محدد، وبينما يعد من التضليل العودة إلى قراءتها فى ضوء نظرية أو تطبيق الأزمنة المبكرة، فإن هذه النظرة الموجزة للباتوس مفيدة للتحليلات المعاصرة للإقناع. [انظر: الإقناع]

اليونان قديمًا

ثمة محاولات قديمة، مثلما نجد فى إلياذة هوميروس، لاستعمال اللغة فى إثارة انفعالات المستمع، على الرغم من أن ما يمكن الإدلاء به من نظرية منهجية فى هذه المحاولات يعد ضئيلا. يتوسل كينغ بريام King Priam على سبيل المثال إلى أخيل Achilles لإرجاع جثة ابنه المقتول هيكتور Hector (Book 24). لقد رق أخيل ولكنه كان قد قرر بأن ذلك هو الأمر الصحيح الذي ينبغي القيام به. هكذا نجد عند هوميروس اقتراحا بأن استمالة الانفعالات والعواطف يمكنها فى النهاية أن تجبر على القيام بالفعل، ولكن الباتوس يمكنه ألا يكون سببا لتغير الأحكام. وهناك اقتراح لمؤرخ القرن

الخامس ثوسيديس Thucydides مناقض لاقتراح هوميروس يتعلق بمصير الميتيلينيين Mitylenians الذين ثاروا على أثينا. فى البداية صوّت الأثينيون المنتقمون لإعدام جميع الميتيلينيين، غير أن العواطف سرعان ما هدأت فى اليوم التالي بشكل كاف لقلب التصويت. ولقد كانت الحجج العقلية ملائمة بدقة لكل حالة، إلى درجة كبيرة بحيث، عند إعادة الاعتبار، يمكن لفريق مهم من المصوتين اختيار إحدى الحالتين. فالانفعال يحدث التوازن. هاتان العاطفتان (الغضب والاعتدال) تنفي إحداهما الأخرى، وتنطويان على أحكام ينفي بعضها بعضا أيضا. [انظر: فن الخطابة.]

وستبرز من جديد هاتان النظرتان إلى الباتوس – باعتباره ملحقا ومكونا – فى النظريات البلاغية المتأخرة، غير أن الأبحاث النسقية حول الباتوس تمحورت بشكل استثنائي تقريبا على اللذة والألم، وعلى هذا النحو وضعت أسسا لفهم الباتوس فى النظريات الفيزيولوجية والسيكولوجية للألفيتين القادمتين. لقد نظر هيراقليطس Heraclitus (c. 575 - 641 bce) إلى مختلف العواطف بألفاظ مادية مستخدما ميزانا رباعيا قوامه الجاف والمبلل، الحار والبارد،على نحو ما موضع اللذة والألم فى تعارض مع هذه الموازين. أما أناكساجوراس Anaxagoras (c. 500 - c.428 bce) فقد تصور الألم بوصفه استجابة الجسد لأي مثير، مادام المثير هو ببساطة احتكاك الجسد مع أي شيء آخر مختلف عنه، وخاصة إذا كان الاحتكاك كثيفا، وحُددت اللذة بوصفها نفيا وتوقفا للألم. وقد نقض ديموقريطس Democritus(c. 460 - c. 370 bce) هذا التأكيد ووجد أن اللذة إيجابية، أي بوصفها اعتدالا للأطراف القصوى سواء فى الجسد أو فى العواطف، وقد عمد لاحقا أبيقور Epicureans إلى توسيع هذه النظرة. وقد أضاف هيبوقراطس Hippocrates (c. 460 - c. 370 bce) إلى الميزان الرباعي المبكر فكرة "النفس" pneuma أو الروح الحيوية التي وحدت بين

الجسد والروح، اللذين يجريان على السواء بطريقة هيدروليكية، وبالمشاركة فى نفس أكثر اتساعا تتخلل العالم. وتمثل التقلصات فى جريان النفس اضطرابات تتجلى بوصفها انفعالات. وسيتبلور مفهوم النفس بشكل أرحب من لدن الرواقيين المتأخرين، على نحو ما سيؤثر بشكل أو بآخر فى الكتّاب من أفلاطون حتى ديكارت وفي غيره من الذين جاءوا بعده.

ويعد الخطيب ثراسيماشوس Thrasymachus of Chalcedon(c. 4460 bce) أحد القلائل الذين حاولوا التفكير فى مكانة الباتوس فى البلاغة، وقد اشتهر بخطبه الدامعة والمؤثرة لأجل إثارة الغضب وتبديده، وهو الذي كتب رسالة كاملة عن "الاستمالات المستدرة للشفقة Appeals to Pity" كما كتب أيضا كتابا مدرسيا عن البلاغة مع استهلالات وخواتم نموذجية موجهة للطلبة لأجل التذكر والتنافس، وقد كان أحد الأوائل الذين اقترحوا أن للانفعالات قوة أشد فى بدايات الخطب ونهاياتها. وقد أدخل جورجياس Gorgias of Leontini (c. 483 - c. 376 bce) نظرية حول الباتوس فى "مديح هيلين" الهازلة حيث سعى إلى إثبات أن هيلين لم تكن مسؤولة عن مذبحة حرب طروادة، لأن كلمات باريس Paris الإقناعية أثارت انفعالاتها واستولت على روحها وسلبتها إرادتها. يمكن أن تكون الخطب مثل دواء مخدر (pharmaka) – وهو المفهوم الذي سيتكرر استعماله حتى القرن العشرين – يستولي على الجسد خيرا أو شرا، مسببا القلق والبهجة والخوف، أو الجرأة، تاركا المستمع مجردا عن وسائل الدفاع، وقد كان تأثير الانفعال على هيلين شبيها بالاغتصاب (Helen 8 - 14 ; in Sprague, 1972, pp. 50 - 54). بالنسبة إلى كل من ثراسيماشوس وجورجياس، يتولى الخطيب التحكم بينما يوجد المتلقي فى وضع سلبي. يضطلع الخطيب باختيارات عقلية حول كيف ومتى يتم إثارة الانفعالات وكبحها، وكيف ومتى يعطى الدواء المخدر للمتلقين الذين لا يسيطرون على استجاباتهم.

أفلاطون

كان لأفلاطون (c. 428 - c. 347 bce) ميل نحو ثراسيماشوس وجورجياس. ولقد قدم فى محاوراته (انظر الجمهورية١) الرجلين معا بوصفهما تقنيين مقتدرين تفضي نظرياتهما مباشرة إلى الاستبداد. ولقد قرِئت فى الغالب هذه المحاورات الأفلاطونية وغيرها بوصفها إدانة للبلاغة، غير أن أفلاطون كان، فى كتابيه "الجمهورية" و"القوانين" معا، راضيا على نحو كامل بامتلاك الإقناع والإلزام فى عالمه المثالي. ولقد اتجه السؤال بدلا من هذا نحو من يمتلك السلطة الأخلاقية والفهم الفلسفي للإقناع والإكراه. وفي سلسلة من المحاورات (التي نادرا ما تكون منسجمة) اكتشف أفلاطون طرقا للتنسيق بين الفهم الأخلاقي النشيط وبين الاستجابات الجسدية الآلية لأجل فهم أوسع للباتوس. ولقد حاول سقراط أن يثبت فى محاورته "بروتاغوراس" Protagoras أن الخير ممتع وأن الشر مؤلم، وأن عاطفتي الخوف والرعب هما توقع الشر. على هذا النحو يجد الجبان المتعة فى الفرار لأنه يسيء فهم موضع الشر الحقيقي (Protagoras 358). وبمقارنة هذا مع تفسير جورجياس للجبن فى "مديح هيلين"، فإن النظرة العيانية لهجوم الجنود تقتحم عيون شخص ما وجسده كاملا، وبذلك تجعل القدمين يتحركان فرارا. لا يمتلك جبان جورجياس المرعوب إدراكا يتفوق به على هيلين المبتهجة.

وتوشك جميع مفاهيم أفلاطون عن اللذة والألم والباتوس أن تكون موصوفة فى محاورات أخرى – وخاصة جورجياس وفيلوبيس وتيمايوس Gorgias, Philebus, Timaeus – التي كشفت عن الروابط بين الإدراك وأنواع الرغبات الجسدية والذهنية الشديدة. فى محاوراته المتأخرة يميز أفلاطون بين ثلاثة أجزاء تكون الروح: الــ"nous" فى الرأس حيث يسود العقل والنفس. وال"thumos" فى الصدر حيث تسود الأهواء النشيطة. و"epithumetikos" تحت

الغشاء حيث تسيطر الشهوات الجسدية (Timaeus 69 ; Republic 435b - 441a, 604d - 605c). هذا التقسيم الثلاثي للنفس عند أفلاطون سيعاود الظهور فى مقاربات الباتوس اللاحقة خلال الألفي عام القادمين.

في محاورة فايدروس قدم أفلاطون عديدا من البيانات المختلفة للانفعالات: مَنْ يستشعرها، ونحو مَنْ، وفي أي ظروف، ونوع الأفعال التي يمكن توقعها بوصفها نتيجة طبيعية لها. لقد قدم هذه البيانات فى مجرى إلقاء ثلاثة خطابات مختلفة؛ المقصود بالخطاب الأول أن يُفهم بوصفه خاطئا تقنيا وأخلاقيا معا، وأن يفهم الخطاب الثاني بوصفه صحيحا تقنيا وخاطئا أخلاقيا، وأن يفهم الخطاب الثالث بوصفه صحيحا تقنيا وأخلاقيا معا. الخطاب الأول الذي أسنده بشكل طريف إلى الخطيب المعاصر لوسياس، هو تقريبا خليط من المعاني الحجاجية حول الحب والرغبة، وحول أولئك الذين لديهم تجربة فى ذلك أو من يفتقدونها، وحول كيف يفعلون. تستهل هذه الخطابات، على سبيل المثال، بملاحظة أنه عندما تستنزف عاطفة الحب ذاتها، فإن العاشق سيندم على ما أبداه فى وقت سابق من مشاعر سخية نحو المعشوق، بينما لا يملك غير العاشق فى علاقة حميمة مثل هذه النوبات من السخاء، وهكذا فإنه لا يترتب على ذلك أي ندم فى نهاية العلاقة، ولأجل ذلك يصبح غير العاشق مفضلا على العاشق (فايدروس، ٢٣١). وتعد الوثبة المنطقية فى النهاية هزلا، بل ودعابة مفرطة، ولكن الملاحظات العديدة التي قدمها حول العاشق وغير العاشق تعد فى الغالب ثاقبة جدا، ويبين هذا الخطاب الكلي كيف أن الانفعالات يمكنها أن تستخدم بوصفها مقدمات فى الحجج البلاغية.

وقد كرر الخطاب الثاني عديدا من المعاني العاطفية نفسها كما كان الأمر من قبل، لكن فى هذه المرة أوضح سقراط كيف أنها يمكن أن تقدم فى تعاقب منطقي على نحو قاس، يبدأ بتحديد فلسفي لعاطفة الحب. غير أن

التجديد ذو عيوب فى التصميم، مادام أفلاطون قد أقامه على مبدأين سبق أن أدانهما فى موضع آخر؛ الرغبة فى اللذات epithumia والرأي البشري المعرض للخطأ doxa (فايدروس ٢٣٧). ويصف الخطاب الثالث لسقراط عوض ذلك النفس مجازيا فى شكل مركبة مجنحة بجوادين، الرغبة فى اللذات مشدودة إلى الهوى النشيط، يسعى أحدهما إلى جذب العربة إلى الأرض، والآخر يسعى إلى أن يكبح جماحه. إن قائد المركبة الذي يصارع لكبح الاثنين لأجل رحلة متناغمة تتطلب قوتهما معا، ليس رأيا doxa بشريا، ولكنه العقل الإلهي nous (فايدروس ٢٤٦). تنتهي المحاورة بالرجوع إلى المقارنة الأثيرة عند أفلاطون لدواع عاطفية، بين المعرفة التي يقوم عليها فن الطب، وبين التدبير الآلي للأدوية المخدرة الذي كان ثراسيماشوس وآخرون مذنبين فيه، بينما كانت تتمثل مهمة البلاغيين من قبل فى اكتساب أفضل للمعرفة بأنواع النفوس وأنواع الانفعالات التي تنشدها هذه النفوس من خلال الخطاب.

على الرغم من بعض الجهود اليونانية القديمة لفهم الباتوس بمصطلحات نظرية، فقد كانت المقاربة المهيمنة تطبيقية، كما تبين ذلك الإحالات إلى ثراسيماشوس. يمكن العثور على نصائح مماثلة فى كتاب Rhetorica ad Alexandrum (يسند اليوم إلى أنكسيمنس Anaximenes) لأجل إثارة غضب القاضي، وخاصة فى الخاتمة، حيث يوجد أيضا الوداد والشفقة والحب والعمل الخيري والبغض والحسد. على الرغم من هذه النصيحة التقنية، فإن جميع الخطباء تقريبا فى الناحية العملية، ابتداء من ديموستين Demosthenes الأنيق إلى دينارشوس Dinarchus البذيء يستشعرون حرية فى استخدام الباتوس فى أي موضع من مواضع خطاباتهم. تكثر استخدامات الباتوس الأدنى تقنية فى الخطب، ولكن أشهرها ما نجده عند الخطيب البارع هيبريدس Hyperides (390 - 322 bce)، الذي دافع عن فراين Phryne، نذيرة أفروديت والمومس الشهيرة. لقد أدينت بعقوبة الموت، وعندما رأى هيبريدس أنه على حافة فقدان قضيته، أخذ

فراين إلى وسط المحكمة وشق ملابسها. وقد تأثر القضاة لمنظرها عارية الجسد تأثرا بالغا جعلهم يشفقون عليها ويقتنعون بأن دينهم يمنعهم من إلحاق الأذى بخادمة جميلة للإلهة (Athenaeus 13. 590 E). وكانت تقارير أفلاطون لا تقل درامية سوى بقليل عن المدعين عليهم يتوسلون إلى القضاة بدموع غزيرة أو يعرضون صغارهم فى ساحة الحكم.(Apology 34)

أرسطو.

لقد قدم أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) التحليل الأكثر كمالا للباتوس فى العالم اليوناني. فى كتابه (حول النفس) DE animaيرى الباتوس بوصفه جزءا خاصا من السيكولوجية العامة التي توحد الجسد والعقل. وفي كتابه Nichomachean Ethics يقدر مكانته العريضة فى إطار الاهتمام الأوسع بالسعادة. وفي كتابه "الخطابة" يتناوله بشكل دقيق فى إطار الحجاج العمومي فى حقول الخطاب القضائي والاستشاري والاحتفالي. [انظر النوع الاستشاري والنوع الاحتفالي والنوع القضائي.] لا حاجة إذن إلى التوجه إلى كل الانفعالات، وليتم الاكتفاء بتلك التي تصورها فى سياق الحجاج العام. لقد بدأ أطروحته بنقد بلاغيين آخرين ركزوا على الباتوس دون غيره من المظاهر الأخرى فى حقل البلاغة. لم ينتقدهم لأنهم عنوا بالباتوس فى ذاته، مادام أنه فى حقيقة الأمر يتفق مع كثير مما قيل من قبل، وفي الجزء النهائي من الكتاب الثالث، يتفق مع القول إن الباتوس ينبغي استخدامه فى الختام، ولكن فقط بوصفه خلاصة للباتوس الذي تم بسطه فى الخطاب. وعوض ذلك انصب نقده على الخلل فى معالجة كيف يرتبط الباتوس مع الإيتوس واللوجوس، وخاصة الخلل فى مناقشة ما يسميه بـــ"القياسات الإضمارية" enthymemes [انظر القياس الإضماري.] ويكاد يكون استخدام أرسطو لهذا المصطلح فريدا، والنظرات المتنازعة بحدة حول ما يعنيه لا تزال قائمة حتى يومنا

هذا، غير أن جميع الآراء المتنافسة تقر إلى حد ما أن الباتوس يرتبط بالقياس الإضماري، ويعد مكونا له.

يناقش أرسطو الباتوس فى كتابه "الخطابة" بطريقتين مترابطتين حيث يعد مفهوما اللذة والألم بالنسبة إليهما معا مركزيين. إنه يفترض أن اللذة حركة مفاجئة وقابلة للإدراك للنفس فى عودتها إلى وضعها الطبيعي، بينما يعد الألم نقيض ذلك (الخطابة ١. ١١). يعد الباتوس عند أرسطو حافزا للإثم، إنه مصطلح يشير به إلى الرغبات والانفعالات الممتعة أو المؤلمة التي تقود الأشخاص إلى التصرف بطرق خاصة (الخطابة ١. ١٠ - ١٢). ويشير أرسطو بمصطلح الباتوس - بوصفه حافزا للحكم - إلى تلك النزعات الممتعة أو المؤلمة التي تقود الأشخاص إلى تغيير أذهانهم (الخطابة ٢. ٢ - ١٢). [انظر الحكم.]

في البلاغة القضائية ينظر إلى الأشخاص باعتبارهم مسئولين عن الأعمال التي اختاروا القيام بها، سواء من خلال العقل المدبر أو الباتوس (1369a 18). بالنسبة إلى الباتوس، فإن الأعمال يمكن القيام بها فى ذروة اللحظة(orge أو thumos) أو بدافع الرغبة (epithumia)، وبينما لا تقتضي هذه الرغبات أي تدبر، فإنها تعتمد على الاعتقاد - أولا - بأن ما تم إدراكه هو فى الواقع احتياج. ثانيا، أن الوسائل المقترحة لإشباع هذا الاحتياج ستقوم بذلك بالفعل. إن شخصا ما يمكنه أن يتصور أنه جائع عندما لا يكون كذلك، أو يتصور أن طعاما معينا يمكن أن يشبع جوعه عندما لا يمكنه ذلك، وهكذا فإنه يشتهي هذا الطعام.

تقوم الرغبات الفيزيقية والذهنية على حد سواء على الاعتقادات التي يمكن أن يعتنقها شخص باستماعه إلى ما يقوله أشخاص آخرون (1370a27)

أو بواسطة تصديق هيئة (phantasia) يمكنها أن تكون نتاج لحظة، أو نتاج تذكر أو توقع. توجد هذه الرغبات فقط فى مواقف معينة، وقد وضع أرسطو قائمة بعديد من الأوضاع الاجتماعية، تم تقديمها فى الأغلب فى صيغة ثنائيات. من الممتع مثلا القيام الأشياء بنفسها فى أحوال كثيرة، كما هو الحال فى الألعاب الرياضية، أو مع الأصدقاء المقربين، غير أن التغيير ممتع فى حد ذاته، مادامت الرتابة مملة.

لقد قدم أرسطو هنا مستودعًا للموضوعات المشتركة topics فى الباتوس التي يمكن استخدامها بوصفها مقدمات فى كل جانبي القضية، والتي أفصح عنها باعتبارها قصده لاكتشاف الباتوس فى البلاغة القضائية 1368b 1) 5 -.[انظر المعاني المشتركة Topics] هكذا فإن الباتوس متضمن فى السياق الإضماري عند أرسطو، وحتى مناقشته للأنشطة الإجرامية يتم توصيلها بواسطة القياسات الإضمارية: يذنب الأشخاص لأنهم يعتقدون أنهم سيفلتون من العقاب أو الضبط، أو لأنهم لا يبالون.

في الجزء الثاني من "الخطابة"، يناقش أرسطو الباتوس بوصفه حافزا للحكم، مادام الناس يحكمون بشكل مختلف اعتمادا على إحساسهم بالألم أو اللذة. لقد وصف ست عشرة عاطفة pathe بوصفها قوائم من الأزواج المتعارضة، ولكنه أشار إلى أن الرغبات القضائية الملحة يمكنها أيضا أن تكون حوافز لتغيير رأي (5 - 1378a1) ، وفي الواقع ناقش الغضب فى الجزأين معا. هنا من جديد، يقام الباتوس على معتقدات طائشة حول ما يجلب اللذة أو الألم، بحيث تتسبب الفانتازيا فى استجابة مباشرة. الغضب مثلا هو ألم ناجم عن ما يظهر أنه ازدراء شخصي أو إهانة. هذا التركيز على اللذة والألم، المظهر والاعتقاد، يحدد كيف تتزاوج العواطف الفردية مع أضدادها. إن نقيض الغضب هو الاعتدال المبني على معيار اللذة والألم، مادام الاعتدال

غيابا أو تقليلا للألم و الغضب، ومادامت الحركة من المستوى الأكبر فى الألم إلى المستوى الأقل تتحدد بوصفها لذة. ويعكس التدرج بين العواطف هذه الفروق الفيسيولوجية والنفسية:

١أ. الغضب ألم عند ظهور الإهانة الذاتية غير المستحقة

١ب. الاعتدال غياب لألم الغضب

٢أ. المودة لذة عند ظهور إحداث منافع بالنسبة إلى الغير

٢ب. البغض غياب لذة المودة

٣أ. الخوف ألم عند ظهور شر وشيك مسلط على الذات

٣ب. الثقة غياب ألم الخوف

٤أ. الحياء ألم عند ظهور العار

٤ب. الخزي غياب ألم الحياء

٥أ. الاعتراف بالجميل لذة عند ظهور الامتيازات المحصل عليها

٥ب. نكران الجميل غياب لذة الاعتراف بالجميل

٦أ. الشفقة ألم عند ظهور حظ سيئ وغير مستحق لشخص آخر

٦ب. النقمة ألم عند ظهور حظ سعيد غير مستحق لشخص آخر

٧أ. [الرضا] لذة عند ظهور حظ سيئ مستحق لشخص آخر

٧ب. الحسد ألم عند ظهور حظ سعيد مستحق لشخص آخر

٨أ. المنافسة ألم عند افتقارنا للمكافآت التي ننظر إليها ونتوق.

٨ب. الازدراء غياب ألم المنافسة.

إن الإلحاح على التعارضات يحدث بعض الأزواج غير الدقيقة، فالحسد تمت مزاوجته بانفعال غير مسمى (1388a24 - 29)، بيد أن هذا الشكل يساعد في بناء القياسات الإضمارية على القضية في جانبيها معا. تنفي الأزواج بعضها بعضا بشكل متبادل، بحيث يعمل انفعال ما على طرد نقيضه، إنها مترابطة بحيث يمكن أن يعمل انفعال ما على إبراز انفعال آخر، فالغضب مثلا يمكن أن يفضي إلى البغض.

وهنا يتم من جديد تحليل الباتوس بلغة المواقف الاجتماعية المخصوصة، والقوائم الطويلة للمناسبات والأشخاص التي تبرز كل انفعال، ومن جديد لأجل نفس الغرض المحدد لتزويد القياسات الإضمارية بالمقدمات في الجانبين المتقابلين (protaseis ; 1378a27). تسبب الفانتازيا الفردية اللذة والألم بسبب المعتقدات السابقة حول هذه المناسبات والأشخاص. في حال الغضب، يتضمن "إهانة الذات غير المستحقة" معتقدات طائشة حول ما الذي يكوّن الإهانة، وماذا يعني غير مستحق، والعلاقات بين الذات وبين شخص مهين. خلاصة القول، يزود الباتوس الخطيب بذخيرة من المعاني الحجاجية الهائلة للتأثير في الأحكام. لنفترض في دعوى قضائية أن رجلا تم الاعتداء عليه، وأن الإثم تمحور حول حافز الجريمة. فإن الطرف المتضرر يدعي بأنه كان ثمة استخفاف سابق بالمدعى عليه، الذي أصبح في هذه الحال غاضبا، وألم الغضب يستلزم لذة الانتقام والانتقام يؤدي إلى الاعتداء. ويرد المدعى عليه بأن الإهانة السابقة لم تكن إهانة أبدا، مادام الطرف المتسبب في الإزعاج سبق له أن اعتذر وأوضح أن الإهانة الظاهرة كانت حقا حادثا عارضا. وإذ يقبل الاعتذار، فلا إهانة، ولا غضب، ولا انتقام، ولا اعتداء، ولا إثم.

ومادامت العواطف الفردية قد أقيمت على الاعتقاد، فإنه من الممكن تغيير دوافع الاعتقاد، ومن ثم تحريك المتلقين من انفعال إلى آخر. ويمثل الازدراء إحدى الإهانات التي تؤدي إلى الغضب، كالاحتقار الذي يصدر من صديق أو من مستفيد أو من عالة على غيره، أو الذي يصدر من شخص تلقى معاملة حسنة. فى قصة ثيوسيديس Thucydides عن تمرد ميتيلين Mitylene، حاول أحد الخطباء إثبات أن الميتيلينيين Mitylenians احتقروا صداقة الأثينيين، فى مقابل ذلك ذهب آخر إلى أنه ليس هناك ازدراء، ولكنه فقط الأمل الخاطئ فى الاستقلال. بالنسبة إلى أرسطو، تتمثل مهمة الخطيب فى تلقين التفكير فى العناصر الطائشة التي تكون اعتقادا ضمنيا. وإذا كان بعضها يمكنه أن يتغير، فإن المتلقين يمكنهم أن يتحولوا من انفعال إلى آخر، وعلى هذا النحو يمكن أن يتغير حكمهم الكلي حول الظروف.

وللباتوس، بوصفه وسيلة للإقناع، صلة بالإيتوس. وهنا أسيئ فهم آراء أرسطو بشكل كبير من لدن الكتاب اللاحقين. فى الجزء الثاني من "الخطابة" يميِّز الإيتوس بوصفه يقوم على إبراز ثلاث صفات: العقل السليم، والفضيلة، والعطف. وقد تم تناول هذا الأخير بشكل واضح باصطلاح الباتوس (1378a18)، حيث يتوقف على كفاية الخطيب تبيين كيف للمتلقين أن يستشعروا اللذة أو يخففوا الألم. ويعد الألم الإحساس الأكثر حدة، حيث إنه حركة النفس بعيدا عن حالتها الطبيعية، بينما تعد اللذة تلطيفا للألم. فى وقت لاحق سيعمد الكتاب إلى ربط الحركات المؤلمة بشكل عام بالانفعالات العنيفة أو القوية، والرغبة فى تخفيف هذه الآلام بالانفعالات الهادئة، وهكذا أصبحت الفروق المميزة بين الباتوس والإيتوس غير واضحة. بعد موت أرسطو ضاعت السياقات الفلسفية الواسعة لفهم الباتوس، وقد اتخذت آراؤه المتبقية حول الباتوس من دون هذه السياقات مظهر التلاعب الساخر.

روما وشيشرون.

إن التشابهات بين الباتوس فى البلاغتين اليونانية والرومانية ليست عميقة، على الرغم من وجود المظاهر المسرحية للتجاوب الانفعالي فى التراثين. لقد رفع الموظف الفاسد سيرفيوس غالبا Servius Galba فتىً يتيمًا على كتفيه فى محاولة الحصول على الرأفة، ومحامي مانيوس أكيليوس Manius Aquilius القنصل واللواء السابق الذي ارتدى لباس الحداد فى محاكمته الخاصة، شق ثوب الرجل العجوز لكي يظهر ندوبا يحملها من عمر قضاه فى حروب لأجل روما (Cicero, De oratore 1.53 ; 2.47). وخلال العصر الإمبراطوري كان نمطيا جدا استخدام اليتامى والملابس القذرة والسيوف الملطخة بالدماء وشظايا العظم، حتى إن بعض الجهود باءت بالفشل؛ فأحد الأطفال عثر عليه يبكي لأن معلمه قرصه، وآخر يبكي بعد طرده مع تعليق يقول: "امنحه كسرة من الخبز لإسكاته". وفي حالة أخرى يكلف خادمان برفع تمثال من الشمع لرجل ميت فى الذروة المحزنة للخطبة، ولكنهما لا يعلمان شيئا عن الذروة، وعوض ذلك يواصلان السير بالتمثال وينسحبان، ونتيجة ذلك كانت الدموع الوحيدة هي دموع الضحك (Quintilian, Institutio oratoria 6.1.40 sq)، ولقد وجد الغلو المثير للشفقة تشجيعا من الذوق الروماني للعروض المسرحية بكل أنواعها. وحتى خطبة التأبين، وهي النوع الروماني المتميز، تعود بجذورها إلى مواكب التماثيل واللوحات والرموز والندباء. ويُظهر الخطاب اللاتيني المبكر حبا للتقنيات الأسلوبية المتوهجة وللتلاعب اللغوي، وحتى رجل الدولة الروماني كاتو المراقب Cato the Censor الذي نفى البلاغيين المحترفين عن روما، شكل كتاباته الخاصة بالتكرار الصوتي وأشكال من الفكر تتوخى تكثيف الأفكار المحمولة. وعلى هذا النحو تأسست المفاهيم المزدوجة للإمتاع الأسلوبي والتكثيف الشعوري فى الخطابة الرومانية، حتى قبل استيراد النظريات الهيلنيستية حول الأسلوب،

وتظهر المناقشة العملية للمجازات والصور فى الكتاب الذي يجهل مؤلفه Rhetorica ad Herennium (وقد نسب الآن إلى كورنيفيسيوس "Cornificius" المجهول") أنه كان أمرا مألوفا خلال القرن الأول قبل الميلاد التفكير في التلاعب اللغوي باصطلاح التأثير العاطفي. [انظر المحسنات البلاغية والأسلوب.]

على الرغم من اهتمام الرومان بالباتوس، فإن الكتابة النظرية فى الموضوع قليلة نسبيا فى القرون الأولى، والكتب المدرسية نمطية بشكل كبير. ولقد حدد كتاب Ad Herennium أن الخطيب ينبغي أن يستخدم الاستهلالات والخواتم معا لإثارة الشفقة حول عجزه وحاجته وتوحده وسوء حظه. ويستخدمها ثانيا لكي يصب الازدراء والبغض على خصمه (1.v.8). ويمكن أن يتولد البغض بعشر طرق، مثال ذلك إثبات أن الصنيع كان شائنا بشكل واضح، أو إنه موجه قصدا ضد الأعلى مقاما اجتماعيا، أو ضد الآلهة، أو إنه بشكل خاص لا يمكن تبرير صدوره عن هذا الشخص، أو المطالبة بأن المجرمين الآخرين ينظرون إلى هذه المحاكمة لكي يروا إلى أي مدى يمكنهم الإفلات من العقاب. وتعد المعاني التي تثير الشفقة آلية على حد سواء وتحدد الطرق الكثيرة التي يمكن النظر بها إلى المحن (2.xxx.48 - 50). ويبدو عديد من هذه القواعد وكأنها فروض مدرسية، تشبه إلى حد بعيد the progymnasmata التي تهيئ الطلاب للدراسات البلاغية، ولكن عينات من جميع هذه التقنيات تقريبا يمكن العثور عليها فى خطابة هذا العصر.

ولم يكن الرومان قبل مجيء السياسي والبلاغي الروماني المرموق ماركوس توليوس Marcus Tullius (١٠٦ - ٤٣ ق.م) يملكون نظرية حول الباتوس، ومع ذلك كانت مقاربته تطبيقية أكثر منها نسقية. لقد برز الباتوس فى كتابه الناضج De oratore بوصفه شيئا يحدث للجمهور. يقرر الخطيب فى

البدء ما إذا كانت قضيته تستحق التجاوب العاطفي، ثم يحلل الاستعدادات العاطفية للقضاة - وهي مهمة صارت أكثر سهولة بواسطة الدعاوي االقانونية المتطاولة فى روما - كما أنه إما يعمد إلى تفخيم المشاعر القائمة أو يسعى إلى توليد مشاعر لا توجد البتة. وتعد المشاعر عند شيشرون "اضطرابات النفس"(animi perturbtiones)، ولأجل تحقيق القوة التامة وعلم البلاغة اللذين يوجدان فى الباتوس أكثر مما يوجدان فى الإيتوس أو اللوجوس، يحتاج الخطيب إلى فهم كل حركات النفس (omnes animorum motus ; De oratore I. 17). ومع ذلك فإن الانفعالات التي يناقشها شيشرون فعليا تم تقييدها فى أزواج من المعاني المتقابلة؛ البغض والتقدير، المكر والود، الخوف والأمل، الرغبة والكره، الفرح والحزن، الشفقة والعقاب (2.185sq.)، ومع ذلك فقد تغيرت من جديد هذه القائمة عندما ناقش الانفعالات المفردة؛ أي الحب والكره والحنق والمكر والحسد والشفقة والأمل والفرح والخوف والإغاظة(211 - 2.206). ولقد جاهد الدارسون منذ عصر النهضة حتى اليوم لوضع هاتين القائمتين على خط قوائم أرسطو نفسه، ولكن بقليل من التوفيق. ومنذ شيشرون لم يُبد أحد أي اهتمام باللذات أو الآلام التي تشكل جزءا من أساس العواطف عند أرسطو، ولم يتم النظر إلى الانفعالات باعتبارها حالات سيكولوجية طبيعية وفطرية. ما يشترك فيه أرسطو وشيشرون هو إدراك الانفعالات بوصفها قائمة على المعتقدات، وأن الخطيب يمكنه أن يغير تلك المعتقدات الضمنية. يُكتسب الحب مثلا بإثبات أن فعل المدعى عليه لم يكن لمصلحته بقدر ما كان لمصلحة الجمهور. وبالعكس فإن الإسهاب فى الحديث عن فعل الخصم بأنه هدام أو غير نافع للجمهور، يولد البغض. ومن المرجح أن يكتمل مثل هذا الإسهاب بالتفخيم ومحسنات اللغة أكثر من اكتماله بالعقل وحده. [انظر: التضخيم.]

ينبغي للخطيب عند شيشرون أن يحس بالشعور الذي يريد من الجمهور أن يحس به، ويثبت شيشرون هذا الأمر في ميدان الممارسة والأخلاق والمسرح. من وجهة نظر تطبيقية، من غير المعقول أن نتوقع من الجمهور أن يجرب شعورا لا يمكن حتى للخطيب أن يحس به. من الممكن التظاهر بمثل هذا الشعور، لكن من الأسهل فعليا الإحساس به، وخاصة مادام أن الخطاب يستولي أولا على الخطيب قبل أن يستولي على الجمهور، وأن عديدا من الخطباء تجرفهم كلماتهم الخاصة (2.191). ومن وجهة نظر أخلاقية، يمكن الإخفاق في إبراز الشعور الشخصي أن يكون اتهاما ذاتيا بالخداع الأخلاقي، بما أن الخطيب يجادل بوضوح لأجل قضية لا يؤمن بها (Brutus 278). وحتى إذا ما ترافع الخطيب لمصلحة زبون حقير، فإنه لا يزال من الضروري أخلاقيا إبراز الشعور لإظهار أنه وفي لأصدقائه، ونبيل اتجاه الغريب الذي يدافع عنه. هذا الأخير أفضى إلى أداء مدهش، مادام الباتوس الخاص بالخطيب وتمثيله المسرحي سيُقسَّمان على أساس وقائع الحالة الموضوعية المعطاة، وقد أكد شيشرون على الأداء الخطابي بواسطة استخلاص مقارنات عدة بين الممثلين والشعراء المؤثرين في العواطف.

في كتاب شيشرون De oratore هناك تبادل بين الباتوس المسرحي والإيتوس. إن الباتوس الذي يفترض أن يحس به الجمهور، يدعمه إدراك بأن الخطيب الجدير بالثقة يحس به أولا، ولكن في الوقت نفسه تتشكل جدارة الخطيب بواسطة إدراك أنه قادر على الإحساس بالباتوس. إن التمييز بين الباتوس والإيتوس ليس واضحا بطرق أخرى كذلك. يقدم شيشرون في كتابه ثلاث مهمات للخطيب مثل docere, conciliare, movere لتثقيف الجمهور، واكتساب وده، وإيقاظ مشاعره - غير أن conciliare في السياق الروماني مؤمَّن بواسطة استخدام الباتوس بالشفاعة. وعندما كتب في وقت متأخر كتابه

البلاغي"الخطيب" Orator راجع هذه الصيغة التي أصبحت probare, delectare, flectere – لكي يبرهن للجمهور، ويمتعهم، ويدفعهم بانتصار – غير أن delectare تعني في هذا السياق افتتان وإغراء جمهور روماني مجرب ومتخم بواسطة إثارة اهتماماتهم الواسعة، من الفضول المتلصص إلى الإشباع الجمالي (xx.69). في الصيغتين معا، يصعب فصل الباتوس المسرحي عن الإيتوس، وبينما صارع الباحثون منذ وقت مبكر من العصور الوسطى حتى اليوم لأجل وضع مهمات الخطيب الثلاث وفق شيشرون على الخط نفسه الذي توجد فيه مكونات الخطابة عند أرسطو المتمثلة في اللوجوس والإيتوس والباتوس، فإن شيشرون ربما لم يفكر في مصطلحات أرسطو البتة. والمدهش أكثر هو التحول في صيغتي شيشرون بين تحريك المشاعر وتحريك الشخص بكامله.

وطوال قرن اختفى تماما التمييز بين الباتوس والإيتوس. ولقد قسم المربي كينتيليان Marcus Fabius Quintilianus (Quintilianus : c.35 - c. 100ce) كل الانفعالات إلى نوعين، مستخدما اللفظين اليونانيين الباتوس والإيتوس؛ الأول لوصف الاضطرابات العنيفة للنفس، والثاني لوصف الانفعالات الوديعة التي تضمن الود (نظام الخطابة ٦،٢،٨ – ١١). لقد تشكلت معظم أفكار شيشرون المبكرة حول الباتوس بتفصيل تام من لدن كينتيليان، ولكنه أضاف عملية سيكولوجية لتفسير كيف يمكن أن يجعل الخطيب نفسه يحس بانفعال ما. إن الجسد قادر على استقبال فانتازيا، أو "رؤية" تفرض نفسها بحيوية على الخيال، والخطيب يمكنه أن يستدعي مثل هذه الرؤى لتوليد وضوح التفاصيل التي ستجعله والآخرين يحسون بأنهم في حضور الحدث الأصلي. لقد زعم كينتيليان أنه هو نفسه كان موفقا في الفانتازيا حتى إنه بكى وأصبح شاحبا في أثناء كلامه (٦. ٢. ٢٩ – ٣٦). ليس هذا تصور أرسطو للفانتازيا، ولكنه

شبيه بالفهم الذي قدمه عنها شيشرون بوصفها رؤية تصدم الجسد من الخارج، وشيشرون يسندها إلى الفلاسفة الرواقيين (Academica 1.xi.40).

إن معجم الرومان حول الباتوس هو ذاته معجم الفلسفة الرواقية، وهذا المعجم ينم على طريقة فى التفكير حول الباتوس كانت جارية فى المجتمع الروماني. إن الرواقية، كما يفهمها شيشرون، تردم الصدع بين العقلي واللاعقلي بواسطة افتراض لوجوس يوحد كل الطبيعة، وافتراض عقل بشري كاف لإدراك هذا اللوجوس. إن الاستدلال الذي يتفق مع هذا اللوجوس يتفق مع الطبيعة نفسها، لكن الأخطاء يمكنها أن تحدث، والآراء غير الصحيحة المضادة للطبيعة والعقل السليم تسمى العواطف. وتختلف هذه العواطف عن استعدادات الصحة العقلية فى كونها ترمي بالنفس فى حركة عنيفة تتداخل مع الحكم، وهكذا يحاول الحكيم الرواقي التقليل من العواطف فى حياته الخاصة لكي يصبح لامباليا. ومهما تكن جاذبية الرواقية بوصفها فلسفة شخصية، فإن كلا من شيشرون وكينتيليان رفض بقوة أن تكون قاعدة للفهم أو استخدام الباتوس فى الخطابة العمومية، وهما معا تصورا أن الخطباء الرواقيين كانوا مملين بشكل لا يحتمل، غير أنهما معا قبلا الطريقة الرواقية فى مناقشة الباتوس؛ فهو اضطراب عنيف للنفس يفقد الأحكام توازنها. وقد استخدم شيشرون فى مؤلفه البلاغي الأخير نفس المعجم الذي أسنده إلى الرواقيين فى كتابه Tusculan Disputations؛ أي إن الباتوس هو اضطراب (perturbatio) النفس، بل إنه اعتلال (morbus)، ولكنه دائما حركة (commotio and motus) النفس بعيدا عن العقل السليم وعلى نحو متعارض مع الطبيعة، وتوق (appetitus)؛ أي إنه عنيف جدا (4.8 sq). فى الحياة الخاصة يفعل الشخص خيرا عندما يضبط مثل هذه الاضطرابات، ولكن فى الحياة العامة، يحسن بالخطيب أن يحدث مثل هذه الاضطرابات فى الآخرين.

من العصر الوسيط إلى عصر النهضة.

لقد عمد اللاهوتي المسيحي أوغسطين Aurelius Augustinus (354 - 430 ce) إلى تغيير طبيعة النقاش عندما أدمج الباتوس فى الإرادة. فى كتابه "مدينة الإله"، تبنى فكرة أن الانفعالات اضطرابات النفس المناقضة للطبيعة، ولكن المسيح والقديس بولس أحسا بالانفعالات، ولأجل ذلك لا يمكن أن تكون كلها قبيحة. لكن بعضها شرير، ومادام الشر مجسدا، فإنها لا يمكن أن تبنى على العقل أو الجسد.

يفترض أوغسطين عوض ذلك نظرة مختلفة لملكات النفس كالذاكرة والذكاء والإرادة (voluntas)، حيث وضع فيها طاقات العقل والمعرفة والحب (amor). على هذا النحو تصبح جميع الانفعالات تجارب ذاتية لأفعال الإرادة، ويصبح الحب مركز التجربة الإنسانية. لم يعد الباتوس قضية العقلي أو غير العقلي، ولكنه بالأحرى صار قضية توجيه الإرادة وموضوع الحب (الفصل. ١٤).

لقد بدأ أوغسطين حياته المهنية أستاذا للبلاغة، لأجل ذلك كانت تحولاته إلى فكرة شيشرون عن الباتوس مخبرة ودالة معا. فى الجزء الرابع من كتابه "حول التعاليم المسيحية" On Christian Doctrine أخذ صيغة شيشرون المتأخرة المتمثلة فى docere, delectare, flectere وضمّن متوالية غائية فى الباتوس "تزيغ" مستمعا من نمط فى الحياة إلى آخر. ولقد أسند لكل من المهمات الخطابية الثلاث أحد أساليب شيشرون، الوضيع والمتوسط والرفيع، لكن بينما يميز شيشرون بين هذه الأساليب وفق ما إذا كانت القضية الخاصة تستحق أسلوبا خاصا، فإن أوغسطين يميز بين الأساليب على أساس وظيفة كل أسلوب. الأسلوب الوضيع يعلم (docere) بطريقة تحليلية مجردة تقريبا من الباتوس، والأسلوب المتوسط يمتع (delectare) وبذلك يجتذب

الجمهور إلى حب الخير، بينما يستعمل الأسلوب الرفيع كل الوسائل اللغوية لإعادة توجيه الإرادة. تقوم الحاجة، بالنسبة إلى شيشرون، إلى هذه المهمات الخطابية الثلاث والأساليب الثلاثة لأجل الإقناع، ولكنها بالنسبة إلى أوغسطين موجهة كلها لاكتساح الجمهور. إن الجمهور ينبغي أن يكون مقتنعا بشكل جيد بما عليه أن يفعل، ولكن الباتوس وحده يملك إجباره على العمل وفق هذه المعرفة (٤. ٢٧).

على هذا النحو عاد أوغسطين إلى تلك النظرة حول الباتوس التي تماثل نظرة اليونانيين قديما – أعني الفصل بين العقل والإرادة – ولكن من خلال عملية مختلفة تماما. لقد أيقظ هذا من جديد الشبح الذي أقلق أفلاطون، وهو فكرة وجود قوة فوق الإنسان، أي مستقلة فعليًا عن العقل. لقد أحبط أوغسطين هذا المشكل فى الأجزاء الثلاثة من كتابه "حول المذهب المسيحي" التي خصصها لما ينبغي للمسيحي أن يقوم بتعليمه، والذي اقترب فيه من جديد إلى إجابة أفلاطون الخاصة: ينبغي تدبير قوة البلاغة من لدن الحكيم فقط. إن الباتوس هو نهاية المذهب بالنسبة إلى أوغسطين، لكن المذهب فى النهاية يضبط الباتوس البلاغي. يعتمد الحل المقترح على الالتزام بالربط بين الأخلاق والباتوس، وتنويعات هذا الحل ستثبت جاذبيتها حتى القرن السابع عشر، عندما ضعف هذا التعهد مفضيا إلى فصل حديث بين العقل والباتوس.

طوال معظم الفترة المتأخرة من العصر الوسيط، ضاعت جميع المؤلفات البلاغية التي كانت أكثر تعلقا بالباتوس، وهي مؤلفات أفلاطون وأرسطو وشيشرون وكينتيليان. وما تبقى هو الكتاب المجهول المؤلف Rhetorica ad Herennium وكتاب شيشرون المبكر De Inventione، ولكن مع افتقاد مجال الخطابة السياسية والقضائية فى العصر الوسيط، فإن النصيحة هنا حول الباتوس يمكن أن تبدو فقط ميكانيكية ومن دون موضوع. ومع

إعادة الاكتشاف التدريجي للمؤلفات المفقودة، أنجزت محاولات لإعادة بناء الأفكار الكلاسية حول الباتوس فى سياق المفاهيم المسيحية. وقد حاول اللاهوتي الدومينيكاني جيل الروماني Giles of Rome (Aegidius Romanus أو Egidio Colonna، c.1245 - 1316) فى كتابه Expositio super tribus libris rhetoricorum بشرح العواطف انطلاقا من كتاب أرسطو "الخطابة" مستعملا نظرية فى الانفعالات قام بتطويرها زميله الدومينيكاني توما الأكويني Thomas Aquinas(1225 - 1274) فى كتاب Summa theologica. لقد ميز توماس بين أنواع عديدة من الانفعالات، وحدد طبيعة الانفعالات الحيوانية animalis passio بوصفها حركة النفس التي تزعج الجسد. ومرة أخرى يتم تبني النظرة الثلاثية للنفس، لكن فى هذه المرة تنظر الشهية العقلية إلى الخير الكلي، بينما تنظر الشهية الحسية إلى الفوائد الحسية والشرور. ومرة أخرى تم تقسيم الانفعالات الحسية إلى الشعور بالرغبة الملحة والشعور بالغضب السريع، ولكن فى هذه المرة أصبحت الأولى انفعالات الملاحقة والاجتناب، والأخيرة انفعالات المقاومة والتجاوز. هكذا اقترح توماس أحد عشر انفعالا، وذلك بأسبقية الطبيعة المطلقة للرغبة الملحة على الطبيعة الظرفية للغضب السريع:

صنف الخير والشر

الرغبة الملحة: الحب والكره والرغبة والنفور والسرور والحزن

الغضب السريع: الأمل والخوف واليأس والجرأة والغضب

وتظهر المقارنة بين هذه القائمة وقائمة أرسطو المكونة من ستة عشر انفعالا أنها مقاربة مختلفة جدا؛ فالغضب مثلا لا يملك انفعالا رفيقا عند توماس، كما أنه تحرك من الاعتبار الأول إلى الأخير. لا يختلف الكاتبان فى تحديد قوائم المشاعر والأزواج فقط، ولكنهما يختلفان فى الفلسفة المولدة.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات، فإن جيل الروماني Giles of Rome كان لا يزال قادرا على الاستفادة من توماس فى جعل المشاعر فى كتاب أرسطو عن الخطابة تتسق مع اللاهوت المسيحي، وقد استثمر كتابه "الترتيب" Expositio بعد ذلك بثلاثة مئة عام.

وقد حاول دانييل باربارو (١٥١٣ - ١٥٧٠) أحد أتباع الحركة الإنسانية فى البندقية وباترياركا أكيليا Aquileia، أن يكون أكثر مرونة فى التوفيق بين الباتوس عند كل من أرسطو وتوماس، وذلك فى كتابه Commentarii (١٥٤٤) حول البلاغة. لقد اتبع ترتيب أرسطو للعواطف، ولكي يقوم بذلك عمد إلى قلب ترتيب توماس وتجاهل الأساس المنطقي الذي اعتمده، وذلك لصالح تركيب بلاغي مختلف تماما. فقد ضمن باربارو على سبيل المثال انفعالي الأمل واليأس المبنيين على الخير، وانفعالي الخوف والجرأة، وانفعالي الغضب والاعتدال، القائمة على الشر. هذا التمييز أقرب إلى الأكويني Aquinas منه إلى أرسطو الذي لا يعتبر الأمل واليأس عاطفتين، ولكنه استخدمهما بالأحرى لإقامة تمييزه بين العواطف. هكذا حاول باربارو أيضا أن يجد وسطا أرسطيا بين الخوف والجرأة، ولكنه عوض ذلك انتهى إلى التمييز بين الخوف الشريف والخوف المهين. ويتوافق الخوف المهين مع ما أسماه أرسطو بالعار، ولكن الخوف الشريف لا يملك نظيرا حقيقيا عنده ولا يتوافق إلا على نحو ضعيف مع ما أسماه أرسطو بالفوبوس phobos. غير أن الخوف الشريف بالنسبة إلى باربرو هو خوف من الحصول على أشياء بشكل باطل، أو من ترك الباطل ينتصر على الحق، أو من ترك الكذب ينتصر على الحقيقة، وهذا يقع فى صميم المشروع البلاغي الكلي؛ إنه الحافز لأجل الانخراط فى البلاغة بشكل مطلق. وبعد اكتشافه لجميع حركات النفس فى البلاغة، خلص باربارو إلى حث خطباء عصره على تحاشي هذه motus animi المخصصة للشر ومراعاة تلك المخصصة

للخير، وذلك فى اتجاه الاستفادة من الحل اللاهوتي لتوماس فى الشؤون المدنية. وهذه النظرة إلى الباتوس بعيدة جدا عن النظرة الأرسطية فى كتابه "الخطابة"، ولكنها نظرة تحتفظ بالصلة مع أهداف كتابه المبكر Dialogo della Eloquenza (١٥٥٧)، لأجل تشكيل رجل نبيل حقيقي وكامل يمتلك الفصاحة والحكمة لكي يحكم الدولة المدنية، ويحرك نفوس الناس، ولأجل أن يعمل بوصفه خطيبا مقدسا، إنه رجل نبيل لامع، ومسيحي حقيقي.

عصر النهضة.

لقد عقَدت فعليا استعادة النهضة للمواد الكلاسية، الجهود نحو فهم الباتوس فى البلاغة من بعض النواحي. ولقد واجه الشراح مشكلات فى التمييز بين المفاهيم الأفلاطونية والأرسطية والرواقية، والتمييز بين المفاهيم الهيلينية والمفاهيم الرومانية المتأخرة، وقد ازدادت الصعوبة عند افتراض أن البلاغة اليونانية كانت متوافقة مع البلاغة الرومانية.

ولقد حاول الأستاذ البدوان the paduan أنطونيو ريكوبوني Antonio Riccoboni (١٥٤١ - ١٥٩٩) أن يمحص هذه الالتباسات فى إعادة صياغته Paraphrasis (١٥٨٨) لخطابة أرسطو، ملاحظا أن العاطفة the pathe ترجمت فى اللاتينية بوصفها "حركات مضطربة للنفس" perturbationes animi. ولقد عزا هذه الترجمة إلى الوحدة الرواقية بين الجسد والنفس، والنتيجة أن التمييزات بين حركات الجسد ينبغي بالضرورة أن تكون تمييزات تتعلق بالنفس، وحاول أن يثبت أن هذا التراث الرواقي المتأخر حول الباتوس لا يتوافق مع الباتوس عند أرسطو. إن الحل الخاص الذي اقترحه يدمج النفس عند أرسطو De anima فى الأخلاق إلى نيقوماخيس Nicomachean Ethics لوصف تبادل ثلاثي فى النفس الإنسانية؛ هناك ملكة تمكن البشر من الحركة، وهناك الانفعالات affectus تعمل بوصفها وسائل هذه الملكة، وهناك استعدادات تكتسب بواسطة تكرار استعمال هذه

الانفعالات المساعدة instrumental affectus. يعمل هذا الباتوس من خلال تقسيم ثلاثي للكون. هناك عالم فيزيقي يعانق كل شيء، وعالم ذهني يمكنه أن يتصور كل شيء فى هذا العالم الفيزيقي، وهناك عالم الخطاب يمكن أن يتمثل فيه مجموع العالم الذهني. إنها البلاغة التي تحكم، وتلطف، وتزخرف عالم الخطاب، وهي التي تجلي العقل الذي يتقاسم مع الله. وفي النهاية تعد البلاغة وسيلة يمنحها إله مسيحي، ومن الأحسن معرفة الكون الإلهي وحمل النفس فى مشاركة قريبة مع الله. وقد بلور اللاهوتي البروتستانتي جون رينولد John Rainolds (١٥٤٩ – ١٦٠٧) الموقف نفسه؛ فقد درس خطابة أرسطو فى أكسفورد طوال سنوات ١٥٧٠. تمثل العواطف بالنسبة إلى رينولد اضطرابات طبيعية للنفس، تحركها الحواس، وقد غرسها الله لغرض طلب الخير وتجنب الشر، على الرغم من أن أرسطو لم يدرك هذا تماما. وبابتعاده عن اعتباره الضيق لأرسطو، صرح بأن البيان قسمان، "ينتمي الأول إلى الحياة، والثاني إلى اللسان"، ويعد شيشرون معلم هذا الأخير، بينما يمثل المسيح معلم القسم الأول.

ولقد نشأت المقاربات التربوية للباتوس جنبا إلى جنب مع المقاربات البحثية. لقد أنجز رودولفيس أغريكول (Roelof Huysman ; 1444 - ا 1485) Rudolfus Agricola الإنساني الألماني كتابه De inventione dialecticae حوالي ١٤٧٩، وقد نشر بعد وفاته فى سنة ١٥١٥، وهي السنة نفسها التي نشر فيها نهائيا كتاب جيل "الترتيب" Expositio. لقد رسخ أغريكولا أن عديدا من إجراءات المعاني المشتركة المفيدة للجدل تعمل أيضا لصالح الباتوس. فى الجزء الثالث حدد الانفعالات affectus بوصفها نوعًا من النوبة تصيب النفس وتحمل الشخص على الرغبة فى الشيء أو رفضه على نحو أقوى مما قد يقوم به عندما يكون فى حالة نفسية هادئة، وعندما يحيل قراءه إلى العواطف فى كتاب أرسطو

"الخطابة"، فإن مناقشاته العديدة حول المشاعر العنيفة والهادئة تظهر أن تفكيره يدين أكثر إلى التقاليد اللاتينية المتأخرة. لقد أقيم الباتوس عنده على نوع من الذوق الاجتماعي الذي يتلاءم فيه حكم المتلقي على ما حدث مع الحكم على الشخص الذي وقع عليه الحدث. هكذا يفضي الحظ السيئ إلى مختلف الانفعالات التي تتوقف على ما إذا كان يبدو الأمر مستحقا أم لا. لقد أكد أغريكولا على ثلاثة إجراءات عاطفية قائمة على الذوق. أولا، بعض أنواع اللغة لها صلة ببعض أنواع الانفعال، ليس فقط فى مستوى المعنى، ولكن أيضا فى مستويات النغمة وأشكال ونماذج اللغة التي تناولتها البلاغة فى المستوى الأسلوبي. ثانيا، يمكن اكتشاف الانفعال بواسطة وصف الجمهور فى نوبة الانفعال، وخاصة إذا كان هناك توافق قائم على المحاكاة بين السرد والانفعال. ثالثا، يمكن استخدام الموضوعات الجدلية لاكتشاف الانفعال انطلاقا مما حدث، ومن الذي وقع عليه الحدث، ومن استحقاق كل منهما. فى جميع هذه الإجراءات الثلاثة، يمكن استخدام تقنيات التضخيم للإسهاب فى انفعال ما، وتكبيره، وتصغيره، أو رفضه.

وستكون إجراءات أغريكولا الثلاثة مهمة بالنسبة إلى بلاغة عصر النهضة وبالنسبة إلى الممارسات العامية فى الشعر والسرد والترسل والمواعظ. إن الانتشار الكبير لبحث أغريكولا جعلت أفكاره رائجة فى أوروبا، وهناك أمثلة عديدة للتأثير الذي أحدثه. توماس ويلسون – Thomas Wilson (c. 15٢٥ 1581) وزير الخارجية القادم فى العصر الإليزابيتي، قدم نسخة إنجليزية لصيغة أغريكولا: "إن العواطف إذن (وتسمى الأهواء) ليست شيئا آخر غير حمل الذهن على استحسان أو استهجان أي شيء" (فن البلاغة ١٥٥٣، ١٣٠)، وأثبت كيف أن الخطيب يمكنه أن يفخم انفعالا بواسطة العمل من خلال سلسلة من الموضوعات المتعلقة بالظروف:

١- ماذا حدث؟

٢- من قام بالفعل؟

٣- ضد من؟

٤- ولأي سبب؟

٥- في أي وقت؟

٦- في أي مكان؟

٧- After what sorte؟

٨- ما القدر الذي نتج عنه؟

إن سيطرة المقاربة الإجمالية للباتوس البلاغي هي النظرة السائدة التي سبق أن رأيناها مع أوغسطين فى إعادة صياغته المبكرة لشيشرون: "هناك ثلاثة مطالب بالنسبة إلى الخطيب؛ أن يُعلم، ويُمتع ويُقنع." ومهما يحدث شيء آخر مع التعليم والإمتاع، فالإقناع نفسه يترادف تقريبا مع الباتوس.

إن الاعتقاد بأن إيجاد المعاني المشتركة تشترك فيه البلاغة والجدل معا، يمكنه أن يوحد الحقلين، ولكنه يمكنه أيضا أن يفصل بينهما، كما حدث مع المربي الفرنسي بيير دي لارامي (Petrus Ramus , Pierre de la Ramée 1515 - 157)، الذي حاول أن يقلص الازدواج بين المجالين بإسناد المعاني المشتركة topics إلى الجدل وحصر البلاغة فى الأسلوب والذاكرة والإلقاء. ونتيجة ذلك عزل الأسلوب عن الإيجاد، بحيث كان الأثر شعوريا أكثر منه معرفيا. وهناك أعمال أخرى معاصرة ركزت على الأسلوب لأجل الباتوس مثال مصنف موجز De arte rhetorica (١٥٥٧) قام بتجميعه اليسوعي كيبريانو سواريز Cypriano Soarez (١٥٢٤ – ١٥٩٣). لقد اعتمد سواريز

على التوليف بين أرسطو وشيشرون وكينتيليان، وذلك بأخذ أسهل الأجزاء منالا عند كل مؤلف وترك الاختلافات، ولكنه فى النهاية لا يعنيه الحجاج بقدر ما يعنيه الأسلوب الذي يمكنه أن يحدث الإيمان (fides) بواسطة تحريك النفوس (motu animorum)، وقد درس كتابه المدرسي من لدن آلاف الطلاب فى المدارس والكليات اليسوعية.

كان لا يزال ممكنا تفسير العمليات الفيسيولوجية التي تقف وراء هذه الحركات العاطفية للنفس بواسطة تكييف النموذج الأرسطي الموروث حول الحركات الفيزيقية للفانتازيا التي تعمل بين الملكات العقلية والحسية، غير أن المربي الألماني فيليب ميلانشتون Philpp Melanchthon (١٤٩٧ - ١٥٦٠) قدم نموذجا جديدا فى أبحاثه العديدة عن البلاغة والجدل وعلم النفس. تتحول الانطباعات الحسية السمعية والبصرية إلى أشكال موجية فيزيقية داخل الأعصاب وتنتقل إلى الدماغ، حيث تتحد مع إدراكات اللغة، وتذكر التجارب الخاصة، والفهوم الكونية التي غرسها الله. ثم تنتقل بعد ذلك هذه الأشكال الموجية الجديدة إلى القلب، موقع النفس الذي غرس فيه الله حب الخير وبغض الشر. هذه الموجات الجديدة تضرب القلب مسببة له الانتفاخ أو الانقباض بما أنه يحس أذى أو خيرا، وهكذا تصب النفَس روحًا معنوية spiritus فى الشرايين التي تفضي إلى العضلات. هكذا تترجم الحركات الفيزيقية للعالم الخارجي إلى حركات فيزيقية داخل الشخص، وتتجلى الانفعالات بوصفها حركة. يستخدم ميلانشتون فيسيولوجيا محددة لاهوتيا لأجل إدراك الباتوس والتحكم فيه، لكن الباتوس لا يزال يهيمن على البلاغة، وقد فصل فى كتابه Elementa rhetorices (١٥٣٩) أن مهمة البلاغة استخدام لغة متميزة لتحريك النفوس بقوة وتحفيزها (permovere atque impellere animos).

القرون المتأخرة

إن الاتجاه نحو وضع الباتوس في قلب البلاغة تكثف عبر أوروبا خلال القرن السابع عشر، ومن جهتي الانقسام الطائفي. ولقد كتب العالم والأستاذ اليسوعي نيكولا كوسان Nicolas Caussin(1583 - 1651) بحثا ضخما عن De eloquentia sacra et humana (١٦١٧) ناقش فيه المشاعر على نطاق أوسع من سالفه اليسوعي سواريز الذي كرس جهوده في وقت مبكر لكلية البلاغة. في الجانب البروتستانتي وضع الأستاذ الألماني في بروسيا بارثولوماس كيكيرمان (١٥٧٣ - ١٦٠٩) Bartholomaeus Keckerman الشعور والإرادة في قلب كتابه الضخم (١٦٠٦) Systema rhetoricae ودافع عن هدف البلاغة بوصفها تجبر القلب على "فعل أي شيء" (compulsio. cordis ad aliquid agendum, 11). إن الموضوعات البلاغية التقليدية للإيجاد والترتيب والتضخيم مناسبة لأنها أولا تتيح إمكانية تحقق الباتوس، والجزء الأكبر من الباب الأول هو اكتشاف للأسلوب لأغراض الباتوس. في الباب الثاني، يناقش كيكيرمان أنماط الأسلوب التقليدية، ولكنه فضل أن يميز بين ضروب متنوعة من الخطابة بناء على انفعالاتها وكثافاتها، تمتد من الإمتاع delectatio إلى التأثير motus cordus، مذكرة بالنظرات الرومانية المتأخرة حول الإيتوس والباتوس. وما يمكن أن يبدو تلاعبا تاما بالانفعالات "لأي غرض" تم التهوين منه بشكل حاد بواسطة عقده لقران بين كتابه Systema rhetorica وبحثه Systema ethicae، وهو ما أظهر بوضوح أن المشاعر الطيبة فقط هي التي يمكنها أن تقود إلى الحياة الصالحة. إن تعهدات كيكرمان اللاهوتية احتفظت بالباتوس تحت السيطرة، ولكنه كان ممكنا بالنسبة إلى المعاصرين قراءة رسالتيه الأخلاقية والبلاغية منفصلتين عن بعضهما بعض. هكذا أيضا كان المقصود بسلسلة الأبحاث البلاغية للأستاذ الألماني الكالفيني جيراردوس جوهانيس فوسيوس (Gerrit Jansz; 1577 - 1649) العمل من خلال لاهوت كالفيني، ولكن عادة ما

تمت قراءتها من دون هذا اللاهوت. وقد عمد فى كتابه Rhetorices contractae (1621) الذي أعاد فيه تشغيل البلاغة الأرسطية لأغراض معاصرة، إلى إعادة ترتيب العواطف عند أرسطو لإظهار دورها فى مختلف ضروب الخطابة، وطور تقنيات الإيجاد لكل ضرب، تلك التقنيات التي يمكنها أن تشدد على مطالب الباتوس (de figuris pertinentibus ad argumenta « pathetika »).

لقد امتد هذا التركيز على الباتوس إلى أوكرانيا وروسيا. [انظر: البلاغة السلافية.] ولقد خصص فيوفان بروكوبوفيش مدرس البلاغة فى كييف وبعد ذلك رئيس أساقفة نوفغورود Novgorod (١٦٨١ - ١٧٣٦)، بابا كاملا من كتابه De arte rhetorica libridecem(1706, manuscript) للانفعالات، وأحكم ربطه بباب الأسلوب. وفي محاولته للتركيب بين آراء كل من ألفوا تقريبا من السابقين عن الانفعال، أعاد بروكوبوفيش توزيع قائمة العواطف عند أرسطو بين إيتوس وباتوس كينتيليان، ووصف كيف تحقق مختلف المجازات والصور تأثيراتها الملائمة لكل عاطفة. لقد اكتشف الأنواع البلاغية التقليدية، ولكن منذ البدء كان يسعى إلى وحدة باروكية بين الانفعال والصورة فى الباب التاسع عن الخطابة المقدسة.

يضمن الله الارتباط بين الباتوس والحجة العقلية عند هؤلاء الكتاب، ولكن هذا الارتباط ضعف بحدة فى عمل برنار لامي(١٦٤٠ - ١٧١٥) Bernard Lamy الكاهن الفرنسي والبلاغي. فى كتابه "فن الحديث" (١٦٧٥) احتذى على نحو طليق أفكار الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، فى "المنهج" وفي فيسيولوجيا الأهواء معا، وانتهى إلى أن الباتوس والعقل معزولان عن بعضهما البعض تقريبا. ولقد قام لامي بمراجعة عمله باستمرار خلال حياته، ولكن الطبعة المنشورة فى البداية هي التي تمت ترجمتها إلى الإنجليزية (١٦٧٦) وأحدثت أثرا بالغا فى التفكير الإنجليزي اللاحق.

الخطيب عند لامي يعرف الحقيقة بفضل المنهج الكارتيزي، لكن بينما أدرك ديكارت نفسه أن كثيرا من الأمور البشرية غير قابلة للخضوع إلى منهجه، فإن لامي، الذي كان أقل قلقا، يرى الخطيب قادرا على معرفة الحقيقة. يكمن المشكل فى توصيل هذه الحقيقة إلى الجماهير التي لم تتبع المنهج الكارتيزي – سواء بسبب عدم الانتباه والكسل والعناد، أو بسبب المصلحة الشخصية – مما يجعلهم يجهلون الحقائق الواضحة والمميزة. يثير الباتوس هذه العلامات الدالة على عدم التلاؤم فى الجمهور، ويعتمد لامي نموذجا للذهن يذكرنا بنموذج ميلانشطون Melanchthon، ولكن من دون التدخل العقلي المخول من الله. تمثل الأفكار نماذج فى ذهن الخطيب، ويتم التلفظ بها فى نماذج اللغة فى شكل ذبذبات. لكن الألفاظ بوصفها نماذج لغوية لا تفي بحاجة النماذج الذهنية الواسعة التي يمكن الخطيب أن يتمنى توصيلها، ولا تفي بتوصيل عواطف الخطيب حول أفكاره الخاصة إلا نادرا. وهنا تكتسي المجازات والصور العديدة القيمة، لأنها يمكنها أن تولد نماذج أكثر مما يمكن أن يولدها المعجم نفسه. على هذا النحو يمكن إعادة إنتاج ذبذبات النفس عند الخطيب فى المتلقي بمساعدة المجازات والصور التي تتولى توصيل النماذج.

والدماغ نفسه مادة مرنة، لأجل ذلك يمكن التصاميم العميقة أن ترسم بشكل حسي إذا كان المثير قويا ومفاجئا. إن العنف جزء من المواجهة البلاغية، والخصم الحقيقي عند لامي ليس الخطيب المضاد، ولكنه الجمهور نفسه؛ فى الواقع، ينبغي للخطيب أن يحاكي جنديا يحارب عدوه. يحدث عنف هذا الهجوم الحيوي حركة فى نفس المتلقي، تشبه الذهول والصدمة والإعجاب، وهذا انفعال. وعلى هوى الخطيب، يتحول هذا الإعجاب من ثم إلى أحاسيس التقدير أو الازدراء. وبإثارته لهذه المشاعر، يمكن الخطيب أن يقود المتلقي حيثما يشاء.

لا حاجة هنا للعقل أو أي استجابة حيوية أخرى من المتلقي. بالنسبة إلى لامي، يحل الإيمان بحتمية المنهج العقلي محل الاعتماد المباشر على الله لضمان الارتباط بين العقل والباتوس. إن التأثير طويل الأمد هو نفي أن يكون للعقل مكان فى البلاغة - يصنع الاستدلال فى مكان آخر - واختزال مجال البلاغة فى الباتوس فقط. فى مراجعاته الأخيرة (١٦٩٩)، حاول لامي احتكار الطلاق الكامل بين العقل والباتوس بالرجوع إلى المقاربات المبكرة. لقد افترض وجود نوازع فطرية عند المتلقي نحو الخير، بحيث ينجح الباتوس فقط عندما يثير هذه النوازع، ولكن ليس واضحا أن هذا التقييد يتفق مع بقية تفسيره، ويشهد تاريخ البلاغة فى القرون المتأخرة بتأثير صيغته الأصلية. ففي خلال هذه القرون لم يبق المنهج الكارتيزي لضمان الحقيقة على قيد الحياة، ولكن صيغة لامي للباتوس - بوصفه قوة لفرض ما يؤمن الخطيب بأنه الحقيقة - بقيت بالتأكيد.

مع الطلاق الفعلي بين الحجة والباتوس تبعا لديكارت، خضعت البلاغة نفسها لإعادة التحديد. لقد خصص الحجاج لتنويعات أخرى من الخطاب، بينما أصبحت البلاغة، وبشكل أخص "الإقناع"، إثارة للأهواء أو للإرادة، بحيث إن المتلقي يعتنق أو يتصرف وفق حجاج الخطابات الأخرى. ولقد كان عمل جورج كامبل (١٧١٩ - ١٧٩٦) أستاذ اللاهوت فى أبردين Aberdeen، نموذجيا؛ فقد فصل بحدة بين الحجة والباتوس فى كتابه "فلسفة البلاغة" (١٧٧٦). ينبغي للخطيب أن يثير انفعالا ما، وعليه أن يستدل بأن الفعل الذي يقترحه سيرضي هذا الانفعال، ولكن الانفعال لا يحتاج إلى أن يثار مباشرة من ما هو ماثل بين اليدين، وبالنسبة إلى من هم أقل فطنة لا حاجة إلى أي قرينة، وبالنسبة إلى من هم أكثر فطنة يحتاج الخطيب إلى الاعتماد على الإحساس والخيال لتحويل الانفعالات من الظروف الأخرى إلى الموقف الحالي، وقد وصف كامبل عديدا من التقنيات المصاحبة: الاحتمالية، والمعقولية،

والأهمية، والقرب فى الزمان، والارتباط فى المكان، والعلاقة الشخصية بالخطيب، والمصلحة الشخصية (١. ٧). لا تحتاج الحجة إلى الباتوس لكي تكون فعالة، ولكنها ينبغي أن تضيف الباتوس إذا كان الهدف أن تملك أي تأثير.

إن المسافة بين تفكير أرسطو وتفكير القرن الثامن عشر يمكن رؤيتها فى التمييزات التي أقامها كامبل بين ضروب الباتوس. بعض الأهواء خاملة بالطبيعة وتوهن من اعتزام المتلقي إنجاز الفعل؛ وتتضمن الحزن والخوف والعار والتواضع. والأهواء الأخرى تهذب النفس وتحث على الفعل؛ وتتضمن الأمل والوطنية والطموح والمنافسة والغضب. وبعضها يقع بشكل ملتبس فى الوسط، مثل السرور والحب والتقدير والشفقة. وفي المقابل يرى أرسطو تقريبا كل هذه الأهواء بوصفها مشاعر تمنح موارد للأقيسة الإضمارية ووسائل لتبديل الأحكام، وأرسطو لا يرى أيا منها بمصطلحات تهذيب النفس أو التهوين من عزيمتها. الفقرات الافتتاحية عند أرسطو تحذر ضد التوجه المنفرد إلى الأهواء، بينما تصف الفقرات الافتتاحية عند كامبل الأهواء الجديرة بالتوجه المنفرد. فى القرون التالية أصبحت الاتجاهات المنضبطة أكثر صرامة، مع اتجاه الحجة نحو المنطق الوضعي الصوري، واتجاه الباتوس إلى مكان أبعد، إلى نقطة حيث يشيع إدراك البلاغة بوصفها تلاعبا لفظيا وقوادة عاطفية. [انظر: البلاغة فى القرن التاسع عشر.] لقد قاد مجهود القرن السابع عشر للبحث عن اليقين فى غمرة الصراع مع الشكوك العاطفية، على المدى الطويل، إلى الخداع العاطفي لليقينيات الظاهرية.

القرن العشرون

في أعقاب الحربين العالميتين، استنتج كتاب ينتمون إلى عدد من الحقول المعرفية أن الحجة الصورية غير كافية بالنسبة إلى عالم الصراع

البشري غير الصوري، وأنه لا يمكن اختزال الاهتمامات البشرية فى ما يقتضيه المنطق الصوري من تقييدات. ونتيجة ذلك انبعاث الاهتمام بالمظاهر النظرية للباتوس بوصفها وسائل لترويض الشك. إن إعادة النظر هذه تعد جزءا من حركة فلسفية واسعة، وإلى حد ما أعادت إيقاظ المظاهر غير الجازمة فى بلاغة القرون المبكرة. بعد الحرب العالمية الأولى، وسع الناقد الأدبي الأمريكي آي. إيه. ريتشاردز (١٨٩٣ - ١٩٧٩) I. A. Richards مجال البلاغة لتصبح مشروعا تواصليا أكثر من كونها مجرد مشروع إقناعي، معتقدا أن الصراع ينتج عن سوء الفهم، وينتج سوء الفهم عن التوقعات فى غير موضعها. فى كتابه "فلسفة البلاغة"(١٩٣٦)، كان تركيزه على العاطفة أقل من تركيزه على الحساسيات والاستعدادات، مستخدما سيكولوجيا الباتوس التي تقرر أن انطباعا حسيا يسجل فى الدماغ بوصفه مركبا موقفيا وترابطيا للسياق الذي جرب فيه الانطباع. إن إحالة الخطيب إلى أي مظهر من مظاهر هذا المركب تستدعيه فى كليته، وهو يستطيع أن يرتب مختلف المثيرات لإحداث الاستجابات الذهنية عند الجمهور. غير أن الاهتمام الحقيقي لريتشاردز تمثل فى التأويل؛ فالجمهور هو الذي يجب أن يبطل التوقعات المشكلة من تجاربه الخاصة، لأجل فهم المعنى المقصود من لدن الخطيب.[انظر: الهيرمونيطيقا أو التأويلية] وقد اضطلع الفيلسوف الألماني هانس جورج غادامار فى كتابة "الحقيقة والمنهج" (١٩٨٣) بتوسيع هذه المقاربة التأويلية للباتوس؛ حيث يرى أن كل نص هو استجابة لسؤال ما. والسؤال والجواب كلاهما يتشكل بواسطة تأليف فريد من الحساسيات، ومن دون فهم لباتوس السؤال الأولي، فإن معنى الجواب لا يمكن أن يتحدد بدقة. وبينما يمكن أن تثبت استعادة المعنى الأصلي أنه مراوغ، فإن المتلقين الجدد هم أحرار فى اقتراح أسئلتهم الخاصة على النصوص التي يتلقونها، وعلى هذا النحو يولدون إجابات غير متوقعة من الخطيب.

في أعقاب الكارثة الأخلاقية للحرب العالمية الثانية، قام شايم بيرلمان فيلسوف القانون فى بلجيكا ولوسي أولبرخت تيتيكا باختبار كيف يحاجج المشرعون والقانونيون والسياسيون فعليا حول أسئلة القيمة، واستنتجوا، على الرغم من دعاوي تفيد العكس، أن الحجج المنطقية فى مثل هذه الحقول لا يمكنها أن تتحاشى الباتوس. فى كتابيهما "مصنف فى الحجاج"(١٩٥٨؛ البلاغة الجديدة، ١٩٦٩)، ارتادا الطرق التي تحدد بها أحوال المتلقين والخطباء المشتركة على حد سواء، مقبولية المقدمات التي تعتمد عليها الحجة، ومقبولية صيغ الاستدلال التي توجه بها الحجة، ومقبولية النماذج اللغوية لحمل معنى الارتباط الذي يصبغ الأفكار والصراعات البشرية. فى رؤيتهما يقصي المنهج الكارتيزي عمليا المتلقي البشري الشخصي بواسطة وضع "جمهور كوني" الذي يوجد استثنائيا فى النسق المنطقي المتبع. تتناول الحجة عمليا فقط الأمور البشرية بواسطة استعادة خصوصيات المواقف للأفراد المعنيين الذين يشكلون جمهورا خاصا، وفي تحليلاتهما، هؤلاء الذين يحاججون علانية يعرفون هذا بالغريزة.

وراء حقلي الإقناع والتأويل، ركزت الميتافيزيقا بشكل متزايد على الباتوس البلاغي. لقد أثبت الفيلسوف ميشيل مايير فى كتابه "الفيلسوف والأهواء" (١٩٩١) أن الباتوس يقدم بوضوح صارخ العلاقات الإشكالية بين الذات والآخر والعالم المادي، والطرق التي تحول (أو ربما تتحاشى) فيها هذه العلاقات الأسئلة الوجودية المضمرة إلى لحظة آنية. وحيث إن المنطق الصوري انتقد بسبب حشوه وكونه قادرا على استنتاج مقدماته، فإن هناك أيضا منطقا للأهواء، يمكن المرء أن يرى فيه فقط، ومن ثم يستنتج، ما يرغب فى رؤيته منذ البداية. على الرغم من هذه الإشكالات المضمرة، فإن الخطباء المحدثين ينبغي أن يحشدوا موارد الانفعالات والمنطق الصوري على السواء، بموازاة كل مواردهم الأخرى.

يمثل التاريخ الطويل للباتوس أحد المواريث بالوصية. تبقى الكلمات، ويتم نقل التعابير، ولكن الممارسات الثقافية والتيارات الفلسفية التي قامت بنقلها تراجعت وجنحت بها إلى شاطئ غريب لتلتقط ويعاد استخدامها فى ممارسات وفلسفات أخرى، وهكذا يبقى وهم استمرارية المعاني القديمة. فى أحد المستويات، يمكن أن تتكرر صيغة أرسطو الأولية: "ينقاد المستمعون إلى الباتوس بواسطة اللوغوس" (Rhetoic, 1356a14) بأمانة من لدن جميع كتاب البلاغة. وفي مستوى آخر، فإن الصيغة الشهيرة للباتوس ليس لها معنى سوى بألفاظ أرسطو الخاصة، ويمكن الكتاب اللاحقون فقط أن يمنحوها المعنى بألفاظهم الخاصة.

Carr, Thomas M., Jr. *Descartes and the Resilience of Rhetoric: Varieties of Cartesian Rhetorical Theory*. Carbondale, Ill., 1990.

Colish, Marcia L. *The Stoic Tradition From Antiquity to the Early Middle Ages*. 2 vols. Studies in the History of Christian Thought, vols. 34–35. Leiden, 1985.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. New York and London, 1990.

Conley, Thomas M. "Π α θ ή and Π ί σ τ ε ι ς ("*Pathe* and *Pisteis*): Aristotle "Rhetoric". 2.2–11." *Hermes - Zeitschrift für klassische Philologie* 110 (1982). pp.pp. 300–315.

Cooper, John M. *Reason and Emotion: Essays on Ancient Moral Psychology and Ethical Theory*. Princeton, 1999.

Dahan, Gilbert, and Irène Rosier - Catach, eds. *La "Rhétorique" d'Aristote: traditions et commentaires, de l'antiquité au XVIIe siècle*. Tradition de la pensée classique. Paris, 1998.

Desmouliez, André. *Cicéron et son Goût: Essai sur une définition d'une esthétique romaine à la fin de la République*. Revue D'Études Latines, vol. 150. Brussels, 1976.

Dobson, J. F. *The Greek Orators*. London, 1918.

Dockhorn, Klaus. *Macht und Wirkung der Rhetorik*. Bad Homburg, Germany, 1968.

Fortenbaugh, William W. *Aristotle on Emotion: A Contribution to Philosophical Psychology, Rhetoric, Poetics, Politics, and Ethics*. New York, 1975.

Fortenbaugh, William W., and David C. Mirhady, eds. *Peripatetic Rhetoric after Aristotle*. Rutgers University Studies in Classical Humanities, vol. 6. New Brunswick, N.J., 1994.

Fortenbaugh, William W., and Peter Steinmetz, eds. *Cicero's Knowledge of the Peripatos*. Rutgers University Studies in Classical Humanities, vol. 4. New Brunswick, N.J., 1989.

Gardiner, H. M., Ruth Clark Metcalf, and John G. Beebe - Center. *Feeling and Emotion: A History of Theories*. New York, 1937.

Green, Lawrence D. *John Rainolds's Oxford Lectures on Aristotle's "Rhetoric."* Newark, Del., London, 1986.

Gross, Alan G., and Arthur E. Walzer, eds. *Rereading Aristotle's "Rhetoric."* Carbondale, Ill., 2000.

Kenny, Anthony. *Action, Emotion, and Will*. Studies in Philosophical Psychology. London, 1963.

Kenny, Anthony. *Aquinas on Mind*. Topics in Medieval Philosophy. London, 1993.

Leeman, A. D. *Orationis Ratio: The Stylistic Theories and Practice of the Roman Orators, Historians, and Philosophers*. 2 vols. Amsterdam, 1963.

Mack, Peter. *Renaissance Argument: Valla and Agricola in the Traditions of Rhetoric and Dialectic*. Studies in Intellectual History, vol. 43. Leiden, 1993.

Meyer, Michel ed., *Histoire de la rhétorique de Grecs à nos jours*. By Michel Meyer, Manuel Maria Carrilho, and Benoît Timmermans. Paris, 1999.

Michel, Alain. *Rhétorique et philosophie chez Cicéron: essai sur les fondements philosophiques de l'art de persuader*. Paris, 1960.

Plett, Heinrich F. *Rhetorik der Affekte: Englische Wirkungsästhetik im Zeitalter der Renaissance*. Studien zur Englishchen Philologie, Neue Folge, vol. 18. Tübingen, 1975.

Prestel, Peter. *Die Rezeption der ciceronischen Rhetorik durch Augustinus in "De doctrina Christiana."* Studien zur klassischen Philologie, vol. 69. Frankfurt A.M. 1992.

Rorty, Amélie Oksenberg, ed. *Essays on Aristotle's "Rhetoric."* Philosophical Traditions, vol. 6. Berkeley, 1996.

Shuger, Debora K. *Sacred Rhetoric: the Christian Grand Style in the English Renaissance.* Princeton, 1988.

Sprague, Rosamond Kent, ed. *The Older Sophists.* Columbia, S.C., 1972. This is a complete translation by several hands of the fragments in "Die Fragmente Der Vorsokratiker," edited by Diels - Kranz, with new editions of "Antiphon" and of "Euthydemus."

Wisse, Jakob. *Ethos and Pathos From Aristotle to Cicero.* Amsterdam, 1989.

تأليف: Lawrence D. Green

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإطناب (الإسهاب/الحشو) Periphrasis

المصطلح – وأصله فى اليونانية (periphrasis) وفي اللاتينية (circumitio, circumloquium) الذي يعنى حرفيًا "الدوران حول الكلام" – هو أحد محسنات الكلام التي تشير إلى ظاهرة وضع وحدة (أو عبارة) نصية كلمة ما فى سياق ما مساوية لها فى الدلالة. وغالبًا ما يعمد المؤلفون فى استخدامهم لهذا المحسِّن إلى تحقيق وظيفة مزدوجة وخصوصًا فى الشعر؛ الجانب الأول منها هو إطناب أو تنميق الكلام؛ والجانب الثاني هو التأكيد على نعوت (صفات) معينة. ولذا فإن وظائف هذا المحسن، كما هو شائع، تفوق الحصر من الناحية العملية إذ يمكن من خلالة أن تُستَبدَل كل كلمة فى سياقات ما بكلمات عديدة أخرى تدل على معناها نفسه.

ومن أمثلة الإطناب بصفة عامة التي وردت فى الآثار الشعرية الكلاسيكية والغربية تلك النعوت المنسوبة لآلهة فى الأساطير القديمة (الكلاسيكية)، ومنها قولهم "ابن لاتونا (Latona)" إشارة إلى "أبولو" (Apoloo)، وقولهم "غلام السهم" إشارة إلى "كيوبيد" (Cupid)، وقولهم "حقل أمفيترايتي" Amphitrite" (إلاهة البحر) والإشارة إلى البحر، وقولهم "أم ميمنون" (Memnon's mother) إشارة إلى "أورورا" (Aurora)، وقولهم "زهرة فينوس" إشارة إلى زهرة "الآس"، وهكذا. (انظر مداخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech، و"الإبدال النعتي" Hypallage، و"الأسلوب" Style)

المراجع (Bibliography)

Lanham, R.A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.Pp. 589–598. Munich, 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 199–201. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

Plett, H. F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

تأليف: José Antonio Mayoral

ترجمة إلى الإنجليزية: A. Ballesteros

ترجمة إلى العربية: محمد فوزي

مراجعة الترجمة العربية: عماد عبد اللطيف

القناع Persona

عندما كان المؤلفون والخطباء يستخدمون الكلمة - persona - فى أعمالهم فهل كانوا يشيرون إلى بعض الجوانب الحقيقية فى شخصياتهم؟ أم كانوا يخلقون شخصيات - سواء قصصية خيالية أو سيرًا ذاتية - لأجل غرض الإقناع فى ظل سياقهم الخطابي؟ وإن شئت فقل: هل الضمير "أنا" هو دائمًا محل اجتهاد وتفسير فى كل سياق نراه بين المؤلف من ناحية والجمهور من ناحية أخرى؟ هذه هي التساؤلات التي تكتنف فكرة "القناع" persona فى الدراسات البلاغية.

على أن "فكرة القناع" عبارة يتعين على المرء استخدامها بحذر على الرغم مما سبق. فلطالما كان ولايزال مفهوم الشخصية التي يصطنعها الكاتب أو الخطيب عبر درجات قصصية مختلفة جزءًا أصيلاً من دراسة البلاغة؛ إلا أنه يوجد تنوعٌ كبيرٌ فى المصطلحات المستخدمة فعليًا للإشارة إلى هذا المفهوم. ففي البلاغة الكلاسيكية كان المصطلح الأساسي المستخدم للدلالة على شخصية الخطيب (أو المتحدث) هو المصطلح الأرسطي ethos (انظر مدخل "الشخصية/المناقب" Ethos). على أن البلاغيين المعاصرين يستخدمون فى الأغلب مصطلحات مثل voice (صوت) أو role (دور) أو identity هوية (وخصوصًا إذ ما ارتبطت كلمة "الهوية" identity بكلمات أخرى مثل constructed identity (إشارة إلى تشكيل الهوية) أو socially situated identity (إشارة إلى توطين الهوية اجتماعيا) أو negotiated identity (إشارة إلى مناقشة أمر الهوية). أما فى الدراسات البلاغية فالمصطلح "persona" يكاد لا يستخدم لدرجة أنه لا يُشار إليه فى مسارد بعض الأعمال التي تستعرض تاريخ البلاغة

كما عند جورج كينيدي George Kennedy (١٩٨٠) أو شيري جلين Cheryl Glenn (١٩٩٧)؛ غير أنه يظهر فى الغالب فى أعمال النقاد والشعراء المعاصرين. وعلى ذلك فسنتعامل مع المصطلح ها هنا على اعتبار أنه المفهوم الأوسع لدرجة بناء شخصيات الكاتب أو المتحدث، دون التركيز على العلاقات الدلالية التي تحيط بالمصطلحات التي يختارها مؤلفٌ ما.

ولتكن البداية هي أن فكرة "القناع" persona تشجع البلاغيين على أن يعتقدوا بأن الضمير "أنا" الذي يظهر فى خطبة ما أو عمل مكتوب هو شيء ينشئه الخطيب أو الكاتب لغرض ما؛ ولكن السؤال هنا يتعلق بمدى الغرض من وراء هذا الإنشاء (أو البناء التشخيصي). وعلى طرفي نقيض نجد أن كين ماكروري Ken Macrorie فى كتابه "Uptaught" (مُعَلَّم) (١٩٧٠، نيويورك) يقول بأن الكتَّاب يبحثون عن صوت فى كتاباتهم يسمح لهم بأن يعبروا عن أنفسهم على نحو أكثر وضوحا (بيد أنه وفق هذه النظرة يكون البناء أقل قصصية). وعلى الطرف الآخر نجد أن الباحث كواين بوث Wayne Booth (١٩٨٣) بجامعة شيكاجو يرى أن "شخصية المؤلف الضمنية" داخل النص ليست هي أبدًا نفس شخصية المؤلف الحقيقي نفسها، بل ويجب أن يُتَعَامَل معها على أنها شخصية مبنية (مختلقة). ويقع بين هاتين النظرتين إلى حد ما التصور البلاغي الكلاسكي عن الشخصية "ethos". فبالنسبة لأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) فإن شخصية الخطيب هي شيءُ مصطنع بمهارة أدبية لغرض الإقناع ضمن إمكانيات متاحة فى سياق موقف ما، وهى ليست مصطنعة بالمعنى الحرفي ولكنها بالتأكيد مزيج من صفات منتقاة من صفات الخطيب الحقيقية. على أن مفهوم "القناع" persona يتطلب من دارس البلاغية أن يشغل نفسه بفهم قضية خلق شخصيات الخطيب أو الكاتب ضمن مفهوم البناء التشخيصي.

وبصفة عامة فإن البلاغيين عبر العصور يتناولون ثلاثة جوانب أساسية من جوانب بناء (أو إنشاء) الشخصية تتمثل فى الآتي: **أولاً:** البناء البلاغي للشخصية، وهو حسب أرسطو إنشاء صوت حديثي (voice) مناسب للغرض المتزامن مع الموقف؛ **ثانيًا:** القناع (persona)، وباعتباره حيلة أدبية، فهو إنشاء واضح لصوت حديثي (آخر) ولكنه مغاير لذات (أو حقيقة) المؤلف، وذلك لغرض جمالي وإقناعي معين؛ **ثالثًا:** إشكالية منشأ (أو أصل) القناع الذي يستخدمه متحدث ما، ويتعلق باستكشاف النظم الاجتماعية المحيطة بالكاتب، والمتحدث هنا يرسم حدود الخيارات المتاحة لبناء الشخصية بل واستقبالها.

البناء البلاغي للشخصية

هناك طريقة رئيسية للتعامل مع بناء الشخصية، فى كلٍ من الممارسة الأدبية الكلاسيكية والمعاصرة، وخصوصًا فى السياقات التعليمية، وهى تركيز الانتباه على اختيارات المتحدث أو الكاتب فيما يخص العرض الإقناعي الذي يتطلبه الموقف. وفي البلاغة الكلاسيكية غالبًا ما يشير مصطلح "الشخصية" ethos إلى هذه الطريقة فى معالجة الشخصية، بينما فى البلاغة المعاصرة يستخدم مصطلح "الدور" role لهذا الغرض.

وفي الأدب الكلاسيكي تَدين هذه الطريقة فى معالجة الشخصية بالكثير لأرسطو فى كتابه "حول البلاغة" (On Rhetoric) (٣٦٧ و٣٢٢ ق. م.)، الذي شجع الخطباء على استكشاف إمكانياتهم لحسن تقديم أنفسهم (انظر مدخل "البلاغة الكلاسيكية" Classical rhetoric. ويرى أرسطو أن الخطباء يتعين عليهم أن يبحثوا مواقفهم حتى يعززوا ثلاثة جوانب فى شخصياتهم: الجانب الأول هو "الحكمة العملية" phronesis؛ والجانب الثاني هو "السمات الخلقية الحسنة" arete؛ والجانب الثالث هو "النية الحسنة تجاه الجمهور" eunoia (انظر

مدخل "لباقة الحكمة والمعرفة" Phronesis). فلو تمكن الجمهور من استشعار هذه الصفات الثلاث فى شخصية الخطيب فمن المحتمل جدًا أن يصل إلى حالة الاقتناع (البلاغة لأرسطو، الكتاب الثاني ص ٥ – ٧). على أن البلاغيين الرومانيين فى وقت لاحق قد غيَّروا وأضافوا إلى هذه الأفكار. فقد كان من بين الاختلافات بين الممارسة البلاغية اليونانية والرومانية ذلك الدور الذي يلعبه الشريف (الراعي) patronus؛ فبينما كان اليونانيون يتحدثون بالنيابة عن أنفسهم فى الغالب فى الشؤون القانونية والسياسية، فقد كان الشريف الروماني فى العادة هو الذي ينوب فى الحديث عن الآخرين. ففي بداية عصر الجمهورية الرومانية كان الراعي بمثابة شريف (أو نبيل) ذي مسؤوليات معينة تجاه مجموعة ما من المواطنين أو العتقاء (من الرق سابقًا) الذين لا يفقهون الإجراءات القانونية الرومانية، بحيث كان له حق التمثيل القانوني نيابة عنهم وفق سلطته ورعايته. على أنه فى أواخر عهد الجمهورية (الرومانية) كان الراعي هو أي شخص يقوم مقام آخر فى قضية قانونية ما. وقد كانت مسألة إدارة تمثيل شخص ما بالنسبة للراعي قضية مهمة، تمامًا كأهميتها لذات الشخص المَنوب عنه. ولقد استمر التركيز فى المدارس الرومانية على مسألة بناء سمات الشخصية لصالح كل من أدوار الراعي وموَكلِه؛ بل كانت المدارس تضع اختبارات يمكن من خلالها اختبار الطالب باختياره دور افتراضي فى قضية ما أو بتأديته خطبة ما، موصين باتخاذ مواقف سبقت إليها شخصيات تاريخية وآخذين فى الاعتبار دائما أهمية الانتباه إلى قضية بناء سمات الشخصية.

ويستمر التركيز على مسألة بناء السمات البلاغية للشخصية فى البلاغة المعاصرة كذلك على الرغم من أن فكرة "الدور" role فى علم الاجتماع الحديث أصبحت محورية تماما كما كانت فكرة الشخصية ethos محورية فى البلاغة الكلاسيكية. فكثيرٌ من البلاغيين ينظرون إلى علماء

الاجتماع بعين الاعتبار، وبصفة خاصة إلى أعمال إيرفينج جوفمان Erving Goffman (١٩٦٣ و ١٩٥٩)؛ فهو يرى أن أي شخص - في أي يوم عادي - يمكن أن يضطلع بنطاقٍ واسعٍ من الأدوار الاجتماعية المختلفة، كلٌ بحسب المعايير والأداء اللازمين لتعريف النفس (في هذه المواقف). فيمكن أن يكون هناك طالبٌ في سنته الأولى الجامعية يحضر درس أصول الكتابه، مثلاً، ثم هو يعمل مساعدًا في أحد مكاتب الحاسب الآلي، أو أن يكون محبًا على مشارف علاقة عاطفية، أو أن يكون (أو تكون) أبًا (أو أمًا) لطفل صغير لم يبلغ حد دخول المدرسة، أو لربما كان عضوًا فاعلاً في حزب سياسي. فكل من هذه الأدوار يتطلب نوعًا معينًا من التعبيرات البلاغية (فالسياق الخطابي الذي يناسب شخصية الأب مع ابنه الصغير، مثلاً، لا يناسب سياقًا آخر يُطلَب فيه من المتعلم كتابة مقال وفق محاضرة أصول الكتابة). فكل من هذه الأدوار يمكن أن يسهم في تعريف شخصية الفرد وفق معايير معينة (كأن نقول مثلاً هل الشخص مؤهل وحازم لأن يقوم بواجبات الأبوة؟ أو هل ذلك المتعلم لديه المهارات العقلية والمنطقية ومهارات كتابة مقال لغوي متماسك؟). فكثيرٌ من مدرسي مادة الإنشاء الكتابي المعاصرين يعتمدون على تلك المصطلحات عند شرحهم للدور الذي يجب أن يضطلع به كاتب أو مؤلف.

القناع (persona) باعتباره حيلة أدبية

النقطة الثانية الرئيسية إزاء شخصية الخطيب أو الكاتب هي تلك التي تتعلق بخلق "قناع" جديد (person/mask) يتحدث المؤلف من خلاله. وبالنسبة لبعض المؤرخين فإن التأكيد على فكرة القناع يسيطر على الاستخدامات القديمة للمصطلح، بما في ذلك الاستخدامات اليونانية (والرومانية أحيانًا) للقناع في الدراما. وأحد معاني كلمة persona في اللغة اللاتينية هي "القناع المسرحي" (theatrical mask) وهو المعنى نفسه لكلمة prosopon في اليونانية

تقريبًا. وكانت مسألة اتخاذ شخصية معينة لخلق حالة عرض بلاغي أمرًا شائعًا فى العصر الكلاسيكي؛ ومن أمثلة ذلك عمل أفلاطون المسمى فيدروس (Phaedrus) (٣٧٠ق.م) الذى ينتهى بتعريف فلسفى للحسَن والقبيح، والذى يبدأ بسلسلة مكونة من ثلاث خطب تلقيها شخصية المحب كبير السن إلى شخصية المحبوب الأصغر سنًا. وخلال الحقبتين اليونانية والرومانية فقد كانت اختبارات طلاب البلاغة تتطلب اتخاذ أدوار لشخصيات تاريخية أو خيالية يتحدث الطالب بلسانها. وفي العصور الوسطى وعصر النهضة كان المؤلفون يكتبون نصوصهم الفلسفية ليس على أنها منطوقهم ولكن على أنها كلمات شخصيات أخرى، مثل شخصية فولي Folly باعتباره شخصية المتحدث (المستخدم لضمير المتكلم "أنا") فى العمل الذي ألفه إراسموس Erasmus (١٤٦٦ – ١٥٣٦) بعنوان "The Praise of Folly" (مدح فولي[١]) (١٥١١). ولقد استمر هذا التقليد ساريًا إلى جانب التأكيد على فكرة سمات الشخصية "ethos".

كذلك وفي زمننا المعاصر استمر التركيز على مفهوم "القناع" persona باعتباره حيلة أدبية وخصوصًا لدى الشعراء والنقاد الأدبيين. فمنذ كتاب جورج رايت George Write "الشاعر فى قصيدته: شخصيات إليوت، وييتس، وباوند" (The Poet in the Poem: The Personae of Eliot، Yeats، and Pound) (١٩٦٠) فقد احتدم الجدل بين الشعراء ما بين شخصية الشاعر نفسه وشخصية المتكلم فى القصيدة. وكان رايت يقول بأن شخصية المتكلم فى القصيدة هي دائمًا شخصية تغاير شخصية الشاعر، فهي شخصية خلقها الشاعر لأجل التعبير عن عاطفة معينة ورأي معين فى لحظة ما. على أن

(١) الكلمة تعنى الحماقة وفي الوقت نفسه هي شخصية رئيسية؛ فالعنوان ساخر يمكن أن يحتمل معنى "مدح الحماقة" أيضًا.

رأيه هذا لم يسلم من الانتقاد، بل استمر الجدل بشأن شخصية الشاعر والمتكلم فى القصيدة ومفهوم "القناع" persona على نحو منقد.

ومن منظور النقد الأدبي فقد كان النص الرئيسي الذي اشتهر بمناقشة تلك المسألة هو كتاب واين بوث Wayne Booth بعنوان "بلاغة القَص" (Rhetoric of Fiction)؛ إذ يرى بوث أن ضمير المتكلم "أنا" (I) فى عمل قصصي ما لا يمكن أن يتساوى أبدًا مع مؤلفه، بل يمكن أن أن نعتبره "مؤلفًا ضمنيًا" (قائمًا بذاته)، نعتبره شخصية خلقها مؤلفها، حتى لو كانت النية هي التعبير عن ذات المؤلف، بل واعتباره شخصية شأنها شأن أي شخصية يُنظَر لها على أنها مظهر من مظاهر النص، وخصوصًا أن الرواة قد لا يكونون مصدر ثقة عن معالجتهم لشخصيات أو أحداث ما.

ومن الواضح إذن أن "القناع" كثيرًا ما يتكرر فى الممارسات البلاغية باعتباره حيلة أدبية؛ وبينما زاد مفهوم "القناع" اتضاحًا فى مجال الشعر والنقد الأدبي نتيجة معالجات تراكمية فمن المدهش أنه ليس على القدر نفسه من الوضوح فى البلاغة نفسها.

إشكالية منشأ (أو أصل) القناع الذي يستخدمه المتحدث

الاتجاه الثالث فى المعالجة البلاغية للشخصية يركز على إشكالية المنشأ. وهذا الاتجاه يبحث القوى التي تخلق الإمكانيات التي تمكن متحدثًا أو خطيبًا ما من خلق شخصية معينة. فبدلاً من النظر إلى صفة ما ضمن صفات الفرد على أنها أمر مترسخ فى شخصيته ومقصور عليه فإن البلاغيين يسبرون غور النظم اللغوية والاجتماعية التي ترسِّخ فى الأفراد عناصر معينة من عناصر الشخصية بل ويبحثون معنى تلك العناصر. على أن النظريات الحديثة تسوِّي ما بين هذا الاتجاه وبين أفكار ما بعد الحداثة بل

والنظرة البلاغية المتعلقة "بالبناء الاجتماعي" (social construction)، ولكن هذا الاتجاه أيضًا قد سبقته اتجاهات كلاسيكية (قديمة) على المضمار نفسه، أحدهما هو استخدام الأقنعة الدرامية.

ويرى العديد من الباحثين أنه في الطقوس الدينية اليونانية قبل عهد سقراط كان البعض يرتدي أقنعة تُنسَب إلى الآلهة في ذلك الوقت. وبينما نجد أنه من السهل الإبحار في تاريخ حقب ما قبل التاريخ فإن فكرة (سمات) الشخصية باعتبارها شيئًا سحريًا يوجد خارج النفس يبدو وأنه قد ارتبط بالاستخدامات المبكرة للأقنعة، ولربما وجدنا أيضًا أصداءه في كتابات معاصرة تدور حول صوت الشخصية "voice".

كذلك فقد كانت هناك إرهاصات أو أحداث متعلقة بأمر "القناع" وقعت عهد البلاغة السوفسطائية، ونشير هنا إلى ممارسة وتعاليم البلاغيين في عصر الولايات المدنية اليونانية السابقة على التنظير والتنظيم البلاغي الذي اضطلع به أرسطو. وليس من السهل ها هنا أن نحدد فكر السوفسطائيين بهذا الخصوص، لا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار نُدرَة نصوصهم، بل وتشخيصهم على النحو السلبي الذي بينه أفلاطون في حواراته، إضافة إلى الطبيعة العملية أو الاحتفالية لمعظم نصوصهم التي بين أيدينا الآن. وعلى الرغم من ذلك، يرى العديد من الباحثين أن السوفسطائيين قد أكدوا على أهمية التدريب على تقوية الجانب الأخلاقي aretê للشخصية باعتباره هو الغرض من التعليم البلاغي، بل لقد اعتبروا أن مثل هذه الصفة (وبالطبع المعرفة ككل) هي إحدى وظائف الأعراف البشرية والتفاهم الإنساني (طالما أن الحقيقة المطلقة أمرٌ لا يمكن الوصول إليه خارج إطار النظم البشرية المتعارف عليها)؛ ولقد كان جورجياس Gorgias (٤٨٣ - ٣٧٦ ق. م.) من أكثر المؤرخين المتبنين لهذا الموقف. (انظر مدخل "السوفسطائيين" Sophists).

ويقوم البلاغيون المعاصرون الآن بإعادة قراءة السوفسطائيين، يدفعهم إلى ذلك شيءٌ من الاهتمام المعاصر بقضية البناء الاجتماعي للنفس. ومنذ الثمانينيات من القرن العشرين ركزت العديد من البحوث العلمية البلاغية على الطرق التي من خلالها يمكن لمكانة المرء وخلفيته الاجتماعية أن تحدد ملامح "هويته" identity و"صوته" voice بحسب النظم الاجتماعية التي تحدد بالفعل معنى الجنس والطبقة والنوع بل والخبرة الأكاديمية. وكما أوضح العديد من الباحثين فإن إحساس المرء بنفسه، والطريقة التي يقدم بها نفسه كلامًا وكتابةً، يمثّلان جميعًا، على نحو جزئي، إحدى وظائف مكانته الاجتماعية. وإن الطريق نحو تنمية الهوية (وخبرات الحديث والكتابة التي تُعرَض الهوية من خلالهما) هو التزام كل فرد بأن يعتمد علي – وفي الوقت نفسه يستطيع إدارة – عناصر تلك المكانة الاجتماعية. وتجرى فى الوقت الحاضر دراسات مهمة تختص ببلاغة وإشكاليات وبناء هويات بعينها فى ظل ظروف اجتماعية ما؛ ولا تزال تلك الدراسات مستمرة فى إحراز تقدم يكشف النقاب عن أوجه جديدة فى جوانب الشخصية. ومن الأمثلة الجامعة فى هذا المضمار والتي تُعَد مقدمة لمناقشة تلك القضايا هو عمل سيرلي برايس هيث Shirley Brice Heath "التوسل بالكلمات" (Ways With Words) (١٩٨٣).

وكما يوضح هذا الاستعراض المقتضب فإن مفهوم القناع "persona" – character،voice،identity – سيظل موضوعًا حيويًا لفهم حقيقة البلاغة؛ فكلٌّ من الاتجاهات الرئيسية الثلاثة التي ناقشناها ها هنا كان لها أنصارها الذين قاموا بها وعلّموها ونظّروا لها بدرجات متفاوتة عبر تاريخ البلاغة، الأمر الذي جعل منهم دلائل حية تشير إلى استمرار الموضوع محط اهتمام فى المستقبل.

(Bibliography) المراجع

Aristotle. *The Rhetoric and Poetics of Aristotle*. Translated by W. Rhys Roberts. New York, 1984. First published 1954.

Booth. Wayne. *The Rhetoric of Fiction*. Chicago, 1983. First published 1961.

Cherry. Roger. "Ethos versus Persona: Self - Representation in Written Discourse." *Written Communication* 5.3 (1988); pp.pp. 251–276.

(يعرض أفكارًا مفيدة بشأن مفهوم الشخصية ethos والقناع persona ويمثل عرضًا مستمرًا من الاحتمالات البلاغية).

Elbow, Peter ed., *Landmark Essays on Voice*. Davis, Calif., 1994.

(مجموعة من أهم المقالات عن الصوت الحواري voice كتبت بين ١٩٧٠ و ١٩٩٠)

Elliot, Robert. *The Literary Persona*. Chicago, 1982.

(استعراض تاريخي شامل لمصطلح القناع "persona" وتطبيق شائق على الكاتب المعروف جوناثان سويفت Swift).

Glenn, Cheryl. *Rhetoric Retold: Regendering the* Tradition from Antiquity through the Renaissance. Carbondale, Ill., 1997.

(إعادة نظر في حضور المرأة في الآثار البلاغية وغيابها).

Goffman, Irving. The Presentation of Self in Everyday Life. Garden City, N.Y., 1959.

Goffman, Irving. Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity. Englewood Cliffs, N.J., 1963.

Heath, Shirley Brice. Ways with Words: Language, Life, and Work in Communities and Classrooms. Cambridge, U.K., 1983.

(تحليل مفصل للأصل الاجتماعي لشخصية اللغة في مجتمعين).

Holland, Norman. The I. New Haven, 1985.

(تطبيق جيد لفكرة "مفهوم وتنوع الهوية" على قراءة وكتابة الأدب).

Jarrett, Susan. Rereading the Sophists: Classical Rhetoric Refigured. Carbondale, Ill., 1991.

(قراءة معاصرة للبلاغة السوفسطائية).

Kennedy, George. Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times. Chapel Hill, N.C., 1980.

Kooser, Ted. "On Lying for the Sake of Making Poems." Prairie Schooner 72.1 (1998), pp.pp. 5–8.

(قراءة للنزعة الأخلاقية للقناع القصصي فى الشعر).

تأليف: Robert E. Brooke

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

(تكنيك) الرؤية عبر التنافر/التعارض Perspective by incongruity

يُعَدُّ تكنيك الرؤية عبر التنافر هو الأداة النقدية المحورية في أعمال كينيث بيرك Kenneth Burke خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، وخصوصًا في أعماله "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ١٩٣٥) و"اتجاهات نحو التاريخ " (Attitudes toward History، ١٩٣٧). كذلك يعتبر المصطلح من المصطلحات الابتكارية التي أُضيفت مؤخرًا إلى ترسانة مصطلحات البلاغة التي يضطلع بها النقاد. ولقد عرَّف بيرك المصطلح في كتابه "اتجاهات نحو التاريخ" بقوله: "هو أداة لتمحيص المواقف من خلال تفكيك مكوناتها اللفظية الذرِّية، بمعنى أن تكون هناك كلمة مثلاً تنتمي بحسب العرف إلى فئة دلالية معينة، ولكن يمكنك من خلال التخطيط العقلي أن تفك أواصرها على نحو مجازي أو استعاري بحيث تستطيع توقيعها على فئة دلالية أخرى" (ص ٣٠٨). كذلك ففي كتابه "فلسفة الشكل الأدبي" (Philosophy of Literary Form، ١٩٤١) يشير بيرك إلى المصطلح على أنه عبارة عن "استثارة وتدريب عقلانيَّين للغة يتمكن من خلالهما المرء من رؤية خبايا استخداماته اللغوية اليومية" (ص٤٠٠)؛ وكذا يؤكد على أنه ليس وسيلة نقدية مثالية، وإنما هو طريقة لتقريب حقيقة الأشياء إلينا".

ومن الأمثلة الرئيسية لمفهوم "تكنيك الرؤية عبر التنافر" لبيرك Burke هو ما ذكره ثورشتين فيبلن Thorstein Veblen بشأن فكرة "تدريب العجز" (trained incapacity) التي تشير إلى الطريقة التي يمكن بها توظيف أقصى ما يمتلك المرء من قدرات، وإن كانت عمى البصر. ومن الأمثلة الأخرى أيضا

ما قام به ت. إس. إليوت T. S. Eliot بتشخيص التركيز المتزايد على الرياضة فى الجامعات الأمريكية على أنه حالة تفسخ رياضي (انظر كتاب "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ص ٩٠ – ٩١). ولسوف يلاحظ دارسو البلاغة أن هذه الأمثلة يمكن تطبيقها على أحد المحسنات البديعية وهو الإرداف الخلفي (Oxymoron)[١]. ويرى بيرك أيضًا أن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" يمكن أن ينسحب على أعمال فنية مرئية، ويضرب مثالاً بذلك التمثال الذي يعود للعصور الوسطي والذي يجمع ما بين شكل الإنسان والحيوان معًا (gargoyle)، وأمثلة أخرى كما فى أعمال الجروتيسك الفنية (grotesque)[٢] (انظر المرجع السابق ص ١١٢).

ولعله من المفيد أن نرى تكنيك الرؤية عبر التنافر باعتباره جزءًا من رؤية جمالية عصرية تجعل الناظر أو القارئ قادرًا على التخلي عن عاداته التقليدية فى الإدراك (انظر سيزر Seizer، ١٩٩٦، لمعرفة المزيد عن بيرك باعتباره بلاغيًا حداثيًا Modernist). كذلك فقد كان رسامو ما بعد الحداثة (Modernist painters) مثل بيكاسو Picasso يرسمون أشياء يمكن النظر إليها فى الوقت ذاته من منظورين مختلفين. كذلك فقد ابتكر المخرج السينمائي السوفيتي إيسنشتين Eisenstein أسلوبًا للمونتاج من خلال تكنيك سينمائي مكنه من إظهار المعنى عن طريق عرض الصور بوضعها جنبًا إلى جنب. كذلك ومما يشبه "تكنيك الرؤية عبر التنافر" لبيرك أسلوب بيرتولت بريخت Bertolt Brecht وهو "نزع الألفة" defamiliarization – وهو من نتاج مسرحه الملحمي؛ حيث تتشابه الطريقتان فى أنهما يحاولان تمزيق الأنماط المعتادة لخبرة الفرد بغية التوصل إلى الحقيقة (انظر بريخت، ١٩٦٤). وقد تشابه مع بيرك أيضًا

(١) يقصد به (في الإنجليزية) كلمتان أو عبارتان متناقضتان تمامًا يتبع بعضهما بعضًا، كقولك "هو الضعيف القوي" أو "الجرئ الجبان".

(٢) رسوم غريبة كتلك التي تجمع ما بين الشكل الإنساني والحيواني.

الشكليون الرُّوس (Russian formalists) فى معالجتهم لما عرف "بالتغريب" (ostranenie) (انظر إيرلخت Erlicht، ١٩٨٠، ص ١٧٦ - ١٧٨). كذلك لا نعرف ما إذا كان بيرك قد قرأ أعمال جورجيس سورل Georges Sorel (وهو من أصحاب المذهب النقابي anarchosyndicalist)، وخصوصًا كتابه "تأملات فى العنف" (Reflections on Violence: ترجمة ت. إ. هيوم T. E. Hulme، Glencoe، ١٩٥٠)؛ على أن طريقة سورل فى "تقطيع أو فصل الجزئيات" (diremption) تبدو وكأنها تمامًا هي "تكنيك الرؤية عبر التنافر" نفسها الذي وضعه بيرك. ويلخص هيوز H. Stuart Hughes (١٩٥٨) تلك الفكرة بأنها "تكمن فى تفكيك جوانب معينة من الحقيقة وخلعها عن سياقاتها التي هي فيه وفحصها على نحو منفصل كلّ عن الآخر. وبوضع عدد من العبارات التي لا تنسجم مع بعضها بعضًا... بغية إيضاح جوانب من الحقيقة التي ربما قد مرت دون أن يلتفت إليها أحد" (ص ٩٢). وقد كتب ستانلي إيدجار هايمان Stanely Edgar Hyman (١٩٤٧) فى السياق نفسه قائلاً إن الاستعارة الرئيسية لبيرك فى كتابه "الدوام والتغير" وهى عبارته "الإنسان باعتباره فنانًا" قد جعلته يتعامل مع المشكلات الاجتماعية من خلال أساليب شعرية وبلاغية ونقدية. ولما كانت المشكلات الاجتماعية قد تزايد النظر إليها على أنها مواضيع علمية، فقد مثَّلت استعارة بيرك موضوعًا للبحث عن منظور جديد للتعامل معها (هايمان Yman، ص ٣٢٩). هذا وقد ابتكر بيرك المصطلح خلال قراءته لأعمال فريدريك نيتشه حول الرغبة فى السلطة؛ كما أنه أدرك "تكنيك الرؤية عبر التنافر" فى قراءته لأعمال أوسوالد سبينجلر Oswald Spengler الفلسفية التاريخية (المرجع السابق، ٣٣٠ - ٣٣١). ومما اضطلع به سبينجلر كذلك محاولة إيجاد نوع من المشاكلة بين فترات زمنية معينة ضمن دوائر (أو سياقات) ثقافية مختلفة، الأمر الذي ظهر فى حديثه عن ما أسماه "حركة التطهر العربية" (Arabian Puritanism) أو "العناصر الفنية الموازرتية"

- (نسبة إلى Mozart الموسيقار النمساوي) - فى أعمال فيديوس Phidias (المثال اليوناني) (انظر "الدوام والتغير" (Permanence and Change)، ص ٨٩). ومن الأمثلة على "تكنيك الرؤية عبر التنافر كذلك" فى التاريخ الأدبى عمل هارولد بلوم Harlod Bloom بعنوان "apophrades" (أو عودة الموتى) والذي يظهر فيه أحد الشعراء البلغاء محاولا محاكاة أحد أسلافه الأوائل (انظر بلوم Bloom، ١٩٧٥، ص ١٠٠ - ١٠٣).

كذلك فقد ربط بيرك المصطلح بالتورية والاستعارة؛ وقد ذكر فى كتابه "اتجاهات نحو التاريخ" (Attitudes toward History؛ ص ٣٠٩) أن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" هو "منهجية مرتبطة بالتورية" فى أنها تعمل على إحداث صلة بين كلمات غير مترابطة فى الأصل وفق معايير عقلية (انظر مدخل "الجناس" Paronomasia). أما الاستعارة - التي يعرّفها بيرك لاحقًا على أنها وسيلة لاستحضار خصائص "القريب وكأنها تتجلي فى البعيد، أو خصائص البعيد وكأنها تتجلى فى القريب" - فهي وسيلة تكشف علاقات مترابطة غير متوقعة (انظر كتاب "أجرومية للدوافع" (A Grammar of Motives) لبيرك، ص ٥٠٣) (انظر مدخل الاستعارة Methaphor). على أن العلاقات بين كل من التورية والاستعارة وأداة الرؤية عبر التنافر تفسر النتائج التي نجمت عن منظور بيرك النقدي. ولقد كانت النظريات البلاغية والأدبية تنظر إلى المحسنات البلاغية figures of speech كمجرد أدوات أو حيل تزيينية، إلا أن بيرك، على العكس مما سبق، يخلخل هذين المحسنين البلاغيين - الاستعارة والتورية - ويخرجهما عن هذا الإطار التقليدي ويعالجهما على اعتبار أنهما حيل إدراكية معرفية. ويرى بيرك أن المدارس (أو الاتجاهات) العلمية يمكن أن تخضع إلى نوع من الاستعارة الخصبة (انظر "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ص ٩٥)؛ فالتجاور الظاهري غير المتجانس بين العالم والبلاغي يمكن أن يُفضي إلى نقد ممنهج موجَّه إلى مظاهر العلم

البرّاق. والأبعد من ذلك أن بيرك قد ابتكر من خلال مجاورته (أي الوضع جنبًا إلى جنب) للعالِم مع اللاهوتي صورةً بلاغيةً رائعةً تقول بوجود نموذج كامل للمصطلحات المحايدة؛ وقد شبَّه ذلك بكراهية المسيح للأحكام المدفوعة برغبة في الانتقام؛ وأضاف أن العلم أشبه "بالشخص المتمسك بحرفية الكتاب" في سعيه نحو الإطاحة بالاتجاهات السابقة التي تخالفه (المرجع السابق؛ ص ٨٠).

وبالإضافة إلى انتقاد مفهوم "تدريب العجز" المتعلق بالعلم الحديث يستخدم بيرك "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" لإضعاف أحد الأفكار – والتي صارت بعد ذلك من الأفكار الراسخة عند حركة النقاد الجدد New Critics – والتي تقول بأن الفن والأدب ماهيات مستقلة تتطلب تحليلاً محايثًا بلغة كل منهما، ودون أن يلوثهما التاريخ أو السياسة. إذ يرى بيرك أن "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" يمكّن الناقد من إنشاء "أشكال من المرونة التبادلية بين المفردات الاقتصادية والدينية والجمالية" (انظر "اتجاهات نحو التاريخ " (Attitudes toward History)، ص ٣١٣ – ٣١٤). وفي تحليل بديع لبيرك يشير إلى تصور ماركس بشأن الوعي الطبقي على نحو استعاري وكأنه "ميزانًا فنيًا" يعيد جمع وتنظيم أشكال إخلاص المرء لقضاياه وتنظيمها؛ فأفراد نفس الجنس نفسه أو المؤيدون الفكرة نفسها قد يتحولون من كونهم أنصارًا لقضية ما إلى رؤية أنفسهم وكأنهم أعداء للطبقة؛ وأفراد الجنس المختلف والأمم المختلفة والذين كانوا من قبل أعداء قد يرون أنفسهم لاحقًا أفرادًا لفئة عمالية عالمية (انظر "الدوام والتغير" (Permanence and Change، ص ١١٢ – ١١٣).

ولقد كان بيرك كذلك يربط ما بين "تكنيك الرؤية عبر التنافر" ومناهج التحليل النفسي؛ فهو يشبِّه مثلاً اضطراب العصاب الذهني بالتزمت الديني زاعمًا أن "المريض، بالتزمت الديني، يصنع حوله دائرة بما يليق أو لا يليق نتيجة لقصور ما عنده". على أن المحلل النفسي على الجانب الآخر يُخضِع المريض وما يصاحبه من أعراض "كالتزمت أو الرهبة أو حتى الصمت" إلى

نظرة معينة محايدة. فالمحلل النفسي يُخضع المريض إلى نوع من الرِّدّة أو الانكفاء لمعرفة أسباب معاناته، والتي قد تكون مثلاً نتيجة كبت جنسي معين" (انظر "الدوام والتغير"، ص ١٢٥ - ١٢٩).

وعليه فإن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" هو مصطلح شامل لأهم الأفكار الأدبية البلاغية التي اضطلعت بها أعمال بيرك فى الثلاثينيات من القرن العشرين؛ ومن ذلك نقده للعلم ومذهب "الفن للفن"، ثم تطويره لرؤية البلاغة والاستعارة على نحو معرفي إدراكي، وكذلك محاولته للجمع بين ما قام به ماركس Marks وفرويد Freud، إضافه إلى تأكيده على أهمية التحليل الطبقي الاقتصادي المرتبط بالمصطلحات الدينية والجمالية. ويؤكد كل من بلانكنشيب Blankenship ومورفي Murphy وروزنوسر Rosenwasser (١٩٧٤) على أن "تكنيك الرؤية عبر التنافر" هو طريقة ظهرت فى الأعمال الأولي لبيرك لكنها تختفي لاحقًا بعدما كانت السبب فى "ولادة" شكل استعاري آخر ومحوري فى أعماله المتأخرة، ألا وهو النزعة الدرامية dramatism.

هناك كتابات حديثة من أمثال ما كتب كيس Case وداو Dow وهوبان Hoban وليفاسور Levasseur وميلر Miller وكواشي Quashie تبين استمرار أهمية "تكنيك الرؤية عبر التنافر" كمصدر من مصادر الإبداع النقدي. واتباعا لما بدأه سيلزر Selzer نقول إننا بحاجة إلى مزيد من البحث لسبر غور الترابط بين "تكنيك الرؤية عبر التنافر" والجوانب الأخرى للحداثة الرديكالية (radical Modernism) فى العشرينيات من القرن العشرين، وخصوصًا ما يتعلق بفكرة المصلحة العامة وعلاقتها بخبرات الحياة الحضرية أو الانفصال عن الرؤية والأفكار التقليدية فى الفنون والأدب. ومن المواضيع المهملة حتى الآن بالنسبة لنقاد البلاغة موضوع البلاغة المرئية؛ ولعل التشابه بين فكرة المونتاج وتصورات بيرك البلاغية قد تكون نقطة بدء مثمرة. وختامًا نقول

إن بيرك قد أثَّرَ كثيرًا على الطريقة التي ينظر بها الباحثون إلى البلاغة واللغة لدرجة أننا قد ننسى أن أكثر أفكار بيرك إثارة وارتباطا بمفهوم الرؤية عبر التنافر هي فكرة "الفعل الرمزي" (symbolic action)؛ فلقد كان قول بيرك فى الثلاثينيات من القرن العشرين إن البشر يتصرفون وفق أفعال رمزية وإن كل الاستخدامات البشرية الرمزية ذات أبعاد بلاغية مما تعارض مع كثير من ثوابت الفلسفة والأدب والعلوم الاجتماعية. واليوم فنحن نتحدث عن تعبيرات أمثال "بلاغة الاقتصاد" (the rhetoric of economics) أو "بلاغة العلم" (the rhetoric of sience) التي كانت – ولا تزال للبعض – متضاربة أو متنافرة بالنسبة للخبراء فى تلك المجالات. على أن اتساع الدراسات البلاغية نفسها هو أهم ما نجم عن مفهوم بيرك بشأن "الرؤية عبر التنافر" (أو التناقض).

المراجع (Bibliography)

Blankenship, Jane, Edward Murphy, and Marie Rosenwasser. "Pivotal Terms in the Early Works of Kenneth Burke." *Philosophy and Rhetoric 7* (1974), pp.pp. 1–24.

(يناقش "تكنيك الرؤية خلال التنافر" وعلاقته بمصطلحات أساسية أخرى مثل "الدافع" (motive) و"التوجه" (orientation) و"الشكل" (form).

Bloom, Harold. *A Map of Misreading*. New York, 1975.(يزيد بلوم "الأشكال المجازية الأربعة" لبيرك فيجعلها ستة "نسب تعديلية"، والتي تظهر أثناء صراع الشاعر مع أسلافه).

Brecht, Bertolt. *Brecht on Theater: The Development of an Aesthetic*. Edited by John Willett. New York, 1964.

(يناقش بريخت دور التغريب أو أثر الإبعاد فى مسرحه الملحمي).

Burke, Kenneth. *Attitudes toward History*. Berkeley, 1984. First published 1937.

(يعرِّف "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" ضمن معجمه للمصطلحات المحورية).

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1945.

(يختفي "تكنيك الرؤية من خلال التنافر" كفكرة محورية ولكنه يظل موجودًا خلال اهتمام بيرك بالتحول الجدلي).

Burke, Kenneth. *Permanence and Change: An Anatomy of Purpose*. Berkeley, 1984. First published 1935.

(يعد المرجع الأساسي عن فكرة بيرك "تكنيك الرؤية من خلال التنافر").

Burke, Kenneth. *Perspectives by Incongruity*. Edited by Stanley Edgar Hyman and Barbara Karmiller. Bloomington, Ind., 1964.

(مجموعة مفيدة من كتابات بيرك النقدية).

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form*. Berkeley, 1969. First published 1941.

(عمل انتقالي، تأكيد على التحولات فى المنظور (الرؤية) ومنه إلى التأكيد على فكرة "إعادة الولادة" (الظهور).

Case, Peter. "Remember Re - engineering: The Rhetorical Appeal of a Managerial Salvation Device." *Journal of Management Studies* 36 (1999), pp.pp. 419–441.

(يستخدم تصور بيرك لتعريف وتبيان المطالب "العليا" فى بلاغة إعادة هندسة العمليات المالية؛ نظرية مؤثرة من نظريات الإدارة).

Dow, Bonnie J. "AIDS, Perspective by Incongruity, and Gay Identity in Larry Kramer's '1,112 and Counting'." *Communication Studies* 45 (1994), pp.pp. 225–240.

(يستخدم تصور بيرك لتوضيح الاستراتيجية البلاغية لأحد نشطاء الشواذ وهو لاري كرامر Larry Kramer).

Erlich, Victor. *Russian Formalism: History/Doctrine*. The Hague, 1980.

Discusses "ostranenie," or the "making - strange" function of art and literature (pp.pp. 176–178).

(يناقش وظيفة الدور "التغريبي" للفن والأدب)

Gusfield, Joseph R. "Introduction." In *Kenneth Burke On Symbols and Society*, pp.pp. 1–49. Chicago, 1989.

(مقدمة تحمل طابع علم الاجتماع لنظرية بيرك، وباقة من أهم كتاباته الرئيسية).

Hoban, James L., Jr. "Solzhenitsyn on Detente: A Study of Perspective by Incongruity." *Southern Speech Communication Journal* 42 (1977), pp.pp. 163–177.

Hughes, H. Stuart. *Consciousness and Society: The Reorientation of European Social Thought 1890–1930*. New York, 1958.

(المرجع ليس عن بيرك لكنه يحوي نقاشات مفيدة لسورل Sorel وسبنجلر Spengler وشخصيات أخرى أثرت على المفكرين والفنانين الحداثيين فى العشرينيات من القرن العشرين).

Hyman, Stanley Edgar. *The Armed Vision: A Study in the Methods of Modern Literary Criticism*. New York, 1955.

(لا يزال الفصل العاشر من المرجع - بعنوان بيرك ونقد الفعل الرمزي - من أهم المقدمات عن بيرك).

Lentricchia, Frank. *Criticism and Social Change*. Chicago, 1983.

(من أفضل ما يدل على لستمرارية أهمية عمل بيرك السياسي فى الثلاثينيات من القرن العشرين).

Levasseur, David G. "Edifying Arguments and Perspective by Incongruity: The Perplexing Argumentation Method of Kenneth Burke." *Argumentation and Advocacy* 29 (1993), pp.pp. 195–203.

(يقارن "تكنيك الرؤية خلال التنافر" بفكرة ريتشارد روي Richard Roy "الحوار التثقيفي" ويعرض لبديل قدمه بيرك للطرق التقليدية فى ربط الدليل بالادعاء فى نظرية الجدال).

Miller, Keith D., and Kevin Quashie. "Slave Mutiny as Argument, Argument as Fiction, Fiction as America: The Case of Frederick Douglass's 'The Heroic Slave.' " *Southern Communication Journal* 63 (1998), pp.pp. 199–207.

(يستخدم تصور بيرك لتفسير استراتيجيات فريدريك دوجلاس Frederick Douglass فى كل من أعماله الخطابية والقصصية؛ ويربط تصور بيرك بالطرق البنيوية فى أعمال شتراوس Claude Lévi - Strauss وفريدريك جمسون Fredric Jameson).

Selzer, Jack. *Kenneth Burke in Greenwich Village: Conversing with the Moderns, 1915–1931*. Madison, Wis., 1996.

مؤلف المدخل: James Arnt Aune

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإقنــاع Persuasion

يعد الإقناع أحد الأسرار العظيمة التي لا تزال تكتنف الخطابة وما يتصل بها من فروع معرفية، ذلك أن الخطاب يتميز - فيما يتميز به - بقدرته على تحريك القلوب والعقول، وتغيير الناس ومواقفهم، بطرق قوية لا تغيب عن عيون الناظرين. وقد كان التعرف على المبادئ الأساسية للإقناع فى بؤرة الاهتمام منذ نشأة البحث فى العلوم البلاغية. ولم تخل بطبيعة الحال مرحلة ازدهار العلوم الاجتماعية فى القرن العشرين من الاهتمام بالإقناع، الذي يعد أحد قطبي الخطاب المميزين. [انظر Eloquence] وفيما يلي تتبع للعمل الاجتماعي العلمي الخاص بالاتصال المقنع. ويمثل هذا العمل تطبيقًا للأساليب العلمية والاجتماعية على قضايا ملحة تتعلق بالخطابة - كيف يوجه الناس معتقداتهم ويشكلونها، كيف يحققون التوافق فى الآراء، وكيف يدفعون غيرهم إلى العمل. وتؤكد نتائج هذه البحوث فى بعض الأحيان بديهيات راسخة، بينما تسفر فى أحيان أخري عن تناقض ملحوظ مع تلك البديهيات الراسخة.

ولا تنحصر بحوث الإقناع فى إطار معرفي أو نظري واحد، بل تم إجراء تلك البحوث فى عدد من المجالات الأكاديمية، وبذلت جهود غير قليلة سعيًا وراء التكامل أو الربط بينها. وتشمل كافة العلوم الاجتماعية تقريبًا (بما فى ذلك علم النفس، والاتصال، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والأنثروبولوجيا) وما يتصل بها من محاولات تطبيقية تتجلى من خلالها القضايا الاجتماعية والعلمية وأساليبها (مثل الإعلان، والتسويق، والصحة

العامة) على بحوث ذات صلة ببحوث الإقناع. وسنتعرف من خلال استعراض مناسب على الصور المختلفة التي ظهرت من خلالها البحوث المتعلقة بمجال الإقناع.

الخلفية

تتعلقِ بعض نواحي الإقناع بالتأثير على الحالة العقلية للجماهير التي تكون عادة بمثابة مقدمة للعمل. وعلى الرغم من أن عددًا من الحالات الذهنية قد تكون محط اهتمام الشخص الذي يقوم بالإقناع، فقد أعطت البحوث الاجتماعية والعلمية فى مجال الإقناع الصدارة للموقف، باعتباره التقييم العام للأشياء مثل السياسات، والاقتراحات، أو النواتج، أو الأشخاص. ومن هنا، فإن الكثير من العمل العلمي والاجتماعي فى هذا المجال يتعلق بتغيير الموقف لأن مثل هذا التغيير يمثل حالة نموذجية لنجاح الخطاب.

ويغلب على هذه البحوث الطبيعة التجريبية، تلك التي يتم فيها تقييم الفاعلية الإقناعية فى ظل ظروف يتم التحكم فيها منهجيا. وفي أبسط صور هذه البحوث، يتم تعريض من يخضعون للتجرب عشوائيًا للاستماع إلى نسخة من اثنتين لنص إحدى الرسائل، وتختلف النسختان فقط فيما يتعلق بمتغيرات اهتمامات البحث، فمثلا، قد تختلف الرسالتان فى المصدر الذي تعزى إليه كل رسالة أو فى ترتيب عرض الحجج فى كل رسالة. وإذا كانت نسختا الرسالة تختلفان فيما تسببانه من تغيير فى المواقف، فقد يعزى الفرق جدلاً إلى المتغير الذي يختلف أثناء التجربة. وقد يترتب على متغير معين تأثيرات مختلفة فى رسائل مختلفة؛ حيث يمكن أن يعزز الاختلاف فى رسالة معينة عملية الإقناع بشكل كبير فى حالة معينة، بينما يكون تأثيره أقل فى حالة أخري. ومن هنا يتطلبُ الخروجُ بتعميمات يمكن الاعتماد عليها حول كون تأثيرات العملية الإقناعية أدلةً مستمدة من رسائل متعددة، سواء أكانت فى إطار دراسة واحدة أم فى عدة دراسات.

النظرية

أثرت ثلاث نظريات عامة على العمل الاجتماعي العلمي حول الإقناع، هذه النظريات هي: نظريات الموقف، ونظريات العمل التطوعي، ونظريات الإقناع الصحيح. وعلى الرغم من عدم تعلق النوعين الأولين مباشرة بالإقناع، فإنهما أثرتا فى تشكيل مفاهيم العمليات الإقناعية.

نظريات الموقف

نظرًا لتركيز بحوث الإقناع على تغيير السوكيات بشكل خاص بوصفها نموذجًا من نماذج الإقناع، أصبحت نظريات طبيعة المواقف وتركيبها من المصادر المهمة فى التعرف على الإقناع عن قرب. وتعد نماذج "قيمة التوقع" للمواقف من أبسط الأمثلة على ذلك. وتصف هذه النماذج بشكل عام القواعد الأساسية للمواقف وما تتكون منه من معتقدات حول الشيء الذي يتعلق به الموقف، مثل معتقداتنا عن خواص الأشياء. ويتميز كل معتقد بتقييم معين يرتبط به، يمثل الرغبة المدركة فى الصفة، وتكون هناك درجة معينة من اليقين أو القوة تخص كل معتقد تشير إلى احتمال أن يتمتع ذلك الشيء بتلك الصفة. وينظر، من خلال هذه المعتقدات، إلى جانبي أي معتقد ("قيمة" كل صفة و"درجة توقع" ارتباطها بالشيء) على أنهما يتضافران معًا فى تكوين تقييم عام لدى الشخص عن الشيء أو فى تشكيل موقفه حياله.

وتوحي هذه الصورة الخاصة ببنية الموقف الأساسية بعدد من الاستراتيجيات الممكنة البديلة لتغيير الموقف. وتتمثل أولى هذه الاستراتيجيات فى محاولة إضافة بعض المعتقدات الجديدة (التكافؤ الملائم) عن الشيء، وتتمثل الثانية في محاولة تغيير تقييم بعض المعتقدات القائمة؛ أما الاستراتيجية الثالثة فتتمثل فى محاولة تغيير القوة المرتبطة ببعض هذه المعتقدات القائمة. وبطبيعة الحال،

تتطلب مواقف الإقناع على اختلافها اتباع مناهج مختلفة. ففي إحدى الحالات، قد يخلص الشخص المُقنِع إلى أن الجمهور يقيّم نتائج السياسة التي يدافع عنها المُقنِع كما يرغب المدافع، ولكنه يحتاج لأن يقتنع بأن السياسة المقترحة سوف تفضي حقيقةً إلى تلك النتائج. وفي حالات أخرى، قد يتفق أفراد الجمهور بالفعل على خصائص وسمات هذه السياسة، ولكنهم يختلفون فى تقييم تلك الخصائص. وسيكون من الملاحظ أن هذه الطريقة فى التفكير قد تمثل صحة الفكرة البلاغية المعروفة القائلة بأن الإقناع الناجح يتطلب من الشخص تكييف خطابه مع الحالة الذهنية للجمهور.

وتجسد المناهج الموقفية الوظيفية مجموعة ثانية من نظريات المواقف التي تفيد الدارسين فى المجال الإقناعي. وتوضح هذه المناهج إمكانية قيام المواقف بالعديد من الوظائف النفسية المختلفة، مثل دفاع الشخص عن صورته الذاتية، وتنظيم المعلومات حول الشيء المرتبط بالموقف، والتعبير عن القيم الخاصة بالشخص. وقد تم طرح العديد من الخطط المختلفة التي تحدد وتبلور هذه الوظائف المختلفة، ولكن لا يوجد إجماع حتى الآن على أي تحليل مفصل. ومع ذلك، فهناك فارق كبير يتجسد فى جميع التصنيفات الموقفية الوظيفية تقريبًا، وهو الفارق بين الوظائف الرمزية والنافعة (النفعية)، فالمواقف التي تركز على المعاني الرمزية للشيء والقيم التي يعبر عنها، والمعتقدات الأخلاقية التي تجسدها تؤدي وظائف رمزية؛ أما المواقف التي تركز على الخصائص الجوهرية للشيء، أي تقييم الشيء من حيث صفاته الجوهرية أو عواقبه، فهي تؤدي وظائف نفعية. فعلى سبيل المثال، قد يؤدي سلوك إيجابي لشخص ما نحو سيارة معينة وظائف نافعة بصورة رئيسية وذلك يكون قائمًا على أساس معتقدات بشأن الكفاية الحرارية للسيارة، وسعتها فى شحن الأمتعة بها، وهلم جرا، أو تؤدي وظائف رمزية بصورة

رئيسية، وذلك يكون قائمًا على أساس معتقدات بشأن نوعية الهوية الشخصية التي تقدم عند قيادة هذه السيارة أو ما يشعر به الشخص عند قيادتها.

ومن هذا المنظور، يتمثل الطريق إلى الإقناع الناجح فى التوافق بين الرغبة الإقناعية والأساس الوظيفي للموقف، وبالتالي يقدم هذا النهج وسيلة أخرى لتحقيق الفكرة العامة القائلة بأن الفعالية البلاغية تتطلب التكيف مع الجمهور. فإذا كان الموقف السلبي تجاه بيت يقطن فيه أشخاص مصابون بمرض الإيدز فى حيٍّ ما يستند إلى معان رمزية مرتبطة بالعلاقة بين الإيدز والشذوذ الجنسي، فإن تغيير هذا الموقف قد يشتمل على توفير معلومات تفيد بأن غير الشواذ هم أيضًا عرضة للإصابة بمرض الإيدز. ولكن إذا كان هذا الموقف السلبي يستند إلى مسائل نفعية بشأن العدوي، فقد نحتاج إلى اتباع منهج إقناعي مختلف: وفي مثل هذه الحالة سيكون التأكيد على إمكانية إصابة غير الشواذ بالإيدز قد يكون له آثاره العكسية. وقد وجد فى عدد من الدراسات التي أجريت على الإعلانات الموجهة للمستهلكين، أن دعوات شراء المنتجات ذات التوجه النفعي (التى تؤكد على صفات المنتج الجوهرية) أكثر إقناعًا من الدعوات ذات التوجه الرمزي (التى تؤكد على اعتبارات صورة المنتج) وذلك عندما تكون مواقف الجمهور قائمة على أساس نفعي؛ وفي المقابل، وجد أنه فى المواقف القائمة على أساس رمزي تكون الدعوات ذات التوجه الرمزي أكثر إقناعًا من دعوات التوجه النفعي.

يلعب اختلاف شخصيات الأفراد دورًا فى تشكيل الوظيفة التي يؤديها موقف معين. فقد يكون بعض الأشخاص ("ذوو المراقبة الذاتية العالية") عادةً أكثر اهتمامًا من غيرهم ("ذوى المراقبة الذاتية المنخفضة") بشأن الصورة التي يريدون رسمها عن أنفسهم، وبالتالي فإنه من المرجح أن تكون مواقفهم ذات أسس رمزية. وتمثل طبيعة موقف الشيء أيضًا قيدًا على نوع الوظيفة

التي يؤديها. فبعض الأشياء، مثل مكيفات الهواء تؤدي بسهولة وظيفة نفعية فقط، أما البعض الآخر (مثل الحلي الثمينة) فتؤدي وظيفة رمزية فقط. ولكن بعض الأشياء الأخرى مثل السيارات تسمح بأداء وظائف موقفية متعددة بسهولة، وبالتالي يستلزم الإقناع بشأن هذه الأشياء أن يولى الأساس الوظيفي لموقف الجمهور اهتمامًا خاصًا. وسوف نحتاج لعدة دعوات مختلفة للأشخاص الذين تقوم مواقفهم نحو السيارات على معتقدات حول استهلاك هذه السيارات من الوقود، ومدى حاجتها للإصلاح المتكرر، بخلاف الأشخاص الذين تقوم مواقفهم على معتقدات حول الصورة التي ترسمها لهم قيادة سيارة معينة.

نظريات العمل التطوعي

أما المجموعة الثانية من النظريات ذات الصلة فهي ليست معنية مباشرة بالإقناع، بل ترمي إلى تحديد العوامل التي قد تؤثر فى العمل التطوعي. ويقدم هذا النوع من النظريات رؤى غير مباشرة عن الإقناع لأن العوامل التي تؤثر فى الموقف تمثل البؤرة الطبيعية للجهود الإقناعية. ومن أبرز الأمثلة على هذه النظريات، ما قدمه فيشباين وأجزين Fishbein and Ajzen's تحت اسم "نظرية الفعل العقلانى" (١٩٧٥) التي تقول بأن نوايا الشخص الموقفية تتأثر معًا بالاعتبارات الموقفية (موقف الشخص تجاه الموقف المطروح) والاعتبارات المعيارية ("المعيار الموضوعي" للشخص بمعنى تقييم الشخص لما قد يفضله غيره من الأداء الموقفي). ويتفاوت هذان العاملان فى تأثيرهما على النية؛ إذ قد ترجح كفة الاعتبارات المواقفية على تلك الاعتبارات المعيارية فى بعض الحالات، ولكنها تكون أقل من ذلك فى حالات أخرى.

وبالنسبة للشخص المُقنِع، يمكن استخدام "نظرية الفعل العقلانى" لتحديد أوجه الاستفادة البؤرية للجهود الإقناعية، فمثلاً إذا كان استخدام التبغ للمراهقين يتأثر بدرجة كبيرة بالعوامل المعيارية عن تلك الموقفية، فإن التدخلات التي تهدف إلى تثبيط مثل هذا السلوك لابد أن تولي اهتمامًا خاصًا بمعالجة تلك العوامل المعيارية. وعلاوة على ذلك، ولأن هذه النظرية تقدم وصفًا لمحددات هذه العوامل الموقفية والمعيارية - بمعنى وصف ما يندرج تحت هذه العوامل- فإن هذه النظرية يمكن أن توفر أيضًا مزيدًا من التوجيهات للمقنعين.

وقد أوضحت أدلة البحوث جدوى "نظرية الفعل العقلانى" بشكل كبير بحيث جعلت منها معيارًا يتم الحكم به على النظريات المنافسة لها. وبشكل أوسع، يتمثل السؤال الآن فيما إذا كان يمكن تحديد بعض العوامل الإضافية العامة، بالإضافة إلى المعايير الموقفية والموضوعية يكون من شأنها تحسين التنبؤ بالنية السلوكية. وهناك اقتراح، من بين عدة اقتراحات، تدعمه معظم البحوث التي أجريت على نظرية أجزين Ajzen "للسلوك المخطط theory of planned behavior"، ويوصي ذلك الاقتراح بالنظر مرة ثانية في التحكم المدرك للشخص فى السلوك، بمعنى هل يعتقد الشخص فى سهولة أو صعوبة تنفيذ العمل. ويمكن النظر إلى الفوائد المرجوة من هذه الإضافة من خلال النظر فى سلوكيات مثل ممارسة التمارين الرياضية: إذ قد يعتقد الناس أن ممارسة الرياضة أمر مرغوب فيه (كونها موقفا إيجابيًا)، بينما يعتقد عدد كبير بضرورة ممارسة الرياضة (كونها معيارًا موضوعيًا إيجابيًا)، لكنهم يعتقدون عدم قدرتهم على أداء هذا الموقف لأنها تتطلب معدات متخصصة مكلفة لا يمتلكونها، فإذا كانت الصالة الرياضية بعيدة عنهم، فلن تكون ممارسة الرياضة فى حسبانهم أو فى أجندتهم الشخصية

اليومية، وهكذا. ومن الواضح أنه فى مثل هذه الحالات يكون التأكيد على مزايا ممارسة الرياضة وسيلة غير ناجحة فى إقناعهم بممارستها، وبدلاً من ذلك، لابد من معالجة العقبات الظاهرة أمام أداء هذا السلوك.

وهكذا يمكننا اعتبار نظريات العمل التطوعي قادرة على تحديد نقاط المقاومة الممكنة العامة ضد وجهات نظر الشخص المُقنع، وبالتالي على تحديد الأهداف العامة المحتملة للجهود الإقناعية (الموقف، المعيار الموضوعي، التحكم السلوكى الظاهر). وبمعنى آخر، توازي هذه الأهداف نظرية "قضايا المخزون" المعروفة لدى طلاب نظرية الركود، حيث تحدد هذه الأهداف القضايا الممكنة فى النزاع. [انظر Stasis].

نظريات الإقناع

أما النوع الثالث من النظريات فيهدف إلى تفسير عملية الإقناع نفسها. ومن أبرز هذه التفسيرات وأنجحها نماذج الإقناع "ثنائية العملية" التي تمثلت فيما قدمه كاسيبو وبتيPetty and Cacioppo تحت اسم "نموذج الشرح والإيضاح المحتمل". ويبين هذا النموذج أن هناك طريقين كبيرين يؤديان إلى الإقناع، يعتمد نشاط أي منهما على درجة الشرح والإيضاح، أو التفكير المتعلق بقضية ما، والتي يشارك فيها المتلقي. ويأتي الطريق الأول، وهو المحوري الذي تكون فيه نتائج الجهود الإقناعية هي بدورها نتيجة للبحث المتروي من جانب المتلقي بشأن المواد المتعلقة بالقضية، مثل حجج الرسالة. [انظر Logos]. أما الطريق الآخر فهو طريق هامشى، تنشأ فيه نتائج العملية الإقناعية عن عمليات أقل رويَّة مثل استدعاء المتلقي لبعض الوسائل التجريبية (تبسيط قاعدة قرار)، فعلى سبيل المثال، بدلاً من النظر بعناية فى الحجج والأدلة، قد يصل المتلقي إلى استنتاج بناءً على مصداقية القائم

بالاتصال ومدى الإعجاب به، أو على ردود أفعال غيره من أفراد الجمهور تجاه الرسالة. [انظر Ēthos] ويمثل هذان النوعان النمطيان للإقناع فى الواقع طرفا سلسلة نموذج الشرح والإيضاح، فى مستوياته المتوسطة؛ وقد تكون العمليات فى كل من الطريق المحوري والجانبي قيد العمل.

وتعتبر درجة الشرح والإيضاح الذي يشارك فيه المتلقي وظيفة لمجموعة متنوعة من العوامل. وتؤثر بعض هذه العوامل على دافع الشرح والإيضاح، مثل درجة مشاركة المتلقي مع موضوع الرسالة، بمعنى مدى ملاءمة الموضوع لشخصية المتلقي. وهناك عوامل أخرى تؤثر فى كفاءة الشرح والإيضاح مثل معرفة المتلقي المسبقة بالموضوع أو بمدى ما يسمح به الجو العام للعملية الإقناعية من تركيز الاهتمام على الرسالة.

وكما تختلف عملية الشرح والإيضاح وما يتبع ذلك من أنواع العمليات الإقناعية المتصلة بها، تلعب عوامل مختلفة أخرى دورًا فى تحديد نتائج العملية الإقناعية. وفي حالات الشرح المسهب، على سبيل المثال، يمثل الاتجاه التقييمي لأفكار المتلقي أحد العوامل الرئيسية التي تؤثر فى نجاح الرسائل الإقناعية، سواء أكانت أفكاره فى قضية معينة بشكل عام إيجابية أم سلبية بالنسبة للموقف الذي يدافع عنه. ويتأثر هذا بدوره – من بين أمور أخرى – بنوعية الحجج التي تقيمها الرسالة (مثل قوتها الإقناعية، وقوة تقديمها، وأهميتها). وعندما تكون درجة الشرح مسهبًا، يفحص المتلقون حجج الرسالة بعناية، وبالتالي تصبح نوعية تلك الحجج عاملاً مهمًا فى نجاح العملية الإقناعية. ولكن عندما يكون الشرح موجزًا، يكون تأثير الاختلافات فى جودة الحجج طفيفًا بالنسبة لنتائج العملية الإقناعية، ومن ثم تلعب اعتبارات هامشية، مثل إعجاب المتلقي بمحاوره أو ردود أفعال غيره من أفراد الجمهور حيال عملية الدفاع، دورًا أكبر.

ومن الجوانب المميزة والخاصة فى هذه النماذج "ثنائية العملية" أنها توفر إمكانية للتوفيق بين نتائج الأبحاث غير المتسقة ظاهريًا. فمثلاً، كشفت التجارب التي تبحث آثار الرسائل الإقناعية المصحوبة بمثير أو مهمة تؤدي إلى التشتت أن هذا التشتت قد يزيد من فعالية العملية الإقناعية أو يقلل منها. ولكن هذا الاختلاف متوقع حدوثه بحسب نموذج الشرح والإيضاح المحتمل. ونظرًا لأن هذا التشتت يتداخل مع الشرح والإيضاح، فإن ذلك من شأنه إعاقة نجاح العملية الإقناعية فى الحالات التي قد يتبني فيها المتلقي – بطرق مختلفة – أفكارًا أكثر إيجابية من الرأي الذي يدافع عنه. إلا أن هذا التشتت من شأنه تعزيز نجاح العملية الإقناعية عندما تغلب على الموقف أفكار سلبية. وقد ثبت فى عدد من المجالات أن النماذج "العملية الثنائية"، مثل "نموذج الشرح والإيضاح المحتمل" مفيدة جدًا فى إلقاء الضوء على نتائج البحوث المعقدة؛ وتعد مثل هذه النماذج خطوة مهمة إلى الأمام فى فهم الجوانب الاجتماعية والعلمية لعمليات الإقناع.

ومن الغريب أن بحوث نموذج العملية الثنائية لم تهتم بخصوصيات جودة الحجة. وقد أظهرت التجارب وجود اختلافات فى جودة الحجة عند تغيير مزيج سمات الرسالة التي لم يتم تصورها بعناية، بما فى ذلك أهمية نتائج الموقف أو الرأي المتبني (مثل الحجج القوية التي تناقش نتائج مهمة غير تافهة)، ونوعية الأدلة المقدمة (مثل الحجج القوية التي تثير آراء الأطراف المحايدة وليس أصحاب المصالح الشخصية). ومن الواضح أن الأمر سيتطلب بعض الوقت للتعرف على مختلف عناصر جودة الحجة، وإسهاماتها المستقلة والمشتركة، وتوضيح الآليات التي تحقق بها هذه الخصائص الآثار المرجوة.

بحوث العامل المتغير

تسترشد بعض بحوث الإقناع بأنواع النظريات التي ذكرت آنفًا، الأمر الذي قد يجعل من الأنسب وصف هذا الكم الكبير من الاستفسارات حول الإقناع بعدم انتمائه إلى أي إطار نظري محدد، بل إنه يهدف إلى إلقاء الضوء على الأدوار التي تضطلع بها بعض المتغيرات المتنوعة فى العملية الإقناعية. وقد يكون من المفيد تنظيم هذا العمل بواسطة ما إذا كان المتغير قيد البحث من خصائص المصدر، أو الرسالة، أو المتلقي.

خصائص المصدر

وجد فى بحوث الإقناع أن هناك اثنتين من أبرز سمات المتصلين هما: المصداقية والقبول. تقوم المصداقية، أي الإيمان المدرَك بالمتصل، على الربط بين الكفاءة الملحوظة فيه (الخبرة والدراية) والثقة الملحوظة به (الأمانة، والإخلاص). وتتأثر هذه التصورات بمعرفة خلفية المتصل (منفذ الاتصال) وظروفه: مثل التدريب والخبرة، وما إذا كان منفذ الاتصال له مصلحة شخصية قد تدفعه لممارسة التحيز. كما يمكن أن تتأثر بمظاهر الرسالة أو طريقة عرضها: مثل حقيقة أن عدم الطلاقة اللغوية فى تقديم الرسالة قد تقلل من تصورات الكفاءة عنه. ولا تتطابق المصداقية، بهذا المعني، تمامًا مع مفهوم أرسطو عن السمات الشخصية *ēthos*، ولكن من الواضح أن هناك إقرارًا أساسيًّا عامًّا بشأن الدور الذي تلعبه الجوانب الشخصية فى العملية الإقناعية. [انظر **Credibility**].

وعادة ما يشتهر منفذو الاتصال الذين يتمعتون بدرجة كبيرة من المصداقية والذين يُنظر إليهم بعين الكفاءة والجدارة بقدرة كبير - حسبما هو متوقع - من القدرة على الإقناع بخلاف غيرهم ممن لديهم قدر أقل من

المصداقية حيال مصادرهم، ولكن هذا التعميم يحتاج إلى التعديل بطريقتين. الأولى تتمثل فى اختلاف تأثير مدى المصداقية على نتائج الإقناع اعتمادًا على قضايا مثل مشاركة الجمهور فى القضية (على نحو ما يبين الشرح والإيضاح المحتمل)؛ إذ يعد تأثير اختلافات المصداقية قليلاً بسبب زيادة الاهتمام الشخصي بالقضية لدى الجمهور. وتتمثل الطريقة الثانية فى ملاحظة أن منفذي الاتصال الذين يتمتعون بدرجة قليلة من المصداقية يكونون أكثر إقناعًا من المصادر ذات المصداقية الكبيرة فى الحالات التي يكون فيها الرأي المتبنى هو الرأي الذي يميل إليه الجمهور إلى حد ما فى بداية الأمر على الأقل، ويبدو أن سماع مصدر ذي مصداقية ضعيفة يدافع عن وجهة نظره الخاصة قد يشجع الجدال التعويضي (السري) لدى الجمهور (وهو شيء لا ينصح به عندما يدافع مصدر خبير ظاهريًا عن وجهة نظره الخاصة)، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من الإقناع.

ومما لا يدعو إلى الدهشة أن يكون منفذو الاتصال الأكثر قبولاً عادةً هم الأكثر إقناعًا من نظرائهم الذين يتمتعون بدرجة قبول أقل. ولكن، كما هو الحال فى المصداقية، يقل هذا التأثير بزيادة مشاركة الجمهور. وعلاوة على ذلك، فقد ذكرت العديد من الدراسات التأثيرات التي أثبت من خلالها منفذو الاتصال غير المقبولين أنهم أكثر إقناعًا من منفذى الاتصال المحبوبين. ولكن هذا التأثير غير المنطقي لم يفهم بشكل جيد حتى الآن، ويبدو أنه ينشأ فقط عندما يختار المتلقي الاستماع إلى الرسالة، وقد يكون الأمر أنه عندما يختار المتلقي الاستماع إلى منفذ الاتصال الذي يتضح أنه غير محبوب، يبحث عن سبب قيامه بذلك. وقد يشكل العثور على أي مميزات فى الرأي المتبنى تبريرًا من هذا القبيل.

ويبدو أن خصائص منفذ الاتصال الأخرى تلعب دورًا فى الإقناع بشكل رئيسي من خلال تأثيرها على المصداقية والقبول. فعلي سبيل المثال، من الواضح أن أوجه التشابه بين المصدر والجمهور، أو بدقة أكثر، تصورات الجمهور حيال أوجه التشابه بين المصدر والجمهور لا تؤثر على نتائج العملية الإقناعية إلا بصورة غير مباشرة - عن طريق التأثير على المصداقية والقبول المدرك - واللذين يكون لهما حينئذ تأثيرات مباشرة، إن لم تكن معقدة بشكل كبير، على الإقناع. وقد ينطبق الشيء نفسه على الخصائص الأخرى للمُحاوِر مثل الانتماء العرقي أو جاذبية المظهر.

خصائص الرسالة

تمت دراسة عدد كبير من أشكال الرسائل المختلفة لبحث إسهاماتها الممكنة فى مجال التأثيرات الإقناعية. وتوضح الأمثلة الثلاثة التالية طبيعة هذه البحوث: دراسات أشكال تحيز الرسالة، الدعوات القائمة على مشاعر الخوف، والخاتمة المباشرة.

أولاً، تم توجيه اهتمام كبير للتأثيرات الإقناعية بوسائل مختلفة لمعالجة معارضة الحجج. وبصفة عامة، فإن الشخص المُقنع إما أن يتجاهل هذه الحجج (وهو ما يسمى بالرسالة الأحادية) أو يقوم بمناقشتها (الرسالة الثنائية)، وإذا تمت مناقشة الحجج المعارضة، فقد يحاول الشخص المُقنع تقويض هذه الاعتبارات المتعارضة (رسالة تقويضية ثنائية)، أو ربما يذكر بعض الحجج المعارضة فقط (رسالة غير تقويضية ثنائية). وبهذا تختلف الرسالة ثنائية الجانب، على نحو ما يفهم هنا، عن الجدل "ثنائي الجانب" المرتبط بالحجج الثنائية أو الحجج المؤيدة والمعارضة كافة. وقد كانت هناك دائما تكهنات بشأن ضرورة أن يعتمد الاختيار بين هذه البدائل على عوامل تتمثل فيما إذا كان الجمهور بالفعل يميل إلى تأييد الرأي المتبنى، أو ما إذا كان الجمهور على دراية بالحجج المعارضة الممكنة. وفي الواقع، لا تلعب

أي من هذه العوامل أي دور يذكر فى التأثير على الفعالية النسبية للتغيرات فى تحيز الرسالة. وبصفة عامة، تكون الرسائل الأحادية أقل إقناعًا من الرسائل التقويضية الثنائية، ولا تختلف كثيرًا عن الرسائل غير التقويضية ثنائية الجانب. وعليه، فلابد من توجيه المقنعين بصفة عامة إلى محاولة القيام بعملية تقويض مباشرة للاعتراضات المحتملة. ومع ذلك، تقل مميزات الرسائل التقويضية ثنائية الجانب عن غيرها من الرسائل عندما تتم مقارنة كل نوع برسالة أحادية، عندما تكون الرسائل هي الإعلانات الموجهة للمستهلكين، بل قد يبدو أن الشكوك الأولية التي تلاقيها عملية الإعلان للمستهلكين تخلق عادة حالة قد يعزِّز فيها الاعتراف غير التقويضي بالحجج المعارضة من مصداقية الإعلان، وما يستلزم ذلك من درجة إقناعه.

وقد كانت الدعوات القائمة على التخويف محل اهتمام البحوث التي أجريت منذ فترة طويلة فى مجال الإقناع. وتعتبر "الدعوة القائمة على التخويف" رسالة تهدف إلى إثارة الشعور بالتهديد لدى الجمهور، أملاً فى تحفيزهم على قبول سيرْ العمل الموصى به فى عملية الاتصال، وهي العملية التي تهدف إلى تخفيف الخوف أو تحاشيه. وقد تصف رسالة ما، مثلاً، العواقب الوخيمة الناتجه عن سرطان الجلد، ومن ثم توصي الرسالة باتخاذ مختلف إجراءات الحماية من الشمس مثل استخدام نظارة الشمس أو ارتداء قبعة كوسيلة لتفادي هذه النتائج. وفي مجال البحوث، يكون شكل الرسالة المقصودة هو إظهار شدة المواد التي تثير الخوف أو وضوحها؛ فالرسالة قد تحتوي على مواد مثيرة للخوف بنسب خفيفة أو قوية نسبيًا، والسؤال هو ما آثار هذه المتغيرات على إثارة الخوف والفعالية الإقناعية. وتوضح لنا الأدلة البحثية عدم سهولة استغلال منفذي الاتصال لمستويات الخوف من خلال تلك الرسائل؛ فعلى سبيل المثال، لا تثير دائمًا مادة الرسالة شديدة اللهجة مزيدًا من الخوف. ومع ذلك، فمن المحتمل أن تكون الرسائل التي تثير خوفًا أكبر أكثر

إقناعًا من تلك التي تثير خوفًا أقل. ويتعارض هذا المعنى مع المعتقدات الراسخة بشأن تأثير إثارة الخوف على الإقناع. وكان من المتوقع أن يأخذ تأثير الخوف المثار على الإقناع شكل منحنى مقلوب على شكل حرف U، حيث تقع أكبر نسب الإقناع عند المستويات المتوسطة من الخوف المثار. ولكن الأدلة حتى الآن لا تتماشى مع هذه الافتراضات. وعلى دارسي الخطابة أن يتعرفوا على الدعوات القائمة على التخويف باعتبارها نوعًا من النداءات الانفعالية. [انظر: Pathos]. ولم تلق النداءات الانفعالية الأخرى، كنداءات الشفقة أو الشعور بالذنب، اهتماما كبيرًا من البحث مثلما لاقت الدعوات القائمة على التخويف.

المثال الثالث لبحوث رسائل المتغير تقدمه لنا دراسات التغير في درجة الوضوح الذي تقدَّم به النتائج الإجمالية للرسائل. وتقارن تجارب تعارض المصالح بين الرسائل التي يتم فيها توضيح النتائج بشكل جلي وبين تلك التي تكون نتائجها ضمنية، بمعنى أن جمهور هذه الرسائل هو الذي يقوم باستخلاص نتائجها. ويعتقد على نطاق واسع أن القدرة على الإقناع النسبي بهذين الشكلين من الرسائل سوف تتوقف على قدرة الجمهور واستعداده للتفكير في النتائج المرجوة. ومن المتوقع تحديدًا أنه في حالة المتلقين الذين لا يستطيعون التوصل إلى النتائج المرجوة بمفردهم، بسبب قدراتهم الفكرية، أو امتناعهم عن ذلك بسبب تبنيهم لوجهات نظر معارضة، فإن رسائل النتائج الواضحة ستكون أكثر إقناعًا، ولكن في حالات أخرى يفضل المتلقون رسائل النتائج الضمنية لأن مثل هذه الرسائل تدعو الجمهور إلى المشاركة النشطة، كما هو الحال في القياس الضمني. ولكن الأدلة البحثية المتاحة تشير إلى أن رسائل النتائج الواضحة تكون عادةً أكثر إقناعًا من تلك التي تكون فيها النتائج ضمنية، بغض النظر عن آراء الجمهور الأولية أو قدراتهم الفكرية. [انظر Enthymeme; Tacit dimension, the].

ولا يقدم ذلك سوى عينة من سمات الرسائل التي تمت دراستها فى مجال بحوث الإقناع. كما تم بحث الجوانب الأخرى الخاصة بتنظيم الرسالة (مثل الوسائل البديلة لترتيب المواد الجدلية) والمحتوى (مثل استخدام دعوات الإيثار، والمسائل الخطابية، أو لغة المجاز). وقد لاقت الجوانب البصرية الخاصة برسائل الإقناع اهتمامًا قليلاً نسبيًا من البحوث المنهجية. وقد لا يكون ذلك مستغربًا فى بعض النواحي؛ حيث إن المفردات التي نستخدمها فى وصف الاختلافات اللفظية تكون أفضل فى درجة وضوحها من مقابلاتها الخاصة بالصور فى رسائل الإقناع (بغض النظر عن المفردات التي تصف التفاعل بين المواد البصرية واللفظية). وهكذا فإن غلبة الصور المرئية فى رسائل الإقناع تجعل من المرجح أن يكون ذلك محل اهتمام المزيد من البحوث فى هذا الصدد.

خصائص المتلقي

تلعب خصائص شخصية المتلقي على ما يبدو أدوارًا معقدة فى عملية الإقناع؛ إذ إن العديد من خصائص الشخصية قد تعزز العملية الإقناعية أو تثبطها، وذلك بحسب الحالة. فمثلاً، قد يختلف المتلقون - كما ذكرنا آنفًا فى مناقشة نظريات الموقف الوظيفية - فى مراقبة ذواتهم (مدى حساسيتهم للصورة التي يرسمونها لأنفسهم)، لعنصر ثم تهيئة المتلقين بعد ذلك متغير بدرجات تتناسب مع ما تحققه مواقفهم من وظائف رمزية أو نفعية. وهكذا قد يكون المتلقي الذي يتمتع بدرجة كبيرة من المراقبة الشخصية أسهل أو أكثر صعوبة فى الإقناع من متلق لا يتمتع بهذا القدر الكبير من المراقبة، اعتمادًا على ما إذا كان نداء الإقناع بالرسالة يتناسب مع الوظيفة الرمزية الأساسية لمواقف المتلقي. ويمكننا النظر إلى دراسات هذه الظواهر (آثار التباين فى خصائص المتلقي مثل مراقبة الذات، والذكاء، واحترام الذات، والعمر، إلخ)

بأنها تعكس استمرار انشغال التقاليد الخطابية بتحليل الأدوار التي تلعبها خصائص الجماهير فى الإقناع.

وتتعلق بعض الجوانب الأخرى المهمة فى المجال البحثي بكيفية توجيه المتلقين لمقاومة عملية الإقناع، فمثلاً، كيف نجعل الناخبين الذين يميلون إلى التصويت لمرشح معين يقاومون عمليات الإقناع المضادة من جانب المعارضين، أو كيف نجعل المراهقين يقاومون عروض المخدرات. فما يقنع شخص ما قد يكون مختلفًا عما يجعل الشخص مقاومًا للإقناع المضاد، وبالتالي تم تبني مسارات بحثية عديدة لتقصّي الجوانب المميزة لظاهرة مقاومة الإقناع.

وتعتمد أكثر المفاهيم العامة إفادةً فى مقاومة الإقناع على تشابهها مع التطعيم ضد مرض ما: من خلال تعريض المتلقين لتفنيدات ذات أنواع ضعيفة من الحجج المعارضة، وبالتالي يمكننا أن نجعل من المتلقين قوى مقاومة للهجمات اللاحقة؛ إذ نجد فى سياقات الحملات السياسية، مثلاً، أن ذلك العلاج بالتطعيم يقلل من فعالية الدعاية السلبية اللاحقة. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك عدد من الدراسات تتناول كيفية تعليم الأطفال مقاومة الضغوط الاجتماعية بأفضل الوسائل ضد استخدام التبغ والكحول، أو العقارات الممنوعة. وتركز إحدى الوسائل فى ذلك على الضغوط الاجتماعية المباشرة فى صورة عروض لهذه المواد، وتقوم بتعليم الأطفال مهارات رفض هذه العروض من خلال مجموعة معروفة من النماذج (رؤية الآخرين يقومون بهذا الرفض) ومن خلال الممارسة العملية (تدريبات للقيام بالأدوار التي يرفض الطفل من خلالها تلك العروض). ويسعى نوع آخر من تلك الوسائل إلى نزع فتيل الضغوط غير المباشرة الناجمة عن التصورات الاجتماعية المعيارية الخاطئة للأطفال، مثل المبالغة فى تقدير عدد أقرانهم ممن يستخدمون مثل هذه المواد. ولا تعطينا

الأدلة المتوافرة حتى الآن أسبابًا وجيهة للاعتقاد بأن التدريب على مهارات الرفض تمنع تعاطي المخدرات فيما بعد، ولكن يبدو أن التدخلات المعيارية هي المبشرة بالنجاح فى هذا الصدد.

التطبيق

ينشأ الاهتمام بالإقناع – وبالتالي بإجراء البحوث ذات الصلة بالإقناع – بشكل طبيعي فى عدد من المجالات ذات النشاط العملي مثل الإعلانات الموجهة للمستهلكين، والاتصال السياسي (مثل رسائل الحملات الانتخابية)؛ والاتصال القانوني مثل شهادة الشهود أو دفاع المحامي؛ والاتصال الصحي، بما فى ذلك الحملات الإعلامية الرامية إلى الوقاية من الأمراض، والاتصال بشأن المخاطر البيولوجية والبيئية، والرسائل التي تنقل معلومات تحذيرية عن المنتج.

وتُقدِّم بعض الأبحاث ذات الصلة بالإقناع فى هذه المجالات تطبيقات ذات أفكار أكثر عمومية مثل تلك التي تمت مناقشتها سابقًا. فقد بُحِث عدد كبير، مثلاً، من دراسات جدوى نظرية الفعل العقلانى بغية فهم المواقف المختلفة المتعلقة بالصحة: مثل الممارسة، والمشاركة فى برامج الفحص الصحي مثل تصوير الثدي بالأشعة، واتخاذ الإجراءات الوقائية ضد سرطان الجلد الناجم عن التعرض لأشعة الشمس، والمشاركة فى الفحص الذاتي للثدي أو الخصية، وغيرها. وبالمثل، قام باحثون بدراسة التباينات بين الوظائف الرمزية والنفعية للمواقف فيما يتعلق بالأشخاص المصابين بالإيدز، ومدى مصداقية المصادر المختلفة للمعلومات عن المخدرات بالنسبة للمراهقين، وفعالية الدعوات القائمة على التخويف فى تشجيع استخدام حزام الأمان، وغيرها.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد يجد الشخص بحوثًا خاصة بمجال معين، بمعنى أن يجد أبحاثًا تركز على قضايا أو متغيرات ذات اهتمام متميز فى مجال معين من التطبيق. فقد بحثت دراسات الإعلانات الموجهة للمستهلكين، مثلاً، مدى تأثير موقف الشخص من الإعلان (مثل تقييم الشخص للإعلان، بوصفة تقييما مختلفًا عن تقييم الشخص للشيء الذي يتم الإعلان عنه) – على فعالية العملية الدعائية؛ إذ لا عجب أن تكون الإعلانات المحبوبة لدى الجماهير أكثر إقناعًا، ولكن هذا التأثير يضعف تدريجيًا مع زيادة تعرف الجمهور على المنتج الذي يتم الإعلان عنه. وبالمثل، أولت بحوث الإقناع فى الحملات السياسية اهتمامًا خاصا لآثار الدعاية السياسية السلبية، إذ كان يُفترض غالبًا أن تكون الإعلانات لها فاعلية خاصة، ولكن تشير الأدلة المتوفرة حاليًا إلى عدم نجاح الدعاية السياسية السلبية عادةً، بل ثمة إشارات محتملة إلى آثارها المدمرة على المرشح الذي يقوم برعايتها.

وفي نطاق هذه البحوث المحددة المجال، هناك أحد التطورات المهمة، بالنسبة للطلاب الذين يدرسون العملية الإقناعية بصفة خاصة، وهو التعبير عن عدد من النماذج "المرحلية" الخاصة بالسلوك الصحي، والتي تتمثل فى "النموذج العابر للنظرية" الخاص بالموقف الصحي، والذي يسمى بهذا الاسم بسبب جمعه لعدد من وجهات النظر النظرية المختلفة. ويحدد "النموذج العابر للنظرية" (والذي يسمى أحيانًا "نموذج مراحل التغيير") عددًا من المراحل المتميزة فى تبني الشخص لسلوك صحي معين مثل الاشتراك فى برنامج تدريبي. ففي مرحلة ما قبل التأمل، لا يفكر شخص حتى فى الاشتراك فى البرنامج التدريبي فى أي وقت قريب، أما فى مرحلة التأمل، فإن أقل ما يوصف به الشخص فى هذه المرحلة هو التفكير بجدية فى القيام بهذا البرنامج؛ أما الشخص فى مرحلة الإعداد، فإنه يعد نفسه للتغيير وربما يقوم ببعض الخطط أو الإجراءات التحضيرية الأخرى لذلك (مثل الاشتراك فى

ناد صحي)؛ أما فى مرحلة العمل، فإن الشخص يقوم بممارسة البرنامج؛ وأخيرًا، يقال إن الشخص الذي يستمر فى الاشتراك فى ممارسة البرنامج لبعض الوقت أنه فى مرحلة الاستمرار.

وتعد النماذج المرحلية جذابة من وجهة نظر المشتغل بالعملية الإقناعية لما لها من فوائد كامنة فى اقتراح أفضل السبل لتصميم الجهود الإقناعية لجمهور معين. فمثلاً، بالنسبة للأشخاص فى مرحلة ما قبل التأمل، يتمثل تحدي المشتغل بالإقناع فى جعل الجمهور يفكر فى الموقف المنشود (مثل نقل الجمهور من مرحلة ما قبل التأمل إلى مرحلة التأمل). وعلى النقيض من ذلك، ففي حالة الأشخاص فى مرحلة التحضير، نفترض أن المشتغل بالعملية الإقناعية يريد مساعدة الجمهور فى ترجمة خططهم ونواياهم إلى أفعال، وبالتالي تقدم هذه النماذج طريقة أخرى فى التفكير بشأن تحليل الجمهور والتكيف معهم.

وتتعلق إحدى النتائج المثيرة للاهتمام - خاصة تلك المستمدة من النموذج العابر للنظرية - بالتوازن المتعلق باتخاذ القرارت، والأهمية الملحوظة لمزايا ومساوئ سلوك معين. فقد كشفت الدراسات التي أجريت على عدد من المواقف المتعلقة بالصحة (بما فى ذلك استخدام النظارات الواقية من الشمس، وإجراء فحوصات تصوير الثدي بالأشعة، والحد من الدهون فى الطعام، وممارسة التمارين الرياضية) أنه بانتقال الأشخاص من مرحلة ما قبل التأمل إلى العمل، تزداد أهمية معرفة مزايا هذه الأفعال، وتقل أهمية معرفة عيوبها. ولا مجال هنا للاستغراب، حيث تشير الأدلة البحثية إلى أن هذين المتغيرين غير متساويين: فتنامي أهمية معرفة المزايا أكبر بكثير من تناقص أهمية معرفة العيوب. وهذا يعني - بحسب الظاهر - أن تبني مثل هذه السلوكيات قد لا يتعلق بمسألة أن يقرر الشخص أن عيوبها غير ذات أهمية، بقدر ما يتعلق بقراره عن أن مزاياها تجعلها الموقف مفيدة.

وفي المقابل، قد يرغب المشتغل بالإقناع، عند تشجيع الانتقال من مرحلة ما قبل التأمل إلى الموقف، على إعطاء اهتمام أقل لتقويض العيوب المحتملة لهذا العمل من الأهمية الممنوحة لزيادة مزاياه.

وقد بدأت تتراكم فى الآونة الأخيرة كثير من الأدلة البحثية عن النماذج المرحلية الخاصة بالموقف الصحي وعدد من القضايا المفاهيمية والمنهجية الشائكة التي لا تزال تبحث عن حلول. ومن غير الثابت حتى الآن، مثلاً، ما إذا كان تصنيف المراحل فى النموذج العابر للنظرية مفيدًا فى الغالب الأعم، بل والأعم من ذلك أنه يبدو حتى الآن أن الباحثين لم يبحثوا بعناية دقيقة أنواع الأدلة اللازمة لتقييم مختلف الادعاءات التي تتضمنها النماذج المرحلية. ومن الواضح أن النماذج المرحلية تعطينا الأمل فى استمرار إسهاماتها فى تشكيل فهمنا عن العمليات الإقناعية.

التكامل

ومن الأسئلة التي تثور هنا علة عدم وجود تكامل أكثر جرأة بين نتائج البحوث التطبيقية والتحليلية المتغيرة وبين الأطر النظرية المختلفة. ويرجع ذلك ببساطة إلى اتساع المجالات الأكاديمية التي توجد فيها البحوث ذات الصلة بالإقناع. ولا تشجع دائمًا نماذج التدريب المركزة على الفروع المعرفية التقليدية الباحثين على البحث فى الخارج عن أعمال متعلقة بهذا الأمر، ولم تبذل جهود حثيثة سوى فى الآونة الأخيرة سعيًا وراء استرداد أدبيات البحث المتناثرة وتنظيمها. وعلاوة على ذلك، لم تحاول الأطر النظرية القائمة تناول مجموعة واسعة من القضايا ذات الصلة، فمثلاً، على الرغم من الأهمية الجلية للجوانب الانفعالية والبصرية للإقناع، فإنه لم يتم تصميم النماذج النظرية الحالية لاستيعاب مثل هذه الجوانب بسهولة، أو حتى التركيز عليها. ويبقى الأمل فى أن تكون الأطر المستقبلية أكثر اتساعا من

ذلك، سواء من ناحية قابلية تناول مجموعة واسعة من الاهتمامات، أو من ناحية الاستعداد لدمج الأعمال ذات الصلة عبر الحدود المعرفية.

وفي الوقت نفسه، ستواجه عملية تطوير الأطر الأوسع توترًا طبيعيًا وحتميًا مع الجوانب العلمية والاجتماعية الخاصة بالعمل الإقناعي، وهو التوتر المعهود الذي نجده فى الدراسات الخطابية بين الأطر العامة ومعالجات الحالات أو السياقات الخاصة. ويتضح ذلك جليًّا من خلال بحث مسألة إضافة هذا العامل أو ذاك لنظرية عمل المبرر أو نظرية السلوك المخطط بغية تعزيز التنبؤ بالنوايا. ومن الممكن أن تعمل إضافة عامل معين على تحسين عملية التنبؤ بنية الشخص فى القيام بسلوك معين، ولكن التعميم فى ذلك لا يفيد خاصة عندما تكون لدينا مجموعة متنوعة من المجالات السلوكية، ومن ثم فلن تكون إضافة ذلك العامل مناسبة إلى النموذج العام. وهذا يعني أن هناك بعض المفاضلة بين حساب اقتصادي عام قابل للتطبيق على نطاق واسع وحساب مُرضٍ إلى الحد الأقصى لبعض الحالات المعينة. ومثلما تكون الصور العامة للإقناع مفيدة، فمن المؤكد أن الحالات الفردية تتطلب معالجة فردية مقابِلة، وينبغي ألا يشكل ذلك مفاجأة لدارسي الخطابة. [انظر أيضًا المقالة المختصرة تحت **Audience; Conviction; Identification; Judgment**].

المصادر والمراجع

Ajzen, Icek. "The Theory of Planned Behavior." *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 50 (1991), pp.pp. 179–211.

Conner, Mark, and Paul Norman, eds. *Predicting Health Behaviour*. Buckingham, U.K., 1996.

فصول تقدم تحليلا نقديًا لتطبيق نماذج متنوعة (على سبيل المثال نظرية السلوك المخطط) لشرح السلوك المتعلق بالصحة.

Eagly, Alice H., and Shelly Chaiken. *The Psychology of Attitudes*. Fort Worth, Tex., 1993.

معالجة شاملة ممتازة لبحث الأدب الخاص بالمواقف.

Fishbein, Martin, and Icek Ajzen. *Belief, Attitude, Intention, and Behavior: An Introduction to Theory and Research*. Reading, Mass., 1975.

تم تنظيمه وفقًا لنظرية الفعل العقلاني.

Jackson, Sally. *Message Effects Research*. New York, 1992.

مناقشة دقيقة للقضايا المنهجية فى بحوث الإقناع.

Maibach, Edward, and Roxanne Louiselle Parrott, eds. *Designing Health Messages: Approaches from Communication Theory and Public Health Practice*. Thousand Oaks, Calif., 1995.

فصول توضح مجموعة من المناهج التي تقوم على النظريات لتصميم رسائل إقناعية عن الموضوعات الصحية.

Messaris, Paul. *Visual Persuasion: The Role of Images in Advertising*. Thousand Oaks, Calif., 1997.

معالجة متروية لجانب مهمل لفترة طويلة من جوانب الإقناع.

O'Keefe, Daniel J. *Persuasion: Theory and Research*. Newbury Park, Calif., 1990.

دراسة موسعة للنظرية والبحث. وهناك طبعة جديدة فى الطريق.

Petty, Richard E., and John T. Cacioppo. *Communication and Persuasion: Central and Peripheral Routes to Attitude Change*. New York, 1986.

عرض تفصيلى لنموذج الشرح والإيضاح المحتمل.

Pfau, Michael, and Henry C. Kenski. *Attack Politics: Strategy and Defense*. New York, 1990.

يقدم تقريرًا عن دراستين ميدانيتين عن العلاج بالتطعيم فى مقابل الإعلان السياسي السلبي.

Prochaska, James O., and Carlo C. DiClemente. *The Transtheoretical Approach: Crossing the Traditional Boundaries of Therapy*. Homewood, Ill., 1984.

Weinstein, Neil D., Alexander J. Rothman, and Stephen R. Sutton. "Stage Theories of Health Behavior: Conceptual and Methodological Issues." *Health Psychology* 17 (1998), pp.pp. 290–299.

تأليف: Daniel J. O'Keefe

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفلسفة Philosophy

[يتألف هذا المدخل من مقالين: الأول يتعامل مع العلاقة القديمة والمستمرة، والندِّية غالبًا، بين البلاغة والفلسفة، وذلك مع الإشارة بصفة خاصة إلى أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle؛ والثاني يصف القضايا والمصطلحات الفلسفية المتواترة بالنظر إلى اختلافاتها المتنازع عليها وكذلك مضامينها تجاه البلاغة.]

البلاغة والفلسفة

إذا ما نظرنا من الناحية الظاهرية فإن كلاً من البلاغة والفلسفة تُعدان فرعين معرفيين واسعين ضمن إطار الدراسات الإنسانية، ولكل منهما أهدافه وطرائقه المستخدمة المختلفة؛ على أنهما يتعين عليهما أن يعيشا سويًا فى وفاق. وبالفعل فى أول ظهور تاريخي مدون لهما – فى اليونان القديمية فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد – كان السوفسطائيون يدرّسون كلاً من الفلسفة والبلاغة معًا، وهذا إلى جانب معارف أخرى كالأدب والتاريخ والأخلاق وغيرها (انظر مدخل السوفسطائيين Sophists). ولقد كان السوفسطائيون مدرسين متجولين من جميع أنحاء اليونان إذ قدَّموا دروسهم

"بناءً على طلب الغير" نظير مقابل مالي، (ولقد كان إيزوقراط Isocrates واحدًا من أكثر أفراد هذه الفئة تأثيرًا غير أنه ترك هذا التقليد واستقر فى أثينا حيث فتح مدرسته الخاصة عام ٣٩٣ ق. م. فى منافسة مباشرة مع أكاديمية أفلاطون آنذاك Plato's Academy). على أن النجاح الذي حققه السوفسطائيون يثبت أن تعاليمهم أوفت بحاجة ملحة فى المجتمعات اليونانية تجاه التعليم، وخصوصًا التدريب على إلقاء الخطب العامة. ولقد كانت هناك ممارسة للديمقراطية على أساس إتاحة الحديث المباشر لأولئك المؤهلين اجتماعيا (وهم الراشدون البالغون الذكور من اليونانيين فقط دون النساء أو الغرباء أو العبيد). وفي الميادين السياسية كما فى المحاكم القضائية كان للأفراد الحق فى الحديث عن أنفسهم، بل لهم الحق فى المساهمة فى التصويت الجماعي والذي تترتب عليه العمليات الديمقراطية كافة. ولقد تولى السوفسطائيون أمر التدريس من خلال فئتين رئيسيتين لصناعة الكلام (أو الخطاب) وهما، النوع التشاوري والنوع القضائي الشرعي، وهذا إضافة إلى ممارسة النوع الثالث كذلك وهو "التوضيحي"، والذي غالبًا ما كان يحتفي بالحديث عن الفضيلة (انظر مداخل "جنس الخطابة التشاورية" Deliberate genre و"جنس الخطابة التوضيحية Epideictic genre و"جنس الخطابة القضائية Forensic genre). وعلى الرغم من أنه لم يبق إلا القليل من أعمالهم؛ فإن السوفسطائيين قاموا بتدريس مبادئ تنظيم الخطبة مقسمين إياها إلى أجزاء معينة ومستخدمين الحيل البلاغية والاستعارية المناسبة، بل محتكمين إلى عواطف المستمعين التي تعد جزءًا تكميليًا من عملية الإقناع (انظر جاجارين Gagarin وودروف Woodruff، ١٩٩٥). على أن كلمة سوفسطائي sophist فى الأصل لم تكن لها أي إيحاءات سلبية أو مشينة بل ظلت مستخدمة فى القرن الرابع قبل الميلاد لتشير إلى كل من الخطباء والفلاسفة على السواء.

بيد أن أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.) قد خرق التناغم بين البلاغة والفلسفة من خلال استهجانه الساخر الذي أولاه كلمة سوفسطائي فحملها المعنى السلبي التي مازالت عليه إلى يومنا هذا. ولعداوة أفلاطون هذه عدة موارد. أولاً ونظرًا لاعتقاده أن الحُكم علمٌ يتطلب معرفة دقيقة فلقد كان أفلاطون خصمًا سيئ السمعة للديمقراطية والتي حكم بأنها أمر غير نظامي بل أمر مستقبح يمكن إساءة استخدامه. فلقد نُفِّذ على سقراط حكم القتل، وهو الذي جعله أفلاطون نموذجًا مثاليًا يُحتذى، بل استخدمه كخطيب رئيسي فى حواراته المكتوبة، وكان ذلك عام ٣٩٩ ق. م. بتهمة تقديم آلهة جديدة وإفساد الشباب. فبالنسبة إلى أفلاطون يعد مقتل سقراط دليلاً إضافيًا على ضعف أنظمة الديمقراطية عن الدفاع عن أنفسها ضد الفساد الداخلي أو الطغيان. ثانيًا، كان أفلاطون مناوئًا لما يقدمه السوفسطائيون وعلى نحو موسع فيما يختص بالأمور الأخلاقية والاجتماعية والسياسية. فهو يرى أن معرفتهم سطحية أو معرفة هواة، وخصوصًا إذا ما قورنت بالخطوات الممنهجة الفعالة للجدل (الدياليكتيكي) (انظر مدخل "الجدل (الدياليكتيكي) Dialectic). ولطالما تمنى أفلاطون أن يُعلي من شأن فكرته عن الفلسفة لتبلغ أسمى المواقع التربوية التعليمية على أن يحط من قدر، إن لم يلغِ تمامًا، كل المناهج المناوئة الأخرى. ثالثًا فقد كان تصور أفلاطون فيما يخص التربية والتعلم مبنيًا على فكرة انقسام الروح إلى عناصر عقلانية وأخرى غير عقلانية، على أن الأخيرة تتمثل فى العواطف الإنسانية. فهو يعتقد أن دور المعلم هو تغذية العقل وقمع الغرائز سواء الجسدية أو العاطفية والتي، فى بحثها عن المتعة والإشباع، تجعل البشر يسلكون مسلك الحيوانات. ففي كتابه "الجمهورية" Republic هناك حوارٌ يناقش أفضل أشكال التعليم الذي يمكن أن يتلقاه "السدنة (الحراس/الرعاة) guardians " الذين يتلقون تدريبًا على حكم الدولة مستقبلاً، وفيه يقول أفلاطون بأن التراجيديا، مثل الأشكال الأخرى

للشعر، ينبغي أن تُستبعَد من الدولة ما دام أنها تمثل العواطف البشرية ويمكن أن يكون لها تأثير ضار على معنويات هؤلاء السدنة.

ولعله من المفارقة، من نواحٍ عديدة، أن أفلاطون قد هاجم البلاغة والشعر. وأن كتاباته ممتلئة بالعديد من الاقتباسات لهوميروس والشعراء اليونانيين الآخرين، والذين من المؤكد أنه عرفهم جيدًا. فمحاوراته (dialogues) عبارة عن حوارات تخيلية تتوسل بالتأثيرات الأدبية على نحو فائق مثل مكان وزمان الحكي، ونغمة المتحدث والتحول الدرامي وغيرها؛ كما أنه يستخدم، وعلى نحو جيد، الأسطورة سواء الأساطير التقليدية، والتي يعيد أفلاطون تفسيرها، أو الأساطير الأخرى التي ابتدعها هو بنفسه. بل لعله كان الكاتب الأكثر خيالاً والأكثر بروزًا فى هذا الباب بين كل الفلاسفة، بل كان أيضًا بلاغيًا عالي الكعب إذ تعرض خطبه المُتَضَمَّنة داخل محاوراته مهاراته فى كل أوجه الخطابة، ومنها استخدامه لحجج شديدة التعقيد إضافة إلى التنوع المذهل فى اللغة، والتكيف بحسب ما يناسب المخاطب والسياق والغرض، بل اشتمل ذلك على المحاكاة التهكمية (الساخرة) لأساليب خصومه.

وعلى الرغم من ذلك، فإن مهارات أفلاطون الأدبية والبلاغية غير المسبوقة وُجهت ضد الأدب والبلاغة، ونيابة عن (أو لصالح) شكله الفلسفي الخاص. بل من المفارقات الأخرى أنه نظرًا لأن قدرًا كبيرًا من كتابات السوفسطائيين قد اندثرت فإن معرفتنا تعتمد على أفلاطون ذاته فيما يتعلق بالبلاغة فى عصره أو فى القرن الذي سبقه. وعلى الرغم من ذلك فإن تصوير أفلاطون للبلاغة يعد عدائيًا، على نحو ما يظهر فى إحدى محاوراته ("جورجياس" Gorgias) كونه موجَّها ضد البلاغة السياسية كما علَّمها السوفسطائيون وكما مارسوها فى أثينا. ونراه فى محاورة أخرى (فيدروس Phaedrus) ضد ليسياس Lysias كاتب الخطب، بل ضد بلاغة المحاكم

القضائية. كما أنه هاجم أيضًا ممارسات السوفسطائيين السياسية والفلسفية فى محاورتين أخريين هما "بروتاجوراس" Protagoras و"السوفسطائي" Sophist؛ كما يقارن فى ثياتتيوس Theaetetus بين كلٍ من الخطيب والفيلسوف ببعضهما بعضًا. أما فى المحاورة الأخيرة ("القوانين" Laws) فهو يرى للبلاغة دورًا محدودًا فى المجتمع غير أنه فقط دورٌ إعلامي يتضمن نوعًا من الخداع المتعمد للشعب والتلاعب بعملياته الانتخابية. ونجد أفلاطون فى تلك الأعمال وفي غيرها يقر فكرة الدولة التي تستخدم كلا من الإجبار والإقناع لضبط سكانها وأنظمتها، وهو الأمر الذي يعتبره مفكرون آخرون أمرًا متعارضًا (إذ لا الطغاة ولا الدول الاستبدادية تحتاج إلى إقناع مواطنيها). على أن أكثر الأعمال محاولةً للحط من قدر البلاغة وإعلاءً لشأن الفلسفة هما العملان الأكثر تأثيرًا، "جورجياس" و"فيدروس"، غير أنهما يحتاجان إلى نقاش مستقل.

إن العديد من القراء (وخصوصًا الفلاسفة) يتعاملون مع المحاورة الأفلاطونية Platonic dialogue إما علي اعتبار أنها كانت تسجيلاً لمحادثة حقيقية، ربما حدثت فى مكان معين، استخدم فيها غالبًا أبطال تاريخيون؛ وإما على أنها أمر مثالي كان من الممكن أن يقع، وأن الأبطال فيه كانوا من المحتمل أن يتحدثوا على النحو الذي يقدمهم به أفلاطون فعلاً. ومن الناحية الواقعية فلكي يحقق أهدافه الجدلية والتفنيدية فلقد لجأ أفلاطون إلى غير ما وسيلة لعرض حجته. ففي المحاورتين (المشار إليهما آنفًا) فإن سقراط، وهو المتحدث الرئيسي، يتحكم فى الأحداث. وأفلاطون يجعله ينخرط فى الحوار مع المتحدثين الآخرين، ولكن بطريقة تتناغم مع نظامه هو، ولا تتناسب - على نحو عميق - مع طريقتهم هم. فأفلاطون يجعل "سقراط" يعرِّف ويعين شروط المناقشة، ويسأل الأسئلة التي تكشف نقاط الضعف فى قضية خصمه وتقوي قضيته هو، إضافة إلى سمات أخرى تتسم بالتحيز وعدم الإنصاف متخذة أشكالاً عديدة. وكذلك وبعد خلق الشخصيات الأخرى فإن أفلاطون

يجعلهم يتصرفون بطريقة محسوبة تؤدي إلى تدمير قضاياهم هم، باعتبارهم ممثلي التعليم البلاغي والديمقراطية (كما يظهر فى "جورجياس" Gorgias)، أو يصفهم وصفا معينا من صناعته بحيث يبدو وكأن ما فيه يمثل أخطاءنا نموذجيا تماما لما يمكن أن يقع فيه الخطيب (كما يتضح ذلك فى "فيدروس").

وتتسم المحاورتان بقوة جدلية شديدة من خلال استخدام ما يمكن أن نسميه الانجذاب القطبي أو الثنائية، إذ نجد أن هناك قطبًا (اتجاهًا) مقبولا دائمًا بينما الآخر لا قيمة له. فالهيكل الجدلي فى "جورجياس" مبني على هذه الثنائيات التي وُظِّفت كلها للانتقاص من (علم) السياسة والبلاغة. أما فى "سقراط" فهدف رجل الدولة يبدو، وكأنه يجب أن يكون، استئصال الرغبات الدنيئة للمواطنين "مقنعًا إياهم أو مجبرهم كذلك على النحو الذي يجعلهم أفضل" وليس على نحو "يخدمون به شهواتهم وأهواءهم" (517b - 521a، ترجمة إيرون Irwin). وبعد سقوط قادة أثينا – وهذا بعد المسار الذي اتخذته الأحداث فى البداية (حسبما ورد فى الحوار) – نرى أن هؤلاء القادة يُحكم عليهم بأنهم مذنبون "بتملقهم" للناس إذ أخبروهم ما يريدون أن يسمعوه منهم وليس ما يمكن أن يكون أفضل لهم، الأمر الذي أدى إلى انخرطهم فى الشهوات. ولكي يصنع هذه التهمة، حسبما تشير أفضل الشروح لهذا الحوار (انظر إي. آر. دودس E. R. Dodds وتيرينيس إيرفن Terence Irwin) فإن أفلاطون شوه التاريخ الأثيني بل حطم كل أعراف الجدل بأن حط من قدر نشاط رجل الدولة إلى هذا الحد (حاصرًا الأمر على قطبين: إما التعليم أو الإفساد). ويمكن لنا أن نعترض على ذلك بأن دور رجل الدولة ليس بالضرورة أن يعلم المواطنين؛ أو أن التعليم – وهذا إذا ما قبلنا افتراضات أفلاطون – يمكن أن يكون عملية تدريجية لا تؤخذ جملة واحدة وللجميع نجاحًا أو فشلاً، بمعنى أنه "إن لم يتحقق التعليم فثمَّ الفشل". كما أنه لا يُسمَح لأحد داخل الحوار بأن يذكر مثل هذه الاعتراضات، بل ولا أن يحتج على

النقاط المتباينة الأخرى التي يسوقها سقراط: ومنها أنه في مجالس الشعب تعمد البلاغة إلى "الوصول إلى الإقناع دون معرفة"، بمعنى أن الإقناع لم ينتج من تعلم (*mathesis*) ولكن من محض اقتناع مبني على مجرد رأي (*doxa*) (454b - 455a)؛ ومنها كذلك أن البلاغة تخلو من مبدأ عقلاني logos ومن ثم ليس لها وضع واضح كنظام معرفي (*techne*) أو كفرع معرفي نظامي مبني على العلم القاطع والمعرفة (*episteme*). فهي مجرد شيء طبيعي كامن أو موهبة يمكن اكتشافها عن طريق المحاولة والخطأ قد تؤدي إلى المتعة والإشباع (انظر الصفحة/ الجزء 462c). بل إن البلاغة صُوِّرَت على نحو أكثر عنفا من ذلك بأنها مجرد نوع من المدح الخبيث (*kolakeia*)، بل نوع من الدياثة المقيتة النفعية التي تداعب الجماهير (463a - c)، بل هي تتدنى إلى مستوى أنشطة التزوير والتلفيق. ثم يشرع حوار أفلاطون – "سقراط" – في تعيين أربع حرف أو مهارات أصلية؛ اثنتان منها تتعامل مع الجسد وهما الرياضات الجسمية والطب، واثنتان منها تتعامل مع العقل وهما التشريع والعدالة؛ ثم يعمد إلى تعديل تلك الأربع بتصرف لتتوافق مع مهارات أخرى زائفة (من وجهة نظره): مهارتَي التجميل والطهي المتعلقة بالجسد، ومهارتَي السفسطة والبلاغة المتعلقة بالعقل (464a - 465b).

بيد أن تلك الثنائيات (انظر أعلاه)، والتي تحابي الفلسفة وتطرح البلاغة، لم تتأت نتيجة اجتهاد وبحث عقلي بل فرضَت على النقاش فرضًا من خلال سقراط. والأسوأ من ذلك فيما يخص البلاغة أن المتحدثين الثلاثة الآخرين في الحوار، وهم جورجياس Gorgias وبولس Polus وكاليكليس Callicles، والذين قد يعتقد المرء أنهم ربما سيدافعون عن عقلانية الإقناع أو شرعيته داخل الدولة الديمقراطية، نجدهم جميعًا إما منهزمين أمام اجتهاد سقراط العقلي أو أن أداءهم يقدم أو يضع الديمقراطية في أسوأ أوضاعها. فجورجياس، وهو السوفسطائي الأكبر سنا المتميز، بعد موافقته على عقد

نوعًا من الاستجواب الممنهج الجدلي، تُوَجِّه إليه بعض الأسئلة عن تعريف البلاغة. ونراه يقوم بذلك على نحو غير مناسب بحيث أن سقراط يجعله يوافق على عدد من المقدمات والآراء التي تعد خطأً فادحًا: ومنها أن البلاغة تسفر عن إقناعٍ داخلي فينا شأنها شأن فنون أخرى، مثل الرسم أو الرياضيات؛ ومنها أن الخطيب يمكن أن يتحدث على نحو "مقنع أمام الجمهور" بإظهار أنه يعلم عن الموضوع الذي يتكلم فيه علمًا يفوق علم الخبراء؛ وأن البلاغة يمكن أن يُساء استغلالها لأغراض شريرة (449a - 461b). أما المُحاوِر الثاني "بوليوس"، وهو مدرس للبلاغة أصغر سنًا وأقل خبرة، يظهر فى الحوار على أنه يقبل كل الثنائيات (انظر أعلاه) الموجهة ضد البلاغة، ثم إنه هو ذاته يقدم عرضًا صادمًا وغير أخلاقي عن البلاغة باعتبارها أمرًا غير مؤهل بعد للانتفاع من ورائه؛ فهي فن يمنح الخطباء (ويقصد بهم هنا الديمقراطيين السياسيين) القوة فتجعلهم كأنهم "طغاة ظالمون" يريدون "قتل من يريدون قتله ومصادرة ما يريدون ونفي واستبعاد من يشاؤون من مدنهم" (466a). وعليه فكلٌ من المحاورين يظهر بمظهر المتحدث عن القوة الإقناعية التقليدية للبلاغة ولكنٍ ليس على النهج الذي تتجلى فيها النقاشات القائمة على الديمقراطية الحقة. فسقراط يدعى أن قوة الخطيب دائما ما يساء استغلالها لصالح إشباع رغبات الخطيب أو للوصول إلى السيادة أو المتعة. وفي ختام ذلك الاستجواب المؤلم نرى بولس عاجزًا عن أن يتصدى لإدعاء سقراط بأن الخطيب والطاغية فى خندق واحد؛ وأن الخطيب رجلٌ "جائر... وأنه يدير الأمور دون أن يخضع أبدًا لتقويم أو عقاب" (478b - 479a). أما الطرف الثالث فى الحوار وهو كاليكليس – وهو رجل ثري من أثينا من الطبقة فوق المتوسطة ويمثل الاتجاه المعاكس للديمقراطية والذي يتعاطف معه (أو يتحيز له) أفلاطون فى الأصل – فقد رُسِم دوره فى الحوار على أن يجادل بأن الرغبات الشخصية لابد وأن يُطلق لها العنان،

بصرف النظر عن العدالة والقوانين الأخلاقية (482b - 484a)؛ وهذا يمثل بالطبع انحرافاً عن الطبيعة الحقة للفضيلة والسعادة التي ينحاز إليها سقراط عن اقتناع شديد (487b - 501a). ويُختتم الحوار بعرض يقدمه سقراط يوضح فيه سمو مكانة حياة الفيلسوف في مقابل تلك التي تخص الخطيب السياسي. وينتهي الحوار برؤية "أسطورية عن يوم الحساب (القيامة)"، والتي تقدم هي الأخرى ثنائية أخرى يتضح فيها أن الأرواح تمتحَن بعد الموت وأن تلك الأرواح التي أطلقت العنان لشهواتها ستذهب إلى تارتاروس Tartarus (وتعني الجحيم) بينما أرواح أولئك الذين "عاشوا في تقىً وصدق" يذهبون إلى الجزر المباركة Isles of the Blessed (523a - 527a). أما الفلاسفة فقد قدِّرَ لهم أن يذهبوا إلى المملكة العليا، بينما السياسيون والخطباء فلهم الدُّون.

وتُستخدَم الأساطير، إضافة إلى الرتب أو المكانات ذات الترتيب الهرمي، لغرض مشابه في "فيدروس". ففي هذا الحوار نرى سقراط يواجهُه متحدثٌ واحدٌ آخر، ألا وهو ذلك الشاب اليافع فيدروس Phaedrus، المتحمس غير أنه، وعلى نحو مطلق، من المعجبين السذج بليسياس Lysias كاتب الخطب (*logographos*) (٤٤٤ إلى ٣٨٠ ق. م. تقريبًا). ويشتمل هذا الحوار على ثلاث خطب: الأولى تنسب إلى ليسيوس حيث يقرأها فيدروس بصوت عالي من نسخة وجدها معه بالصدفة، والثانية والثالثة – وهما أسمى من الأولى فيما يخص سواء البلاغة أو الفلسفة – يرتجلهما سقراط في التو واللحظة. فأما خطاب ليسياس فيتسم بالإبهام والتعقيد والأسلوب المتباهي وهو بدون مقدمة وتتنامى فيه الحجة الجدلية على نحو مركز إلى حد غريب (230e - 234c). وهو خطاب يأتي على عكس الخطب الخالدة لليسياس (في التاريخ الحقيقي)، تلك الخطب التي يستشهد بها النقاد القدماء والمحدثون على وضوح المقدمة وإيجاز الحبكة، وفوق كل ذلك الروعة والجزالة (*charis*) (انظر المؤرخ ديانيسيوس Dionysius of Halicarnassus Lysias، وانظر كذلك

ستيفن آشر Stephen Usher). بيد أن الشك فى كون أفلاطون كان قد أعدَّ سلفًا خطابًا رديئًا لليسياس يدعمه أن نقاط القصور والضعف التي تعتري الخطاب قد قيل بأنها تمثل نقاط قصور نموذجية لما يمكن أن يعتري فئة كتّاب الخطب ومن ثم ما يعتري البلاغة.

لقد كان الموضوع الرئيسي لخطاب ليسيوس عبارة عن دعوة للحب عبر مقدمة متناقضة تقضي بأن "العطف يجب أن ينصرف إلى الرجل الذي لم يقع فى الحب دون الواقع فيه" (227c). وكونه غير متأثر بهذا الأداء يدعى سقراط أن بإمكانه إلقاء خطاب أفضل من ذلك بل ومن نفس المقدمة (الافتراضية)، ثم يقوم بذلك بناءً على التقليد الأفلاطوني فى البدء بتعريف ما ثم تقسيم الموضوع إلى أقسام (237c - d). ولقد كان خطابه واضحًا متسمًا بالتسلسل والتنظيم والتركيز الشديد (237a - 241d)، وهى الصفات التي افتقدها ليسياس قبله. بيد أن سقراط حال انتهائه من إلقاء خطابه يشعر بأن شيطانه الملهِم يلومه فجأة بسبب إساءته للإله إيروس Eros (إله الحب) من خلال موقفه التشكيكي تجاه الحب (242b - c)؛ ثم يشرع فى تعديل ذلك بإلقاء خطاب أطول بثلاث مرات من الخطابين السابقين (244a - 257b). وهذا الخطاب – الذي يحوي تلك الاستعارة الشهيرة للروح البشرية على أنها عربة خشبية يجرها اثنان من الخيول، أحدهما نبيل وطيب وهو يرمز للعقل، والآخر "عنيد وجامح... بل مخزٍ أحيانًا" ويمثل العواطف (٢٤٦ – ٢٥٤) – يشتمل مرة أخرى على فكرة إعلاء شأن الفلسفة على حساب البلاغة. وتظهر الروح المتسمة بالفناء، من خلال تلك الاستعارة الأفلاطونية، على أنها ماهية "مُجَنَّحة رفيعة" مرتبطةً بزيوس Zeus؛ إلا أن تلك الأرواح المقدَّر عليها أن تعود إلى الأرض مرتبة وفق ترتيب هرمي بحسب قربها من (وتوصلها إلى) معرفة الحقيقة. على أن المكانة الأولى فى الترتيب يشغلها الفيلسوف، والثانية للملك المستمسك بالقوانين، والثالثة للسياسي، والرابعة للطبيب، والخامسة

للعراف (المتنبئ)، والسادسة للشاعر، والسابعة للحِرَفي أو المزارع، والثامنة "للسوفسطائي أو خطيب الدهماء"، والتاسعة والأخيرة للطاغية.

إن عداوة أفلاطون للبلاغة فى "فيدروس" تتشاكل وتستمد قوتها أيضًا من "جورجياس"، بل وتتخذ أشكالاً متشابهة. فسقراط يُخضِع كلاً من خطابي ليسياس وفيدروس لعملية استجواب؛ على أن فيدروس هنا هو الشاب الصغير سريع التأثر، وهو الناطق الرسمي (من الناحية التخيلية) بلسان البلاغة، على الرغم من أن نقد سقراط اللاذع يحوله سريعًا إلى عدو من أعداء كتابة الخطاب speechwritig. ففي سياق تلك الأدوار الحوارية المتبادلة نرى أن أفلاطون يتهم البلاغيين بتلك الأخطاء (التي تكرر نفسها) وهى (256a): عدم القدرة على تنظيم الكلام على نحو كامل الدقة (264a - c)؛ واستخدام الحيل المجازية والاستعارية دون وظيفة محددة أو هدف واضح (266c - e)؛ وإعلاء شأن الاحتمالات والتوقعات فوق شأن الحقيقة، وتكبير ما هو صغير فى الأصل والعكس بالعكس (267a - b)؛ والمهارة فى استثارة المشاعر "لعدد كبير من الناس فى لحظة واحدة" (267c - d)؛ والمهارة "في كل من ابتداع الافتراءات ودحضها" (267d). ولقد هاجم سقراط من قبل تلك الخطابة السياسية واصفًا إياها بأنها فاسدة ومفسدة، بل وكأنها دياثة لصالح أباطيل وخيلاء السياسيين (257c - 258c). ويتكرر من جديد أن الخطيب يعمل على إقناع الجمهور تحت واجهة وستار المعرفة دون اضطلاع صادق "بحقيقة الأشياء المتعلقة بالعدل والخير" (259e - 260a، 272d - 273a). وبالنظر إلى التاريخ الحقيقي المكتوب أو بالنظر لما هو معروف عن الممارسات الحقيقية فى قاعات المحاكم والميادين السياسية (انظر جاجارين وودروف Gagarin and Woodruff (١٩٩٥)؛ ويونس Yunis (١٩٩٦)؛ وكول Cole (١٩٩١) فقد جاء هذا البيان أو الإيضاح لأفلاطون وكأنه صورة زائفة مشوهة عن الحقيقة، تمامًا مثلما هو الحال فى "جورجياس".

بيد أن هذا الحوار يحمل فى طياته عنصرًا مفقودًا فى "جورجياس"، يبدو وكأنه اقتراح جاد لأفلاطون فيما يخص كيفية إعادة صياغة البلاغة وإلباسها ثوب الفلسفة على نحو أشد. فالتدني الملصق بالبلاغة فى مقابل الجدل (الدياليكتيك) – وهو ما يظهر كثيرًا خلال أعمال أفلاطون – يبدو وكأنه يمكن التغلب عليه هنا باقتراح أن البلاغة يجب أن تطرح عنها عباءة المهارة أو الموهبة العرضية emperiria وأنه يتعين عليها أن تتبنى هدفًا "علميًا"، وتحديدًا هدف المعرفة عن الروح البشرية. كما يتعين على الخطيب أن يصنف "أنواع الخطاب وأنواع الروح معًا، بل والطرق التي تتأثر بها تلك الأنواع (للروح)"، ثم يتعين عليه أن يحدد "أشكال الخطب" التي تتفق وكل نوع (270b - 272b). فلو فعل ذلك فقد يمكن للبلاغة حينها أن تقترب من المكانة المفترضة للجدل (الدياليكتيك)، والذي يزرع فى الروح ما "يناسبها من كلمات بناءً على المعرفة" مقتربًا بذلك من إدراك نوعٍ من اللافناء والسعادة (276a - 277c). وعلى الرغم من أن بعض المفسرين يقبلون بتلك الافتراضات ، فإن قليلاً من التأمل يكشف لنا، وبالكلية، أنها افتراضات لا واقعية وغير عملية. فالخطيب الذي يخاطب مجموعة قضائية شرعية تتألف من خمسمائة مواطن أثيني أو مجلسًا سياسيًا يربو على الألفين قد يعلم الكثير عن الأنواع الفردية للروح ولكنه لا محالة لا يستطيع أن يأتى بخطاب، فى التو واللحظة، يرضي أرواح كل الحاضرين، بل ليس من المفيد أن يُنصَح الخطيب بأن يعمد إلى إرضاء كل فرد من أفراد هذا الجمع على حدة، وذلك نظرًا للتنوع الكبير بين الناس؛ بل لا يستطيع الخطيب اختيار اليوم الذي يتعين عليه الحديث فيه (انظر مدخل "مناسبة الحدث" Kairos). وإن أي محاولة لتطبيق هذا البرنامج على أرض الواقع لابد وأن تفشل وستبدو ولا شك ثقيلة مرهقة على عكس الجدل (الدياليكتيك)، والذي يمكن للمعلم فيه (كسقراط) من خلال فن ملفوظ وليس مكتوب أن يقود تلميذه منفردًا نحو المعرفة والحب والخلود (انظر مدخل "الخطابة" Oratory).

وعلى الرغم من ذلك فإن توصيات أفلاطون هي توصيات فى غير موضعها إذ إنه غض الطرف تمامًا عن عنصر رئيسي فى الخطابة الأثينية، سواء الخطابة القانونية أو السياسية. فالخطيب يخاطب جمهورًا له علاقة بمواضيع معينة ليست غريبة عليه بل ويتأثر بها معظم الجمهور. فهيئة القضاة فى قضية ما وفي محكمة ما تستمع إلى أقوال كل من الطرفين بشأن القضية ومن ثم تكون رأيها وحكمها عالمةً أن تلك العملية تتطلب الوصول إلى الحكم الذي يصب فى النهاية فى مصلحة الجميع. كذلك، على سبيل المثال، فالمواطنون غالبًا ما يكونون على وعي فى حال إسداء النصح لهم بالمشاركة أو الكف عن المشاركة فى الحرب أو زيادة الضرائب أو تغيير التشريع فيما يخص الأجانب المقيمين، بل يكونون على وعي بالأثر الذي سيحدثه صوتهم الانتخابي فيما يخص شؤونهم سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. وفي الميدانين (الفردي والجماعي) فإن الخطباء يتعين عليهم معالجة عنصر مهم قد أهمله أفلاطون تمامًا وهو الموضوع ذاته (*res* or subject matter)؛ وهو العنصر الذي سيؤثر بدوره على مادة الخطاب (*verba* or substance). فمراعاة أرواح السامعين كلهم كوحدة واحدة أمرٌ ممكن ولكن أي محاولة للتأثير على تلك الأرواح كلٌ على حدة هو أمرٌ سيبوء حتمًا بالفشل. وعليه فملاحظة أفلاطون أن الهدف الشرعي الوحيد للخطيب هو الهدف التعليمي أمرٌ غير وثيق الصلة بجوهر القضية ولاسيما أن الجمهور فى ظل الديمقراطية يحتاج لأن يسمع الحجة المبنية على التسلسل العقلاني الصحيح لاتخاذ موقف ما دون الآخر، وليس مجرد عرض منجهي يتعلق بالفضيلة فحسب. فمحاولة أفلاطون لإعادة صناعة البلاغة على تلك الصورة الجدلية (الدياليكتيكية) تتجاهل كل المواصفات التي تحكم حالة الخطاب فى نقاش ديمقراطي مفتوح.

ومن المنطلق نفسه فإن السجلات التاريخية السنوية annals عن السياسات والخطابة الآثينية تشتمل على أمثلة للخطباء الذين لم يمتدحوا الشعب بل قدموا نصائح صادقة لأجل رفاهة المجتمع وأنفسهم، نصائح كانت تَتَجاهَل خلال الحقبة الإمبريالية (الاستعمارية) في أثينا، نصائح انتُقِدَت بشدة من قِبَل أهل السياسة وأصحاب الأعمال التراجيدية على حد سواء. ولذا فإن افتراضات أفلاطون التي تبدو على أنها لا تقبل النقاش بشأن فساد طبيعة الديمقراطية و(إلقاء) الخطب العامة تبين فشل هجومه على البلاغة، وذلك بالنظر إلى قوانين الفلسفة نفسها، والتي تقضي بأنه لابد وأن يكون هناك "فحص عقلاني للافتراضات التي تشكل أساس تصوراتنا عن الوجود والمعرفة والسلوك". وعلى الرغم من أن تلك المبادئ مؤثرة حقًا فإنها باءت بالفشل كذلك من الناحية البلاغية التي تقضي بأن يُستَمَع إلى الطرفين في مناظرة ما بالقدر نفسه وعلى نحو عادل.

بيد أن عداء أفلاطون السافر تجاه البلاغة أسفر عن حفز العديد من الكتّاب اليونانين للدفاع عنها. ولقد كان أكثرهم أهمية تلميذه أرسطو الذي يقدم كتابه "البلاغة" Rhetroic – وهو مجموعة من ملاحظات المحاضرات خلال مسارين تعليمين أو أكثر قُدمت على مدار ثلاثين عاما (٣٦٣ - ٣٣٣) - ردًا عقلانيًا ممنهجًا على قضايا عدة. ففي حين أن أفلاطون قدم البلاغة في قاع الترتيب الهرمي محكومة بالجدل (الدياليكتيك) فإن أرسطو يفتتح نصه، الذي بين أيدينا، بكل جرأة قائلاً: "إن البلاغة هي الند، أو النظير، للجدل (الدياليكتيك)؛ فكل منهما على قدم المساواة يضطلع بأمور تنتمي إلى الفهم العام الذي يتمتع به كل الرجال ولا ينتميان إلى علم محدد" (3 - 1354a1). ولذا فإن أرسطو، في مقابل آراء أفلاطون، يؤكد على منزلة البلاغة باعتبارها فنا تقنيًا *techne* (وعليه، قائم على المعرفة *episteme*)، وذلك طالما

أن عوام الناس يستخدمون كلا من البلاغة والجدل فى مناقشة الكلام والأقاويل وفي الدفاع عن أنفسهم، سواء حدث ذلك على نحو عشوائي أو عملي منظم. وهذا يوضح أن الموضوع (الكلامي) "يمكن أن يَتناوَل على نحو نظامي منهجي لأنه بالإمكان أن نتساءل عن السبب وراء نجاح بعض الخطباء من خلال الممارسة النظامية، وكذلك آخرون على نحو عفوي ارتجالي؛ و... إن مثل هذا التساؤل فى حد ذاته يمكن أن يكون وظيفة فن من الفنون" (1354a4 - 11). كذلك فإن أرسطو يرد على اتهامات أخرى لأفلاطون وردت فى حواره "جورجياس" بأن البلاغة لا فائدة منها وأنها تسعى دائمًا وراء غايات لا أخلاقية (1355a21 - b3). فهو يؤكد أن البلاغة مهمة فى ساحات المحاكم لأن الحقيقة والعدل "يتمتعان بميل طبيعي لأن يسودا ويتغلبا على ما يضادهما"؛ ولذا فإن توصل القضاة إلى قرارٍ خاطئ لا يُلقي باللوم على البلاغة وإنما يلقي باللائمة على الخطباء أنفسهم الذين لم يحسنوا استخدامها كما ينبغي. والبلاغة نافعة أيضًا عند مخاطبة الجماهير الأقل خبرة؛ فممارسة الخطاب على كلا جانبى قضية ما ليس عملا غير أخلاقى ولكنه عملٌ يساعدنا على "رؤيه الحقائق بوضوح"؛ وإنه لأمر مباح أن يستخدم المرء "الكلام أو الخطاب العقلانى" عند تعرضه للهجوم. أما بالنسبة للاتهام بـــ"أن استخدام المرء لقوة الخطاب أو الإفصاح على نحو جائر قد يتسبب فى إحداث ضرر بالغ"، فيجيب أرسطو قائلا: "إن هذه التهمة يمكن أن تُلصَق بأمور كثيرة خيِّرة بصفة عامة - باستثناء الفضيلة - بل يمكن أن توجَّه إلى أمور نافعة جدا كالقوة والصحة والثروة والقيادة"، وكلها أمور ذات نفع عظيم، أو ضرر خطير إذا أسيء استخدامها.

إن سعى أرسطو لإعادة اعتبار البلاغة يكشف العداء الذى أثر على افتراضات أفلاطون بشأن الخطاب العام public speech فى المجتمع الديمقراطي،

كما يكشف الحجج المنحازة التى استخدمت فى التعبير عنها. ففي حين أقنع سقراط جورجياس أن البلاغة تشترك مع فنون أخرى فى كونها تتوسل بالإقناع عبر الكلمات، يجيب أرسطو بأن الإقناع "ليس وظيفة أي فن". فالفنون الفردية يمكن "أن ترشد أو تعلم أو تقنع" فيما يخص موضوعًا معينًا لكن البلاغة هي "مَلَكة ملاحظة وسائل الإقناع المتاحة (في أي قضية ما)"، وفي أي موضوع تقريبًا (1355b26 - 35). وهذا يستلزم أن الخطيب له الحق فى أن ينهل من المعرفة المتوارثة فى فروع علمية أخرى؛ وهى إمكانية قد سَخِرَ منها أفلاطون قبل ذلك. ففي حين كان مدخل أفلاطون قصريا (مُقَيِّدًا) منحازًا إلى الجدل (الدياليكتيك) وطاردًا للبلاغة، فإن أرسطو يرفض أن يواجه أو يقابل البلاغة بالفلسفة. والحق أنه يجعلهما متكاملين ضمن الدائرة الكلية التي تجمع العلوم الإنسانية. فالبلاغة مرتبطة بالمنطق لأن العقل (أو الاتجاه العقلي) logos، وهو إحدى الصيغ الثلاثة للإقناع كما عرفها أرسطو، هو "الدليل" الذي تزودنا به كلمات الخطاب ذاتها (انظر الأجزاء 1354a15; 1355a4 - 18; 1356a37 - 1357b35)، وهو يستخدم أيضًا أشكالا أخرى من الأدلة المستعارة من الجدل (الدياليكتيك) وكذلك الاستقراء والقياس الإضماري. أما المصدران الآخران للخطيب وهما الشخصية (والمناقب) ethos واستثارة مشاعر الجمهور pathos فيعتمدان على معرفته "بالشخصية الإنسانية وبالطبيعة الخيِّرة (فيها) بأشكالها المتعددة" وبالعواطف الإنسانية كذلك (انظر مداخل: "الشخصية والمناقب" Ethos، و"المبدأ العقلاني" Logos، و"استثارة العواطف" Pathos). ولذلك فإن أرسطو يقضى بأن "البلاغة عبارة عن فرع جدلي كما أنها أيضًا فرعٌ من فروع علوم الأخلاق" والتي بدورها "قد تُنعَت بأنها سياسية" (1356a26 - 30). ولعل هناك رابطًا بين ما ذُكِر وبين كتاب أرسطو نفسه "السياسات/علم السياسة" *Politics* حيث يتضمن تعريفًا أساسيًا للإنسان على أنه حيوانٌ سياسي عبر ملاحظة أن "الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي لديه هبة الكلام". صحيح أن الحيوانات الأخرى تستطيع أن تصدر

ضجيجًا لكن "القدرة الكلامية للبشر تستهدف التوصل إلى ما يليق وما لا يليق أو، بالمثل، ما هو عادل وما هو جائر"؛ ولأن الإنسان وحده "لديه الإحساس بما هو خيِّر أو شرير وما هو عادل أو جائر" (1253a3 - 17) فإن تلك العناصر لها أن تشكل الأنماط الثلاثة للخطابة (انظر أدناه). أما عنصر الشخصية أو المناقب Pathos فيتطلب معرفةً بالعواطف البشرية، ولذا فإن أرسطو يقدم رسالة موجزة عن الطبيعة النفسية (أو علم النفس) (1378b - 1388b31).

ويضع أرسطو كلا من البلاغة والجدل (الدياليكتيك) فى منزلة أدنى من منزلة التفكير العقلي العلمي لأن كليهما يتعامل مع حجج محتملة ظنية وليس مع مبادئ مُجمَع عليها وضرورية؛ بيد أن بحثه من الأهمية بمكان فى إعادة تأهيل أو اعتبار البلاغة نشاطًا لا غنى عنه لأي بيئة أو نظام ديمقراطي. وبينما وصف أفلاطون المواطنين الأثينيين بأنهم رعاع أو غوغاء لا عقلانيون يتملقهم الخطباء السياسيُّون بل ويفسدونهم، فإن أرسطو يرد على ذلك من خلال تقديمة لتصنيف مهم لأنواع الخطب الأساسية مقسمًا إياها إلى "ثلاثة أقسام مبنية على ثلاث فئات من المستمعين؛ أما عن العناصر الثلاثة لكتابة الخطاب – وهى المتحدث والموضوع والمُخَاطَب – فإن الأخير، وهو السامع/المخاطب هو الذي يحدد غاية وموضوع الكلام" (1358a36 - 8). فأرسطو – متحررًا من أي عدواة ها هنا – يرى أن الجمهور هو العنصر الرئيس فى صناعة الخطاب كونه "إما حكَمًا أو قاضيًا فيما يخص قرارٍ ما، يتعلق بأمورٍ ماضية أو مستقبلية أو كونه مشاهدًا أو متابعًا للكلام". فباعتباره "قاضيًا"، مشكِّلاً لهيئة القضاء فى محكمة ما، فإن الجمهور هنا منوط به إصدار حكمٍ بشأن أمور وقعت بالفعل، وهنا يتعلق الحكم بالعدالة أو عدمها (وتلك هي الخطابة القضائية أو الشرعية)؛ وباعتباره عضوًا فى مجلس سياسي فإنه العنصر الذي يقرر ماذا يجب أن يُفعَل، بمعنى ما الذي يناسب أو لا يناسب أوضاعًا معينة (وتلك هي الخطابة التشاورية)؛ أما باعتباره "مشاهدًا ومتابعًا"

ومستمعًا للعرض الخطابي فى مناسبات احتفالية معينة (وتلك هي الخطابة التوضيحية ها هنا) فإن الجمهور ليس من المتوقع له ها هنا أن يصل إلى قرار معين ولكن حكمه الأخلاقي سوف يُطبَّق، لأن هذه الخطابات تناقش قضايا الفضيلة والرذيلة (1358b1 - 28).

وفي سعيه لاستعادة شرعية الخطابة على كل مستويات المجتمع الديمقراطي فإن أرسطو يوسِّع من تعريفه الثلاثي بعقد صلة أكثر تماسكًا بين البلاغة والفروع المعرفية الأخرى. فعلى العكس من الصورة التي رسمها أفلاطون عن الدهماء الذين يستغلون القوة الإقناعية للبلاغة لزيادة قوتهم وتحقيق متعهم فإن الخطيب السياسي عند أرسطو لا يُحيط فحسب بقضايا الدفاع القومي أو القانون والتشريع والقضايا الأساسية الأخرى المؤثِّرة على مقاطعته أو مدينته *polis*، بل يتعين عليه كذلك أن يوضح أنه مهتمٌ برفاهية المستمعين (من جمهوره) طالما أنه يحثهم على أخذ موقف ما أو التخلي عن فعل ما، والذي سيؤثر ولا شك على تحقيق سعادتهم. وهذه النقطة المحورية تقود أرسطو لأن "يحدد طبيعة السعادة على نحو عام" والتي يقدم لها أربعة تعريفات ثم يناقش مكوناتها من ناحية القيم الظاهرة والباطنة (1366c22 - 1359a30). وفي حين لا تتسم هذه المناقشة بالقوة التي تتسم بها أعمالٌ فلسفية أخرى لأرسطو فيما يخص مناقشة الأخلاق إلا أنها تبرر تحديدًا ادعاءه بأن البلاغة "فرع... من الدراسات الأخلاقية". فبما أن الخطيب التوضيحي epideictic يمتدح الفضيلة ويذم الرزيلة فإن أرسطو يستعرض تلك القضايا كذلك معرفًا الفضيلة على أنها "ملكة تدفع المرء إلى تحصيل – بل تحثه كذلك على الإبقاء على – الأشياء الحسنة؛ أو هي ملكة استدعاء وجمع منافعَ عدَّة"، كما أنه يوضح الأشكال المتعددة التي تتخذها الفضيلة (1366c3636 - b6). أما الخطيب القضائي الشرعي forensic فمرده كذلك إلى تلك المبادئ الأولى التي تتعلق بدراسة طبيعة الخطأ أو الزلل أو القانون أو الطبيعة النفسية الإجرامية (1368b2 - 1369a6). وعلى هذا النحو فقد جاءت

استجابة أرسطو للهجوم الذي شنه أفلاطون على البلاغة بإعادة مكانتها باعتبارها فنًا له منزلته التي يستحقها ضمن مجالات العلوم الإنسانية، ومرتبطًا بالفلسفة من جانبين هما الجانب الجدلي والأخلاقي، بل ومتعلقًا أو مرتبطًا على نحو جوهري بعلم النفس أو الطبيعة النفسية للبشر، بل والسياسة والتشريع كذلك. هذا وقد دافع كتاب يونانيُّون آخرون عن البلاغة فى مواجهة أفلاطون؛ ومنهم على سبيل المثال السوفسطائي إيزوقراط Isocrates (٤٣٦ - ٣٣٨ ق. م.) وهو معاصر بل وند مناوئ لأفلاطون، وقد قام بذلك (الدفاع) فى أعمال كثيرة له، وإن كان على نحو غير مباشر إذ لم يصرح باسم أفلاطون أبدًا. على أن هناك سوفسطائيًا آخر متأخرًا وهو إليوس أريستايديس Aelius Aristides (١١٧ - ١٨٠ م.) قد فعل ذلك صراحة عبر ثلاث خطب موجهة إلى أفلاطون فى مؤلَّفِه "إلى أفلاطون: دفاعًا عن الخطابة" To Plato: In Defence of Oratory. ومع ذلك فلا أحد من نقاد أفلاطون يمكن أن تقارَن أعماله بتلك المعالجة الوافية للخطاب التي أتى بها أرسطو من زاوية بعدها الفردي والاجتماعي الشامل.

وعلى ذلك فالمواجهة بين أفلاطون وأرسطو حددت، إلى أمدٍ بعيد، الشروط التي يمكن أن تُنَاقَش من خلالها العلاقة بين الفلسفة والبلاغة. ولطالما كانت الفترات اللاحقة على تنوعها ترجع إلى واحدٍ أو أكثر من تلك المواقف أو النقاط التي ناقشها أرسطو وبسط لها، ولكن ليس أبدًا على هذا النحو من التفصيل والكمال.

لقد كان كتَّاب البلاغة الرومان على معرفة جيدة بأعمال أفلاطون - ومنها "جورجياس" و"فيدروس" و"الجمهورية" Republic - إلا أنهم لم يعرفوا كتاب "البلاغة" لأفلاطون إلا على نحو غير مباشر حيث أنه كان قد فقِد لفترة من الزمن. ففي كتابه "*De oratore*" (عن الخطيب) نرى أن شيشرون (١٠٦ - ٣٤ ق. م.) - وهو الشخصية المعروفة فى عالم الخطابة العملية سواء

القانونية أو السياسية، وهو المؤلف صاحب الأثر فى كتب البلاغة – قد اتخذ موقفًا تجاه سقراط، على نحو ما يظهر فى "جورجياس"، وذلك لأنه هدم الوحدة التي بين الفلسفة والبلاغة كما مارسها السوفسطائيون. ويبين شيشرون أن سقراط "فصل ما بين كلٍ من علم التفكير الحكيم وعلم الكلام السليم على الرغم من أنهما فى حقيقة الأمر وثيقا الصلة ببعضهما بعضًا"؛ ولذا فهو يقدم انفصالاً غريبًا غير ذي جدوى بل ويستحق الذم، ذلك الانفصال بين اللسان lingua والعقل cor مما يؤدي بدوره إلى أن يكون هناك نوعان فقط من الأساتذة: أحدهم يعلمنا التفكير فقط والآخر يعلمنا الكلام فقط" (3.16.59 - 60). على أن علاج شيشرون لهذا الانفصال يقضى باستثارة الخطيب لأن يضطلع بالفلسفة التي هي "سبب خلق، بل هي أم – كما كانت دائمًا – كل الفنون رفيعة الشأن" (1.3.9)؛ وأن يدرس الأخلاق والجدل بل "والمبحث الكامل للفلسفة العملية" (3.20.76). فشيشرون، والذي كان قد دَرَسَ فى أثينا فى الأكاديمية الوسيطة Middle Academy، مارس بالفعل ما دعا إليه، وخصوصًا أن أعمالة البلاغية وثيقة الصلة بالرسائل والأبحاث التي دعا فيها إلى الفلسفة اليونانية وعمل على شهرتها، ومن ذلك: كتاب "حول الواجبات" (*De officiis*) (والمبني إلى حد كبير على أفكار الفيلسوف اليوناني بيناتيوس Panaetius)؛ وكتاب "عن الغايات الخيرة والشريرة" *De finibus bonorum et malorum*؛ وكتاب "*Tusculanarum quaestionum libri quinque*". أما كينتليان Quintilian ففي كتابه "تأسيس الخطابة" *Institutio oratoria* نرى أنه يؤيد اقتراح شيشرون فى أن الخطيب يجب أن يسعى لتحصيل معرفة واسعة عن الفلسفة، وخصوصًا الأخلاق، والتي هي "الجزء الأفضل من الفلسفة" (IPr. 10 - 17; 12.2.5.15). ولسوء الحظ فإن الكاتبين قد عملا على حث البلاغة لاتخاذ موقف عدائي تجاه الفلسفة والاستيلاء على منطقتها (العلمية)، وهي طريقة تناول غير مثمرة فى هذه القضية.

وأما خلال العصور الوسطى فقد أضحت البلاغة مثلها مثل المعارف الأخرى تعاني من حالة التقسيمات التي أثرت على كلٍ من النصوص الباقية آنذاك ومعرفة الوظائف الأصلية لتلك النصوص، بل تعاني هي والمعارف الأخرى من التغيرات الاجتماعية والسياسية التي أصابت المجتمع الأوروبي. فلقد كانت قرارات القوى آنذاك استبدادية سلطوية حيث لا مجال لمناظرة أو جدال حر فى المجالس اليمقراطية، بل اختلفت الإجراءات القانونية والتشريعية تمامًا. بل لقد عانت البلاغة أكثر من ذلك إذ صعد كل من المنطق وعلم اللاهوت إلى المكانة العليا فى العلوم الإنسانية. ففي الترتيب الهرمي للفنون الذي وضعه توما الإكويني Thomas Aquinas نلاحظ أن الشعر والبلاغة يحتلان المكانة الدنيا. وأخيرًا فقد وصل الأمر إلى أن البلاغة قسِّمَت إلى فروع براجماتية ونفعية بحيث أن كلاً منهما يُدَرَّس على حدة، بل ولطلاب مختلفين، ومن هذه الأعمال مثلا: *the ars dictaminis* "فن كتابة الخطاب"، و*ars poetria*، *and ars praedicandi* "فن التبشير/الدعوة" (انظر مدخل "الإنشاء/الكتابة النثرية والرسائل" Dictaminis). وعليه فلم تعد هناك منطقة (علمية) يمكن فيها للمناقشة العامة أن تُجرَى بشأن العلاقة بين الفلسفة والبلاغة، بل لم تعدُ البحوث والمقالات المتبقية أكثر من كونها خليطًا من الوسائل والحيل المُجَمَّعَة بلا رابط بينها أو اتساق.

ومع إحياء الباحثين، فى عصر النهضة، وإعادة تحقيقهم للنصوص الكلاسيكية استعادت البلاغة دورها فى المجتمع وفي الحياة العملية *vita active* معتمدة مرةً أخرى على الفلسفة وخصوصًا الأخلاق (انظر جارين Garin، ١٩٦٥). على أن الاختلافات الواسعة بين المجتمعات القديمة والحديثة ظلت قائمة، بمعنى افتقاد الأنظمة السياسية والقانونية للخطاب الحر مما حدا بالبلاغة لأن تضطلع بدور أكثر أهمية فى التعليم مسهمةً بذلك فى

تشكيل القدرات العقلية والأخلاقية، بل ولاعبةً دورًا فى الأدب كذلك. وبينما وضعت العصور الوسطى المنطق فوق البلاغة، لا فى مواجهته، فإن عصر النهضة وحَّد الفنين، بل فرض أهدافًا وطرائق بلاغية على الجدل (الدياليكتيك). كذلك فإن الأنواع الفلسفية فى العصور الوسطى مثل "التناظر" disputatio أفسحت المجال لأشكال جديدة مثل الديالوج (المحاورة) والخطبة والمقال. بل إن بعض الشخصيات مثل لورينزو فالا Lorenzo Valla فى مؤلَّفِه *De vero falsoque bono* أو فى *"De voluptate"* (١٤٣١ - ١٤٣٣) قد أحيت الاتجاهات العدائية لشيشرون وكينتليان، داعين لهجوم البلاغة على الفلسفة لاستعادة منطقتها المعرفية. ولكن بالنسبة إلى الباحثين المتأخرين فى العلوم الإنسانية - والتي اشتملت على القواعد والبلاغة والشعر والتاريخ والفلسفة والأخلاق - فقد رأوا، على نحو تلقائي، أن البلاغة والفلسفة تكملان بعضهما بعضًا، وأن كلا منهما يغذي الآخر برؤية جديدة كما فعل السوفسطائيون. وظلت مثل هذه الاتجاهات مُعَبَّرٌ عنها كما عند فرانسيس بيكون Francis Bacon عام ١٦٠٥ والذي وصف البلاغة بأنها "علمٌ فائقٌ ونتاج جهد رفيع؛ وأنها على الرغم من كونها أقل منزلة من الحكمة فهي الأعظم فى حياة الناس، لأن الفصاحة أو البلاغة هي صاحبة اليد العليا فى واقع الحياة". ومثله مثل أرسطو فقد وضع بيكون البلاغة فى منزلة أقل من البحث الفلسفي ولكنه أدخلها على نحو واضح ضمن دائرة العلوم مؤكدًا على ارتباطها الوثيق بالأخلاق والسياسات بل وعلم النفس.

وأما فى القرن السابع عشر، على الرغم من ذلك، عندما استعادت التقاليد اليونانية للبلاغة وضعها، فقد رجع ذلك الانفصال الأفلاطوني بين الفرعين المعرفين إلى الظهور من جديد. ومن ذلك أن توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) - وهو الذي أتاحت له مهارته فى اللغة اليونانية

إعداد ملخص واف عن كتاب "البلاغة" لأرسطو وكذلك ترجمة أعمال لثيوسيديدس Thucydides – نظر إلى البلاغة نظرة ارتياب، بل فى أعماله الفلسفية المبكرة "*The Elements*" (العناصر) و"*De cive*" (عن الدولة) يحاكي أفلاطون فى (كتابه) "الجمهورية" *The Republic* فى أمنيته بأن تُطرَح البلاغة جانبًا من المجتمع المدني (انظر سكينر Skinner (١٩٩٦)). أما فى رائعته الفلسفية "*Leviathan*" (الليفاثن[١]) (١٦٥١) فقد أُعطيت البلاغة دورًا أكثر إيجابية فى المجتمع وفي العلوم الإنسانية، وإن كان هوبز لايزال يحاكي أفلاطون بالهجوم على الخطباء الذين يستطيعون أن "يقدموا للآخرين ما هو جيد على نحو وكأنه سيئ شرير" أو العكس "أو يقووا أو يُضعفوا من مظهر الخير أو الشر" (انظر الفصل السابع عشر)؛ بل وصف هوبز الخطباء بأنهم مخادعون للمجالس السياسية بفصاحتهم التي تثير العواطف لأجل مصالحهم الشخصية (الفصل التاسع عشر، والخامس والعشرون). وعلى نحو مشابه يعمد جون لوك John Locke (١٦٣٢ – ١٧٠٤) – فى كتابه "مقال حول التفاهم الإنساني" Essay Concerning Human Unerstanding (١٦٩٠) – إلى تبني مواقف أفلاطون الصدامية أو القائمة على ثنائيات بحيث يقابل ما بين "المعرفة الحقيقية" أو"الحقيقة (المجردة)" التي تضطلع بها الفلسفة و"الخداع" الذي تمارسه البلاغة مستخدمةً الفصاحة فى "دس أفكار خاطئة وتحريك العواطف، مما يستلزم أحكام خاطئة" (3. 10). أما إيمانويل كانط Immanuel Kant فى كتابه "نقد ملكة الحكم" Critique of Judgement (١٧٩٠) فقد اتبع أفلاطون فى استخدامه للفئات الثنائية بامتداح فرع معرفي معين وطرد الآخر: "والآن فقد سما الشعر إلى مكانته العالية بينما هبطت البلاغة، تلك

---

(١) الاسم هنا يعود إلى اسم لأحد المخلوقات (أو الوحوش) ذُكر في أحد أسفار الكتاب المقدس.

التي لا تستحق الاحترام مهما يكن من أمر". وعلى الرغم من ذلك فإن الفلاسفة الأسكتلنديين فى عصر النهضة - كآدم سميث Adam Smith وجورج كامبل George Campbell وهيو بلير Hugh Blair وهنري هوم Henry Home ولورد كيمز Lord Kames - قد رأوا التوحيد ما بين كل من المناقشات البلاغية والأخلاقية والجمالية دونما اضطراب أو ريب.

وأما فى العصور الحديثة فالعراك بين البلاغة والفلسفة يبدو وكأنه عراكٌ أو صراعٌ غير حقيقي نوعًا ما. فالفرعان المعرفيان لم يعدا ينافس أحدهما الآخر على مكانة عليا أو وضع استحواذي داخل العلوم الإنسانية، بل لم يعد أي من الفرعين يحمل نوايا عدوانية ضد الآخر. فهما يمكنهما أن يتعايشا بل ويتلاقيا كذلك فى نقاط عديدة ضمن ميادين علمية أخرى. فالفلسفة قد تطورت واتخذت اتجاهات عدَّة عبر القرن الأخير، بيد أنه هناك منطقتان بحثيتان عملا على إحياء ثلاثية أرسطو المتكونة من المتحدث والكلام والجمهور، ألا وهما نظرية أفعال الكلام Speech - act Theory وعلم التداولية (تداول الحوار واللغة) Pragmatics. ففلاسفة اللغة المعاصرون يرون أن الاتصال عبارة عن عملية ذات اتجاهين ذهابًا وإيابًا حيث يشترك المتحدث والسامع فى إنشاء المعنى والمغزى. كذلك فقد أقر العديد من الفلاسفة وسلموا، وعلى نحو جاد، بدور الاستعارة باعتبارها أداة بحثية كشفية بل عنصر لا يُستغنى عنه فى عملية الاتصال. كما أن هناك العديد من الأعمال التي أُلِّفت حول الاعتبارات غير المنطوقة التي تحكم الاتصال الإنساني وكيفية عمل تلك العناصر غير الملموسة، على الرغم من أهميتها، مثل الثقة والأدب الحواري والقرب من صميم الموضوع الكلامي (أو الخروج عنه) (انظر مداخل:

"الاتصال" Communication و"علم اللغويات/اللسانيات" و"الاستعارة" Metaphor و"الأفعال الكلامية والأقوال" Speech acts، utterances).

على أن أحد أكثر الأعمال الحديثة إصلاحًا لنظرية البلاغة – وهو كتاب "البلاغة الجديدة: بحثٌ فى الجدل" The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation (١٩٦٩) لصاحبَيه كايم بيرلمان ولوسي ألبريخت Chaim Perelman and Lucie Olbrechts - Tyteca – يفرق ما بين الدليل (الذي هو مجال المنطق الصوري) والجدل (الذي هو مجال البلاغة) فى أن الجدل يُوَجَّه دائمًا إلى جمهور ما بهدف السعي للحصول على موافقته. وعلى غرار أرسطو فالمؤلفان هنا يريان الخطيب (أو المتحدث) قادرًا على التكيف بما يناسب جمهوره آخذا فى الاعتبار تحقيق أفضل الأوضاع لهم، ومستعينا على نحو شرعي بكل الوسائل أو الحيل العقلانية والمؤثرة التي تخدم الوصول إلى حالة الإقناع (ومنها الجدل البلاغي (أو الحجج البلاغية) topics والمحسنات والحيل المجازية والاستعارية figures and tropes) (انظر مداخل: "المحسنات البلاغية" Figures of speech و"الجدل البلاغي (أو الحجج البلاغية)" Topics). فبيرلمان وزميلته (المؤلفة) وضعا الأساس التوافقي للجدل فى موضع أعلى أو فى مقابل مفهوم أفلاطون القصري (الاستبدادي) وقدما تحليلاً ثاقبًا لما أسمياه "الثنائيات الفلسفية"، مثل ثنائية المظهر/الحقيقة أو الرأى/المعرفة ملفتين الانتباه إلى استخدام أفلاطون لتلك الثنائيات التي ظهرت فى "فيدروس" Phaedrus (الفصل الرابع، ص ٤١١ – ٤٤٢). كما أنهما يوضحان (وفق مفهوم أفلاطون) أنه وفق تلك الثنائيات (الانفصالية) فإن الطرف الأول (١) يُعرَّف بقيم سلبية، وأن الطرف الثاني (٢) يُعرَّف بقيم إيجابية، وذاك حكم جدلي (كلامي) يتجسد، وببساطة، عبر صياغة (كلامية) ولا يمكن أبدًا التوصل إليه من خلال الجدل العقلي (أو الحجة العقلانية). وفي خاتمة

عملهما يعود المؤلفان لتكرار التنبيه على خطر ما تقدمه تلك الصياغات (أي الثنائيات الجامدة، أعلاه) للخطاب الفلسفي قائلين: "نحن نحارب تلك الصدامات غير المتصالحة مع بعضها بعضًا والمتسمة بالجمود التي تقدمها كل أشكال القصر (الاستبدادي)"، وخصوصًا تلك الواردة في "ثنائيات... المعرفة/الرأي؛ الدليل القاطع غير القابل للدحض/قصد الخديعة... الحقيقة التي يضطلع بها الجميع/القيم الفردية المحضة" (ص ٥١٠). وعليه فإن صحَّ أن كل واحد منا إما أفلاطوني Platonist أو أرسطي Aristotelian فبناءً على العلاقة بين البلاغة والفلسفة فسوف تبدو كل الأدلة في حاجة إلى نوع من الموازنة إزاء إعلاء أفلاطون لنمطه الجدلي لاعنًا البلاغة والخطاب الحر داخل المجتمعات الديمقراطية؛ أو يتعين علينا الانحياز للجانب الأرسطي مُبدِين الاستعداد لاستخدامهما معًا في جو من التكاملية (انظر مداخل: "البلاغة الكلاسيكية" Classical rhetoric و"الفطنة/الحكمة" Prudence).

المراجع (Bibliography)

Aristides. *To Plato: In Defense of Oratory*, vol. 1, *Panathènaicus: Rhetoric*. Translated and edited by C. A. Behr. London, 1973.

Aristotle. *Rhetoric*. Translated by W.R. Roberts; edited by Jonathan Barnes. *The Complete Works of Aristotle: The Revised Oxford Translation*. 2 vols. Princeton, 1984.

Bacon, Francis. *Works*. Edited by Brian Vickers. Oxford, 1996.

Cicero, M. T. *De oratore*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. 2 vols. London, 1942.

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

(إعادة تقييم حديثة عن ظهور البلاغة باعتبارها فرعًا معرفيًا رسميًا في أعمال أفلاطون وأرسطو إلا أنها تنتقص من قدر إسهام السوفسطائيين).

Dionysius of Halicarnassus. *On the Ancient Orators*. Translated by S. Usher. *The Critical Essays*. 2 vols. London, 1985. First published 1974. See also substantial excerpts translated by D. A. Russell; edited by D. A. Russell and M. Winterbottom. *Ancient Literary Criticism*, Oxford, 1972.

Gagarin, Michael, and Paul Woodruff, eds. *Early Greek Political Thought from Homer to the Sophists*. Cambridge, U.K., 1995.

(ترجمات جديدة ممتازة – إضافة إلى الملاحظات – للأعمال الرئيسية فيما يخص النظرية السياسية اليونانية التي تتسم بالطابع البلاغي، وفق تعريفها. وتشتمل كذلك على كل بقايا النصوص المتاحة للكتابات السوفسطائية).

Garin, Eugenio. *Italian Humanism. Philosophy and Civic Life in the Renaissance*. Translated by P. Munz. Oxford, 1965.

Hobbes, Thomas. *Leviathan*. Edited by Richard Tuck. Cambridge, U.K., 1991.

Locke, John. *An Essay Concerning Human Understanding*. Edited by P.H. Nidditch. Oxford, 1975.

Perelman, Chaim, and Lucie Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation*. Translated by J. Wilkinson and P. Weaver. Notre Dame, Ind., 1969.

(ترجمة غير مميّزة لعمل رئيسي نشِرَ فى الأصل بعنوان "في البلاغة الجديدة" La Nouvelle Rhetorique: Traite de l'Argumentation، باريس، ١٩٥٨)

Plato. *Gorgias. A Revised Text*. Introduction and Commentary by E. R. Dodds. Oxford, 1959.

(طبعة رئيسية، وجيدة جدًا فيما يخص (علم) السياسة).

Plato. *Gorgias*. Translated with notes by Terence Irwin. Oxford, 1979.

(ترجمة ممتازة إضافة إلى تعليقات ثاقبة).

Plato. *Phaedrus*. Translation and commentary by C. J. Rowe. Warminster, U.K., 1986.

(ترجمة دقيقة إضافة إلى تعليقات حَذِرَة).

Skinner, Quentin. *Reason and Rhetoric in the Philosophy of Hobbes*. Cambridge, U.K., 1996.

(دراسة وافية عن تضارب الاتجاهات نحو البلاغة فى كتابات هوبز الفلسفية).

Usher, Stephen. *Greek Oratory: Tradition and Originality*. Oxford, 1999.

(معالجة وافية للخطب اليونانية المتاحة إضافة إلى تعليقات قيمة على السياقات الاجتماعية والقانونية، وكذلك على الأنماط المحدثة فى الشكل البلاغى والجدلى).

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. 3rd rev. ed. Oxford, 1997.

(مقال يشتمل على مناقشة وافية لـــ "هجوم أفلاطون على البلاغة" (ص ٤٣ - ١٤٧)، وكذلك "نزاع الحدود والمناطق: الفلسفة فى مقابل البلاغة" (ص ١٤٨ - ٢١٣).

Yunis, Harvey. *Taming Democracy: Models of Political Rhetoric in Classical Athens*. Ithaca, N.Y., 1996.

(شرح واضح للبلاغة المدنية الأثينية من عهد ثيوسيديدس Thucydides وحتى عهد ديموستين Demosthenes).

تأليف: Brian Vickers

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

قضايا ومصطلحات متواترة

الفلسفة هي البحث العقلاني للافتراضات التي تشكل تصوراتنا عن الوجود والمعرفة والسلوك. ومنهجها يرتكز على تحري العبارات أو الافتراضات حول القضايا المنبثقة من تلك التصورات؛ وهدفها هو التعرف على الحقائق الأساسية والمبادئ الكامنة فى تلك الافتراضات، وكذلك إيضاحها، بل نقدها. ولقد نشأت الفلسفة فى اليونان القديمة فى وقت ظهرت فيه مستحدثات فكرية وسياسية وفنية هزت الحضارة الأوروبية لاحقًا وإلى أمدٍ بعيد.

وكانت البلاغة أحد هذه المستجدات بالطبع، وهى فن يضطلع به الخطيب (أو المتحدث). بيد أن الفلسفة والبلاغة شقيقتان ظهرتا ووُلِدا واحدة إثر الأخرى بحوالي قرن أو أكثر؛ وكانتا ثمرة أو نتاجًا للارتباط بين ما عُرِف فى اليونانية بـــ *logos* (بمعنى خطاب أو كلام قائم على إعمال العقل؛ ولغويًا اسم مذكر) و *agora* (بمعنى ساحة (للتسوق)؛ ولغويًا اسم مؤنث). وعليه فالارتباط ما بين *logos* و *agora* كان أمرًا ممكنًا فى ظل الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية فى الحقبة القديمة فى اليونان (٧٥٠ - ٤٧٩ ق. م.). ولقد كانت كتابات الفيلسوف اليوناني ثيليز والذي يعرف بـــ Thales of Miletus فى الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد هي أول ما أعطى شكلاً لمجموعة الأفكار التي نعرفها الآن باسم "الفلسفة" (وذلك على الرغم من أن لفظة "فلسفة" *philosophia* ربما قد أتت لاحقًا بعد بنصف قرن عندما استخدم فيثاغورس Pythagoras المصطلح للمرة الأولى بمعنى "حب الحكمة" (love of wisdom). وعلى نحو

مماثل يمكن تحديد منشأ البلاغة كذلك. ففي حين أن أفلاطون، على ما يبدو، كان قد صك مصطلح البلاغة *rhetorike* مبكرًا فى القرن الرابع قبل الميلاد فقد كان فن الخطاب يُدَرَّس فى جزيرة صقلية مع بدايات عام ٤٦٠ (ق. م.). وحتى نفهم طبيعة الفلسفة وعلاقتها الطويلة، والمعقدة أحيانًا، بالبلاغة يتعين علينا أولاً أن نقترب من فهم أصول هذا الميدان الدراسي، وكذلك تطوراته المبكرة. ومن ثم يمكن لنا باختصار أن نتفحص مناطاتها الرئيسية وكذلك نقاط الاختلاف مع شقيقتها الصغرى (البلاغة).

خلال الحقبة القديمة (٧٥٠ - ٤٧٩ ق. م.)، وفي المدن والبلدان المتخللة للعالم الإيجي (نسبة لبحر إيجة Aegean Sea)، أدت الظروف إلى ظهور نظم سياسية جديدة وكذلك طرق جديدة لدراسة وفهم العالم، بل استخدامات جديدة للخطاب واللغة. وهذه الفترة حقًا كانت محضن الأفكار والفنون والاجتهادات العقلانية التي ظهرت - وخصوصًا فى أثينا - خلال الحقبة الكلاسيكية (٤٧٩ - ٣٢٣ ق. م.). والحقبة القديمة هي تلك التي تلت اضمحلال واختفاء الحضارة المايسينية الغنية (Mycenaean Civilization) للعصر البرونزي المتأخر (١٥٠٠ - ١٠٥٠ ق. م.) ثم العصر اليوناني المظلم (١٠٥٠ - ٧٥٠ ق. م.) الذي تلاه. ولقد كانت الحضارة المايسينية - والتي سُمِّيَت بذلك نسبة إلى قلعة أو قصر مايسيني Mycenae الحصين والواقع فى الشمال الشرقي من (شبه جزيرة) بيلوبينسيوس Peloponnesus - مشتهرة بفنونها الراقية فى الذهب والسيراميك، وبقصورها المحصنة ونظم طرقها الفعالة، وبهيكلها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المتدرج، وبممارستها للعمليات الحربية، وباستخدامها للتسجيل الكتابي لتفاصيل الضرائب والممتلكات. وعقب تدهور واختفاء هذه الحضارة خلال القرنين الأخيرين من الألفية الثانية تَقَلَّصَ العالم اليوناني واختُزِل إلى مدن صغيرة وقرى منفصلة،

غالبًا، عن طريق الجبال أو البحر. بيد أن هذه المستوطنات كان يقطنها فلاحون يعيشون على الكفاف وكذلك رعاة وصيادون يحكمهم شيخ قبيلة محارب محلي أو "ملك" (*basileus*). على أن تدهور البنية التحتية فى مايسيني وما تلاه من اضمحلال فى وسائل الاتصال بين تلك المستوطنات، خلال العصر المظلم، أدى إلى انحدار صناعة الفخار وكذلك بطل استخدام الكتابة، كما أصبحت الثقافة مبنية على القرية أكثر منها ثقافة مدينة. غير أن تلك الفترة أيضًا عُرِفت بظهور سُنَّة الشعر الشفوي. وقد شهد ذلك الوقت المغنيين الرحالة والشعراء الغنائيين القبليين (الملحميين) – *rhapsodes* – الذي ينتقلون من مستوطنة إلى أخرى متغنين على نحو إيقاعي موزون بقصص المحاربين الغابرين والأبطال وكذلك الحرب العظيمة بين أهل طروادة Troy وأكيا Achaca بسبب اختطاف الملكة الإسبارطية، وكذلك تغنوا بصراعات وأحقاد الآلهة الذين كان لهم اهتمام بأحداث البشر أو بالعالم الذي تسير فيه الأحداث وفق صنيع تلك الآلهة.

ومع بداية القرن الثامن بدأ هذا المشهد فى التغير حيث ظهر عصرٌ جديد انبثق عن الفترة المظلمة فيما بعد مايسيني (post - Mycenaean darkness). وشهد هذا العصر – أي العصر القديم (أعلاه) – تطورًا فى الظروف التي أتاحت إمكانية ظهور طرق مختلفة للتفكير حول طبيعة عمل الكون، وكذلك ظهور آليات جديدة للحكم. ولقد كان اختراع الأبجدية الصوتية خلال القرن الثامن قبل الميلاد ومجيء عهد الاستعمار اليوناني الذي تخلل العالم البحر المتوسط وما تلا ذلك من توسع فى تجارة اليونانيين وأسفارهم، كلها كانت من أهم تلك الظروف (المشار إليها آنفًا). وعلى الرغم من ذلك، فلعله كان من بين أكثر تلك الظروف تأثيرًا على العالم اليوناني ظهور شكل سياسي جديد للارتباط السياسي متمثلاً فيما يمكن أن يسمى "دولة المدينة/

المدينة الدولة" والتي تميزت بالاستقلال والديمقراطية sovereign, democratic *polis*, or city - state. فلقد كانت تلك المجتمعات ذاتية الحكم تتكون من مدينة واحدة وغالبًا ما يكون بها قلعة أو حصن مرتفع (*acropolis*) إلى جانب ساحة للتسوق (*agora*)، ويحيط بها منطقة ريفية بقراها ومزارعها. أما المواطنون فقد عاشوا فى الريف أو داخل المدينة نفسها، على أن الحكومة ترتكز فى المدينة. وبينما تنوعت تلك المجتمعات فى أشكال الحكم – ابتداء من الاستبداد ثم حكم الأقلية ثم الأرستقراطية ومنها إلى الديمقراطية – فقد ازدهرت دولة المدينة باعتبارها دولة غير مطلقة الاستبداد بصفة عامة. وعلى ذلك فلقد اضطلع بالحكم ثلاث مؤسسات هى: المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري وهيئة الحكام؛ وهى أشكال استقرت أو انحدرت منذ عصور سابقة. وعلى الرغم من أن القدرة السياسية للمواطن الفرد تنوعت طبقا لشكل الدستور فقد كان هناك اتجاه نحو الديمقراطية بصفة عامة بحيث يستطيع المواطنون الاجتماع داخل مجلس مختص لمناقشة قضايا الحرب والسلام والتشريع والأمور المدنية الأخرى. أما أثينا على وجه الخصوص فقد وصل الاتجاه الديمقراطي بها إلى ذروته بحلول نهاية القرن السادس قبل الميلاد تقريبًا؛ وذلك عندما أتاحت الإصلاحات الدستورية التي أنشأها كليستنيز Cleisthenes توسعة مجال المشاركة السياسية لتشمل المواطنين الذكور فوق الثامنة عشرة عاما بغض النظر عن الثروة والطبقة الاجتماعية. وعلى أي حال فتلك النهضة التي شهدتها حالة النقاش العامة، فى أرجاء العالم اليوناني، لقضايا اجتماعية وسياسية وفكرية قد غذت مناخًا جديدًا أمكن فيه تقديم ومناقشة أفكارًا جديدة بل ونقدها.

كانت هذه هي العناصر الرئيسية التي أفرزت الخطاب المنطقي والبحث العقلاني (*logos*) فى "مكان اجتماع الناس ببعضهم بعضًا" (*agora*).

لقد قدمت الفلسفة محاولةً ساعيةً نحو تفسير طبيعي عقلاني للأحداث وللعمليات المكتسبة عن طريق خبرة المرء، وذلك فى مقابل التفسيرات الأسطورية. أما وظيفة البلاغة، التي هي فن الخطاب، فيتمثل فى طرح ما هو ممكن أو محتمل أو مؤكد على النحو الذي تقتضيه حاجة أولئك الذين يتعين عليهم إصدار أحكام بشأن القوانين والسياسات، أو بشأن البراءة والاتهام.

الفلاسفة قبل سقراط

ظهرت القضايا والمصطلحات الرئيسية للفلسفة خلال فترة تكونها في مطلع القرن السادس قبل الميلاد. وينسب أرسطو إلى الفيلسوف اليوناني ثيليز (الذي يعرف بـــ Thales of Miletus) – والذي لم تعد أعماله موجودة حاليا – فكرة أن العالم وكل شيء فيه نتج عن ماهية قوامها الماء، وسوف يعود فى النهاية إلى نفس الحالة. على أن تلميذ ثيليز، وهو أناكسماندر Anaximander (٦١٠ – ٥٤٧ ق. م.) كان هو المفكر اليوناني الأول الذي أتى بكلام عقلاني عن أصل العالم ومصيره. فلقد قال إن أصل كل الأشياء هو "طبيعة غير محدودة خرجت منها إلى حيز الوجود كل السماوات والعوالم التي بداخلها"، والتي بها أيضًا "تُدَمَّر كل "الأشياء الموجودة" "طبقًا لما تقضي به الضرورة" وفي ظل "تقدير الزمن"[١]. وعليه فمن خلال دورات زمنية متعاقبة يتحتم أن تأتي على الكون فترات صعود وهبوط بيد أنها تسير وفق كيان بديع ومنظم.

وقد تلى ذلك مفكرو ما قبل العهد السقراطي – مثل أناكسيمينيز Anaximenes (٥٤٤ ق. م.) وفيثاغورس Pythagoras (٥٨٠ – ٥٠٠ ق. م.) وهيراقليطس Heraclitus (٥٤٠ – ٤٨٠ ق. م.) وبارامينيدس Parmenides (المولود عام ٥١٥ ق. م. تقريبًا) وإمبيدوكليز Emedocles (٤٩٠ – ٤٣٠ ق. م.)

---

(١) الضرورة هنا (وهي فاعل مؤخر، ومبهمة في الأصل) بالإضافة إلـــى "تقـــدير الـــزمن" يصوران على أنهما ماهيتان لهما فعل وقرار (المترجم).

وأناكساجوراس Anaxagoras (٥٠٠ – ٤٢٨) – وقد عملوا جميعًا على تقوية الاتجاه التأملي التفكري الذي كان قد بدأه ثيليز Thales وأناكسماندر Anaximander. وأيما كانت "المادة الأساسية" التي صُنعَ منها الكون هي الماء أم الهواء أم النار أم الأرض أم العدد أم الجوهر، وسواء كانت التغيرات الطبيعية هي التي تتحكم فيها العدالة أو الزمن أو عملية تكثيف أو تخلخل ما، أو ماهية عقلية إلهية divine logos، أو تأثير الحب والكفاح، أو عمليات العقل (البشري)، فإن المفكرين اليونانيين الأوائل كانوا هم أول من سألوا بحق أسئلة فلسفية حقيقية، ومنها: ما طبيعة الحقيقة؟ ما القوانين الأساسية التي يعمل وفقها الكون؟ كيف يمكن للبشر التوصل إلى فهم الحقيقة والقوانين التي تحكمها؟ هل بالإمكان الاعتماد على الحواس للتوصل إلى معرفة العالم؟ هل هناك قوة عقلانية ما فى العقل البشري يمكن أن يُفسِّر الدليل القائم على الحواس من خلالها؟ ما هي العلاقة بين الحقيقة واللغة؟ ولطالما كانت هذه هي الأسئلة التي سعى ورائها الفلاسفة منذ ذلك الحين، كما أنها أيضًا سببٌ فى ظهور ميادين فلسفية متخصصة كالميتافيزيقا (أو ما وراء الطبيعة؛ والتي تتعامل مع أسئلة تدور حول البناء العام للحقيقة)؛ وكالأنطولوجيا Ontology (وهى المبحث الذي يتضمن أسئلة حول طبيعة الحقيقة أو "الوجود" وجوهرها)؛ وكعلم المعرفة epistemology (والمتضمن لأسئلة تتعلق بطبيعة المعرفة أو التعرف على الأشياء)؛ وكعلم العلامات semiotics (والمتضمن لأسئلة تتعلق بطبيعة ووظائف اللغة).

السوفسطائيون

اشتهر النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد – وهو العصر الذهبي لأثينا الكلاسيكية – باستحداث اتجاهات جديدة فى البحث الفلسفي كما أنه اشتهر بظهور (علم) البلاغة كذلك. ومع تأسيس وإرساء طرق ديمقراطية (جديدة) فى المجلس التشريعي والمحاكم فى مطلع القرن، فقد كان هناك طلبٌ

متزايدٌ بين المواطنين الأثينيين على التدريب على فنون المواطنة. وقد اشتملت هذه الفنون بصفة خاصة على نوع من الحكمة العملية والسياسية والتي تجتمع تحت مظلة (أو عنوان) "الفضيلة" (*arete*)، واشتملت كذلك على مهارة الخطابة الإقناعية والتي أُطلق عليها (في اليونانية) *logon techne*، أو "مهارة الخطاب". واستجابة لهذا الطلب بشأن تعلم تلك الفنون فقد ظهر فى أثينا وفي مناطق أخرى مجموعة متجولة من معلمي الفضيلة المدنية والخطابة المؤثرة. وتوافد هؤلاء المعلمون المحترفون من السوفسطائيين – والاشتقاق من كلمة *sophos* بمعنى حكيم – إلى أثينا من كل أرجاء العالم اليوناني. وعلى الرغم من أنه ليس كل السوفسطائيين فى القرن الخامس يعتبرون أنفسهم فلاسفة فإن العديد منهم أثاروا قضايا واتبعوا اتجاهات بحثية أسهمت بقدر كبير فى التطور المبكر للفلسفة. على أن الأهمية الفلسفية على وجه العموم للسوفسطائيين تكمن أولا فى انصرافهم عن "الفلسفة الطبيعية" لصالح (علم) السياسة والأخلاق والقضايا "الإنسانية" الأخرى؛ وثانيًا فى الأسئلة التي أثاروها حول طبيعة الحقيقة والمعرفة وجوهر الخطاب (انظر مدخل "السوفسطائيين" Sophists).

على أن أعظم هؤلاء السوفسطائيين الأوائل – وهم بروتاجوراس Protagoras of Abdera (٤٩٠ – ٤٢٠ ق. م.) وجورجياس Gorgias of Leontini (٤٨٥ – ٣٨٠ ق. م.) – قد عُرفا أيضًا بأنهما فيلسوفان لهما آراء تتعلق بوجود الآلهة، وطبيعة المعرفة، والعلاقة بين الحقيقة والمعرفة واللغة. وحقًا فقد دعت آراؤهم إلى بحث بعض النظريات الأنطولوجية (ontological أي المتعلقة بالوجود) والمعرفية (epistemological) والعلاماتية (semiotic) التي أتى بها أسلافهم سواء فى العهد قبل السقراطى أو المعاصرين لهم. ولقد زار بروتاجوراس Protagoras أثينا عدة مرات حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، بل جمعته صداقة مع بيريكليس Pericles – السياسي ورجل الدولة الأثيني العظيم – إذ طُلِبَ منه أن يصوغ قوانين إحدى المستعمرات

بمدينة ثوري Thurii؛ وقد كتب آنذاك عملين على الأقل، هما: "عن الآلهة" (On the gods) و"عن الحقيقة" (On Truth). ولقد عُرِفَ بروتاجوراس بمذهب اللاأدرية الدينية (أي الشك الديني فيما يتعلق بالآلهة، ومن ذلك قوله "أنا لا أعرف إن كانوا يوجدون حقًا أم لا")، كما عرف أيضًا بالنسبية المعرفية وبالذاتية المتطرفة؛ ومن ذلك ما يُنسَب إليه من قول بأن: "من بين كل الأشياء فالإنسان هو المقياس، فإن كانت (الأشياء بالنسبة له) موجودة فهي موجودة، وإن لم تكن موجودة فهي كذلك". ويُحمَل هذا القول على معنى أنه لا وجود للحقيقة فيما وراء (أو بالانفصال عن) عالم المشاهدات؛ فليس ثمة فرق بين الموجود والمُشاهَد. وبالتالي فكلٌ منا هو الحكمِ على انطباعاته (أو اعتقاداته): فما يبدو حقيقيًا لشخص ما فهو حقيقي فعلاً بالنسبة لهذا الشخص؛ وعليه فالحقيقة والمعرفة أمرٌ نسبي بحسب الفرد. بيد أن هذه النظرة إلى الحقيقة والمعرفة - والتي يمكن أن توصف بأنها نظرة "ذاتيه متطرفة" - قد أفرزت إشكاليات فى مجال علم المعرفة، تلك الإشكاليات التي شغلت البحث الفلسفي منذ ذلك الحين وإلى أمدٍ بعيد.

لقد كان بروتاجوراس فى طليعة ردة الفعل (الفلسفية) الإنسانية humanistic التي جاءت فى مواجهة الفلاسفة الطبيعيين، والتي أدت آراؤهم المتناقضة إلى أن تسوء سمعتهم بين الرجال أصحاب الطابع العملي. وشأنه شأن السوفسطائيين الآخرين فقد كان بروتاجوراس ملمًا بنظرياتهم ولكنه - ومعه العديد من السوفسطائيين أيضًا - انسحب بعيدًا عن مثل هذا التنظير ليُعَلِّم الناس الشئ الوحيد المستحق لأن يُأبَه له، ألا وهو "كيفية اعتناء الفرد بأموره الخاصة، وأمور بلده (أو دولته)".

بيد أن هذا التوجه العملي الطافح - والمتأصل كعادته ضمن نوع من النسبية المعرفية - نجم عنه مدخلٌ نفعيٌ للخطاب الإقناعي. فلقد تضمنت آراء بروتاجوراس فكرة أن الخطيب إذا استطاع إقناع جمهوره بأن فكرة ما

صحيحة (أو صادقة)، فلسوف تكون - بالنسبة لهذا الجمهور - صحيحةً حقًا، ذلك أن الجمهور صادق. وعليه فالتأكيد فى عملية الإقناع منصب على جعل ما هو محتملٌ أمرًا ممكنًا، وعلى جعل الحجة الواهية - بناءً على ذلك - حجةً تبدو على أنها أقوى مما هي عليه فى الحقيقة. وإن إحدى النقاط الرئيسة المتنازع عليها بين الفلسفة والبلاغة ترجع أصولها إلى هذا المدخل (أو النهج المشار إليه أعلاه)، بل لقد استمر ذلك إلى وقتنا هذا متمثلاً في: العلاقة بين **الحقيقة** و**المظهر**، ومن ثمَّ العلاقة بين **المعرفة** و**الرأي**. ومعلومٌ أن هذا الصراع - والذي يتضمن قضايا وجودية ontological ومعرفية epistemological - هو أمرٌ محوري فيما يخص الإشكاليات المتعلقة بالأهداف الحقيقية للخطاب الإقناعي والمسؤوليات المتعلقة باستخدامه.

وأما عن جورجياس Gorgias - المفكر، ورجل الدولة (السياسي)، والمعلم، والخطيب المفوه - فقد أتى إلى أثينا عام ٤٢٧ ق. م. من موطنه الأم فى ليونتيني Leontini، بجزيرة صقلية. ولقد اشتملت أعماله على كتب تختص بتعليم البلاغة، وكذلك على بحث بعنوان "عن الطبيعة أو العدم (اللاموجود)" On Nature or the Nonexistent. كما قام أيضًا بتأليف، بل بأداء، عدد من الخطب النموذجية، والتي لا يزال بعضها باقيًا مثل "في مدح هيلينا" Encomium of Helen و"الدفاع عن بالاميديز"[(١)] Defense of Palamedes. على أن إسهام جورجياس الفلسفي الرئيسي يكمن فى "أطروحاته الثلاث" التي قُدِّمت ودافع عنها فى عمله (المذكور أعلاه) "عن الطبيعة أو العدم (اللاموجود)" On Nature or the Nonexistent. وعلى الرغم من أنه لا يزال بين أيدينا فقط أجزاء قد أُعيدت صياغتها ولاحقة لهذا العمل، فإنه يبدو من الواضح أن جورجياس كان قد شرع محاولاً إثبات ثلاثة أمور: (١) لا شيء

---

(١) الاسم اسم علم لأحد الأشخاص في الأساطير اليونانية (المترجم).

موجود؛ (٢) وإن كان هناك شيء موجود حقًا فلا سبيل لبشر لأن يعرف عن وجود هذا الشيء؛ (٣) وحتى لو أن هناك معرفة عن ذلك الشيء فهذه المعرفة بدورها غير قابلة للانتقال من فرد إلى آخر. بيد أن الباحثين لا يتفقون فيما بينهم إن كانت هذه المقدمات (أو المقولات أو الحجج) نوعًا من المحاكاة الساخرة التهكمية تجاه النظر العقلي فيما قبل سقراط، أو أنها إسهامات فلسفية جادة، (وقد يكون كلاهما صحيحًا). وعلى أي حال فحجج جورجياس تثير مسائل مهمة وجودية ومعرفية وعلاماتية semiotic وأخلاقية. فلتأكيد فكرة أنه "لا شيء موجود" فقد كان جورجياس لا يقول بوجود حقيقة أو ماهية ثابتة ومستقرة تقبع خلف الظاهر. وعلاوة على ذلك، ففي قوله إن البشر لا يستطيعون تحصيل المعرفة على هذا النحو - وهذا إن كان ثمة وجود فعلي لشيء - فهو يعمد إلى تعقيد كل (أشكال) المعرفة. لأنه إذا كنا لا نستطيع معرفة "الحقيقة"، فماذا يمكن أن نعرف إذن؟ وما الذي يعنيه "أن نعرف"؟ وأخيرًا ولتأكيد فكرة أننا حتى إن كنا نمتلك "المعرفة" فهي غير قابلة للانتقال للآخرين، فهو يفصل أو يقطع العلاقة فيما بين اللغة والحقيقة، تلك التي كان المفكرون فيما قبل سقراط - هيراكليطوس Heraclitus وبارامينيديس Parmenides (المولود عام ٥١٥ ق. م.) - قد افترضوها. ولقد كان هيراكليطوس قد كتب إن "الكلام بحق/بصدق" يعني النطق (أو التلفظ) وفق المبدأ العقلاني logos العالمي، والذي يسير وفق اعتقاد أن "كل الأشياء هي شيء واحد" (في الأساس) ". وأن "الخطاب الحق"، بناء على ذلك، هو عبارة عن الكشف أو التعبير عن المدار (المرسوم) أو المبدأ الذي تسير كل الأشياء وفقًا له. على أنه بعد قرن آخر كتب بارامينيديس قصيدة طويلة موضحًا - من خلال الالتزام الوثيق بقواعد التضمين (الاستدلال) المنطقي- أنه بسبب أن "اللاوجود/العدم" (not - being)، بحسب تعريفه، لا يمكن أن يوجد، وأن "الوجود" (being) لابد وأن يكون موجودًا (باعتبار مبدأ الوجود لا

يمكن أن يكون عدمًا "being" cannot be not - be)، فإن ما لدينا هو الموجود فقط.[١] وعلاوة على ذلك، فبما أنه لكي يوجد أكثر من ماهية أو شيء واحد، فالكينونات الموجودة الفردية يجب أن تنفصل عن طريق اللاوجود (العدم)، وبما أن اللاوجود (العدم) لا يوجد، فليس ثم إلا وجود واحد. وهذا يستلزم أن خبرتنا عن التعددية والتنوع فى العالم هي محض خيال (أو وهم). ويبدو أن هذه الحجة على وجه الخصوص هي التي كانت قابعة فى ذهنه عند كتابة هذا البحث (أو الرسالة) إذ كان هدفه أن يُسَفِّه منطق بارامينيديس ليوضح أنه يمكن لتلك الحجة أن تُستَخدَم ببساطة لإثبات عكس ما كان بارامينديس قد توصل إليه. إذ لو صح ذلك فإن اللغة إذن لا تنطوي فى طبيعتها على ارتباط بينها وبين عالم الموجودات، بل يتعين أن تتعلق فقط بما هو مُشَاهَد. على أنه إلى جانب بروتاجوراس فإن تعليمات جورجياس قد أثارت قضايا فلسفية مهمة، تلك القضايا التي كانت بصفة خاصة وثيقة الصلة بطبيعة البلاغة وممارستها.

ولقد كانت نتيجة هذا الاهتمام من قِبَل السوفسطائيين بالجوانب العملية للحياة، وتفضيلها على التأملات النظرية التي اضطلع بها المفكرون فيما قبل سقراط، توجُّه البحث الفلسفي إلى اهتمامات إنسانية humanistic بالإضافة إلى الاهتمامات الطبيعية. بيد أن الاهتمام بالحالة الإنسانية وبالمشكلات السياسية والعملية فتح الباب لنطاق آخر من التساؤلات، يمكن أن تُجمَع – بصفة عامة – تحت مظلة أو عنوان "الفلسفة الأخلاقية". فعندما يمعن المجتمع النظر بشأن القوانين والسياسات المقترحة فلا شك أن هذا يفرز أفضل الأفكار الجيدة والنافعة. فما هو الشيء الحسن حقًا للبشر؟ وفي أي شيء يكمن النفع

---

(١) ربما يبدو الكلام معقدا ولكن هذه ترجمة دقيقة للأصل، تعكس طبيعة التفكير الفلسفي؛ وهكذا الفلسفة تحتاج إلى فهم المقصود رغم التعقيد اللفظي وبساطة المعنى أحيانا، (المترجم).

والفائدة للفرد والمجتمع؟ بل كيف يُعمِل المرء عقله إزاء تلك الأسئلة؟ وكيف نكتسب المعرفة الأخلاقية؟ وهل سنتجه نحو الأساطير أو الآثار المتوارثة لنجد إجابات؟ وهل الحقائق الأخلاقية تنبع من طبيعة الأشياء أم هي مجرد أعراف متوارثة؟ إن مثل هذه الأسئلة تثير قضايا وجودية ontological ومعرفية epistemological، وهى تشير إلى المادة وكذلك الاتجاه اللذين اضطلع بهما سقراط، والذي يمكن أن يُسَمَّى فعلاً "أبو" الفلسفة الأخلاقية.

سقراط

كان سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م.) من أهل أثينا، وكانت حياته (في مرحلة الرشد) متزامنة إلى حد بعيد آنذاك مع العصر الذهبي (اليوناني). وعلى الرغم من أنه لم يُخلِّف وراءه كتابات لكنا نعرف عن حياته وفكره سواء من خلال ما صورته حوارات أفلاطون عنه أو من خلال مسرحيات أرسطوفانيس Aristophanes أو أعمال زينوفون Xenophon، وهم أولئك الذين عرفوه. ويبدو أنه كان مهتمًا منذ نعومة أظفاره بتأملات الفلاسفة الطبيعيين. وعلى الرغم من ذلك، مثله مثل السوفسطائيين، وجد أن نظرياتهم المتناقضة غير مقنعة فى نهاية الأمر. وعلى ذلك، ومثل السوفسطائيين أيضًا، فقد تحول فى بحثه إلى قضية المسلك القويم فى الحياة. ولقد عَمِدَ إلى تنفيذ ذلك من خلال منهج الاستجواب cross - examining السقراطي المعروف، والذي طبقه مع أُناسٍ قد احتكوا به فعلاً.

ومستغربًا من ذلك القول النبوئي المبهم (في زمنه) بأنه لا يوجد إنسان أكثر حكمة من شخصه هو، فقد شرع سقراط فى سؤال (أو تحري) أولئك الذين فى المدينة - سواء الاثينيين أو الغرباء على حد سواء - الذين كانت لهم شهرة بالحكمة ساعيًا لأن يكتشف ما الذي قصده العرافون بذلك. ولقد اجتذبت محادثاته مع شعراء وسياسيين بارزين فى أثينا، ومع معلمين

مشهورين أمثال بروتاجوراس وجورجياس وثراسيماكيوس Thrasymachus، جماعة متباينة من الأصدقاء والمعجبين الذين رغبوا فى أن يتعلموا على يديه. بيد أن سقراط على ما يبدو، أثناء متابعته لرسالته، كان قد سئم مواطنيه من أتباعه الذين حاكموه وأعدموه لاحقًا بتهمة "إفساد شباب" المدينة.

ولعل من بين إسهامات سقراط الرئيسية فى الفلسفة تلك المواضيع التي جعلها مناط بحثه، إضافة إلى منهجه البحثي الذي استخدمه؛ على أن معظم الباحثين يقبلون بأنه لم تكن لديه مجموعة مبادئ حقيقية يمكن أن تُدرَّس. وعلى الرغم من ذلك فإن تأثيره على الفكر الفلسفي اللاحق كان عميقًا. وعلى نحو أشد مما قام به السوفسطائيون فلقد طور سقراط أمر البحث فى المسائل الخُلُقيَّة والأخلاقية، بل نستطيع أن نحكم من خلال محاورات أفلاطون ومصادر أخرى أن سقراط حسبما يبدو كان مهتمًا بنطاق عريض من التساؤلات: ما طبيعة الفضيلة؟ هل يمكن تعليمها؟ ما العدل؟ ما الخير (أو ما هو حسن) للفرد أو الدولة؟ ما الجمال؟ ما الحب؟ ما الشرف؟ ما طبيعة الروح البشرية؟ هل الروح خالدة؟ ولقد نجمت عن مثل هذه الأسئلة فى النهاية مباحث فلسفية مثل الأخلاق والفلسفة السياسية وعلم الجمال وعلم النفس والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة Metaphysics). وإضافة إلى تلك المواضيع التي بحثها سقراط فلقد أكسب الفلسفة منهجًا بحثيًا تَفَكُّرِيًا استمر إلى وقتنا هذا، وهو ما تمثل في: الفحص النقدي للأفكار عبر النظر والتدقيق النظامي systematic للمضامين المنطقية لمعاني المصطلحات. فعندما سأل محاوريه ما الذي يقصدونه بتلك الكلمات: "الفضيلة"، "العدل"، إلى آخره، فقد أعرب عن أمنيته فى أن تُعَرَّف مثل هذه الأمور من خلال التزام "تعريفات حقيقية/صحيحة" true definitions لتلك المصطلحات. فهو يعتقد أننا نستطيع – من خلال مثل هذه التعريفات – أن نهتدي إلى الأفكار الحقيقية التي تمثلها هذه الكلمات التي نستخدمها؛ بل لعل المعرفة الحقيقية تكمن فى استيعاب هذه

الأفكار. وعلى أي حال فإن سقراط قد اعتقد أن الفعل الفاضل هو المؤسس أساسًا على تلك المعرفة، وأنه لكي يصل المرء إلى المنحى الحسن (أو الجيد) فى السلوك فإنه يكفيه أن يفهم (أساسًا) ما هو الحسن بحق. وعليه فإن البحث عن الفضيلة يتمثل فى البحث عن المعرفة الحقة.

بيد أنه ليس من الواضح لدينا من خلال الدليل التاريخي كيف استوفى سقراط تطوير أفكاره بشأن تلك المسائل أو إلى أي مدى اقترب من تحصيل المعرفة التي كان يسعى إلى تحصيلها. وبالتأكيد فإن اعترافه المستمر بجهله - حيث ينسب إليه القول: "إن كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف شيئًا" - يشير إلى فشله فى تحصيل المعرفة (المشار إليها آنفا). ولعل إسهامه الأكثر أهمية فى تطوير الفلسفة اليونانية لا يكمن فى مبدأ أو نظرية معينة ولكن فى الروح العامة للبحث والتساؤل التي أحيت ما خلَّفه لنا من أعمال فى حياته، تلك التي أبرزت معالم ما يمكن أن نصفه بأنه "اتجاه فلسفي". ويبدو أن سقراط كان قد عمل بتلك النصيحة المنقوشة على معبد أبولو فى (مدينة) دلفي التي تقول: "اعرف نفسك"، إذ ورد عنه، من خلال (أعمال) أفلاطون، أنه قد قال - إبَّان محاكمته، عندما سعى لتقديم موجز عن حياته وطرائقه - "إن الحياة التي لم يتفحصها صاحبها (أو يسبر غورها) لحياة منقوصة بالنسبة للمرء". ويتضح من ذلك أن حياته هو كانت مُكرَّسَة لذلك النوع الصارم من الاستجواب (أو التساؤلات) cross - examination، بل يتضح أيضًا أنه كان قد عاش حياةً (منهجية) قائمةً على مبادئ، وأنه واجه الموت بشجاعة ورباطة جأش. وأنه أيضًا اتخذ موقفًا فلسفيًا يعارض فى بعض نواحيه تعاليم السوفسطائيين الأوائل، حتى لو لم يعتقد هذا الموقف أو يتلفظ به بنفسه. فعلى عكس شكهم ونسبيتهم وذاتيتهم فيبدو أنه كان يعتقد بإمكانية وجود حقائق أخلاقية مُجمَع عليها وثابتة، وعلى نحو موضوعي، واعتقد كذلك فكرة أن البشر يمكن لهم أن يستوعبوا تلك الحقائق. وعلى الرغم من أن سقراط ربما

قد كان قريبًا من فهم تلك الحقائق بنفسه فإن أعظم طلابه، أفلاطون، أخذ على عاتقه إنفاذ المهمة التي تركها له أستاذه الشهيد، وقدم لنا الكيان الأول للأدب الفلسفي الحقيقي فى العالم الغربي.

أفلاطون

كان أفلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ ق. م.) واحدًا من الشباب الذين جذبتهم شخصية سقراط، والذين استلهموا منه مزية تكريس أنفسهم للنظر النقدي للأفكار. ولقد كان، لحسن الحظ وعلى نحو استثنائي، فى العشرين عندما دخل سقراط فى عقده السادس والأخير من حياته، وربما كان حاضرًا أيضًا عند موته. ولقد اعتنق أفلاطون ما رآه محور حياة سقراط وتعاليمه: فلقد سعى وراء الحقائق المُجمَع عليها (الكونية) universal التي لا تتبدل، والتي تقبع تحت المظاهر، والتي تشكل المعرفة التي نستطيع توظيفها فى اتخاذ قراراتنا بشأن كيفية خوض غمار الحياة. وعلى ذلك فقد وضع أفلاطون لنفسه اتجاهًا معارضًا للنسبية والذاتية التي اضطلع بها السوفسطائيون قائلا بوجود حقائق ثابتة عامة وموضوعية تكمن خلف الظاهر (أو المظاهر)، وأن هذه الحقائق يمكن للبشر أن يصلوا إليها، وأن تلك الحقائق – إذا ما عُرِفَت – يمكن إيصالها للآخرين. فلقد كان أفلاطون ضائقًا ذرعًا، وبصفة خاصة، بالمضامين الأخلاقية للنسبية السوفسطائية مما حدا به، وعلى نحو شديد، إلى انتقاد المداخل السوفسطائية للإقناع والبلاغة.

ولم يكن أفلاطون، بصفة خاصة، مهتمًا بالمادة التي صُنِع منها الكون أو القوانين التي تحكم العمليات الطبيعية على غرار المفكرين فيما قبل سقراط؛ ولكن شأنه شأن سقراط والسوفسطائيين سعى خلف مسائل وجودية ontological وأخلاقية ومعرفية وسياسية: ما الحقائق المطلقة خلف الظاهر؟ ما طبيعة الفضيلة؟ وما طبيعة العدل؟ والخير؟ وما المعرفة؟ وكيف يمكن

تحصيلها؟ وما سمات الدولة المثالية؟ وفي سعيه خلف مثل هذه التساؤلات فقد عمد أفلاطون إلى التوصل إلى حقائق مضطردة خالدة لا تتغير بشأن جواهر - جمع جوهر[١] - الخير والعدل والجمال. ولقد كانت هذه الجواهر أو الأشكال المثالية بالنسبة لأفلاطون هي أكثر الموجودات حقيقة ووجودًا، بينما التجسُّد الظاهر المحدد لتلك الجواهر لم يكن سوى صور مقربة وغير مكتملة لها. فالأشكال توجد فى عالم فكري خالص، عالم من الأفكار المحضة، ويمكن التوصل إلى معرفتها من خلال ملكة الفكر والعقل البشريَّين دون التوصل إليها عن طريق الحواس. وعلى ذلك فقد أدت نظريات أفلاطون إلى إفراز الاتجاه الميتافيزيقي الذي عرف بـــ "المثالية/الفكرية" idealism، والذي عارض به واقعية realism أولئك الذين اعتبروا أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة (مثل السوفسطائيين).

بيد أن هدف البحث الفلسفي عند أفلاطون كان استيعاب وفهم الأشكال المثالية (الفكرية) للأشياء؛ والتي يمكن التعبير عنها من خلال اللغة فى شكل تعريفات صحيحة للمصطلحات (أو الأسماء) التي تستخدم للتعبير عن تلك الأشكال. وعليه فإن البحث بالنسبة لأفلاطون، وكذلك سقراط، يكمن فى التدقيق المنطقي الشديد للتعريفات. وعلى ذلك فحوارات أفلاطون - والتي يقدم من خلالها قناعاته وتفكيره الفلسفي فى شكل حوارات بين سقراط وشخصيات متباينة أخرى - تعرض لهذا المنهج البحثي.

لقد عبَّر أفلاطون عن آرائه فيما يخص العلاقة بين الفلسفة والبلاغة على نحو مستفيض فى حواره المسمى "فيدروس" Phaedrus، والذي ظهر فيه سقراط موضحًا متطلبات وجود "فن حقيقي" للخطابة. وتتضمن هذه الآراء الإلمام بكيفية تعريف موضوع ما، وكذلك كيفية تقسيمه إلى أجزاء منطقية.

---

(١) الإضافة للمترجم.

كما أنه أوضح أن المرء يتعين عليه معرفة طبيعة الروح البشرية واكتشاف نوع الخطاب الذي يناسب كل نوع من أنواع تلك الروح. وعلى الرغم من ذلك فقد كان المتطلب الأول والأكثر أهمية هو أن الخطيب يجب عليه أن "يعرف الحقيقة إزاء كل موضوع يخطب بشأنه أو يكتب عنه؛ بمعنى أنه يتعين عليه أن يكون قادرًا على فصل الموضوع بوضعه فى تعريف" (انظر الجزء 277b). وعليه "فإن لم يستطع أن يبدى اهتماما جيدًا تجاه الفلسفة فلن يكون أبدًا خطيبًا متمكنًا فى أي موضوع" (261a). ويتضح أن فى هذا المطلب تكمن بذرة الشقاق بين الجدل الأفلاطوني والتعاليم السوفسطائية بشأن البلاغة، وفي ذلك أيضًا تكمن مشكلة أساسية بخصوص العلاقة المستمرة بين الفلسفة والبلاغة (متمثلا ذلك فى سؤال): ما الرابط بين الحقيقة والمعرفة والخطاب الإقناعي (persuasive speech)؟

أرسطو

إن من بين أهم القضايا التي تبلور نظرية البلاغة حسبما طورها تلميذ أفلاطون النابه - أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) - هو ذلك السؤال عن العلاقة بين الحقيقة والمعرفة والخطاب الإقناعي. وليس من المبالغة الإشارة إلى أرسطو على أنه أكثر الفلاسفة تأثيرًا، وعلى نحو استثنائي فذ، فى تاريخ الحضارة الغربية. نعم قد يكون من المبالغة القول، كما يدَّعى البعض، إن كل الفلسفة منذ القرن الرابع قبل الميلاد لا تعد شيئًا بالنسبة لأرسطو؛ إلا أنه على الرغم من ذلك فإن أثره الفكرى على التاريخ الفكري للغرب ليس له نظير. ولما كان صاحب ذكاء فذ وفضول جارف فقد ورث الروح السقراطية فى البحث والتساؤل كما أنه تلقى تدريبًا فى مدرسة أفلاطون - المسماه the Academy "الأكاديمية" - لتطبيق الأسلوب (أو التكنيك) التحليلي الدقيق، الذي يمكن أن نرجعه إلى بارامينيديس Parmenides (المولود عام ٥١٥ ق.م. تقريبًا). ونتيجة

لهذه المواهب الطبيعية وكذلك لتدريبه الفلسفي اضطلع أرسطو أثناء عمله ببرنامج بحثي أدى إلى إفراز كتابات فلسفية هي الأكثر شمولاً وإبداعًا لكاتب واحد فقط عبر الأزمان. وتشمل الأعمال التي ارتبطت باسمه أعماله المبكرة الأكثر شهرة (وأغلبها يتخذ شكل المحاورة dialogue، وضائعٌ الآن)، وكذلك مجموعات لبعض المواد المعدة للأبحاث العلمية (وقد فُقدت أيضًا)، وهذا إضافة إلى مجموعة أبحاث فلسفية وعلمية (وهذه قد وصلت إلينا). وفي تلك الأخيرة - المشار إليها أنفًا - يحدد أرسطو نطاقات البحث الفكري التي وجَّهت النشاط الفلسفي منذ ذلك الحين. وعلاوة على ذلك فإن فلسفته تشتمل على أول ما ذُكرَ من التصنيفات المتخصصة العديدة والتعريفات والمصطلحات التي أُسِّسَت عليها علوم وفلسفات لاحقة.

ويشتمل عمل أرسطو المسمى "*Organon*" (وتعنى "مجموعة المبادئ العلمية (الآلة)") - والذي هو عبارة عن مجموعة منوعة من البحوث والرسائل المنطقية - على عناوين من أمثال "Categories" ("المقولات")، و"On Interpretation" ("في التفسير")، و"Prior Analytics" ("التحليل المنطقي القبلي")، و"Posterior Analytics" (التحليل المنطقي البعدي")؛ و"Topics" ("الحجج البلاغية/المقولات")، و"On Sophistical Refutations" ("عن التفنيدات السوفسطائية"). وتهتم هذه الأعمال بنوعين أساسيين من المواضيع هما: أسلوب technique ومبادئ principles تحصيل البرهان المنطقي. وفيما يتعلق بالنوع الأول - وهذا بدون التقليل من شأن الاستجواب السقراطي أو الجدل الأفلاطوني - فيمكن أن نعزو لأرسطو ابتداع القياس المنطقي syllogism، وكذلك الشكل الاستنتاجي للحُجَج والبرهان "العلمي". وهذا الشكل من إعمال العقل هو أساس التصور الغربي عن العقلانية والعقل، بل لقد حدد طريقة البحث والدليل الفلسفي إلى عصرنا هذا.

وهناك مجموعة ثانية من الأبحاث (أو الرسائل) العلمية التي يمكن أن تُصنَّف تحت عنوان "الفلسفة الطبيعية"، والتي هي ميدان البحث والتساؤل الذي اضطلع به الأيونيون (القدماء) Ionians. ففي أعمال مثل "الفيزياء" (Physics)، و"عن السماوات" (On the Heavens)، و"عن النشأة/الميلاد والتحول" (On Generation and Corruption)، و"عن الروح" (On the Soul)، و"عن الذاكرة والذكريات" (On Memory and Reminiscence)، و"تاريخ الحيوانات" (The History of Animals)، و"عن أعضاء الحيوانات" (On the Parts of Animals)، و"عن نشأة الحيوانات" (On the Generation of Animals) فقد وضع أرسطو التساؤلات والفئات التَصَوُّرِيَّة التي سوف تُطَبَّق في النهاية على علوم مثل الفيزياء والفلك وعلم النفس والأحياء وعلم الحيوان.

وأما في مجال الفلسفة الأخلاقية والسياسية فقد كتب أرسطو أبحاثًا (رسائل) في نظرية السياسة (انظر كتاب "(علم) السياسة" Politics) وفي نظرية الأخلاق (انظر كتاب "الأخلاقيات النكموشية" Nicomachean Ethics[١])، وفي الدراما (انظر كتاب "(علم) الشعر" Poetics) وفي فن الخطابة (انظر كتاب "البلاغة" Rhetoric). وتتعامل تلك الأعمال مع علومٍ عملية أكثر من كونها نظرية إذ تهتم بالمبادئ التي يتأسس عليها عمل الأنشطة وسيرورتها أكثر من كونها مهتمة بالنظر فيها تأملاً وتعريفًا. على أن العلوم العملية طبقا لأرسطو لا تتحلى بنفس الدرجة من الدقة أو اليقين اللذين تتحلى بهما العلوم النظرية لأن مادتها متغيرة ومحكومة بالسياق، كما أنها تتضمن عادات وخيارات وجوانب أخرى من العوامل البشرية.

(١) النسبة لاسم من أُهدِىَ إليه الكتاب وهو أحد أبناء أرسطو، وقيل النسبة إلى اسم أحد من حققوا الكتاب (المترجم).

ويتمثل نطاق البحث الفلسفي الأسمى فيما أسماه أرسطو "الفلسفة الأولى"first philosophy أو "الحكمة" wisdom أو "اللاهوت" theology. بيد أن أحد المحققين الأوائل لأعمال أرسطو قد وضعه خلف مبحث "الطبيعيات/الفيزياء" Physics، ولذا فقد عنون له بكلمة Metaphysics (أي ما وراء الطبيعة؛ والسابقة meta تعني "خلف" أو "وراء" أو "بعد")؛ وعلى ذلك فقد ظهر إلى حيز الوجود أكثر أشكال البحث الفلسفي تجريدًا وأصالة وإبداعًا. وعلى الرغم من أن منهج أرسطو التحليلي قاده لأن يسعى فى البحث عن المقدمات المنطقية الأولية أو المبادئ الأولى في كل العلوم فإن كلاً من النشاط الفلسفي الطبيعي والأخلاقي قد استهدفا فى نهاية الأمر استكشاف المبادئ الأولى (archai) لكل علم من هذه العلوم والتي تنبع من خلالها الظواهر التي يضطلع بها هذا العلم. وعلى ذلك فعلم الأخلاق يسعى للوصول إلى المبادئ الأولى المتعلقة بإصدار الأحكام الأخلاقية حول أفعال عملية، وعلم السياسة يسعى فى البحث عن المبادئ الأولية التي تنبنى عليها الأحكام المتعلقة بالصالح العام، وتسعى الفيزياء للوصول إلى مبادئ الحركة والتغير، وهكذا. على أن بحث المبادئ الأولى والتي لا يمكن أن يتم إثباتها من خلال علم محدد تتطلب أسلوبًا دقيقًا وعلمًا منفصلاً. وعليه فقد أولى أرسطو هذه المهمة للفلسفة الأولى (آنفة الذكر)؛ ولذا فالميتافيزيقا يمكن وصفها بأنها البحث والنظر فى المبادئ الأولى. وعلى الرغم من أنها تبحث أمورًا لا تدخل تحت نطاق علم معين كالأخلاق أو السياسة أو الفيزياء فإن الميتافيزيقا تسعى للوصول إلى مبادئ الأشياء باعتبارها **أشياء**، وليس على أنها هذا أو ذلك النوع (المعين) من الأشياء. على أن هذا النهج البحثي قاد أرسطو فى النهاية إلى نفس الاتجاه الذي كان بارامينيديس Parmenides قد أشار إليه (متمثلاً في): ما الذي يعنيه أن نكون to be؟[١] وعلى ذلك، فإن

(١) يقصد ما الذي يعنيه وجودنا (المترجم)

الميتافيزيقا بالنسبة لأرسطو يمكن أن تُحمَل على أنها علم الوجود باعتباره وجودًا (مطلقًا أو حقيقيًا[١]) being as being.

ويفرق أرسطو بين فئتين من المبادئ الأولية: الفئة الأولى هي المبادئ الجامعة (العامة) universal والضرورية، أما الثانية فهي المبادئ الخاصة المحتملة أو الظرفية.[٢] بيد أن الشكل الأسمى للمعرفة البشرية – والتي يسميها أرسطو *Sophia* (أو الحكمة التأملية) – يكمن في فهم الفئة الأولى ومعرفة كل ما ينبثق عنها. ويتعامل هذا الشكل مع "الحقيقة العلمية"، والتي يمكن أن تُبَرهَن عن طريق التأكد أو اليقين المنطقي. وعلى ذلك فالمعرفة العملية، والتي هي نتاج نشاط "العقل التأملي/التفكري" speculative intellect تعد بحد ذاتها معرفة يقينية. وعلى الرغم من ذلك، فقد وضع أرسطو أيضًا نوعًا ثانيًا من الحكمة – *phronesis* أو الحكمة العملية – والتي تتضمن معرفة المبادئ الأولى للأشياء المحتملة والمتغيرة، وتتضمن كذلك القدرة على استيعاب الحقائق الخاصة العملية التي تتبع من تلك المبادئ. وبما أن المبادئ التي تقبع خلف هذه الحقائق مبادئ متغيرة فإن معرفتنا عن الأشياء التي تتبع من تلك المبادئ هي فقط معرفة محتملة (غير يقينية). فمجال الحقائق المتغيرة والظرفية هو مجال العقل (أو الفكر) العملي practical intellect، وهو أيضًا مجال البلاغة، حسبما يرى أرسطو (انظر مدخل "لباقة الحكمة والمعرفة" Phronesis).

لعل هذا الاستعراض لفكر أرسطو يوضح لنا رد فعله تجاه الأزمة التي صنعها الصراع بين أفلاطون والسوفسطائيين. ومع افتراض عالمين للوجود، ونسقين للحقيقة، وكذلك نوعين للمعرفة فقد كان أرسطو قادرًا على تكييف

---

(١) الإضافة بين القوسين (مطلق أو حقيقي) ليست في الأصل الإنجليزي، ويمكن حذفها، والأصل هو "علم الوجود باعتباره وجودًا"، ولكنها جملة فلسفية مبهمة ربما يعتقد القارئ خطأها فأوضحتها كما بين القوسين بناء على الفهم الكلي للنص.

(٢) المتوقفة على الظروف (المترجم).

التحديات الوجودية ontological والمعرفية للسوفسطائيين، والحفاظ فى الوقت نفسه على الالتزام بالبحث الأفلاطوني عن الحقائق الجامعة العامة غير القابلة للتغيير. ولا شك أن استجابته كان مقدرًا لها ألا تُرضي لا أفلاطون ولا السوفسطائيين، ولكنها أفادت فى تأصيل النظرة التي تقضي بأن البلاغة والفلسفة لهما اهتمام مشترك بالمسائل الوجودية ontological والمعرفية empistemological والأخلاقية ethical والعلاماتية(١) semiotic.

الفلسفة والبلاغة

بقدر ما كانت الفلسفة مرتبطة بالبحث عن الدوام (أو الاستمرارية) خلف تيار الخبرة المكتسبة - كما كانت كذلك بالنسبة للمفكرين فيما قبل سقراط، وكذلك سقراط وأفلاطون وأرسطو بل كثير من المدارس الفلسفية التي أفرزتها كتاباتهم وتعاليمهم - فقد اهتمت أيضًا بتساؤلات من نوع مختلف جدًا عن تلك التي تشغل البلاغي عادةً. وعلى الرغم من ذلك فعندما يدير الفيلسوف اهتمامه تجاه مجال الحقيقة المحتملة، أو المظاهر، أو الاختيار، أو السلوك، أو المعرفة الاحتمالية، أو الاستخدامات العملية للغة، فإن اهتمامات كل من الفلسفة والبلاغة يمكن أن تتلاقى. ولقد كانت البلاغة متأصلة، حسبما يرى معظم المنظرين، فى إدراك أن البشر (في نطاق الفعل والاختيار) منغمسون فى عالم من المظاهر والتغير والرأي. وهناك أيضًا منظرون بلاغيون - من أمثال القديس أوغسطين Saint Augustine فى القرن الرابع الميلادي وريتشارد ويفر Richard Weaver فى القرن العشرين - قد اعتنقوا تصورًا أفلاطونيًا (أكثر من كونه أرسطيًا) عن البلاغة وعلاقتها بعالم المطلق والعام (realm of the absolute and universal). وعلى الرغم من ذلك،

(١) تعنى لفظة Semiotics علم العلامات أو الإشارات (اللغوية)؛ وتعرَّب أحيانًا بـــ "السيميائية"، والأولى أولى للإيضاح (المترجم).

وبصفة عامة، فلقد ارتبطت البلاغة بمسألة كيف يمكن للبشر اتخاذ قرارات تتعلق بالسلوك فى عالم يتسم بالتغير واللا يقين.

وتستمر العلاقة فيما بين البلاغة والفلسفة، بناء على ذلك، فى التركيز على قضايا ومصطلحات انبثقت خلال التطور المبكر لهذين الفرعَين المعرفيين. كما أن التساؤلات حول طبيعة الحقيقة قد أثارت الواقعيين والماديين والموضوعيين والذاتيين والنسبيين (relativists) وآخرين غيرهم تجاه بعضهم بعضا. ولقد كان لكلٍ من هذه المواقف المتأرجحة فيما بين الميتافيزيقيا والوجودية مضامينها الّتي تتعلق بالأخلاق. وعليه، فعلى سبيل المثال يمكن أن نجد أصحاب الاتجاه الموضوعي objectivists أو الاتجاه الجامع العام universalists من الأخلاقيين (الذين يعتقدون أن المبادئ والقواعد الأخلاقية أمرٌ موضوعي بحق، وأنها تتخطى الاختلافات الثقافية والاجتماعية) يتنازعون الرأى مع أصحاب الاتجاه الذاتي subjectivists والنسبيين relativists (الذين يقولون بأن المبادئ الأخلاقية أمر ذاتي محض، وأنها تنشأ اجتماعيا ومتأصلة فى الإجماع المجتمعي أكثر منها متأصلة فى "طبيعة الأشياء" نفسها). وعلى نحو مشابه فلقد تقدمت النظريات والمسائل المعرفية على يد أولئك الذين اعتقدوا أن العقل هو سبيل المعرفة (العقلانيين)، وكذلك أولئك الذين رأوا الحواس مصدر المعرفة (التجريبيين empiricists والوضعيين positivists)، وكذا أولئك الذين شككوا فى وجود معرفة من أن نوع (الشكوكيين (أصحاب الاتجاه الفلسفي الشكي)). أما فى ميدان العلاماتية semiotics ونظرية اللغة فلقد انحاز البعض إلى النظرة التوافقية للغة، حيث الكلمات تمثل أشياء حقيقية من الناحية الموضوعية، بينما تبنى آخرون اتجاها بنيويًا إنشائيًا، حيث الحقيقة ذاتها تُخلَق عبر اللغة. وعلى ذلك فقد نشأ الجدل بخصوص طبيعة المعنى ذاته، ومن ثم ظهور نظريات المعنى فى الفلسفة منذ عصر اليونانيين القدماء.

لطالما كانت الفلسفة والبلاغة فى نزاع. وحقًا فلقد كان هناك أولئك الذين رأوا الفلسفة على أنها علم عملي بصفة أساسية، وكذلك - وبالتبعية - أولئك الذين اعتقدوا أن البلاغة، بمعنى من المعاني، متممة للعمل الفلسفي. وعلى سبيل المثال فلقد تبنى، بل أنجز، أحد معاصري أرسطو - وهو إيزوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨ ق. م.) - نظامًا تعليميًا يستهدف المواطن الطامح فى تعلم الخطابة، والذي أكد على دراسة التاريخ والسياسات والأخلاق إضافة إلى التدريب على البلاغة. ولقد أطلق على ذلك النوع من الدراسة مصطلح "فلسفة" *philosophy*. وبالمثل فلقد قال السياسي والفيلسوف الروماني شيشرون Cicero (١٠٦ - ٤٣ ق. م.) بلزوم وجود الحكمة والفصاحة معًا فى "الخطيب الجيد"؛ وبأخذه لهذا الأمر فى الاعتبار فلقد طور برنامجًا تعليميًا يستهدف السياسي الخطيب، والذي أكد على دراسة الفنون الحرة تحت مظلة الفلسفة. وعلى الرغم من ذلك، وفي الوقت نفسه أيضًا، فنحن نجد آثارًا ممتدة من عدم الثقة، بل العداء الصريح تجاه البلاغة من قِبَل الفلاسفة. فابتداءً من أفلاطون ومن هم على شاكلته منذ ذلك الحين تركزت الشكوك حول البلاغة على مسألة افتقادها لموضوع جوهري تام وواضح، وكذلك اعتمادها على الرأي أكثر من المعرفة، وكذا اهتمامها بالاحتمالي أكثر منها باليقيني، وارتباطها بالأبعاد اللاعقلانية للعقل البشرى والسلوك الإنساني أكثر من ارتباطها بالنسق العقلاني الذي كان الفلاسفة قد استمدوه من أبحاث أرسطو المنطقية. وبالطبع فإن قدرًا من اللائمة فى الحط من قدر الفلسفة يُلقَى على عاتق أرسطو؛ فلقد ورد عنه أن البلاغة - باعتبارها ملكة استكشاف وسائل الإقناع فى أي قضية ما - ليس لها موضوع (محدد أو واضح)؛ كما كان يعتقد أنها تعالج أمورًا تختلف بشأنها الآراء؛ بل لقد وضعها على نحو غريب فى نطاق المحتمل واللايقيني؛ كما أنه لا يُدخِل الحجج المنطقية فقط ضمن الوسائل الإقناعية ولكن يدخل معها أيضًا الاحتكام للعواطف البشرية.

وعلى تلك الخلفيات المشار إليها تحديدًا فقد بحث الفلاسفة شرعية (صحة) البلاغة باعتبارها فنًا وفرعًا معرفيًا، وأنزلوها أحيانًا إلى مرتبة دنيا باعتبارها غير مضطلعة بمادة (أو جوهر) وإنما بمجرد التعبير عن الفكر. وعلى أي حال فمثل هذه القضايا والمصطلحات التي نوقشت هنا ستستمر لتحَيِّر، وكذلك لتهدي أولئك الذين يسعون لإيضاح العلاقة بين الفلسفة والبلاغة، وهما اللذان اختلطا ببعضهما بعضا منذ البدء. نعم فهما يتصارعان أحيانًا، ويتعاونان أحيانًا، بيد أن هذين الفرعين المعرفيَّين سيستمران دائمًا، حسبما يبدو، ليحملان الكثير مما يقولانه لبعضهما بعضا.

المراجع (Bibliography)

Cherwitz, Richard A., ed. *Rhetoric and Philosophy*. Hillsdale, N.J., 1990.

(مجموعة ممتازة من المقالات التي تستكشف المضامين البلاغية لتوجهات فلسفية مختلفة).

Cicero. *De oratore*. Translated by E. W. Sutton and H. Rackham. 2 vols. Cambridge, Mass., 1959–1960.

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

Guthrie, W. K. C. *A History of Greek Philosophy*. 6 vols. Cambridge, U.K., 1962–1981.

Hamilton, Edith, and Huntington Cairns, eds. *The Collected Dialogues of Plato*. New York, 1961.

(انظر بصفة خاصة "جورجياس" و"فيدروس" للاطلاع على آراء أفلاطون بشأن العلاقة بين الفلسفة والبلاغة).

Havelock, Eric A. *Preface to Plato*. Cambridge, Mass., 1963.

McKeon, Richard ed., *The Basic Works of Aristotle*. New York, 1941.

(من الأعمال المهتمة بالفلسفة بصفة خاصة (في هذا المرجع) تلك التي بعنوان "*Metaphysics*" (الميتافيزيقا) و"*Prior Analytics*" (التحليل المنطقي القبلي)، و"*Posterior Analytics*" (التحليل المنطقي البعدي"). أما العملان "*Ethics*" (الأخلاق) و"*Rhetoric*" (البلاغة) فيشتملان على مضامين تتعلق بالعلاقة بين الفلسفة والبلاغة).

Saint Augustine. *On Christian Doctrine*. Translated by D. W. Robertson, Jr. New York, 1958.

Schiappa, Edward. *Protagoras and Logos*. Columbia, S.C., 1991.

Snell, Bruno. *The Discovery of the Mind in Greek Philosophy and Literature*. New York, 1982.

Vernant, Jean - Pierre. *The Origins of Greek Thought*. Ithaca, N.Y., 1982.

Vickers, Brian ed., *Rhetoric Revalued*. Binghamton, N.Y., 1982.

(تشتمل هذه المجموعة من المقالات، وعلى نحو مفيد، على العديد مما يتعامل مع العلاقة فيما بين البلاغة والفلسفة).

Weaver, Richard. *The Ethics of Rhetoric*. Chicago, 1965.

مؤلف المدخل: Christopher Lyle Johnstone

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

لباقة الحكمة والمعرفة Phronesis

إذا كانت البلاغة تجسد الترابط بين الفكر والكلام فإن المصطلح phronesis "لباقة الحكمة والمعرفة" - فى أوسع معانيه - يربط عناصر الحكمة والمعرفة والفضيلة والذوق واللياقة ببعضهم بعضا. فالحكمة تبحث عن الحق أو الحقيقة؛ والمعرفة تبحث عن المتفق عليه فى مجال من المجالات؛ والفضيلة تستكشف الصلاح الأخلاقي؛ والذوق أو اللباقة يركزان على ما يليق فى إطار زمني أو مكاني معين. وبينما هذه الأربعة عناصر تشكل جوهر المصطلح - phronesis - فقد كان التركيز بصفة عامة عبر العصور على مسألة "الحكمة العملية" (practical wisdom) مضافًا إليها واحدًا أو اثنين أو ثلاثًا من تلك الخصائص (أو العناصر) الأخرى. ولكن لما كانت البلاغة تسعى إلى الإقناع، فهي باستمرار تستخدم رموزًا واستعارات وحيلا بلاغية أخرى لإثارة العواطف؛ ذلك الأمر الذي جعل من الصعب إدراج المصطلح - phronesis - تحت فئة معينة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد فى الكتاب الثاني عشر من الأوديسا Odyssey، حيث قام أوديسيوس Odysseus بناءً على نصيحة سيرسي Circe، الساحرة، بتوثيق نفسه إلى صاري السفينة حتى يستطيع سماع أغنية جنيات (عرائس) البحر اللواتي يغنين (sirens)؛ وقد وضع بقيةُ الرجال الشمعَ فى آذانهم. وقد كانت سيرسي **تعلم** أن غناء عرائس البحر يدفع الرجال إلى القفز فى الماء حتى يلاقوا حتفهم. ولذا **فحكمتها** قد أمدت أوديسيوس بطريقة عملية حتى يتسنى له سماع الأغنية؛ ومن ثم أنقذت **سجاياها الأخلاقية** أرواح

أوديسيوس ورجاله؛ وكان فعلها هذا **مناسبًا** لإمكانياتها. وبينما يكشف هذا المثل القصصي العناصر الأربعة "للباقة الحكمة والمعرفة" phronesis فإن المشاعر المتناقضة إزاء مدينة إيثاكا Ithaca التابعة لأثينا، وفيما يتعلق بجيرانها اليونانيين، قد تكون قد أدت إلى تبعات متباينة (بحسب القصة).

لعل الفلاسفة اليونانيِّين فيما قبل القرن الرابع قبل الميلاد كانوا هم أول من تعاملوا مع المصطلح phronesis "لباقة الحكمة والمعرفة"؛ أو على الأقل فإن الفكرة نفسها يبدو أنها نشأت مع أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.)؛ فهو، على الرغم من ذلك، قد أعطاها شكلاً أكثر وضوحًا. وفي كتابه "الجمهورية" The Republic، يتفحص أفلاطون حياة ثلاثة أنواع متباينة من الرجال، يضعهم وفق ترتيب هرمي من الأول إلى الأخير على النحو التالي: الملوك الفلاسفة ثم الحرفيون المهرة ثم الجنود. فإن حياة كل منهم لها غرض مختلف؛ فهدف الملك الفيلسوف هو الحكمة. على أن مجرد الحكمة التأمُّلية التفكِرية ليست أمرًا كافيًا. فهدف الحكمة هو التوصل إلى ما أسماه أفلاطون "المثال" Ideal أو "الشكل الأمثل للخير" (Form of the Good)، والذي يرمز إليه استعاريًا أحيانا بـــ"الشمس". وفي سعيه لإيضاح عالم الكمال أو العالم المثالي مقابل عالم الظواهر يستخدم أفلاطون على نحو مكثف العديد من الحيل اللغوية المختلفة. وفي الواقع لأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يرى تلك الأشكال المثالية فإن التعبير عن جوهرها يمكن التوصل إليه فقط من خلال المقارنات والمقابلات باستخدام المحسنات البلاغية.

ويقول القديس أوغسطين (Augustine of Hippo) (٣٥٤ - ٤٣٠ م) إن أفلاطون ابتكر نظامًا للحكمة يتكون من جانب عملي فعال وجانب آخر تأملي؛ فالجانب العملي يتعلق بسيرورة الحياة، كضبط القواعد الخلقية، بينما الجانب التأملي يتفحص الأسباب وراء الطبيعة والحقيقة المجردة. ويذهب

أوغسطين إلى أن ما كتبه أفلاطون عن "سقراط" يعتبر مثالاً كاملاً للحكمة العملية (انظر كتاب "مدينة الإله" The City of God، الكتاب الثامن، ص ٤).

كذلك فإن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) يفرق بين الحكمة التأملية والعملية، ويسمي الأخيرة الحكمة السياسية. وبما أنه تلميذ سابق لأفلاطون - كما كان أفلاطون تلميذ سقراط - فقد آمن أرسطو كذلك بالجانبين المثالي والظاهري. ولكنه كان يعتقد أنهما يوجدان معًا في نفس العالم ولم ينفصلا، بل يوجدان كذلك في الماهيات نفسها. ولقد أثرت هذه النظرة بدورها على نظرته للحكمة العملية. فلقد رأى أن إدراك الذات هو هدف الحياة البشرية؛ وأن العقل البشري - باعتباره خليطًا من الحكمة والمعرفة - هو الوسيلة الرئيسية لتحقيق هذا الهدف. ولقد قاده العقل بأن يعتقد أن الحياة المتزنة هي تلك التي بين الإفراط والتفريط إزاء ما تشتهيه النفس. على أن أسلوبه الأدبي لم يكن بذات العمق الاستعاري المجازي الذي كان لأفلاطون؛ فلقد كان أكثر صلة بالجانب العملي في منهجه أكثر مما كان مُعلّمُهُ.

كذلك فقد وُظِّفَ مفهوم "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis وعلى نحو مكثف ضمن إطار لاهوتي يرى أن الحكمة والمعرفة عبارة عن منحة إلهية لأولئك الذين لديهم بصيرة، وهي منزوعة من أولئك الذين يفتقدونها. ولقد عبّر سوفوكليس Sophocles عن ذلك على لسان إحدى شخصياته - كوراجوس Choragos - عند حديثه عن كريون Creon الذي فقد ابنه وزوجته وابنة أخيه أنتيجون Antigone:

يمكن للبشر أن يكونوا سعداء فقط عندما يعلمون أن مكانهم الطبيعي هو أن يكونوا في ظل سلطة الآلهة؛ فلا خير في حكمة لا تعترف بذلك. فالمتكبرون والمختالون دائما ما يلقون حتفهم. والكبار يتعلمون أن الحكمة تأتي مع تقدم العمر. (أنتيجون ٤٤١ ق. م.)

وفي المقابل نجد أن سليمان ملك إسرائيل (القرن العاشر ق. م.) قد سأل الله حكمة الفهم لِحُكم الناس والفصل بينهم، كما سأله عقلاً قادرًا على التمييز بين الحسن والقبيح (سفر الملوك الأول؛ إصحاح ٣؛ آية ٩)؛ فالله لم يمنح سليمان المعرفة والحكمة لحكم الناس فقط ولكن أيضًا منحه - بسبب سؤاله الحكمة - طول العمر والثروات والممتلكات بل والشرف (سفر أخبار الأيام الثاني؛ الإصحاح الأول، آيات ٧ - ١٣).

ويؤكد "كتاب (سِفر) سليمان" الأبوكريفي[١] أن الحكمة هي منحة ربانية؛ وحقًا، فلقد كان إسهام سليمان الوحيد هو معرفة من ذا الذي يستحق المنحة. وتراه يختم أقواله بأن: "الحكمة دائما تكتنف أفعال الرب (إصحاح ٨، آية ٤)، وهي تعلِّم الإنسان التحكم فى ذاته، وتعلمه الحصافة والعدل والشجاعة (٧). ومن المدهش حقًا أن هذه الأربع هي نفسها ذات الخصائص الأربع التي ذكرها أفلاطون على أنها الفضائل الأربع الأساسية. ففي كتابه القوانين (Laws) - الجزء/الكتاب الأول - يناقش أفلاطون الحكمة واضعًا إياها على رأس الفضائل (بيد أن الحكمة هنا تشير إلى خصيصة من خصائص الملك الفيلسوف إذ فى كتابه "الجمهورية" The Republic يخبرنا أن الحكمة هي مجال سلطانه). على أن الفضيلة الثانية فى الترتيب هي التحكم فى النفس؛ ومن خلال تَوَحُّدِها مع الشجاعة يأتي العدل. والشجاعة تأتي فى المرتبة الرابعة فى ميزان الفضيلة. كذلك فمؤلفا كتابَيّ "المزامير" و"الأمثال" وهما الملك داوود وابنه الملك سليمان يعطيان للحكمة معنى ودلالة فى الكتاب المقدس: "مخافة الله رأس الحكمة" (سفر المزامير؛ إصحاح ١١١، آية ١٠؛ وسفر الأمثال، إصحاح ١، آية ٧)؛ وإلى ذلك يُضاف القول: "ومعرفة الواحد الأعظم مصدر البصيرة" (الأمثال، إصحاح ٩، آية ١٠).

---

(١) مصطلح لاهوتي يشير إلى الكتب المشكوك في صحتها أو غير المقطوع بثبوتها. (المترجم)

وفي العهد الجديد يسمِّي القديس بولس يسوع المسيح قوة (معرفة) الله، وكذلك حكمة الله (سفر الرسالة الأولى لأهل كورينثوس؛ إصحاح ١: ٢٤). وعلاوة على ذلك، وفي عصرنا الحديث، فإن البلاغي والباحث جيمس كينيفي James Kinneavy يقول، وعلى نحوٍ فعال، بأن جزءًا كبيرًا مما يسميه العهد الجديد إيمانا موجودٌ فى الفكرة البلاغية اليونانية القديمة، ألا وهى الإقناع (pistis)؛ وهو يرى أن لفظة pistis دلت فى اليونانية على كل من الإيمان والإقناع فى تلك المنطقة وفي ذلك الوقت الذي صاحب ظهور العهد الجديد إلى الوجود. وينتهى كينيفي إلى أنه توجد عناصر بلاغية مترسخة فى مفهوم الإيمان كما صوره العهد الجديد، وهى تفتح آفاقًا لنمط جديد من أنماط تمحيص طرق الإقناع داخل تلك الوثيقة[1].

وعليه فإن المصطلح phronesis "لباقة الحكمة والمعرفة" وفق معانيه اللاهوتية يتطلب جمعًا لكل الجوانب الأربعة. فالحكمة والمعرفة والفضيلة كلها تتعلق بالآلهة، والذوق أو اللياقة تتطلب من البشر اللجوء إلى السلطة الإلهية العليا لتلقي هذه الخصائص التي لا تمنحها إلا الآلهة. وقد لخص القديس توما الإكويني Thomas Aquinas هذه المبادئ فى القرن الثالث عشر؛ فلقد أكد على أن العقائد المقدسة تستمد مبادئها وتنتظم من خلال مصدر المعرفة الإلهي مباشرة (انظر "تلخيص اللاهوت" Summatheologica؛ الجزء الأول: ١: ٦). على أن السجايا الحسنة للإله فى المسيحية اليهودية - إن لم تكن الآلهة اليونانية القديمة فى عهد سوفوكليس كذلك - تكمن أصلاً فى سر وجودهم. ولذا فأساليب الإقناع تتشكل، فى جزء كبير منها، من فكرة اللجوء إلى السلطة الأعلى والتي، بحسب هويتها، لا تخضع لفحصٍ أو استجواب. بيد أن رد الفعل العاطفي على هذا اللجوء يتنوع بحسب النظام العقدي الفردي أو الجمعي للمستجيبين.

---

(١) يقصد العهد الجديد، وهكذا عبَّر المؤلف في الأصل.

ومنذ القرن الثالث عشر، ومفهوم "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis يتزايد استخدامه، ولكنه أصبح مثارًا للجدل حول تعريفه وماهيته أو خصائصه. على أن الجدال يتمحور وبشكل متزايد حول دور الإقناع. ولقد رأى المفكر العقلاني جورج كامبل George Campbell الحقيقة على أنها هدف أو غرض البلاغة؛ ولكنَّ الوسيلة إليها هو الإقناع الذي غرضه استثارة الهمة البشرية نحو الفعل المبنى على مبادئ (انظر "فلسفة البلاغة" The Philosophy of Rhetoric؛ ١٧٧٦). ولقد رأى كامبل كذلك أن الإقناع لا يتم دون استثارة العواطف؛ وكان أحد معاصريه وهو هيو بلير Hugh Blair يوافقه الرأى معتقدًا أن هدف الفصاحة من منظور بلاغي هو الإقناع نحو اتخاذ الفعل، وأنه لكي يتحقق الإقناع فيجب استثارة العاطفة، ولكن - هكذا يُفهَم - ليس لدرجة أن يفقد المرء إعمال عقله (انظر "محاضرات عن البلاغة والأدب المحض" Lectures on Rhetoric and Belles Lettres؛ ١٧٨٣) (انظر كذلك مدخل "استثارة العواطف" Pathos). أما فى القرن العشرين فلقد صرَّح كينيث بيرك Kenneth Burke بأن الإقناع يمكن أن يكون أعمى بلا تمييز كالإعلانات والدعاية، أو واعيًا حذرًا كما فى مراعاة الإتيكيت والأعراف، أو كحجة ما صِيغَت خصيصًا لأجل إدخال البهجة. أما إذا ما اقتربنا أكثر نحو العصر الحديث نجد أن جاك ديريدا Jacques Derrida يُذَكِّرنا بأن اللغة كلها مجازية لأنه لا توجد طريقة أخرى للتعبير عن الأفكار الأدبية إلا من خلال استخدام المحسنات البديعية المعتمدة غالبًا على الاستعارة والمجاز. وهو يعرف الاستعارة ليس على أنها المضاهاة بين شيئين وإنما على أنها المضاهاة بين اسمين لشيئين. كما أنه، وفق اتجاهه التفكيكي، ينتهى إلى أنه لا يمكن أن تكون هناك فلسفة أو، على نحو أوسع، بلاغة، أو "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis؛ لأن الاستعارة ببساطة ولشدة ضعفها وسيلة لا يتأتى لها إدراك الحقيقة.

لقد أكَّدَ المقال الذي بين أيدينا فى مستهله على أن المصطلح "phronesis" (لباقة الحكمة والمعرفة) يجمع ما بين عناصر الحكمة العملية والمعرفة والفضيلة والذوق واللياقة؛ ولكنَّ هذه العناصر تتأثر بالإقناع والاستعارة وردود الفعل العاطفية للمستمعين والقراء تجاه الاختيارات البلاغية للمتحدثين والكتاب. وإذا ما نظرنا على نحو تاريخي نجد أن دراسة "لباقة الحكمة والمعرفة " (phronesis) تكشف حقيقة أن أسلافنا قد أدركوا أنه رغم إمكانية استخدام البلاغة للتأثير على جماهيرهم من خلال إلهاب عواطفهم وتجريدهم من عقولهم، فإن ذلك هو وقت اندماج الحكمة والفضيلة معًا. بينما فى القرن العشرين أضحت إمكانية التأثير أكثر قوة، على نحو ما يشير بيرك Burke، لدرجة أن دراسة الإقناع قد تتدنى إلى الحد الذي تنفصل فيه البلاغة عن الحكمة والفضيلة تمامًا، وتعتمد أكثر على المعرفة دون أي مؤشر أخلاقي يهديها نحو الصواب. وفي الختام يقول ديريدا Derrida: "إن فن البلاغة المبني على مفهوم "لباقة الحكمة والمعرفة" phronesis فى طريقة نحو الاندثار". (انظر مداخل: "التحايل" Casuistry و"اللياقة/الذوق" Decorum و"الشخصية/المناقب" Ethos و"الفطنة/الحكمة" Prudence).

المراجع (Bibliography)

Bateson, Gregory. *Steps to an Ecology of the Mind*. New York, 1972.

(دراسة جذابة ترى أن العقلانية المجردة من الفن أو الدين وما شابه خطر على الحياة البشرية).

Burke, Kenneth. *The Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

Derrida, Jacques. *Margins of Philosophy*. Translated with additional notes by Alan Bass. Chicago, 1991.

(نظرة تفكيكية ممتازة عن البلاغة)

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

(أفضل كتب القرن عن الموضوع)

Kinneavy, James. *Greek Rhetorical Origins of Christian Faith: An Inquiry*. New York, 1987.

(نظرة ثورية عن الإقناع باعتباره إيمانا)

Tompkins, Jane P., ed. *Reader - Response Criticism*. Baltimore, 1980.

(نظرة ساحرة على نقد استجابة القارئ ابتداءً من "مذهب الشكلية" وحتى "بعد البنيوية").

مؤلف المدخل: Robert A. Gaines

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحشو/الإطناب Pleonasm

يشير المصطلح إلى بنية دلالية تتألف من عنصرين متشابهين ومتجاورين أو أكثر من العناصر الدلالية المكونة للمعاني بحيث يكون لها أثر إطنابي فى الكلام؛ فمن صوره مثلاً ما يعد خطأً أسلوبيًا مثل "قزمٌ صغير" أو "عملاقٌ ضخم/طويل" أو "صبيٌ صغير" مما يمثل حشوًا وزيادة فى المعنى. وباعتباره محسنًا بديعيًا، رغم ذلك، فهو يمكن أن يضفي بعدًا دلاليًا معينًا على قولٍ ما، كما فى قول هاملت Hamlet عن والده: "كان رجلاً، مثال الرجولة الكاملة، هيهات أن تقع عينى على مثيل له ثانية" (شكسبير، هاملت، الفصل الأول، المنظر الثاني)؛ فكلمة "رجل" (وفي الأصل الإنجليزي man) تجمع ما بين الإشارة الدلالية إلى كونه "إنسانا" و"رجلا (ذكرا) فى ذات الوقت" ويصاحبها فى نفس السياق الإشارة إلى "الرجولة" مرة أخرى، ولكن السياق يشير إلى مفهوم "الرجل المثالي" ها هنا. (انظر مدخل المحسنات البلاغية Figures of Speech)

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الشعر Poetry

لقد دَرَسَت البلاغةُ، منذ نشأتها الأولى وحتى اليوم، الشعرَ؛ وكان لها ولا يزال بالغ الأثر على قراءة الشعر وكتابته، بل على نظرية الشعر نفسها. وإن العلاقة بين بلاغة الآثار الكلاسيكية الغربية والشعر قد تغيرت كثيرًا عبر الألفيتين والنصف، أو ما يزيد، الفائتتين اللتين تفصلانا عن هوميروس. ولقد كانت الملامح الأساسية والمطّردة لهذا التغير تتمثل في جوانب: منها **جانب البلاغة**، وقدرتها على التكيف مع مختلف الأحوال والتطبيقات، وموقعها في مؤسسات التعليم العالي في معظم القرون ابتداءً من عام ٤٠٠ ق. م. وحتى عام ١٩٠٠م؛ ومنها **جانب الشعر**، واستخدامه لمبادئ البلاغة ومحسِّناتها، وسعيه - خصوصا في الفترة الرومانية - نحو استخلاص حريته وانفكاكه عن البلاغة. ولطالما كان الشعراء وجماهيرهم يتأثرون بالمدخل البلاغي لدراسة اللغة، تلك اللغة التي اضطر الشعراء إلى استخدامها وأرادوا أن يتجاوزوها.

مقابلات وارتباطات

أحد العناصر التي تساعد البلاغة والشعر على الاستفادة من بعضهما بعضا هو أنهما ينتميان إلى مستويين مختلفين إذا ما نظرت إليهما على أي مستوى من مستويات الواقع. فالشعر، مثله مثل الخطابة، هو فئة أساسية من فئات الأشياء التي يبدعها النشاط الإنساني، ونقصد في هذه الحال الصياغات الأدبية اللفظية التي تخضع لقوانين معينة متغيرة بتغير الزمان والمكان؛

فالبلاغة مثلها مثل علم (أو فن) الشعر تأتي فى مرتبة ثانية متمثلة فى الكتب التي تناقش صناعة تلك الصياغات الأدبية اللفظية (وبالطبع فهذا الفصل ليس عادلاً تمامًا نظرًا لأن تلك الكتب التي تأتي فى المرتبة الثانية هي ذاتها التي تصوغ القوانين التي يضعها مجتمع الشعراء). ولما كانت البلاغة وعلم الشعر - شأنهما شأن الخطابة والشعر ذاته - غالبًا ما يعْرَّفون عن طريق المقابلة (ببعضهم بعضا) ولذا لا يجتمعان، فإن البلاغة يمكن أن تقتبس أمثلة حية من الشعر، وكذلك الشعر يمكن أن يوظف الحيل المستقاة من البلاغة.

بيد أن البلاغة أقل فى طابعها العلمي مما تبدو عليه، وفي أكثر الأحيان تتألف من عدد ضخم من التصورات المحددة أكثر من كونها متتاليات لاستنباطات مبنية على حقائق أو بديهيات أساسية؛ (فالبلاغة لها مبادئها إلا أنها ليِّنة يمكن أن تتعارض مع بعضها بعضا). وهذا يعنى أن الشعراء يمكن أن يستفيدوا من أفكار معينة أو حيل بلاغية ما، دون إلزام أنفسهم على التقيد بأنظمتها البلاغية جملة واحدة. وفي الوقت نفسه تدين البلاغة بتصوراتها الفردية بل مبادئها الأعَم لملاحظة الاستخدامات اللغوية، تلك الاستخدامات التي تعد الاستشهادات الشعرية فيها ذات أهمية قصوى. فكثير من الحيل البلاغية مثلاً مبنية على التكرار - كما فى الأصوات والكلمات والتراكيب فى مواضع مختلفة داخل الجملة - والذي هو إحدى الخصائص الرئيسية للشعر. والعكس بالعكس، فإن كلاً من القوافي والأوزان - التي هي من السمات الجوهرية لكثير من أشكال الشعر - تندرج تحت المحسنات التي تضطلع بها البلاغة.

إن الشعر يخضع لكثير من الضوابط أكثر مما تفعل البلاغة، ولكنه أقل نظامية less systematic؛ وهناك مثلاً الكثير من المتناثرات الشعرية الناجحة. على أن البلاغة مقيدة وفق هدفها المباشر (وهو تدريب المرء على إقناع

جمهور ما للتوصل إلى فعل أو قرار معين)؛ بينما أهداف القصائد تتنوع كثيرًا (ولا يعنى ذلك أن الإقناع ليس من بينها) وغالبا ما تكون متعالية رفيعة. فبينما البلاغة أكثر اعتيادية من الشعر فيما يتعلق بمواضيعها وحججها التي تقدمها - ومعظمها يتعلق بتحريك وإقناع الجمهور - تجد أن الشعر يمكن أن يضطلع بمواضيع أكثر تفردًا وأصعب ولوجًا إليها. ومن الناحية الشكلية فالبلاغة تستهدف إنتاج الخطب، والتي كان أفخمها ذلك الشكل النثري الذي ميز العالم القديم؛ ولكن من الناحية العملية فإن ما تتوصل إليه البلاغة من ملاحظات ينتقل سريعًا إلى الأشكال الأخرى من النثر والشعر.

إن البلاغة تعرض نفسها بقوة أمام الشاعر لأنها - بالمقارنة مع النحو والمنطق الذي يتعين على الشاعر كذلك أن يتمكن منهما - تضطلع بنظرة أكثر شمولية وتعمقًا لطبيعة اللغة. فالبلاغة تتفهم أن اللغة تشتمل على - من بين أشياء أخرى - عرضٍ لذات المتحدث وتفهمٍ للجمهور وأنماط الصوت والمتعة والعاطفة إضافة إلى النحو بل والحجة. فالشعراء فى حاجة إلى البلاغة نظرًا لقدرتها على وصف وسائل وأنماط وآثار اللغة مما يوضح ويفسر الأدوات والوسائل التي تخدم بضاعتهم (ذلك أن البلاغة تقدم أحد أكثر التحليلات عناية بوسيلة تعبيرية موجودة فيما يُعتَقَد: انظر كتاب "الفن والإيهام" Art and Illusion لجومبريتش E. H. Gombrich؛ ١٩٦٠، ص ٣٧٤). كذلك فالبلاغة فى حاجة إلى أمثلة الشعر لأن الشعر هو أكثر أشكال اللغة قوة وعاطفة وتكثيفا مما يجعل شواهده أساسًا لمبادئ أو قواعد البلاغة. ولذا تجد كينتليان Quintilian (٣٥ - ١٠٠ م) يستشهد بأمثلة كثيرة لفيرجيل Virgil أكثر من غيره من الكتاب (بغض النظر عن شيشرون).

ولقد كانت البلاغة فى العالم القديم وثيقة الصلة بالشعر خلال النظام التعليمي. فلقد علَّمَت المدارس الابتدائية فى الحقبة الهللنيستية الموسيقى

والرياضة (البدنية) والقواعد النحوية التي استهدفت دراسة أعمال هوميروس. ولقد كان التلاميذ يتابعون دراستهم حيث المتقدمون من بينهم يواصلون لتحصيل علم البلاغة؛ ويفهم من هذا بالطبع أن الخطب الموجودة فى شعر الملاحم كانت تمثل مادة جيدة لمقررات البلاغة كشواهد على استخدام الحجة والجدل والأسلوب والمحسنات البلاغية.

الشعر وتوسله بالبلاغة

على الرغم من أن هوميروس مارس الكتابة قبل أن تستقر البلاغة من الناحية الشكلية، وعلى الرغم من أن المحسنات البلاغية والأساليب المجازية المقتبسة من هوميروس سادت مقررات البلاغية اليونانية، فإن معظم الشعراء المتأخرين تلقوا تدريبهم الدراسي المتقدم للغة من دراسة البلاغة أساسًا، ولذلك وجدوا أنه من الطبيعي أن يكتبوا وفق مبادئ البلاغة التي تعلموها.

ويبدو واضحًا، على سبيل المثال، أن التحليل الدقيق لأثر محسنات بلاغية معينة - والتي نجدها فى العديد من مراجع البلاغة (التعليمية) أو فى الشروح البلاغية للنصوص الشعرية - كان مفيدًا للشعراء عند ممارسة صنعتهم. بل إن أضعف الإيمان القول بأن الإلمام بأسماء المحسنات يجعل الكتاب أكثر وعيًا إزاء الطرق التي يستخدمونها فى صياغة أنماط اللغة ووسائلها. ولهذا السبب تجد أن شروح المحسنات غالبًا ما تُجمَع فى كتيبات (أو مراجع) بهدف استخدامها فى كتابة الشعر.

البلاغة كذلك تحث على تحليل الخطب والقصائد؛ ونظرًا لأن القصائد لا تلتزم غالبًا بذلك الشكل البنائي الرباعي للخطب الكلاسيكية فإن البلاغيين والشرَّاح مضطرون إلى تحليل طريقة عمل بعض الأنماط والأبنية اللغوية المختلفة التي تتميز بها قصائد معينة، على نحو ما فعل دانتي Dante فى

مؤلَّفه الشعري Vita Nuova "حياة جديدة" (١٢٩٢ م) معلقًا على مقاطع عدد من قصائده التي كتبها فى شبابه، أو كما فعل رودلفوس أجريكولا Rudolphus Agricola فى مؤلفه "ابتداع الدياليكتيك/الجدل" De inventione dialectica (١٤٧٩) محللاً الأشكال المختلفة لفرجيل Virgil فى عمله "الإنيادة" Aeneid ولأوفيد Ovid فى قصيدته الطويلة "التحول" Metamorphoses وللوكريتيوس Lucretius فى عمله "عن طبيعة الأشياء" De rerum natura.

ولما كانت البلاغة مهتمة بالأثر الذي يمكن أن يقع على جمهور ما (لشكل تعبيري معين)، فهي تحث على دراسة أنواع الشعر، تلك الأنواع التي تربط ما بين نوع معين من المواضيع أو المناسبات والأنماط اللازمة من الأبنية والأسلوب والأوزان التي تتفق وذلك. وهناك شروح بلاغية تحولت إلى كتيبات (أو مراجع) مختصة بكتابة الرسائل والشعر وغالبًا ما تكونت من سلسلة من الوصفات الخاصة بإخراج أنواع معينة (ربما بالإضافة إلى شروح الأوزان الشعرية والمحسنات البلاغية). على أن وعى الجمهور - وهو أحد عناصر تعريف البلاغة - يحث الشعراء أيضًا على أن يمعنوا النظر فى قضايا "صوت المتحدث" (أو القناع) والخطاب سواء اختص ذلك بالشعر الدرامي أو المونولوج الدرامي.

ولعل الافتتاحية الشعرية أدناه لفيليب سيدني Sir Philip Sidney فى متتاليته الشعرية "أستروفيل وستيلا" Astrophil and Stella تستكشف قضية كتابة الشعر الصادق والمؤثر متوسلاً بالمحسنات والألفاظ المشتقة من البلاغة:

Loving in truth, and faine in verse my love to show,

That the deare She might take some pleasure of my paine:

Pleasure might cause her reade, reading might make her know,

Knowledge might pitie winne, and pitie grace obtaine,

I sought fit words to paint the blackest face of woe,

Studying inventions fine, her wits to entertaine:

Oft turning others' leaves, to see if thence would flow

Some fresh and fruitfull showers upon my sunne - burn'd braine.

But words came halting forth, wanting Invention's stay,

Invention, Nature's child, fled step - dame Studie's blowes

And others' feete still seem'd but strangers in my way.

Thus great with child to speake, and helplesse in my throwes,

Biting my trewand pen, beating my selfe for spite,

"Foole", said my Muse to me, "looke in thy heart and write."

لما أحببت بصدق، بكل سرور فى شعري، أظهرت حبي

تلك هي عزيزتي، تَسعَد بعذابي، عذاب قلبي

لعل سعادتها تسوقها لتقرأ، قراءة تجعلها تعرف

معرفةً تجعلها تعطف، بل تشفق عليّ ولا تتأسف

ها أنا أبحث عن كلمات أرسم بها وجه الويل الأسود

أتعلم ابتداع الكلمات، كلمات تليق بفطنتها فتسعد

أقلب أوراق الغير عسى أُلهَم فكرة ترطب عقلي المحترق

لكن الكلمات تتأبي عليّ، كيف أبتدعها فلا نفترق

الابتداع، وليد الطبيعة! يتحاشى المجيء، بينما دراستي بي تعصف

وأرى أقدامًا لم تزل، أقدام غرباء فى طريقي

لذا ما أعظم أن أتكلم مع الوليد، ولكنني عاجز فى سكراتي

عاض على قلمي اللعوب، ضارب نفسي الحقود

يا لك من أحمق! تقول ربة الشعر لي، انظر إلى قلبك واكتب

وكما يتضح أعلاه يعرض سيدني لموضوع قصيدته فى البيت الأول؛ ومنه إلى البيت الرابع يتصاعد الموضوع إلى ذروته، والذي يعد بذاته محسنا بلاغيا climax (وفي اللاتينية gradatio)، ومن أمثلة ذلك ما ذُكِرَ فى كتاب "البلاغة الأركادية" Arcadian Rhetorike لمؤلفه إبراهام فراونس (١٥٨٨: جزء/مقطع ٨).

وبينما يصف سيدني صراعه لإيجاد مادته (الشعرية) المناسبة يقوم بتوظيف المصطلحات البلاغية ذاتها؛ فعندما يكتب أستروفيل Astrophil أنه كان يحاول "تعلم ابتداع الكلمات، كلمات تليق بفطنتها فتسعد" (البيت السادس) يُفهَم أن القراء سيتوقعون عددًا متسعًا من المعاني لكلمة "ابتداع" (أو ابتكار). على أن الكلمة من الناحية البلاغية تشير إلى ذلك الجانب البلاغي الذي يرشد الخطيب إلى كيفية إيجاد موضوع مناسب يساعد على إقناع الجمهور (انظر مدخل "الابتكار البلاغي" Invention). ولكن سيدني يشير هنا إلى "ابتداع" الآخرين (فإما أن تكون الإشارة إلى قصائد الغير أو إلى أنظمتهم البلاغية فى بناء الأعمال الفنية). أما فى السطر التاسع، "لكن الكلمات تتأبي عليّ، كيف أبتدعها فلا نفترق"، فالابتداع (أو الابتكار) هنا هو المحرك والدافع الذي يتشكل الأسلوب وفق مقتضاه. أما البيت العاشر "الابتداع! وليد الطبيعة..."؛ فالابتداع هنا بمثابة "مصدر الإلهام الشعري" الذي لا يُدرَك بالشدة والجهد. وفي عمل آخر لسيدني، "الاعتذار للشعر" Apology for Poetry (١٥٧٩ م.) يوضح أن التصور المسبق (أو التخيل) fore - conceit هو العنصر الأهم فى صناعة العمل الأدبي؛ وهو بذلك يعزز رؤية عصر النهضة Renaissance فى أن "الابتكار البلاغي" هو الجانب الأهم فى عملية التأليف الإبداعي.

وأخيرًا يعمد سيدني لأن تكون هذه السونته (مجموعة شعرية من ١٤ بيت) مقدمة متأنقة لقصيدته، وهى وإن كانت تقليدية الشكل فهي غير تقليدية

الاتجاه؛ فهي إعادة صياغة للإدراك البلاغي التقليدي إزاء الحاجة لتجنب المظهر الفني (المصطنع)؛ فالقصيدة تقدم للمهارات البلاغية فى بيتها الأخير والذي يتظاهر فى الوقت نفسه بأنه يتحاشاها (طلبًا للصدق). فسيدني يستعرض هنا تعليمه البلاغي والقدرة الشعرية للبلاغة فى آن واحد.

إن الشعراء غالبًا ما يوظفون المحسنات البلاغية على نحو واضح عند كتابتهم لقصائد تختص بالقضايا العامة حيث يكون كل من الإقناع والجذب العاطفي للجمهور فى مقدمة الأولويات. فلقد كتب أوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith "القرية المهجورة" The Deserted Village (١٧٧٠) لإدانة نظام تخصيص الأراضي والذي من خلاله حُرم الفلاحون من حقوقهم التقليدية فى المراعي بل من أكواخهم التي يقيمون فيها وذلك لحساب الإقطاعيين الطامعين فى مساحات أوسع من الأراضي (انظر الأبيات أدناه).

But times are altered; trade's unfeeling train

Usurp the land and dispossess the swain;

Along the lawn, where scattered hamlets rose,

Unwieldy wealth and cumbrous pomp repose;

And every want to opulence allied,

And every pang that folly pays to pride.

Those gentle hours that plenty bade to bloom,

Those calm desires that asked but little room,

Those healthful sports that graced the peaceful scene,

Lived in each look, and brightened all the green;

These far departing seek a kinder shore,

And rural mirth and manners are no more.

لكن الأيام تحولت، بدّلها القطار

اغتصب الأرض من راعيها، بل نزع الديار

بدّل المرج إذ قبعت للفلاحين أكواخ

وهناك ثروات ثقيلة تسمع لمن يحملها الصراخ

ويا عجبًا رغبوا فى زيادتها، أرادوا الجاه والمجدَ

فلتدفعوا يا أغبياء وزيدوا الجمع والكدَّ

تلك ساعاتٌ رقيقة، على الأغصان تتفتح

تلك رغبات رفيقة، تمنت لو كوخًا على الأسطح

هذا زرعنا قد شق هدوء الأرض والمشهد

في أعيُنى ترى إشراقة، فلتحيا الروح ولتسعد

آه ذكرياتي تبتعد، تبغي لنفسها شطآن

وداعًا فرح قريتنا وداعًا أهلي والأوطان

ويلاحظ فى الأبيات (من ٦٣ إلى ٧٤) أن جولد سميث يستخدم محسنات بديعية مثل الجناس الابتدائي (للكلمات) (anaphora) و"الترصيع" (isocolon) والعبارة المتعدية/الجامعة (Zeugma) ليصنع نوعًا من الموازاة بين العبارات مما يمكنه من الإغراق فى المعنى والمقابلة بين الرفاهية المفرطة للأغنياء (في النصف الأول من الاقتباس الشعري أعلاه) وفضائل البسطاء أصحاب الأرض (في النصف الثاني من الاقتباس). وهذه المقابلة المتوازنة فى العبارات تزيد المعنى وضوحًا وجلاءً فيما يخص أثر الكلام على المتلقي واستهجان فعل الأغنياء (كما فى كلمات "نزع الديار" وغيرها).

كما أنه يوظف كلاً من التشخيص - "ساعات رقيقة" - والإغراق فى المعنى لإيضاحه وتثبيته.

ومن الشعراء الذين استخدموا محسنات التوازي الصوتي وحسن التقسيم والمقابلة (balance and parallelism) على نحو مكثف الشاعر ويليام باتلرييتس W.B.Yeats كما فى مرثيته الجنائزية العامة عن روبرت جريجوري Robert Gregory بعنوان "طيار أيرلندي يتنبأ بمصرعه" (انظر الاقتباس أدناه).

Nor law, nor duty bade me fight,

Nor public men, nor cheering crowds,

A lonely impulse of delight

Drove to this tumult in the clouds;

I balanced all, brought all to mind,

The years to come seemed waste of breath,

A waste of breath the years behind

In balance with this life, this death.

فلا قانون ولا واجب بالقتال ألزمني

ولا أهل الرأى أو جماهير تغني

فقط دفعتني بهجةٌ، بهجة قلبي

تقودني نحو غيومٍ للعقل تسبي

فالأمر سيان لدي، وبخاطري تجول الذكريات

وستأتي سنون قادمة، بلا طائل أو بالممات

وسترحل سنون ماضية، بلا طائل أو ترحل الحياة

في تلك الأبيات (من ٩ - ١٦) يعمد الشاعر ييتس لأن تتصاعد قصيدته نحو الذروة متوسلاً بمحسنات بديعية مثل "الإلماع الاعتراضي" (Praeteritio) إضافة إلى استخدامه جناس الصدارة الكلِمي (anaphora) والعبارة المتعدية/الجامعة (Zeugma) فى البيتين التاسع والعاشر. أما البيتان الرابع والخامس عشر فيقدمان صورة لما يُعرف بالمقابلة العكسية chiasmus. على أن تأكيده على استخدام التوازي الصوتي يسهم فى تجلية المعنى بالتقابل ويساعد على فهم فكرة العدمية واختيار تلك الموتة العنيفة (الأمر الذي يبدو جماليًا أحيانًا). ولا ننسى أن أثر القوافي المتبادلة يذكرنا - من وجهة نظر البلاغة - بأنها محسن بلاغي فعال.

وإضافة إلى الأثر الفعال لصوت المتحدث بالقصيدة من خلال استخدام محسنات التوازي الصوتي وحسن التقسيم (balance and parallelism) فإن هذين المحسنين يمكِّنا الشاعر من تكثيف العاطفة، على نحو ما ورد مثلاً عند آلان جينسبيرج Allen Ginsberg فى قصيدته "Howl" (عواء/صرخة) (١٩٥٦)، والتي تعتمد فى بنية أجزائها الثلاثة على محسن جناس الصدارة (anaphora)؛ وكذلك على نحو ما ورد عند شكسبير فى مشهد القلعة من مسرحية "ريتشاد الثاني" (١٥٩٥) (كما يتضح أدناه).

What must the king do now? Must he submit?

The king shall do it. Must he be depos'd?

The king shall be contented. Must he lose

The name of king? a God's name, let it go,

I'll give my jewels for a set of beads;

My gorgeous palace for an hermitage;

My gay apparel for an almsman's gown;

My figur'd goblets for a dish of wood;

My sceptre for a palmer's walking staff;

My subjects for a pair of carved saints,

And my large kingdom for a little grave,

A little little grave, an obscure grave,

Or I'll be buried in the king's highway,

Some way of common trade, where subjects' feet

May hourly trample on their sovereign's head.

ماذا على الملك أن يفعل الآن؟ هل يخضع؟[١]

سيفعل الملك ذلك! ألابد من خلعه؟

سيرضى الملك بذلك! هل سيفقد اسم الملك؟

فليذهب عني اسم الله،

سأحمل مسبحة بدلاً من الجواهر

وأستعيض بالدير عن قصري الفاخر

وبثوب شحاذ عن ملابسي

وبصحفة خشبية عن الكئوس المزينة بالتصاوير

وبعصا الحجاج عن صولجاني

وببعض أيقونات القديسين عن الرعايا

---

(١) عند ترجمة هذا المشهد لجأت إلى ترجمة الدكتور محمد عناني (المترجم).

وبقبر صغير عن مملكتي الشاسعة

بقبر صغير صغير، بقبر لا تلحظه العين،

أو أدفن فى الطريق العام، فى طريق تغشاه السابلة

حيث تطأ أقدام الرعايا رأس ملكهم فى كل ساعة!

(الفصل الثالث: المشهد الثالث)

يُفتَتح حديث ريتشارد (أعلاه) بمحسن بديعي هو "السؤال والجواب من نفس الشخص" (subiectio/hypophora)، ثم يتجه نحو سلسلة ممتدة من الترصيع مبنية على جناس الصدارة (anaphora) وعلى الطباق (أو التقابل) antithesis (كما فى قوله: "وأستعيض بالدير عن قصري الفاخر"). ثم يصل الحديث إلى ذروته متوسلاً بعدة محسنات مثل الجناس التكراري دون فصل epizeuxis كما فى قوله: "صغير صغير"؛ وكذلك الجناس الناقص (traductio)، وكذلك الوصف المشهدي (topographia)، هذا إضافة إلى الصور البلاغية كما فى وصفه "لأقدام العوام التي تطأ رأس الملك فى قبره"، وهى صورة بلاغية تعبر عن إحساسه بالعجز. فتلك الأوصاف الشكلية التعبيرية المطولة إضافة إلى الأنماط المستخدمة فى الحوار تجعل الكلام أكثر عاطفية، وخصوصًا حين يؤدي المشهد ممثل محترف.

كذلك نرى حسن اختيار الصيغ التعبيرية والاستعارية والتي تمتزج ببعضها بعضا على نحو فائق كما فى إحدى السونيتات (مقطوعة شعرية مكنونة من ١٤ بيت) الأكثر قراءة لشكسبير (والتي نشرت للمرة الأولى عام ١٩٠٩؛ رقم ٧٣).

That time of year thou mayst in me behold,
When yellow leaves, or none, or few, do hand
Upon those boughs which shake against the cold,
Bare ruined choirs, where late the sweet birds sang.
In me thou seest the twilight of such day,
As after sunset fadeth in the west,
Which by and by black night doth take away,
Death's second self, that seals up all in rest.
In me thou seest the glowing of such fire,
That on the ashes of his youth doth lie,
As the death - bed whereon it must expire,
Consumed by that which it was nourished by.
This thou perceiv'st, which makes thy love more strong,
To love that well which thou must leave ere long.

لعلك ترى فى ناظري تلك الفترة من العام

حين يكون الورق الأصفر، أو لا شيء، أو القليل على الأغصان

تلك الأغصان التي ترتعد من البرد

موسيقاي تحطمت، هي عارية، غنت طيوري فى ساعة متأخرة

ترى ذلك اليوم فى عيني، ترى الشفق

تراه يذبل كما الشمس عند الغروب لا تحترق

وشيئا فشيئا يخبيها الظلام

هناك الموت بوجه آخر، يطوي الجميع فى سلام

بل فى كياني ترى وهج تلك النار

تراها على رماد شبابها، تراها ساعة الاحتضار

وعلى سرير الموت تراها تقضي نحبها

وبالذي اقتاتت عليه، تراها فى اندثار

لعلك تعى ذلك الذي يجعلني أحبك كثيرا

فلا تنصرف عن حبه، هو راحل قبل النهار

وهنا نرى شكسبير يتوسل بحيل لغوية بلاغية هي جناس الصدارة الكَلِمِي anaphora عبر أبيات القصيدة (كما فى البيت الأول والخامس والتاسع والثالث عشر). والقصيدة تقدم ثلاث صور واصفة لعمر الشاعر ثم تتبعها نتيجة أو ختام يفهمه المحبوب باعتباره السامع أو المشاهد (لحال الشاعر). وكل من تلك الصور تعد فى ذاتها "وصفًا لزمن أو فترة معينة" (chronographia)؛ إلا أن طول ذلك الزمن أو تلك الفترة يتناقص على نحو متعاقب. ففي الأربعة أبيات الأُول نرى مقارنة بين عمر المتحدث وبين وقت الخريف، بين اصفرار الأوراق وبين سقوطها؛ وهو ما انعكس فى استعارة حطام الآلات الموسيقية وتشخيص الأغصان التي ترتعد من البرد. وفي الرباعية الشعرية التالية نجد الشفق يفسح المجال للظلام الذي يبدو كما لو كان شريكا للموت، وذلك عبر صورة شعرية تدعو للمقابلة بين الموت والنوم أو الرقود فى سلام (antanaclasis). وأخيرا نلحظ صورة وصفية لرماد النار وكأنها تموت عبر استعارة متبادلة لحالها فى الكبر وحالها فى الشباب. فلكون النار تنقضي خامدةً على رمادها نستشف عبر المقابلة أن حياة الشخص المحتضر تنقضي على إثر ذكريات الشباب التي طالما غذت حياته سابقًا. ومن خلال النظر النسبي إلى الوقت باعتباره شرائح زمنية تسحب القصيدة القارئ

نحو تأمل ذهني إزاء العلاقة بين العمر والشباب والذكريات. ومن خلال خاتمة متفائلة واثقة يبدو الشاب المخاطَب متفاعلاً مع تلك النظرة بمزيد من الحب الذي نتج خلال معرفته باقتراب ذلك الافتراق المحتوم. فالمحسنات البلاغية لا شك تساعد الشاعر على تعيين البناء العام لقصيدته بل الاحتفاظ بسلسلة مترابطة من الأفكار. وأكثر من كونها صورًا تعمل على تضخيم العاطفة فإن المحسنات البلاغية تدفع بالخط الفكري المترابط عبر القصيدة؛ على أن ذلك الفكر المترابط فى القصيدة يجسد درجة من درجات التقابل المقصود الذي يتخطى حدود الصور البلاغية فى مراجع البلاغة الاعتيادية. ولما كانت البلاغة، بناء على ذلك، نقطة انطلاق للشاعر نجد أن الشعر له سبيله فى تفجير طاقات البلاغة وفق منظومة تتخطى حدود المصطلحات البلاغية.

ويتضح من خلال النماذج الشعرية التي قمنا بتحليلها أعلاه المدى المتسع لاستخدام المحسنات البلاغية التي يستخدمها الشعراء وبطرق مختلفة. على أن هذا يجب ألا يخفي حقيقة أن المحسنات البلاغية متغيرة ومتباينة من ناحية منشأها، وأن الشعراء قد يتعاملون معها باعتبارها أنماطًا أو صياغات لفظية بينما آخرون (كالاستعارة عند شيلي Shelley، والتشبيه والمحاكاة عند بودلير Baudelaire) يتعاملون معها على أنها صياغات تنطوى على حقائق أساسية حول اللغة بل الوجود. ومن شواهد ذلك آخِر أعظم وأطول قصائد القرن العشرين لجيوفري هيل Geoffrey Hill بعنوان "انتصار الحب" The Triumph of Love (١٩٩٨)، والتي تبدَّت فيها معانٍ ومحسنات متنوعة مثل "التعزية أو المواساة الحزينة والغاضبة" المختلطة بالمديح والهجاء معًا؛ وهذا إضافة إلى استخدام محسن "جناس البدء والختام" epanalepsis و"الاعتراض" parenthesis، و"التورية الساخرة/المفارقة" irony و"الإسهاب/الإفاضة" copia؛ وكلها محسنات بلاغية حَسُنَ استغلالها والتوسل بها، بل يظهر الولوع بمصطلحاتها.

لطالما كانت المحسنات البلاغية أهم الجوانب التي تتجلى فيها البلاغة فى أي نص بل هى – وخصوصا المحسنات الاستعارية – أهم جوانب بلاغة الشعر، وإن كان هذا لا يقلل بطبيعة الحال من فوائد الجوانب البلاغية الأخرى. ومعلومٌ أن كتّاب الشعر الغنائي، على سبيل المثال، يولون أهمية قصوى لتصوير المتحدث داخل القصيدة. كذلك فكتب البلاغة (كما فى كتاب البلاغة لأرسطو) تولي اهتماما لمسألة الطرق المستخدمة لتقديم وعرض الشخصية المحببة (انظر مدخل "الشخصية/المناقب" Ethos)؛ بل كانت المراجع التعليمية اليونانية الخاصة بالتدريبات البلاغية (progymnasmata) تشتمل على وصف الشخصية وإنشاء الخطاب الذي يناسب شخصية تاريخية أو أسطورية. ولقد كان عمل أوفيد "البطلات" Heroides (عام ١ ق. م.) من الأشكال الناضجة لذلك التدريب التعليمي. وعلى نحو مماثل فقد كانت قصيدة "من إلويزا إلى أبيلارد" Eloisa to Abelard (١٧١٧) تدريبًا تعليميًا جيدًا لمحسن "القناع (الصوت) الوهمي" prosopopeia فيما يخص تمثيل أو محاكاة الشاعر أوفيد Ovid. وبمثل ذلك – رغم أنه قد يُعدُّ إسهابًا فى موضوعنا – يمكن وصف المونولوجات الدرامية للشاعر الإنجليزي روبرت براونينج Robert Browning (١٨٥٥ – ١٨٦٣) (انظر مدخل "القناع" Persona).

لقد كان للشعراء الكثير من الأفكار إزاء الابتكار أو الإبداع البلاغي *inventio* وكذلك حسن الصياغة *dispositio* اللذين اشتُقا من البلاغة الكلاسيكية، ولكن بما أن تلك الجوانب لا تتكشف بسهولة على السطح فإن تعقبها أصعب من تعقب المحسنات البديعية الأخرى (انظر مدخل النظم والترتيب Arrangement، مقالا بعنوان "النظم والترتيب التقليدي" Traditional Arrangement). كذلك أوضح أو بي هارديسون O. B. Hardison – فى دراسته الشيقة "النصب التذكاري/الأثر الباقي" The Enduring Monument (١٩٦٢) – أن جوانب البلاغة التوضيحية epideictic genre قد أثرت على فهم عصر النهضة للملحمة الكلاسيكية بل

للشكل الملحمي لقصائد عصر النهضة، كما يتضح ذلك فى الكتابين الأولَين من رائعة سبنسر Spenser "ملكة الجن" Faerie Queene (ص ٣٣ - ٣٤، ص ٧١ - ٨٤) (انظر مدخل "جنس الخطابة التوضيحية Epideictic genre). ويرى سبنسر أن المقطوعة ثلاثية الأجزاء three - part Epigraph (المديح والرثاء والتعزية) تعتمد فى مضمونها على المديح والمحسنات المعبرة عن الانفعال والصياغات المعبرة عن التعزية والسلوان (ص ١١٣ - ١٢٢). على أنه يوضح أن هذا الشكل وتلك المواضيع تشكل أساسَ تلك المقطوعات التي أصدرها كل من جونسون ورونسارد Johnson and Ronsard، بل بناء أجزاء من قصيدة جون دَن John Donne بعنوان "Anniversaries" (الذكريات السنوية) (ص ١٢٤ - ١٣١ - ١٤٢ - ١٤٥ - ١٧٦ - ١٨٦). ولقد اكتشف أرون فارجا Aron Kibedi Varga (١٠٧٠ م) حججًا وأبنية مستمدة من الأنواع الكلاسيكية الثلاثة للخطابة فى القصائد الغنائية الفرنسية الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر، بل فى الخطب الموجودة ضمن الأعمال الفرنسية التراجيدية الكلاسيكية.

بيد أن التدريب البلاغي فى العديد من برامج التعليم أصبح مرتبطًا بفكرة تقليد نصوص المشاهير من المؤلفين. وعلى الرغم من أن التدريب على مسألة التقليد - كما فى تقليد رسائل شيشرون - خطوة سابقة على التدريب على البلاغة يتبين أن البلاغة، ويعقبها الديالكتيك (الجدل)، يمثلان الهيكل الرئيسي لعملية التقليد. ولقد كان دارسو علم النحو الإنجليزي فى عصر النهضة يتدربون على فهم العمل الأصلي من ناحية الموضوع والشكل والأسلوب قبل أن يعمدوا إلى تقليد هذه الأنماط فى تدريبهم ومن ثم تطبيقها على موضوع آخر. وعلى الرغم من أنه كان من المفترض فى معظم هذه المدارس التعليمية أن يقتصر التدريب على النثر فقد وجد الشعر طريقه إليها كذلك. ولقد كانت أشهر الأمثلة على محاكاة وتقليد الشعر هو تقليد فيرجيل Virgil لشعر هوميروس Homer فى "الإنيادة" Aeneid (٣٠ - ١٩ ق. م.).

ولقد كانت المدارس فى عصر النهضة تقوم بتدريس "الإنيادة" مشيرة إلى الموازاة بينها وبين شعر هوميروس رغم أن موضوع الدراسة لا ينصب على تعلم اللغة اليونانية. ولقد كانت شروح راموس Ramus (باريس، ١٥٥٥) لقصائد فرجيل الرعوية "Virgil's Eclogues" (٤٢ – ٣٧) – وهى الأكثر تدريسًا بين القصائد اليونانية – تُدَرَّس مع اقتباسات شعرية من النص الأصلي لفرجيل والتي قدم لها ثيوكريتوس Theocritus (٣١٠ – ٢٥٠ ق. م.) ومدرسته الفكرية. وسرعان ما امتد ذلك إلى قصائد وشعراء آخرين. ولذلك لما كان معظم الإنتاج الشعري فى القرن السادس عشر إلى الثامن عشر يأخذ شكل محاكاة أو تقليد الأعمال الكلاسيكية الأصلية – مثل "القصائد الرعوية" Eclogues لفرجيل والتي قلدها سبنسر Spinser فى قصيدته "تقويم الراعي" Shepherd's Calendar (١٥٧٩)، وقصائد أوفيد التي قلدها مارلو Marlowe، وقصيدة مارفيل Marvell " الغنائية عن هوراس Horace الشاعر الروماني "Oration Ode"، وكذلك تقليد بوب Pope لهوراس، وتقليد جونسون Johnson لجوفينال Juvenal – فيتعين علينا ألا نهمل مكانة البلاغة فى عملية التقليد الفني (انظر مدخل "التقليد/المحاكاة" Imitation).

ولقد شكل محسن "الإسهاب/الإفاضة" Amplification – وهو يعد موضوعًا رئيسيًا من مواضيع البلاغة الكلاسيكية – جزءًا كبيرًا من الرسائل البلاغية فى العصور الوسطى الخاصة بفن الشعر، بل أصبح موضوعًا مستقلاً لبعض مراجع البلاغة فى القرن السادس عشر. وكما وصفه كينتليان Quintilian، أو إراسموس Erasmus فى كتابه "الإسهاب/الإفاضة" De copia (١٥١٢) فالإسهاب يضم مجموعة من الأساليب مع بعضها بعضا تتعلق بالتنوع اللفظي وابتكار مادة كلامية إضافية ومناسبة لجعل شخص ما أو موضوع ما أكثر أهمية أو أكثر حضورًا لدى الجمهور، وبحيث يمكن من خلالها جعل الحجة موضع الكلام أكثر إقناعًا وأكثر دافعية لدى الجمهور.

ولقد اعتُبِرَت هذه الأساليب طريقة من طرق إعادة كتابة الأعمال السابقة (وإن جاز التعبير طريقة لشحن وتقوية العمل من جديد وعلى نحو فائق). ولقد استخدم الشعراء تلك الأساليب سواء لإعادة تنقيح أعمالهم أو لتحقيق التنوع أو لترجمة قصائد شعرية لكتاب آخرين. ولقد أورد جيوفري دو فينسوف Geoffrey de Vinsauf فى مؤلَّفه "Poetria nova" – عن الجديد فى الشعر والأعمال الشعرية (١٢١٠ م) – الكثير مما اختص بالإسهاب (الإفاضة) amplification والاختصار abbreviation باعتبارهما وسيلتين لإعادة التركيز على قصيدة أو قصة ما (كأن يقوم شخص مثلاً بإعادة حكاية إحدى الأساطير الأرثرية (نسبة إلى الملك آرثر (ق. ١٦)). أما جيوفري تشوسر Geoffrey Chaucer فيقر باستخدامه لمثل هذه العمليات التي تتعلق بإعادة سبك العمل الأصلي الذي اعتمد عليه فى كتابته لأسطورة "ترويلوس وكريسيدا "Troilus and Criseyde" (١٣٨٥ م.) (علمًا بأنه لم يذكر أنه اعتمد على أعمال بوكاتشيو Boccaccio)، كاشفًا فى الوقت نفسه عن وعيه البلاغي لدور القارئ فى تشكيل المعنى. ومعبرًا عن محاولته قدر الطاقة لإعادة سبك "عبارة" المؤلف – والكلمة هنا قد تعنى مادة العمل نفسه إضافة إلى المعنى الذي يريده المؤلف – فيُحتَمل أنه قد أضاف بعض الكلمات، ولو من قبيل تعظيم قدر عاطفة الحب إذ لعله أراد أن يطلق العنان لقرّائه حيال ما يتمنون من خلال تلك الإضافات. وفي ذلك يقول تشوسر: "وأما فيما يخص كلماتي فهنا وفي كل جزء أصوغها فى ظل إعادة النظر والتصحيح بما يقود إلى إعلاء العاطفة، وحسبما يتطلب ذلك من زيادة أو اختزال فى اللغة" (ج ٤: ص ١٣٣١ – ٣٦).

يلاحظ فى هذا الاقتباس أن ذكر الزيادة والنقصان يشير إلى عمليات الإسهاب والاختصار، بيد أنهما من أدوات الشاعر التي بها يستطيع بسط مادته أمام جمهوره. وهناك دراسة كلاسيكية قام بها روبرت أو باين Robert O. Payne بعنوان "The Key of Remembrance" (مفتاح الذكرى) (١٩٦٣)

تحلل عمليات الإسهاب والاختصار التي أجراها تشوسر على مصادره؛ على أن المرء قد يتصور تطبيق نفس المنهج وبنجاح على دراسات قائمة على مصادر أصلية source - based studies لمؤلفين آخرين. وبالمثل فيمكن اعتبار الكثير من مظاهر الوصف التفصيلي والتشبيه أو المحاكاة لدى شعراء متأخرين أنماطًا إسهابية (انظر مدخل "الإسهاب أو الإفاضة" amplification).

إن الأساليب اللفظية التي تتوسل بها حيلة الإسهاب (الإفاضة) مرتبطة ولا محالة بقضية اختيار الألفاظ أو "الأداء اللفظي" (diction). وتشير رسائل البلاغة إلى مستويات مختلفة من الأداء اللفظي على حسب صلته بموضوع الكلام، وهذا على الرغم من أن كتب البلاغة الكلاسيكية – كما هو الحال فى جوانب بلاغية أخرى – تبسط المسألة عبر الإشارة إلى ثلاثة أنواع من الأسلوب: (المستوى العالي – المتوسط – البسيط). فأما المستوى البسيط فهو ما يفضله شعراء القرن السابع عشر إضافة إلى آخرين كالشاعر ووردزورث وأتباعه فى القرن التاسع عشر، ويعد هذا المستوى جزءًا كبيرًا من البلاغة إلى جانب كونه جزءًا من نظرية التنميق (أو التزيين). على أن اتجاهات البلاغة الأخرى – كما عند هيرموجينس Hermogenes (المولود عام ١٦١ م. تقريبًا) فى مؤلفه "في أنواع الأسلوب" – تقدم تفاصيل وفروقًا أخرى. فبالإضافة إلى مناقشة أنواع المفردات وبناء الجملة والمحسنات البلاغية المستخدمة وفق المستويات الأسلوبية المختلفة فإن الكتب التعليمية البلاغية تراعى أمورًا أخرى كاستخدام أو إساءة استخدام أنواع غير اعتيادية من المفردات مثلاً سواء المستحدثة أو المهجورة أو التابعة للهجات معينة أو المستعارة من لغات أجنبية أخرى؛ ولطالما كان الشعراء مرهفي الحس إزاء حاجتهم واستخدامهم لكلمات غير اعتيادية فى أعمالهم الفنية، وكثير من كتاباتهم عن الشعر تهتم بهذا الجانب، الذي – رغم تعلقه بالقواعد النحوية – دائما ما يجد طريقه إلى كتب تعليم البلاغة.

من الملامح المهمة للتعليم البلاغي التي وجدت طريقها إلى الشعر تلك الأمثال السائرة والحكم البليغة والحكايات والمقطوعات والرسائل البلاغية. ولقد ثبت أن المتأخرين من البلاغين القدماء أمثال ريتور Menander Rhetor قد مثلوا فائدة جمة للباحثين الكلاسيكيين الساعيين لفهم محتوى القصائد الغنائية واتجاهها منذ عهد سكاليجار J. C. Scaliger فى كتابه "كتب شعر سبتمبر" (١٥٦١).

وعلى ذلك فتلك الأمثلة توضح المدى المتسع للاستخدامات البلاغية وتعاليمها التي اضطلع بها الشعراء عبر العصور المختلفة. على أن هذا الاتساع فى استخدام البلاغة يمكن النظر إليه عبر مقابلته بالتغير فى الاتجاهات البلاغية التي ظهرت إزاء نظريات الشعر.

نظريات الشعر وتعارضها مع البلاغة

منذ عهد هوميروس وهيسيود Homer and Hesiod والشعراء تدَّعى أنها تكتب فى ظلِ الوحي الإلهي؛ فالإلهام - وهو الشيء الذي يميز الشاعر عن غيره من الكتَّاب - دائما ما كان يُنظَر إليه على أنه الشرط الرئيسي لظهور القصائد العظام. ومعلومٌ أن مهمة الشاعر تغذية منابع هذا الإلهام (ومن ثم يأتي التضرع إلى ربات الشعر والآلهة، وهو من أعراف الشعر الملحمي) ثم الإصغاء لما تهمس به تلك المنابع. ففي بعض الحالات ينظَر إلى الإلهام على أنه جوهر مادة القصيدة، بينما فى حالات أخرى يُنظَر إليه على أنه الكلمات نفسها التي يوظفها الشاعر. بل إن الأسماء التي أطلقت على الشعراء أنفسهم - كما فى اللاتينية vates أي "نبي" - تعزز تلك النظرة للشعر. على أن أفلاطون Plato (٤٢٨ - ٣٤٧ ق. م.) ينظر إلى فكرة أن الشاعر يتلقى إلهامًا سماويًا بشيء من السخرية - كما فى محاورة إيون "Ion"[١] - حيث

---

(١) الاسم هنا اسم علم.

ينظر إلى ذلك على أنه نتيجة طبيعية لعدم كفاءة الشاعر فى الميادين العقلية للمعرفة؛ ولكنه فى أعماله المتأخرة، مثل Symposium "الحفل" و Phaedrus "فيدروس" يؤيد ذلك المزعم (ضمن إشارات إلى إحدى الحكايات الأسطورية لإحدى الكاهنات والمتعلقة باستدعاء الإلهام، قبل الانخراط فى وصف استعاري ذاتي). على أن أقصى صور هذه النظرية هي الفكرة القائلة بأن كل قصيدة ناجحة لابد وأن تكون نتاج إلهام فردي ومن ثم القول بأن مثل هؤلاء الشعراء ينصب عليهم الإلهام دفعة واحدة عند ممارسة عملهم الشعري. وعلى نحو أقل تطرفًا من هذا التصور يمكن عزو الإلهام إلى تأكيد البلاغة على الموهبة الطبيعية (الجِبِلِّيَة) ingenium التي يتطلبها الفن، والتي تعزز قدرة المتحدث على التعبير، والتي يتعين على الخطيب أن يتحلى بقدر كبير منها. ومن الجدير بالذكر هنا أيضًا أن النظرة البلاغية ذات الطابع الديني لفكرة الإلهام – كما عند إراسموس Erasmus فى كتابه التعليمي الدعوي Ecclesiastes "في فن الدعوة" – تعتبر أن الإلهام الإلهي أكثر الجوانب أهمية من تلك التي تتعلق بالأسلوب البلاغي البشري.

ولقد قال المنظرون المهتمون بكتابة الشعر فى ظل تأثير الأفلاطونية الجديدة Neo - Platonism بأن الشاعر أعظم من الكتاب الآخرين والفنانين نظرًا لقدرته على تخطي مسألة التقليد وبلوغه مرحلة إبداعية تسفر عن شيء جديد. وفي ذلك يقول سيدني Sidney فى رائعته "الاعتذار للشعر Apology for Poetry (ص ١٠٠):

إن رجل المحاماة يقول ما وضعه الرجال سلفًا؛ والمؤرخ يحكي ما قام به آخرون؛ والنحوي يتحدث فقط عن قواعد الكلام؛ ورجل البلاغة أو المنطق، بعد مراعاة عوامل الإقناع والحجة فى الطبيعة، يزودنا بقواعد مصطنعة لم تزل تدور فى فلك الإشكال والتساؤل إزاء الموضوع مثار البحث... ووحده الشاعر، الذي يزدري التمسك بأي من تلك القيود، نهض بقوة إبداعه، مُفعمًا

بأثر طبيعة جديدة، تجعله إما قادرًا على جعل الأشياء أفضل مما هي عليه فى الطبيعة أو خلق أشياء جديدة كأنها لم تكن فى الطبيعة من قبل... تالله ما أنجبت الطبيعة شيئًا أكثر ثراء وتزيينًا للأرض مثل الشعراء، ولا حتى الأنهار العذبة، ولا الأشجار المثمرة، ولا الأزهار العَبِقَة، بل ولا أي شىء آخر يجعل الأرض أكثر جمالا.

لقد عمل سيدني على إيصال حجته بأن الشعر هو الشكل الأفضل للتعليم الأخلاقي أكثر من الفلسفة والتاريخ. بل لقد أسهب فى عرض ذلك وفق مفهوم الإسهاب (أو الإفاضة) وفي وسط كتاب مفعم بتعاليم الكتابة الجيدة المستمدة من البلاغة. وعلى الرغم من ذلك، وفوق كل ما ذُكر آنفا فلا شك أن صاحب البلاغة سيشهد لصناعته وحرفته؛ فشيشرون يؤكد على أن البلاغة لا غنى عنها لأجل نمو المجتمع والحضارة البشرية، ولكنه فى الوقت نفسه لا يؤكد على إمكانية إبداع شىء جديد من العدم.

وأما الشعراء الرومانسيّون فقد هاجموا – وخصوصًا ووردزورث فى مقدمته للطبعة الثانية (١٨٠٢) من "القصائد الغنائية" "Lyrical Ballads" – تأثير البلاغة على لغة الشعر. ولقد كان تصور ووردزورث عن الشعر وعزمه على رسم وقائع الحياة العامة – وإن لم يخل ذلك من الخيال – "باللغة الحقيقية التي يستخدمها الناس فعلا" مما شجعه على تجنب "الأشكال المنمقة العابرة والزائلة". وعلى حد قوله: "فقليلا ما تجد فى هذه الكتب شيئًا مما يُسَمَى "الأداء اللفظي الشعري" poetic diction؛ بل ترى فقط استخدامًا مقتصدًا للتشخيص. ولقد كان توظيفه للغة العادية – على حد تعبيره: "هو ما قطع صلتي بتلك التركة من العبارات والمحسنات البلاغية التي... طالما اعتبرها البعض الميراث العام للشعراء". فووردزورث يؤكد على أهمية تدبر المشاعر التى تنشأ عن الخبرات العامة وإعادة صياغتها ومن ثم التعبير عنها عبر كلمات وجمل وأبنية تبدو طبيعية أكثر من الصياغات الأسلوبية النمطية

لأي نوع بلاغي آخر. وعلى الرغم من أنه للوهلة الأولى قد يبدو أن تشدد ووردزورث في مقدمته (المذكورة أعلاه) قد يتقارب مع الأسلوب البلاغي البسيط فإنه في مؤلَّفه "Essays on Epitaph" (مقالات حول النقش الرثائي) (١٨١٠) يوضِّح أنه يَخشى أن تكون البلاغة مجرد أداة تمد الشاعر بكلمات تعرضه لخطورة الانفصال عن الفكر والإحساس اللذين هما أساس الشعر.

نظريات الشعر المتجانسة مع البلاغة

شرع أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م.) في كتابه "فن الشعر" Poetics في تقديم سرد عقلاني إزاء تأليف الشعر التراجيدي (المأساوي) عن طريق تقسيمه إلى جزأين؛ فبما أن التراجيديا (المأساة) عبارة عن عرض لغوي لأشخاص تؤدي نوعية معينة من الأحداث وتستهدف إثارة الشفقة والخوف من قِبَل الجمهور فإن أرسطو يقدم معايير التفوق الخاصة بكلٍّ من هذين الجانبين على نحو يستفيد منه كل من كتّاب ومشاهدي التراجيديا. على أن كتابه غير مبني – كما هو الحال في كتب البلاغة التعليمية – على اعتبار أنه سلسلة من التعاليم التي تستهدف إنتاج التراجيديا إلا أنه تحت كل قسم أو فئة يدون ملاحظاته بشأن أفضل الحبكات وأنوع الشخصيات وأنماط اللغة التي يمكن أن يتبعها مؤلفو التراجيديا. وعلى الرغم من أنه لا يناقش مباشرة مسألة الإلهام فإن مدخله يتضمن فكرة أن توظيف العقل والموهبة والمهارة لشخص ما هو وسيلته لكتابة التراجيديا الفائقة دون الحاجة إلى الاعتماد على الآلهة. وكثير من ملاحظات أرسطو إزاء اللغة والعاطفة تقترب إلى حد كبير مما ذكره في بعض أجزاء كتاب البلاغة Rhetoric حول نفس الموضوع.

كذلك فإن كتاب هوراس Horace (٦٥ – ٨ ق. م.) "فن الشعر" Art of Poetry يؤكد على المدخل المهاري الفني. فعلى الرغم من أن الموهبة أمرٌ مطلوب لكتابة الشعر الجيد فإنه يتعين على المرء أن يولي اهتماما بأمور،

منها الموضوع الشعري والتنظيم والشكل والأداء اللفظي. ولهوراس فى هذا الأمر كثير من النصائح التي تخص هذه الأمور على الرغم من أنه يتحاشى أن يظهر بمظهر المتمسك بنظامية كتب الشعر التعليمية. على أن مدخله أو منهجه العملي فى كتابة الشعر وتنقيحه لا يمنعه من توظيف الإلهامات بل الإشارات الشعرية تجاه ربات الشعر فى قصائده. وكذلك فإن تعليقاته على أهمية استخدام المفردات الشائعة فى عصر الشاعر تتوافق مع ما جاء فى الآثار البلاغية؛ ربما لأن كينتليان Quintilian قد أفاض فى شرح ملاحظات هوراس فى كتابه "تأسيس الخطابة" Institutio oratoria (عام ٩٥ م. تقريبًا). ولقد كانت أهمية المراعاة الدقيقة والمهارية للألفاظ والبناء النحوي ومراجعة وإعادة الصياغة بحثًا عن التعبير الواضح المتناغم مما أكد عليه بوب Pope فى كتابه "مقال عن النقد" Essay on Criticsm (١٧٠٩) وكذلك ت س إليوت T. S. Eliot فى كتابه "وظيفة النقد" The Function of Criticism (١٩٢٣). وليس أي من هذين العملين عملاً بلاغيًا بالدرجة الأولى، إلا أن كليهما يوصي بأن ينتبه الشعراء لأشكال اللغة وأنماطها على النحو الذي توصي به البلاغة الخطيب.

يعد كتاب "فى الأسلوب السامي" On the Sublime (القرن الأول الميلادي) المنسوب إلى لونجينيوس Longinus من الكتب التي يمكن مقارنتها بكتاب "فن الشعر" Poetics لأرسطو إزاء ما يتضمنه من تنظير مبني على تحليل الأمثلة، وكذا يمكن مقارنته بما قدمه هوراس Horace فيما يخص منهج التناول الفني للشعر. والكتاب يخطو خطوة قريبة نحو البلاغة لأنه مرتب كما لو كان قائمة لسرد تعاليم صناعة الأسلوب السامي. وقد قام هيرموجينيس Hermogenes فى كتابه "في أنواع الأسلوب" On Types of Style ببسط ذلك النوع الفني ضمن التقليد اليوناني (انظر مدخل "السامي" the Sublime).

على أن كتاب "فن الشعر" Art of Poetry يعد واحدًا من كتب البلاغة التعليمية (بأنواعها الثلاثة) المهمة فى العصور الوسطى؛ وهو من الكتب التي استخدمت كنص تعليمي مدرسي وجامعي حيث جمع تعاليم تختص بالأشكال الشعرية إلى جانب نصائح خاصة بالإسهاب أو الإفاضة والأسلوب والمحسنات البديعية. كذلك فإن كتب البلاغة التعليمية المنسوبة لراموس Ramus فى القرنين السادس والسابع عشر تدخل قواعد الوزن والإيقاع ضمن المحسنات الأسلوبية اللفظية فى حين أن جورج بوتنهام George Puttenham فى مؤلفه "فن الشعر الإنجليزي" (The Arte of English Poesie، ١٥٨٩) يقدم كتابًا (كاملاً) عن الحيل المجازية والمحسنات عند مناقشة طبيعة الشعر والمحسنات البلاغية الأساسية وكذلك الأنماط الشعرية. وعليه فهذه الأمثلة تعد ببساطة امتدادًا للتشابه فى وجهات النظر إزاء كتب (أو مراجع) البلاغة التعليمية وكذلك كتب الشعر التعليمية ذات الطابع العملي. وعلى الرغم من أن المراجع التعليمية الخاصة بالتأليف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تركز، تقريبًا، على النثر فإن نظريات الشعر فى القرن الثامن عشر تنحاز إلى حد ما إلى المدخل البلاغي فى التأليف. ولقد كتب بودلير Baudelaire في كتابه "صالون ١٨٥٩" Salon of 1858 عن قواعد البلاغة والعروض باعتبارها قواعد ذات ماهية روحية تغذي خيال الشاعر مما يجعله أكثر أبداعًا.

البلاغة وقراءة ونقد الشعر

على الرغم من أن البلاغة قد لعبت دورًا حاسمًا فى تعليم العديد من الشعراء فقد كانت أكثر تأثيرًا فيما يخص تدريب القراء. ولقد كان تلاميذ المدارس فى عصر النهضة يتعلمون تحليل الشعر فى إطار فئات بلاغية مثل

الأنواع الأدبية والمناسبات والأبنية النحوية والحجج والأخلاق والمحسنات البلاغية بل وغريب المفردات (انظر مدخل "التأويل" Hermeneutics).

وعلى الرغم من أن المدرسين فى القرن الثامن عشر قد قاموا بتعليم طلابهم كتابة النثر فإنه كان هناك تركيز على المبادئ الحاكمة لإحداث التأثيرات البلاغية الأساسية، ومثال على ذلك ما أورده هيو بلير Hugh Blair فى كتابه "محاضرات عن البلاغة والأدب المحض" Lectures on Rhetoric and Belles Lettres (١٧٨٣)؛ تلك التأثيرات المشتقة من القراءات الشعرية المقدمة والمشروحة بواسطتها، وخصوصًا تلك التي اعتمدت على المزامير وأعمال فرجيل Virgil وهوميروس Homer.

أما فى القرن العشرين فقد أصبحت قراءة الشعر الحديث قاصرة على خريجي الجامعات حيث قدم أساتذة اللغة الإنجليزية نماذج للقراءة كان لها بالغ الأثر على جمهور الشعر القليل نسبيًا. وقد كان العديد من النقاد الشكليين الذين ظهروا فى بدايات منتصف القرن – مثل آي. إيه. ريتشاردز I. A Richards – أصحاب اتجاه بلاغي فى مدخلهم لتحليل الشعر. وفي حين أن ويليام إمبسون William Empson (١٩٠٦ – ١٩٨٤) ركز على الاستخدامات المعقدة والمتزامنة لبعض الكلمات فإن دونالد دافي Donald Davie (١٩٢٢ – ١٩٩٢) ركز على مسائل الأداء اللفظي وبنية الجملة، وكذا فعل كلينث بروكس Cleanth Brooks (١٩٠٦ – ١٩٩٤) الذي وجه الانتباه إلى المهارة الأدبية الفردية على اتساعها. ولقد استخدم بول دي مان Paul De Man (١٩١٩ – ١٩٨٣) فى كتابه "العَمَى والبصيرة" Blindness and Insight محسنات البلاغة لتحليل المداخل approaches التي من خلالها توصل النقاد العصريون إلى بعض الاستكشافات، والتي تعارضت أيضا مع افتراضاتهم الأولية. فبينما يمكن النظر إلى هذه المداخل على أنها متغيرات لمستويات

مختلفة من التحليل اللغوي الذي تقدمه البلاغة فإن الجيل الجديد من النقاد يمكن اعتباره كذلك إفرازًا لقضايا الموقف والغرض السياسي والتأثير الثقافي، وكلها تمثل جزءًا من جدول أعمال موسع تضطلع به البلاغة. بل إن إعراض النقد عن الشعر تقربًا لوسائل الإعلام الجماهيري والمرئي وكذلك السياسة يمكن فهمه على أنه تأكيد - وفي ظروف متغيرة - للدور العام والجماهيري للبلاغة.

وأيًا كانت المخاوف التي يمكن أن تكون لدى المرء إزاء الجمهور المستقبل للشعر (حينما تكون أنظمة الشعراء الإشارية اللغوية انطوائية بعيدة عن المجتمع) أو إزاء الشعر نفسه (في عصر تقوم فيه دور النشر بشطب قوائم الشعر) فإن البلاغة سوف تواصل مسيرتها لتقدم للشعراء وأتباعهم وسائل تدبر وفهم وسيلتهم الأدبية بل وجمهورهم وأهدافهم. أما الشعر، من جانبه، فهو يتمم بل يتخطى عملية البحث فى طبيعة اللغة وتأثيراتها، وهي العملية التي تضطلع بها البلاغة. (انظر مداخل "النقد" Criticism و"القانون" Law و"البلاغة فى عصر النهضة" Renaissance rhetoric (مقال بعنوان "حركة البلاغيين الهولنديين" Rederijkers) و"الأسلوب" Style).

Bibliography المراجع

Abrams, M.H. *The Mirror and the Lamp*. New York, 1953.

(من النصوص الرئيسية عن نظرية الشعر الرومانسي).

Auerbach, Erich. *Scenes from the Drama of European Literature*. Minneapolis, 1984. Figures in Dante, Pascal, and Baudelaire.

(يعرض للمحسنات عند كل من دانتي وباسكال وبودلير).

Bonnefoy, Yves, and Odile Boularde. *Poésie et rhétorique*. Paris, 1997.

Curtius, E. R. *European Literature and the Latin Middle Ages*. Translated by W. R. Trask. Princeton, 1953.

(دراسة رئيسية للعلاقة بين كل من البلاغة والتعليم والشعر اللاتيني العصر أوسطي والعامي).

Edwards, Michael. *Le livre des répétitions*. Paris, 2000.

Eliot, T. S. *Selected Essays*. London, 1951.

Empson, William. *Seven Types of Ambiguity*. London, 1930; reprinted Harmondsworth, U.K., 1973.

France, Peter. *Racine's Rhetoric*. Oxford, 1965.

Ginsberg, Allen. *Collected Poems 1947–1980*. Harmondsworth, U.K., 1987.

Hill, Geoffrey. *The Triumph of Love*. Boston, 1998.

Kibédi Varga, A. *Rhétorique et littérature*. Paris, 1970.

Lanham, R. A. *The Motives of Eloquence: Literary Rhetoric in the Renaissance*. New Haven, 1976.

Man, Paul de. *Blindness and Insight: Essays on the Rhetoric of Contemporary Criticism*. 2d ed. Minneapolis, 1983.

Richards, I. A. *Principles of Literary Criticism*. London, 1924.

Russell, D. A. *Criticism in Antiquity*. London, 1981.

(استعراض عقلي للكتابات الكلاسيكية الرئيسية عن الأدب والبلاغة).

Sloane, T. O., and R. B. Waddington, eds. *The Rhetoric of Renaissance Poetry*. Berkeley, 1974.

Sonnino, Lee A. *A Handbook to Sixteenth Century Rhetoric*. London, 1968.

(جمع للمحسنات البلاغية التي وردت فى المصادر الإنجليزية فى القرن السادس عشر).

Stone, P. W. K. *The Art of Poetry 1750–1820*. New York, 1967.

(مقارنة مفيدة للآراء (الإنجليزية) حول الشعر الواردة فى القرن الثامن عشر أو فى الحقبة الرومانسية).

Vickers, Brian. *Classical Rhetoric in English Poetry*. London, 1970.

(استعراض مفيد لاستخدامات المحسنات البلاغية وخصوصًا فى شعر عصر النهضة (الإنجليزي).

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

(ينقح الفصول الرئيسية للمرجع المذكور أعلاه مضيفًا أمثلة للمتأخرين).

Wordsworth, William. *Literary Criticism*, edited by W.J. B. Owen. London, 1974.

Yeats, W.B. *Collected Poems*. London, 1950.

مؤلف المدخل: Peter Mack

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

السياسة Politics

يتألف هذا المدخل من سبعة مقالات:

١) إطلالة

٢) البلاغة التأسيسية

٣) البلاغة النقدية

٤) البلاغة و الشرعية

٥) البلاغة و السلطة

٦) الوجه الثالث للسلطة

٧) مجالات النشاط الشخصية و التقنية و العامة للحجاج

يقدم المقال الأول إطلالة على البلاغة والفضاء العام، وما تتسم به من قابلية فصل مجالات المواطنة عن حقل التثاقف acculturation التقليدي المتجذر فى البلاغة الكلاسية. يناقش المقال الثاني البلاغة التأسيسية من زاوية تشكيل الهوية والتحول إلى الجماعية، ومن زاوية النظريات البلاغية لبيرك Burke وتشارلاند Charland وألتوسير Althusser وديريدا Derrida ووايت White. تحتفي البلاغة النقدية، التي تمَّ استكشافها فى المقال الثالث، بدور العقل، وتناقش شكلين للتحليل النقدي اللذين يؤسسان ممارسة البلاغة النقدية، وتعرض المبادئ الثمانية للممارسة. تتعرض المناقشة التي يتضمنها المقال الرابع حول البلاغة والشرعية للفكرتين المتعارضتين اللتين تغطيان "الأنماط المثالية" الثلاثة عند فيبر للبلاغة

الشرعية، ونقدم باختصار نظريات مفكرين محدثين مثل رولز Rawls وهابرماس Habermas وليوتار Lyotard. يهتم المقال الخامس، حول البلاغة والسلطة، بموضوعات متعلقة بتأثير السلطة المتمددة على الخطاب المدني. يناقش المقال السادس استخدام الوجه الثالث من استراتيجيات السلطة في القرن العشرين. ويناقش المقال الأخير الفضاءات الثلاثة الرحبة للحجاج التي يُتعرف عليها في مجتمع متعدد pluralistic.

إطـــلالـــة

لقد ربط التراث الغربي بين السياسة والبلاغة منذ أقدم عصوره المدوّنة. إن مصير الأخيليين والطرواديين في الإلياذة والأوديسا يتأثر بالمشاورات التي تحدث بين الآلهة وأوديسيوس الداهية بنفس قدر تأثره بصراعهما المسلح. وتسجل النصوص العبرية القديمة مراسلات بين إله العبرانيين (يهوه Yahweh) والقبائل الإسرائيلية، وبين البشر بعضهم بعضًا، تتضمن مشاروات بشأن الطرق التي يسلكها الإله والبشر. ويتأسس المنجز السياسي الأثيني القديم، سواء في النظرية أم الممارسة، على العلاقة الوثيقة بين السياسة والبلاغة. وقد أعطى أرسطو لهذه العلاقة شكلها عندما وضع البلاغة تحت مظلة الفرع الأخلاقي للسياسة.

هذا التوحد القديم بين السياسة والبلاغة مميَّز بسبب تأكيده على أن السياسة فن عملي. وفي حين يركز علم السياسة الحديث غالبًا على الخصائص القانونية والاقتصادية والهيكلية للمؤسسات المرتبطة بالسلطة، فإن الاهتمام البلاغي توجه تاريخيًا إلى التفاوض المستمر حول كيف نتصرف ونتفاعل. وعلى الرغم من أن هذا التفاوض انطوى دائمًا على مسائل السلطة، فإنه كان معنيًا كذلك بإتاحة القدرة على تقديم تقييمات عملية.

تقرر الديمقراطيات الغربية للمواطنين حق التقييم. فمواطنو ديمقراطية ما يمتلكون، بشكل مبدئي، سلطة مطلقة عبر المشاركة فى العمليات التشاورية، وعبر ممارسة حقهم فى التصويت. ومع ذلك، فإن السياسة الديمقراطية لم تحظ مطلقًا بقبول مريح لخاصيتها البلاغية المترسخة. لقد ابتليت الديمقراطيات دومًا بالقلاقل الموجودة بين حقوق المواطنين فى المشاركة -بغض النظر عن مستوى تعليمهم أو مواقفهم أو وسائلهم – والخوف المنتشر بين النخبة المتعلمة الثرية ذات المركز المتميز من أن غالبية المواطنين شديدي الجهل ويسهل تمامًا خداعهم بالاستمالة الانفعالية للديماجوجيين بما يحول دون اتخاذ قرارات معقولة. لقد تم التعبير عن هذه القلاقل على نحو جيد بواسطة حكمة قديمة تقول: الشعب يهيمن، والنخبة تحكم.

لقد سيطر على القلاقل بين الشعب والنخبة فى أثينا القديمة قادة أقوياء مثل صولون Solon فى عام 594 ق.م. أو بيركليس فى عام 440 ق.م. هؤلاء أدركوا أن المصالح المتصارعة يمكن أن تؤدي إلى ظهور جماعات قوية، قادرة على فرض إرادتها على الأقلية. كان هذان القائدان يدركان السياق السياسي الخاص بهما، تمامًا مثلما كان جيمس ماديسون James Madison (1751-1836) يدرك أن ظروف عصره تتطلب اختيار حلول وسط للحفاظ على النظام وحماية الحرية السياسية لكل المواطنين. من ناحية أخرى فإن الفرق بين أثينا بيركليس وأمريكا ماديسون مهم فيما يخص فهم تطور دور السياسة المؤسَّسة بلاغيًا، داخل سياق سمة الديمقراطية المتحولة ذاتها.

لقد مارس الأثينيون القدماء نوعًا من السياسة يستند إلى نموذج الفضيلة المدنية civic virtue، التي تجلت كأداء عام لمفردات ووقائع نبيلة. لقد شكلت الفضيلة المدنية هوية فردية عبر المواطنة، وركزت الثقافة الأثينية على شخصية المواطن العام بوصفه أساسًا لذلك المعنى الفردي. لقد أُبرز هذا المعنى بواسطة

النقش الأثيني القديم على جدار المدينة "الرجل الذي لا ينشغل بالشأن العام، ليس لديه ما يشغله"، وبواسطة استخدام المفردة اليونانية التي كانت تطلق على الشخص غير المنخرط فى الشئون العامة، وهي كلمة: أبله *idiot*.

غزت الفضيلة المدنية المجال الخاص بوصفها معيارًا سياسيًا، وبوصفها نمطًا للتنظيم الاجتماعي، قامت بتنظيم معنى وجود الفرد، ولم تترك أيَّ فاصل بين الحياة السياسية والاجتماعية (Taylor, 1995). لقد كان هذا نموذج للإنجاز المجمَّع بواسطة الدولة. لم تكن فضيلة الفرد سمة شخصية بل خاصية عامة، لابد وأن تتوافق مع النماذج والمُثل التي تتضمنها قوانين وعادات الشعب ككل Demon (de Colangen, 1956). لقد أبرزت سياسة الفضيلة المدنية الصالح العام بواسطة إخضاع الذات الفردية للمجال العام. وكان السمو خاصية عمومية تعكس فهم الشعب للفضيلة الأخلاقية بوصفها صفة عمومية وليست خاصة. وكان الفرد يحقق الفضيلة المدنية بواسطة الاشتراك الفعال والمستمر فى الشئون السياسية العامة. لقد كانت الفضيلة المدنية تعكس رؤية أخلاقية للاختيار والفعل الفردي الذي تنظمه السلطة المهيمنة للجماعة السياسية، وليس الفرد الفاعل أو السلطة الفردية. وتم توفيق هذه الرؤية بواسطة توافق إرادة الفاعلين المحددين مع إرادة الجماعة. وتحيل السلطة السياسية للجماعة ليس إلا الحقيقة الواضحة بأنها مصدر الأخلاق، بل إنها تُحيل إلى الجماعة القائمة بوصفها أخلاقًا (Seligman, 1995, pp. 202– 204)، [انظر، الخطابة].

استمر التراث الغربي للسياسة فى احتضان نموذج الحياة المدنية المتشكل بواسطة الفضيلة الوطنية كجزء من إرثه. ومع ذلك فإن التغير من ديمقراطية المشاركة إلى ديمقراطية التمثيل أدى إلى تغييرات دالة فى الكيفية التي تُبنى بها البلاغةُ السياسة. فلم يعد للمواطنين فى المجتمعات الديمقراطية

الليبرالية صوت مباشر في عملية اتخاذ القرار، ولم يعد الأفراد يكتسبون هويتهم من خلال الأداءات العامة في ظل سلطة مهيمنة للجماعة السياسية. لقد بدأت الفضيلة المدنية التي جعلت من الحياة النشطة *vita active* النموذج الإرشادي المنظِّم للوجود في التآكل، نظرًا لأن سلطة روما المركزية بدأت في الانهيار، وبدأت مؤسسة بديلة في الصعود هي الكنيسة المسيحية.

كانت الكنيسة مستقلة عن الدولة؛ وعلَّمت معتقداتها الأتباع أن ينظموا حياتهم الشخصية حول سلسلة من المبادئ والمثل الأخلاقية لا السياسية. كان نموذجها الإرشادي هو الحياة التأملية*vita contemplative* (Arendt, 1958)، التي يسعى المرء فيها إلى التجرد من متاع الدنيا، لكي يؤسس تواصلا جوانيًا مع الرب. كان المسيحيون أعضاءً في مجتمعين؛ أحدهما زمني، والآخر روحي؛ لا يخضع أحدهما للآخر، وكان لكل منهما سمتُه البلاغي الخاص.

على نحو مماثل، فإنه مع ظهور الملكية أثناء العصور الوسطى وبدايات عصر الإحياء، اجتُذبت القوة السياسية للساحة لتواجه فقط تحديات جديدة. هذه السلطة هي سلطة النبلاء الإقطاعيين، الذين رسخوا قوانين الملكية، وأعاقوا مجهودات الملوك لتأسيس كيان قومي، كما فعلت الكنيسة.

عندما حاول الملوك مواجهة هذه القوة الاجتماعية الراسخة من خلال منح الحكم الذاتي للمدن الصغيرة، وجدوا مواطني هذه المدن burghers الذين قادوهم إلى أن يكونوا، على السواء، متشبثين بصرامة باستقلالهم، وشديدي الغنى، إلى حد صعوبة تجاهلهم. فلبعض الوقت، وجد الملوك أنه من الضروري – من آن لآخر – أن يعيدوا تنظيم كيان الإقطاعيات – أي جماعات: رجال الدين والنبلاء ومواطني المدن ممن نظر إليهم على أنهم يمثّلون المصالح الجمعية العظمى للأمة – بهدف زيادة موارد الحكم وشن الحروب. لاحقًا وجد الملوك أنفسهم معرضين لتقلبات هذه الإقطاعيات (Hall, 1995).

لقد أدى ازدهار الكنيسة المسيحية وتحالف الإقطاعيات إلى تآكل النموذج البلاغي للسياسة الذي شكلته الديمقراطية الأثينية، وتجلى في نموذجها للقيم المدنية. فقد قدمتْ كلٌ من الكنيسة والإقطاعيات معنىً للهوية الاجتماعية مغاير للمواطنة. فقد قدما حالة من التنظيم الاجتماعي يمكن لأفرادهما من خلاله الانخراط في خطاب لا تنظمه الدولة. وقد حل هذا محل الهوية المتغيرة شكليًا في الكتابات السياسية لمفكري عصر الأنوار مثل لوك (Locke (1632–1704 ce، ومونتسيكو (Montesquieu (1689–1755، وروسو (Rousseau (1712–1778. فقد أبقوا على فكرة أن البشر شكلوا جماعة من الأنواع تتأسس تحت مظلة القانون الطبيعي، وسابقة على المجتمع، وهي بدورها سابقة على الحكومة.

وقد وضعت صياغاتهم فكرة المجتمع المدني بوصفه حقلا ثالثا مستقلا عن الكنيسة والدولة محل الرابط بين المجتمع ومنظمته السياسية. كان المجتمع المدني متعدد الأبعاد، وذا بعد سياسي يتكون من شبكة من الترابطات التي يجب على الأعضاء أن يراقبوا فيها أنفسهم عبر التبادل الخطابي الذي يوازن بين الصراع والاتفاق بطرق متناغمة تقدِّر الاختلاف. وربط مفكرو عصر الأنوار هذا الحقل بنشأة الشخصية العامة المستقلة المتكاملة مع الدولة بواسطة التعبير عن رأيها الخاص.

مثَّل المفهوم الذي صاغه عصر الأنوار للعمومية *publicness* فهمًا جديدًا للسياسة، تجاوز ما كان معروضًا بموضوعية أمام تمحيص كل الأفراد. فقد حدَّد المفهوم انشغالا يضم المصلحة العامة لكل المواطنين. علاوة على ذلك، فإن تلك المصالح العامة تم استكشافها في فضاءات خطابية جديدة – مثل الصحف والأحاديث الشخصية المتبادلة في المقاهي والصالونات الفكرية والأندية السياسية – تمتد فيما وراء فضاء المحكمة والجمعية التشريعية. وفيما عدا الصالونات الفكرية – التي غالبًا ما كانت نساء الطبقة العليا هي التي تقوم بتنظيمها – فإن هذه الفضاءات كانت ذكورية مفتوحة لكل الرجال، أو على

الأقل لهؤلاء المتعلمين منهم. وكانت تلك ميادين للتشاور المفتوح، تُناقش فيها الموضوعات الراهنة، وبشكل نموذجي يتم حلها وصولا إلى تكوُّن رأي عام مشترك. أدى هذا الخطاب إلى نشأة فكرة جديدة للرأي العام، بوصفه رأيًا متغلغلا منتشرًا بين من ينخرطون فى نشاط يخص أمرًا ما. وقدم ذلك الخطاب الفكرة الراديكالية القائلة بأن مثل هذا الرأي قد تشكل خارج القنوات والفضاءات العامة لهيكل السلطة السياسية الرسمية. كان يُفترض أن الرأي العام هو رأي المجتمع؛ وأن قنواته وفضاءاته، إنما هي تلك التي يمتلكها المجتمع المدني.

لقد عبَّر الرأي العام عن هوية المجتمع بمعزل عن الدولة، ومثَّل تحولا فى كيفية انخراط المجتمع فى السياسة. وقد تطلبت شبكة الارتباطات التي يتألَّف منها المجتمع المدني والتي شكلها الرأي العام نمطًا من البلاغة يختلف عن ذلك الذي تمت ممارسته فى العصور اليونانية والرومانية. لم تعد الفضاءات الخطابية للحكومة هي الميدان الوحيد الذي يمكن أن تتشكل فيه الإرادة الاجتماعية ويتم فيه تنفيذها. فقد تم تنظيم فضاءات جديدة – مسكونة بالاختلاف وعلاقات الاعتماد المتبادل – بوصفها شبكة من الحقول البلاغية ذاتية التنظيم، التي تطور من الانسجام الاجتماعي. وقد شكَّلت على نحو جماعي فضاءً عامًا يستطيع فيه العامة صياغة رأيهم الخاص، ويمكنهم تحدي هيمنة الدولة فى تقرير الغاية الاجتماعية، وربما يُتوقع تفهم مصاحب لتحمل تبعة ما تقوم به الدولة.

لازم التحول من الفضيلة المدنية إلى المجتمع المدني تغير ثانٍ. لقد كانت البلاغة الكلاسيكية ملتصقة بالسياسة بوصفها فنا مُنتجا. كانت منشغلة بإعداد الطلاب لممارسة الإقناع السياسي. لكن مع بداية الثورة العلمية، نبذ الفكر الأوروبي البلاغة لكونها خطيرة، نظرًا لأنها تستدعي منطقًا للاحتمالات وتشرك الانفعالات فى صياغة القرارات (Howell, 1996). لقد اكتسب العلم

سلطة منهجية بدعوى أنه دقيق وموضوعي ومنظم ومتسق، وأنه يتبع بروتوكولات محددة فى جمع البيانات والوصول إلى استنتاجات، وأنه يقدم نافذة على الواقع. وفي المقابل فقد تحدى بعض المفكرين مثل جيامباتيستا فيكو Vico، فى القرن الثامن عشر وفرديدريك نيتشه Nietzsche فى القرن التاسع عشر سلطة التفكير العلمي، باتخاذ موقف يذهب إلى أن العالم الإنساني يتشكل على نحو مغاير لحقائق الطبيعة. واعتبروا أن عالم السياسة الإنساني، لا يمكن فصله عن البلاغة لأن السياسة تبنى عبر اللغة. وقد حولت هذه الحجة المضادة السؤال الأساسي للبلاغة من الاهتمام المهيمن بإنتاج استمالة إقناعية إلى سؤال يتمحور حول كيف تكون كل الممارسات البلاغية متضمَّنة فى مجمل الاستخدام اللغوي، ومن ثمَّ تؤسس العالم الإنساني. قد وسَّع هذا التحول من فهمنا للسياسة بوصفها إنشاءً بلاغيًا وعمَّقه (انظر على سبيل المثال: see Cloud, 1998; Darsey, 1997; Wells, 1996).

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، كان المُشكل السياسي المتغلغل الذي يواجه المجتمعات المعقدة والجماعة الدولية هو تأسيس معنى سياسي فعال بين الفاعلين السياسيين ممن يفتقدون أرضية أيديولوجية مشتركة. كانت تلك الفروق – فى بعض الأحيان – شديدة العمق إلى حد أن المشاركين النشطين لم يكونوا حتى قادرين على تقديم وصف ذي معنى للصعوبات المشتركة لقرنائهم الذين يتشابهون معهم. يكمن الاتحاد بين البلاغة والسياسة فى قلب هذا المشكل. ويُشكِّل المجتمع المدني انخراط المجتمع المستمر والمهم فى التفاوض حول كيف يتعين علينا أن نتصرف ونتفاعل كما يحدث فى المنتديات المؤسساتية وما قبل المؤسساتية. يمكن لتلك أن تكون تبادلات عامية أو رسمية تتجلى فى الجماعات المدنية أو المنظمات أو الفضاءات الخاصة للحركات الاجتماعية، أو الحملات الانتخابية أو الاحتجاجات، وأسيجة الهوية، كما هو الحال تمامًا فى الفضاءات العامة الرسمية للأحزاب السياسية والدولة.

تُبرز هذه التباينات علاقات التصارع الدائم بين المصالح المتنافسة. لكن سعي الفاعلين السياسيين فى ميادين مُتعددة وراء المصالح المشتركة والتقييمات الشائعة يؤكد فى خاتمة المطاف على الاعتماد المتبادل والحاجة إلى التعاون. ويؤطر المجتمع المدني أنماط السياسة كإمكانية لتأسيس معنى بلاغي مقبول فى فضاءات عامة متعددة، ويكشف عن السلطة السياسية بوصفها تقوم بوظيفة "العبور الناجح للحدود" (Hauser, 1999). يتَحدى إطار هذا المنعطف اللغوي النموذج الواقعي المهيمن الذي يرى العلاقات السياسية بوصفها حسابات استراتيجية حصريًا هدفها ضمان التفوق (Hariman, 1995). وتضع نظرية من النظريات المؤسسة بلاغيًا –هي نظرية ما بعد الواقعية – السياسة فى خلفية ما يُطلِق عليه فيكو "التكوين الطبيعي" *ingenium*؛ أي ابتكار لغة تأخذ شكلاً معيناً فى حالة بعينها (Grassi, 1980). لكن هذه سياسة متقلبة، تُزعزعها النظرية البلاغية اللاحقة للبنائية والتفكيكية الخاصة بما بعد الواقعية.

يعكس الاعتماد المكثف للمجتمع المدني على إمكانيات تحويلية لابتكار بلاغي، العلاقات المعمارية الراسخة التي أكد أرسطو على وجودها بين السياسة والبلاغة. فهو يُبرز القوة الإبداعية للبلاغة بوصفها المعمار أو سيدة الفنون اللازمة لممارسة سياسية توفر منظورات بالغة التنوع للاتحاد المتآزر للفعل المشترك (Mailloux, 1989; McKeon, 1971). وهو يفسر النزوع المتعالي لما بعد الواقعية نحو دمج نظرية التواصل مع النقاش الذي يتم من خلاله ابتكار مسار من التواصل (Beer and Hariman, 1995). ويذكرنا كذلك بأنه سواء أكان الفضاء السياسي العام تحتله الدولة وسلطة النخبة، كما يصور هابرماس ذلك فى بيانه للرأسمالية المتأخرة؛ أو كان ما زال مفتوحًا لإمكانية تنظيم – ذاتي، فإنه خاضع للإمكانيات البلاغية والإنجازات التي يكون بوسعه الحفاظ عليها (Farrell, 1993; Hauser, 1999).

قائمة مصادر ومراجع:

Arendt, Hannah. *The Human Condition*. Chicago, 1958.

Aristotle. *Aristotle, On Rhetoric*. Translated by George A. Kennedy. New York, 1991.

Beer, Francis A., and Robert Hariman. "Strategic Intelligence and Discursive Realities." In *Post - Realism: The Rhetorical Turn in International Relations*, edited by Francis A. Beer and Robert Hariman, pp. pp. 387–414. East Lansing, Mich., 1995.

Cloud, Dana. Control and Consolation in American Culture and Politics: Rhetoric and Therapy. Thousand Oaks, Calif., 1998.

Darsey, James. The Prophetic Tradition and Radical Rhetoric in America. New York, 1997.

De Coulanges, Numa Denis Fustel. *The Ancient City*. Translated by William Small. New York, 1956.

نُشر لأول مرة عام ١٨٧٣.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy: The Humanist Tradition*. University Park, Pa., 1980.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Burger with the assistance of Frederick Lawrence. Cambridge, Mass., 1989

نُشر لأول مرة في عام ١٩٦٢ .

Hall, John A. "In Search of a Civil Society." In *Civil Society: Theory, History, Comparison*, edited by John A. Hall, pp. pp. 1–31. Cambridge, U. K., 1995.

Hariman, Robert. Political Style: The Artistry of Power. Chicago, 1995.

Hauser, Gerard A. Vernacular Voices: The Rhetoric of Publics and Public Spheres. Columbia, S. C., 1999.

Howell, Wilber Samuel. "Renaissance Rhetoric and Modern Rhetoric: A Study in Change." In *The Rhetorical Idiom*, edited by Donald C. Bryant, pp. pp. 53–70. Ithaca, N. Y., 1966.

Mailloux, Steven. *Rhetorical Power*. Ithaca, N. Y., 1989.

McKeon, Richard. "The Uses of Rhetoric in a Technological Age: Architectonic Productive Arts." In *The Prospect of Rhetoric*, edited by Lloyd F. Bitzer and Edwin Black, pp. pp. 44–63. Englewood Cliffs, N. J., 1971.

Seligman, Adam. "Animadversions upon Civil Society and Civic Virtue in the Last Decade of the Twentieth Century." In *Civil Society: Theory, History, Comparison*, edited by John A. Hall, pp. pp. 200– 223. Cambridge, U. K., 1995.

Page 637 / 837

Taylor, Charles. *Philosophical Arguments*. Cambridge, Mass., 1995.

Wells, Susan. Sweet Reason: Rhetoric and the Discourses of Modernity. Chicago, 1996.

البلاغة التأسيسية

البلاغة التأسيسية هي التي تشكل جمهورها المُخاطَب وتمده بهوية، وتُعد أساسية لصياغة الجماعة ولنشأة الأمم. يمكن فهمها على أنها نوع genre من الخطاب وعلى أنها، أيضًا، نظرية لفهم العمليات البلاغية. والبلاغة التأسيسية – بوصفها نوعًا – تفترض وتؤكد في الوقت نفسه هوية جامعة أساسية لجمهورها، وتقدم سردًا يُوضّح تلك الهوية، وتصدر دعوات للعمل بما يؤكد تلك الهوية. هذا النوع ضامن للفعل الصادر باسم تلك الهوية المشتركة، والمبادئ التي يدافع عنها. إن البلاغة التأسيسية ملاءمة للاكتشافات المؤسِّسة foundings – ما تُطلِق عليه حنا أرندت "لحظات الاكتشاف المؤسِّسة founding moments" –، لكنها ملائمة كذلك للحركات الاجتماعية والحملات السياسية القومية. وهي تنهض بوصفها سبيلا للتنظيم الجماعي collectivization، عادة في مواجهة خطر حاضر في ذاته بوصفه مغايرًا أو آخرًا.

والبلاغة التأسيسية بوصفها نظرية تفسر عملية تشكيل الهوية التي يعتمد عليها هذا النوع، حيث تتم دعوة الجمهور ليجسدوا عبر أفعالهم هوية منسوبة إليهم. وعادة ما تتعامل الخطابة السياسية والنظرية البلاغية مع هوية الجمهور بوصفها معطىً، ونتيجة، وعادة ما تُفهم البلاغة على أنها تُنتِج الإقناع. يُهيمن النموذج الإقناعي على النظرية البلاغية، وهو أساسي بالنسبة لكتابات أرسطو حول الموضوع. فهو يعتبر أن الممارسة البلاغية هي فن صناعة الخطب لإقناع جمهور تتم دعوته لكي يغيِّر حكمه على مسألة حادثة. وكتاب البلاغة

لأرسطو هو مرشد للابتكار الذي يبرز الحاجة للأدلة التي تستغل المسلمات والقيم والسمات والميول النمطية المؤثرة لدى جمهور معين. وانطلاقا من ذلك، فإن أرسطو لا يعترف بدور البلاغة فى إنتاج الهوية الشاملة والسمات الكاملة لجمهور ما.

وفي المقابل فإن النموذج التأسيسي، يمكن رده إلى السوفسطائيين الذين كانوا يُقدِّرون المفارقة ويعترفون بالقوة التأسيسية للتلفظات. [انظر السوفسطائيون]. تؤكد وجهة نظرهم على الطبيعة الحادثة والعرفية للمعرفة، وتعترف من ثمَّ بالخطاب بوصفه منتِجًا لمجمل المقولات التي نفهم من خلالها العالم، وتفهم الذات بالطبع. والنموذج الصادق لهذه الرؤية من البلاغة تمثله خطابة جورجياس، أحد السوفسطائيين المعاصرين لسقراط أصدق تمثيل. لقد قيل إن قوة خطابة جورجياس تستند إلى قدرتها على أن تسحر enthrall جمهورًا ما، لا على مخاطبة قدراته العقلية، بل على تغيير خبرتهم الأساسية فى الوجود بأسلوب شاعري. ورث كينيث بيرك هذا الخط الفكري عندما حاجج بأن الخطاب البلاغي يُنتِج التماهي *consubstantiality*. الخطاب البلاغي بالنسبة لبيرك يمكن أن يُعيد ترتيب معنى المصطلحات، لكي يصبح شيء ما أكثر أو أقل شبهًا بشيء آخر، أو جلب أعضاء من الجماهير للمشاركة فى الهوية العامة لكل منهم أو للمتكلم. لقد رأى بيرك – مستلهمًا فرويد وماركس – فى الخطاب تأسيسًا للحوافز motives "من خلف ظهر" العقل. يتيح وضع بيرك للتماهي identification فى الصدارة إمكانية التفسير البلاغي لخبرات التحول التي لا يمكن تفسيرها من زاوية مفهوم الإقناع عند أرسطو. ومن ثمَّ، فإن الهوية ذاتها يمكن النظر إليها بوصفها منتجًا بلاغيًا وليست معطىً سابقًا على الإقناع، والتي يعتمد الإقناع عليها.

قام موريس تشارلاند Maurice Charland (1987)، فى إطار النظرية البلاغية المعاصرة، بتطوير نظرية للبلاغة التأسيسية وذلك بالتأليف بين ما بعد البنيوية والصياغة المعاصرة لنظرية كينيث بيرك البلاغية. وفي مركز تحليلات تشارلاند توجد نظرية لويس ألتوسير الأيديولوجية حول الاستجواب "المساءلة" interpellation – وهي مقاربة بنيوية للسرد – ومفهوم بيرك للتماهي. الفاعل البلاغي لا يتموضع عبر التداوليات الشكلية للبنية السردية وصيغته فى التخاطب فحسب، بل يُعطي كذلك معنى من خلال التأثير الأيديولوجي للتماهي وتأويلاته. إن النداء الذي يحدث فى لحظة توجيه سرد بلاغي ما يفترض "على الدوام أصلا" وجود ما يعتمد عليه تفسيره وما يُعطيه جدارته فى الوقت ذاته؛ أي هوية مخاطبَه بوصفه نصيرًا تاريخيًا. تقوم البلاغة التأسيسية ببناء الفاعلين السياسيين بواسطة تأثيرات التماهي التي (١) توفر هوية جامعة لجمهور مخاطَب؛ (٢) تبني الجمهور بوصفه فاعلا فى التاريخ؛ (٣) تتطلب أن يتصرف الفاعلون بالتوافق مع هويتهم كما تُفعَّل فى التاريخ.

من منظور الناقد البلاغي؛ فإن التصور التأسيسي للبلاغة ليس من الضروري أن يكون متعارضًا مع التصور الإقناعي. وبالأحرى، فإن البلاغة التأسيسية سابقة منطقيًا على البلاغة الإقناعية؛ ما لم تكن أيضًا متزامنة معها. إذ يتوجب تأسيس هويات الجماهير قبل أن يصبح من الممكن مخاطَبتها. إن التأسيس يسبق الإقناع، إلا أن الإقناع لا يزال ممكن الحدوث. وعلاوة على ذلك، فلأن هوية الجمهور عادة ما تُفترض وتموضع بعد تأسيسها حول مناسبات سابقة؛ فإن عملية التأسيس ليست ظاهرة فى الكثير من التخاطب العام. وهكذا، بالتالي، فإن التأسيس يمكن التعامل معه بوصفه نوعًا: فالناقد الساعي نحو الإسهام فى التأسيس سوف يركِّز عادة على نصوص مثل

الدساتير، والإعلانات declarations والبيانات العامة والمانفيستو، وكذلك على بلاغة التحريك الاجتماعي والحركات الاجتماعية والحروب نظرًا لأن ازدهار الانقسام المتطرف من شأنه أن يُؤدي، كما يلاحظ بيرك، إلى ازدهار التماهي المتطرف.

لنظرية البلاغة التأسيسية سوابق فى النظرية البلاغية والنقد، خاصة فى مقال إدوين بلاك "الشخصية الثانية" Edwin Black"s "The Second Persona" (*Quarterly Journal of Speech* 56, 1970, pp. pp. 109–119)، ودراسة مايكل ماكجي Michael McGee"s (1975) عن بلاغة الاندماج الجماعي. ولم تكتشف مناقشة بلاك للشخصية الثانية العملية الشكلية للتأسيس فى ذاتها بل، بالأحرى، جذبت الانتباه إلى الأسلوب الذي تصوغ من خلاله البلاغة الأيديولوجية وجهة نظر كونية عالمية أو إقناعًا أخلاقيًا ethos، يجب أن يتبناه الجمهور بشكل سابق على أي إقناع آخر. وعلى ذلك فإن بلاك قد وضع الفاعل الاجتماعي فى قلب الأيديولوجيا، وحاجج بأن الدراسة النقدية الأيديولوجيا تتطلب تأويلًا لموضوع الإقناع الأخلاقي. يقدم بلاك بفعله ذلك، هرمنيوطيقا لموضوع الأيديولوجيا. ويدرس ماكجي فى المقابل مغزى الفعل الجمعي. لقد درس ماكجي الابتهال البلاغي rhetorical invocation تأسيس "الجمهور". وقد حاجج بأن "الجمهور" يوجد فحسب كأفراد يتم تجميعهم بواسطة الاستمالات البلاغية. وما إن يتم تجميعهم، فإن أفراد الجمهور يمكن أن يؤسِّسوا رصيدًا للقوة يمكن من خلاله الدفاع عن السلطة الشرعية أو تحديها.

علاوة على ذلك، فإن التوافق بين نظرية البلاغة التأسيسية وممارسات النقد البلاغي ينتج عن المكانة المهمة التي يشغلها السرد فى البلاغة التأسيسية. فالسرد جذري بالنسبة لبلاغة التأسيس لأن السرد يفتح فضاءات *سردية*، أي فضاءات قص مشحونة بالمعنى لكونها تُنتج تماهيًا مع وجهة

النظر. فالسرود تؤسس الفاعلين، والأبطال والأبطال الضد. وتصبو السرديات البلاغية إلى أن تحكي قصة عن العالم الواقعي وليس المزيف. وتسعى هذه السرديات لإضفاء سمة طبيعية على فضائها السردي. وهكذا فإن السرديات منفتحة على التحليل التأويلي. وتقود نظرية البلاغة التأسيسية الناقد نحو تأويل للسرديات يقوم بوظيفة الأمثولات أو النماذج.

مع ذلك، فإن هذه السرديات تقوم على مفارقة: فلابد أن تفترض أن جمهورًا يكون من قبل مُتحدًا مع الهوية نفسها التي يسعى لإثباتها. وعلى الرغم من أن التأسيس يمكن فهمه بوصفه نوعًا بلاغيًا، فإن الأكثر أهمية هي تلك الحيوية الشديدة لمفارقة الكلام. فنظرية البلاغة التأسيسية معنية بشكل أصيل بما يصفه بيرك بـــ"مفارقة الجوهر paradox of substance"، المتصلة بالحالة الوجودية للمقولات الكامنة فى الخطاب. إن مخاطبة الجمهور تتم كما لو كانت هويتهم سابقة فى وجودها على الجماعة السياسية، أو أنها تقوم بمهمة احتوائها. وعلاوة على ذلك، فلأن التخاطب أمر جوهري للخطاب البلاغي بأكمله، فإن مفارقة التأسيس دائمًا ما تكون حاضرة بخفاء كذلك. التخاطب البلاغي بشكل ضمني (وأحيانًا بشكل صريح) هو صدى للحظة فعل تأسيسي أصيل أو إعادة تمثيل له. إن مفارقة التأسيس محايثة لتداوليات التخاطب البلاغي ذاته. ومما هو جدير بالاهتمام بالنسبة لهذه المفارقة، أن نظرية التأسيس البلاغي هي تفكيكية *deconstructive*، لأنها تضفي طابعًا إشكاليًا على التمييز النوعي بين الكلام والجمهور، وهو التمييز الذي يقوم عليه فهم البلاغة بوصفها إقناعًا.

لقد استكشف جاك دريدا مفارقة التأسيس عبر مقولات نظرية أفعال الكلام. ففي تحليله للإعلان الأمريكي للاستقلال، يلاحظ ديريدا أنه لم يكن ممكنًا وجود أي تمثيل شرعي للشعب لكي يوقع الوثيقة إلا بعد التوقيع نفسه، الذي كان من نتائجه ولادة "الشعب" ذاته. وكما يلاحظ ديريدا، فإن التأسيس

هو فعل كلامي إنجازي، لابد أن ينكر سمته الإنجازية، ويدعي السلطة بواسطة تقديمها على أنها أبدية. وهكذا، بحسب ما يوضح ديريدا، فإن إعلان الاستقلال لابد أن يستدعي الإله شاهدًا، لأنه وحده هو منْ يستطيع أن يكفل السلطة للحظة الخلق تلك. ويُبرِز اهتمام ديريدا بسلطة التلفظ العلاقة بين البلاغة التأسيسية والقانون.

فالإله، فى نهاية الأمر، المانح الأعظم للقانون. فلا تتطلب البلاغة التأسيسية بالضرورة ألوهية، لكنها تتطلب وكيلا عنها، يتمثل فى قوانين التاريخ أو قوانين الطبيعة. وتؤكد البلاغة التأسيسية على مبدأ معياري مما سيكون بوضوح ادعاءً تجريبيًا. وكما يلاحظ ألتوسير (١٩٧١) فإن مساءلة الفاعلين تتطلب فاعلا، شموليا، سوف يسد مسد القانون، ويمثل المبدأ الأقصى للسلطة.

طور جيمس بويد وايت White (1987) العلاقة بين البلاغة التأسيسية والقانون عندما حاجج بأن البلاغة تؤسس الجماعات القانونية وترسخ شروط تعايشها المستمر. وبفعله ذلك، فإن وايت يحاكي ملاحظة بيرك المتعلقة بأن الدساتير بلاغية فى جوهرها. لا يؤسس من يصوغون مسودات الدساتير النظام السياسي فحسب، بل يصدرون أمرًا فيما يتعلق بكيف يمكن لها أن تحيا فى المستقبل. ومن منظور وايت، فإن البلاغة التأسيسية لا توجه للعامة بوصفهم أفرادًا من الشعب، بل لصانعي القوانين. تؤسس البلاغة التأسيسية الإطار بالنسبة للدساتير السياسية، وتؤسس مقاييس تفسيراتها القضائية. وهكذا فإن البلاغة التأسيسية لا تعتمد فحسب على الإقناع بل تعتمد كذلك على قواعد وميتافيزيقا القانون والإلزام. علاوة على ذلك، فإن التأسيس البلاغي يصبح مثبوتًا فى الممارسات المؤسساتية التي تحوّل مثل هذه "المواد" التأسيسية إلى شيء أكبر من الأفكار والمعاني.

كذلك يضع وايت فى الاعتبار القدرة الإبداعية للبلاغة التأسيسية كما تتجلى فى تمكين شيء جديد من ولوج العالم. فالجماعة السياسية تصبح ممكنة. ومهما يكن الأمر، فإن البلاغة التأسيسية - منظورًا إليها من زاوية هرمنيوطيقا الشك - تعمل بوصفها أيديولوجيا، وباعتبارها التمثيل الطبيعي للمقولات الثقافية التي تضفي شرعية على مؤسسات السلطة. إن نظرية البلاغة التأسيسية بتركيزها على الأيديولوجيا ونقدها للمقولات المتلقاة، هي جزء مما أصبح يُعرف بـ"**البلاغة النقدية** critical rhetoric"، وهي اتجاه فى الدراسات البلاغية متأثر بالنظرية الأيديولوجية كما طورتها مدرسة فرانكفورت وما بعد البنيوية الفرنسية، يسعى لأجل تفسير للبناء الخطابي للسلطة. وتوجه البلاغة النقدية الاهتمام إلى ما يقرره الخطاب العام ويُسلم به، كذلك يفحص الطرق التي تصبح بها العلاقة بين المتواصلين علاقة سلطة. إنَّ النظرية الأيديولوجية وما بعد البنيوية كلاهما يجذبان الانتباه نحو أهمية الذاتية بالنسبة للأيديولوجيا، والعمليات التي يتم بواسطتها بناء الذاتية نفسها فى الخطاب. وبالتالي فإن نظرية البلاغة التأسيسية مشكوك فيها بشكل جذري، لأنها ترفض أن تتعامل مع الهوية، والتي هي الأساس بالنسبة للقومية و"الهوية السياسية"، بوصفها معطى. إن البلاغة التأسيسية بالأحرى توجه الانتباه نحو السمة الحادثة تاريخيًا، واعتمادها على الخطاب. وتقود إلى رسم خريطة لميكانيزمات السلطة.

وفي النهاية فإن التأسيس، بفضل الإقناع، هو إحدى الوظائف البلاغية. فهو عنصر فى العملية التي تقوم اللغة من خلالها بصنع جماعات وأفعال وأحكام سياسية. فى حين أن البلاغة يمكن اعتبارها ذات طابع معرفي epistemic، لكونها يمكن أن تسهم فى المعرفة العملية أو الاجتماعية، فإن نظرية البلاغة التأسيسية تذكرنا بأن البلاغة هي أيضًا أنطولوجية بشكل جوهري، إذْ تضع الأسس الأصيلة لعالم الحياة السياسية. [انظر كذلك مقالا يقدم إطلالة على الجمهور والتواصل والمعرفة الاجتماعية **Audience; Communication;** and **Social knowledge**].

قائمة المصادر والمراجع

Althusser, Louis. *Lenin and Philosophy and other Essays*. London, 1971.

يقدم مقال "الأيديولوجيا وعُدَّة الدولة الأيديولوجية" تكاملا رائدًا بين النظرية الماركسية للأيديولوجيا ونظرية ما بعد البنيوية للفاعل. ويحول "المساءلة" إلى مفهوم قوي لموضعة الفاعل والإنتاج الأيديولوجي.

Arendt, Hannah. *Between Past and Future*. New York, 1968.

Burke, Kenneth. *A Grammar of Motives*. Berkeley, 1969. First published 1945.

يعرض مفهوم مفارقة الجوهر ويطورها عبر مناقشة للكلمات التي تنتمي إلى الأسرة المعجمية لكلمة "stance". ويعتبر القسم المعنون بـ "جدل الدساتير" الدستور الأمريكي "حكايةً أمثولاتية ممثّلة" للطبيعة البلاغية والساخرة لأفعال التأسيس. ويضع فى الاعتبار كيف أن الدساتير تتطلب مشهدًا فوق دستوري.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1969.

نُشر لأول مرة عام ١٩٥٠، وهو مناقشة رائعة ومكثفة للعلاقة بين الحجاج والتعرف بواسطة مبدأ "الدوافع" التنظيمي.

Charland, Maurice. "Constitutive Rhetoric: "The Case of the *Peuple Québécois*. "" *Quarterly Journal of Speech* 73 (1987). pp. pp. 133–150.

يقدم قراءة موحية لبلاغة حركة مقاطعة الكيبيك Quebec بكندا فى عام ١٩٨٠، بهدف صياغة نظرية البلاغة التأسيسية.

Coward, Rosalind, and John Ellis. *Language and Materialism: Developments in Semiology and the Theory of the Subject*. Boston, 1977.

يقدم طرحًا تفصيليًا مكتملا – وإن كان قديمًا الآن – لنظريات التحليل النفسي والماركسية وسيميائيات ما بعد البنيوية فى علاقتهما بمفهوم الفاعل.

Derrida, Jacques. "Declarations of Independence." *New Political Science* 15 (1986), pp. pp. 7–15.

يدرس مفارقة عملية التأليف والشرعية بوصفها صراعًا بين أفعال الكلام الأدائية وغير الأدائية. وهو رائع فى توضيحه لكيف أن السلطة تعتمد بالضرورة على المفارقة وخفائها.

Greene, Ronald Walter. "Another Materialist Rhetoric." *Critical Studies in Mass Communication* 15 (1998), pp. pp. 21–40.

يناقش حدود نظرية البلاغة التأسيسية بوصفها نظرية مادية.

McGee, Michael Calvin. "In Search of the "People": A Rhetorical Alternative." *Quarterly Journal of Speech* 61 (1975), pp. pp. 235–249.

كتاب رائد نظرًا لأنه يطور نظرية بلاغية مادية تقوم على فهم "الشعب" بوصفه تأسيسًا بلاغيًا يقوم بوظيفة تقديم تبرير أيديولوجي للصلاحيات السياسية، وبوصفه جمعًا سياسيًا قادرًا على الفعل كقوة فى التاريخ.

White, James Boyd. *When Words lose their Meaning: Constitutions and Reconstitutions of Language, Character, and Community*. Chicago, 1987.

يقدم نموذجًا لقراءة كل من الأدب والقانون بوصفهما تشكيلا للجماعة. ويقدم تفسيرًا نموذجيًا للوثائق الدستورية الأمريكية وشروحها القانونية.

البلاغة النقدية Critical Rhetoric

منذ عصر أفلاطون احتفى التراث المثالي للبلاغة الغربية بالدعوة إلى معنى كلّي للعقل على حساب تقدير السياق والحدوث contingency. يتحرك منظور البلاغة النقدية فى الاتجاه المضاد؛ معترفًا بدور العقل، لكنه يحتفي كذلك بقوى أخرى ربما تلعب دورًا مركزيًا فى تشكيل واقع مؤسَّس خطابيًا. هذا المنظور مفيد لكل من المتكلم السياسي، بوصفه موجِّهًا فى تأليف الخطاب، والناقد البلاغي أو أفراد الجمهور الذين يستجيبون لذلك الخطاب.

تتألف ممارسة البلاغة النقدية من شكلين من التحليل النقدي. الأول مساءلة الهيمنة critique of domination، ذو الغاية التحريرية، والذي يمكن أن نصوغه أسلوبيًا على أفضل نحو فى تعبير "التحرر من" كل ما يقيد إمكانياته. الثاني مساءلة الحريةcritique of freedom ، ذو الغاية التأملية التي تجعل أفعاله تضرب بجذورها فى تأمل متصل حول مشروطية العلاقات الإنسانية، والذي يمكن أن نصوغه أسلوبيًا فى تعبير "حرية أن" يُتحرك نحو علاقات جديدة مع الآخرين (McKerrow, 1991).

إدراك الدور الكبتي للسلطة فى الموقف الأول هو المسيطر، فى حين يسيطر إدراك السلطة بوصفها مُنتِجة على الموقف الثاني. يجب أن توسم هاتان السمتان بأنهما "وجهان لعملة واحدة"(Ono and Sloop, 1992, p. 50)، وليس بأنهما مقاربتان للتحليل النقدي تُقصي كل منهما الأخرى، خاصة نظرًا لأن كلتيهما تبزغ من مفهوم الحرية. فى الحالتين فإن المساءلة تتمتع بحرية

أن تتجاوز النقد وحده، وتمتحن المسلمات التي يقوم التحليل النقدي عليها. وهكذا، فلو أن شخصًا يعمل فى إطار حالة ديمقراطية، فإن المسلمات التي تقوم عليها الديمقراطية تصبح مفتوحة أمام المساءلة مثلها مثل الأفعال التي تنشأ من هذه الحالة.

غاية البلاغي أو الناقد هو الالتزام بالتغيير، بغض النظر عن اختياره لتوظيف أيٍّ من شكلي التحليل. وبغض النظر عما إذا كانت المساءلة تؤسس تقييمًا اجتماعيًا لما "يجب فعله" نتيجة لهذا التحليل؛ فإنها مع ذلك يجب أن تقوم بمهمة تحديد إمكانيات الفعل المستقبلي المتاح للمشاركين (McKerrow, 1989, p. 92). وقد حاجج أونو وسلوب Ono and Sloop بأن مساءلة الحرية يحمل معه هدفًا لتغيير معين فى اللحظة الفردية للتعزيز. وما إن تتغير الأمور، ويتم بناء العلاقات فى خطوط جديدة، حتى يعود الالتزام بمساءلة ما إذا كان ذلك هو أفضل الاختيارات المتاحة. وتعمل ممارسة البلاغة النقدية انطلاقًا من البحث وليس من منهج محدد أو وسائل تحليل معينة. وهكذا فإنها تعمل فى إطار تقاليد كينيث بيرك، فى حين أن هدفها ليس تطوير قائمة مصطلحات نقدية، أو إبراز مفردات بعينها، بل بالأحرى استخدام مثل هذه المفردات والمصطلحات فى خدمة الحجاج بشأن الطريقة التي يتم من خلالها تأسيس التشكيلات الخطابية (cf. Foucault, 1972). ومن ثَمَّ، فإن الإشارة إلى قطعة محددة من النقد بوصفها مثالا للممارسة النقدية سوف يكون صعبًا، لأن فعل ذلك ربما يؤدي إلى مخاطر تحديد المنهج بوصفها منهجًا واحدًا مفيدًا. تقاوم البلاغة النقدية بوصفها ممارسة نوع التركيز الذي يوصف غالبًا بأنه "قراءة نصية فاحصة"، أو "تحليل خماسي pentadic". علاوة على ذلك، فإنها تتطلب قلب المقاربة التراثية "للكلام العام" التي تفترض حالة متكلمْ – جمهور، لصالح مقاربة تركز على ما بلوره مكجي McGee بوصفه مقاربة ابتكارية نحو ممارسة نقدية.

لا تتطلب المقاربة الابتكارية – في توسيع منظور الفعل النقدي– التقليل من قدر المتكلم/الناقد بوصفه شخصًا يسعى وراء التغيير، ولا تقلل من إمكانية القيام بمساءلة دور الفاعل النقدي. بل هي بالأحرى، تعرض منظورًا يصنع سياقًا لدور الفاعل، سواء أكان متكلمًا أم ناقدًا، بوصفه نتاجًا لقوى محتملة تتفاعل مع الموضوع فى إنتاج أفعال خطابية. [انظر، **Ēthos**]. إن إمكانية أن يترك صوت المرء بصمة على العلاقات الاجتماعية هو دليل على القوة التي يحوزها المتكلم أو الناقد. مع ذلك، فإن هذه القوة ليست البناء الأصيل للفاعل المتكلم، بل هي بالأحرى قوة تُعطي للأنا قدرتها التعبيرية، ومن ثمَّ يتم تفعيل الذات. تشي "الأنا" بنفسها فى تاريخها الماضي والمستقبلي، بوصفها ذاتًا ممكنة التشكُّل (McKerrow, 1993, p. 64). إن تحديد موضع البلاغي الناقد يعني وضع الفعل النقدي فى سياق المستقبل المتولِّد على نحو احتمالي، وهو ذاته مفتوح للتغيير بطريقة غير محددة.

مبادئ الممارسة النقدية

تم تطوير ثمانية مبادئ للممارسة النقدية، مع التحفظ على أنه لم يُقصد بها أن تكون شاملة. المبدأ الأول ينطوي على منظور ابتكاري تمت الإشارة إليه فيما سبق عند ملاحظة أن "نقد الإيديولوجيا *Ideologiekritik* ليس فى الواقع منهجًا بل ممارسة" (McGee, 1984, p. 49). وهكذا فإن الممارسة تشجع الخيال الإبداعي بواسطة بعض الاعتبارات المنهجية المعينة أو المميزة. بالمعنى نفسه فإن حفريات فوكوه أو فيما بعد "علم الأنساب" ليس منهجًا بل ممارسة. سوف يكون من غير الصحيح الادعاء أن نبذ المنهج يعني نبذ المقاربة المنهجية (في ذاتها). إن ما تم نبذه هو انحياز لطريقة محددة فى البحث تتلاءم مع السياق أو الموقف كوسيلة منهجية للقيام بتحليل ما.

يُلح المبدأ الثاني على مادية الخطاب. ما يحتفي به هذا المبدأ هو أن الخطاب يمتلك القدرة على إحداث فرق فى العلاقات الاجتماعية التي توجد – أو يُحتمل أن توجد – بين الناس. الإلحاح على مادية الخطاب فى عالم نسبي لا يستبعد إمكانية مساءلته. فالحيلولة دون وجود معايير كلية ليس مكافئًا لاستحسان اللاعقلانية، كما أنه –علاوة على ذلك – ليس مكافئًا لتقليص الزعم بإمكانية تحقق مستقبل أفضل. (لمنظور بديل انظر Cloud,1994).

يتبع المبدأ الثالث – وهو أن البلاغة تتمركز حول المعتقد doxa، أكثر مما تتمركز على المعرفة episteme – المبدأ الثاني فى تركيزه على احتمالية الحدوث وليس على الطبيعة المؤكدة للتشكلات التي تبتدع فى الخطاب ومن خلاله. لا يركز هذا المبدأ على ما هو حقيقي أو مزيف فى الخطاب، بل على ما تفعله الرموز المستخدمة بالفعل فى بناء رؤى معينة للعالم؛ وأي أشكال السلطة هي التي يتم الإمساك بها أو تضمينها فى الخطاب؛ وما الذي يُنتج ذلك الخطاب بعينه وليس الخطابات الأخرى الممكنة. يتسق تضمُّن المعتقد مع الغاية الأصلية عند أرسطو (384-322 bce) فى إبراز طبيعة احتمالية حدوث البلاغة؛ فهو يفيد فى تعزيز فكرة أن الرأي يشكل "وسيلة للحصول على المعارف" (أي صورة واهنة من المعرفة)، فى حين تعترف بأن ما تتحقق معرفته لا هو مطلق ولا محصن ضد قوى الزمن. [انظر، **Contingency and probability**].

المبدأ التالي، وهو أن التسمية فعل مركزي، ينجم بالضرورة عن طبيعة الخطاب البلاغي المتمركز حول الرأي. فالتسمية وفقًا لبيرك ليست فعلا نهائيًا للتقييم بل هي تأويل لماهية ما هو مدرك فى لحظة ما بوصفه "كينونة". الكينونة، انطلاقا من هذا ليست نهائية أو مطلقة فى بنائها الخاص، لكنها بالأحرى تخضع لإمكانيات المستقبل المتعددة. لكن فى عملية التسمية يمكن للمرء على الأقل أن يجسد لحظيًا ما يُسمَّى، ومن ثمَّ يصوغ ويؤكد علاقة المرء الخاصة بالشيء

أو بالشخص المسمَّى. ترتبط السلطة بالتسمية كذلك، لأنها تُعزز من علاقة الفرد داخل (كما أنها يحتمل أن تقاوم) ما تستدعيه الكلمات. وكما تتغير الأسماء، تتغير علاقة السلطة الملازمة للاسم المستخدم.

المبدأ الخامس يتضمن السلطة بطريقة أكثر مباشرة مما تتضمنه التسمية، لكونه يقترح أن التأثير لا يتضمن السببية. عوضًا عن ذلك، فإنه يقوم بوظيفة اقتراح أن القوى التي تخلق الخطاب ربما تكون حاضرة وذات مغزى على نحو حسن، لكنها لا تقبل الاختزال فى الادعاءات السهلة للسببية. فتقليص التاريخ البلاغي إلى حد كونه تضمينات سببية هو تأطير لإنتاج البلاغة نفسها بأسلوب خطي (طولي) عفا عليه الزمان. وبالمثل فإن مدى إمكانيات تحليل العوامل التي تدفع بخطاب ما نحو الأمام سوف يكون مقيدًا. وسوف يُنظر إلى التاريخ على أنه مستمر، وليس متقطعًا. وكما أوضح فوكوه بعناء، فإن هذه رؤية بالغة الضيق لتفسير كيف وجدت الأشياء فى هذا العالم.

ما إن يتم صياغة "التأثير" مفهوميًا وفقًا لعلاقاته الصحيحة حتى يترتب على ذلك المبدأ السادس بشكل طبيعي، وهو: أن تأثير الغياب ربما يكون فى نفس درجة تأثير الحضور فى تشكيل طبيعة واقع معين. أي أن ما لا يُقال أو لا يُرى يمكن أن يكون مهمًا فى صياغة مسار أحداث المستقبل مثله مثل ما قيل أو لوحظ بالفعل. [انظر، البُعد الضمني **Tacit dimension**].

ولئن تكن التسمية حاسمة، فكذلك المبدأ السابع أيضًا. فلا يُراد من المساءلة الأيديولوجية أن تشكل وجهة نظر واحدة لعالم الخطاب، فتركيز الآخرين على الأمور بشكل مختلف، يعني أن النقاد أو البلاغيين لابد أن يُدافعوا عن أنفسهم بواسطة حجج مقبولة. ودفاع الآخرين عن نظرتهم الخاصة للواقع لا يعني أنها "صحيحة" بأكملها أو أنه لا أحد "خاطئ" بمعنى

ما. بل يعني بالأحرى أن وجهات النظر المتباينة حول ما يوجد أو يجب أن يوجد لابد أن تتشابك مع بعضها بعضًا، بوصفها تبريرات متنافسة من أجل المساندة أو النقد. لكي تقول عن فعل ما "إنه يبدو فكرة جيدة فى الوقت الراهن"، يعني فى الحال أن المرء لديه أسباب معقولة للانخراط فى الفعل، وأن معقولية تلك الأسباب ربما تكون موضع شك أو تحدي. فالأفعال يمكن الدفاع عنها، مثلما أن الأفكار تكون منفتحة أمام التحدي. بدلا من شل المساندة أو النقد، تتطلب البلاغة النقدية حالة ممكنة للحظة التي يتحقق فيها المرء من أن الأساس المنطقي لمعتقداته قد يضعف – في المستقبل بسبب المعلومات أو الاستبصارات الجديدة.

ويتضمن المبدأ الثامن إدراك أنه لو كانت الأفعال البلاغية أداءات، فإن هذا ينسحب أيضًا على الانتقادات التي تصاحب هذه الأفعال. إن القيام بدور الناقد يعني القيام بدور المؤدي فى العالم؛ أي أن تسعى وراء إحداث تغيير فى اللحظة، مع الإدراك الكامل بأن هذا التغيير قد يجعل الأشياء أكثر سوءًا عن ذي قبل، وأنه ما إن يتم تطبيق التغيير حتى تتفتح علاقات السلطة الجديدة أمام تأملات إضافية ومراجعات ممكنة. إن الناقد أو البلاغي – بوصفه مؤديًا – هو على علاقة وشيجة مع أخلاق "الانشغال بالذات" التي تُقصي احتمالية حدوث عجرفة مستمرة. فالبلاغي لا هو نكرة ولا خاوي الوفاض كذات مؤدية. فالمرء يتم تعريفه بأنه فاعل للتغيير، سواء بوصفه متكلمًا يخاطب جمهورًا، أو منخرطًا فى مساءلة خطاب الآخرين. وفي حين أن المرء ربما يحقق تمامًا غايات "الخادم النقدي critical servant" بالمعنى الإيزوقراطي Isocratean، فإن المرء لا يفعل ذلك من منطلق الشخص المتعجرف الذي قد "فهم الأمر". ففعل ذلك قد يقوّض الالتزام بالمبادئ السابقة، ويؤدي إلى احتقار التغيير الذي تُحدثه البلاغة النقدية.

والخلاصة أن تبني الموقف الذي تقدمه البلاغة النقدية يعني تبني اتجاهًا يعترف بإمكانية الخطأ فى محاولات المرء لفهم كيفية تشكل العالم فى علاقات السلطة داخل الخطاب ومن خلاله. والإمكانيات المتاحة أكثر انفتاحًا بكثير مما ندركه عبر توأمة مساءلة الهيمنة ومساءلة التحرر.

قائمة مصادر ومراجع

ملحوظة:

لقد بدأ ما يُعرف بــ"مشروع البلاغة النقدية" مع نشر مقال "البلاغة النقدية: النظرية والممارسة" (McKerrow, 1989). استند المقال على محادثات بين علماء متعددين على مدار ما يزيد على عقد من الزمان. وكانت أعمال Wander (1983), McGee (1975, 1980), Charland (1987) Hariman (1986), and Condit (1987)، وأعمال باحثين آخرين مؤثرة في صياغة أطروحة المقال.

Burke, Kenneth. *The Philosophy of Literary Form*. Baton Rouge, La., 1941.

Charland, Maurice. "Constitutive Rhetoric: The Case of the *Peuple Quebecois*." *Quarterly Journal of Speech* 73 (1987), pp. pp. 133–150.

Clark, N. "The Critical Servant: An Isocratean Contribution to Critical Rhetoric." *Quarterly Journal of Speech* 82 (1996), pp. pp. 111–124.

Cloud, D. "The Materiality of Discourse as Oxymoron: A Challenge to Critical Rhetoric." *Western Journal of Communication* 58 (1994), pp. pp. 141–163.

Condit, Celeste. "Democracy and Civil Rights: The Universalizing Influence of Public Argumentation." *Communication Monographs* 54 (1987), pp. pp. 1–18.

Foucault, Michel. *The Archaeology of Knowledge*. Translated by A. M. Sheridan Smith. New York, 1972.

Hariman, Robert. "Status, Marginality and Rhetorical Theory." *Quarterly Journal of Speech* 72 (1986), pp. pp. 38–54.

McGee, Michael C. "In Search of the "People": A Rhetorical Alternative." *Quarterly Journal of Speech* 61 (1975), pp. pp. 235–249.

McGee, Michael C. "The "Ideograph": A Link between Rhetoric and Ideology." *Quarterly Journal of Speech* 66 (1980), pp. pp. 1–16.

McGee, Michael C. "Another Philippic: Notes on the Ideological Turn in Criticism." *Central States Speech Journal* 35 (1984). pp. pp. 43–50.

McGee, Michael C. "Text, Context, and the Fragmentation of Contemporary Culture." *Western Journal of Speech Communication* 54 (1990), pp. pp. 274–289.

McKerrow, Raymie E. "Critical Rhetoric: Theory and Praxis." *Communication Monographs* 56 (1989), pp. pp. 91–111.

McKerrow, Raymie E. "Critical Rhetoric in a Postmodern World." *Quarterly Journal of Speech* 77 (1991), pp. pp. 75–78.

McKerrow, Raymie E. "Critical Rhetoric and the Possibility of the Subject." In *The Critical Turn: Rhetoric & Philosophy in Postmodern Discourse*. Edited by Ian Angus and Lenore Langsdorf, pp. pp. 51–67. Carbondale, Ill., 1993.

Ono, Kent A., and John M. Sloop. "Commitment to *Telos*—A Sustained Critical Rhetoric." *Communication Monographs* 59 (1992), pp. pp. 48–60.

Wander, Philip. "The Ideological Turn in Modern Criticism." *Central States Speech Journal* 34 (1983), pp. pp. 1–18.

تأليف: Raymie E. McKerrow

ترجمة: عماد عبد اللطيف

البلاغة والمشروعية Rhetoric and legitimation

التعامل مع موضوع البلاغة والمشروعية يعني مواجهة فكرتين متصارعتين. المشروعية هي عملية تحوز بواسطتها الأنظمة السياسية وأفكارها وسياساتها ومؤسساتها وممثليها المقبولية بواسطة الوفاء بمقاييس الرجحان المعيارية. وغالبًا ما تتضمن مناقشات المشروعية السياسية حجاجًا أوسع حول العدل والأخلاق والخير، وليس من المستغرب أن يكون لهذه المفاهيم أسس معيارية مغايرة فى جوهرها لتلك التي تكون للمشروعية السياسية (MacIntyre, 1988). ونظرا لأن البلاغة نفسها هي مصطلح مثير للخلاف، وله علاقة مربكة مع العدل والخير منذ كتابات أفلاطون، فإنه توجد منظورات مختلفة لعلاقته بالمشروعية.

فمن أحد المنظورات، تكون الأنظمة السياسية شرعية حين يؤمن هؤلاء الخاضعين لسلطتها بأنها شرعية. هذا هو موقف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Weber، وقد ظلت كتاباته هي المعالجة الكلاسيكية للشرعية فى القرن العشرين. حدد فيبر ثلاثة "أنماط نموذجية" للمشروعية، أو الأسس التي يقوم عليها الاعتقاد الضروري للشعب: المشروعية التقليدية والمشروعية الكاريزماتية والمشروعية العقلية – القانونية. وعلى الرغم من أن فيبر لم يقم بالربط بينها فإن المرء يمكن أن يماهي بين كل نمط من هذه الأنماط وصيغ بلاغية للمخاطبة.

تقوم المشروعية التقليدية على "إيمان راسخ بقداسة التقاليد immemorial، وشرعية legitimacy هؤلاء الذين يمارسون السلطة تحت مظلتها" (1968, p. 215). التخاطب الطقوسي، والشعائري، وغيرهما من العمليات البلاغية التي تقوي القيم التقليدية، تتأسس على معتقد *doxa* جماعي راسخ، وتحافظ على البنى الموروثة للسلطة، وهي تدعم المشروعية التقليدية. انظر **[Epideictic genre]**. **في** حين أن المشروعية الكاريزماتية تقوم على "الإخلاص لقداسة استثنائية، أو بطولية، أو شخصية مثالية لإنسان فرد، وللنماذج المعيارية أو النظام الذي يبرزه أو يصممه هذا الإنسان الفرد". تشير الكاريزما إلى الإيتوس *ēthos*، أي شخصية البليغ *rhētōr*، بوصفها القوة المحققة للمشروعية Garver, 1994, esp. pp. 188–193.

تتوافق الكاريزما كذلك مع فهم رومانسي للبلاغة بوصفها قوة شيطانية daemonic، يسيطر عليها الخطيب لكي يحرك العالم أو يعيد خلقه (انظر على سبيل المثال: Emerson, 1870). وختامًا فإن المشروعية العقلية – القانونية تعمل عبر "الاعتقاد بشرعية القوانين السارية، وحق هؤلاء الذين وصلوا إلى السلطة تحت ظل هذه القوانين في أن يصدروا الأوامر" (Weber, p. 215). وعلى الرغم من أن فيبر ربط بين هذا النمط من الشرعية والدول البيروقراطية الحديثة وتعليماتها المكتوبة، فإن المرء ربما يستطيع رؤيته يعمل في الإجراءات الحاكمة للنظم المسترشدة بالبلاغة التشاورية والنيابية [انظر **Deliberative genre**; and **Forensic genre**].

قد تنتقد النظريات الأشد معيارية فيبر لأنه يماهي بين الشرعية و(مجرد) إدراك المواطن الفاعل. لقد اشتغل أفلاطون وأرسطو والتراث الفلسفي المسيحي – اليهودي بشكل نمطي على مفاهيم محورية وجوهرية وعادة ميتافيزيقية للخير؛ بحيث تكون عملية إضفاء المشروعية حينئذ عملية

دفع العالم السياسي لينسجم مع تلك الغايات الأخلاقية المستقلة والمطلقة. في بعض الأحيان يتم انتقاد البلاغة في تلك الكيانات التراثية، لكنها أيضًا تجد مكانًا مماثلا للعلوم التي تنقل حقائق عليا للجماعات الإنسانية. وهكذا فإن البلاغة لا تؤسس بنفسها شرعية سياسية، بل تُظهرها لشعب يمكن أن يجدها حينئذ ملزِمة (انظر على سبيل المثال Weaver, 1953).

بدلا من تحديد موضع المجال الميتافيزيقي لما هو خيِّر، وضعت النظريات الحديثة، المشدودة إلى أيديولوجيات ديمقراطية وليبرالية، أسس المشروعية في أيدي "العامة" وفي عمليات التواصل المفتوح. فالشرعية لدى سلسلة من المفكرين البارزين (تشمل إيمانويل كانط، وجون ستيوارت ميل، وجون ديوي، وجون رولز ويورجن هابرماس) تتولد بفعل عمليات تشاورية حقيقية أو متخيلة، تُعرِّف ما هو حق وعدل في الحياة السياسية.

تُعد نظرية هابرماس مهمة على وجه الخصوص. ففي منتصف السبعينيات، وأثناء ما يُسمى أزمة الثقة في العالم الصناعي، كتب هابرماس أكثر التفسيرات المهمة وضوحًا منذ كتابات فيبر. فاستنادًا إلى دراسته المبكرة (التحول البنيوي في الفضاء العام *Structural Transformation of the Public Sphere* (1989a)، فحص هابرماس "أزمة المشروعية" في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. وبعد انتقاله إلى عمله التالي حول الفعل التواصلي وأخلاقيات الخطاب، حاجج هابرماس بأن الشرعية تعني أن المعايير التي تحكم الفعل الجماعي "تعبر عن مصالح قابلة للتعميم، وتؤسَّس على توافق عقلي (أو أنها سوف تجد هذه التوافقات لو تمكن الخطاب العملي من الحدوث)"(1975, p. 111) . وكما أوضح في أحدث أعماله، فإن الشرعية تقوم على التوافق الذي ينشأ بشكل نموذجي من الحجاج العقلاني بين كلٍ هؤلاء الذين يتأثرون بسياسة ما أو نظام سياسي ما.

يضع هابرماس، مثل رولز وغيره من المنظرين السياسيين العقلانيين، معايير للمشروعية، يمكن – بالتحديد – أن تستقل عن الممارسة البلاغية الملموسة. وعلى خلاف التفسير الأكثر اجتماعية مثل ذلك الذي قدمه فيبر، والذي يقر بوجود الشرعية حيثما يوجد إيمان شعبي في نظام الحكم أو السياسات، فإن هابرماس يعرض نموذجًا تنظيميًا يمكن أن يُستخدم لتوجيه صنع القرار السياسي وممارسات السلطة وتقييماتهما. ونظرًا لأن كل ذلك يتأثر بسياسة لا يمكن في الواقع الحجاج بشأنها معًا (مشكلة المجتمعات السياسية بالغة الضخامة)، فإن المشروعية الهابرماسية أقرب إلى النموذج الفلسفي المثالي منها إلى الممارسة البلاغية.

مع ذلك، فإن للمشروعية – بقدر ما تكون مرتبطة بمفاهيم الفضاء العام – مكوناتها البلاغية. فبالنسبة لهابرماس فإن الفضاء العام هو مجال الحياة الاجتماعية حيث يتعامل المواطنون مع أمور المصالح العامة بدون أن يخضعوا للقسر، وحيث يمكن لأي فرد المشاركة من حيث المبدأ، وحيث يتم التعبير بحرية عن الآراء ونقدها. والفضاء العام –وفقًا لهذا الوصف – له تاريخ واضح؛ فقد نشأ أثناء عصر التنوير، حين واجه المواطن – من العامة a citizen - public سلطة الدولة بنجاح، وتراجع في القرن العشرين بتأثير وسائل الإعلام الجماهيرية، والمنظمات بالغة الضخامة، والفكر الذي يحركه السوق. لكن بعض أشكال العمومية publicness هي جزء من كل أشكال الحياة السياسية، وهذا الحقل كان لزمن طويل مملكة للبلاغة. من ثَمَّ، يمكن المحاججة بأن البلاغة هي العربة التي تحافظ على حيوية وعد الفضاء العام الهابرماسي (Farrell, 1993, p. 199)، وهي من ثمَّ عربة تقوم بوظيفة تقريب الأنظمة السياسية إلى العدل والشرعية الحقيقيين.

من بين نقاد هابرماس العديدين، من اعترض على نموذج التوافق العقلاني، الذي يتأسس عليه تفسيره لعملية إضفاء الشرعية. فقد هاجم جان فرنسوا ليوتار – على سبيل المثال – التوافق بوصفه "قيمة بائدة مشكوكًا فيها"، (1984, p. 66)، واحتفى بدلا من ذلك بالاختلاف، والتعددية، والممارسات التواصلية التنافسية agonistic. يمكن قراءة نظرية ليوتار الاجتماعية بوصفها جزءًا من الإحياء ما بعد الحداثي الواسع للبلاغة السوفسطائية (انظر على سبيل المثال،Poulakos 1995)، التي تضع اللاتجانس الخطابي، والتوتر والنزعة الساخرة محل الحجج المحكومة بالقواعد التي يدافع عنها المنظرون العقلانيون مثل هابرماس. فالشرعية السياسية، بالنسبة لمفكر ما بعد حداثي مثل ليوتار، يمكن أن تنشأ فحسب بوصفها نقطة ارتكاز بلاغية مؤقتة ومتصارعة وربما مشكوكًا فيها في عالم لابد وأن تُحترم تعدديته الأصيلة والأساسية ويتم الحفاظ عليها.

قائمة مصادر ومراجع

Barker, Rodney. *Political Legitimacy and the State*. Oxford, 1990.

مقدمة جيدة لمفهوم الشرعية و أدبياته.

Calhoun, Craig ed., *Habermas and the Public Sphere*. Cambridge, Mass., 1992.

خارطة طريق مفيدة لنظرية هابرماس حول الفضاء العام.

Emerson, Ralph Waldo. "Eloquence." In *The Complete Works of Ralph Waldo Emerson*, vol. 7, pp. pp. 61–100. Boston, 1870.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

مزج فلسفي معقد بين هابرماس ونظرية أرسطو البلاغية، يدرس آفاق العقل العام فى العصور الحديثة.

Garver, Eugene. Aristotle"s Rhetoric: An Art of Character. Chicago, 1994.

Habermas, Jürgen. *Legitimation Crisis*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1975.

دراسة لمشكلات المشروعية النظامية فى الدول الأممية فى مراحلها الرأسمالية المتأخرة.

Habermas, Jürgen. "Legitimation Problems in the Modern State." In *Communication and the Evolution of Society*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1979.

محاضرة ألقيت عام ١٩٧٤ تتضمن الأمور الجوهرية فى أزمة المشروعية.

Habermas, Jürgen. *Structural Transformation of the Public Sphere*. Translated by Thomas Burger. Cambridge, Mass., 1989a.

نشر لأول مرة فى عام ١٩٦٢.

Habermas, Jürgen. "The Public Sphere." In *Jürgen Habermas on Society and Politics: A Reader*. Edited by Steven Seidman, pp. pp. 231–236. Boston, 1989b.

ملخص عظيم يتكون من ست صفحات لكتاب التحول البنيوي للفضاء العام.

Habermas, Jürgen. *The Inclusion of the Other: Studies in Political Theory*. Edited and translated by Ciaran Cronin and Pablo De Greif. Cambridge, Mass., 1998.

مجموعة من أعمال هابرماس المنشورة مؤخرا حول أخلاقيات الخطاب والسياسة، وتشمل مقدمة جيدة كتبها المحرران وأقسامًا تشرح وجهة نظر هابرماس من اختلافاته مع جون رولز.

Hariman, Robert. *Political Style: The Artistry of Power*. Chicago, 1995.

مزيج مثير من النظريات البلاغية والسياسية التي تستكشف الذخيرة الأسلوبية التي تضيف إلى السلطة والإقناع، وبالتالي إلى الشرعية.

Lyotard, Jean - François. *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*. Translated by Geoff Bennington. Minneapolis, 1984.

تحدي ما بعد حداثي رائد لسرديات المشروعية الحداثية.

MacIntyre, Alasdair. *Whose Justice? Which Rationality?* Notre Dame, Ind., 1988.

نقد للنماذج الليبرالية والتنويرية للعدالة، وتذكير بالخلافات التاريخية حول الأساس المعياري للشرعية السياسية

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Ancient Greece*. Columbia, S. C., 1995.

Simonson, Peter. "Mediated Sources of Public Confidence." *Journal of Communication* 49. 2 (1999), pp. pp. 109–122. *The Ethics of Rhetoric*. Chicago, 1953.

محاولة للتنظير للدور الذي تلعبه وسائل الإعلام فى إضفاء الشرعية والثقة العامة.

Weber, Max. *Economy and Society*. 3 vols. Edited and translated by Guenther Roth and Claus Wittich. New York, 1968.

يتضمن الجزء الأول والثالث معالجة ممتدة لأنماط فيبر النموذجية الثلاثة للشرعية، التي وضعها قبل وفاته فى عام ١٩٢٠ بعشر سنوات.

تأليف: Peter Simonson

ترجمة: عماد عبد اللطيف

Rhetoric and Dower البلاغة والسلطة

السياسة والبلاغة والسلطة يشكلون حزمة من المصطلحات وثيقة الارتباط. فكلمة سياسة *politics* هي مرادف مفترض لكلمة سلطة *power*، *في حين أن "الكلمة" word و"الاستراتيجية" strategy* هما عصب الحكم. منذ اختراع الكتابة، أصبح الضبط الاجتماعي والأساطير الجمعية وبناء الرسائل هي القوالب التي بنينا بها المدينة البشرية *polis*. زيَّف السوفسطائيون اليونانيون الأولون الروابط بين البلاغة والسيادة السياسية. وقد حاول أفلاطون (c. 428–c. 347 bce) كسر هذه الروابط بواسطة نظام تعليمي بدا أنه يفصل البيان عن الحكمة. وأعاد شيشرون (106– 43 bce) الاتحاد بين اللغة الإقناعية وقوة المجتمع، لكن هذا الاتحاد سرعان ما فقد بانهيار المدينة الغربية فى 476. (انظر البلاغة الكلاسيكية).

لقد قام ميكيافيلي – المنظر الرائد للسلطة فى العصر الحديث – بتصميم بلاغة الإرهاب والإرباك لتكون سلاحًا فى أيدي الحكام. [انظر مقالا يقدم إطلالة على البلاغة الإحيائية]. لقد اعترض جون لوك (1704 –1632) والقادة المؤسسون لأمريكا على كتاب ميكيافيلي (الأمير)، وكتاب هوبز اللوياثان أو الدولة[1] (1651) *Leviathan*، الذي قاموا بتحاشيه بسبب نزعته الفردية غير الأخلاقية. لقد كانت السلطة التشريعية والتنفيذية فى النموذج السابق منقسمة، وكان الأمير قابضًا على مقاليد الأمور. كان خوف القرن الثامن عشر من اتحاد السلطة المركزية مع النزعات الشعبوية ما زال يشكل

---

(١) اللوياثان هو وحش بحري يرمز إلى الشر في الكتاب المقدس.

مُثلنا العليا عن الحكم. [انظر بلاغة القرن الثامن عشر]. تضع الديمقراطية المعاصرة الخطاب المدني فى إطار جماعة ذات فضاءات محدودة السلطان، أما ما يجب أن يحظى بالاعتبار فهو تكتلات القوى المضادة والحكام.

إذا أخذنا فى الحسبان أهمية هذا التراث، فليس من المستغرب أن تكون كثرة من الموضوعات البالغة الخطورة فى دراسة الخطاب السياسي هي موضوعات للسلطة. لقد جعلت التغيرات التكنولوجية الهائلة وتمدد وسائل الإعلام الصعود الاجتماعي السريع لمجموع السكان أمرًا ممكنًا، وأدت إلى إعادة تشكيل العلاقة بين المواطن والحكومة.

تتعامل الموضوعات المهيمنة على الباحثين المحدثين (مثل المشروعية، والمسئولية، والنفاذ إلى وسائل الإعلام، والأسطورة السياسية، والخطاب التقني.. إلخ) مع تأثير القوة هائلة التنامي على أشكال الخطاب المدني وقيمه وتقاليده. وسوف تؤخذ فى الاعتبار هنا بعض هذه الموضوعات.

المشروعية

كان المُنظِّر الألماني المعاصر يورجن هابرماس أحد أوائل من لفتوا الانتباه إلى مأزق مؤسسات الحكم فى أوروبا وشمال أمريكا (١٩٧٩). أكد هابرماس أنه نتيجة لعدم اشتراك المواطنين الحاليين فى إنشاء هذه المؤسسات وتطويرها ربما يعانون من انفصال عميق عن هذه المؤسسات، ويشعرون بمسئولية محدودة حين يكون أداء هذه المؤسسات ضعيفًا. واستنتج أنه يجب تعديل الممارسات التواصلية لكي تعطي المواطن شعورًا بالمشاركة ذات المغزى. وقام باحثون آخرون بتوسيع هذا العمل لكي يدرس الخطاب التقني. وحاججوا بأن ازدهار النزعة التقنية سمح للخبراء بادعاء امتلاك السلطة على حقل تخصص بعد آخر، ومن ثمَّ إزاحته من مناقشات الفضاء العام. ويعني هذا

أن القرارات التي تؤثر فى استغلال الأرض، وتوزيع المصادر، والنقل نادرا ما يصوغها المحليون الذين يتأثرون مباشرة بهذه القرارات. فهذه القرارات بالأحرى يصوغها عدد غير محدود من الخبراء فى أماكن بعيدة.

الأسطورة السياسية

وعلى الرغم من فشل الماركسية كنظام اقتصادي محتمل فإنها ألهمت العديد من علماء البلاغة. كان كينيث بيرك (1897-1993) رائد هؤلاء العلماء، الذي وسع مفهوم كارل ماركس حول التعمية السياسية. إحدى مساهمات بيرك الرئيسة فى الدراسات البلاغية هي رؤيته للخطاب السياسي بوصفه استثارة evocation للأساطير السياسية. فالأساطير وفقًا لبيرك هي مستودعات المعتقدات التي تكمن مباشرة تحت سطح أفكارنا الواعية. هناك أساطير سياسية مفيدة مثل انتصار الشخص على الظروف، وحتمية التطور المادي، والإيمان بالعلم المتسارع بوتيرة ثابتة. هذه الأساطير يتم استدعاؤها فى اللغة المشفرة للسياسيين الساعين نحو السلطة.

النفاذ لوسائل الإعلام

يعد المنظِّر البلاغي والثقافي المعاصر مارك أورب Orbe أحد الممثلين الرواد لمدرسة "الجماعات التي لا صوت لها muted" فى الخطاب السياسي. يوكد أورب أن الأعضاء الذين يتمتعون بالامتيازات في كل مجتمع يصوغون ويحتفظون بسلسلة من الممارسات التواصلية التي تقدّم خبراتهم ووجهة نظرهم بوصفها وحدها الجديرة بالأهمية، وفي الوقت ذاته يقومون بالتقليل من شأن خبرات ووجهة نظر الجماعات الهامشية وإخفائها، أي فرض الصمت عليها (1998, p. 11). وقام علماء آخرون، مثل كال لوج Logue، بتطوير فكرة **مكانة المتكلم**، ملاحظين أن الأقوياء هم الذين يحظون بالنفاذ

إلى وسائل الإعلام، والتقدير العام، والفرص الرحبة لتعزيز أجنداتهم المؤسَّسة على مصالحهم الخاصة(Logue and Miller, 1995, p. 20). وعلى الرغم من وجود خلافات حول أصول المصطلح فإن مصطلح "الصوت التابع" *subaltern voice* يعبر عن الاعتقاد بأن الأشخاص الذين لا سلطة لهم يتحدثون على نحو واسع من خلال شكل من الكلام الجواني ventriloquism. فالأشخاص الذين لا سلطة لهم ربما يحركون شفاههم على حين أن الكلمات التي ينطقونها تنتمي إلى الأقوياء. لقد أعاد أورب – مثل لوج – بعث فكرة تعويض فاقدي السلطة. ويحاجج بأن الشخص المهمَّش يتمتع بمنظور مزدوج ناتج غالبًا عن فهم أكثر أصالة وعمقًا للخطاب السياسي (p. 29).

التمكين Empowerment

أصبح التمكين فى الغالب محكًا لدراسة الخطاب السياسي. لقد أسفت كاثلين جاميسون ودافيد بيردسل Jamieson and Birdsell (1988) على تلاشي الخطاب العقلاني من البلاغة الرئاسية. فالكم الهائل من الصور البراقة والشعارات الفارغة يُسلي شريحة ضخمة من الناخبين ويبهرهم وغالبًا ما يزيد من غبائهم إن لم يتركهم بغير معرفة. وقد أوصى جاميسون وبيردسل بالعودة للأشكال البلاغية التي تقدم الحجج الدقيقة حول الجوانب المتعددة للموضوع لتمكين المواطنين العاديين من تحصيل المعرفة واتخاذ قرارات مسئولة. وقد تعاملت باحثات نسويات مثل كارول بوزانيل Buzzanell مع التأثيرات الخفية للسلطة على أعراف التواصل ومعايير التعبير السياسي (1995, pp. 330–332).

نظرية الإطار Frame Theory

درس عدد متزايد من العلماء مفاهيم السلطة المقسَّمة والسلطة الموازية countervailing power عبر عدسات نظرية الإطار. وتعد دراسة جيم كويبرس

Kuypers (1997) عن السياسة الخارجية لإدارة كلينتون –التي تصف معركة أطر متصارعة بين الفرع التنفيذي ووسائل الإعلام - نموذجًا إرشاديًا لهذا النوع من البحث. يبرهن كويبرس على أن فقدان السلطة التنفيذية لإطار الحرب الباردة الفعال أتاح لوسائل الإعلام ممارسة سلطة تعريف منافسة، فى تأطير معنى أحداث ما بعد الحرب الباردة. ويمثل عمل رايموند جوزي Gozzi (1999) - حول تعزيز وسائل الإعلام الواسع لسلطة الاستعارة بوصفها نموذجًا معرفيًا فى الخطاب السياسي - نوعًا آخر من دراسات الإطار السياسي. وقد كان عمل الباحثة النسوية لورين كود Code (1995) مؤثرًا فى هذا السياق. واستخدمت فكرة كود حول ابتكار الأفكار المؤسس على المصالح فى شرح سلطة الحكمة العرفية، والمعايير الذكورية المهيمنة على الخطاب السياسي (ص ٦٩).

القيادة والنخب

لقد أشاع هانز جيرث Gerth ورايت ميلز Mills فكرة "مفردات التحفيز vocabularies of motive" فى خمسينيات القرن العشرين. كان هذا أسلوبا للخطاب يتم فيه إخفاء غرض يخدم المصلحة الشخصية بواسطة استخدام بلاغة خدمة الجماعة والمثالية الإيثارية. وقد كانت بحوثهما استشرافًا لبحوثنا المعاصرة حول شبكات التأثير، وشبكات القوى التي تحتفظ فيها الجماعات وثيقة الترابط بالسلطة السياسية من خلال الاحتفاظ بها مخفية، وعلى ذلك تكون مقبولة.

لقد كان هناك إحياء للاهتمام بالقيادة الكاريزمية تمثّل فى عمل ميشيل هوجان وجلن ويليامز Hogan and Williams (2000). لقد نشأ حافزهما على هذه الدراسة من العمل الرائد لإيرفين شيفر Irvine Schiffer (1977) الذي حدد موضع قوة الكاريزما بأنه الرسائل وليس المواقف أو الأحداث. وقد أتاح هذا

المنظور لهوجان وويليامز اكتشاف الطرق التي يقوم المتكلمون من خلالها بالفعل ببناء الأزمة التي جاءت بهم إلى السلطة (Schiffer, pp. 262-265).

المعلومات

لم يتم تجاهل قوة المعلومات السياسية. وقد كشفت دراسة رائدة لريتشارد براون(1989) Brown عن الرابطة التاريخية بين الثقافة المدنية والاستدعاء الحاسم للمعلومات (مثل حاجة الجمهور للمعرفة). فى كل يوم تتوسع بلاغة التحكم فى المعلومات، خاصة بظهور مبتكرات من قبيل السير الذاتية الموجزة.

المحصلة النهائية هي أن العديد من دراسات الخطاب السياسي تنبع من موضوعات السلطة. ويشكل تأثير توسع السلطة على أعراف الخطاب، وعلى كفاءة مشاركة المواطنين، وعلى بقاء الديمقراطية ذاتها فى الوقت الراهن جزءا لا يستهان به من الأجندة البحثية.

Brown, Richard D. Knowledge is Power: The Diffusion of Information in Early America. New York, 1989.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. New York, 1950.

Buzzanell, Patrice M. "Reframing the Glass Ceiling as a Socially Constructed Process: Implications for Understanding and Change." *Communication Monographs* 62 (1995), pp. pp. 327–354.

Code, Lorraine. *Rhetorical Spaces*. New York, 1995.

Gerth, Hans, and C. Wright Mills. *Character and Social Structure*. New York, 1952.

Gozzi, Raymond. The Power of Metaphor in the Age of Electronic Media. Cresskill, N. Y., 1999.

Gross, Alan G. "The Roles of Rhetoric in the Public Understanding of Science." *Public Understanding of Science* 3 (1994), pp. pp. 3–23.

Habermas, Jürgen. *Communication and the Evolution of Society*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1979.

Hogan, J. Michael, and Glen Williams. "Republican Charisma and the American Revolution: The Textual Persona of Thomas Paines" *Common Sense*." *Quarterly Journal of Speech* 86 (2000), pp. pp. 1–18.

Jamieson, Kathleen Hall, and David S. Birdsell. Presidential Debate: The Challenge of Creating An Informed Electorate. New York, 1988.

Kuypers, Jim A. Presidential Crisis Rhetoric and the Press in the Post Cold War World. New York, 1997.

Logue, Cal, and Eugene F. Miller. "Rhetorical Status: A Study of Its Origins, Functions, and Consequences." *The Quarterly Journal of Speech* 81 (1995), pp. pp. 20–47.

Orbe, Mark P. Constructing Co - cultural Theory: An Explication of Culture, Power and Communication. Thousand Oaks, Calif., 1998.

Schiffer, Irvine. Charisma: A Psychoanalytic Look at Mass Society. New York, 1977.

تأليف: Andrew A. King

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

The third face of power الوجه الثالث للسلطة

يعتمد نجاح حجة سياسية ما فى ديمقراطية جماهيرية - بشكل كبير - على الطرق التقليدية للحجاج البلاغي. إن القدرة على ممارسة مهارة اختيار الأدلة البلاغية وتنظيمها وتقديمها هي الوجه الأول للسلطة. فمنذ زمن السوفسطائيين حتى ابتكار وسائل الإعلام الجماهيرية، نُظر إلى المسابقات البلاغية على نحو شبه كامل فى هذا السياق. وعادة ما كان الشخص البليغ ذو المهارات البلاغية الأكثر صقلا هو الذي يُتوقع فوزه فى المناظرة، ولا يزال الأمر كذلك.

لقد أدى تطور الجماعات الجماهيرية ووسائل الإعلام الجماهيرية إلى ظهور مشكلة لم تستشرفها البلاغة التقليدية. فالشخص البليغ الآن يحتاج أيضًا - بالإضافة إلى حجة فعالة - إلى الحصول على منفذ لقنوات التواصل الجماهيري لكي يصل إلى الجماهير الغفيرة. لقد حدد باحثو التواصل فى الستينيات والسبعينيات السيطرة على قنوات التواصل الجماهيري بوصفها الوجه الثاني للسلطة، وأطلقوا عليها "وضع الأجندة agenda setting" (Bachrach and Baratz, 1963; Macombs and Shaw, 1972). ينطوي وضع أجندة الأولويات على ممارسة السيطرة على ما يظهر على صفحات الجرائد أو عبر الموجات الإذاعية بواسطة المحررين والمنتجين. وهذا الشكل من أشكال ممارسة السلطة ذو مستوى أعلى من ابتكار حجة بلاغية؛ لأن الشخص المسيطر على وضع أجندة قناة اتصال جماهيري ما يستطيع أن يؤطر الحجة البلاغية بطرق قد

تقويها أو تضعفها، أو حتى تستأصلها بواسطة الحرمان من النفاذ إلى الجمهور الغفير. وهكذا فإن الشخص الذي يتمتع بالسيطرة على ترتيب أولويات المناقشات العامة تكون لديه قدرة أكبر على التأثير فى نواتج النقاش العام مقارنة بالمواطن الذي يؤلف رسالة سياسية ما.

علاوة على ذلك، فإن الكفاح المستمر للتفاوض حول الرسائل عبر قنوات التواصل الجماهيري أدى إلى اكتشاف أن الحجاج التقليدي ووضع الأجندة كليهما يمكن أن يكون خاضعًا مع ذلك لسلطة أخرى؛ حتى وإن كانت ذات ممارسة أعلى. هذا الوجه الثالث للسلطة هو القدرة على التلاعب بالقواعد الأساسية للخطاب، لا لحيازة النفاذ إلى قنوات التواصل الجماهيري ببساطة، بل فى الغالب لجعل الموقف البلاغي متقبلا على نحو أكبر لحجة بعينها، وأقل تقبلا لحجة أخرى. [انظر، الموقف البلاغي **Rhetorical situation**].

على خلاف وضع الأولويات - التي تقتصر بشكل جذري على عمليات التواصل الجماهيري - فإن الوجه الثالث للسلطة يؤثر على مجمل سلسلة المواقف البلاغية. فالخطاب المنتج بواسطة الاشتباك بين البلاغة والسياسة عرضة للتأثر على نحو فريد، وذلك لكونه يحدث فى منتدى عام، وكونه محددًا بأمور ذات أهمية عامة، وكون طرقه مقيدة بتقاليد حازمة وقوانين صارمة. يمكن لافتتاحيات الصحف، والأحداث الإخبارية والخطب والإعلانات الانتخابية ومسوح الرأي وحتى الأغاني الغزلية أن تكون جميعًا أشكالا من البلاغة السياسية؛ لو أنها شاركت فى النقاش العام حول أمور ذات أهمية عامة. وكل أبعاد نشأة وصياغة هذه الأشكال من الحجاج البلاغي التي تحكمها قواعد مدركة أو فعلية، معرضة لتأثير الوجه الثالث من تلاعب السلطة.

وفي حين يُحتمل تطبيق استراتيجية الوجه الثالث للسلطة على جميع مستويات الخطاب، فإن أثرها الأعظم على البلاغة السياسية هو كونها وسيلة

للتلاعب بمنافذ وسائل الإعلام. فالصحفيون والقائمون بالتواصل فى مهن أخرى هم الأكثر عرضة على وجه الخصوص لتأثير الوجه الثالث من السلطة، لأن قواعد الصحافة المهنية -فيما عدا تلك التي سوف نصفها فيما بعد - تتحكم فى الطرق التي يتواصلون من خلالها. وهكذا فإن حجج الوجه الثالث للسلطة هي وسائل يستطيع الأفراد من خلالها محاولة إحداث توازن مع القوة التي يبدو أنها لا تقهر تلك التي يحوزها ملاك قنوات التواصل الجماهيري الأساسية.

لقد نفّذ أحد الاستخدامات الدالة لاستراتيجيات الوجه الثالث من السلطة فى القرن العشرين. ففي خطبة عن "الشغوف بنشر الفضائح" "The Man with the Muckrake" (1906) استشهد الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت بشكل أساسي بقواعد اجتماعية تنشد الصدق والنزاهة لكي يحث الصحفيين على أن يكونوا أكثر موضوعية. يقول - متحديًا الصحفيين أن لا يكونوا أمناء فحسب بل غير متحيزين أيضًا - "إن الأمانة لا يمكن أن تحابي الأشخاص". وفي عام ١٩٦٩ ادعى نائب الرئيس الأمريكي سبيرو أجنيو Spiro Agnew أن أحد المعلقين التليفزيونيين الذي كان ناقدًا للرئيس ريتشارد نيكسون قام بـــ"اعتداء حزبي" "اتخذ شكل النبالة التي يتسم بها قول موضوعي". إن القاعدة الضمنية فى الحالتين هي أن الصحفيين يجدر بهم أن يكونوا موضوعيين، وهي إشارة لا تقلص فى تلك السياقات فحسب من النقد المحتمل من الصحفيين الآخرين بل إنها أيضًا تجعل العامة أكثر تشككًا فيما يقوله الصحفيون أنفسهم. وعلى نحو مشابه فإن المرشح للرئاسة فى ١٩٨٧ جاري هارت Hart، فى استجابة لفضيحة دونا رايس Rice، والمرشح الرئاسي جورج بوش فى مقابلة حية على قناة سي بي إس CBS حول مسألة إيران كونترا، استشهدا بقواعد صحفية تحكم اختيار الأخبار وفحصها وتقديمها. وقد ادَّعى كلاهما أن الصحفيين ليس من صلاحيات عملهم تغطية أيٍّ من الأمرين.

يُعتقد عمومًا أن الصحفي يختار موضوعًا ليكون خبرًا صحفيًا؛ لأنه ذو أهمية عامة وليست شخصية. ويتوقع القرَّاء أن يكون الخبر مُمحصًا على نحو معقول، عادة بواسطة مقابلة المتحدثين الرسميين للأطراف المتقابلة فى الموضوع. لابد أن يُكتب الخبر بموضوعية، وربما توجد توقعات بأن المكان الذي سيوضع فيه الخبر فى الجريدة لابد أن يعكس أهمية مقارنة بالأخبار الأخرى. ويمكن لاستراتيجية الوجه الثالث للسلطة التي تسعى للشك فى مصداقية خبر ما قد تستشهد بأيٍّ من هذه القواعد وتدعي أنها قد انتهكت. فيمكن لشخص ما أن يقول إن كاتب التقرير يختار الموضوع بسبب أولويات شخصية، وأن الحجج المهمة لا يتم تضمينها، وأن الكتابة كانت غير متوازنة أو كانت متحاملة، وأن موضع الخبر فى الجريدة إما أنه يقلل من أهميته أو أنه يُضفي عليها أهمية لا يستحقها.

القواعد التي تأخذ شكل قوانين هي محور آخر متصل لنقاشات الوجه الثالث للسلطة. إن المجال العام فى الولايات المتحدة محمي بموجب التعديل الأول للدستور The First Amendment to the Constituation، وبواسطة قواعد تشير بها المحكمة العليا إلى ساحة تبادل الأفكار. لم يكن التركيز على القانون فى الديمقراطيات الغربية يهدف إلى توجيه ممارسة الكلام الحر، بل لمنع الأفعال التي قد تقيده. إن الحق فى الكلام حق خالد، نظرًا لأن المؤسسات العامة مثل الحكومة الأمريكية تم خلقها وإضفاء الشرعية عليها عبر التواصل السياسي العام؛ أي عبر المجال العام. والمواطنون الذين ادعوا أنه تمَّ انتهاك حريتهم فى التعبير الحر يقومون نتيجة لذلك بعمل حجج للوجه الثالث للسلطة. وفي المقابل، فإن الشخص الذي يكون فى موقع سلطة ويحاجج لصالح السرية هو أيضًا يستخدم الوجه الثالث من السلطة. (استبق شيشرون الوجه الثالث من السلطة فى السياق القضائي فى مقولته الرابعة). [انظر stasis].

حدث استخدامٌ دال للوجه الثالث من السلطة خارج مجال وسائل الإعلام فى شهادات كلارنس توماس Thomas السيناتور الأمريكي أمام المحكمة العليا فى عام ١٩٩١، وكان قد عينه الرئيس جورج بوش الأب. فقد ادعت أنيتا هيل Hill، وكانت موظفة سابقة فى قسم حكومي تحت رئاسة توماس، أنه تحرش بها جنسيًا. فى البداية قدمت اتهاماتها فى جلسة مغلقة لم تكن جزءًا من استماع عام. ومع ذلك قام أحد السيناتورات بتسريب قصة هيل لوسائل الإعلام الإخبارية. واستجابة للاهتمام العام المكثف الذي أحدثه التسريب، استجوب مجلس الشيوخ هيل فى جلسة استماع أذاعها التليفزيون فى بث حي، وبدا لوهلة أن حضور توماس ربما لا يكون مؤكدًا. واجه توماس الدعوى بخطبة لمجلس الشيوخ اتهم فيه الشيوخ، من بين أشياء أخرى، بانتهاك قوانين مجلس الشيوخ ومعايير الإثبات، من خلال تسريب قصة هيل؛ ومن ثمَّ السماح لها بالشهادة ضده. تحولت بالتالي بؤرة الاهتمام فى جلسات الاستماع الثبوتية من شهادة هيل إلى إثبات العملية ذاتها. ونتيجة لهذه الاستراتيجية من استراتيجيات وجه السلطة الثالث، أصبح سلوك الشيوخ وعملية الثبوت - وليس سلوك توماس نحو هيل الذي لا يبدو أنه يمكن الدفاع عنه - موضوع التمحيص الشعبي. تمَّ إثبات التهمة على توماس بفارق ضئيل.

لا تنبُع معظم القواعد التي تحكم البلاغة المعاصرة من القوانين (أو العمليات الوسيطة)، لكن من التثاقف acculturation والتراث البلاغي. فبعض القواعد غير منطوقة، وبعضها ناتج عن النقاش والمناظرة. ربما تتطلب القواعد الاجتماعية الضمنية أن يكون الشخص البليغ مخلصًا وموضوعيًا. تكتظ التقاليد البلاغية ذاتها بالمحاذير حول الحجج التي تقوم على استعطافات انفعالية فارغة، ومنطق مغلوط. وبهذا المعنى، فإن أرسطو وشيشرون وكينتليان مارسوا جميعًا نوعًا من الوجه الثالث للسلطة عندما ألَّفوا كتابات

بلاغية معيارية. ومن الواضح أن استراتيجية الوجه الثالث للسلطة لا يضمن النجاح البلاغي. ومع ذلك، فإن هذا الوجه سلاح قوي فى عتاد البلاغة السياسية، عتاد يستحق دراسة تكتيكية وأخلاقية فاحصة. [انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric]، وانظر أيضًا **Expository rhetoric and journalism**].

قائمة المصادر والمراجع

Bachrach, Peter, and Morton S. Baratz. "The Two Faces of Power." *American Political Science Review* 56 (1963), pp. pp. 947–952.

Bitzer, Lloyd F. "Political rhetoric." In *Landmark Essays On Contemporary Rhetoric*, edited by Thomas B. Farrell, pp. pp. 1–22. Mahwah, N. J., 1998.

يعرِّف بيتزر البلاغة السياسية ويفحص مفهوم البلاغة المعيارية.

Bush, George. "CBS Nightly News." Interview by Dan Rather. CBS. 25 January 1988.

التسجيل المكتوب لهذه المحادثة التي استمرت ثماني دقائق هو جولة *tour de force* للوجه الثالث من استراتيجيات السلطة.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

في حين أن فاريل لا يدرس الوجه الثالث من السلطة فإنه يكشف عن البلاغة بوصفها عملية ثقافية واسعة، ربما يتم فيها تشغيل قواعد التلاعب.

Goldstein, Tom ed., *Killing The Messenger: 100 Years of Media Criticism*. New York, 1989.

يشتمل على خطبة روزفلت "Man with the Muckrake"، وخطب أجنيو الثلاث التي يهاجم فيها وسائل الإعلام الإخبارية.

Hallin, Daniel C. "The American News Media: A Critical Perspective." In *Critical Theory and Public Life*, edited by J. Forester, pp. pp. 121–146. Cambridge, U. K., 1985.

يدرس العلاقة بين قواعد وسائل الإعلام الإخبارية وشرعيتها؛ وهو كذلك أحد المراجع الأولية للوجه الثالث للسلطة.

Macombs, Maxwell E., and Donald L. Shaw. "The Agenda - Setting Function of Mass Media." *Public Opinion Quarterly* 36 (1972), pp. pp. 176–187.

Molotch, Harvey L., and Deirdre Boden. "Talking Social Structure: Discourse, Domination and the Watergate Hearings." *American Sociological Review* 50 (June 1985), pp. pp. 273–288.

هذا هو الكشف الأول عن الوجه الثالث للسلطة كاستراتيجية للتلاعب بالقواعد، وذلك على الرغم من أنه يقوم بالتطبيق على سياق نيابي.

Simons, Herbert W. " "Going Meta": Definition and Political Applications." *Quarterly Journal of Speech* 80 (November 1994), pp. pp. 468–481.

يشرح سيمون الاستراتيجية البلاغية لجعل قواعد الخطاب السياسي هي موضوع الخطاب السياسي. ويستخدم أقوال توماس Thomas عام ١٩٩٢ كشاهد إثبات أمام المحكمة العليا مثالا على ذلك.

تأليف: Thomas Jesse Roach

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

مجالات النشاط الشخصية والتقنية والعمومية للحجاج

The personal, technical, and public spheres of argument

تشير كلمة مجال النشاط "sphere" إلى توقعات معينة تتراكم عبر الزمن، وتوفر سياقات للخطاب الحجاجي. إن الحديث عن مجال نشاط للحجاج ينطوي على اعتراف بأن أي فعل تواصلي يمكن تشكيله ليتكيف مع صيغ المخاطبة الملائمة للموضع أو الموقف. يمكن التمييز بين ثلاثة مجالات أنشطة للحجاج فى المجتمعات المتشابكة. مجال النشاط الشخصي: ويشمل السياقات التي تطورت بوصفها خبرات مشتركة يدور حولها حوار بين الأهل والأصدقاء وأشخاص مقربين آخرين. وفي الأحوال الطبيعية يحدث هذا التبادل فى شكل حوار، ومناقشة جادة تتبلور فيها الآراء بهدف تطوير إدراك المرء لذاته وللآخرين فى الآن نفسه. تكون قواعد الحجاج فى مثل هذه التفاعلات ضمنية. وعلى سبيل المثال، فإن المتحاورين يكون لديهم وعي بقواعد تبادل الأدوار وبخصائص الاستجابة حين يوجهون حديثهم إلى شخص حميم. وليس من الضروري البحث عن قواعد محادثاتنا هذه، فالقدرة على التواصل تنبع من السيطرة على القواعد عبر عملية النضج. ولأن الأفراد لا يشتركون فى تفضيلاتهم المتعلقة بطرق التعامل مع الخلافات، فإن قواعد الحجاج تصبح هي ذاتها جزءًا من الخلاف، وبذلك فإن تطويرَ أعرافٍ للحجة المقبولة يصبح متوقفاً على التفاعلات الناجحة التي تتوافق على مبادئ تخص سبل التحاجج.

يطور مجال النشاط الشخصي لغة مؤسسة على العلاقات، ويتنوع بحسب الدور الذي يلعبه الشخص، كما هو الحال على سبيل المثال فى دور الأب أو الزوج أو صديق العمر أو الصديق العابر. وتضع كل مناقشة العلاقات بين المتحاورين فى درجة أهمية موازية لأهمية الوصول إلى قرار أو تعزيز المشاعر أو التوافق مع القيم. والعلاقات تقوى أو تهن عبر الزمان. وتميل إلى أن تتجدد عبر اللقاءات الدالة مثل مراعاة طقوس احتفالات الميلاد والزواج ورأس السنة ومراسم التعازي. هذه المناسبات تدعم تعزيز العلاقات بشكل فريد لا يمكن تعويضه. فوجود المرء فى هذه الأوقات الخاصة مع شخص آخر يصنع فى ذاته حجة. وكذلك فإن التخلف عن حضور هذه المناسبات هو حجة أيضًا فى ذاته. إن استقلالية مجال النشاط الشخصي تستند إلى خصوصيته. فالحجج تستمد ثقلها خصيصًا من العلاقة بين المتحاورين، وفي إطار هذه العلاقة نتكشف المدى الذي يتعين علينا الوصول إليه لنكشف للطرف الآخر عن تعليلاتنا أو تبريراتنا للمواقف الحجاجية. والذاكرة هي النمط الحافظ الأساسي لهذه الحجج. ويسهم غياب التوثيق الكتابي فى ثراء مجال النشاط الشخصي بوصفه ميدانًا للابتكار. [انظر Invention]. وبناء على ذلك فإن مسألة الجوهر المشترك - الاتفاق الأساسي المشكِّل لهوية بشأن ما يُكشف عنه بيننا - هي دومًا مفتوحة، ومعرضة للمخاطر فى الحجاج الشخصي. والعبارات التي تصف التوافق المؤسَّس على خبرات الماضي يمكن أن تشي بما إذا كنا نرى الأشياء بالطريقة نفسها. إن غاية الحجة الشخصية قابلة للتجدد والتطوير، ما دام المتحاورون يحاولون الحفاظ على سلامة الأرضية المشتركة للحوار التي تعلو على اختلافات وجهات النظر، والزمان والمكان، والسؤال المتعلق بطبيعة العلاقة التي يمكن أن توجد بين فردين؛ أعني ذات المرء وشخصًا آخر.

على النقيض من ذلك فإن مجال النشاط التقني يتضمن متطلبات صارمة تؤطر سياقًا آخر للحجة. وعلى خلاف مجال النشاط الشخصي حيث تتكون المؤهلات بشكل فضفاض عبر خبرة الحياة، فإن تقديم المرء لحجج بوصفه خبيرًا يعني حمل ثقل المعرفة المتخصصة المؤسسة على التدريب الرسمي المتخصص. تفترض الحجج الشخصية حق المرء فى أن يُستمع إليه – حتى فى الأنظمة ذات النظام الطبقي– استنادًا إلى هوية المرء المشتركة بوصفه إنسانًا. ولا توجد مثل هذه التوقعات فى مجال النشاط التقني. وبالأحرى فإن السياق التقني يُنفذ إليه عبر بوابة الخبرة فحسب.

تطلب الخبرة امتلاك مهارة أكواد خاصة تشكل أدوات واقع اتخاذ القرار. ولكي يصبح المرء خبيرًا فإن عليه أن يدخل فى عمليات تأويلية حيث تخلق لغة مخصوصة الأسس اللازمة للزعم المنظم بحيازة صلاحيات سلطوية. [انظر Ēthos]. واللغة التقنية هي لغة معيارية. وإتقان مصطلحاتها يعني التشبع بنمط تعليلي مُدعَّم بالدعاوى التي تنتمي إلى حقل معرفي ما. وعلى الرغم من أنه توجد عادة فروقات بين الممارسين فى حقل معرفي ما – وبخاصة فجوة الوقت التي توجد بين الباحثين (منتجي المعرفة) وبين هؤلاء الذين يطبقون المعرفة – فإنه يُمكن الافتراض مبدئيًا أنه يمكن صياغة توافق ناجع بين المتخصصين، وأنه حين يُطبق هذا التوافق على حالات فردية يمكن التمييز بين القرارات الصائبة وتلك الخاطئة.

تُعد التجربة experiment هي النموذج الإرشادي لعالم الخبراء، وهي تصمم بشكل استراتيجي لكي تُصل إلى نتائج يُمكن قياسها فى سياق تتابع من الأحداث مسيطر عليه بعناية. يحتفظ القائمون بالتجارب بسجلات دقيقة صارمة، وسجل البحث الذي توصل إلى النتائج الحالية يكون مفتوحًا أمام أسئلة جديدة، وأمام صياغة فرضيات جديدة، والتلاعب بمتغيرات مختلفة، وإضافة

تأويلات جديدة للمخرجات. وحين يضعف أي جزء من الإجراء فإن بقية أجزاء الإجراء تتأثر بهذا الضعف. وتشهد الإجراءات الصحيحة بأن الحجج التقنية تتمتع بالقدرة على تحقيق نتائج ناجعة، لكنها لا تضمن ذلك. [انظر: التواصل التقني].

لا تقوم كل الحقول المعرفية المتخصصة بعمل تجارب. ففي حقل القانون مثلا تكون المحاكمة نموذجًا إرشاديًا للتواصل. ولكلٍ من المحاكمة والتجربة افتراضات إجرائية مختلفة بسبب الفروق فى غايات كلٍ منها. ومع ذلك فإن الميل إلى النسقية والمعيارية والتنظيم الدقيق للوقت والأكواد المتخصصة والاستعمال اللغوي الخاص يصبغ الحجج القانونية والتجريبية على نحو أكثر تخصصية بكثير من الحجج الشخصية. علاوة على ذلك، فإن النموذجين الإرشاديين يشددان على أهمية التحكيم السري من النظراء، وهو فى حد ذاته سمة مميزة لمجال النشاط التقني. يفترِض هذا التنظيم للممارسة أن الهوية المهنية تتأسس بطريقة تلح على جعل قرار الممارس قابلا للتحكيم من شخص آخر، يكون هو أيضًا خبيرًا معترفًا به على نحو مشابه.

في حين أن غايات الحجاج الشخصي تكون مفتوحة، وذات طبيعة غير رسمية، ومؤسَّسة على الخبرة، فإن غايات الحجاج المهني تنتج عنها قرارات تخص الواقع الراهن، وهي قرارات مسجلة ورسمية وتؤسَّس إجرائيًّا. فيما يتعلق بمجال النشاط الشخصي، فإن صورة الهوية التي تشكل أساس الذات تُعد جوهرية: فالمرء يكتشف نفسه عبر أفعال التواصل. أما بالنسبة لمجال النشاط التقني فإن الخبراء يدخلون فى علاقة إجرائية مع الدليل والدعاوى.

ينطلق مجال النشاط العمومي من مصالح محددة قابلة للتعميم، ولا يمكن التصرف معه بواسطة منطق الحميمية أو بواسطة خطاب الخبراء. فالمسائل العمومية تمتد فيما وراء مجالات النشاط الشخصي والتقني، وتتركز

حول موضوعات تؤثر فى المجتمع ككل. غالبًا ما تُناقش هذه المسائل فى الجمعيات العمومية التقليدية، حيث يجتمع الأشخاص الممثلون للجماعة. وعادة ما يُتناظر بشأن موضوعات طرق التشريع والضرائب والحرب والسلام. وتدور الحجج العرفية حول أي الاختيارات يكون هو الأمثل فى تحقيق هدف الاحتفاظ بالسلطة. وفي حين أن كل منتدى عمومي يطور لغته وإجراءاته، فإن أعراف المشاركة العمومية تتطلب أن تكون شروط التناظر شفافة بما يكفي لإتاحتها بشكل عام. وهذا حقيقي بصفة خاصة فى الديمقراطيات، حيث تُجرَّب خطابات القيادة العمومية فى وقت الانتخابات.

يميل الخطاب العمومي إلى توظيف النوع التشاوري. [انظر Deliberative genre]. فالجمهور مدعو للمشاركة عبر إعادة حشد التقاليد والضوابط بهدف الإعلاء من شأن القيم المجردة فى سبيل الوصول إلى عدالة اجتماعية أكبر. قد تعزِّز أداءات الخطاب العمومي من أساليب التشاور القياسية، بموازاة تنويعة من المسائل المتنبأ بها، كما يمكنها ابتداع نماذج تواصلية عبر التحديات الجديدة التي تؤسس نماذج للحجاج. تنطوي الحجة العمومية على سياسة للمسألة وللشخصية نظرًا لأن الناطقين الرسميين يدعوه سلطة تقديم المشكلات والحلول لمجال النشاط العمومي. يشبه الزمن فى مجال النشاط العمومي مثيله فى مجال النشاط الشخصي؛ فكلاهما وقتي مؤقت، نظرًا لأن الأجيال فى هذه الحالة – متأثرة بالمسائل الرئيسية فى حياتهم اليومية– تتقلد السلطة وتمررها لآخرين. [انظر أيضًا: Argument fields، و Rhetorical situation].

مصادر ومراجع:

Beard, Charles A., and William Beard. *The American Leviathan: the Republic in the Machine Age*. New York. 1930.

Bitzer, Lloyd. "Rhetoric and Public Knowledge." In *Rhetoric, Philosophy, and Literature: an Exploration*. Edited by Don. M. Burks, pp.pp. 67–93. West Lafayette, Ind., 1978. A thorough discussion of the relations among knowledge, rhetoric, and the public.

Dewey, John. *The Public and Its Problems*. Chicago, 1927. The classic pragmatic reading of the

prospects for public life in postwar America.

Farrell, Thomas B., and G. Thomas Goodnight. "Accidental Rhetoric: The Root Metaphors of Three-Mile Island." *Communication Monographs* 48 (December 1981), pp.pp. 272–300. A study of the volatile relationship between technological crisis and public rhetoric.

Gregg, Richard B., and Gerard H. Hauser. "Richard Nixon's April 30, 1970 Address on Cambodia: The 'Ceremony' of Confrontation." *Communication Monographs* 40 (1973), pp.pp. 167–181.

Langer, Susan. *Philosophy in a New Key: A Study of Reason, Rite, and Art*. Boston, 1978.

Lasch, Christopher. *The Culture of Narcissism: American Life in an Age of Diminishing Expectations*. New York, 1978.

O'Keefe, Daniel J. "Two Concepts of Argument." *Journal of the American Forensic Association* 14 (1978), pp.pp. 121–128.

Sennett, Richard. *The Fall of Public Man: on the Social Psychology of Capitalism*. New York, 1977.

Toulmin, Stephen. *Human Understanding: the Collective Use and Evolution of Concepts*. Princeton, 1972.

Willard, Charles Arthur. "Argument Fields and Theories of Logical Types." *Journal of the American Forensic Association* 17 (1981), pp.pp. 129–145.

تأليف: G. Thomas Goodnight

ترجمة: عماد عبد اللطيف

تكرار العاطف Polysyndeton

يُطلق بوتنهام عليه فى كتابه "فن الشعر الإنجليزي" (The Arte of English Poesie، ١٥٨٩) اقتران العبارات "cople - clause"، وهو يشير إلى عاطف دال على التساوي يربط إما العبارات أو الكلمات المفردة عن طريق تكرار استخدامه فى سياق ما. وتهدف هذه الحيلة إلى إبطاء إيقاع الكلام، ولها تأثيرات مختلفة. ومن أمثلة ذلك - فى جمع عناصر (تراكيب) لغوية جنبًا إلى جنب على نحو منطقي - ما يدل على جلال المتحدث كما ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٠: ٢٧ - ٢٨): "خِرَافي تسمع صوتي، وِأنا أعرفها، وِهي تتبعني، وِأنا أعطيها حياة أبدية...". ويمكن أن تستخدم تلك الحيلة كذلك فى الجمع بين عناصر لغوية متباينة، مما قد يكون له أثر فكاهي، كما ورد عند شكسبير ("عذاب الحب الضائع" Love's Labours Lost"؛ الفصل الخامس، المشهد الثاني): "عندما ينفخ الرعاة فى الناي... عندما يطير اليمام، والغربان، والطيور، وعندما تنشر الجواري معاطفهن تحت الشمس". ويأتي على العكس من هذا المصطلح مصطلحٌ آخر وهو الفصل "asyndeton" (ويعنى "حذف العاطف"). (انظر مدخل المحسنات البلاغية Figures of Speech؛ وانظر كذلك مدخل الفصل (حذف العاطف) asyndeton).

مؤلف المدخل: Andrea Grun - Oesterreich

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحكمة العملية Practical Wisdom

لا شك أن العلاقة بين الفصاحة والحس أو الذوق من أصول الأفكار فى فن البلاغة. وقديمًا وقبل تأصيل مبادئ فن الخطابة فى اليونان خلال القرنين الخامس عشرٍ والرابع عشر قبل الميلاد أدرك هوميروس العلاقة الجوهرية بين كلٍ من الخطابة والحكم الحصيف، بل أهمية هذا الارتباط للتوصل إلى حالة التشاور المجتمعي واتخاذ القرار. فأوديسيوس (Odysseus) – وهو رجل دهاء ومكر – دائمًا ما كان يوصف بأنه "نظير زيوس Zeus فى في المشورة والنصح الحكيم"؛ كذلك وفي المناظرات التي وقعت بين اليونانيين كان هو المتحدث الأكثر إقناعًا. وبالمثل فقد كان نيستور Nestor – ذلك العجوز الحكيم الذي كانت نصائحه هي الأكثر حكمة – معروفًا بحلاوة حديثه وخطابه.

إن إدراك العلاقة الوثيقة والأساسية بين "المشورة أو النصح الحكيم" وبين الحس الأخلاقي المنضبط الذي يوصل إلى خطاب مقنع لطالما استمر خلال تاريخ البلاغة سواء على مستوى النظرية أو التطبيق. وإن المنظِّرين عبر هذا التاريخ قد رأوا أن أصل البلاغة وكذلك أصل فن الخطاب يكمن فى القدرة على إدراك بل اتخاذ الفعل الحسن والمعقول فى ظل عالم يحوطه الشك والاحتمال. فالسوفسطائيون على سبيل المثال قدموا نموذجًا فى تعليم فنون المواطنة حين ركزوا على كل من مهارة الحديث، وفي بعض الحالات على الأقل، مهارة الحصافة السياسية من منظور عملي. يقول بروتاجوراس Protagoras، كما ورد عند أفلاطون: "بالنسبة إلي، فإن الطالب سوف يتعلم...

العناية الشديدة بتدبير أمور شؤونه الشخصية لكي يكون قادرًا على تدبير أمر منزله، وبالمثل تدبير أمر دولته، حتى يصبح قوة حقيقية فى المدينة، فيصبح خطيبًا ويصبح رجل أفعال" (بروتاجوراس Protagoras، ٣١٨). كذلك فقد كان المُعلِّم إيزوقراط Isocratese يطلب من تلاميذه دراسة "الفلسفة" قبل أن يتعلموا فن الإقناع لكي ينمي الطالب مهارته فى إدارة شؤون الجمهور وحتى يتسلح جيدًا قبل إسداء النصح فى المجالس الشعبية. ولقد كان يقول بأهمية وجود برنامج للتدريب الذهني يركز على مواضيع سياسية وأخلاقية تغذي وتنمي المعرفة العملية والحكمة السياسية عند من يفترض أن يكونوا رجال دولة لاحقًا فى جوانب.

واتباعًا لنموذج إيزوقراط فى بناء المواطن الخطيب، فقد كان كل من شيشرون Cicer (١٠٦ – ٤٣ ق. م.) وكينتليان Quintilian (بعد قرن من الزمان أو يزيد قليلاً) يدافعان عن فكرة البلاغة التي تتحد فيها كل من الحكمة والفصاحة فى شخصية "الخطيب الجيد". وكما لاحظ شيشرون أن "الحكمة بدون البلاغة لا تفعل الكثير لصالح الشعب، كما أن البلاغة... بدون الحكمة ليست مزيَّة على أي حال ونادرًا ما تؤتي ثمرتها". وكذلك انصب اهتمامه فى كتابه "عن الخطيب" (De oratore، ٥٥ ق. م.) على التدريب الأمثل لشخصية رجل الدولة الخطيب، بل يؤكد على أهمية كل من التدريب فى فن البلاغة والتعلم المتعمق فى الفلسفة والسياسة والتاريخ والقانون. فمثل هذا التعليم، على نحو ما يعتقد شيشرون، يمكِّن الخطيب من اكتساب الحكمة اللازمة التي يصدر عنها التوجيه المتعقل والحصيف الذي يصب فى الصالح العام. أما كينتليان فى كتابه "تأسيس الخطابة" Institutio oratoria فقد طبق إلى حد بعيد التقليد الإيزوقراطي والشيشروني إزاء أهمية تعليم المواطن الخطيب تعليمًا موسعًا يهدف إلى أن تكون البلاغة منقادة للحكمة العملية لأجل الصالح العام.

وأما خلال العصور الوسطى فقد كان النموذج الكلاسيكي للحياة المدنية والتشاور الشعبي فى اتجاهه نحو الأُفول لصالح "مدينة الرب" – The City of God، وهو إحدى كتابات القديس أوغسطين Augustine – ولانتشار التعاليم المسيحية، حيث بدأت مهارة البلاغة تُوَجَّه نحو تفسير الكتاب المقدس وفن التبشير الديني أكثر منها لصالح اتخاذ فعل أو قرار سياسي. ولما كانت الحكمة العملية متطلبًا من متطلبات البلاغة فقد انتعشت من جديد، على الرغم من ذلك، وخصوصًا مع مجيء الحركة الإنسانية فى عصر النهضة فى القرنين الخامس والسادس عشر؛ كما أنها قد أبقت على العلاقة بين علم البلاغة وفصاحة اللسان فى السابق وحتى يومنا هذا. ويلاحظ جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico في كتابه "أساليبنا الدراسية المعاصرة" (On the Study Methods of our Time، ١٧٠٩) أن "الشباب عليهم أن يتعلموا الحس (الذوق) الأدبي... (و) أن الحس الأدبي بجانب كونه معيارًا لمَلَكَة إصدار الحكم العملي (practical judgement) فهو كذلك المعيار الهادي إلى فصاحة اللسان".

وفي حين ركزت الرسائل والبحوث البلاغية والخطابية خلال عصر التنوير والقرن التاسع عشر على الطابع العلمي إزاء إعمال العقل، كما ركزت على الجوانبِ الفنية دون الفلسفية فيما يخص الخطاب الإقناعي، كان هناك عدد من المنظِّرين الذين سعوا إلى استعادة العلاقة بين البلاغة وملكة إصدار الحكم العملي. بل قد ظهر كتابان لكل من بيرلمان Chaim Perelman – "البلاغة الجديدة" The New Rhetoric (١٩٦٩) – وستيفن تولمن Stephen Toulmin – "استخدامات الحجة والجدل" The Uses of Argument (١٩٦٩) – يبحثان كيفية عمل الحجة والجدل عند إعمال العقل فيما يخص القضايا أو المسائل العملية. كذلك فقد ظهرت كتابات أخرى أحدَث من ذلك، وقد أصَّلت لأمر التأثير البلاغي فى العديد من مفاهيم إعمال العقل من الناحية العملية، ومنها كتابات هابرماس Jurgen Habermas عن الكفاءة التواصلية

أعوام ١٩٧٥ و ١٩٨٤ و ١٩٨٧؛ وكذلك والتر فيشر Walter Fisher في مؤلفه "النموذج الإرشادي للقص" "narrative paradigm" (١٩٨٧)؛ وكذلك توماس فاريل Thomas Farrell في "الثقافة البلاغية" (١٩٩٣). وقد كان فاريل بصفة خاصة يتبنى تصورًا للحكمة العملية والبلاغة المدنية له جذور راسخة في التراث الكلاسيكي.

وعلى ذلك فإن أي فهم لمفهوم الحكمة العملية لابد أن يأخذ تلك الآثار بعين الاعتبار. فالتصور الكلاسيكي "للحكمة العملية" – والتي يشار إليه أحيانا في اليونانية بلفظة phronesis – له جذوره المُفَصَّلَة في كتابات أرسطو وأتباعه، حيث نجده مرتبطًا بالقدرة على إعمال العقل في أشياء محتملة متوقعة أكثر منها يقينية أو متطلبة لاتخاذ قرارات معينة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا التصور وثيق الصلة بالبلاغة وفن الخطاب المدني الذي يمكن من خلاله التوصل إلى مثل هذه القرارات على نحو جماعي.

ويعد عمل أرسطو "الأخلاقيات النكموشية" Nicomachean Ethics بصفة عامة هو أكثر الأعمال تأصيلاً ومرجعية لفلسفة أرسطو الأخلاقية؛ ومرجع البحث ها هنا هو هذا التساؤل: "ما الخير الأسمى للإنسان؟" أو "ما الذي يمكن أن يجعل حياة المرء سعيدة لا يعوزها شيء؟" ويجتهد أرسطو مفكرًا أنه "طالما أن أحسن وأفضل الحالات لشيء ما تكمن في تحقيق وظيفته على النحو الأمثل، فإن أحسن الأحوال للإنسان لابد أنها تكمن في نشاط ما يمكن من خلاله تحقيق الوظيفة المثلى للإنسان" (١٠٩٤ – ١٠٩٧). ولذا فبما أن البشر يشتركون في أنهم "ينمون ويكبرون"، ويشتركون مع أجناس الحيوانات كلها في "عالم الحس" الذي يمكن من خلاله الإحساس بالمتع والآلام الحسية، فلابد أن الذي يتفرد به البشر هو "الحياة العملية التي تتضمن وتنسجم مع الاتجاه العقلاني (logos)" (١٠٩٧ – ١٠٩٨). وعلى ذلك فإن الوظيفة المثلى

للإنسان هي "نوعٌ من الحياة" تعتمل فيها نشاطات الروح مع مبدأ (أو مذهب) عقلاني؛ وإن "الحياة الحقَّة" للإنسان هي تلك التي تظهر فيها هذه النشاطات على أساس من الفضيلة والتميُّز.

إن فكرة التميز من الأفكار المحورية فى تصور أرسطو للفضيلة بصفة عامة، وفي فهم الأنواع المختلفة للفضيلة بصفة خاصة. وهو يختتم ذلك النقاش السابق بأن "الخير للإنسان هو أن تنشط روحه بالذي يليق أو يتفق مع الفضيلة أو – إذا كانت هناك فضائل متعددة – بالذي يتفق مع الأفضل والأكمل منها" (١٠٩٨: ١٦، ١٠٩٨: ١٨). وبالفعل توجد أنواع عديدة للفضيلة حسب وجهة نظر أرسطو، وكلها تشير إلى مفهوم الأفضل فى نشاط من النشاطات التي يمكن أن تتفق وتزكية الروح. وهو يخبرنا بأن الروح لها جانب غير عقلاني من وجه ولها جانب عقلانيٍ من وجه آخر. فأما الجانب غير العقلاني فهو أيضًا مُقَسَّم بين العنصر النمويّ (سبب التغذية والنمو) والعنصر الحسي (الذي نشترك فيه مع جميع المخلوقات ذات الشعور والإحساس). على أن الأخير هو مصدرٍ الرغبة والشهوة ويتعلق بالمتعة والألم كذلك. وعلى العكس من العنصر النموِّي، والذي يكمن تميُّزه فى حفظ صحة الجسد والنمو الطبيعي، فإن الجانب الحسي أو الشهواني هو – فى أحد معانيه – ذو استقبال عقلي كذلك؛ فالشخص العفيف مثلا إنما تعفف استجابة للعقل، و... (عند الشخص المتحكم فى نفسه أو الشخص الشجاع) يكون هذا الجانب فى تناغم كامل مع المبدأ العقلاني (١١٠٢: ٢٦، ١١٠٢: ٢٩). ونظرًا لأن العنصر الحسي فى الروح يمكن "بطريقة ما أن يستجيب لإقناع العقل" فإن مزيَّته تكمن فى استقبال الإرشاد العقلي الذي يكيف ويشكل الغرائز ويتحكم فى اختيار الأفعال. فهذا هو تصور أرسطو عن الفضيلة الأخلاقية moral virtue والتي يعرفها بأنها "اتجاه" أو "نزعة فى الشخصية" تقود صاحبها إلى الاعتدال فيما بين الإفراط والتفريط. وأن الفعل الفاضل

يكمن فى كونه وسطًا بين طرفي نقيض. وعليه، على سبيل المثال، فالشجاعة تكمن فيما بين التهور والجبن؛ والاعتدال النفسي يكمن فيما بين الإسراف الحسي والبلادة الحسية. فهذه الفضائل وأمثالها عبارة عن جوانب تَمَيُّز باهرة للجانب (أو العنصر) الحسي فى الروح، لأنها يمكن أن تُرَد إلى نزعة الجانب الحسي نحو اتباع الإرشاد العقلي فى اختيار الأفعال. وهذا الإرشاد ينجم عن إعمال الجانب العقلي logos لدى الشخص الحكيم الواعي، وخصوصًا أن الأمر الوسط فى أي موقف من المواقف "يتحدد من خلال المبدأ أو الجانب العقلاني الذي هو وسيلة الشخص للتوصل لهذا الأمر الوسط" (١١٠٧).

ولنأتي الآن على العنصر أو الجانب المتبقي من الروح، وهو الجانب "العقلاني بكل ما تحمل الكلمة من معنى". إنه "الجانب العقلاني" logos أو "المبدأ العقلاني"rational principle فى النفس البشرية؛ إنه العنصر الذي – حسبما يعتقد أرسطو – يشكل طبيعتنا المتميزة، والذي وفق نشاطه يمكن القيام بوظيفتنا الكاملة. وهذا النشاط يكمن فى إعمال العقل والتفكير، وإذا ما بلغ حد التميز تنجم عنه الفضائل العقلانية، بما فى ذلك الحكمة الفلسفية Philosophic Wisdom (ويشار إليها أيضا بلفظة sophia قديمًا)، والحصافة أو الحكمة العملية Prudence or Practical Wisdom (ويشار إليها كذلك بلفظة phronesis). ومن ثمَّ فالهدف العام للعقل هو التوصل إلى "الحقيقة"، ولكن أرسطو يفرق بين نطاقين من نطاقات الحقيقة وبالتالي بين نوعين من أنواعِ الحكمة. ووفق ذلك فالمزية الأولى للجانب العقلاني من الروح تتضمن التفكُر فى "الأشياء التي ترتكز إلى مبادئها الأولى التي لا تتغير"، كالحقائق الثابتة أو الحقائق المطلقة، ومن ذلك نطاقا العلم والرياضيات. فهذه هي فضيلة الجانب العقلي العلمي، والتي تصل إلى ذروتها عند التفكُّر الذي يؤدي إلى الحكمة الفلسفية. أما الشكل الآخر لمزيَّة الجانب العقلاني فتتضمن فهم

"الأشياء المتغيرة"، كما فى عالم المُحتَمَلات[1]، وخصوصًا الأشياء المتغيرة والممكنة. وهذا هو نطاق الفعل العملي "the realm of practical action"، وهو مجال الجانب العقلي العملي والتوقعي (ويشار إليه أحيانا بعبارة logistical mind "العقل اللوجستي").

إن فضيلة هذا الجانب العقلي تتمثل فى الحكمة العملية، وهى تتضمن القدرة على إعمال الفكر حول "ما هو حسن ومفيد" للنفس وللبشر عمومًا. فالحكمة العملية، باختصار، هي القدرة على إدراك الخير فى مواقف معينة بحيث يمكن تحقيقه من خلال اتخاذ فعل معين وإدراك أفضل الوسائل لتحصيله. وهى كذلك تجمع عددًا من الأمور الفلسفية المهمة: (١) ففيما يتعلق بنطاق الاختيار والفعل، فإن "الحقيقة" تكون أمرًا محتملا موقوفًا على الملابسات التي تتميز بالتغير والحركة؛ وبينما تعتمل تلك المتغيرات فقد تكون سببًا فى انبلاج الحقائق العملية؛ (٢) أما نحن فيمكن لنا فقط أن ندرك معرفة محتملة لمثل هذا النوع من الحقيقة؛ (٣) مثل هذه الحقائق العملية - والمتعلقة باختيار الفعل الصواب - تعتبر أمرًا نسبيًا بالنسبة للفرد أو الجماعة (فالأمر الوسط Mean "هو أمر نسبي بالنسبة إلينا")؛ (٤) الحقيقة العملية يمكن التوصل إليها من خلال عملية تفكر وتدبُّر، وهى متعلقة بتقييم الأسباب المتناقضة التي تبرر اتخاذ مسارات سلوكية محتملة وبديلة.

وعلى ذلك فهذا التصور عن الحكمة العملية يُقَدِّم لتفكير أرسطو بخصوص البلاغة من عدة طرق: **أولاً**، لتحقيق الإقناع يجب على المتحدث (الخطيب) أن يقدم نفسه على أنه "شخص متفرد له ما يميزه"، وبالتحديد شخص يتحلى بالحكمة العملية، ويتميز بشخصية خُلقية فاضلة، هذا إضافة إلى النية الحسنة (انظر كتاب البلاغة Rhetoric لأرسطو ١٣٧٨). فالآثار

---

(١) أي الأشياء المحتملة الحدوث أو الوقوع.

الإقناعية لهذه الشخصية الخُلقِيَة ethos تتسق مع اتجاه الجمهور فى تصديق الشخصية الحصيفة الفاضلة راجحة العقل أكثر من غيرها (انظر مدخل "الشخصية/المناقب" Ethos). و**ثانيًا**، بما أن البلاغة تلعب دورًا فى التأثير على الأحكام التي تتعلق بمسائل تستغرق منا تدبرًا وتفكيرًا، وطالما أنها تهدف إلى تسهيل اتخاذ القرارات المبنية على التفكير فى تلك المسائل، فإنها تعد ممارسة للجانب العقلي العملي؛ وعليه فإن لباقة الحكمة العملية phronesis هي مزيتها الحقيقية. وبهذا المعنى فإن البلاغة الجيدة هي التي تتجلى فيها الحكمة العملية. و**ثالثًا**، بما أن التفكير العملي نفسه يتضمن ممارسات بلاغية جديرة بالملاحظة – من منظور أن التفكير هو عملية تقييم لمبررات اتخاذ فعل ما أو الاعتراض عليه فى موقف معين – فإن المبدأ العقلاني rational principle للحكمة أو الحصافة هو فى جوهره أمرٌ بلاغي. فهو المعيار الذي من خلاله يمكن للمرء أن يحكم بصحة الأسباب التي يمكن أن تُتخذ لصالح أو ضد فعل من الأفعال. وختامًا فإن الحكمة العملية تُعدُّ متطلبًا لتحقيق الممارسة الحقيقية للبلاغة فى الساحات المدنية؛ لأن المتحدثين أو الخطباء إذا افتقدوا المعنى العملي "فإنهم لن يُكوِّنوا آراء صحيحة"، ولسوف يكونون عرضة لأن ينخدع الجمهور ولأن يُسدوا نصائح مشوهة.

وعلى ذلك فإن الفضيلة العقلانية للحكمة العملية تتضافر، بالنسبة لأرسطو، مع فن البلاغة وممارستها السليمة فى الحياة المدنية. وإضافة إلى ذلك فعندما يُنظَر إلى البلاغة على أنها، وبصفة أساسية، فنٌّ من فنون الخطاب المدني – كما كان الحال عند سقراط وأرسطو وشيشرون وفيكو vico وآخرين – فإن هذا الربط بين الحكمة والفصاحة سيؤخذ على أنه أمرٌ جوهري. (انظر مداخل "المبدأ العقلاني" Logos و"لباقة الحكمة والمعرفة" Phronesis و"الحصافة/الحكمة" Prudence).

المراجع (Bibliography)

Aristotle. *Nicomachean Ethics*. Translated by H. Rackham. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1934.

(هو العمل الرئيسي لأرسطو فيما يخص نظرية الأخلاق، ويمثل فكره الناضج؛ وهو مبنى على محاضراته).

Aristotle. *Eudemian Ethics*. Translated by H. Rackham. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1992.

(هو عمل أصغر إلى حد ما من كتاب "الأخلاق النكموشية" *Nicomachean Ethics*؛ ويشترك في ثلاثة فصول مع العمل الأكبر، ويتفوق أحيانًا من ناحية استيفاء بعض المعاني).

Aristotle. *Magna Moralia*. Translated by G. Cyril Armstrong. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1977.

(يحتمل أنه تلخيص أرسطي متأخر لمبادئ أرسطو الأخلاقية).

Aristotle. *"Art" of Rhetoric*. Translated by J. H. Freese. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1975.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

(إعادة إخراج للنموذج الكلاسيكي المثالي للبلاغة باعتبارها فنًا للعقل العملي والفعل المدني).

Fisher, Walter. *Human Communication as Narration: Toward a Philosophy of Reason, Value, and Action*. Columbia, S. C. 1987.

Garver, Eugene. *Aristotle's Rhetoric: An Art of Character*. Chicago, 1994.

(دراسة مكثفة إلا أنها مليئة بالفكر ودقة النظر).

Grimaldi, William M. A. *Studies in the Philosophy of Aristotle's "Rhetoric."* Wiesbaden, Germany, 1975.

(دراسة للسياقات الفلسفية للبلاغة التي تركز على الربط بينها وبين التفكير العملي (أو إعمال العقل).

Habermas, J. *Legitimation Crisis*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1975.

Habermas, J. *The Theory of Communicative Action*, vols. 1 and 2. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1984 and 1987.

Hardie, W. F. R. *Aristotle's Ethical Theory*. Oxford, 1968.

(دليل قيم إلى "الأخلاق" Ethics يُمعن النظر فى معظم أفكارها الرئيسية).

Johnstone, Christopher Lyle. "An Aristotelian Trilogy: Ethics, Rhetoric, Politics, and the Search for Moral Truth." *Philosophy and Rhetoric* 13 (1980), pp.pp. 1–24.

(يقول بوجوب قراءة الأعمال الثلاثة كعناصر أساسية ضمن نظرية شاملة للحياة البشرية الكاملة).

Rowe, C. J. *The Eudemian and Nicomachean Ethics: A Study in the Development of Arisotle's Thought*, Proceedings of the Cambridge Philological Society, suppl. 3. Cambridge, U.K., 1971.

Self, Lois S. "Rhetoric and Phronesis: The Aristotelian Ideal." *Philosophy and Rhetoric* 12 (1979), pp.pp. 130– 145.

(دراسة مفيدة عن فكرة "الحكمة العملية/لباقة الحكمة" phronesis باعتبارها الرابط الرئيسي بين البلاغة والأخلاق فى فكر أرسطو).

مؤلف المدخل: Christopher Lyle Johnstone

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإلماع (الاعتراضي) Praeteritio

يشير المصطلح – وأصله فى اليونانية paralepsis وفي اللاتينية occultatio، ويشيران إلى الاعتراض والاستتار والإخفاء على التوالي، والذي يشير إليه كذلك بوتنهام Puttenham فى كتابه "فن الشعر الإنجليزي" The Arte of English Poesie، ١٥٨٩، ص ٢٣٢) بلفظة "Passager" – إلى حيلة استخدام إشارة سريعة ظاهرية إلى شيء ما، تحت زعم عدم إرهاق المستمع بتفاصيل مملة (أو مزعجة)؛ على أن هذا الامتناع (الظاهري) من قِبَل المتحدث يمكن أن يكون الدافع وراءه هو رغبته فى المرور السريع – مرور الكرام – على ملابسات غير مواتية لحالته، على نحو ما يحدث فى رواية "تريسترام شاندي" (Tristram Shandy[1]، ١٧٦٠ – ١٧٦٧) لمؤلفها ستيرن Sterne الذي يُسقِط مواضيع أو شخصيات عديدة للإبقاء على شخصية ما بحنكة فنية؛ كتلك الشخصية "التي تشفى وتعود إلى المنزل من مرسيليا... (الجزء السادس: ٢٠). كذلك فمصطلح "الإلماع" Praeteritio هو استراتيجية للتمويه الساخر، كسرد تفاصيل على نحو ماكر تأباها اللياقة: "وما الذي يحتم عليَّ أن أذكر ما أمر به، أو أن أذكر أعمال سلبه ونهبه، أو اكتسابه...؟" (انظر شيشرون، ٢، "Philippica" (خطب التقريع)؛ ٢٥: ٦٢). (انظر كذلك مدخل "المحسنات البلاغية" Figures of Speech)

مؤلف المدخل: Heiner Peters

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

---

(١) العنوان هو اسم الراوي نفسه (أو البطل) داخل الرواية.

علم المشكلات/الاتجاه المشكلاتي (المشكلاتية) Problematology

"علم المشكلات" problematology هو مدخل حديث إلى اللغة والبلاغة، يُبنى على الدور التأسيسي للاتجاه التساؤلي "questioning" للوصول إلى التفكير وإعمال العقل بصفة عامة. ولطالما وُصِفت البلاغة من عدة زوايا: من زاوية التأكيد على الأثر الواقع على الجمهور، كما يتضح فى مفهوم القوة التأثيرية على الجمهور عند أفلاطون؛ ومن زاوية التأكيد على الخطاب (أو الحديث)، كما يتضح فى البلاغة الإمبريالية للعالَم الروماني (القديم) وفي البلاغة المنمَّقة baroque rhetoric الفرنسية (والملكية) فى القرن السابع عشر؛ وكذا من زاوية التأكيد على جيد الحديث bene dicendi أو الفصاحة كما فى البلاغة الجمهورية (الرومانية القديمة) حيث كانت شخصية وفضائل الخطيب أمرًا بالغ الأهمية؛ وكذا من زاوية التأكيد على دور الحُجَج كما يتضح فى الآراء المعاصرة كما عند بيرلمان Perelman وتولمن Toulmin. كل تلك التعريفات ركزت إما على "استثارة العواطف" pathos أو على "الشخصية والمناقب" ethos أو على "إعمال العقل والمنطق" logos أو على الجمهور أو الخطيب أو على الخطاب نفسه، بحيث تندرج الأبعاد الأخرى للبلاغة تحت، البعد المفضل من بين تلك الأبعاد المذكورة، أو لصالحه (انظر مداخل "الشخصية/المناقب" Ethos و"المبدأ العقلاني/الاستدلال المنطقي" Logos و"استثارة العواطف" Pathos). بيد أنه فى التعريفات العديدة المتنافرة للبلاغة نجد أن الجميع، عبر تاريخ هذا الحقل، يتجاهلون الوضع الذي جعل فيه أرسطو كلا من "الشخصية/المناقب" Ethos و"المبدأ العقلاني/الاستدلال المنطقي" Logos و"استثارة العواطف" Pathos فى

منزلة واحدة سواء بسواء (انظر مدخل البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric). فإذا كانت البلاغة هي علاقة منطقية (logos) بين مدافع عن قضية ما وبين الجمهور، فإن لها أيضًا موضوعًا وقضية. وإذا كانت هذه العلاقة موجودة فهي كذلك بسبب وجود معضلة أو مشكلة يختلف بشأنها هؤلاء المدافعون؛ وهى مشكلة ليست بالضرورة أن يكون هناك اتفاق حولها. ولذا فالبلاغة يمكن أن تُعَرَّف فى أوسع معانيها على أنها التفاوض بشأن خلاف ما حول قضية ما بين مجموعة من الأفراد. وتلك القضية تعطى مؤشرا عن ذلك الخلاف، والذي هو الفجوة بين أطراف الحديث، أي بين "الشخصية" ethos (أو الخطيب) وبين "استثارة العواطف" pathos (أو المخاطب الذي يوجَّه إليه الحديث).

وعلى ذلك فإن النظرة المشكلاتية problematological "للشخصية" ethos و"استثارة المشاعر" pathos و"النزعة العقلانية المنطقية" logos يمكن تلخيصها باختصار: فالشخصية هي نقطة التوقف فى عملية التساؤل التي – من ناحية المبدأ – يمكن أن تكون غير متناهية، كما يلاحظ الجميع مثلا من الأطفال فى عمر الثالثة الذين لا ينفكون يسألون "لماذا؟"، فقط حتى يختبروا مرجعية آبائهم ويبررون تلك الثقة التي يضعونها فيهم؛ فالشخصية هي مصدر تلك الثقة؛ ونحن يتعين علينا أن نتحلى بالشخصية السليمة وكذلك الحنكة، بل والمرجعية أو السلطة حتى يمكننا الإجابة. أما استثارة العواطف فهي عملية استقبالية؛ وهى تتمثل فى المنطقة التي منها ينبع السؤال. أما الاتجاه العقلاني المنطقي فالقصد منه التعبير عن، أو صياغة، الأسئلة والإجابات معًا سواء بسواء، علمًا بأن الاختلاف فيما بينها يجب التعبير عنه من خلال مقابلة الظاهر بالباطن (أو الضمنى).

إن النظرة التساؤلية للبلاغة تمكننا من حل إشكالية قديمة جدا بخصوص الفرق بين البلاغة والجدل (الديالكتيك) (انظر مدخل "الجدل/الدياليكتيك"

Dialectic). وهذا الفرق يتمثل فى التأكيد على التساؤلات أو إجابتها سواءً بسواء. فهناك مدخلان أو منهجان للتعامل مع أي مشكلة بغية التوصل إلى حلها: الأول يكمن فى وضع المشكلة فى العراء (أي تجليتها من كل جوانبها) حيث يمكن مناقشة البدائل الظاهرة. والثاني يعالج المشكلة كما لو أنها لم تستمر أكثر مما هي عليه فى الواقع؛ ولذا فهذا المدخل يركز على الإجابة، وإن شئت فقل كما لو كانت هي الإجابة. وبتقديم الحل من خلال حِيَل بلاغية فإن الخطيب يواصل عمله كما لو أن تلك المسألة المتصورة لم تعد مشكلة البتة. فالأسلوب والفصاحة والطريقة الجذابة لصياغة الكلمات والعبارات مع بعضها بعضا، كلها عوامل تمكن الخطيب من التصرف كما لو كان لديه الحل فعلاً، بحيث يبدو الأمر المعضل الإشكالي كما لو أنه زال وامَّحَى، وذلك بفضل تحويل – على نحو تخييلي أحيانًا – المُشكِل إلى مُنفَك بفضل الوسائل الشكلية.

على أن البلاغة قد أُدينَت بسبب هذا التخيل؛ وإن كان السياسيون والخبراء فى الشؤون العامة يستخدمون هذا المدخل فى معالجة المشكلات التي تواجههم؛ إذ هم يعرضون لتلك المشكلات على أن بها حلولاً ذاتية عندما يتم الدفع بهم، وببساطة، إلى الميدان بما له من خبايا. وعليه فالإسهاب أو المبالغة، وهذا أمرٌ شائع فى البلاغة، يقصد منه ها هنا التركيز على جوانب الخطاب التي يمكن أن تقدم حلولاً والتي، بغير ذلك، يمكن أن تبدو مريبة عند استدعاء المسائل التي قد يبدو ظاهريًا أن الخطاب يقدم لها حلولاً. (انظر مدخل "الإسهاب/الإفاضة" amplification).

وختامًا فالنظرة المشكلاتية problematological للبلاغة الأدبية تبدأ من مفاهيم "مناقب الشخصية" ethos و"استثارة المشاعر" pathos و"النزعة العقلانية المنطقية" logos على اعتبار أن هذه المفاهيم هي العناصر البنيوية لأي شكل بلاغي؛ بل هي لُب الأنواع الأدبية، كما أنها أيضًا لب الاستجابة

الأدبية، كما يتجلي ذلك فى "نظرية الاستجابة" reception theory و"التأويل" Hermeneutics، حيث المعنى هو المحك (انظر مداخل "التأويل" و"نظرية الاستقبال/الاستجابة" Reception theory). وعليه فإن كلا من "الشخصية" و"استثارة المشاعر" و"النزعة العقلانية المنطقية"، على التوالي، قد أدوا إلى ظهور أنواع أدبية مبنية على فكرة التعبير عن النفس، وعلى علاقاتها بالآخر وبالعالم الخارجي. فالأدب نشأ عن طريق التحول تجاه المجاز والتشخيص، ومن ذلك تلك القناعات الأسطورية: فعلى الرغم من أنها كانت ذات يوم حقائق، فقد تحولت بعد ذلك إلى استعارات ومجازات، أو كما فى الخيال القصصي إلى أساطير وحكايات. فبالنسبة إلى مفهوم "الشخصية" ethos فعملية التحوُّل إلى الخيال القصصي هذه قد أدت إلى نشوء الشعر الغنائي، حيث كانت الاستعارات تنصب على التعبير عن النفس. أما "استثارة المشاعر" pathos فقد أدت إلى نشوء التراجيديا (المأساة) والدراما. أما "النزعة العقلانية المنطقية" logos، حيث العالم هنا هو موضوع التخيُّل أو القَص؛ فقد كانت الأبيات الشعرية وسيلة ملحمية للتعبير عن ملابسات معينة. ثم تغير الشكل، وبدلاً من الشعر فقد ظهر النثر متأخرًا وتطور كاستجابة للحاجة إلى شكل لغوي جديد ليحل محل الشكل الاستعاري أو المجازي المحض للأساطير القديمة. ولعل هذا يفسر لنا السبب فى أن التعبير الغنائي عن النفس قد أفسح المجال للشكل النثري للقصة الرومانسية romance (وبالتالي – فى نهاية الأمر – ظهور الرواية)؛ بينما الملحمة أفسحت المجال للتاريخ؛ أما المأساة فقد تبعها عهد الكوميديا، حيث استُخدِم النثر فى ذلك. ومع مجيء التاريخ باعتباره شكلا قصصيا واقعيا أكثر منه أدبيًا فقد عملت الرواية على ملء ذلك الفراغ إذ غطَّت أسلوبَيّ الرواية عن النفس والرواية الخيالية (القصصية) عن الأحداث.

ومع تسارع التاريخ فقد أصبحت القيم غير المتنازع عليها للأفعال البطولية تزداد إشكالاً، وذلك قبل أن يتم استبدالها لاحقًا. كذلك فقدت الملحمة والدراما أهميتهما، وكذا حدث للشعر الغنائي. أما التاريخ فقد نحا نحو الوصف الواقعي، والشعر توقف عن أن يكون غنائيًا، وتوقفت الرواية عن أن تكون واصفة لوقائع حقيقية. ولقد أصبحت الرواية شكلاً رئيسيًا للقَص الخيالي، بل تعبر عن احتمالية الحياة والعالم، واحتمالية النفس، واحتمالية علاقاتنا بالآخرين. كذلك فقد استهدف الاتجاه الاستعاري والمجازي مزيدًا من النزعة الإشكالية، الأمر الذي تطلب من القارئ أن يعوض معنىً مفقودًا لم تعد الرواية تضطلع به. ونتيجة لذلك فقد أضحى معنى الأدب هو الإشكالية المُثَارة أمام القراء (انظر أعمال كافكا Kafka وبورجيه Borges التي تعد أمثلة واضحة لمثل هذا القَص المبهَم). بل بلغ الأمر أن الإجابة الوحيدة على مثل هذه التساؤلات تحولت لتكن هي بحد ذاتها مثار تساؤل: إن البلاغة المعاصرة، عندما تتعامل مع الأدب، تتعاطى مع بلاغة الخطاب المجازي باعتباره صوت الغموض أو الإبهام (انظر مدخل "التساؤل" Questioning").

المراجع (Bibliography)

Golden, James, and David Jamison. "Meyer's Theory of Problematology." *Revue Internationale de Philosophie* 205 (1990), pp.pp. 329–335.

Meyer, Michel. *Meaning and Reading*. Amsterdam, 1983.

Meyer, Michel. *Rhetoric, Language and Reason*. University Park, Pa., 1994.

Meyer, Michel. *Of Problematology*. Chicago, 1995.

Meyer, Michel. "From Grammatology to Problematology." In *Derrida*, a special issue of the *Revue Internationale de Philosophie* 3 (1998), pp.pp. 359–365.

Perelman, Chaim, and L. Olbrechts - Tyteca. *The New Rhetoric*. Translated by John Wilkinson and Purcell Weaver. Notre Dame, Ind., 1969. First published 1958.

Toulmin, Stephen. *The Uses of Argument*. Cambridge, U.K., 1958.

Yarbrough, Stephen. *After Rhetoric*. Carbondale, Ill., 1999.

مؤلف المدخل: Michel Meyer

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

التوقع/الاستباق (السياقي أو التركيبي) Prolepsis

يشير المصطلح – وأصله فى اللاتينية anticipatio adiectivi، أي التوقع – إلى لفظ أو حيلة نصية إبدالية (في بناء الجملة أو السياق)؛ وهو يشير إلى توقع العلاقات المنطقية للنتائج داخل الجملة (والتي تتبني على الخبر) وذلك عن طريق صفة أو صيغة اسمية يمكن أن تتمثل وظيفيًا فى عبارة أو مركب اسمي افتراضي ومترابط منطقيًا. ومن أمثلة ذلك ما أورده شكسبير فى مسرحية "الملك جون" (الفصل الرابع، المشهد الثاني، ص ٢١٠): To break within the bloody house of life وفيها عبارة "البيت الدموي للحياة" والتي هي فى أصل تركيبها المنطقي يجب أن تكون على النحو الآتي لتُفهَم: To break within the house of life [the body] and make it bloody والمعنى أن الجسد هو بيت الحياة، إلى أن تُسفَك فيه الدماء لاحقًا (فيصير دمويًا، باستخدام الخنجر مثلاً؛ كما يُفهم من سياق الأحداث أو على نحو ما أوضح النقاد). ونظرًا لأن هذا المحسن البديعي – من خلال الإبدال النحوي أو التركيبي – يخلق صورة أكثر حِدَّة فله أيضًا بعد دلالي قوي. (انظر مدخل "المحسنات البلاغية" (Figures of Speech).

مؤلف المدخل: Andrea Grün - Oesterreich

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

Proparalepsis (or Paragoge) الإضافة الصوتية (الاختتامية)

ينتمي المصطلح إلى المحسنات البديعية المتعلقة بالكلمة (figurae verborum)، أو على نحو أكثر دقة إلى فئة التغيُّر فى الشكل الصوتي الفونيمي (metaphonemes). وهو يشير إلى وحدة لغوية منحرفة تتولد عن إضافة صوت معين أو مقطع ما إلى الكلمة (والأغلب فى نهايتها)؛ ومن الأمثلة على ذلك فى اللغات المختلفة ما يلي: فمن أعمال شكسبير فى الإنجليزية مثلاً winged و wingēd (وكلاهما يعنى مجنّح إلا أن الثانية بها زيادة صوتية فرنسية اللهجة)، وكذلك haste وتحولها إلى hasten (والأولى اسم (سريع) والثانية فعل (يسرع))، أو vast (واسع) وتحولها إلى vasty (واسع أيضًا) وذلك لغرض دلالي معين أو لتوليد أثر معين لدى السامع. وفي اللاتينية مثلاً لفظة admitti وتحولها إلى admittier (وكلاهما من معنى الدخول أو السماح بكذا كما ورد عند فرجيل Virgil)؛ وفي الإيطالية fu (بمعنى كان) والأخرى fue كما عند دانتي Dante، الشاعر الإيطالي؛ وفي الفرنسية avec (أي "مع") وتحولها إلى avfecque كما عند موليير Moliere، وهكذا.

مؤلف المدخل: Heinrich F. Plett

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القناع (الصوت) الوهمي Prosopopoeia

يستخدم المؤلفون المصطلح - الذي يعنى فى اليونانية قناعًا أو شخصية، وفي اللاتينية sermocinatio،fictio personae أي القناع المصطنع، وكما يُفهَم من جذره اللغوي فى اليونانية واللاتينية - لتقديم أو عرض شخصيات أو أشياء مُشَخَّصَة، بمعنى أنها أشياء غير حقيقية أو وهمية sub specie personae. والشكل الغالب فى مثل هذه الطريقة من العرض أن تكون بعزو خصائص أو صفات بشرية، وخصوصًا تلك التي تتعلق بصفات السمع والكلام - (ومن المصطلحات التي تشير إلى هذا الأمر أيضًا مصطلحا dialogismos و sermocinatio). على أن استخدام هذه الحيلة يتعين تنظيمه وفق أُطُر اللياقة أو الذوق الأسلوبي stylistic decorum.

يميز غالبية المؤلفين كذلك بين اتجاهين فى عزو تلك الحيلة إلى شخصياتهم أو أشيائهم المجسدة: الأول هو "الخطاب المباشر" direct discourse - أو (prosopopoeia recta) - والثاني هو "الخطاب غير المباشر" indirect discourse - أو (prosopopoeia obliqua)؛ وأكثر المفاهيم الخاصة باستخدام هذا المحسن البديعى - كما فى "الإبدال التشخيصي" ethopoeia كذلك - تظهر فى المراجع التعليمية اليونانية الخاصة بالتدريبات البلاغية (progymnasmata) حيث يرتبط هذان النوعان ببعضهما بعضًا. (انظر مداخل "اللياقة/الذوق" Decorum و"المحسنات البلاغية" Figures of speech)

المراجع (Bibliography)

Lanham, R. A. *A Handlist of Rhetorical Terms*. Berkeley, 1991.

Lausberg, H. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. pp.Pp. 820–829. Munich. 1960.

Mayoral, J. A. *Figuras retóricas*. pp.Pp. 278–284. Madrid, 1994.

Morier, H. *Dictionnaire de poétique et de rhétorique*. Paris, 1981.

مؤلف المدخل: José Antonio Mayoral

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الإضافة البدائية Prosthesis

نحت هذا المصطلح توماس ويلسون Thomas Wilson فى كتابه "فن البلاغة" the Arte of Rhetoric (١٥٦٠، ص ١٧٧)، وأصله فى اللاتينية appositio؛ أي "يحل محل". وهو يشير إلى تغير شكل الكلمة الذي ينتج عن إضافة حرف أو مقطع فى بدايتها (سابقة). وكثيرًا ما تكون الكلمة قديمة مهجورة أو تنتمي إلى إحدى اللهجات التي تختلف فيها بنية الكلمة (عما هو معروف)، ومن أمثلة ذلك فى الإنجليزية كلمة yclad بدلاً من clothed أو adown بدلا من down. وغالبًا ما تستخدم الصفة الجمالية لهذا المحسن البديعي فى الأسلوب الشعري، كما عند بايرون Byron (الشاعر الإنجليزي) فى أحد أبياته الشعرية (١٨١٧) "So we'll go no more a - roving" (إذن لن نذهب ثانية متجولين). (انظر مدخل "المحسنات البلاغية" Figures of speech).

مؤلف المدخل: Heiner Peters

ترجمة: محمد فوزي

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الفطنة/الحكمة Prudence

منذ العصور الكلاسيكية القديمة وحتى عصر النهضة كان يفترض أن الفضيلة العقلية والأخلاقية للحصافة أو التفكير العملي جزء من تعليم الخطيب وتدريبه، وكذلك السياسي، والأمير. وعادت الحصافة إلى الظهور، بعد انتقاص قدرها وتجريدها من الصفات الأخلاقية والفكرية على حد سواء خلال حقبة عصر التنوير الأوروبي، وذلك على اعتبار أنها تمثل إحدى الفضائل المرجو استعادتها فى العصر الحديث. وترتبط الأفكار الحديثة عن الحصافة بالحذر والدهاء واقتراح السياسات التي تعكس المصالح الشخصية المحسوبة، وهكذا تُقصِي الحصافة من ميدان الأخلاق لتضعها فى ميدان السياسة. وقد سعت الدراسات التي أجريت فى الآونة الأخيرة فى ميادين الخطابة، والعلوم السياسية، والتعليم، والتاريخ الفكري لاستعادة الأبعاد الأخلاقية والفكرية والعملية للحصافة (من اليونانية phronēsis؛ واللاتينية prudentia) وذلك من خلال العودة إلى استخداماتها السابقة فى الفلسفة اليونانية وعلماء الإنسانيات فى عصر النهضة. [انظر **Classical rhetoric**، والمقالة المختصرة تحت عنوان **Renaissance rhetoric**] ويرى البعض أن استعادة هذا المفهوم الحديث للحصافة هو الهدف الرئيسي من استعادة الأخلاق والاحتكام إلى الخطابة، وإعادة استخدامها بوصفها ممارسة فكرية صحيحة.

يبدأ تاريخ الحصافة فى الفلسفة والخطابة الغربية بأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد)، ولكن أصبحت الممارسات الفعلية للحصافة مؤكدة فى بدايات الأدب اليوناني؛ إذ نجد في الإلياذة أن نستور (Nestor) وأوديسيوس (Odysseus) ينظر إليهما على أنهما من الشخصيات الحصيفة (phronimoi)، ومن القادة ذوي الخبرة الذين يأمرون رجالهم ويستشيرون الجنرال اليوناني البارز أجاممنون (Agamemnon). ويدرك أرسطو أهمية ممارسة الحصافة حيث يشير إليها فى بداية مناقشته الرائعة عنها (Phronēsis) فى الكتاب السادس من الأخلاقيات النقوماخية (*Nicomachean Ethics*)، حيث يقول: "نحن قد نكتشف ماهية الحصافة من خلال مراقبة الأشخاص الذين نسميهم "الحصفاء" (6.5.1140a24). ويمتلك الشخص الحصيف (phronimos) القدرة على التفاوض جيدًا بشأن ما هو جيد أو سيئ، ليس فقط فيما يتعلق بشخصه، ولكن فيما يتعلق بالمجتمع ككل. وتتطلب الحصافة حكمةً تتعلق بمعرفة أُصل الأشياء، وإن كان أرسطو يميزها عن الحصافة النظرية لأنها تُعنى بالظواهر، كما يميزها عن المعرفة المهارية التي تُعنى بإنتاج الأشياء. وهكذا، تتضمن الحصافة – رغم أنها تقوم على فهم العموميات – بالتفاوض بشأن مسائل خاصة وطارئة، وتتحقق من خلال العمل، وليس من خلال معرفة حقيقة مطلقة أو من خلال الإنتاج. وتتشابه الحصافة مع العلوم السياسية على الأرجح نظرًا لاعتمادها على الخبرة العملية، واهتمامها بالتفاوض والمسائل الطارئة. وعلاوة على ذلك، فإن الشخص الحكيم يكون فاضلاً بطبيعة الحال، ويعمل لتحقيق الخير الأسمى والسعادة (eudaimonia). كما تسمح له قدرته على التفاوض الجيد بالتصرف أو تقديم النصح بطرق تفضي إلى هذه السعادة مهما كانت الظروف. وهكذا تسهم الحصافة، عند أرسطو، فى مجالات الأخلاق والسياسة والخطابة وتتوسط فيما بينها.

ولقد أوضح الخطيب الروماني ورجل الدولة ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero (١٠٦ - ٤٣ قبل الميلاد) الارتباط القوي بين الحصافة والخطابة، وذاعت فكرته عن تعذر الفصل بين الحصافة والخطابة حتى وصلت إلى عصر النهضة. وليس ثمة أدلة على تأثير بيان أرسطو لصفات الحصافة فى مفهوم "الحصافة" الرومانية الأصيل الذي كان سائدًا قبل شيشرون، والذي كان يولي اهتمامًا بالخبرة القانونية والمعرفة السليمة. وقد ارتقى شيشرون، ربما تحت تأثير أرسطو، بالمفهوم الروماني الأصيل "للحصافة" حتي تساوي مع مفهوم الحكمة sapientia التي اكتست بصبغة الفلسفة اليونانية التي حظيت بشعبية كبيرة بين الطبقات الرومانية العليا فى عصره. وعلى النقيض من أرسطو، لم يبين شيشرون صفات الحصافة بصورة مجردة، ولكنه صاغها شكلاً من أشكال ممارسة الحصافة من خلال الشخصيات فى الحوارات التي أجراها، وخصوصًا فى أعماله *De oratore* و *De republica* و *De officiis* و *Brutus*.

وتعد كتب شيشرون الثلاثة حول الخطابة الركيزة الأساسية فى تطوير نموذج لممارسة الحصافة؛ إذ يعيد شيشرون تعريف مفهوم "الحصافة" الروماني الأصيل، من خلال طبيعة المناقشات الودية التي تتسم بالأخذ والعطاء وأحيانًا بعدم النظام، بأنها حصافة عملية تقوم على الخبرة فى المؤسسات الثقافية الرومانية مع الاهتمام بالتعلم النظري والتعرض له كما فى الفلسفة اليونانية. ويضع شيشرون الممارسة والاستدلال الحكيم فى صلب تجربة الخطيب المُثْلَى وتدريبه. وتهدف هذه الحصافة إلى تحديد أفضل الحجج، والأساليب، وطرق الإقناع فى أي موقف معين وتقديمها. ومن المفترض أن يكون الخطيب رجلا صالحا، وهذا يستلزم منه الدفاع ليس فقط عما فيه مصلحة موكله أو شخصه، ولكن عما فيه مصلحة عليا للدولة.

ومما لا شك فيه أن قرار تحديد نطاق الحصافة وأهميتها من جديد فى حوار معين وليس فى بحث فلسفي كان مدفوعًا بالموقف السلبي الذي اتخذه الرومانيون نحو التعاليم الفلسفية والقيمة الإيجابية التي أضفوها على الأمثلة التاريخية (ورغم ذلك، يعد حوار شيشرون من روائع الابتكارات فى الأدب اللاتيني)، وقد ثبت أنها تتضمن أسلوبًا ملائمًا للغاية من أساليب المناقشة وعرض الممارسة والاستدلال الحكيم. وفي كتاب *De oratore* يُنظر إلى الرجال الذين يتسمون بالحصافة ولديهم خبرة فى الشؤون العامة، على أنهم مهتمون بالتعلم، ولديهم القدرة على مناقشة القضايا الفلسفية وشبه الفلسفية، وبحث القضايا من زواياها المختلفة، ويتمتعون بالحس المرهف واللباقة، والسخرية من أنفسهم، ويشجعون على التعاون والانسجام بين الأفراد والفضائل السياسية. وهم يدركون أن الإنسان يصبح أفضل خطيب عندما يصبح أفضل شخص، وبالتالي فإن هدف الخطيب لا يتمثل فقط فى إتقان التفاصيل التقنية للخطابة، ولكن يشمل أيضًا سيطرته على نفسه.

قدم شيشرون نموذجًا مماثلاً لنموذج الحصافة ورجل الدولة فى كتاب De repuplica، ولكنه كان أقل تأثيرًا لأن جميع ما حواه باستثناء القليل لم يكن معروفًا حتى أوائل القرن التاسع عشر. ورغم ذلك، وبناءً على بيان شيشرون فى كتاب *De oratore*، فإن تفسيراته اللاحقة، وخصوصًا فى *Brutus* و *De officiis* كانت من الأهمية بمكان لوصف نموذج الممارسة الحكيمة لكل من الخطيب ورجل الدولة. ويقول شيشرون فى *Brutus* "لا يستطيع أحد التحدث بشكل جيد إذا لم يكن لديه عقل حكيم، ولهذا السبب، فمن يكرس نفسه للفصاحة الصادقة، يكرس نفسه للحصافة" (٢٣)، ويبدأ على الفور فى تدوين قائمة بكل رجال الدولة والخطباء (وبعض العامة) فى تاريخ روما.

وقد كان نموذج حصافة الخطيب ورجل الدولة الذي تبناه شيشرون محاولة بالفعل - ولو جزئية - لاستعادة نموذج المشاركة المدنية التي تستند إلى التفاوض والخبرة فى مواجهة التحرك نحو الديكتاتورية. ولم يكن من المدهش أن ملامح الحصافة التي روج لها شيشرون - المفاوضات، وتقديم المشورة والمشاركة فى حكومة تتشكل من رجال لديهم خبرة واسعة فى الحياة العامة - لم تكن محل اهتمام الديكتاتور يوليوس قيصر Julius Caesar (١٠٠ - ٤٤ قبل الميلاد) وخليفته الإمبراطور الروماني الأول أوغسطس Augustus (٦٣ ق ١٤ م). وهذا يفسر لنا كيف أن الحصافة كانت تعتبر مثلاً سياسيًا أعلى فى الإمبراطورية الرومانية، ويبين سبب اهتمام الأباطرة بـــ "العناية الإلهية" (providentia التي اشتق منها كلمة prudentia فى اللاتينية الأولى) أو البصيرة الإلهية، وهى أخت الحصافة فى الفضائل. وأدت التطورات اللاحقة فى المسيحية إلى مزيد من تحجيم مكانة الحصافة فى المجال الأخلاقي لأنها دعمت مفهوم قانون أخلاقي يعاقب عليه الله وهدف مطلق يتمثل فى معرفة الله نفسه الهدف الأخلاقي المطلق الذي يمكن التفاوض بشأنه وقد يتنوع وفقًا لظروف معينة. وتقترب تقاليد القرون الوسطى من نهايتها عند القديس توما الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤)، الذي استعاد الفضائل الأخلاقية والفكرية لشيشرون وأرسطو عن الحصافة، وسمح بإمكانية الاستدلال فى إطار الإيمان.

وكانت أكثر مراحل تأثير الحصافة على الخطابة والسياسة إبان عصر علماء الإنسانيات فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد استعادة نصوص جديدة لشيشرون، وبعد ترجمة أعمال أرسطو إلى اللاتينية واللهجات العامية. واعتمد الإنسانيون على شكل الحوار الشيشروني فى مناقشة الفلسفة والسياسة، واستخدموا الكتابة كوسيلة سياسية لكسب النفوذ. وقد كتب العديد من رواد الإنسانيات، ومنهم كوليشيو سلوتاتي Coluccio Salutati

(١٣٣١ - ١٤٠٦)، وليوناردو بروني Leonardo Bruni (١٣٧٠ - ١٤٤٤)، وجيوفاني بونتانو Giovanni Pontano (١٤٢٦ - ١٥٠٣ تقريبًا) أطروحات أو حوارات لتثقيف قرائهم بفضيلة الحصافة، التي كانت ترتبط بالأسلوب الخطابي، وتمثل تجسيدًا حيًّا للذوق الأسلوبي، وترتبط بقوة بالحياة النشطة وتركز على الفوائد العملية للتفاوض فى البحث الكلي للمسائل (في الجانبين). وقد أوجدت أساليب علماء الإنسانيات فى استخدام الحجة وأمثلة معينة على العمل الحكيم تركيبةً حقيقية من شكلي الكتابة الرئيسيين عن الحصافة: طريقة أرسطو الفلسفية المجردة، وتراث شيشرون النموذجي العملي.

وقد أدرك علماء الإنسانيات (الذين غالبًا ما كانوا هم أنفسهم رجال دولة وقادة) أن كتاباتهم الخاصة ونشاط القراءة تعد، بالإضافة إلى تنمية الحصافة والقدرة البلاغية لدى الآخرين، مثل رجال الدولة والأمراء، صورًا من صور الممارسة الحكيمة. وتم فهم فعل الكتابة، والحوار بصفة خاصة، على أنه استدلال ومفاوضات حكيمة ترجع إلى عصر شيشرون. وقد نقل علماء الإنسانيات، كما يبين كان Kahn، هذه الفكرة إلى فعل القراءة أيضًا، لتندمج مع القدرة على مساعدة القارئ على إصدار الأحكام الأخلاقية التي تؤدي إلى القيام بالتصرف المناسب.

ولا يشترك جميع الإنسانيين فى هذا التقييم العالي للحصافة باعتبارها معيارًا من معايير الحكمة التي تؤدي إلى العمل الأخلاقي المناسب، حتى عندما يستخدمون طرق تعبير حكيمة للطعن فيه. وقد شكك لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧)، وهو من أبرع علماء الإنسانيات وأحد النقاد الصارمين، فى أولوية الحصافة على الإيمان باعتباره مفضيًا إلى العمل الأخلاقي فى عالم يحكمه الله ويجهله الإنسان جزئيًا على الأقل. وقد كان ديسيديريوس إراسموس Desiderius Erasmus (١٤٦٦ - ١٥٣٦) تجسيدًا

لممارسة الحصافة، ومدافعًا عن التفكير الحكيم. ولكن فى تقدير كان Kahn لمقالة (*Moriae encomium*، ١٥١١)، يوضح إيراسموس التناقض الكامن فى الحصافة فى السياق المسيحي من خلال رسم يسوع فى صورة" مثال لا يمكن تقليده" (ص ١١٤).

وقد تضاءلت أهمية التفاوض والجدل الحصيف كثيرًا بعد عصر النهضة مثلما تقلصت قيمة مفهوم الحقيقة الطارئة وفائدة التفاوض. ومع أن توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ – ١٦٧٩) استخدم التاريخ من قبل بوصفه كتابًا يحوي دروسًا عن الأمراض المعاصرة، كما فعل شيشرون، فإن بونتانو Pontano، ونيكولو مكيافيلي Niccolò Machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧) يبينان بصفة خاصة فى كتاب (*Discorsi sopra la prima deca di Tito Livio*, 1521، ١٥٢١)، أن هناك تحولاً كبيرًا من الاستدلال الحكيم إلى الاعتماد على الحقيقة الموضوعية والتبعية لسلطة واحدة. وأخيرًا، يوجه إيمانويل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) ضربة قاصمة للحصافة وذلك بفصلها عن الأخلاق وربطها بتعظيم المصلحة الشخصية، والتفريق بين استدلال يستند إلى التجربة الحسية وبين "الاستدلال المحض" الذي يسعى إلى ما هو عالمي وسامٍ.

وقد تم مؤخرًا اعتبار مفهوم الحصافة الحديث، لاعتبارات شخصية، مفهومًا ضيقًا للغاية وبعيدًا عن ميادين الخطابة والأخلاق. وهكذا، اهتمت الدراسات الحديثة مؤخرا بالعودة إلى صيغة أرسطو لمفهوم الحصافة، والتأكيد على التفاوض الحصيف، وهدفها الأسمى الذي يتمثل فى تحقيق السعادة لأكبر المجتمعات المحلية، وقدرتها الأبدية على التكيف مع الظروف الطارئة. وتشترك أعمال رونالد بيرنار Ronald Beiner، وروبرت هاريمان Robert Hariman وفرانسيس أ. بير Francis A. Beer فى العلوم السياسية،

وأعمال جوزيف دون Joseph Dunne فى التعليم، وأعمال توماس ب. فاريل Thomas B. Farrell فى الخطابة، وأعمال توماس و. سلوان Thomas O. Sloane فى التأليف، ودوجلاس ج. دين يول Douglas J. Den Uyl فى الفلسفة والأخلاق فى اهتمامهم بإعادة تقديم الاستدلال الفكري والأخلاقي فى مجالات اختصاصاتهم. كما تحاول هذه الأعمال وغيرها استعادة تركيبة طرق التقديم الفلسفية والعملية، والإقرار بأن استعادة الحصافة تتطلب استعادة الظروف التي توجِدها. ولا تتفهم هذه الأعمال الكثيرة – على ما يبدو – حقيقة أن خطاب العلماء لن يغير الثقافة السياسية أو الأخلاقية أو الخطابية الأساسية. وما زال هناك إبراز كبير لأرسطو، وتحيز لتحديد أصول القضايا الفلسفية فى الفكر اليوناني القديم. وإذا كان لنا أن ننجح فى استعادة الحصافة فى الممارسة العملية والظروف الاجتماعية الفكرية التي تنطوي عليها، فلابد من التأكيد على صياغة أمثلة ثقافية معينة عن الجدل والعمل الحكيم، سيرًا وراء التقاليد الشيشرونية، مع انتهاج طريقة أفضل من خلال مخاطبة الشخص العام. ومع ذلك، ففي ظل المناخ الحالي، وما به من نزعات النسبوية الفكرية والتشكيكية تفاقمت بظهور الأصولية الدينية والنزعة الجديدة للمحافظة السياسية، فقد تتوافر الظروف لاستعادة نسخة جديدة للحصافة تناسب عصرنا، بما يؤدي إلى الجمع بين الاستدلال الحكيم والممارسة الخطابية والسياسية.

[انظر أيضًا **Contingency and probability; Decorum; Phronēsis**، وإطلالة على **Politics; Practical wisdom**].

مصادر ومراجع

Beiner, Ronald. *Political Judgment*. Chicago, 1983.

Cape, Robert W., Jr. "Cicero and the Development of Prudential Practice at Rome." In *Discourses of Prudence*, edited by Robert Hariman, forthcoming.

Den Uyl, Douglas J. *The Virtue of Prudence*. New York, 1991.

Dunne, Joseph. *Back to the Rough Ground: "Phronesis" and "Techne" in Modern Philosophy and in Aristotle*. Notre Dame, Ind., 1993.

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

Garver, Eugene. *Machiavelli and the History of Prudence*. Madison, Wis., 1987.

Hariman, Robert. *Discourses of Prudence*. Forthcoming.

Hariman, Robert, and Francis A. Beer, "What Would be Prudent? Forms of Reasoning in World Politics." *Rhetoric and Public Affairs* 1 (1998), pp.pp. 299–330.

Kahn, Victoria. *Rhetoric, Prudence, and Skepticism in the Renaissance*. Ithaca, N.Y., 1985.

Reeve, C. D. C. *Practices of Reason: Aristotle's Nicomachean Ethics*. Oxford, 1992.

Sloane, Thomas O. *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*. Washington, D.C., 1997.

تأليف: Robert W. Cape, Jr.

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

مخاطبة الجمهور Public Speaking

جرت العادة فيما قبل القرن العشرين على تسمية المتحدثين الجماهيريين بالخطباء، وتسمية أحاديثهم بالخطب. وقد كان الحديث في الثقافات الشفوية للعالم القديم يعد الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها الوصول إلى جمهور كبير. كما حظي فن الخطابة بالتقدير والاهتمام باعتباره وسيلة للتأثير على المجتمع ووسيلة للتعبير الفني على حد سواء [انظر Oratory]. وحتى بعد اكتشاف الطباعة، ظل الخطيب يحظى بالتقدير بوصفه الشخصية البطولية التي تقف عند مفترق طرق التاريخ، وتساعد في تشكيل مصائر الأمم. وكانت الخطابة بمثابة عنصر لا غنى عنه في فن الحكم، وكان التدريب على الخطابة يحتل مكانةً رئيسية في المناهج الدراسية. وأنتج القرنان الثامن عشر والتاسع عشر في بريطانيا العظمى مستوى من التميز البلاغي يضاهي ذلك التميز الذي ساد روما واليونان القديمة. وشهدت الولايات المتحدة عصرها الذهبي في الخطابة خلال الحقبة من ١٨٢٠ – ١٨٦٠، حيث اجتمعت قوة الخطيب ومكانته على جانبي الأطلسي (في الولايات المتحدة) في رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson، الذي كان يبدي تعجبه قائلاً " تتناثر أكبر هدايا المجتمع تحت أقدام الخطيب الناجح، ويخفت صوت كل شهرة عند ذكر شهرته، إنه الحاكم الحقيقي" (الأعمال الكاملة، بوسطن، ١٩٠٣).

وحتى قبل نهاية القرن التاسع عشر، انفصلت طبيعة مخاطبة الجمهور وإدراك المتحدث عن النموذج الكلاسيكي الجديد للخطابة. وكما استسلم العالم الأرستقراطي الذي أرسى دعائم هذا النموذج لمجتمع تغلب عليه النزعة الديمقراطية والصناعية، بدأت تقاليد الخطاب المدني الأقدم تفسح المجال أيضًا لهذه النزعات، حيث أصبحت اللغة أكثر ميلا للعامية وأصبحت الخطب حوارية بشكل أكبر. وبدأت النساء، اللاتي منعن من اعتلاء منصة الخطابة حتى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، فى ممارسة حق التعبير السياسي الذي يتمتع بها الرجل طويلاً. [انظر: Feminist rhetoric] ومع اعتلاء مواطنين كُثر من ذوي الوسائل الخطابية العادية منصة الخطابة، لم تعد الجماهير تنظر إلى شخصية الخطيب بعيني الاحترام والتقدير البالغ. هذا وقد أفسحت الأعمال الخطابية الرائعة التي كانت الشغل الشاغل عند عمالقة مثل إدموند بيرك Edmund Burke (١٧٢٩ – ١٧٩٧) ووليام بيت William Pitt (١٧٠٨ – ١٧٨٨)، ودانيال وبستر Daniel Webster (١٧٨٢ – ١٨٥٢) وهنري كلاي Henry Clay (١٧٧٧ – ١٨٥٢) المجال أمام الخطب القصيرة والأقل تفصيلاً. وكانت تلك التحولات من القوة بحيث جعلت السيناتور الأمريكى ألبرت بفريدج Albert Beveridge فى عام ١٩٠٠، والذي يعد من الخطباء المشهود لهم فى ذلك الوقت، يعلن انقضاء زمن الخطباء العظام الذين كانوا فى الماضي، حيث أصبح المستمعون الجدد، الذين لا يتأثرون بالأساليب الخطابية المنمقة، يفضلون تلك الخطب البسيطة، الهادئة، المباشرة، الواضحة، النزيهة والطبيعية التي تخلو من حيل الخطابة" (Reed, 1900–1903).

ومن الصعب من منظور القرن الحادي والعشرين أن نعتبر بفريدج بطل الأسلوب الخطابي السهل، بسبب المقاطع المنمقة التي تسود خطبه، ورغم آرائه عن أعراف الخطاب العام التي يتبناها ويرددها الكثيرون من

معاصريه، ومن بينهم محرر مجموعة الخطب البريطانية التاريخية فى مكتبة إيفريمان Everyman's Library، الذي لاحظ أنه فى إنجلترا "نحن نتحدث الآن، ولكن من الصعب أن نلقي خطبًا" (British Historical and Political Orations, London, 1915). وقد تجلت هذه التغيرات فى الممارسة الخطابية فى علم التربية. وقد تمت إعادة تسمية أكثر المناهج التي تدرس فى الجامعات خلال عشرينيات القرن التاسع عشر عن الفصاحة والخطابة المنمقة "بمخاطبة الجمهور"، وأصبحت تركز على طريقة التقديم الحواري. [انظر Speech]

ويعد كتاب Public Speaking (نيويورك، ١٩١٦) من أبرز كتب جيمس وينانز James Winans الأكثر تأثيرًا فى هذا الصدد، فهو من أحدث الكتب فى مادته. ويعد إلقاء الخطب، طبقا لوينانز، "عملا طبيعيًا تمامًا" يتطلب البعد عن الأساليب الغريبة المصطنعة، ولكنه يستدعي فقط إطالة وتطوير ذلك العمل المألوف لنا جميعًا: المحادثة. ولا يتمثل الهدف من ذلك فى إعداد خطبة شاملة للشخص فقط، ولكن فى الحديث أيضًا بشكل حيوي مباشر يتسم بالعفوية التي تجسد شكل "المحادثة المستفيضة".

وقد تجلى التحول من الخطابة إلى مخاطبة الجمهور وتسبب – إلى حد ما – فى ظهور الخطاب التجاري بوصفه نوعًا رئيسيًا من أنواع الخطاب العام. وأوضح محررو طبعة ١٩٢٣ من مجلة Modern Eloquence أن الخطاب الفعال ليس فقط وسيلة لبيع أفكار الشخص ومنتجاته والاتصال مع الآخرين من أفراد شركته، ولكن المشتغلين بالمجال التجاري أدركوا أيضًا أن موضوعات الجدل الوطني يغلب عليها فى كثير من الأحيان طابع اقتصادي. وبدلا من ترك هذا الجدل للسياسيين، أصبح كبار رجال الأعمال لديهم مهارات كبيرة فى مخاطبة الرأي العام، وكان لكلماتهم " تأثير قوى على الشعب الأمريكي". ولكن بغض النظر عن الميدان الخطابي، يفخر خطباء الميدان التجاري بأنفسهم فى البعد عن الخطاب المنمق، والميل نحو الخطاب

المباشر الذي يخلو من التميق والزخارف الكلامية. وكما ذكر ديل كارنيجي Dale Carnegie فى كتابه الأكثر مبيعًا Public Speaking and Influencing Men in Business (نيويورك، ١٩٢٦) "يريد الجمهور المعاصر من الخطيب أن يتحدث إليه بصورة مباشرة مثلما يتحدث فى حوار ودي، وبالطريقة نفسها كما لو كان يتحدث فى محادثة رسمية. وقد اكتسح نموذج كارنيجي للنجاح الشخصي من خلال مخاطبة الجمهور عالم الأعمال، وأكد أن الأسلوب الحواري هو النوع السائد من أنواع مخاطبة الجمهور.

وقام الميكروفون، الذي انتشر استخدامه فى ثلاثينيات القرن العشرين، بنفس الدور. وقد عُرِف أعظم الخطباء من ديموستين Demosthenes (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) وحتى ويبستر Webster بأصواتهم القوية، مما سمح لجمهورهم، الذي كان يصل إلى عدة آلاف، بالاستماع إليهم دون الحاجة إلى مكبرات صوت إلكترونية. إذ قيل عن ويليام بيت الأكبر William Pitt، على سبيل المثال، بأن صوته "يرتفع مثلما يرتفع صوت الأورغن فى ساحة أي كاتدرائية" (Jamieson, 1988)، فى حين وصِف صوت الأمريكي فريدريك دوجلاس Frederick Douglass (١٨١٧ – ١٨٩٥) عند الحديث بصوت "الرعد" فى تردد نغماته. ولكن مع ظهور مكبرات الصوت، أصبح من الممكن سماع الخطباء ذوى الصوت المنخفض فى أي بيئة تقريبًا.

وبعد أن تخلص الخطباء الجماهيريون من ضرورة توجيه أصواتهم عند الحديث للجماهير إلى أبعد الأماكن فى القاعة أو المسرح، يمكنهم الآن توصيل أصواتهم لهذه الجماهير بطرق أكثر محاكاةً للتحدث بأصواتهم العادية فى المحادثة اليومية. كما أصبحت نغمات الصوت الجهورية فى الخطابة التقليدية غير ضرورية، بل متنافرة فى كثير من الأحيان بالنسبة مع العلاقة الصوتية الحميمة بين المتكلم والمستمع والتي أتاحتها مكبرات الصوت الإلكترونية.

وفي حين ساعد الميكروفون الخطيب على توصيل صوته إلى جموع الجماهير، فقد أدى ظهور الراديو إلى تمكين هذا الخطيب من توصيل صوته إلى مئات الآلاف، بل الملايين، من الناس الذين يبعدون عن الموقع الفعلي لإلقاء الخطبة. وليس من قبيل المبالغة القول إن اكتشاف الراديو أحدث ثورة كبيرة فى مخاطبة الجمهور كتلك التي أحدثها التليفزيون بعده. ولم يعمل هذا الاكتشاف على زيادة أعداد جمهور الخطيب وحسب– نتيجة إدراكهم أهمية الاتصال السياسي – ولكنه أدى إلى حدوث تحول فى طبيعة العلاقة بين الخطيب والمتلقي. واختفت بذلك الدلالات غير الشفوية المصاحبة للإيماءات والمظهر المادي والاتصال بالعين، والتي ساعدت المستمعين على تقييم المعنى الذي يقصده الخطيب وقياس مدى مصداقيته [انظر **Credibility**]. وعلى هذا يتم توصيل الرسالة بكاملها من خلال صوت الخطيب. وكما أوضحت جريدة *Saturday Evening Post* فى عام ١٩٢٤ "تبدو الكلمات ذات النمط الرنان، وجميع العبارات المألوفة وموارد الخطيب الساحر خافتة جدًّا، بل تفقد قوتها عبر الأثير". وكان فرانكلين د. روزفلت Franklin D. Roosevelt (١٨٨٢ – ١٩٤٥)، أفضل من استوعب ذلك الأمر، حيث كانت إجادته في استخدام الراديو شيئًا أساسيًّا فى قيادته الرئاسية خلال فترة الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية. وليس من قبيل المصادفة أن توصف مجموعة خطبه الأكثر شهرة بين الناس "بالمحادثات المنزلية"، أحاديث غير رسمية مع الشعب الأمريكي فى قلب منازلهم الخاصة.

ويؤدي استخدام التليفزيون، مثل الإذاعة، إلى أسلوب حواري أكثر حميمية للخطاب الجماهيري. ويبدو الإلقاء الكلاسيكي الصارخ للخطب بعيدًا كثيرًا عما أطلق عليه مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan اسم الوسيط التليفزيوني "الهادئ" (*Understanding Media*, New York, 1964). وبالإضافة

إلى ذلك، يركز التليفزيون على العوامل البصرية، ويوجه الاهتمام إلى كل تغير بسيط فى مظاهر الخطيب وإيماءاته وتعبيرات وجهه. وتعد القدرة على التحدث أمام كاميرا التليفزيون من المهارات الخاصة التي لا يمكن أن يتجاهلها أي زعيم ديمقراطي فى العصر الحديث. وليس من قبيل المصادفة أن يكون رئيسا الولايات المتحدة اللذان قضيا فترتين كاملتين بين عامي ١٩٦٠ و٢٠٠٠ – وهما رونالد ريجان وبيل كلينتون – هما وحدهما أكثر من أتقنا الأسلوب الحواري الشخصي، حيث كانا قادرين على استخدام وسيلة التليفزيون ببراعة كما استخدم روزفلت الراديو. والحق أن انتشار التليفزيون فى كل مكان أثر على مخاطبة الجمهور فى كل جوانب الحياة العامة. ويتوجه الخطباء إلى جماهيرهم فى قاعات الاجتماع والفصول الدراسية وعلى المنابر وحتى مسيرات الحجاج، من خلال الأسلوب الحواري وتروقهم قوة الصور المرئية.

لكن غلبة الأسلوب الحواري لا تعني أن الخطابة أصبحت مألوفة وعامية بحيث تبدو مجرد وسيلة مساعدة فى المحادثات اليومية، إذ تُعد مخاطبة الجمهور أكثر تنظيمًا من المحادثات اليومية، وتفرض عادةً حدودًا زمنية صارمة على الخطيب، كما لا يسمح للمستمعين بمقاطعته بطرح الأسئلة أو التعليق. كما يتطلب فن مخاطبة الجمهور لغة رسمية أكثر من لغة المحادثة عادية، ذلك لأن اللغة العامية والألفاظ البذيئة والخروج على قواعد اللغة لا مكان له فى الخطب العامة. ويتخذ معظم المستمعين موقفًا سلبيًّا من المتكلمين الذين لا ينظمون ملاحظاتهم أو يصقلون لغتهم عندما يخاطبون الجماهير، حيث لا يتوقع المستمعون أنفسهم أن يتم إلقاء خطبة بنفس طريقة المحادثات الروتينية. أما عند الحديث بصورة غير رسمية، فيتحدث معظم الناس بصورة هادئة، ويتخذون أوضاعا عادية، كما يتخلل حديثهم وقفات

صوتية تنم عن عملية البحث الجارية فى أذهانهم عن الكلمة أو الفكرة التالية. إلا أن الخطباء المؤثرين يضبطون أصواتهم حتى تكون مسموعة للجمهور بأكمله، كما يقفون منتصبين، ويتجنبون المواقف والعادات الصوتية المشتتة.

ونظرًا لخلو الأسلوب الحواري فى مخاطبة الجمهور من التلقائية والعفوية، فإنه يعكس اختيارًا خطابيًا محسوبًا يهدف إلى تعزيز تصورات الجمهور عن الخطيب، وقبول أفكاره أو من خلال دمج الأسلوب الخطابي مع السمات غير الشفوية المرتبطة بالخطاب الحواري. والهدف من ذلك هو أن يقيم الخطيب اتصالاً قويًا مع الجمهور من خلال عينيه، وأن تكون إيماءاته طبيعية، وأن يستخدم لغة مفهومة وواضحة، وأن يركز على الاتصال مع الجمهور وليس توجيه خطاب لهم [انظر المقالة المختصرة **Audience; Decorum**] ويمكن تحقيق جميع هذه الأهداف فى حديث مرتجل وعفوي، إلا أن أفضل الخطب الحديثة، مثلها مثل الخطب التقليدية، تكون نتاجًا للتفكير الجاد، والإعداد الشامل، والجرعة الكبيرة من الإبداع الخطابي [انظر **Delivery**].

وقد غير التحول من الخطابة إلى مخاطبة الجمهور الذي تبلور خلال القرن العشرين جذريًا من لهجة الخطاب الشفوي ونسيجه، ولكنه لم يكن ينتج – خلافًا لتوقعات بعض النقاد – انحدارًا شاملا سواء فى نوعية هذا الخطاب أو أهميته. ويميل كل عصر إلى الحكم على مخاطبة الجمهور فيه بأنه أقل شأنًا منه فى الماضي. وتشيع مشاعر الحسرة بشأن تدهور الكلمة المنطوقة فى التاريخ الغربي، حتى خلال العصور التي كان يُحتفى فيه ببلاغتها. ففي أوج العصر الذهبي للخطابة الأمريكية، على سبيل المثال، انتقدت مجلة أمريكا الشمالية *North American Review* فى يناير ١٨٤١ "الثرثرة البائسة" عند أكثر الخطباء الجماهيريين، حيث أوضح إدوارد ت. تشانينج Edward T. Channing أستاذ الخطابة والكلام فى بويلستون بجامعة هارفارد الأميركية أنه

يمكننا القول إن "الخطابة" أصبحت الآن " فنًا مفقودًا، حيث نسمع باستمرار عن انحدار الخطابة من قمة تفوقها القديم" (محاضرات، بوسطن، ١٨٥٦). ونعلم أنه فى كل جوهرة خطابية، أينما وجدت زمانيًا أو مكانيًا، هناك عدد لا يحصى من الحلي الرخيصة. ولكن الغث يختفى فى نهاية المطاف فى طيات الغموض، بينما تثني الأجيال التالية على كل ما هو ثمين. ومع وجهة النظر التي يقدمها الزمن، فمن الواضح أن القرن العشرين قد أفرز نصيبه كله من الخطب البليغة المعبرة ذات الشأن التاريخي.

وقد أجريت دراسة استقصائية لعلماء الاتصال على امتداد الولايات المتحدة لتحديد أفضل ١٠٠ خطبة أمريكية فى القرن العشرين على أساس المعايير الخطابية الفنية والتأثير الخطابي. ونظرا للتقارب التاريخي بين الخطابة والسياسة، فليس من المستغرب أن الغالبية العظمى من الخطب تم إلقاؤها فى المجال السياسي. [انظر المقالة المختصرة حول **Politics**]. وقد ركزت أكبر مجموعة من الخطب، بنسبة الربع تقريبًا، على قضايا الحرب والسلام، والدفاع الوطني والسياسة الخارجية، وتناول ما يقرب من ٢٠ منها فى المقام الأول حقوق العمال والنساء، أو الأمريكيين الأفارقة، فى حين أن أكثرها تقريبًا خطب دعائية من أنواع عدة؛ خطب حملات انتخابية، خطب ترشيحات، خطب المتكلمين الرئيسيين، وما شابه ذلك. وكان غرض العديد منها مواساة الأمة فى أعقاب الاغتيالات السياسية أو غيرها من المآسى الوطنية، بينما واصل البعض الآخر الاهتمام بمسائل مثل توجيه الاتهامات، والماكارثية، والإيدز، والفقر، وتحديد النسل، ودور الصحافة فى المجتمع الديمقراطي. كل ذلك يشير إلى أنه لا يزال هناك مقياس صادق لا غنى عنه فيما يراه تشونسي ديبيو Chauncey Depew بأن "الخطابة هي العنصر الرئيسي فى الميدان السياسي" (*Library of Oratory*, New York, 1902).

وبخلاف القرن التاسع عشر حيث كان الاهتمام الوطني ينصب على كبار الخطباء فى الكونجرس، احتل الرئيس مركزًا محوريًا خلال معظم فترات القرن العشرين، وهو تطور يعكس اكتشاف ما أصبح يعرف الآن باسم "الخطابة الرئاسية" (Tulis. *Rhetorical Presidency*. Princeton, 1987). وقبل أن يحول تيودور روزفلت (١٨٥٨ - ١٩١٩) مكتبه (البيت الأبيض) إلى "المنبر المهيمن bully pulpit"، كان الرؤساء التنفيذيون يستسلمون عادة للصلاحيات التشريعية فى الكونجرس، ونادرًا ما يخرجون فى الحملات الانتخابية لتأييد مبادرات سياسية معينة، محلية كانت أم أجنبية. كما كان المرشحون للرئاسة يتحاشون إلقاء الخطب المطولة المرتبطة بالحملات الجارية. وتمشيًا مع المبدأ القائل بأن المنصب هو الذي يسعى فى طلب الرئيس، وليس الرئيس هو الذي يسعى فى طلبه، كان هؤلاء الخطباء يلزمون عادةً الصمت، بينما قام خطباء آخرون بالجولات الانتخابية نيابةً عنهم. وأصبح الرئيس بعد روزفلت هو الصوت السائد بكثرة فى الخطاب السياسي الأمريكي. كما زادت قوة المنصب الخطابية من خلال الإذاعة والتليفزيون اللذين أتاحا للرئيس أن يعتلي منصة الكونجرس ويتحدث مباشرة إلى الشعب بأسره. ومن أبرز ١٠٠ خطبة أمريكية فى القرن العشرين، ألقى الرؤساء فى سدة الحكم ٣٥ خطبة منها، أي أكثر من الثلث، فى حين ألقى أحد أعضاء مجلس الشيوخ أو أحد ممثليه بنقاشات الكونجرس أربعة خطب فقط. وفي المقابل، من بين ثلاث وثمانين خطبة أمريكية ألقيت فى القرن التاسع عشر ونشرت فى مجلدات خاصة بالخطاب السياسي فى طبعة ١٩٠٠ من مجلة Modern Eloquence، ألقيت ٣٩ خطبة داخل أروقة الكونجرس بالولايات المتحدة، بينما ألقى الرؤساء ست خطب فقط.

ومن العجيب أيضًا أن محرري مجلة Modern Eloquence لم ينشروا فى مجلداتهم أي خطب ألقتها النساء أو الأفارقة الأمريكيون عن الخطاب السياسي، على الرغم من أن بعض الخطباء السود والنساء فى القرن التاسع

عشر – أمثال فريدريك دوجلاس Frederick Douglass، وسوجورنر تروث Sojourner Truth، وبوكر ت. واشنطن Booker T. Washington، وسوزان بي أنتوني Susan B. Anthony، وإليزابيث كادي ستانتون Elizabeth Cady Stanton – قد أنتجوا أعمالاً تتضمن مهارات فنية وتأثيرًا لا يقبل المنافسة. وفي المقابل، ألقت النساء ٢٣ خطبة من أبرز ١٠٠ خطبة فى القرن العشرين، أي ما يقارب الربع، بما فى ذلك قائدتا حملة حق الانتخاب آنا هوارد شو Anna Howard Shaw، وكاري تشابمان كات Carrie Chapman Catt، ونصيرة تحديد النسل مارجريت سانجر Margaret Sanger، ونصيرة المذهب الفوضوي إيما جولدمان Emma Goldman، ونشطاء الإيدز ماري فيشر Mary Fisher واليزابيث جلاسر Elizabeth Glaser، والسيدات الأول إليانور روزفلت Eleanor Roosevelt، وباربرا بوش Barbara Bush، وهيلاري رودهام كلينتون Hillary Rodham Clinton. وبحلول نهاية القرن العشرين، أصبحت النساء أبرز مَن على منصة الجماهير لدرجة أن زوجة كل من بوش وكلينتون فاقتا زوجيهما فى استطلاع أبرز ١٠٠ خطيب، وكانت خمس خطب من أصل سبع بالاستطلاع قد ألقاها نساء خلال تسعينيات القرن. كما شمل الاستطلاع أيضًا ثلاث عشرة خطبة ألقاها أفارقة أمريكيون. وقد تم اعتبار خطبة مارتن لوثر كينج "لدى حلم I have a dream" (١٩٦٣) أفضل الخطب فى هذا القرن، فى حين جاء خطاب باربرا جوردن Barbara Jordan الرئيسي فى المؤتمر الوطني الديمقراطي عام ١٩٧٦، وخطاب مالكولم إكس Malcolm X "الاقتراع أو الرصاصة" فى المراكز العشرة الأول. أما الخطباء الأفارقة الأمريكيون الذين جاءوا فى استطلاع أبرز ١٠٠ خطيب فهم جيسي جاكسون Jesse Jackson، وستوكلي كارمايكل Stokely Carmichael، وماري تشيرش تيريل Mary Church Terrell، وأنيتا هيل Anita Hill، وشيرلي تشيشولم Shirley Chisholm. ويذكرنا وجود مثل هؤلاء الخطباء، بالإضافة إلى إظهار التراث الشفوي

الغني عند مجتمع السود، والأهمية التاريخية للبحث عن العدالة العنصرية – بأن مخاطبة الجمهور لا يزال أسلوب التعبير الأوحد والأهم بالنسبة لشعب يسعى لتوسيع ساحة نفوذه وامتيازاته فى المجتمع الأمريكى. [انظر إطلالة على **African - American rhetoric**].

وعلى الرغم من عدم إجراء مسح مشابه للخطب خارج الولايات المتحدة، فلا يمكن أن يكون هناك أي شك فى نتائج مخاطبة الجمهور فى أجزاء أخرى من العالم خلال القرن العشرين. كما ستكون كتابة تاريخ بريطانيا العظمى الخطابي ناقصة بدون الإشارة إلى الخطب العامة لرؤساء وزراء مثل ديفيد لويد جورج David Lloyd George، وستانلي بالدوين Stanley Baldwin، ونيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain، ومارجريت تاتشر Margaret Thatcher، أو خطباء برلمانيين مثل كير هاردي Keir Hardie، وأنيورين بيفن Aneurin Bevin، وليو عامري Leo Amery، وإيان ماكلويد Iain Macleod، ونيل كينوك Neil Kinnock، بل إنه لا يوجد مثيل لما حققه ونستون تشرشل Winston Churchill (١٨٧٤ – ١٩٦٥) من إنجازات خطابية. وكان تشرشل قد انتخب فى مجلس العموم لأول مرة فى عام ١٩٠٠، وبعد ذلك كان عضوًا فى البرلمان أو شغل منصب وزير فى الحكومة البريطانية على مدى معظم العقود الستة اللاحقة. وكان تتويج إنجازاته المثمرة عندما شغل منصب رئيس الوزراء خلال الحرب العالمية الثانية عندما عبأ الشعب البريطاني خلال أحلك أيام الصراع ببعض الخطب التي لا ينساها التاريخ. وكما يشير المذيع إدوارد ر. مرو Edward R. Murrow فإن تشرشل "عبأ اللغة الإنجليزية وزج بها إلى معركة" (*In Search of Light*, New York, 1967). ومن بين الخطب البريطانية الأخرى الجديرة بالذكر خلال القرن العشرين خطب إيملين بانكهورست Emmeline Pankhurst المؤيدة لحق المرأة فى التصويت فى الانتخابات، وخطبة روجر كايسمنت Roger Casement من قفص الاتهام

بعد إدانته بتهمة الخيانة العظمى فى عام ١٩١٦، والبث الذي قام به إدوارد الثامن Edward VIII إلى الأمة بعد عشرين عامًا من تنازله عن العرش، ومناشدات برتراند رسل Bertrand Russell من أجل نزع السلاح النووي خلال حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، وتأبين إيرل سبنسر Earl of Spencer لشقيقته الأميرة ديانا أميرة ويلز فى عام ١٩٩٧.

ولم يحظ أحد فى القرن العشرين بالإعجاب أكثر مما حظي به المهاتما Mahatma (Mohandas K.) غاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨). ورغم معاناته الشديدة عندما كان شابًا من تهيب الجمهور الذي وصل لدرجة انسحابه من القضية الأولى التي تولاها كمحام بسبب عدم قدرته على تقديم نفسه ومخاطبة هيئة المحكمة – فقد أصبح غاندي بطل المضطهدين الذين يمزجون القوة المعنوية فى خطبهم بالوسائل السياسية كاللاعنف وعدم التعاون حتى يضع نهاية للحكم البريطاني فى الهند. [انظر **Indian rhetoric**] وقد كان رفيقه الكفء جواهر لال نهرو Jawaharlal Nehru لا يقل موهبة فى الخطابة عن غاندي حتى إنه أصبح أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال. وقد كان الوطنيان الأيرلنديان باتريك بيرس Patrick Pearse وإيمون دي فاليرا Éamon de Valera لا يقلان بلاغة عنهما فى الدفاع عن قضاياهما، إذ أدت خطب بيرس الحماسية إلى تأجيج انتفاضة عيد الفصح عام ١٩١٦، وأعرب عن تطلعاته التي أدت إلى تأسيس دولة أيرلندا الحرة. كما يسرد دي فاليرا، الخطيب الباهر الذي عاش فى قلب السياسة الأيرلندية طيلة ستين عامًا، كيف سعت أيرلندا من أجل الحصول على استقلالها، وشغل بعد ذلك منصب رئيس الوزراء ثم رئيسًا للدولة. والحق أن جميع الثورات السياسية الكبرى فى القرن العشرين قد اشتعلت بسبب الكلمة المنطوقة إلى حد كبير، سواء عبَّر عنها زعيم ذائع الصيت مثل فلاديمير لينين Vladimir Lenin فى روسيا وماو تسي تونج

Mao Tse - Tung فى الصين، أو فيديل كاسترو Fidel Castro فى كوبا، أو عبر عنها جمع من الخطباء الأقل شهرة من الذين عملوا بلا كلل على المستوى المحلي.

كما اكتسب دي فاليرا، وكاسترو (من بين آخرين) قوة معنوية في خطبهم، تمامًا مثل غاندي، لأنهم تعرضوا للسجن من قبل النظام الحاكم بسبب ما يقولونه، مرورًا بالشخصيات الأكثر حداثة مثل مؤيدة الديمقراطية البورمية أونج سان سو كي Aung San Suu Kyi وزعيم جنوب أفريقيا نيلسون مانديلا Nelson Mandela. وكان تأكيدهم على المثل العليا للعدالة وحرية التعبير، إضافة إلى التزامهم الثابت بتلك المثل العليا فى مواجهة القهر قد وضعهم داخل حيز التقاليد الخطابية التي تمتد إلى أكثر من ألفي عام حتى تصل إلى الخطباء الكلاسيكيين أمثال ديموستين Demosthenes وشيشرون Cicero. واستخدمت الكلمة المنطوقة طوال القرن العشرين، كما كانت منذ الأزل، بوصفه وسيلة أساسية من وسائل الإقناع لدى الوعاظ الدينيين والزعماء الروحيين فى جميع أنحاء العالم. [انظر **Homiletics; Religion**].

ولم تستخدم مخاطبة الجمهور دائمًا، للأسف، فى تحقيق أغراض نبيلة، حيث كانت أداة فى يد أصحاب الرؤى والمصلحين، كما كانت أيضًا كذلك فى أيدي الحكام المستبدين ومتصلبي الرأي. وقد استخدمت الخطابة فى دفع أسباب التحرر السياسي والكرامة الشخصية قدمًا، كما استخدمت أيضًا فى تعزيز القمع والاستبداد والكراهية الدينية والاضطهاد العنصري، والإبادة الجماعية والتطهير العرقي. ولعل أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) يعد أكثر خطباء القرن العشرين جاذبيةً، وأكثرهم إيذاءً للبشرية بلا شك. وقد أوضح هتلر فى كتابه Mein Kampf أن "القوة التي تتسبب دائمًا فى أعظم الكوارث الدينية والسياسية على امتداد التاريخ كانت منذ زمن سحيق هي القوة

السحرية للكلمة المنطوقة، الكلمة المنطوقة وحدها (ترجمة رالف مانهايم Ralph Manheim، بوسطن، ١٩٤٣). وقد استحث هتلر، الذي مارس تأثيرًا يشبه تأثير التنويم على مستمعيه، مشاعر الشعب الألماني على الإيمان بمجموعة واحدة من المثل العليا وزعيم واحد، إلا أن أهدافه وأساليبه كانت وحشية ودنيئة، حيث أدت هذه المناشدات العاطفية لمشاعر الغضب المكبوت فى القومية الألمانية إلى اندلاع أكثر الحروب تدميرًا فى التاريخ، فى حين عجلت مذاهبه السامة القائمة على معاداة السامية والسيادة الآرية بأهوال المحرقة النازية. ولا يزال هتلر حتى يومنا هذا هو المثل الأعلى فى ضرورة توجيه الكلمة المنطوقة بمشاعر النزاهة الأخلاقية القوية.

وعلى النقيض مما يدعيه بعض النقاد، لا تعد حقيقة استخدام الخطاب فى أغراض الشر سببًا لإدانة مخاطبة الجمهور بصفة عامة، فالخطابة بطبيعتها لا تخضع لمعايير أخلاقية أو غير أخلاقية. ولا شك أنها تعرضت لاستخدامات سيئة من قبل خطباء منعدمي الضمير من أجل أسباب مقيتة، لكنها استخدمت كذلك كثيرًا وبنفس الدرجة من قبل خطباء شرفاء ولأسباب نبيلة. ويتجسد المثل الأعلى فى مخاطبة الجمهور - كما أعلن كينتليان الخطيب الروماني قبل ألفي سنة فى كتابه Institutio Oratoria (١٢,١,١) - فى شخص جيد يتحدث بشكل جيد. ويعد التنديد بمخاطبة الجمهور بسبب إساءة استخدامه من الأعمال الطائشة مثلها مثل نبذ الطب أو العلوم لأنهما قد يساء استخدامهما. وأفضل ترياق للخطابة غير الأخلاقية هو مقاومتها من خلال الخطابة الأخلاقية الأكثر إقناعًا. وعلى النقيض من هذا الرأي، فقد قيل إن بعض الأفكار خطيرة جدًا، أو مضللة جدًا، أو هجومية جدًا بحيث يتحتم على المجتمع العمل على قمعها. ولكن من الذي يُحدد الأفكار الخطيرة أو المضللة، أو المسيئة جدًا عند التلفظ؟ ومن الذي يقرر الخطباء الذين يجب

أن يُستمع لهم ومن منهم ينبغي أن يلزم الصمت؟ ومهما كان حسن النية، فإن الجهود المبذولة لحماية المجتمع من خلال تقييد حرية التعبير تؤدي عادةً إلى قمع وجهات نظر الأقليات والآراء التي لا تحظى بشعبية. وعلى المدى الطويل، ليست هناك طريقة أفضل فى الحفاظ على الحرية من حماية حق حرية التعبير.

وقد كانت مخاطبة الجمهور تاريخيًا أكثر الأساليب الديمقراطية فى الاتصال المدني، إذ لا يحتاج الشخص إلى امتلاك صحيفة أو محطة تليفزيونية أو محطة إذاعية للتعبير عن أفكاره من خلال الخطب العامة. وهناك، علاوة على ذلك، جاذبية خاصة فى العلاقة الآنية بين المتحدث والمستمع التي لا تتحقق فى الاتصال المطبوع أو حتى فى نفس الخطاب الذي ينقل من خلال التليفزيون. وقد توقع مراقبون خلال القرن العشرين أن مختلف وسائل الإعلام - بدءًا بالصحف، ثم الراديو، وانتهاءً بالتليفزيون - من شأنها أن تدمر حيوية مخاطبة الجمهور بوصفها وسيلة من وسائل التأثير الاجتماعي. ومع ذلك، ففي حين أن أشكال مخاطبة الجمهور وتقاليده قد تغيرت مع ظهور وسائل الإعلام والتكنولوجيات الجديدة، فإن القدرة على التعبير عن أفكار الشخص للجمهور من خلال الخطاب الشفوي فى عصرنا الذي يتسم بالاتصال العالمي الفوري لا تقل أهمية عما كانت عليه من قبل. ويعتمد الملايين من الناس حول العالم فى كل يوم من أيام حياتهم على مخاطبة الجمهور فى نقل أفكارهم إلى غيرهم من الناس وتلقي أفكارهم، من الساسة والمواطنين بطبيعة الحال، وكذلك المحامين والمعلمين، والوزراء، والمبشرين، والمهندسين، والمهندسين المعماريين، والعلماء، وسماسرة الأوراق المالية والمطورين، ورؤساء الشركات، وممثلي المبيعات، وقادة النقابات، والعسكريين، والمهنيين الصحيين، ومخططي المجتمع. وقد

أصبح الخطاب الحماسي صناعة عالمية يقدر حجمها بحوالي مليار دولار، وهناك الآلاف من الخطباء المهرة المتخصصين حصريًا فى قضايا التكنولوجيا الفائقة. ومع كثرة تعقيد العالم بهذه الصورة التي لم تكن من قبل، ما زال الطلب على الخطباء الذين يمكنهم ترجمة ذلك التعقيد إلى عالم مفهوم ومريح مستمر فى النمو.

وهكذا، ستظل أيضًا الحاجة للتعليم فى علم الخطابة. وقد كان أقدم دليل معروف عن الخطب الفعالة مكتوبا على ورق البردي فى مصر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت، وكانت خطابة الخطاب تحظى بقيمة عالية فى الهند القديمة، وأفريقيا، والصين، وكذلك بين الإغريق والرومان. وقد عمل فن الخطابة الجماهيرية - الذي كان يدرس بشكل مستمر فى الحضارة الغربية على مدى خمس وعشرين سنة مضت - على تضافر طاقات مفكرين أمثال أرسطو، وأفلاطون، وسقراط، وشيشرون، وكينتليان، والقديس أوغسطينوس، وفرانسيس بيكون (١٥٦٨ - ١٦٢٦) وبلير هيو (١٧١٨ - ١٨٠٠)، وريتشارد وايتلي (١٧٨٧ - ١٨٦٣).

ومع ذلك ما زال يُنظر غالبًا إلى الخطابة، فى المفاهيم الشعبية، على أنها مسألة إلقاء ساحر أو تثقيف شخصية فائزة، حيث يُعد تعلم الكلام الواضح والمقنع مهارة مثلها مثل تعلم الكتابة بشكل واضح ومقنع، ولكن الأهم فى الخطابة، كما فى الكتابة، هو أن يكون هناك شيء مهم يمكن قوله. ونظرا للعلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة، والإدراك والتعبير، يمكن القول بأنه ليس هناك ما يخالف المضمون الفكري للمناهج المدروسة جيدًا فى الخطابة. وكما يتعلم الشخص كيفية اختيار الموضوعات وتطويرها، وكيفية تنظيم الادعاءات ودعمها، وكيفية تقييم الأدلة والحجج، وكيفية توظيف اللغة بوضوح ودقة، فإنه يتعلم أيضًا، فى الوقت نفسه، التعامل مع الإبداع

في الخطاب، وبنية الفكر، وصحة الادعاءات، ومعنى الأفكار. [انظر **Arrangement; Argumentation**، ومقالة عن **Traditional arrangement; Invention**]. وفي عملية تعلم كيفية إنشاء الخطب بدقة ونظام وقوة، يصبح الطلاب أكثر مهارة فى التفكير بهذه الدقة والنظام والقوة. ومثلما فهم القدامى من علماء الخطابة، يشتمل التدريب على الخطابة على تعليم الشخص كل شيء. وعلى الرغم من انقضاء زمن الخطيب الكلاسيكي إلى غير رجعة، فإنه لا يزال صحيحًا اليوم أن عملية التحول إلى خطيب قادر ومسؤول تستلزم أن يصبح الشخص مفكرًا قادرًا ومسؤولاً. وفي هذا الصدد، تبقى مخاطبة الجمهور - كما كانت فى الكثير من الحضارات الغربية - جزءًا حيويًّا من التعليم الإنساني والمواطنة الديمقراطية.

المصادر والمراجع

Andrews, James R., and David Zarefsky. *Contemporary American Voices: Significant Speeches in American History, 1945–Present*. New York, 1992.

مختارات الخطب السياسية الأمريكية الأكثر شمولا منذ النصف الثانى من القرن العشرين.

Baskerville, Barnet. *The People's Voice: The Orator in American Society*. Lexington, Ky., 1979.

أفضل تاريخ ثقافي للخطابة العامة فى الولايات المتحدة.

Branham, Robert James, and W. Barnett Pearce. "The Conversational Frame in Public Address." *Communication Quarterly* 44 (1996), pp.pp. 423–439.

يستكشف ظهور الأسلوب الحوارى بوصفه رد فعل استراتيجي على الحاجات الخطابية التي واجهها الخطباء الجماهيريون.

Campbell, John Angus. "Oratory, Democracy, and the Classroom." In *Democracy, Education, and the Schools*. Edited by Roger Seder, pp.pp. 211–243. San Francisco, 1996.

يستجلى العلاقة بين مخاطبة الجمهور والقيم والممارسات الديمقراطية.

Campbell, Karlyn Kohrs, ed. *Women Public Speakers in the United States, 1925–1993: A Bio - Critical Sourcebook*. Westport, Conn., 1994.

مجموعة إرشادية من المقالات عن أنشطة مخاطبة الجمهور لاثنتين وثلاثين من الناشطات الأمريكيات فى القرن العشرين.

Duffy, Bernard K., and Halford R. Ryan. *American Orators of the Twentieth Century: Critical Studies and Sources*. New York, 1987.

يتكون من مقالات موجزة عن ثمانية وخمسين من أكبر خطباء الولايات المتحدة. ورغم أنه غير متسق فى الجودة فإنه يمثل مصدرًا جيدًا للمعلومات.

Great American Speeches: 80 Years of Political Oratory. Films for the Humanities and Sciences. Princeton, 1995.

مجموعة رائعة من ستة من أشرطة الفيديو عن طريقة إلقاء الخطب السياسية من تيودور روزفلت إلى رونالد ريجان. يضم مقتطفات من حوالى ست وثلاثين خطبة.

Great Speeches. Educational. The best source for video footage of major Video Group. Greenwood, Ind., 1985– public addresses.

تحتوى المجلدات الخمسة عشر التي تم إنتاجها حتى الآن على تسع وسبعين خطبة كاملة.

Jamieson, Kathleen Hall. *Eloquence in an Electronic Age: The Transformation of Political Speechmaking*. New York, 1988.

يشرح الاختلافات بين الخطابة الكلاسيكية والخطابة السياسية فى العالم الحديث.

Kimball, Bruce. *Orators and Philosophers: A History of the Idea of Liberal Education*. Expanded ed. New York, 1995.

دراسة فائزة بجائزة تستكشف العلاقة التاريخية بين الخطابة والتعليم الليبرالي.

Lucas, Stephen E. *The Art of Public Speaking*. 7th ed. New York, 2001.

يجمع بين المبادئ الخطابية الكلاسيكية والبحث الاتصالى المعاصر.

MacArthur, Brian ed., *The Penguin Book of Twentieth - Century Speeches*. London, 1992.

مختارات متميزة من أعمال بعض الخطباء فى العالم.

Reed, Thomas B., ed. *Modern Eloquence*. 15 vols. Philadelphia, 1900–1903.

مجموعة شاملة من الخطب من العصور القديمة وما بعدها. المقالات التمهيدية للمجلدات المتنوعة تقول الكثير عن الأعراف المتغيرة للكلام العام فى القرن العشرين. تم إصدار الطبعات اللاحقة فى ١٩٢٣ و١٩٣٢ و١٩٤٨.

Safire, William ed., *Lend Me Ears: Great Speeches in History*. New York, 1992.

مجموعة ثرية تشمل أكثر من مائة خطبة من القرن العشرين معظمها مقتطفات.

Straub, Deborah Gillan, ed. *Voices of Multicultural America: Notable Speeches Delivered by African, Asian, Hispanic, and Native Americans, 1790–1995*. Detroit, 1996.

خطب لمائة وثلاثة وثلاثين خطيبا، ينتمي ثلثاهم إلى القرن العشرين.

"The Top 100 American Speeches of the Twentieth Century." **http://www.news.wisc.edu/misc/speeches**. December , 1999.

يقدم نتائج مسح شامل لمائة وسبعة وثلاثين من علماء الاتصال، قام به ستيفين لوكاس ومارتن مدهرست. وقد ظهر أيضا فى الولايات المتحدة، بتاريخ ٣٠ ديسمبر عام ١٩٩٩ ص ٨. احتضن المسح مكتب جامعة ويسكنسون للأخبار والشئون العامة.

Winans, James. *Public Speaking*. New York, 1916.

أول كتاب دراسي عن الموضوع يتميز بدفاعه عن الأسلوب الحواري واستخدام علم نفس الانتباه بوصفه أساسًا لإعداد الخطب المؤثرة.

تأليف: Stephen E. Lucas

ترجمة: حسام محمد فرج

مراجعة: عماد عبد اللطيف

بلاغة المثليين Queer Rhetoric

ظهرت فكرة بلاغة المثليين فى منتصف التسعينيات من القرن الماضي، حيث أبدت الدراسات البلاغية اهتمامًا بتأثير الحركة التي تطالب بحقوق الشواذ والسحاقيات على أنماط التفكير السائدة فى المجتمعات الديمقراطية فيما بعد الحداثة.

وقد خصص المؤتمر السنوي لرابطة الاتصال القومية *National Communication Association* وهي المنظمة الدولية المهنية الرئيسية للاتصال والبلاغة عدة جلسات لمناقشة أنماط التعبير الخاصة بالشواذ والسحاقيات السائدة منذ التسعينيات من القرن الماضي. ومن الناحية العلمية كان الظهور الرسمي لبلاغة المثليين فى المؤتمر الذي عقدته الجمعية الدولية لتاريخ البلاغة *International Society for the History of Rhetoric* عام ١٩٩٧. وقد فتح تأسيس بلاغة المثليين بابًا جديدًا للبحث فى أنماط التعبير البلاغية التي تستخدمها الحركة المطالبة بحقوق الشواذ والسحاقيات متميزا عن شكلين آخرين هما: الدراسات الخاصة بثقافة الشواذ أو خطابهم والتي ظهرت في أواخر السبعينيات من القرن الماضي والتي انبثقت من ثقافة إحدى نظريات ما بعد البنيوية (انظر مثلا دورية **الدراسات الخاصة بالسحاقيات والشواذ** **A Journal of Lesbian and Gay Studies** (QLG) أو تلك الدورية التي تصدرها جامعة هارفارد بعنوان **الدراسات المتعلقة بالشواذ والسحاقيات** **(Harvard Gay & Lesbian Review**)، وعن الأنثروبولوجيا الوصفية لخطاب

الشواذ، ممثلة بصورة مصغرة فى المؤتمر السنوي للغويات الأرجوانية lavender linguistics الذي عقدته الجامعة الأمريكية بواشنطن دي سي (انظر: الانتقال المفاجئ .Leap 1996)

وقد تم صك هذا المصطلح لأول مرة كجزء من المفردات التي تستخدمها حركة أمة المثليين Queer Nation فى التسعينيات من القرن الماضي. وعلى الرغم من أن صفة مثلي Queer أصبحت تستخدم بالتبادل مع كلمتي شاذ وسحاقية (بالإضافة إلى مزدوجي الجنس، ومحولي الجنس) فيما يتعلق بمجال البلاغة، فإنها تشير إلى أن الحركة التي تطالب بحقوق الشواذ والسحاقيات – والتي دخلت مرحلة جديدة من الوجود الملحوظ – يمكن أن تكون مسئولة عن تطوير أشكال بلاغية محددة وإبرازها إلى حيز الوجود.

وتختلف هذه الحركة عن الحركتين اللتين سبقتاها وهما: الحركة الاحتجاجية للزنوج فى أمريكا وحركة المرأة فى أمريكا وأوروبا فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي فى أن هذه الحركة التي تطالب بحقوق المثليين قد طورت أشكالها البلاغية الخاصة بها دون الاعتماد على التقاليد البلاغية، تلك التقاليد التي ارتبطت بثقافة معينة مثل الخطب الحماسية الخاصة بالزنوج الأمريكان، أو بالأشكال المستحدثة مثل الخطب الاحتجاجية الحماسية التي ظهرت فى أواخر الستينيات من القرن الماضي.

وبصفة عامة فإن بلاغة المثليين ظهرت فى عصر ما بعد الحداثة والذي يتميز بقبول الرأسمالية، والديمقراطية، وصعود نجم السياسة الخاصة بالهوية والمجتمعات، وواقعية حل الصراعات واضمحلال الفُرقة الثقافية والجنسية، وذلك على الرغم من الأشكال البلاغية للاستهجان والتي تكرر تكتيكات عدائية منذ فترة احتجاج الزنوج وحركة المرأة فى السبعينيات من القرن الماضي.

وتشبه هذه الحركة الحركتين المذكورتين فى أنها نشأت فى دول ديمقراطية غربية، ولكنها تختلف عنهما فى أن هناك شبكة إعلامية تساندها خاصة وسائل الإعلام المطبوعة، والتي تعطي هذه الأنماط البلاغية شكلاً مميزا ووظيفة واضحة، كما أنها المسئولة عن تأثير هذه الأنماط البلاغية أو مدى اقتناع الناس بهذه الأنماط من خلال الإصلاحات الخاصة بقانون العقوبات، والمكاسب الدستورية، والقبول الاجتماعي.

وتتعدد هذه المطبوعات على الرغم من أن معظم جمهور القراء لا يعرفها، وهذا يتناسب مع نوعية القراء الذين تخاطبهم من حيث اهتماماتهم وتوجهاتهم، كما تتسم هذه المطبوعات بأنها لا تخاطب مجتمعات بعينها. وتشكل هذه المطبوعات شبكة ضخمة للاتصالات حيث تحاول بلاغة المثليين تحسين أدواتها قبل الدخول إلى عالم القراء العاديين (من غير المثليين). ومن المعروف أن للبلاغة دورًا بارزًا فى ثلاثة مجالات وهي: القانون، والاندماج فى العمل العام، وتشكيل القيم، وقد كان للبلاغة المثلية تأثير كبير على هذه المجالات الثلاثة، بل إنها أسهمت بشكل أصيل فى بناء ما يسمى "بالديمقراطية البلاغية". ويوضح هذا المقال التالي مصادر ومناهج بلاغة المثليين، كجزء من إطار فكري عام:

المواضع Topics

إذا ما تحدثنا عن مواضع أو مجالات الإبداعات البلاغية، فلسوف نجد أن بلاغة المثليين قد طورتها بشكل واضح منذ أواخر السبعينيات من القرن الماضي من خلال المطبوعات المتنوعة (في شكل كتيبات، ملخصات، إعلانات، نشرات). وقد تحول بعضها إلى دوريات أو مجلات منتظمة تخدم جمهور القراء المتنامي من الشواذ والسحاقيات.

ففي الولايات المتحدة تأسست مطبوعة **المناصر** The Advocate في شكل صحيفة مختصرة فى عام ١٩٦٧، ومجلة **نصل (سيف) واشنطن** Washington Blade، والتي تأسست فى عام ١٩٦٩، ومجلة **مواطن نيويورك** New York Native (١٩٨٠ - ١٩٩٦)، ومجلة **المرشد** The Guide والتي تأسست عام ١٩٨٠، وفي بريطانيا تأسست مجلة **أخبار الشواذ** Gay Times فى ١٩٧٤، وفي فرنسا تأسست مجلة 3 Keller **فى** عام ١٩٨٠، وفي هولندا تأسست **مجلة الشواذ** وهي De Gay Krant فى عام ١٩٧٩.

ولم يستمر الكثير من هذه الإصدارات طويلاً، وإن كان بعضها قد نجح تقريبا فى أن يتحول إلى مجلة لها جمهور من القراء، مثل مجلة إتش إكس HX التي تأسست عام ١٩٩٠، ومجلة **المناطق الساخنة** HOTspots التي تأسست عام ١٩٨٦. وقد عاصرت هذه المجلات فترة ظهور الحركة التي تطالب بالحقوق المدنية للمثليين، منذ الثمانينات من القرن الماضي.

أسهمت هذه المطبوعات (وقبل ظهور شبكة المعلومات الدولية، إضافة إلى مواقع الشبكة بعد ذلك) فى خلق وترويج سلسلة من المواضع (المجالات) البلاغية التي تعبر عن أمنيات وقيم الشواذ بشكل كبير، (وبشكل أقل عن أمنيات وقيم السحاقيات).وفى نفس الوقت أدى الخروج على قانون البث الإذاعي والتليفزيوني فى دول الاتحاد الأوربي على ظهور بعض الإذاعات الخاصة بالشواذ مثل إذاعة الشواذ Radio Frequence Gay فى فرنسا، وتليفزيون الشواذ gay television فى بريطانيا، كما أن الشبكات التليفزيونية الأمريكية مثل ABC، NBC، HBO، PBS سرعان ما تخلت عن رفضها لعرض الأفلام التي تتناول قضايا الشواذ ولا شك أن هذه الوسائل الإعلامية المختلفة قد ساعدت مجتمع الشواذ، فى أن يعبر عن نفسه من خلال استخدام التأييد المبنى على الإقناع persuasive advocacy، وهو شكل بلاغي يميز بلاغة المثليين التي تستخدمها هذه الوسائل الإعلامية (انظر الإبداع Invention والمواضع الجدلية).

وتنقسم مواضع بلاغة المثليين إلى أربعة مجالات وهى: الجنس، والفراغ، والثقافة، والأيقونات. وهذه المجالات الأربعة تعبر عن موقف المثليين، وتناضل لتفسح لهم مكانا بين الجمهور، وتهدف إلى تفسير أسلوب حياتهم. كان الحديث عن الجنس سائدًا فى وسائل الإعلام المثلية فى فتراتها الأولى. وكانت مجلة **المناصر** قد خصصت جزءًا للإعلانات الجنسية المبوبة فى عام ١٩٩٠، وتحول هذا الجزء إلى مجلة قومية لأخبار المثليين. فى عام ١٩٩٧ أصبحت المطبوعة الشائعة **Unzipped** مجلة مستقلة. وعلى النقيض من هذا، وفى سوق أضيق مازالت مجلة **الإثارة** الأسترالية **Outrage** تجمع بين المقالات الصحفية، والأخبار، والإعلانات المبوبة الجنسية الموجهة للشواذ. وعلى الرغم من ذلك فقد كان لهذه الإعلانات ذات الطابع الجنسي دور ملحوظ فى الإشارة إلى قضايا أخرى أكبر، فقد كانت هذه الإعلانات الجنسية المبوبة تحتوى على أخبار أخرى وضعت عمدًا عن قضايا الشواذ، بالإضافة لتقارير منتظمة عن المكاسب القانونية التي حققوها فى مجال الحقوق الاجتماعية، أو مدى تأثيرهم فى تحقيق النصر لمرشح انتخابي دون آخر.

وكان الحديث الصريح عن الجنس قد فتح بدوره مجالاً للحديث عن حقوق الشواذ فى الاستجمام وقضاء وقت فراغهم، وقد تجلى هذا فى الثمانينات من القرن الماضي فى صدور مجلات متخصصة عن سياحة الشواذ. هذا بالإضافة إلى وجود مطبوعات أخرى تتناول موضوعات مماثلة، منها مطبوعة تسمى **سبارتكوس Spartacus**.

وقد كان لهذه النشرات بالإضافة لبعض المطبوعات الإرشادية دور كبير فى ترسيخ صورة مجتمع الشواذ. والأمثلة على النشرات والمطبوعات كثيرة لعل أهمها ما يلي: مجلة **مرشد مترو نيويورك The Guide**، **New York Metrosource**، التي تأسست عام ١٩٨٩، و**دليل الشواذ والسحاقيات**

The Lesbian and Gay Pink Pages، الذي صدر فى فلوريدا عام ١٩٩١، **ودليل الشواذ Gay Pages**، الذي صدر فى جنوب أفريقيا عام ١٩٩٥، و **De Regenboodsggids**، الذي صدر فى هولندا عام ١٩٩٦، **ومرشد شواذ كندا Gay Guide of Canada**، صدر فى عام ١٩٩٧.

تمثل الأحداث الثقافية موضعا آخر لنشر الوعي بين العامة عن عالم الشواذ والسحاقيات. وقد أسهم الحديث عن هذه الأحداث الثقافية سواء فى المقالات أو الأخبار الصحفية فى التعبير عن رضا الشواذ والسحاقيات عن مثل هذه المناسبات كما أنها أبرزت - على حد اعتقادهم - الصورة الجيدة لهؤلاء الشواذ والسحاقيات. وتعد الأوبليفيون **Oblivion** فى كليفورنيا مثالاً على التمييز لموضع "الشواذ" هذا، وفصله عن مواضع الجنس والفراغ. وبدأت المجلات المتخصصة المختلفة الحديث عن هذه الأحداث والمناسبات الثقافية، وأصبح لهؤلاء المثليين أيام أعياد لها أسماء تميزها مثل "الحفلات البيضاء والزرقاء والسوداء "، " أيام النجاح "، " أسابيع الكبرياء المثلي ". وتعددت أنشطة المثليين وانتشرت أماكنهم فأصبح لهم منتجعاتهم الخاصة ومكتباتهم ومسارحهم، كما أصبح هناك تنظيم واضح للرحلات البحرية والجولات السياحية، بل وصل الأمر إلى تنظيم جولات سياحية للمثليين فى بعض المدن لزيارة الأماكن المثلية " التاريخية "!

أما موضع الأيقونات فيعنى به الكلام عن بعض الأفعال والأقوال لبعض الشخصيات التي تجسد المجتمع المثلى، سواء كانت هذه الشخصيات من الشواذ أو السحاقيات أم لا؛ لأن المعيار هنا هو الدور الذي لعبته هذه الشخصيات فى نصرة البلاغة المثلية ذاتها. وكانت مجلة **المناصر** قد نشرت فى عام ١٩٩٦ مجموعة لأيقونات الشواذ لمطربين، وكتاب سياسيين، وبعض نجوم السينما، وكانت هذه المجلة قد نشرت فى عددها التذكاري فى الذكرى الثالثة عشرة لتأسيسها فى أكتوبر عام ١٩٩٧ مخزونا لأيقونات الشواذ التي

عبرت بكلماتها عن الحقوق المدنية التي حصل عليها المثليون فى الثلاثين سنة الأخيرة، كما عبروا عن رؤيتهم للثلاثين سنة القادمة.

وفي عام ١٩٩٥ نشرت مجلة الشواذ **Gay Times** البريطانية فى عددها رقم مائتين معرضا لصور أهم مائتي شخصية من الشواذ والسحاقيات فى بريطانيا. كما أن كثيرا من التعبيرات مثل القدوة role models والأبطال heroes قد دخلت البلاغة المثلية على نطاق واسع، بعد أن تم تعديلها وتأصيلها لتلائم بلاغة المثليين.

وقد أدت المناقشات حول مرض الإيدز إلى وجود حالة من الصدام بين المجتمع المثلي وبعض القوى داخل المجتمع، وخصوصا الجماعات المتدينة، وخاصة فى العشر سنوات الأولى لظهور المرض. واتخذ هذا الصدام شكل الجدل والمناظرة حول أسباب المرض، وهذا أدى بدوره إلى إثارة مثل هذه المواضع، التي شكلت الأساس لما يسمى بالحجاج العام public argumentation.

حجاج المثليين Queer Argumentation

تعبر بلاغة المثليين بوضوح عن رؤية المجتمع المثلي. ففي وجود حالة من عدم الثقة نحو الإيديولجيات فى فترة ما بعد الحداثة، فإن مناصرة الجماهير يمكن أن تكون شكلا مقبولا من أشكال السلطة الاجتماعية. وكانت وسائل الإعلام المطبوعة هي أفضل الوسائل لفهم الأنماط البلاغية المثلية المختلفة. وقد كان للتطور المذهل الذي طرأ على شبكة المعلومات دور كبير فى فتح مجال أكبر للحجاج والنقاش. فبالإضافة إلى وجود غرف الدردشة الإلكترونية chat rooms فإن موقعا إلكترونيا مثل www.queernet.org يمد الصحف بالكثير من الأخبار المتعلقة بالمجتمع المثلى المحلي والدولي مما خلق – ما قد يسميه البعض – ترابط وعولمة الهوية (انظر كلمة الحجاج Argumentation).

ويمكن تقسيم الحجاج المثلي إلى ثلاثة أساليب مفضلة، وهي:

- قاعدة تبادل الرأي وحجاج التعدية Rule of reciprocity and arguments of transitivity
- علاقات التعايش Relations of coexistence
- أمثلة ونماذج Examples and models

قاعدة تبادل الرأي والفكر:

تلجأ بلاغة المثليين ومناصروها إلى الحجاج عبر تبادل الرأي والفكر كإحدى قواعد الاتصال مع الآخر. فالمجادلة التي أثيرت حول التحاق الشواذ جنسيا بالجيش في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، والزواج المثلي في الاتحاد الأوربي كانا يقومان على أساس الحجاج التبادلي، والأمر نفسه يمكن ممارسته على موقفين متطابقين.

فمنذ تسجيل أول زواج مثلي في عام ١٩٩٨، بدأت مجلة الشواذ الهولندية De Gay Krant في نشر صفحة للأزواج المثليين. وبدأت المجلات المشابهة تتخذ خطوات مماثلة مثل مجلة **حرية بلا قيود Outright** والتي تصدر في جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٩٤. وساد نفس الاتجاه في كندا (وخاصة الجزء الذي يتحدث الفرنسية)حول الحقوق المدنية وسياسة التنوع (مثال على ذلك مجلة **MTL Attitude** التي صدرت عام ١٩٩٣، ومجلة **كونفدرالية الشواذ Divers Cité** عام ١٩٩٥، و**الرجل الحكيم Homo Sapiens**، التي تصدر منذ عام ١٩٩٤)

وقد أصبحت قاعدة تبادل الحجاج من القواعد الأساسية لبلاغة المثليين، حيث إنها تعطي الفرصة لتفنيد الآراء المعارضة للمثلية. ونرى هذه القاعدة

ظاهرة جلية فى سياسة تحرير الصحيفتين الفرنسيتين **العنيد Têtu** (تأسست عام ١٩٩٧) **وتريبوس Tribus** (تأسست عام ١٩٩٤). وهاتان الصحيفتان تجمعان ما بين أفكار الجبهة الفرنسية الثورية للشواذ *French Homosexual Revolutionary Front* (FHAR) التي سادت فى السبعينيات من القرن الماضي وبين نصرة المجتمع المثلى كقطاع يختلف عن بقية قطاعات المجتمع. وعلى نفس المنوال قامت مجلة **مشاهد الحياة اليومية الأمريكية American Genre** (و التي تأسست فى عام ١٩٩١) بالحديث عن توحيد الأهداف بين الشواذ والسحاقيات فى بعض القضايا كإحدى سمات التنوع فى المجتمع الأمريكي مثل قضية سرطان الثدي.

وتهدف هذه الصحف – على حد زعمها – إلى تغيير يتعلق بالذرية وأن يحظى المجتمع المثلى – مع الحفاظ على هويته – بقبول قانوني فى الدوائر المختلفة كإحدى سمات التنوع فى المجتمعات المختلفة. وقد أدى هذا إلى تغيير وجهة نظر بعض الصحف مثل مجلة **التوجه Attitude** الإنجليزية التي بدأت تعدل من حديثها عن الرجولة وسماتها بما يتناسب مع الأفكار المثلية!!!.

وبدأت تظهر بعض التعبيرات والمصطلحات مثل كبار الشواذ والمؤسسين...إلخ؛ وهو "تكتيك بلاغي"rhetorical tactic يؤكد على المكاسب الاجتماعية والسياسية للمثليين وعلى اندماجهم مع الأجيال المختلفة داخل المجتمع. ومن ثم فإن قاعدة تبادل الفكر والرأي هي الأساس الذي اعتمد عليه المثليون للحصول على مكانة فى المجتمع، وأصبحت قضاياهم تحتل مكانًا بارزًا فى محيط المناظرات العامة.

علاقات التعايش:

إن ضروب الحجاج القائمة على التعايش هي تلك التي تنسب أو ترى قيمة الشخص أو المجموعة أو المجتمع ككل نابعة من العمل الذي يقوم به. ومن ثم فإن البلاغة المثلية تقيم الشخصيات العامة سواءً كانوا من المثليين أم لا بناءً على سلوكياتهم تجاه المثليين والطريقة التي يتكلمون بها عنهم.

وأصبحت مجلة **المناصر** تنشر رسومات بيانية عن مستويات التمييز فى الولايات المتحدة والعالم ككل مدعمة هذه الرسومات بالخرائط والإحصائيات بحيث تعطى للقارئ الصورة الكاملة التي يستطيع بها أن يحكم على نفسه فيما يتعلق بعلاقات التعايش أو التمييز ضد الآخر. فعلى سبيل المثال نشرت المجلة موضوعًا عن أحد المنتجعات الموجودة فى كوستاريكا وعن أشكال التمييز التي تمارس فيه. بل أصبحت المجلة تقدم جائزة سنوية بعنوان "أكثر الأشخاص جبنا" Sissy of the Year لأشخاص معروف عنهم عداؤهم وكراهيتهم للمثليين.

وسارت المجلات الأخرى على نفس النهج، فأصبحت مجلة **اللكنة** **Acento** والتي تصدر فى كولومبيا تتحدث عن مجتمع الشواذ الأثرياء، وتعرض نماذج لهؤلاء الناس من أوروبا وأمريكا. وبينما اختصت مجلة **إن إكس** **NX** الأرجنتينية بالموضوعات المثلية باللغة الإسبانية فى كل الدول الناطقة بالإسبانية، بما فيها إسبانيا نفسها.

وساعدت السياسات التي اتبعتها هذه المجلات فى شعور المثليين بالانتماء لمجتمع عالمي، خارج نطاق الاضطهاد الذي يتعرضون له داخل مجتمعاتهم المحلية. وأصبح للإقناع الأخلاقي للمثليين queer ethos شكل مميز خارج نطاق الحدود السياسية، وأصبحت بلاغة المثليين تعبر عما يمكن أن يتقبله هؤلاء المثليون، وعما يرفضونه.

الأمثلة والنماذج

لأن الحجاج بضرب شاهد قصصي (Exemplum) يتضمن الانتظام أو حتى بعض القواعد، فإن بلاغة المثليين فعالة فى هذا المجال (انظر Exemplum)، فعلى سبيل المثال، فإن حالات ضرب الشواذ عادة ما تستخدم لتصوير عدم التسامح والاضطهاد. كما أن العدد المتزايد لقضايا حق التبني التي يرفعها المثليون هي مثال حي وأداة فاعلة لدفع الأجندة الموحدة لمجتمع المثليين الموحد إلى الأمام. وهذه الأمثلة تستخدم لتصوير وتدعيم للشعارات التي يرفعها المثليون فى كل مكان مثل شعارات:"نحن أسرة"، "أخوة وأخوات"، و"الأمة المثلية"، هذا بالإضافة إلى بعض الرموز والعلامات التي ترمز للمساواة كتلك التي دشنتها حملة حقوق الإنسان فى الولايات المتحدة ونظيرتها فى فرنسا. وكان مبدأ الحوار السائد فى تلك الفترة هو" ما يجرح شعور فرد، يجرح شعور الجميع"، وهذا هو أحد أنواع المجاز المرسل الذي كانت تستخدمه البلاغة المثلية، بمعنى أن الفرد يتحدث باسم الجميع، أو بعبارة أخرى الجزء يعبر عن الكل (انظر كلمة المجاز المرسل Synecdoche).

ويتخذ استخدام النماذج فى البلاغة المثلية شكلاً من اثنين:أولا: ذلك التراث الكبير من القصص الاجتماعية والتي تعد نماذج سلوكية يمكن الرجوع إليها مثل أعمال الشغب التي حدثت فى ستون وولStonewall فى مدينة نيويورك عام ١٩٦٩، حيث ما زالت روح هذا المجتمع المتخيل حية فى مجلة **أخبار ستون وول Stonewall News**، وشيوع بعض التعبيرات مثل أموال الشواذ gay money، والدولار الوردي pink dollar، والحفلات الدوارة circuit party، وإقامة أولمبياد خاص بالشواذ Gay Games كل أربع سنوات منذ عام ١٩٨٢، ويعتقد المثليون أنها حدث يساوى - إن لم يزد فى الأهمية عن - الأولمبياد المعروفة. وانتشرت أفكار مماثلة فى أوروبا وأستراليا مثل إقامة الاحتفالات التي تحصى الشواذ الذين نجوا من الهلوكوست فى

المجتمعات المختلفة gay Holocaust survivors، بل تعدى الأمر إلى تأليف القصص، وإقامة النصب التذكارية لهؤلاء الشواذ!!! وهذه المناسبات تعبر عن الهوية المثلية، وتقدم نماذج شخصية واجتماعية للأجيال الجديدة من المثليين. وثانيا: أن هذه النماذج تختص بحياة المثليين وتقدمها كنموذج للحياة الخالية من الاضطرابات السياسية، والقيود، وعلى أنها حياة منظمة اختارها الإنسان بمحض إرادته الحرة دون ضغوط من أحد، بما يناسب الجيل الأحدث من الشواذ (كما هو واضح في TWN)، the new Attitude . وهذا الحجاج العام يشكل بدوره أساسا لفهم صراع محدد داخل البلاغة المثلية، وهو صراع الأهداف a conflict of aims.

صراع الأهداف A Conflict of Aims

أعطت بلاغة المثليين الحركة التي تطالب بحقوق الشواذ والسحاقيات أدوات فاعلة كالإبداع inventio والقدرة على الحجاج argumentation عند الحديث عن القضايا الاجتماعية، والمطالبة بحقوق المواطنة على الأقل في الدول الديمقراطية الغربية في فترة ما بعد الحداثة، وفتح مجال أكبر للحوار والمناظرة في هذه المجتمعات.

وعلى الرغم من ذلك فإن نقطة الصراع أو التنافس بين ممثلي المثلية تكمن في تلك العلاقة بين الأهداف المعطاة given aims والأهداف الإرشادية Guiding aims، وهو نوع من التوتر ينتج من محاولة إقناع المجتمع المتخيل، والمجتمع الخارجي الواقعي أو الأصدقاء من خلال وسائل الإقناع المتعارف عليها للوصول إلى حالة معينة من الجدل والحوار. وهذا التوتر يظهر جليًا في إطار "الديمقراطية النظرية" theoretical democracy لما بعد الحداثة على وجه التحديد في أمرين وهما: التشهير outing وزواج الشواذ (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre).

أما بالنسبة للتشهير فهو أحد التكتيكات التي كانت مستخدمة فى القرن الماضي منذ عام ١٩٩٠، ويكمن نجاحها فى التشهير بأحد المشاهير أو الشخصيات العامة من المثليين إذا ما أقدم على بعض التصرفات التي تضر بحركة المثليين للحصول على حقوقهم المدنية. ويرى الذين يعارضون هذا النوع من التشهير أنه يجب احترام خصوصية كل إنسان على الرغم من عدم اعتراضهم على الهدف (المعطى)، وهو أن يتم إقناع هذا الشخص المشهر به أن يكون صادقًا مع نفسه.أما الذين يؤيدون هذا النوع من التشهير فيرون وراءه هدفا (إرشاديا) آخر وهو أن هذه الشخصية العامة يجب أن تكون مسئولة عن أفكارها أمام المجتمع. وبصرف النظر عن هذين الرأيين فإن المكسب الحقيقي للمثلية فى هذا الصدد هو أن هذه الشخصيات العامة أصبحت تعترف بهويتها المثلية، سواءً كان هذا الاعتراف يتفق مع الميول السياسية لهذا الشخص، وخاصة فيما يتعلق بمساندة الشواذ والسحاقيات فى الحصول على حقوقهم، وهي ظاهرة تنفرد بها البلاغة المثلية.

أما فيما يتعلق بالزواج بين الشواذ، فإن الجدل يدور حول ماهية المواطنة فى المجتمعات الديمقراطية. فعلى النقيض من فكرة الهوية المعتادة والقيم المجتمعية وخاصة القيم الدينية التي ترى أن الأسرة وليس الفرد هي نواة النسيج الاجتماعي، فإن الجدل يدور حول أن للفرد حقوقا فردية، بل يجب عليه أن يتكلم عن وجوده وواقعه كأحد الحقوق المكفولة لأي فرد فى هذا العالم فى أي مجتمع ديمقراطي.

ويبين هذا أن البلاغة المثلية تلقى دائمًا الضوء على صراع ما بعد الحداثة المتعلق بحقوق المواطنة، والذي تؤكد فيه دائمًا على أن الفرد هو جوهر المجتمع يختار ما يشاء بإرادته الحرة، ودون وصايا من أحد. ولعل تلك الحيوية التي تطرح بها البلاغة المثلية فكرة القيم المشتركة هي التي جعلت لها أثرًا واضحًا لا يخطئه أحد.

خلق القيم Creating Values

وللبلاغة المثلية تأثير واضح، حيث إنها ترفض ذلك التقريع الذي يوجهه المجتمع التقليدي للأفكار المثلية، ومن ثم فهي تحتفي دائما بالثقافة المثلية. وفي الوقت الذي اختفت فيه تعبيرات مثل الكبرياء الوطني national pride من المجتمعات الديمقراطية الغربية، وضعت الحركة المثلية - من ضمن أهدافها - هدفًا يتعلق بوجود أسلوب اجتماعي مميز يضمن لها الذيوع والانتشار ويحيى ذلك الإحساس بالانتماء لكيان أكبر (كالانتماء الوطني مثلاً)، وتمثل ذلك فى أعلام قوس قزح التي كان يرفعها المثليون، فى الوقت الذي كانت فيه أعلام الدولة فى المجتمعات الديمقراطية الغربية لا تمثل شيئا للإقناع الأخلاقي للشعوب ethos وإثارة عواطفهم pathos، كما أن الاحتفاء بالشخصيات المثلية المعروفة، والوجود القوى بين الناس، وإقامة المهرجانات أصبحت عوامل جذب للجمهور العادي تدعوه للتأمل والمشاركة. (انظر كلمتي روح الشعوب - الإقناع الأخلاقي ethos وإثارة العواطف pathos)، وهذه العناصر كلها ظهرت على استحياء للتعبير عن الحماس الشعبي communal fervor، وهو ما أصبح يعرف بالرابطة البلاغية rhetorical link (انظر تعبير الجنس الأدبي البياني والنموذجي Epideictic genre).

وتعتبر هذه الرابطة البلاغية عنصرًا مهمًا فى التفاعل مع الجماهير، كما أنها تعد عنصرًا جليًا فى إظهار رغبة المثليين فى مشاركة المجتمع فى قيمه. وقد تحولت الجهود التي بذلها الجيل الأول من الناشطين المثليين إلى أداة مميزة للترابط الاجتماعي، وتجلى ذلك فى الطريقة الابتكارية التي خاطبوا بها الشعوب ورموز السلطة، وهي طريقة تعتمد فى جوهرها على مخاطبة المشاعر وخاصة تلك التي تتعلق بالقيم الديمقراطية والعلمانية. ويرى المثليون أنهم آخر المدافعين الحقيقيين عن تلك القيم فى مواجهة ذلك الشعور باللامبالاة الذي أصاب الشعوب!!!.

ولا شك أن استخدام الثقافة المثلية تجاريًا وإعلانيًا قد أسهم بشكل كبير فى نشر القيم والاستراتيجيات البلاغية المثلية (والتي تتجاوز الاستراتيجيات البلاغية التي تستخدمها الصفوة). وتجلى ذلك فى استخدام الكثير من المعلنين للأشكال المثلية لترويج منتجاتهم، وهذا ما أعطى رواجًا لهذه الأشكال التي كان يرفضها المجتمع من قبل.

وقد خلق هذا الاستخدام التجاري والإعلاني داخل المجتمع المثلى بكل طوائفه (الآباء، والأمهات، الأصدقاء، زملاء العمل)، وداخل المجتمع التقليدي فى تسعينيات القرن الماضي (والذي كان يرفض المثلية) نوعًا من التقليد أو التراث البلاغي rhetorical tradition بمعنى استخدام الأنماط البلاغية المثلية الجديدة كوسائل للتفاعل اللفظي والاجتماعي والرمزي. ويرى براوننج Browning فى كتابه المنشور عام ١٩٩٣ أنه لا يجب التقليل من هذا القبول الذي لقيته البلاغة المثلية (انظر اللوجوس – العقل Logos)!.

وفي النهاية يمكننا أن نقول إن المثليين قد نجحوا فى الظهور كعناصر فاعلة فى ذلك التكامل القيمي للمجتمعات الديمقراطية فيما بعد الحداثة. ونقصد بهذه القيم المساواة الكاملة والعلمانية من خلال تلك العلاقة التبادلية بين سلطة الفرد وسيادته من ناحية وبين مجتمع له تأثير واضح فى تفسير كل ما يدور داخله من ناحية أخرى.

قائمة المرجع:

تبقى المراجع والمصادر الرئيسية عن البلاغة المثلية ممثلة فى الملخصات الصحفية، والجرائد، والمجلات، والدوريات، وبعض النشرات التي تصدرها الجماعات الوثيقة الصلة بهذا النوع من البلاغة، وقد ذكر العديد منها فى طيات المقال السابق وهي مجرد نماذج، ولكنها تؤكد أهمية اكتشاف هذا المجال الجديد.

وتضم القائمة الآتية بعض المصادر الثانوية لبلاغة المثليين:

Browning, Frank. *The Culture of Desire*. New York. 1993.

Chesebro, James W., ed. Gayspeak: *Gay Male and Lesbian Communication*. New York, 1981.

Edelman, Lee. *Homographesis: Essays in Gay Literary and Cultural Theory*. New York, 1994.

Herdt, Gilbert ed., *Gay Culture in America: Essays from the Field*. Boston, 1993.

Leap, William L. *Word's Out: Gay Men's English*. Minneapolis, 1996.

Ringer, Jeffrey. *Queer Words, Queer Images: Communication and the Construction of Homosexuality*. New York, 1994.

Smith, Ralph R., and Russel R. Windes. "The Progay and Antigay Issue Culture: Interpretation, Influence and Dissent." *Quarterly Journal of Speech* 83.1 (1997), pp.pp. 28–48.

(وهي قائمة ببليوجرافية ممتازة).

تأليف: Philippe - Joseph Salazar

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

التساؤل Questioning

تُصوَّر البلاغة على أنها قضايا وأطروحات، وهذا التعريف يجعل من البلاغة الابن الضعيف، إن لم يكن المعاق للعقل. فالعلم والمنطق بصفة عامة هم أقدر من البلاغة فى الحكم على مدى صلاحية أطروحة ما، أو مدى قبول قضية ما. ولكن السؤال الذي بطرح نفسه فى هذا السياق هو: هل البلاغة فعلا تناقش الأخبار والقضايا وليس البدائل، والإجابات وليس التساؤلات، والمشكلات؟ والتحليل المتأني لماهية البلاغة يبين أن موضوع البلاغة هو المشكلة أو السؤال نفسه. ولا شك أن البدائل المتضمنة فى هذه الأسئلة تفتح الباب للجدل، وبالمثل لسوء الفهم، وتعددية القراءات (للنص الواحد) وهذا يؤدى بدوره إلى عدم وجود إجابة واحدة صحيحة تلغى بقية الإجابات الأخرى المحتملة.

وقد يعترض البعض على بعض الجمل التقريرية التي لا تثير أي نوع من التساؤل مثل "جون زوج ريبيكا الآن "، ولكن لا يستطيع المرء أن يستخدم جملة كهذه دون أن يكون هناك تصور عن ماهية جون (أو ريبيكا)، وعلاوة على ذلك فإن هذه الجملة تتضمن أسئلة حول من هو جون؟ ومن هي ريبيكا؟ وما ماهية الزواج؟ وأدوات الاستفهام مثل من، ومتى، وأين، وماذا، قد تمت الإجابة عليها من خلال الطريقة المركزة التي تم بها ترتيب الأسماء الثلاثة (جون، وريبيكا، والزواج)، وهي طريقة تحمل فى طياتها الإجابة على هذه الأسئلة، وبالتالي تمحو أي جانب إشكالي آخر. وتخلو الجمل التقريرية من أي

نبرة تساؤل فماهية جون قد تم عرضها بطريقة واضحة جلية، وإذا لم يفهم أي إنسان جملة كهذه فيمكن للشخص الذي استخدم هذه الجملة أن يقول مثلا " جون هو الشخص الذي فعل كذا وكذا، وهو ابن السيد آرثر".

والنتيجة المتوقعة هي أن كل الكلمات المستخدمة يمكن تعريفها من خلال استخدام الأدوات الاستفهامية، ودون تغيير الحقيقة التي تحملها هذه الجملة التقريرية. وبالتالي فإن جملة " جون هو زوج ريبيكا " تتساوى منطقيًا ودلاليًا مع جملة " جون هو الرجل الذي تزوج ريبيكا " ومع جملة " ابن آرثر تزوج من ريبيكا " (على اعتبار معرفة أن جون هو ابن آرثر).

والتعبيرات التي نستخدمها فى اللغة ما هي إلا نتائج لعمليات الإجابة التي ما تلبث أن تختفي بمجرد أن تتم الإجابة على التساؤل الأصلي الذي يفقد بالتبعية ماهيته كسؤال، ومن ثم نستطيع أن نركز على مجموعة من الأخبار تساعدنا فى تحديد ماهية المعنى المقصود، وهذه القضايا فى واقع الأمر إجابات لا تشترط علينا جانبا معينا يجعلها تكتسب هذه الماهية (كونها إجابات). وتظهر أهمية الأسئلة التي تشير إلى الأسماء المستخدمة فى قضية ما حينما يكون المعنى فى خطر. فسؤال مثل "من هو جون؟" يتطلب استخدام أحد ضمائر الوصل (الذي). وقد تتضمن الإجابة عبارات مثل "عجبا أنك لم تعلم! لأن جون هو الشخص الذي فعل كذا وكذا. وإذا لم يلجأ المتحدث لاستخدام أحد ضمائر الوصل؛ فهذا لأنه اعتقد أن هذه الأسئلة لم يتم إثارتها فى ذهن من يحدثه؛ لأنها أسئلة مجابة فى ذهنه.

ومن ثم فإن الجمل التقريرية فى حقيقتها هي عبارة عن إجابات تشير إلى أسئلة سواء تلك التي يجاب عليها، أو تلك التي يتم إثارتها، وهى الأساس الذي تقوم عليه التأويلات، والحوارات، والقراءة، والإقناع والتواصل مع الآخر. فالبلاغة يبدأ دورها حينما تتم إثارة الإجابة وليس عند حل المشكلة.

وقد تثير البلاغة الشكوك حول الإجابة المطروحة، بل قد ترفض صلاحية هذه الإجابة من خلال الإيحاء بالحل المضاد كما هو الحال فى الإنكار الفرويدى Freudian denial. فإذا افترضنا أن هناك انتخابات رئاسية فى بلد ما والسيد س هو أحد المرشحين، فإذا قلت "إن السيد س هو مرشح جيد" فإن هذه العبارة تخلو من البلاغة؛ لأن هذه العبارة هي فى واقع الأمر إجابة لمشكلة موجودة واضحة. ولكن يختلف الموقف كليا إذا ادعيت أنا أو أحد خصومه أن "السيد س رجل نزيه"؛ لأن أحدا لم يسأل عما إذا كان السيد س نزيها أم لا. فالعبارة السابقة عن نزاهة السيد س تثير ظلالاً من الشك حوله، وهنا يبدأ دور البلاغة؛ لأن الجملة التي استخدمتها فهمت على أنها سؤال يصلح كموضوع للجدال.

أما فيما يتعلق بالسمة البلاغية لما يسمى بالإنكار، فإن تحليلها غير ممكن دون الإشارة إلى التساؤل المطروح. فحينما أقول "إنني لا أحمل لك أي ضغينة" فإن هذا القول يتضمن أن التساؤل المتعلق بعدائي وكراهيتي لك لم يعد مطروحًا فى الوقت الذي أثرت فيه هذه القضية. ولعله من المهم أن نذكر أن الحياة اليومية تزخر بالسياقات التي تنتشر فيها البلاغة وهذا يحدث حينما يريد المرء ممن يتحدث معه أن يستنتج الإجابة دون أن يقولها صراحة، وهي استراتيجية تقود من نتحدث معه إلى الوصول إلى نتيجة ما بنفسه، دون فرض نتيجة أخرى قد تتسبب فى إثارة التساؤل إذا ما قيل صراحة. فمثلا إذا شعر ابني ببعض الامتعاض الذي أكنه لصديقته، فيمكن أن يقول لي "إنها ليست فقط جميلة، بل ذكية أيضا" فهذا التعزيز من السمات الإيجابية من شأنه أن يستخلص منى ردًا إيجابيًا، دون أن يطلب منى هذا الرد الإيجابي صراحة. وهذا يعنى أن ابني فضل أن أصل أنا بنفسي إلى هذه الإجابة دون أن يمليها هو علىَ. فالبلاغة تختلف عن فنون الخطاب الأخرى

فى أنها تتناول الأسئلة المتضمنة فى السياق، أو تلك التي تظل مثارة على الرغم من وجود إجابة متاحة لها. فقد ينشأ اختلاف واضح أو قبول صامت وهذا يعتمد على المهارة البلاغية للمتحدث. فقد يقبل المرء إجابة ما ويظن أنها أجابت على السؤال المطروح، بل قد يجد المرء هذه الإجابة شافية وتبعث على البهجة إذا ما قيلت بطريقة جيدة. ويستطيع المرء أيضا أن يرفضها، ويجعلها ذات طبيعة إشكالية بطرح المزيد من الجدل حولها. وكل هذه الاستجابات وردود الأفعال تنطوي تحت ما نسميه بالبلاغة بقدر الأدوات البيانية والكلامية المستخدمة للحفاظ على كل الجانب الإشكالي قدر الإمكان. (انظر كلمتي الإبداع Invention وعلم الإشكاليات Problematology).

تأليف: Michel Meyer

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

نظرية التلقي Reception Theory

يُستخدم مصطلح نظرية التلقي للإشارة إلى اتجاه فى النقد الأدبي تطور فى جامعة كونستانس بألمانيا الغربية فى أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. لقد دافع بشكل عام أعضاء مدرسة كونستانس عن التوجه نحو النظر فى قراءة وتلقي النصوص الأدبية بدلا من التوجه نحو المناهج التقليدية التي تؤكد على إنتاج النصوص أو على معالجة دقيقة للنصوص نفسها. على هذا النحو ارتبطت مقاربتهم بنقد استجابة القارئ فى الولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من أن مؤيدي نظرية التلقي كانوا لفترة من الزمن أكثر تجانسا فى افتراضاتهم النظرية ووجهة نظرهم العامة من نظرائهم الأمريكيين. لقد هيمنت نظرية التلقي، التي كانت تدعى أحيانا بـــ"جمالية التلقي" أو Rezeptionsasthetik، على نظرية الأدب فى ألمانيا لعقد من الزمن تقريبا. ولم تكن معروفة فعليا فى العالم الناطق بالإنجليزية حتى حوالي سنة ١٩٨٠، عندما تيسرت بواسطة ترجمة معظم الأعمال الأساس. ويُعدُّ هانس روبرت ياوس Hans Robert Jauss وفولفجانج إيزر Wolfgang Iser أكثر منظري مدرسة كونستانس أصالة، على الرغم من أن عديدا من تلامذة ياوس أمثال راينير وارنينج Rainer Warning وأولريخ جامبريخت Ulrich Gumbrecht وكارلاينز ستيرل Karlheinz Stierl، قدموا أيضا إسهامات مهمة فى هذا الفرع من النظرية. وفي سياق الاستجابة لكتابات ياوس وإيزر، اعترض باحثون من جمهورية ألمانيا الديموقراطية (GDR) أمثال روبرت ويمان Robert Weimann ومانفريد نومان Manfred Naumann وريتا شوبر Rita Schober، على بعض

الافتراضات، واقترحوا بدائل ماركسية أفضت إلى أكثر الحوارات خصوبة بين الجانبين الغربي والشرقي فى ألمانيا ما بعد الحرب. وفي الثمانينيات حصلت أيضا استجابة من النقاد الأمريكيين البارزين لهذه النظرية.

ويؤول صعود نظرية التلقي فى الجمهورية الفيدرالية إلى جملة من العوامل المجتمعية والمؤسساتية، وعلى رأسها الاضطراب وما أعقبه من إعادة بناء التعليم العالي فى ألمانيا الغربية فى أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. لقد انبثقت نظرية التلقي من بيئة التغير والإصلاح، وهي تمثل فى ذاتها علامة على تحول حاسم فى توجه المناهج النقدية فى ألمانيا ما بعد الحرب. وفي الواقع يمكن تقسيم تاريخ النقد الأدبي فى ألمانيا ما بعد الحرب، إلى وجهين رئيسين، مع نقطة تحول حدثت فى سنة ١٩٦٧ عندما انفجرت نظرية التلقي. بالنسبة إلى العقدين الأولين من زمن ما بعد الحرب، كان معظم الباحثين يتقيدون بالصيغ التقليدية فى البحث التي شكلها التراث الوضعي والتاريخاني أو الوجودي – الظاهراتي. معظم الأعمال التمهيدية الشائعة فى دراسة الأدب كانت محافظة بشكل متين، تثني على النصوص، كما فعل النقد الجديد، بسبب كمالها اللغوي أو بوصفها أعمالا فنية مكتفية بذاتها. بيد أن الحاجة إلى التغير أصبحت واضحة مع منتصف الستينيات؛ فمن جهة أولى، كانت الضغوطات الخارجية الصادرة عن الحركة الطلابية تبدي ارتيابا فى القيم والمناهج التقليدية، وكان لإجراء هذه العملية الراديكالية العامة فى الجامعات تأثير مهم فى مناهج البحث. ويبدو أن إعادة تقييم المبادئ المقررة، والحاجة إلى مقاربة نقدية ذات صلة بما يجري خارج الأسوار الأكاديمية، ونزعة تسييس الأدب نفسه طوال هذه الأعوام، كلها أسباب داعية إلى رؤية مغايرة للنظرية الأدبية. ومن جهة أخرى، فإن الباحثين أنفسهم بدأوا يعيدون فحص دورهم بوصفهم وسطاء المعرفة، بعد أن تعافوا من رد فعلهم المناقض للإيديولوجيا اتجاه الإفساد القومي الاشتراكي

National Socialist للجامعة. وبقيامهم بذلك بدأوا يعترفون بعدم كفاية الممارسات المهيمنة فى حقلهم، وخاصة المفهوم الشائع القائل إن القراءة الدقيقة والانتباه اليقظ للتفاصيل النصية يمثلان الإجراءين الأكثر صحة لتناول الأعمال الأدبية.

في أبريل ١٩٦٧ بجامعة كونستانس أعلن عن بداية نظرية التلقي، وذلك فى المحاضرة الافتتاحية التي ألقاها هانس روبرت ياوس الباحث فى اللغات الرومانية المعيَّن حديثا، والتي ردد عنوانها صدى درس افتتاحي آخر شهير ألقاه عشية الثورة الفرنسية بجامعة جينا Jena الكاتب المسرحي والمنظر والمؤرخ فريدريك شيلر Friedrich Schiller الذي تحدث فى موضوع: "ما هو التاريخ العام ولأي غرض يدرس؟"، وهو العنوان الذي غيره ياوس عندما عوض لفظ العام بلفظ الأدبي، غير أن هذا التغيير الطفيف لم يقلل أبدا من التأثير الثوري. لقد اقترح ياوس، كما فعل شيلر فى ١٧٨٩، بأن العصر الحاضر يحتاج إلى إعادة الروابط الحيوية بين صنائع الماضي وبين اهتمامات الحاضر. لقد أكد ياوس أن مثل هذا الارتباط، بالنسبة إلى النظرية والتدريس الأدبيين، يمكن أن يقام إذا لم يتم إبعاد تاريخ الأدب إلى خارج حدود الحقل الأدبي. لأجل ذلك حاول أن يحث زملاءه للدخول فى عهد جديد من النقد التاريخي، كما أن عنوان محاضرته الذي خضع للمراجعة عندما نشرت بوصفها المقالة الرئيسة فى كتابه (١٩٧٠) الذي يحمل الاسم نفسه: "تاريخ الأدب بوصفه تحديا لنظرية الأدب"، احتفظ بالتحدي التجديدي الذي كان ياوس يرغب فيه. إن مقاربة النصوص الأدبية التي وضع ياوس خطوطها العامة فى محاضرته أصبحت تعرف بـ"جمالية التلقي"، التي ينبغي أن تفهم بوصفها محاولة لتجاوز ما كان يراه ياوس تقييدات فى أهم نظريتين أدبيتين متعارضتين كما هو مفترض: النقد الماركسي والشكلانية. تمثل الماركسية بالنسبة إلى ياوس مقاربة للأدب تجاوزها الزمن، ترتبط بأنموذج paradigm وضعي عتيق.

غير أنه أيضا يقر بأن هذا النقد يشتمل على كتابات تعنى على نحو صحيح بتاريخية الأدب، وخاصة كتابات الماركسيين الأقل أورثوذكسية، أمثال ويرنر كراوس Werner Krauss وروجيه جارودي Roger Garaudy وكاريل كوسيك Karel Kosik. ويعزى للشكلانيين، من جهة أخرى، أنهم أدخلوا الإدراك الجمالي بوصفه أداة نظرية لاستكشاف الأعمال الأدبية. غير أن ياوس كشف أيضا فى أعمالهم عن نزعة إلى عزل الفن عن سياقه التاريخي، وعن جمالية الفن لأجل الفن التي تعلي من التزامني (السانكروني) فوق التاريخي التعاقبي (الدياكروني). على هذا النحو أفلحت مهمة إحداث تاريخ أدبي جديد فى دمج أحسن صفات نظريتي الماركسية والشكلانية. لقد تحقق هذا الإدماج بواسطة تلبية حاجة الماركسيين للتوسط التاريخي والاحتفاظ بالخطوات المتقدمة للشكلانيين فى مجال الإدراك الجمالي.

لقد اقترحت جمالية التلقي أن تضطلع بهذا بواسطة تغيير المنظور الذي نصدر عنه عادة فى تأويل النصوص الأدبية. فقد تكونت تواريخ الأدب التقليدية من منظور منتجي النصوص، لأجل ذلك اقترح ياوس أننا نستطيع حقا أن نفهم الأدب بوصفه عملية بواسطة الاعتراف بالدور الأساس للاستهلاك أو للقارئ. هكذا واجه ياوس حاجة الماركسيين إلى توسط تاريخي بوضعه الأدب فى مُتصل عريض من الأحداث، واحتفظ بإنجازات الشكلانيين بوضعه الوعي الإدراكي فى مركز اهتماماته. لقد توحد التاريخ والجمالية فى نظريته، وكانا يبدوان غير قابلين للتسوية. إن دلالة العمل التاريخية لا تقام بخصائص العمل أو بعبقرية مؤلفها، ولكنها تقام بواسطة سلسلة التلقيات من جيل إلى جيل. وبتعبير تاريخ الأدب، تصور ياوس بهذا تاريخا سيضطلع بدور التوسط الواعي بين الماضي والحاضر. إن مؤرخ التلقي الأدبي مطالب بأن يعيد التفكير باستمرار فى الأعمال المعتمدة فى ضوء كيفية تأثيرها فى الظروف والأحداث الجارية وكيفية تأثرها بها. لقد فهمت معاني الماضي باعتبارها جزءا من الأسباب المؤدية إلى تجربة الحاضر.

وسيتم الاندماج بين التاريخ والجمالية على نحو كامل بواسطة فحص ما أسماه ياوس بـــ"أفق التوقع" Erwartungshorizont. وهذه الواسطة المنهجية فى نظريته هي تكييف واضح لمفهوم "الأفق" Horizont التي نجدها بشكل أكثر بروزا فى النظرية التأويلية لأستاذه هانز جورج جادامار Hans - Georg Gadamer الذي يرى أن الأفق معتقد جوهري بالنسبة إلى الموقف التأويلي (الهيرمينوطيقي)؛ فهو يحيل أولا إلى تموضعنا فى العالم، وإلى مدى رؤيتنا المنظورية والمحدودة بالضرورة، وإن اختلف استخدام ياوس للمصطلح قليلا؛ فهو يشير عنده إلى نسق بين - ذاتي أو إلى بنية التوقعات، ونموذج من الإحالات، أو إلى الميول والمواقف الجاهزة التي يحملها الفرد المفترض إلى النص المعطى. كل الأعمال تقرأ فى تعارض مع أفق توقع ما، وفي الواقع هناك أنماط من النصوص - والمحاكاة الساخرة مثال جيد لها - تقصد إلى وضع هذا الأفق فى الأمام. يقترح ياوس أن تتمثل مهمة الباحث الأدبي فى تحويل الأفق إلى شيء موضوعي، حتى نتمكن من تقييم الطابع الفني للعمل. ويتيسر إنجاز هذا التقييم إلى حد بعيد عندما يحول العمل المعني أفقه إلى موضوع thematizes. غير أنه حتى الأعمال التي يكون أفقها أقل وضوحا يمكن تناولها بهذا المنهج. ويمكن أن تستخدم مظاهر العمل المعني النوعية والأدبية واللغوية لبناء أفق توقع محتمل.

وبعد إقامة أفق التوقع، يمكن عندئذ أن يبدأ فى تحديد المزية الفنية للعمل بواسطة قياس المسافة بينه وبين الأفق. يستخدم ياوس نموذجا قائما على أساس مفهوم الانزياح: ينظر إلى القيمة الجمالية لنص ما بوصفها وظيفة انحرافه عن معيار معطى. إذا لم "تخب" توقعات القارئ أو تخرق، فإن النص عندئذ يصبح قريبا من كتب الطبخ. وإذا خرق، من جهة أخرى، أفق توقع القارئ، فإنه يصبح عملا فنيا رفيعا. وأحيانا يمكن أن يخرق عمل ما أفقه ويظل مع ذلك لا يحظى بتقدير فني فى عصره. هذه الحالة لا تطرح

أي مشكلات بالنسبة إلى نظرية ياوس. فالتجربة الأولى للتوقعات المعطلة ستثير تقريبا استجابات سلبية قوية ثابتة من جمهورها الأول، لكن السلبية الأصلية ستختفي بالنسبة إلى القراء المتأخرين. والسبب فى هذا التأخر هو أنه فى الوقت اللاحق يكون الأفق قد تغير ولم يعد العمل المعني قادرا على خرق التوقعات، أو على الأقل ليس بالدرجة نفسها. ويمكنه عوض ذلك أن ينظر إليه بوصفه عملا كلاسيا؛ فهو قد أسهم بطريقة جوهرية فى إقامة أفق توقع جديد.

وتتكامل مع مقاربة ياوس فى فهم الأعمال الأدبية، معالجة فولفجانج إيزر للتفاعل بين القارئ والنص. يلتقي إيزر مع ياوس فى كونه أيضا جذب اهتماما كبيرا بمحاضرته الافتتاحية فى جامعة كونستانس، غير أن نظريته ربما قدمت بشكل أفضل فى كتابه "فعل القراءة"(١٩٧٦ / ١٩٧٨). ما عني به إيزر منذ البداية هو السؤال عن الشروط التي يكتسب فيها النص معنى بالنسبة إلى القارئ. وإذا كان التأويل التقليدي يسعى إلى الكشف عن معنى خفي فى النص، فإن إيزر خلافا لذلك أراد أن يرى المعنى بوصفه نتاج تفاعل بين النص والقارئ، وأثرا يعاش، وليس شيئا يمكن العثور عليه. على هذا النحو زوده تصور رومان إينجاردن Roman Ingarden عن العمل الفني بإطار مفيد للبحث. يرى إينجاردن أن الموضوع الجمالي يتكون فقط من خلال فعل الإدراك الذي يضطلع به القارئ. وبتبني هذا المبدأ الجوهري من إنجاردن، حول إيزر بؤرة الاهتمام من النص بوصفه موضوعا إلى النص بوصفه إمكانية، ومن نتائج القراءة إلى فعل القراءة ذاته.

ولمعالجة التفاعل بين النص والقارئ، ينظر إيزر إلى الصفات التي تجعل النص قابلا للقراءة أو التي تؤثر فى قراءتنا، وينظر إلى خصائص عملية القراءة الضرورية لفهم النص. لقد تبنى فى كتابه المبكر مصطلح "القارئ الضمني" بشكل خاص لأجل تطويق هاتين الوظيفتين معا؛ فهو فى

الوقت نفسه بنية نصية وفعل مبني. وباعتماده لاحقا بشكل ثقيل على مصطلحات إينجاردن، ميز بين النص وتفعيله والعمل الفني. فالأول هو المظهر الفني؛ أي ما وضعه المؤلف هناك لنتولى قراءته، ويمكن إدراكه على نحو أفضل بوصفه إمكانية تنتظر التحقق. ونقيض ذلك التفعيل الذي يحيل إلى ما ينتجه نشاطنا المثمر؛ إنه تحقق النص فى ذهن القارئ، المنجز بواسطة ملء البياضات والفراغات لإزالة مواضع اللاتحديد. وأخيرا هناك العمل الفني الذي ليس هو النص ولا تفعيله، ولكنه شيء بينهما؛ يحدث فى نقطة تلاقي النص والقارئ، وهي النقطة التي لا يمكن تحديدها على نحو تام.

يتسم العمل الفني بطبيعة افتراضية، ويتكون من كثير من الإجراءات المتداخلة. أحد هذه الإجراءات يتضمن جدل الاستباق protention والتذكر retention، وهما مصطلحان مستعاران من نظرية إدموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) الظاهراتية، طبقهما إيزر على نشاطنا فى قراءة الجمل المتتابعة. ففي مواجهة نص ما نبرز باستمرار توقعات يمكن إرضاؤها أو تخييبها، وفي الوقت نفسه فإن قراءتنا مشروطة بالجمل والتفعيلات السابقة. ولأن قراءتنا محددة بهذا الجدل، فإنها تكتسب وضع حدث ويمكنها أن تمنحنا انطباعا بتنافس حقيقي. إذا كان الأمر على هذا النحو، فإن تفاعلنا مع النصوص ينبغي أن يجبرنا، مع ذلك، على منح تفعيلنا درجة من الاتساق، أو على الأقل قدرا كبيرا من الاتساق الذي يتطلبه الواقع.

هذا الاشتباك مع النص ينظر إليه بوصفه ضربا من التورط يتم فيه الإمساك بالعنصر الغريب واستيعابه. فإيزر يرى أن نشاط القارئ مماثل للتجربة الفعلية. وعلى الرغم من تمييزه بين الإدراك Wahrnehmung والتفكير Vorstellung، فإن هاتين العمليتين متماثلتان بنيويا. فالقراءة بالنسبة إليه إذن تلغي مؤقتا ثنائية الذات - الموضوع. وفي الوقت نفسه، من جهة ثانية، تجبر

الذات على الانشطار إلى جزأين؛ يضطلع أحدهما بالتفعيل، ويندمج الآخر فى المؤلف أو على الأقل فى صورته المبنية. وأخيرا تتضمن عملية القراءة جدل التحقق الذاتي والتغير: إننا نبني أنفسنا بالتوازي مع ملئنا لفراغات النص. إن مواجهتنا للأدب هي جزء من عملية تنويرية تمكننا من فهم الآخرين وأنفسنا بشكل أكثر اكتمالا.

وسيجد نموذج إيزر فى القراءة تكملته المثمرة فى أعمال كارلهاينز ستيرل Karlheinz Stierle، المنظر الأكثر حدة من الجيل الثاني فى مدرسة كونستانس خلال السبعينيات. لقد انطلق ستيرل من اعتقاد إيزر بأن تكوين الأوهام والصور ضروري فى عملية االقراءة، ونعت هذا المستوى فى القراءة بـــ"شبه تداولي" Quasi - pragmatic، تمييزا له عن تلقي النصوص العادية ("التلقي التداولي"). وبينما بدا أن إيزر سيظل فى هذا المستوى فى دراساته، اقترح ستيرل أن القراءة شبه التداولية ينبغي أن تكتمل بأشكال من التلقي أعلى قادرة على التعامل المنصف مع خصوصيات التخييل. لقد سعى إلى إثبات أن هناك استخداما للغة شبه إحالي؛ يشغل موضعا بين الإحالة الخالصة وبين الإحالة الذاتية. وما يميز التخييل السردي هو هذا الوصف بأنه شبه إحالي، وهو ما يمكن اعتباره إحالة ذاتية مقنعة فى أشكال إحالية. يحيل التخييل إلى ذاته على الرغم من أنه يبدو إحاليا أو ذا مرجع خارجي. ما اقترحه ستيرل إذن هو المستوى الانعكاسي الإضافي للفهم فى مواجهتنا للنصوص الأدبية.

وقد قارب نقاد مدرسة كونستانس فى الجمهورية الألمانيا الديموقراطية إنجازات نظرية التلقي من موقف مختلف إلى حد ما؛ فروبرت ويمان ومانفريد نومان لم يكونا معنيين بشكل كبير بعملية القراءة التي أوجزها كل من إيزر وستيرل، بقدر ما كانا معنيين بتاريخ الأدب الذي طوره ياوس. وقد

قدما أربعة اعتراضات على نظرية ياوس. أولا، تذمرهما من أحادية الجانب؛ فقد ادعيا أن نظرية التلقي مضت بعيدا فى التأكيد على الاستجابة إلى العمل الفني. وبينما كانا يسلمان بأن التلقي مظهر مهم - وأنه ربما لم يقدر حق قدره فى التقليد الماركسي - فإن وضع ياوس وزملائه للتلقي بوصفه المعيار الوحيد لتجديد تاريخ الأدب، يهدم جدل الإنتاج والتلقي. ثانيا، كشف النقاد الماركسيون عن خطر ماثل فى الإدراك الذاتي تماما للفن وما ينتج عنه من إضفاء النسبية على تاريخ الأدب. إن المشكل هنا يكمن فى أنه إذا ما تابعنا ياوس (وجادامر) فى التخلي عن كل مفهومات العمل الفني الموضوعية، فسيكون إذن على ما يبدو مدخلنا إلى التاريخ اعتباطيا بشكل تام، لأنه دائم التغير. وأخيرا، لا يمنح نموذج نظرية التلقي فى مدرسة كونستانس سوى أرضية سوسيولوجية ضئيلة بالنسبة إلى القارئ المفترض أنه يشغل مركز اهتماماتها. لقد وجد باحثون من الجمهورية الألمانيا الديموقراطية إخفاقا عاما فى ربط تاريخ الأدب بالانشغالات الأوسع. إنهم يدعون أن مفهوم القارئ فى نظرية التلقي عند ياوس وإيزر، هو فرد مؤمثل أكثر منه كينونة اجتماعية تنطوي على أبعاد سياسية وإيديولوجية مثلما تنطوي على أبعاد جمالية. ولقد تلقى نقاد الولايات المتحدة الأمريكية نظريات ياوس وإيزر تلقيا مختلفا. فعلى الرغم من الإعجاب الذي لاقاه إيزر فى العالم الأنجلوفوني بشكل عام، فإن عمله تعرض لنقد لاذع من لدن ستانلي فيش Stanley Fish (١٩٨١)، الذي اعترض على التعارض بين التحديد واللاتحديد. لقد تساءل فيش عن وضعية البياضات التي تمثل، وفق تصور إيزر، مكونا لنشاط القارئ. فبينما يقترح إيزر أنها توجد فى النص بشكل موضوعي فى استقلال عن القارئ، يؤكد فيش أنها لا توجد قبل فعل التأويل السابق. يرى فيش أن تفاعلنا مع النصوص مقرر مسبقا، ومن ثم فإن البياضات لا يمكن أن تدرك بوصفها كينونات معطاة. إن ما نراه أو نفهمه هو دائما مشكل بواسطة منظور مسبق

أو إطار يسمح بنظر وفهم فعليين. على هذا النحو لا توجد موضوعات محددة للتأويل، ولكن توجد فقط الموضوعات المؤولة التي توصف بالمحددة خطأ. ومع ذلك، فإن فيش لا يسمح بلاتحديد اعتباطي وذاتي تماما؛ فى الواقع، إنه يناقش مفهوم اللاتحديد بالأسس نفسها التي رفض بها التحديد. ولأننا نعمل دائما داخل إطار تأويلي، ولا نملك الوصول إلى ذاتية غير مقيدة بالمقررات، فإن اللاتحديد، الذي يعتبر موضع إسهام الفرد فى معنى النص، يصبح مستحيلا. وبينما يسعى فيش إلى إثبات، من جهة أولى، أنه لا يوجد فى النص شيء معطى أو محدد، وأن كل شيء يتم تزويده، فإنه أيضا يؤكد أن كل شيء معطى وأن كل شيء يتم تزويده. ويزول هذا التناقض بمجرد ما ندرك أنه ببساطة نظر إلى مشكل قراءة النصوص من منظور الشفرة أو العرف الذي يشكل ويحدد الاستجابة الفردية. ويمكن أن تكون نظرية إيزر آلة فعالة لإنتاج التأويلات، غير أن أي مكون فى مثل هذا الاعتبار هو فى ذاته نتاج استراتيجية تأويلية خاصة تملك فقط الصحة فى إطار نسق خاص من الوضوح.

ويتسم تلقي الناقد التفكيكي بول دي مان Paul de Man لعمل ياوس، بطبيعة مختلفة إلى حد ما. يرى دي مان أن ما تفتقر إليه جمالية التلقي هو عدم انتباهها إلى اللغة، الأمر الذي يتجلى فى تسويتها غير المشروعة بين المجالين الظاهراتي واللغوي. إن تأويلية (هيرمونيطيقا) التجربة، وهي الميدان الذي يعمل فيه ياوس، وتأويلية (هيرمونيطيقا) القراءة ليس منسجمين بالضرورة. إن دي مان معني بشكل خاص بكون مفهوم "أفق التوقع" غير قابل للتطبيق على ظاهرة اللغة. ويمكن إرجاع قصور ياوس إلى تغافله عن المنظرين الذين يعنون بثبات الدلالة وتحديد الدال signifier. يعاقب دي مان ياوس بإخفاقه فى إدماج النظرات الثاقبة للمنظرين الفرنسيين ما بعد البنيويين، وبشكل خاص تجاهله للغموض اللغوي الذي لا يمكن أن يتحاشاه أي نص.

وتتضمن الطريقة الأخرى لفهم اعتراض دي مان الادعاء بأن ياوس يكتم القوة الكامنة الهدامة للبلاغة لأجل إتمامه توحيد الشعرية والتأويلية غير المتأثر بتمزيق الأدب. يحاول دي مان أن يثبت أن إدخال أفق التوقع بوصفه نقطة محورية لجمالية التلقي يجعلها مشروعا "محافظا". وباحترامه لتعارضات كلاسي /حديث ومحاكاتي/ تمثيلي يتطابق ياوس دائما مع المصطلحين الأولين. إن استخدام استعارة الأفق للفهم يتضمن الإدراك، وبذلك يساق الفهم إلى القرب بمعناه الحسي. ياوس متهم بإقامة تطابق غير مشروع بين الكلمة والعالم الذي يتجنبه بحذر النقاد ذوو الحساسية اللغوية. يرى دي مان أن جمالية التلقي على الرغم من نظراتها الثاقبة، فهي تبدو منهجا غير قادر على مخاصمة الافتراضات المألوفة والمحافظة حول طبيعة النصوص الأدبية.

وطوال السبعينيات والثمانينيات دافع ياوس وإيزر عن موقفهما ضد هذه الاعتراضات وغيرها في ردود سجالية. وقد عدلا وهذبا أيضا مواقف نظرية مبنية على النقد. غير أن ثمن هذه التصحيحات كان افتقاد الإثارة الأصلية التي أحاطت ببروز نظرية التلقي في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. وفي ما بعد أخذ ياوس وإيزر معا اتجاهات تنطلق إلى حد ما من أكثر أعمالهما تأثيرا. فقد ازداد انشغال إيزر بمفاهيم الخيال والتخييل؛ وفي الوقت الحالي وجه اهتمامه إلى البعد الأنتروبولوجي في الأدب. في وقت مبكر من سنة ١٩٧٢ راجع ياوس نظريته بشكل مهم؛ فقد طور في رائعته "التجربة الجمالية والتأويلية الأدبية"(١٩٧٧و١٩٨٢) مفهوم الاستجابة إلى النصوص على نحو مختلف، مموضعا نموذجه بوصفه بديلا من بين عدة بدائل أخرى. ومع ذلك فإن هذا العمل لم يتمتع سوى بتأثير قليل نسبيا في حلقات النقد بألمانيا، وأننا يمكن أن نثبت أن نظرية التلقي بوصفها مقاربة موحدة للأدب توقفت عن الوجود في وقت مبكر من الثمانينيات. ومن جهة أخرى، فإن مدرسة كونستانس أبقت على قيد الحياة معظم نتاجها النظري

المهم، بفضل شخصيات أعضائها، والحلقة الدراسية التي تقام هناك مرتين فى كل سنة. وخلال الثمانينيات والتسعينيات، استمرت لقاءات فريق "الشعرية والتأويلية" المهمة بالنسبة إلى تقدم نظرية التلقي، فى إنتاج بعض الإسهامات النقدية الأدبية والثقافية والفلسفية فى ألمانيا.[انظر: مادة النقد ومادة التأويلية (الهيرمونيطيقا)].

Gumbrecht, Hans Ulrich. "Konsequenzen der ezeptionsästhetik oder Literaturwissenschaft als Kommunikationssoziologie." *Poetica* 7 (1975); pp.pp. 388–413.

Iser, Wolfgang. *Die Appellstruktur der Texte: Unbestimmtheit als Wirkungsbedingung literarischer Prosa.* Konstanz, 1970; "Indeterminacy and the Reader's Response in Prose Fiction." In *Aspects of Narrative: Selected Papers from the English Institute*, edited by J. Hillis Miller, pp.pp. 1–45. New York, 1971.

Iser, Wolfgang. *Der implizite Leser: Kommunikationsformen des Romans von Bunyan bis Beckett.* Munich, 1972; *The Implied Reader: Patterns of Communication in Prose Fiction from Bunyan to Beckett.* Baltimore, 1974.

Iser, Wolfgang. "The Current Situation of Literary Theory: Key Concepts and the Imaginary." *New Literary History* 11 (1979), pp.pp. 1–20.

Jauss, Hans Robert. "Paradigmawechsel in der Literaturwissenschaft." *Linguistische Berichte* 3 (1969), pp.pp. 44–56.

Jauss, Hans Robert. *Kleine Apologie der ästhetischer Erfahrung.* Konstanzer Universitätsreden 59. Constance, Germany, 1972.

Jauss, Hans Robert. *Toward an Aesthetic of Reception.* Theory and History of Literature 2. Minneapolis, 1982.

Naumann, Manfred. "Das Dilemma der 'Rezeptionsästhetik.' " *Poetica* 8 (1976), pp.pp. 451–466.

Naumann, Manfred et al. *Gesellschaft - Literatur - Lesen: Literaturrezeption in theoretischer Sicht.* Weimar, Germany, 1973.

Schober, Rita. *Abbild, Sinnbild, Wertung: Aufsätze zur Theorie und Prais literarischer Kommunikation.* Berlin, 1982.

Stierle, Karlheinz. *Text als Handlung: Perspektiven einer systematischen Literaturwissenschaft.* Munich, 1975.

Stierle, Karlheinz. "Was heisst Rezeption bei fiktionalen Texten?" *Poetica* 7 (1975), pp.pp. 345–387; English (abbreviated): "The Reading of Fictional Texts." *In The Reader in the Text: Essays on Audience and Interpretation*, edited by Susan R. Suleiman and Inge Crosman, pp.pp. 83–105. Princeton, 1980.

Warning, Rainer ed., *Rezeptionsästhetik: Theorie und Praxis.* Munich, 1975.

Weimann, Robert. " 'Rezeptionsästhetik' und die Krise der Literaturgeschichte: Zur Kritik einer neuen Strömung in der bürgerlichen Literaturwissenschaft." *Weimarer Beiträge* 19.8 (1973), pp.pp. 5–33; " 'Reception Aesthetics' and the Crisis of Literary History." *Clio* 5 (1975), pp.pp. 3–33.

Weimann, Robert. " 'Rezeptionsästhetik' oder das Ungenügen an der bürgerlichen Bildung: Zur Kritik einer Theorie literarischer Kommunikation." *Kunstensemble und Öffentlichkeit*, edited by Robert Weimann, pp.pp. 85–133. Halle - Leipzig, Germany, 1982.

Weinrich, Harald. "Für eine Literaturgeschichte des Lesers." *Merkur* 21 (1967), pp.pp. 1026–1038.

قائمة قراءات إضافية

Bürger, Peter. "Probleme der Rezeptionsforschung." *Poetica* 9 (1977), pp.pp. 446–471.

Fish, Stanley. "Why No One's Afraid of Wolfgang Iser." *Diacritics* 11.1 (1981), pp.pp. 2–13.

Fokkema, D. W., and Elrud Kunne - Ibsch. "The Reception of Literature: Theory and Practice of 'Rezeptionsästhetik.' " In *Theories of Literature in*

the Twentieth Century, edited by D. W. Fokkema and E. Kunne - Ibsch, pp.pp. 136–164. New York, 1977.

Grimm, Gunter. *Rezeptionsgeschichte: Grundlegung einer Theorie*. Munich, 1977.

Hohendahl, Peter Uwe, ed. *Sozialgeschichte und Wirkungsästhetik: Dokumente zur empirischen und marxistischen Rezeptionsforschung.* Frankfurt, 1974.

Holub, Robert C. *Reception Theory: A Critical Introduction*. London, 1984.

Link, Hannelore. " 'Die Appellstruktur der Texte' und 'ein Paradigmawechsel in der Literaturwissenschaft.' " *Jarhbuch der deutschen chillergesellschaft* 17 (1973), pp.pp. 532–583.

Solms, Wilhelm, and Norbert Schöll. "Rezeptionsästhetik." *Literturwissenschaft heute*, edited by Friedrich Nemec and Wilhlem Solms, pp.pp. 154–196. Munich, 1979.

Zimmermann, Bernhard. *Literturrezeption im historischen Prozess: Zur Theorie einer Rezeptionsgeschichte der Literatur*. Munich, 1977.

تأليف: Robert C. Holub

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الدين Religion

نقرر إحدى النظريات الحديثة أن كل الأنظمة الدينية هي فى الأساس أنظمة بلاغية لأنها تحاول نقل الحقيقة للناس، وتشير هذه النظرية إلى أن للخطاب الديني بلاغة مميزة تقوم على النبرة السلطوية، وليس على الإقناع العقلي، والذي تكون فيه شخصية المتحدث صاحبة اليد العليا. وتحتكم هذه النظرية إلى مفهوم النص الديني كنص تحكمه فكرة التبليغ والوحي ويهدف إلى قبول قاطع من المتلقي، وليس كنص يقوم على الشرح والاستنتاج. وتقوم هذه النظرية على فكرة أن البلاغة اليونانية قد أرست تاريخيًا وثقافيًا تقليدًا تواصليًا عالميًا لا يتسم بكثير من التنوع الأسلوبي. ولكن هذا التعريف الجوهري يبدو واهيًا على أساس رفض الفلسفة الكلاسيكية، بل أيضا على أساس الاختلاف حول طبيعة الدين، وهل هو بالفعل متسق فى ذاته، وما إذا كانت غايته هي الحقيقة، بل إن هذا التعريف يتجاهل الفرق بين الوحي واللاهوت. وتدعونا التعددية والتنوع اللذان يصبغان المعتقدات والظواهر الدينية على مر القرون وعبر مختلف الثقافات إلى البحث عن السمات والصفات المميزة للدين.

الكتب المقدسة Scripture

تدل أقوال بوذا Buddha (٥٦٣ق.م _٤٨٣ ق.م) وكونفشيوس Confucius (٥٥١ق.م _ ٤٧٩ق.م) على وجود منهج بلاغي قديم فى كل من الصين والهند، لكنه لم يتطور أبدا ليصبح علمًا نظريًا، كما أن أصول الأديان

الثلاثة الرئيسية (اليهودية والمسيحية والإسلام) هي أيضا أصول شفهية. والخطاب الأساسي فقط هو الذي حفظ مكتوبا، إلا أن طبيعته الشفهية ظلت موجودة فى القراءة الجماعية. فالنصوص المقدسة لليهودية والمسيحية مجموعة فى الكتاب المقدس حيث تضم النصوص المقدسة العبرية والعهد الجديد، وإذا ما تحدثنا عن الإسلام فسوف نجد أن للقرآن منزلة عظيمة. وعلى الرغم من أن علماء اللغة العربية فى العصور الوسطى قد طوروا تأويلاً وتفسيرًا بلاغيًا للقرآن الكريم فإن نطاق اجتهادهم لم يجاوز حدود الدين الإسلامي، وبقى القرآن مجالاً للدراسة للمتخصصين فقط (انظر البلاغة العربية Arabic rhetoric، والبلاغة الصينية Chinese rhetoric، والبلاغة الهندية Indian rhetoric).

لم تُجمَع أو تحرَّر النصوص العبرية كمنتج لثقافة بلاغية مقصودة رأت فى هذه النصوص إقناعًا فنيًا بالمعنى الكلاسيكي للكلمة. وحتى قبل الحضارة الإغريقية القديمة توجد أدلة ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد تدل على وجود نوع من البلاغة التي أخذت تتشكل مستخدمة موضوعات الخطب العسكرية التي كان يلقيها الأحبار من بني إسرائيل، كما تدل مدارس الخطابة والكتابة التي كانت موجودة على وجود نوع من التدريب المنهجي. وقد كان استخدام الكتاب المقدس للقصص على عكس الشكل الملحمي الذي كان شائعًا فى الأديان القديمة بمثابة تأويل بلاغي للأفعال الإلهية من خلال اختيار الجنس الأدبي المناسب، ومن ثم أصبحت النصوص تستخدم لأداء المناسك، ومن ثم تصبح عرضة للتفسير البلاغي. وقد انعكس التبادل الثقافي المعقد مع الحضارة الإغريقية دينيا فى كتابة تاريخ الماكبيينMaccabees فى الكتاب المقدس، وفي الكثير من الجوانب الأدبية والإبيجرافيات المنحولة، وآداب الحكمة، وفي وثائق البحر الميت Dead Sea Scrolls (وهي عبارة عن ٩٠٠ وثيقة تحتوى على نصوص من الكتاب المقدس باللغة العبرية عثر عليها فى

أحد عشر كهفًا بالقرب من البحر الميت). وتبدو الأشكال البلاغية الكلاسيكية واضحة فى التفسير اليهودي الذي ظهر بعد ذلك، وفي مبادئ الربيين، والتعليقات، وشروح للتوراة، أو المدراشا. وقد نظمت مقدمة الربي هيليل rabbi Hillel للمصطلحات والقواعد التأويلية اليونانية للدوائر الفريسية Pharasaic circles (وهم طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة) بشكل قاطع البحث الميشارى mishraic inquiry (وهي كلمة عبرية تشير إلى اللهجات العبرية الموجودة فى التلمود) بل كانت حافزا عليه كذلك. وقد أثرت الأساليب التي كان يتبعها البلاغيون السكندريون على طريقة تناول النصوص الشرعية اليهودية. ولعل من المهم أن نلفت النظر هنا إلى وجود كثير من الخطوط المتوازية بين الأدب الفريسى والتلمودى والنصوص الهللينية، وخاصة فى تلك الأشكال الأدبية التي تتعلق بأقوال الحكماء مثل الحواديت، وقصص التأسي، والأقوال المأثورة، وأيضًا تلك التي تتعلق بالأفكار التربوية. وتعكس هذه المصادفات المعرفة العميقة للصفوة الذين كانوا يعيشون فى المدن (و خاصة الربيين) باللغة اليونانية، والثقافة الهللينية، التي درسوها جيدًا وخاصة الأدب الهللينيستى، فى الوقت الذى كانوا يطورون فيه تراثهم الخاص. ويظهر هذا الاحتكاك الثقافي فى التفسير اليهودي التقليدي للتوراةmidrashim فى مباركة نوح لأولاده الذين ستروا عورته (سفر التكوين ٩ – ٢٧) (انظر: البلاغة العبرية Hebrew rhetoric).

ولعله يجب أن نذكر أن التأثير العكسي للبلاغة اليهودية على النظرية والتطبيق الإغريقية – الرومانية Greco - Roman ولجهود الحاخامات لإيجاد بديل مازال قيد البحث، ومازالت البلاغة اليهودية فى انتظار انتباه النقاد لها، ومازال لا يوجد تراث للتفسير البلاغي للنصوص الدينية العبرية كوسيلة لإثارة الحجاج؛ وهذا يرجع إلى أن النقد كان دائمًا يوجه للأسلوب ويغفل الجوانب الأخرى. وعلى الرغم من أن أساليب التأويل اليهودية لا تشرح

نظرية بلاغية، فإنها تظهر أغراضًا استراتيجية جوهرية كان لها تأثير كبير على التأويل المسيحي، وتشير بعض المصادر إلى سفر التكوين كنموذج لهذا التأثير، وقد قام الكثير من المؤلفين المسيحيين بدراسة العهد القديم بحثا عن المجاز والصور البلاغية المختلفة. وأقدم عمل موجود عن البلاغة العبرية للنصوص الدينية هو الكتاب الذي كتبه جودا مسر ليون Juddah Messer Leon بعنوان **كتاب قطفة قرص العسل** **The Book of the Honeycomb's Flow** في عصر النهضة، فى القرن الخامس عشر تحديدًا.

وقد شقت المسيحية طريقها فى مواجهة الثقافات اليونانية واليهودية داخل سياقاتها، ويظهر هذا جليًا فيما قام به كتاب العهد الجديد بأن جعلوا ما كتبوه من إبداعات وتجليات لغوية مختلفًا عما هو موجود فى البلاغة الكلاسيكية يظهر هذا فى نقيض القضايا antithesis التي يستخدمها بولس حينما يدور الكلام حول الإقناع، والقوة الإلهية، والحكمة البليغة، والصلب الأحمق foolish crucifixion. وعلى الرغم من ذلك كله فقد أسرفوا فى استخدام الصور البلاغية والأنماط الحجاجية الشائعة فى البلاغة الكلاسيكية. وكان اليهود المصريون (وخاصة شخص يدعى فيلون Philo) هم أول من تبنى التقاليد الأدبية الإغريقية وقاموا بوضع القصص الإنجيلي فى قالب كلاسيكي من خلال الدراما، والأدبيات التاريخية، والشعر، والفلسفة. ولكن يصعب الدفاع عن ذلك الاختلاف بين يهود الشتات المتأثرين بالهيللينية Hellenized Diaspora (وهم اليهود الذين عاشوا فى العصر الهلليني وتبنوا لغة الإغريق وأسلوبهم في الحياة)، ويهودي فلسطين Jewish Palestine؛ فانتشار اللغة اليونانية فى فلسطين فى القرن الأول الميلادي نقل الأفكار الهيللينية Hellenism والصور البلاغية التي كانت تميزها. ومن المحتمل أن يكون عيسى عليه السلام قد تحدث اليونانية، وهو ما ينطبق أيضا على المسيحيين الأوائل. فقد كانت البلاغة فى فلسطين فى القرن الأول الميلادي هي المنهج الدراسي الوحيد فى

التعليم الثانوي. وعلى الرغم من أن كتاب العهد الجديد ربما لم يدرسوا هذه اللغة بشكل نظامي ومنهجي، فإنهم كانوا على اتصال وثيق بها سواءً كان ذلك كتابةً أو شفاهة من خلال العديد من الأشكال أو الأحوال بدءًا من الوثائق العامة الرسمية ووصولا إلى المراسلات الشخصية، ومن قاعات المحاكم إلى قاعات الاحتفالات فضلاً عن الأدب بنوعيه الشعر والنثر. وقد أثر تراث التفسير المسيحي منذ عهد الآباء الأوائل للكنيسة وحتى بدايات العصور الحديثة بهذه التبعية، ويظهر هذا جليًا من خلال قراءة العهد الجديد فى ضوء أو تحت مظلة البلاغة الكلاسيكية classical rhetoric.

وعلى الرغم من أن الاستشهاد بالنصوص الكلاسيكية يبدو أمرًا نادر الحدوث، فإن هناك العديد من أوجه التشابه التي تدعو الإنسان إلى التوقف والتأمل. فقد تم تحديد العديد من القوالب والوحدات البلاغية فى التعاليم التي قال بها عيسى عليه السلام، والتي تعد المصدر المتعارف عليه للأقوال والمأثورات التي وردت فى إنجيلي متى ولوقا، والقصص الشفهي الذي سبق ظهور مرقص Mark، وبالتالي كان ينظر للرسالة Kerygma وراء هذه الأقوال والقصص الشفهية، على أنها تتمتع بسلطان وسطوة دينية، لا سطوة عقلية أو مستمدة من الإقناع. والأفكار التي تحملها هذه الأقوال والقصص – وهي ليست أفكارًا أسطورية ولا لاهوتية – تؤكد بما لا يدع مجالا للشك على أن عيسى عليه السلام هو المصدر المتفرد لها. وعلى الجانب الآخر تمثل رسائل بولس Pauline epistles التي كان يوجهها لجمهور المصلين شكلاً أو نوعًا مختلفًا من البلاغة. ولا شك أن قضية المصدر (مصدر النص) تشعبت من عيسى عليه السلام كمعلم Master، إلى الحواريَ كواعظ Preacher. وقد دمجت الأناجيل المختلفة كل الإثباتات التي وردت عن المصدر(مصدر النص) فى شكل قصصي محبوك Plot يجمع ما بين طريقة القسيس فى إلقاء القصص وروح السيد المسيح. وهذا التقدم المتفرد يذهب بنا بعيدًا خارج

إطار البلاغة الكلاسيكية التي كان ينقصها وجود نظرية محددة للقصص، كما كان ينقصها وجود غرض واضح وأسلوب مميز. ولكن على الرغم من ذلك يمكننا أن نقول إن ترتيب الأناجيل فى جوهره يتسم بالبلاغة، فالترتيب الموجود يقوم على وجود مقدمة أو استهلال proem، يليها شرح وتفسير للجزء التعليمي exposition of teaching، ثم وصف لصلب السيد المسيح account of crucifixion، وأخيرا الخاتمة epilogue.

وإذا تكلمنا من ناحية الأسلوب فلسوف نجد أن كل إنجيل تغلب عليه صفة بلاغية سائدة، فإنجيل متى يتسم بالفاعلية والحيوية، وإنجيل مرقص يتسم بالبساطة وإنجيل لوقا بأناقة الأسلوب، وإنجيل يوحنا برقي الأسلوب. ويعد متى هو أكثر من طبق قواعد البلاغة، ويظهر ذلك جليًا فى ترتيبه للإنجيل فى شكل أجزاء واضحة ومميزة، ولكل جزء وظيفته المحددة، من خلال نسق عام يجمع ما بين روح النص اليسوعي، وعنصر إثارة المشاعر والشفقة فى الحديث عن معاناة السيد المسيح، وكل هذا مصحوب بتقديم أسباب ممكنة أو محتملة لكل حادث أو حديث. أما مارك فكان يؤكد دائمًا على الأدلة الموثوق بها دون جدل أو نقاش. أما لوقا فقد درس اليونانية. وهو وحده بين كل مؤلفي الأناجيل الأربعة الذي كان ملمًا بالأنواع الأدبية الكلاسيكية، كما تميز أسلوبه فى عرض القصص بالترتيب والتنظيم وذكر التفاصيل بحذافيرها، كما استخدم طريقة التشخيص الكلاسيكية (إضفاء الصفات البشرية على الجمادات) فى ترجمة (السيرة الذاتية) لعيسى عليه السلام وخاصة فى مرحلة الطفولة. أما يوحنا فقد استخدم الجدل المنطقي logical argument لإضفاء الصبغة اللاهوتية على الموضوعات التي طرقها (انظر الإقناع الأخلاقي Ethos، استمالة النفوس – إثارة العواطف Pathos، والتشخيص Prosopopoeia).

وكانت طريقة الدعوة أوالوعظ تجد تباعا سندًا فى كل من العقلانية البلاغية rhetorical reasoning والقياس الإضماري enthymeme(انظر القياس

الإضماري Enthymeme). وتتسم بلاغة العهد الجديد بالجدلي الحاد، فهي تخاطب نوعين من الجمهور فى الوقت نفسه من أجل الوصول إلى تحديد وتعريف اجتماعي social definition عن طريق المقارنة والمغايرة comparison and contrast. فشخصية المتحدث ومصداقيته أو ما نسميه فى النظرية الكلاسيكية بالإقناع الأخلاقي ethos هما ركنان ركينان لا يمكن الاستغناء عنهما. فلا شك أن وجود نص مرجعي يستشهد به authority هو أمر يسيطر على العقول والأفئدة وهو ما يلجأ إليه القادة عند مخاطبة الجماهير، بمعنى أنهم يستندون إلى ضامن خارجي external guarantor لمعتقداتهم، ولا يوجد أضمن من ذكر نص إلهي أو أقوال تنسب للذات الإلهية. وهذه البراعة تميز البلاغة المسيحية عن البلاغة الكلاسيكية التي تعتمد على العرف والتقاليد دون اعتمادها على نصوص مقدسة يستشهد بها. ويمكن تقسيم المجادلات إلى عدة أنواع أدبية: فمنها ما هو جدلي forensic (مثل الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الثاني) ومنها ما هو تشاوري deliberative مثل موعظة الجبل Sermon on the Mount (متى، الإصحاح ٥ – ٧) ومنها ما هو توضيحي وخطابي epideictic مثل تسبيحة مريم العذراء Magnificant (لوقا، الإصحاح الأول ٤٦ – ٥٥)، ومؤاساة عيسى عليه السلام لحواريه (يوحنا، الإصحاح ١٤ – ١٧). (انظر النوع التشاوري Deliberative genre، والنوع المحفلي Epideictic genre، والنوع النيابي (القضائي) Forensic genre). وهذا التقسيم أو التحديد ليس بالأمر السهل؛ لأن الموقف البلاغي المسيحي لا يماثل المناسبات الكلاسيكية. وفي بعض الأحيان يصعب التصنيف كما هو الحال فى " الرسالة إلى أهل غلاطية" Galatians– والتي خضع الكتاب الأول منها للنقد البلاغي الحديث، والتي كان يصنفها البعض على أنها قانونية أو شرعية juridical، بينما كان يصنفها البعض الآخر على أنها تشاورية deliberative. استطاع كتاب العهد الجديد التعامل مع البراهين والأدلة والموضوعات التقليدية بالتغيير فى بعض

الأحيان وبالاستبدال فى أحيان أخرى، وأحيانا بالابتكار والإبداع سعيًا راء تعزيز وتوطيد أركان المجتمع الجديد ورموزه. ولعل السمات الغالبة التي يمكن أن نذكرها فى هذا السياق هي الإفراط فى استخدام المحسنات البديعية، والصور البلاغية، وندرة الأمثلة التاريخية، والاستخدام الملحوظ لقياس التمثيل analogy (المعتاد منه والغريب). كما يظهر الابتكار واضحًا فى التأكيد على أن عيسى عليه السلام هو المصدر أو المرجع من خلال الأدلة الخارجية سواءً كانت وثائق أو شهودًا عيانًا مثل ذكر بعض الاستشهادات من الكتاب المقدس، أو ذكر أسماء شهود العيان. وإذا ما تكلمنا عن أدلة استخدام الأساليب والوسائل الفنية فسوف نجد أن الإقناع الأخلاقي ethos هو السمة الغالبة أما المثير للعطف pathos فغالبًا ما يرتبط بعرض فكرة الثواب والعقاب. وحلت الاستشهادات الدينية على نطاق واسع محل الحجج العقلية. أما الحجج الاستقرائية inductive فتستخدم أمثلة من التاريخ اليهودي أو من الحياة اليومية أو من الطبيعة، كما يبدو واضحًا فى الحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي parables. أما الحجة الاستنباطية فتستخدم القياس الإضماري enthymeme كما يظهر جليًا فى كل المقاطع الواردة فى موعظة السيد المسيح على الجبل وتبدأ بكلمة "طوبى" beatitudes (متى، الإصحاح الثاني ٤٢ - ٤٨). كما تظهر نظرية الاستقصاء الرباعية stasis theory بكل مفرداتها، أو مسألة الحالة، فى كل أنماطها، وهذا هو الشأن مع كل الأنماط الشائعة للمواضع الجدلية، والأماكن لموضوع ما. كما يبرز العهد الجديد بعض التدريبات المدرسية العملية فى الابتكار، وتتجلى فى المثل المطابق للأسطورة mythos، والحكاية التي تحتوي على مقولة أو واقعة لشخصية معروفة chreia أو النادرة anecdote، والمقارنة، والتشخيص، ورسم الشخصيات، وتصوير الأماكن المفعمة بالحيوية (انظر الوصف Descriptio، والعقل Logos، والاستقصاء الرباعي stasis، والمواضع الجدلية Topics).

وقد حدد النقاد بعض الوحدات فى رسائل بولس - بدءًا بالفصل الكامل ووصولاً إلى الحرف - وقاموا بتحليلها، مع التركيز على استخدام الاستشهادات من الكتاب المقدس، والصيغة الرسائلية epistolary formulas، والجدل حول بعض الموضوعات، والطباق، والمبالغة، والأسئلة البلاغية (الأسئلة التي لا تنتظر ردًا عليها)، والأفكار المتعلقة بالتقليد، واختيار المفردات. وتتنوع الأدلة والبراهين حول التعليم البلاغي الذي تلقاه بولس، حيث إنه كان ملمًا باليونانية، ومطلعًا على قواعد وتقاليد كتابة الرسائل، فضلاً عن إشاراته للأدب الكلاسيكي. وإذا ما حللنا هذه الرسائل (المقروءة والمكتوبة) من وجهة نظر الاتصال والتواصل، فسوف نجد علاقة ديناميكية بين الكاتب والمتلقي، وهي حقيقة يؤكدها استمرار هذا الجمهور فى الطائفة الدينية المسيحية التي ينتمي إليها، بل وازدياد عدد أفراد هذه الطائفة بشكل مطرد.

وهذه العلاقة الديناميكية ترسي دعائم العقيدة المسيحية فى بعض المواقف الطائفية communal المحددة فى مقابل محاولات لاهوتية منتظمة ومنظمة لتحديد مفاهيم وتعاليم عامة. فالخطب التي قالها لوقا وذكرت فى Acts (وهو أحد كتب العهد الجديد الذي يصف تطور الكنيسة فى مراحلها الأولى بدءًا من صعود المسيح إلى السماء ووصولاً لإقامة بولس المؤقتة فى روما) كتبت بمهارة واضحة، وأدمجت أيضًا بمهارة داخل السياق القصصي؛ مما يضفي بعدًا دراميًا على محاولة تشكيل العقيدة المسيحية. وبعيدًا عن الأسلوب، وبعيدًا عن الحديث عن العقيدة، يمكننا أن نقول إن مفهوم الإيمان قد ارتبط على أسس دلالية وتاريخية، وتحليلية بمفهوم الإقناع، ويمكننا أن نقول إن النموذج الثلاثي المكون من الثقة، والتصديق، والمعرفة (في الإيمان) يماثل: الإقناعى الأخلاقي ethos، إثارة العواطف paths، والعقل logos.

التراث: من المسلم به أن النصوص الإنجيلية قد نفذت شفاهة فى طقس القربان المقدس، والعظات، والدروس الأخلاقية، والتعليم الديني الشفهي، والقراءات الخاصة. كما أن البلاغة شكلت وبقوة الكنيسة فى عصورها الأولى، بل حددت هويتها داخل بيئة من المعتقدات اليهودية أو الرومانية، وهذا ساعد فى نهاية الأمر على تشكيل إمبراطورية مسيحية a Christian empire. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أنه كانت توجد وجهة نظر سائدة بأن البلاغة تؤجج الطموح الشخصي للوصول للشهرة والنجاح، كما أنها لا علاقة لها بالجانب الأخلاقي، ولا حسن الخلق، كما يمكن استغلالها لتحقيق المنافع السياسية، وقد تؤدي بالمرء إلى الاعتداد برأيه بصرف النظر عن وجاهته، بل قد تدفعه إلى الكذب؛ ومن ثم فهي باختصار مصدر للهرطقة a source of heresy ولعل الاعتراض الديني الأساسي على البلاغة يكمن فى أنها تحتفي بالآلهة الوثنية pagan gods؛ ومن ثم فإن الفصل بين البلاغة والوثنية كان يبدو أمرًا عسيرًا؛ لأن آلهة الدولة الوثنية كانت جزءا من تلك النصوص التي تدرس فى المدارس. وانقسم المسيحيون انقسامًا شديدًا فى آرائهم فى البلاغة، فالبعض كان يأخذ عليها أنها مصدر للإغواء، والبعض الآخر كان يرى أنها تمنيهم بما يطمحون إليه. ومن ثم كان الطريق إلى البلاغة محفوفًا بالتوتر بين العداء للعلوم العلمانية من ناحية، والتعاطف مع هذه العلوم من ناحية أخرى. فمن الناحية النظرية كانت هذه العلوم العلمانية تلقى استنكارًا شديدًا، بينما من ناحية التطبيق كان الكثيرون يتعايشون معها. فالكابوس الشهير الذي تعرض له جيروم Jerome – وهو من قام بتحرير الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة من الكنيسة الكاثوليكية Vulgate Bible والذي وصمه بأنه أحد أتباع شيشرون Ciceronian – لم يمنع الكثير من المسيحيين من قراءة الأدب الوثني فى الخفاء. وبالتالي أصبحت البلاغة قدرًا مقدورًا، وخاصة فى وجود خطباء وجمهور يعرفون كنهها، وملمين بفنونها. ولم يستطع الكثير من علماء

اللاهوت الذين كانوا يعملون بالبلاغة (سواء كانوا مدرسين لها أو خطباء بها) الفرار من عاداتهم البلاغية التي اكتسبوها عبر السنين، حتى لو كانوا يرغبون فى ذلك بوعي.

توصل الجميع إلى حل وسط لا يبعث على الراحة وهو أن تعتنق البلاغة العقيدة المسيحية، بمعنى رفض أوثانها (أوثان البلاغة)، وقبول التساؤلات التي تطرحها. وقد شبه آباء الكنيسة هذه المواءمة بإقامة علاقة جنسية مع إحدى السبايا أو باستخلاص الترياق من السم، أو هي أشبه بمن يعد حقيبة سفر تصلح لكل الأغراض لاستخدامها فى رحلة تمتد طيلة العمر. وعلى الرغم من رفض الآباء اليونانيين Greek fathers للإطراء الخطابي المبالغ فيه، فإنهم كرسوا أنفسهم لجماليات اللغة التي كانوا يستخدمونها، واستحدثوا أسلوبًا سوفسطائيًا لهم وقاموا بصقله. فعلى سبيل المثال وصف جريجوري النازيانوسي Gregory of Nazianzus (٣٣٠ م تقريبا – ٣٨٩ م) الشيطان بأنه سوفسطائي، ومع ذلك كان يتبع القواعد السوفسطائية لما فيها من لباقة، وما تتسم به من بنية، وأفكار وموضوعات دالة motifs. (انظر السوفسطائيين Sophists).

ويعد ترتوليان Tertullian (١٥٥ م تقريبا – ٢٢٠ م تقريبا) أول من كتب باللغة اللاتينية دفاعًا عن هذا التوجه، فعلى الرغم مما أبداه من اعتراض من الناحية النظرية، وملخصًا هذا فى شعار يتلخص فى تشبيه الفرق بين الثقافة الكلاسيكية والعقيدة المسيحية، بالفرق بين أثينا وبيت المقدس، فإنه من الناحية العملية كان من الذين استخدموا الثقافة الكلاسيكية ودمجوها بالعقيدة المسيحية. فقد كان يستخدم الإبداع invention فى الحجج التي يسوقها، وكان يطور منها بشكل جدلي، كما أن التفسير أو التأويل الذي يعرضه كان فى جوهره تفسيرًا أو تأويلاً يعتمد فى المقام الأول على السياق

contextual. (انظر النظم والترتيب Arrangement وخاصة المقال المتعلق بالترتيب التقليدي Traditional Arrangement، والإبداع Invention، والأسلوب Style). وأصبحت الازدواجية والتضارب هما أهم ما يميز مستقبل البلاغة المتذبذب، فالتقوى التي يعبر عنها بشكل أفضل بالبساطة الإنجيلية الخالية من الزخارف اللفظية، أصبحت يعبر عنها بأسلوب تغلب عليه الفصاحة. ولم يكن هناك تبرير واضح لذلك التأثير أو التبادل الثقافي، وإنما كان هناك نقل واضح للعادات الوثنية داخل منظومة القيم المسيحية، وأصبحت المتعة التي يستمدها الإنسان من البلاغة تصنف تحت الإطراء أو المديح الديني.

ويعد أوغسطين Augustine (٣٥٤ م – ٤٣٠ م) من أكثر الكتاب الذين ظهروا في عصر الآباء الأوائل للكنيسة ونالوا إعجاب الناس وتقديرهم، وذلك لمساهمته المثمرة المتمثلة في كتاب **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana**، والذي وضع أسسًا منطقية بلاغية للوعظ. ولكن الدور الذي لعبه هذا الكتاب يتعدى هذا بكثير؛ فقد رسم هذا الكتاب ملامح الأسلوب الذي يجب أن يستخدمه رجال الدين عند مخاطبة سواد الناس. ولكن التحيز الأعمى للمذهب العقلاني دفع بأوغسطين إلى أن يهبط بأسلوب الكتاب المقدس – الذي وصفه أنه جاف – إلى مستوى الكلام المقدس الموجه للأطفال divine baby talk. كما كان يرى أن لغة المجاز – حتى الدينية منها – هي عبارة عن خيال دنيوي غير روحاني carnal، وهذا الخيال أميل ما يكون إلى الخداع، ولايمكنه إلا أن يكون مشابها للحقيقة. وفي معارضته لأسلوب الحكاية وللعقيدة، قال إنه حتى المسيح كان يظن به، وهو يضرب الأمثال، أنه غير صادق. وقد تخلى أوغسطين عن معرفته بالأساطير الوثنية، ولكنه أخطأ في استخدام الآلهة الوثنية في الكلام عن الخطيئة، فظهر زيوس – كبير الآلهة – على أنه هو مصدر الإغواء، وهذا خلط بين المجاز

والحقيقة. وفي سياق آخر يستخدم أوغسطين لغة تزخر بالإيحاءات الجنسية للربط بين القصص الخيالي fiction والزنا fornication، ومن ثم تراجعت الخطيئة ونكصت على عقبيها في وجه القيمة الثقافية للبلاغة التي استخدمت لخدمة ضرورة اجتماعية social necessity.

ولا شك أن ما قاله أو فعله أوغسطين قد رفع من شأن هذا التوجه أو الميل لاستخدام البلاغة ليس كرغبة ملحة أو شهوة مسيطرة concupiscence، ولكن من أجل الخير charity عن طريق التقاط الحقائق أو إرهاصاتها من فيضان البلاغة المتدفق. ومن ثم أصبحت المهمة اللاهوتية تتلخص في تطويع الكتاب المقدس بترجمة الأخيلة البلاغية إلى أفكار فلسفية. ولكن الحل السيئ السمعة والمثير للجدل لمعضلة الشك أو الكفر لم يكن مبنيًا على اقتناع أوغستين البلاغي، وإنما كان نتيجة لنوع من القسر أو القمع السياسي. ففي أعمق أعماقه كان أوغسطين عدوًا لدودًا للبلاغة. وقام أوغسطين باستبدال القاعدة أو المعيار المستمد من الكتاب المقدس بمثل أعلى يقوم على التأمل المثالي contemplative ideal، واستبدال الأعراف اللغوية الزائلة والمؤقتة بعهد أو ميثاق عقلي دائم، وأخيرا استبدل تعددية الكلمات بوحدة الحقيقة. فالبلاغة هي في جوهرها تلطيف وإعلاء للجسد، بمعنى أنها تحفز الإنسان أن ينسى ما هو جسدي وينشغل بما هو روحاني. والاستعارة التي تستخدمها البلاغة للتعبير عن نفسها تشبهها بالأنثى أو الأم التي ترضع أولادها، كما أن التأمل يشبه الذكر أو الرجل، كما أن القواعد أو المبادئ التي أرساها شيشرون أشبه بالدمية التي تقدمها هذه الأم لأبنائها. وأدى هذا بطبيعة الأحوال إلى أن يحيط التأمل بالحقيقة ويقبض عليها، وأن يرتقي الكلام إلى كلمة تعلو كل الكلمات: تعلو إلى الصمت.

وقد مهد ذلك الخضوع الذي حدث للبلاغة لهيمنة الفلسفة على يد أوغسطين إلى تلك التبعية التي حدثت للبلاغة المدرسية (الإسكولستية) التي سادت العصور الوسطى. وبينما استخدمت البلاغة فى علم التفسير كدراسة أولية، كان المنطق ينظم علم اللاهوت فى شكل علمي شامل أحادي المعنى ويقوم على المجردات abstractions. وبينما كان علم اللاهوت أحد العلوم الأساسية التي تدرس فى الجامعات، لم يكن للبلاغة هذه المكانة الأكاديمية. ومن ثم فإذا كانت البلاغة قد تم تهميشها دينيًا، فإنه تم إدخال بعض التعديلات عليها لتناسب بعض الأنواع الأدبية المميزة التي سادت فى العصور الوسطى ونقصد بها فن كتابة الرسائل، وفن الوعظ. ويعد فن تطبيق البلاغة الشيشرونية على كتابة الرسائل من ابتكار الرهبان، وقد ازدهر هذا الفن بشكل كبير داخل الأديرة ودور المحفوظات المتعلقة بالمعاملات الكنسية الرسمية. وجاءت رسائل البابا على رأس قائمة الرسائل النموذجية فى كل الكتيبات المتخصصة التي صدرت، بينما تم تجاهل الرسائل التي وردت فى العهد القديم بشكل كامل. كما كان للموضوعات الأخلاقية اليد العليا فى الرسائل غير الرسمية familiar letters. وكان المسيح عليه السلام هو المثال الأسمى الذي اعتمد عليه فن الوعظ، ولكن هذا الفن لم يتطور من الناحية التكميلية إلا فى كتاب **حقيقة العقيدة المسيحية**، وذلك قبل ظهور الكثير من الرسائل والأبحاث المتخصصة فى القرن الثالث عشر. وقد أضاف فن الوعظ الذي كتب له الشيوع والانتشار للأدلة المأخوذة من الكتاب المقدس عدة أشياء مثل فن البلاغة، والمسارد، والأمثلة، والمواد الببليوجرافية المساعدة، فضلا عن بعض المقتطفات من أشهر العظات والخطب الدينية. أما الأنواع الأدبية الأخرى التي كانت موجودة فى تلك الفترة فكانت تضم الطقوس الدينية والترانيم، وخطب المجامع والمجالس الكنسية، والكتيبات الدعوية (التي كانت تجمع الرسائل التي يوجهها الأسقف إلى أبناء أبرشيته)، والرسائل التعبدية، والتعليقات التي كتبت عن الكتاب المقدس، والتاريخ الكنسي، وسير القديسين.

أما فيما يتعلق بعلم اللاهوت فقد ختم نيكولاس الكوسي Nicolas of Cusa (١٤٠١ - ١٤٦٤) منطقه الرياضي والمجازي الذي ورد فى كتاب **حقيقة الجهل العلمي** De docta ignorantia بحجة ودليل أن المسيح عليه السلام يمثل مفهوم المفاهيم the concept of concepts. وألف الكوسي هذا الكتاب مستخدما البلاغة التشاورية deliberative rhetoric، والتي تقطعها نوبات عاطفية من التوضيح والتفسير (انظر الاستعراض العام البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric). ويعد الإبداع الاستثنائي الذي أتى به دانتي Dante (١٢٦٥ - ١٣٢١) ممثلا فى مفهوم الشاعر بما هو لاهوتي the poet as theologian نقطة مفصلية فى تطور البلاغة الدينية. حيث كان يوجد هناك تقليد كلاسيكي يرى الشاعر كرسول للآلهة أو كاهن لربات الشعر Muses. وخوفا من هذا النوع من الإلهام، وخجلاً من الروح القدس، توقف المسيحيون فى عهود المسيحية الأولى عند مرتبة المتشاعر أو الشويعر poetaster. وهذا ما جعل دانتي يظهر شخصية بياتريس Beatrice فى كتابه **الكوميديا (الإلهية)** **Commedia** (١٣١٠م تقريبا -١٣٢١ م) فى هيئة بالكاد تكون شفافة. وقد ركزت الأبحاث على تصنيف عقيدة دانتي اللاهوتية، وتجاهلت اكتشاف أسلوبه اللاهوتي فى عرض أفكاره. ولكن نية دانتي فى الإعلان عن فن جديد له صوت جديد يمكن تتبعها فى بعض التفاصيل التي وردت فى كتابه **الفردوس Paradiso**، وهنا يبرز تفوق دانتي على كل من توماس الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥م تقريبا - ١٢٧٤م) بأسلوبه الغامض، وبرنارد كليرفو Bernard of Clairvaux (١٠٩٠ - ١١٥٣) بنصائحه الروحانية. وقد عرف دانتي الشعر فى **بلاغة اللغة المحلية De vulgare eloquentia** (١٣٠٤ - ١٣٠٥) بأنه ابتكار بلاغي ملحن موسيقيًا. أما بيترارك Petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤) فقد ارتدى عباءة الشاعر ويظهر هذا واضحًا حينما يتحدث عن مفهوم العبقرية على أنها هبة من الله، وهي تتجلى فى أسمى صورها فى ذلك الجمع أو الدمج بين المسيح عليه السلامChrist وأبولو Apollo.

وقد حاول بيترارك ارتداء عباءة من يدفعه نداء ديني داخلي إلى إثارة الحماسة الوطنية كما يظهر في ملحمته **أفريقيا** **Africa** (١٣٩٦)، وكان هدفه من هذا هو نقل البابوية من مرحلة الأسر البابلي إلى (مرحلة) روما. وعلى الرغم من أن هذه المحاولة فشلت سياسيًا فإن عمله المسمى **كتاب الأغاني** **Canzionere**، والذي كتب باللغة المحلية (١٣٦٠ - ١٣٧٥) يكشف عن موهبة تجرأت على تحدي الزهد والتقشف عن طريق نظم الشعر في مواجهة النمط الأوغسطيني ضئيل القيمة. ولكن هذا التراث اكتملت فرائد عقده في العمل الراقي الذي كتبه خوان دي لا كروز Juan de la Cruz تحت عنوان **النشيد الروحي** **Cántico espiritual** والذي نجد فيه تسبيحًا وتمجيدًا لذلك الاتحاد الوجودي بين الروح ولله في البحث عن الجمال المثير للشهوة. وقد وصف كروز تأليف هذا الكتاب بأنه ليس عرضا أو شرحا عقليا، بل هو دفقة مجازية للتعبير عن خبرة أو تجربة روحانية خفية المعنى. وهذه الخبرة أو التجربة غيرت وبشكل جذري مفهوم الإنسان لمغزى ما هو شائع بلاغيًا على أنه مقدس. ومن ثم فيمكننا أن نقول إن ترتيلة كروز قد صاغت في قالب شعريِ الفهم المقدس النادر للإنسان، وهذا يعني أن البلاغة تخطت مرحلة الإقناع إلى الإلهام والوحي في فن كان يتميز بأنه مرجعية مقدسة للإلهام. أما جون ميلتون John Milton فقد حاول في ملحمته **الفردوس المفقود** **Paradise Lost** (١٦٦٧ - ١٦٧٤) تبرير الأفعال الإلهية للإنسان عن طريق ملحمة إنجيلية مهجنة وهي الأخرى تمثل قفزة نوعية تخطت الحدود الشعرية إلى الأصقاع التي يسيطر عليها علم اللاهوت.

أما علم اللغة التاريخي والمقارن Philology - وهو المختص بدراسة الحركة الإنسانية في عصر النهضة - فقد أرسى دعائم النظرية المسيحية للبلاغة. وقام إرازموس Erasmus (١٤٦٦م تقريبا - ١٥٣٦) - وهو من حرر أول نسخة يونانية للعهد الجديد (١٥١٦ - ١٥١٩) - بتصحيح أخطاء

الترجمة التي وردت في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية Vulgate. فمثلاً الآية التي تقول " في البدء كانت الكلمة Word (verbum) " غيرها إرازموس إلى " في البدء كان الكلام أو الخطبة Speech (sermo) "، بناءً على حجج تستند إلى علم فقه اللغة التاريخي والمقارن، والأدلة التاريخية، وممارسة الطقوس الدينية. وقد أورد إرازموس كلمة Sermo على الرغم من تفضيله كلمة أخرى وهي oratio؛ لأن هذه الكلمة مؤنثة وهو ما يمنع ورودها في سياق واحد مع السيد المسيح عليه السلام. وقد رأى إرازموس أن كلمة Speech هي الاختيار الأمثل لأن الأب Father المحيط بكل شيء يفصح عن نفسه من خلال الابن Son كما يفصح الخطيب أو المتحدث عن نفسه من خلال الخطبة أو الكلام، وهذا الخطاب الإلهي انعكس في خلق البشر وفي قدرتهم في تقليد ذلك الوحي أو الإلهام عن طريق الكلام. وهذا يعني أن الخطاب البشري يكشف عن صورة مقدسة تكمن في تلك الرابطة البنيوية، بمعنى أن الخطاب أو الكلام الخالد للإله تجلى في الخطاب المؤقت للبشر وهذا يعد علامة على الفهم، وانعكاسا للشخصية، ودليلا على الفضيلة.

وفي كتابه **أسس الأسلوب المتنوع De Copia** يتخيل إرازموس مجتمعًا يشكله ويرسم ملامحه الكتاب المقدس، وهذا المجتمع قد أعيد تشكيله ويتعلم فيه الناس البلاغة، ويتعاملون طبقًا لمبادئها. وتخلى علم اللاهوت عن طابعه في مخاطبة الصفوة والمتخصصين، وأصبح يخاطب الجميع بلغتهم العادية، وهو ما يتصادف ويتطابق مع معنى Sermo. بل أصبحت اللباقة والأسلوب الخطابي الحكيم يغلب على علم اللاهوت عند الحديث عن التحول الشخصي أو الاجتماعي (والمقصود بالتحول هنا هو الهداية)، كما أن مصدر مادته الكلامية هو السيد المسيح عليه السلام، وأصبح الأسلوب الذي يتبعه يقوم على مخاطبة الميول والأمزجة أكثر من القياس المنطقي، وأصبحت الحياة

لها قيمتها وتقديرها أكثر من الجدل، وأصبح للإلهام مكانة أكبر من سعة الاطلاع والتبحر فى العلم، وأصبح للتحول مكانة أكبر من المنطق.

وكان لتغيير إرازموس كلمة speech بكلمة word دلالة كبيرة، بمعنى أن كلام الله المقدس لم يكن مجرد كلمة معزولة عن أي سياق، بل هو كلام كامل complete speech موجه لجمهور، ومن أراد تقليده فعليه أن يوفق ما بين العلاقات الفردية وبين الاتفاق الجماعي. (انظر **الأسلوب المتنوع** Copia).

ذاع صيت ذلك الصراع الديني الذي كان قائمًا بين البلاغة من ناحية، والنحو والمنطق من ناحية أخرى، عن طريق ذلك النزاع الذي نشب بين إرازموس ولوثر حول حرية الاختيار فيما يتعلق بالنعمة الإلهية grace. ولم يجد إرازموس الإجماع المطلوب حول قضية غموض وعدم وضوح الكتاب المقدس؛ مما دفعه لمناقشة هذه القضية الخلافية فى كتابه **حرية الإرادة De libero arbitrio** (صدر عام ١٥٢٤)، حيث عقد فى هذا الكتاب مقارنة تفسيرية تقوم على نظرية المعرفة الشكية skeptic epistemology، بمعنى مناقشة الرأيين من أجل الوصول إلى رأي يحتمل صوابه فى النهاية. وقد حاول إرازموس تهدئة الأمور فى بداية مناظرته عن طريق تحييد كل الأسلحة التي كانت تستخدم لتأجيج العداء ضد البلاغة. أما لوثر فقد كان رأيه قويًا فى استخدمه للجنس الأدبي القانوني (١٥٢٥) للتأكيد على وضوح الكتاب المقدس، بل مهاجمة البلاغة وملاحقتها. وقد بنى لوثر حجته على نظرية المعرفة الرواقية stoic epistemology، والتي عرفت بدورها معيار الحقيقة على أنه انطباع قوي يدرك القصد أو الدافع بيقين حقيقي فعلي. والكتاب المقدس يجبر على هذه الموافقة أو التصديق ويضمنها. وكانت ثقافة لوثر فى جوهرها ثقافة نحوية؛ وهو ما أدى إلى عدم تأويل مضاد للكتاب المقدس وإلى منطق واضح وأحادي المعنى للإسناد النحوي يكفله ويصونه

إله الضرورة المطلقة. على الجانب الآخر كانت ثقافة إرازموس بلاغية بشكل واضح ترى علم تأويل الكتاب المقدس، وتنادي بمنطق قابل للتفسير وإسناد ثنائي المعنى المتمثل فى غموض ما قاله السيد المسيح مفتقدا إلى الرزانة. وبدأت تظهر فى الأفق تلك الاستعارة الكلاسيكية التي تصور المنطق كقبضة اليد المطبقة فى مقابل البلاغة التي تصور كراحة اليد المفتوحة. ومن ثم كان هناك الاختيار التاريخي بين الكلمة الجازمة (و نقصد هنا المنطق) فى مقابل عقلانية الخطاب الإقناعي.

وفي إنجيل لوثر (الذي صدر عام ١٥٣٤) حلت كلمة Wort (كلمة) مكان الكلمة التي اقترحها إرازموس sermo والتي تعني الكلام (أو الخطبة)، ولكن هذه الكلمة بقيت - بموافقة جون كالفين John Calvin - فى تلك الترجمة التي قام بها تيودور البيزي Bèze' Théodore de، والتي قام بها أيضا ميلتون فى كتابه **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana** (الذي كتب فى عام ١٦٥٠ تقريبا وطبع لأول مرة فى عام ١٨٢٥). وعلى الرغم من أن كتب المقررات الدراسية تصف إنجاز جون كالفين بأن يتمثل فى علم اللاهوت المتسق systematic theology فإن كتابه **مبادئ الدين المسيحي Institutio christianae religionis** (١٥٣٦،١٥٥٦) ينحو نحوا بلاغيا يخدم مؤسسة الكنيسة باعتباره المصطلح القانوني لميراثها، أي لدخول كل المؤمنين فى بنوة السيد المسيح عليه السلام. ولا شك أن إعادة صياغة علم اللاهوت بناء على القانون المدني الروماني للملكية قد أساء إلى المثل الأعلى التأملي الذي قال به أوغسطين، الذي كان يقوم فى جوهره على علم نفس ملكات النفس facultative psychology. وعلى الرغم من أن كالفين كان معروفًا بمساهمته فى رقي الأسلوب الفرنسي، فإن تحالفه اللاهوتي مع كل من البلاغة والقانون كان فى بداياته. واختتم إرازموس حركته الإصلاحية بكتاب **حقيقة فن الوعظ** Ecclesiastes (الذي صدر فى عام ١٥٣٥) وهو أول

مرجع شامل فى البلاغة منذ أحقاب بعيدة، وأول كتاب يكتب على الإطلاق عن الوعظ. ويبشر موضوع هذا الكتاب بصعود النظرية إلى المنبر فى القرون التالية لهذا القرن، على الرغم من أن ممارسة البلاغة الدينية فى الأنواع (الأدبية) الأخرى لم تكن قد عرف مداها بعد.

ساعد مذهب الشك المنسوب للفيلسوف والرياضي الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فى إرساء دعائم المذهب العقلي والذي كان له دور بارز فى مجال العقيدة فى العصر الحديث. ولا شك أن التفكير والتساؤل العقلي هما اللذان قادا ديكارت إلى القول بأن الله هو الضامن لليقين المطلق. وقد طرح المذهب العقلي البلاغة جانبًا لإقرارها بوجود مبدأ الاحتمالية والصدفة والذى يعد تهديدًا مباشرًا لفكرة اليقين. ويعد جيامباتستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) من الذين أيدوا البلاغة وناصروها. ولكن على الرغم من أنه عزا البنية اللغوية الخيالية للواقع إلى الأساطير، فإنه لم يتطرق إلى فكرة الدين على الإطلاق. ولكن يوجد الكثير من الفلاسفة الذين تطرقوا لفكرة الدين ومنهم جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤)، وجورج بيركلي George Berkeley (١٦٨٥ - ١٧٥٣)، وديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦)، وإيمانويل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، وكلهم أعلوا من شأن المذهب التجريبي عند مقارنته بالإحساس الجماهيري وحكمة الأسلوب البلاغي. وقد وصمت البلاغة بالخداع والميل إلى الخطأ بسبب طبيعتها الذاتية subjectivity التي تغلب عليها؛ وبالتالي اعتبروها أحد أسباب الضلال التي يجب استبعادها. وفي القرن التاسع عشر خرج علينا جون هنري نيومان John Henry Newman (١٨٠١ - ١٨٩٠) بمحاولة لدفع البلاغة إلى غايات أخرى استقرائية ومعرفية، وغايات متحولة، مقترحا استدلالا غير صوري للتدليل على الاختيار السلوكي والعملي المعين.

القضايا المعاصرة: حدث تطور فى المذهب العقلاني فى القرن العشرين جعله يضع اللغة القضية الرئيسية لفلسفة الدين. فمن المعروف أن علم اللاهوت التقليدي كان يركز على الطبيعة والقضاء والقدر، إلا أن هذا تغير فى العصر الحديث إلى البحث فى قضية وجود الله؛ والذي أدى بدوره إلى الحديث عن اللغة المستخدمة فى الحديث عن الله سبحانه وتعالى. ولا شك أن وجود تراث فى الكنائس والطقوس الشرقية المتعلقة بعلم لاهوت سلبي، ووجود طريقة عقلية سلبية فى الكنائس الغربية قد قضيا على جزء كبير من الخطاب التمثيلي الأساسي basic analogical discourse. وعلى الرغم من ذلك لم تكرر الفلسفة الجديدة الحقيقة القديمة والتي كان مؤداها أن الكلام عن الذات الإلهية أقدس من أن ينطق به، ولكنها أصلت للغة للحديث عن الله فى مقام يتجاوز المعقولية اللاهوتية فى البحث عن حقيقة الإيمان، وبالتالي أصبحت القضية المعاصرة هي العلاقة بين اللغة وواقع أطلق عليه كلام الله.

ولكن الشك فى قدرة اللغة على وصف الخبرات قد أثاره أصلا فى القرن التاسع عشر كل من كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) من وجهة النظر السياسية وسيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) من وجهة نظر التحليل النفسي. وكلاهما أكد على تشويه اللغة للواقع من خلال التخفي والتنكر من ناحية وعقلنة الأمور من ناحية أخرى، وكلاهما تحدى مصداقية اللغة الدينية. أما النقد الحاسم والقاطع فقد انبثق فلسفيًا فى القرن العشرين من الفلسفة الوضعية المنطقية التي كانت تهدف إلى توضيح الخطاب الفلسفي نفسه؛ وبالتالي انتقلت القضية من حقيقة الادعاءات الدينية إلى معناها. وقد افترض إيه جي آير A.J.Ayer فى كتابه **اللغة والحقيقة والمنطق Language Truth and Logic**، (صدر فى لندن عام ١٩٣٦) وجود مبدأ للتحقق والإثبات للتمييز بين التأكيدات ذات المعنى، وتلك التي لا معنى لها. فالشيء الذي له معنى هو ذلك الشيء الذي يمكن البرهنة على أنه

صادق أو كاذب. والمعايير هنا هي تحصيل الحاصل tautologies والحقائق التجريبية. وقد فشلت اللغة الدينية فى أن تثبت صحتها، ومن ثم قوبلت بالرفض لأنها – كما نسب إلى أصحاب هذا الفكر – بلا معنى meaningless. أما فلسفة الدين واللاهوت الفلسفي فقد انشغلا بمهمة البرهنة على أن كلام الله يلتقي مع معيار المعنى، وقد قيل إن هذا المعيار(وهو المعنى) يبدو واضحًا فى الصلات الشخصية للمؤمنين بالله فى الخبرة الصوفية، أو حتى فى الدار الآخرة. ويجب أن نشير إلى أن البعض قد تحدى تلك المكانة التي كان يحظى بها مبدأ الإثبات والتحقق. وقد حل موقع المعنى فى الجملة الوظيفية عند لودفيج فيتجينشتاين Ludwig Wittgenstein، وليس فى الكلمة الإشارية، محل التحقق. وعلى الرغم من أنه أعلن فى كتابه رسالة **منطقية فلسفية** **Tractatus logico - philosophicus** (صدر فى لندن عام ١٩٢٢) أنه لم يجد شيئا ذا معنى متعلق بالله، فإنه تحديده لهوية الألعاب اللغوية language games التي قال بها فيما بعد قد أوجد مفهومًا اكتشفه بعد ذلك المدافعون عن الدين. ولا شك أن اللغة أصبحت مشكلة مطروقة فى الفكر المعاصر. وحاول المدافعون عن الدين الدفاع باستماتة بالقول بأن هناك وظيفة للغة الدينية واللاهوتية، بمعنى أنها هي الأخرى عبارة عن إحدى الألعاب اللغوية. وكان هناك العديد من الاقتراحات التي كانت ترى أن اللغة الدينية تتطابق مع اللغة الأخلاقية (وهو اتجاه موجود منذ أيام كانط)، أو أن هذه اللغة تتسم بالغرابة والغموض وهما ما يميزان الكثير من جوانب الحياة اليومية. وقد ألهمت نظرية الأفعال الأدائية performatives التي قال بها إيه. إل. أوستين A. L. Austin فى كتابه **أداء الأفعال بالكلام** **How to Do Things with Words** (صدر فى أكسفورد عام ١٩٥٥) العديد من التفسيرات الخاصة باللغة الدينية والتي ترى أن اللغة الدينية هي لغة فعالة وناشطة active وخاصة فى الصيغ المتعلقة بأداء المناسك والطقوس. وقد طبقت نظرية الفعل الكلامي theory of speech action

على كلام الله نفسه؛ لإثبات أن كلام الله متسق يخلو من التناقض coherent ويخلو من البهتان والزيف falsehood (انظر الأفعال الكلامية Speech acts).

وقد ربطت بعض النظريات الأخرى بين اللغة الدينية والخبرة العادية عن طريق تحديد بعض النظائر الدنيوية لما هو متعال وسري، وقد أدى الحديث عما هو مطلق ومقدس فى الخبرة العادية للممكن والنسبي إلى الإعلان أن اللغة الدينية هي فى جوهرها لغة رمزية Symbolic. وطرحت أمثلة عديدة تتعلق بخبرات العجز والقصور، والثقة، والنمو والتطور، والرغبة فى النظام، وتحديد ماهية الدعابة والحبور، والإحساس بوجود الأمل، والحنق الأخلاقي والشجاعة، والإبداع والحرية، والإحساس بالذنب، والقبول. وكان يوجد فريق آخر يرى أن المعنى يجب أن يناقش داخل النص نفسه، بمعنى عدم الخروج بالمعنى من النص إلى الواقع وخبرات الحياة، وبالتالي فإن معنى كلمة الله يشكله ويتحكم فيه كيفة استخدام هذه الكلمة داخل دين ما لتشكيل الواقع وخبرات الحياة. أما مؤيدو الحركة النسوية feminists فقد ركزوا اهتمامهم على فكرة النوع gender، ورأى بعضهم وجود لغة شاملة تكرم الخبرة الأنثوية للذات الإلهية، والبعض الآخر أعلن أن ماهية النوع الإلهي ليست ذات أهمية؛ لأن اللغة الدينية لا تشير إلى الذات الإلهية ولكن للمثل العليا والقيم الإنسانية. واقترح علماء اللاهوت أن النساء يستطعن اكتشاف المثل العليا الخاصة بهم والقيم من خلال دراسة الإلهات goddesses.

ورأت بعض الاتجاهات الأخرى ضرورة الفصل بين علم اللاهوت والفلسفة، فعلم اللاهوت يقول كلاما لا معنى له؛ لأنه يتكلم عما لا يمكن التكلم عنه the unspeakable، ومن ثم لا يمكن اختزاله لتدرسه الفلسفة. وهناك اتجاه آخر يرى أن البلاغة هي اللغة الأصلية له. فهي لغة النبوة ولغة

الوحي، كما يبدو جليًا في لغتها المجازية، ومن ثم فهي الأساس الذي يقوم عليه الكلام المبني على العقل والحجة. ويوجد رأي آخر وثيق الصلة بهذا الموضوع يرى أن اللغة التعبدية devotional language لا تتطلب أي تبرير فلسفي؛ لأنها موجودة قبل وجود اللغة العقلانية (منذ أيام الأساطير والآلهة). وكان هناك تأكيد يقر بأن اللغة تبني وتخلق علاقة مع الواقع، وهذه العلاقة ليست علاقة دلالية semantic، بل تركيبية syntactic؛ لأنها تمنح الفكر وسيلة اتصال اجتماعية وثقافية. وبالتالي تطلبت هذه البنية اللغوية للواقع من علم اللاهوت أن يبني أو ينشئ معناه الخاص به لهذا التأمل في شكل تعبيري شعري لهذا الخلق بما يتناسب مع جلال الذات الإلهية. لكن كان هناك رد فعل مختلف في مواجهة هذا الاتجاه العقلاني يرى أن الكلام عن الله سبحانه وتعالى لا يؤكد على حقائق ولا قيم بعينها، ولكنه يعبر عن الذات الإلهية باستعارات لا يمكن اختزالها.

كانت توجد استجابة كبيرة للفلسفة الوضعية المنطقية تمثلت في الاتجاه الميتافيزيقي الذي نادى به الفيلسوف وعالم الرياضيات ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead (١٨٦١ - ١٩٤٧). وكان وايتهيد يرى أن اللغة - بما أنها تعتمد على الإدراك والقياس والصور المتخيلة - لها بعد ميتافيزيقي؛ ومن ثم فإن هذا البعد للخطاب الديني لا يمثل أي مشكلة على الإطلاق. فهذا البعد الديني تشكل في شكل خبرة أساسية سابقة على الوجود اللغوي، ثم قامت اللغة بإعطاء ماهية وكيان لهذا البعد الديني من خلال وسائل بديهية وشارحة تقوم على ذكر الأمثلة المختلفة. ويقوم هذا البعد على الخبرة والقوة العاطفية وليس السلطة، وهذا أعطى مجالاً للنظر إلى الإيمان على أنه نوع من المعرفة. وعلى الرغم من وجود بعض الاهتمام بآراء وايتهيد فيما يتعلق باللغة الدينية، فإن مساهمته لتطوير البلاغة الدينية لم تلق إلا الإهمال والتجاهل. وتتمثل مساهمته في الإيمان بأن الله هو إله الإقناع (إقناع المؤمنين

بماهية الإيمان). وبالتالي لم يكن من قبيل المصادفة أن يعلن وايتهيد أن أعظم عالمين فى تاريخ اللاهوت هما اثنان من علماء البلاغة ونقصد بهما أوريجون Origen (١٨٥ م تقريبا - ٢٥٤ م تقريبا) وإرازموس.

وقد بشر التحدي والاعتراض الذي واجهه كل من المذهب العقلي والمذهب التجريبي فى القرن العشرين بحدوث إحياء للبلاغة. وقد انحرف كتاب **البلاغة الجديدة The New Rhetoric** الذي كتبه كل من تشيم بيريلمان Chaim Perelman ولوسي ألبريتشت تيتكا Lucie Olbrechts - Tyteca (ونشر لأول مرة فى نوتردام عام ١٩٥٨) عن التراث الديكارتي عن طريق إحياء الأدلة الجدلية الأرسطية المستخدمة فى التشاور والتداول. وارتبط اكتشاف بيريلمان البديل للتراث البلاغي بإعادة إحياء الهوية اليهودية عقب معاداة السامية التي واكبت الحرب العالمية الثانية. وتعكس البلاغة التي نادى بها تراثه الديني عن العادات التلمودية المستخدمة فى الجدل والمناظرة كوسيلة أو وسيط بين الميتافيزيقيا التي انتشرت فى عصر التنوير وحركة ما بعد الحداثة المتطرفة. ويوجد اسم آخر كبير طرح نفسه كأحد المنظرين للبلاغة ونقصد به كينيث بيرك Kenneth Burke (١٨٩٧ - ١٩٩٣)، وهو الذي عرّف الإنسان بأنه حيوان مستخدم للرموز symbol - using animal، كما استخدم اللغة الدينية – وهي وسيلة إقناعية للقيام بفعل – كوسيلة مساعدة لكشف كنه اللغة نفسها. وقد فسر كتاب **بلاغة الدين The Rhetoric of Religion** (صدر فى بوسطن عام ١٩٦١) الفعل اللفظي verbal action فى كتاب **الاعترافات Confessions** لأوغسطين، ونظم المفاهيم الموجودة فى سفر التكوين فى شكل نماذج إرشادية Paradigms من أجل فصل ذلك التقسيم الثنائي العلماني/الديني. ولكن المماثلة التي ساقها الكتاب بين الكلمات words والكلمة Word (ويقصد بها كلمة الله) قامت على ترجمة خاطئة لكلمة verbum، كما أن فرضية وجود عالم يعلو على الطبيعي ويفوقه supernatural مشابه للعالم الطبيعي قد إلى سوء فهم المصطلح

اللاهوتي: ما يعلو على الطبيعي ويفوقه، باعتباره حالة أو ظرف، بينما هو حالة من حالات الفعل، وعلاوة على ذلك فإن مصطلح الفائق للطبيعي هو مصطلح سكولاستئي ولكنه يحتوي على مفارقة تاريخية anachronistic فيما يتعلق بالنصوص الإنجيلية وتلك المتعلقة بعصر آباء الكنيسة الأوائل، وهي النصوص التي فسرها بيرك. ومن ثم فإن المجهود الكبير الأولي الذي بذل لصياغة المفاهيم كان فى حقيقة الأمر نوعا من النقد الأدبي الذي عابه بشكل كبير قلة المعرفة اللاهوتية.

وساعدت صعوبة الحصول على قدر أساسي من المعرفة بالبلاغة والدين فى بدايات التعاون الجديد بينهما فى أواخر القرن العشرين على وصف هذا التعاون بأنه مؤقت، لكنه واعد فى الوقت نفسه. كما أن النقد البلاغي لبعض النصوص الدينية المحددة كان أكثر استنارة من ذلك التنظير العام لبلاغة الدين. ففي مجال الدراسات الدينية كان هناك اعتراف فقط بتفسير الأدب الإنجيلي وذلك الأدب المتعلق بعصر آباء الكنيسة الأوائل. وعلى الجانب الآخر فإن المنهج الدراسي الذي يتناول علم اللاهوت أو تاريخ الكنيسة كان يتناول العقيدة والمؤسسة وليس الأسلوب. كما أن هذا المنهج الدراسي كان يتجاوز فترة عصر النهضة ولا يذكرها، ومن ثم يلغي الإنجازات الرئيسية التي حققها التراث البلاغي المسيحي. ومما يضاعف هذا التجاهل ويزيد منه سوء وضع النزعة التاريخانية historicity (كون الشيء تاريخيا وليس أسطوريا) فى العصر الحديث، بينما كانت هذه التاريخانية فى واقع الأمر أحد ابتكارات الحركة الإنسانية التي ازدهرت فى عصر النهضة، ومن ثم يصبح النقاش برمته موجها فى غير الاتجاه الصحيح. وعلى الرغم من أن تاريخانية البلاغة أصبحت نظريًا من الأمور المثارة فإن الجهل بتاريخ البلاغة هو أمر ظاهر فى الواقع. وكانت النتيجة هي تلك الصورة الكاريكاتورية الفجة التي صورت البلاغة على مدى ألف وخمسمائة عام منذ

أوغسطين وحتى بيريلمان على أنها وسيلة زخرفية وليست جدلية. وقد تحمل نقاد الأدب والبلاغة ومؤرخو الفكر والثقافة عبء تفسير البلاغة المسيحية فى مجال الدين.

ونجح العلماء المتخصصون فى الإنجيل فى بيان بعض القضايا ومناقشتها؛ وذلك يرجع إلى حد كبير إلى ممارستهم الطويلة فى تفسير النصوص وتأويلها. ولا شك أن علم التفسير كان يعد – فى ضوء التقاليد السائدة – من العلوم البلاغية التي تعتمد على الدور التعليمي للبلاغة فى الفنون الليبرالية، ولكن هذا التراث قد حجب عن الأنظار فى نهاية القرن التاسع عشر نتيجة لظهور أساليب للتفسير العلمي والنقد التاريخي، وهي الهوة التي لم ينج منها هذا التراث إلا فى الربع الأخير من القرن العشرين. وكان الدافع والحافز لإحياء البلاغة هو ذلك الشعور بعدم الرضا المتعلق بنقد الشكل الإنجيلي الذي يطابق بين الأنواع الأدبية المعيارية، وكذلك عدم الرضا عن النقد الأدبي الجديد New Criticism والذي يفسر النصوص من وجهة نظر أسلوبية وبعيدًا عن أي سياق أو جوانب تاريخية، كما يتجاهل قصد المؤلف ونيته. ومن ثم فإن الحركة الجديدة تقدمت فى مسيرتها ليس فقط بعيدًا عن القراءات اللاهوتية والأخلاقية، ولكن بعيدًا عن القراءات الأدبية والجمالية أيضا. وبالتالي قوبل إعادة الإقرار بوجود تحالف بين علم التفسير والبلاغة عن طريق علم الأساليب Stylistics بالرفض الشديد. ومن ثم سيطرت وجهة نظر بيريلمان وألبريتشت والتي ترى البلاغة نوعًا من الحجاج. واقتضى الرد على رفض الأسلوب Style فى نقد الإنجيل وجود نوع من التكامل أو الدمج بين الوظائف البرجماتية وتلك الاستراتيجية فى علم الأساليب الحديث modern stylistics. (ويتجاهل هذا الرفض أيضا الوظيفة المعرفية لعلم الجمال الكلاسيكي الذي يطابق بين الجمال وعلم الوجود ontology). وعلى الرغم من ذلك كان هناك تفضيل لفكرة الحجاج argumentation. وبالتالي كان النقد

البلاغي يطبق لا لتوضيح المصادر الإنجيلية – سواء كان هذا لقيمة جمالية أو محتوى دلالي – وإنما لتوضيح الأغراض الاجتماعية. وقد لاقت الوظيفة المعرفية للبلاغة الاستحسان ليس فقط لدورها فى نقل وتعزيز الحقيقة، ولكن أيضا لدورها فى خلق الحقائق وبنائها من خلال التفاعل الاجتماعي. وبهذا الطريق أصبحت البلاغة وسيلة لتمييز وإدراك ديناميكيات الحركات المسيحية الأولى. وأصبحت قوة البلاغة الإنجيلية محل نقاش وجدل، والأمر نفسه ينسحب على قوة النقد البلاغي داخل الثقافة الإنجيلية فيما يتعلق بنقل السلطة والمرجعية من الادعاءات والمطالب اللاهوتية إلى التقييم الاجتماعي. وأعلنت البلاغة التحدي كنسق نقدي لعلم التأويل التقليدي.

وأصبحت النظرية البلاغية الكلاسيكية تطبق من أجل التمييز بين أنماط التواصل وخاصة فى العهد الجديد New Testament. ويتطلب هذا الأسلوب إعادة بناء الموقف البلاغي، وتحديد القضية، والكشف عن التصاميم (الفنية) التي يستخدمها المؤلف لتوصيل فكرته للقارئ. والتأكيد فى هذا التوجه بالطبع على الموقف الاجتماعي والثقافي للنص للكشف عن الوظيفة التواصلية للغة، أكثر مما هو كشف عن الوظيفة الإرشادية. وانتقل الاهتمام التقليدي من الرسالة الدينية إلى تكوين وتشكيل القيم الطائفية. وأصبحت المهمة الأساسية تكمن فى تحديد الموقف البلاغي الذي استدعى استخدام عبارة ما من أجل الكشف عن التصورات والأفكار التي تتحكم فى مواقف الكتاب والقراء. وقد لاقت النظرية التي ترى البلاغة كظاهرة عالمية تهدف لوضع الأفكار الفطرية فى إطار من المفاهيم بعض التأييد كما طبقها البعض ولكن فى إطار ضيق. ولكن الذي كتب له الشيوع والانتشار هو ذلك الإحياء الحذر والواعي لمحاولات التعلم من تاريخ البلاغة مع التقدير الكامل لتاريخانية (كون الشيء تاريخيًا وليس أسطوريًا) البلاغة، بل إن البعض كان يرى أن البلاغة هي التاريخانية، فى ارتباط النص بالسياق.

وكان يوجد مدخل بيني ولكنه غير نسقي يحاول أن يوجد توجهًا للإنجيل من خلال النقد الخيالي imaginative criticism. وعلى النقيض من هذا كان علم اللاهوت الليبرالي والنسوي يحض العلماء على الاضطلاع بمسئوليتهم العامة فى تحرير الإنجيل من السيطرة الكنسية وسيطرة العلم الأكاديمي عن طريق التفسير السياسي. ويوصي هذا التطبيق العملي بوجود علم تأويل للشك فى الخطاب المعرفي النقدي من أجل تصحيح التشوهات الإيدلوجية. وبالتالي قوبلت البلاغة الكلاسيكية بالرفض لأنها تخدم علاقات السيطرة والهيمنة والإقصاء، كما أنها وسيلة عتيقة ومتحفظة للتفسير. ومن ثم أصبحت مرجعية الإنجيل تحددها الموافقة الطائفية، وأصبحت المهمة اللاهوتية تتلخص فى الحض على الفكر، والعمل من أجل التحول الإنساني.

وقد ساهم الكلاسيكيون الأوائل بتحليلات ثقافية قيمة للبلاغة الخاصة بآباء الكنيسة الأوائل ولكن الاهتمام داخل الدراسات الدينية قد تضاءل مع الوقت لمجرد القيام بالتصنيفات. وتعد الاستعارة هي أكثر عناصر لغة الخيال التي تعرضت للفحص والدراسة كأساس للغة المفاهيم، ولم يمنع هذا وجود بعض الاعتراف بأهمية الإغراق والمبالغة hyperbole فى السياق نفسه. وقد ناصر الكثيرون اللغة الخيالية لأنها تخفف بصفة عامة من الحرفية العمياء والمقيتة الموجودة فى اللغة الدينية على حد قولهم. أما فيما يتعلق بالنظرية الدينية فقد تحول الاهتمام من التراث المسيحي إلى أرسطو من أجل إعادة تعريف علم اللاهوت كنوع من الحجة الإقناعية. وأصبح هناك اعتراف بالبلاغة كتحليل للخطاب الإقناعى المرتبط بالمنطق وفن الشعر. ولا شك أن الموقف الثقافي والاجتماعي للبلاغة كخطاب جماهيري قد قدمها إلى علم اللاهوت بشكل جيد؛ وهو علم فى جوهره طائفي.

ولعل الدافع الرئيسي وراء هذا التحول الأرسطي هو عدم الرضا عن ذلك التجريد الذي اتسم به منطق القضايا propositional logic اعترافًا بالاحتمالية والشك المتأصلين فى ماهية لغة الكلام عن الله. وأصبح ينظر إلى علم اللاهوت على أنه نوع من الجدل الذي استحدثه الإنسان، وليس تأكيدا أو إثباتا يغلفه الإلهام الديني. وأصبح هناك تأييد للبلاغة كأسلوب بسبب وظيفتها المعرفية. فعلى الرغم من أن البلاغة تمزج ما بين الأدلة العقلية والعاطفية، فإن التأكيد أصبح على الجانب المعرفي للغة. ومن ثم طرح هذا التحول الأرسطي سؤالاً وهو: هل غاية الدين هي المعرفة؟ وإذا ما تحدثنا تاريخيًا فسوف نجد أن علماء اللاهوت قد استخدموا البلاغة للاعتراض على ذلك العبء الملقى على عاتق الإنجيل المتمثلة فى وصيته بالمحبة من أجل المشاركة الإنسانية، والاتحاد بالمقدس.

ولا شك أن كلاً من الصقل اللغوي والوعي التأويلي يحضان على البلاغة؛ وهذا يرجع لذلك الاحترام الذي تحظى به البلاغة كوسيلة لما وراء اللغة أو الميتالغة metalanguage، فهي كالمترجم بين الخطابات المطروحة، كما أنها تمثل نوعا من الحوار بين الطوائف المسيحية، بل وتتعدى ذلك إلى مخاطبة التعددية الدينية، ونقصد بها هنا مخاطبة العقائد الأخرى. ولا شك أن عدم الاستمرار فى الحديث عن المذهبية فى التراث المسيحي يمكن اعتباره عملية إبداعية من النقد والتطور، فالتنوع - وحتى الصراع - بين التقاليد الدينية أصبح محاطًا بالفهم والتسامح. كما أن البلاغة ينظر إليها عادة على أنها نقد للأيدلوجيا، فالنقد النسوي مثلاً قام بتوضيح تلك الرابطة بين تهميش البلاغة، وتهميش النسوة.

وإجمالاً يمكننا أن نقول إن التحليل البلاغي يعتبر توضيحًا للتفسير الإنجيلي، والتاريخ الكنسي، والتشكيل العقائدي. ولا شك أن البلاغة توصي دائما بالنظرة الواقعية للأمور، ولذلك فهي تشترك مع علم اللاهوت فى الإيمان بفاعلية الكلام فى الحض على العمل والقيام به. فالأدلة الواضحة والكونية التي يستخدمها المنطق والتي تفصل بين مرجعية المتحدث وحالة الجمهور يمكن تجاهلها تمامًا. كما أن هناك تأكيدا على الشخصية الجماهيرية للجدال، واعترافا بالدور الذي يلعبه تلقي الجمهور لقضية ما فى تشكيل تراث لهذه القضية. فهذا الجمهور لا يتكون فقط من عدد من الأفراد، بل يشكل مجتمعًا يشترك فى العديد من الممارسات كالعبادة وطلب العلم. أما من الناحية الأكاديمية والدراسية فيمكننا أن نقول إن البلاغة قدمت نموذجًا إرشاديًا بديلاً لتلك النماذج النقلية والأدائية التي كانت تستخدم فى تدريس الدين فى الجامعات عن طريق استحداث وتأسيس فن يتميز بالحوار والمحلية والنظرة العملية للأمور. وتحاول النظرية المعاصرة إصلاح تلك الثقوب والشروخ التي أصابت تاريخ البلاغة، ولكن تبقى هناك فجوة كبيرة بين النظرية والتطبيق والتي تحتاج من يسدها أو على الأقل من يضيقها. ولعل نقطة البدء تكمن فى دراسة التاريخ لاكتشاف سلطة البلاغة وإلهامها فى التراث بمختلف ضروبه عن طريق فهم النظرية البلاغية من خلال ممارسة النقد البلاغي.

(انظر النقد Criticism، وعلم التأويل Hermeneutics، وفن الوعظ Homiletics).

قائمة المراجع Bibliography

الكتاب المقدس Scriptur

وننصح بطبعات الإنجيل المراوحة (المكتوبة أو المطبوعة بلغات مختلفة فى سطور متراوحة أو متناوبة)، بمعنى تلك الترجمات الإنجليزية المكتوبة فوق الأصل اليوناني أو العبري. أما الباحثين فننصح بالطبعة المنقحة Revised Standard Version، على الرغم من النقد الموجه لتقسيم الفقرات فى هذه الطبعة ووصفه بأنه غير دقيق ولا يتناسب مع الدراسات البلاغية. وتضم القائمة التالية أهم النسخ التاريخية للأناجيل:

(*Authorized English Version*, or *King James Bible*). *The Holy Bible*. Facsimile reprint of the 1611 edition. Oxford, 1911.

Biblia sacra: iuxta Vulgatam versionem. Translated by Jerome et al.; edited by Boniface Fischer et al. 2 vols. Stuttgart, 1994.

Deutsche Bibel. Translated by Martin Luther. 12 vols.. Weimar, Germany, 1906–

Novum instrumentum. Edited and translated by Erasmus of Rotterdam. Vol. 7 of his Opera omnia; edited by Johannes Clericus. 11 vols. Leiden, 1703–1706.

Tradition التـراث

يجب تجنب الاستعانة بالترجمات لأنها فى الغالب لا يمكن الاعتماد عليها، كما أن لها أهدافا أخرى غير موضوعية. أما فيما يتعلق بالنصوص التي تنتمي لعصر آباء الكنيسة الأوائل أو تلك التي تنتمي للعصور الوسطى فننصح بالاستعانة بكتابي **أعمال آباء الكنيسة باللغة اليونانية Patrologia graeca** و**أعمال آباء الكنيسة باللغة اللاتينية Patrologia latina** اللذين حررهما جي بي ميجن J. P. Migne، المجلدين ١٦١، ٢٢١ (باريس ١٨٠٠ – ١٩١٢). ولكننا ننصح بقراءة القائمة التالية:

Corpus christianorum. Series graeca. Series latina.. Continuatio medievalis. Turnhout, Belgium, 1954–

Sources chretiennes. Series grecque. Series latin. Paris,. 1941–

وتوجد بعض المراجع الأخرى المهمة لبعض المؤلفين الذين ظهروا فى فترة لاحقة، وتضم القائمة التالية بعض هذه الأسماء:

Alighieri, Dante. *La "Commedia" secondo l'antica vulgata*, edited by Giorgio Petrocchi. 4 vols. Milan, Italy, 1966–1968.

Calvin, John. *Opera quae supersunt omnia*, edited by Eduard Reuss, Eduard Cunitz, and Johann Wilhelm Baum. Corpus reformatorum, pp.29–87. 59 vols. in 26. Brunswick, Germany, 1863–1900.

وتوجد طبعة نقدية أخرى متوفرة فى دار نشر دروز بجنيف

Cruz, Juan de la. *Obra completa*, edited by Luce López Baralt and Eulogio Pacho. 2 vols. Madrid, 1991.

Erasmus of Rotterdam. Opera omnia. In progress, with , edited by Leon - E. Halkin et al. Amsterdam, 1971–

وقد نشرت العديد من أجزاء هذا الكتاب وجار طبع الأجزاء الباقية

Leon, Judah Messer. *The Book of the Honeycomb's Flow: Sepher Nopheth Suphim*, edited and translated by Isaac Rabinowitz. Ithaca, N.Y., 1983.

Luther, Martin. *De servo arbitrio. In Luthers Werke in Auswahl*, vol. 4. Edited by Otto Clemen, pp.pp. 94– 293. 6 vols. Berlin, 1950.

Milton, John. *The Works of John Milton*, edited by Frank A. Patterson et al. 18 vols. New York, 1931–1938.

Petrarca, Francesco. *Canzoniere*, edited by Gianfranco Contini. Turin, 1964.

القضايا المعاصرة Contemporary Issues

ينشر النقد البلاغي للإنجيل بصفة دورية فى ملاحق الدورية المسماة **دورية دراسات العهد القديم Journal for the Study of the Old Testament (JSOT** ودورية أخرى بعنوان **دورية دراسات العهد الجديد Journal for the Study of the New Testament (JSNT)** أما فيما يتعلق بالقضايا المطروحة حاليا فننصح بالاطلاع على:

The Journal for the Study of the Old Testament (JSOT)و Journal for the Study of the New Testament (JSNT).

Wuellner, Wilhelm. "Biblical Exegesis in the Light of the History and Historicity of Rhetoric and the Nature of the Rhetoric of Religion." In *Rhetoric and the New Testament*: Essays from the 1992 Heidelberg Conference, edited by S. E. Porter and Thomas H. Olbricht, pp.pp. 492–513. JSNT supplements, 90. Sheffield, U.K., 1993.

يوجد منتدى أو منبر لمناقشة بلاغة الدين ممثلاً فى **The Journal of the American Academy of Religion**، أما فيما يتعلق بفلسفة لغة الدين فنرجو الاطلاع على **the International Journal for the Religious Studies**، **Philosophy of Religion**. وتوجد سلسلة من الدراسات المتخصصة فى علم اللاهوت والبلاغة تنشرها دار النشر التابعة لجامعة ولاية نيويورك. وتوجد بعض المجالات الوثيقة الصلة التي يمكن الاطلاع عليها ونخص بالذكر البلاغة rhetoric، والجوانب الدينية religious aspects، والبلاغة وعلم اللاهوت rhetoric and theology، اللغة واللغات language and languages. أما المهتم بالحصول على نماذج نظرية ونقدية فيمكنه الاطلاع على:

A monograph series, Theology and Rhetoric, is being published by the State University of New York Press.

Rhetorical Invention and Religious Inquiry, edited by Walter Jost and Wendy Olmstead, New Haven, 2000.

تأليف: Marjorie O'Rourke Boyle

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة فى عصر النهضة Renaissance Rhetoric

يحتوي هذا المدخل على أربع مقالات هي:

- استعراض عام
- مجالس البلاغة
- البلاغة فى اللغة والأدب فى عصر النهضة
- البلاغة فى عصر الإصلاح الديني والحركة المناهضة له

يحدد المقال الأول ملامح إحياء البلاغة الكلاسيكية فى دول أوروبا مؤكدًا على تأثيرها على الآداب والعلوم، بالإضافة إلى تأثيرها على التطور الاجتماعي فى التاريخ العام للثقافة. ويتناول المقال الثاني المجالس الهولندية للبلاغة Dutch rhetoric chambers كمؤسسات اجتماعية مهمة. ويستعرض المقال الثالث المدرسة الشيشرونية Ciceronianism والمدرسة المضادة لها Anti - Ciceronianism، والأسلوب البلاغي فى أوروبا فى عصر النهضة بالإضافة إلى البلاغة المستخدمة فى العلم. ويستعرض المقال الأخير البلاغة فى عصر الإصلاح الديني والحركة المناهضة له، كما يناقش الإصلاح الذي قام به كل من لوثر وميلانشثون Melanchthon للبلاغة، والنظريات البروتستانتية للوعظ، فضلا عن الوعظ والتعليمي اليسوعي.

استعراض عام An overview .

يمثل عصر النهضة الذروة الحاسمة فى تاريخ البلاغة فى العالم الغربي. فالبلاغة فى عصر النهضة لم تبزغ كتحول ثقافي مفاجئ، ولكنها مرت بمراحل تدريجية متعددة، وتطورت من مراحل التطوير إلى مراحل الابتكار والتجديد، ووصلت إلى نهايتها فى القرن السابع عشر فى شكل عدد من الأنشطة الإقناعية الشديدة التنوع من حيث النظرية والتطبيق. واستمر تأثير هذه البلاغة حتى نهاية القرن الثامن عشر حينما بدأت الحقبة الثقافية لكل من أدب العاصفة والدفع Sturm and Drang (وهي حركة أدبية وموسيقية بدأت فى ألمانيا منذ نهاية الستينيات من القرن الثامن عشر وحتى نهاية الثمانينيات من القرن نفسه) من ناحية والاتجاه الرومانسي من ناحية أخرى تشهد اضمحلالاً متدرجًا.

البلاغة فى عصر النهضة ونهضة البلاغة

Renaissance Rhetoric and Renascences of Rhetoric

تظهر نهضة البلاغة فى أوروبا فى فترات زمنية فاصلة ومنتظمة إلى حد كبير فى تاريخ الثقافة الغربية. وعادة ما يسبق هذه الفترات ويتلوها فترات أخرى مماثلة من الاضمحلال البلاغي بسبب الإهمال أو القمع المتعمد. فلو رجعنا لتاريخ نهضة البلاغة لوجدنا أن هذه النهضة بدأت على يد شيشرون فى نهاية فترة حكم الجمهورية الرومانية Roman Republic، وعلى يد القديس أوغسطين Saint Augustine (٣٥٤م - ٤٣٠م) وبعض آباء الكنيسة Church Fathers الآخرين فى نهاية الفترة التي سبقت العصور الوسطى، وعلى يد هيو بلير Hugh Blair، وجورج كمبل George Campell، واللورد كيمس Lord Kames فى القرن الثامن عشر فى فترة عصر النهضة التي شهدتها أسكتلندا، وعلى يد علماء اللغة ومنظري الأسلوب theorists of style، وعلماء الدلالة، ومؤرخي الأدب فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن البلاغة استعادت أهميتها فى فترة زمنية ذهبية امتدت من منتصف القرن الرابع عشر، وحتى منتصف القرن السابع عشر، وهي فترة ازدهار وتوهج لم تشهدها البلاغة من قبل ولا من بعد، وتوجد العديد من الرموز الفنية التي تعد دليلاً قاطعًا على هذا الازدهار والتوهج، وأحد هذه الأمثلة موجود فى الموسوعة التي أنجزها جريجور رايش Gregor Reisch تحت عنوان **اللؤلؤة الفلسفية Margarita Philosophica** في عام ١٥٠٧، حيث نجد إحدى اللوحات الخشبية التي تصور البلاغة فى شكل ملكة تلبس ملابس فخمة وتمسك سيفا فى يدها، ويخرج من فمها زهرة السوسن، وهي تجلس على عرش وثير يحيط بها مجموعة تضم علمين من جهابذة الفلسفة الطبيعية والأخلاقية ونقصد بهما أرسطو Aristotle وسينيكا Seneca، والشاعر الكبير فيرجيل Virgil، وأستاذ علم التاريخ سالوست Sallust، وحجة القانون جوستينيان Justinian (انظر كتاب ستولت Stolt ١٩٧٤ وكتاب بليت Plett، ١٩٧٥). (وانظر الأيقونوغرافيا Iconography). ويرى الإنسانيون Humanists أن البلاغة تساوي الثقافة فى أنها إحدى أعظم النعم التي يستمتع بها الإنسان فى هذه الدنيا. وعلى الرغم من ذلك لم تكن البلاغة مقصورة على الصفوة المثقفة من الذين ينتمون للحركة الإنسانية، وإنما كانت عاملاً مهمًا فى الحركة الثقافية الكاسحة فى تلك الفترة، وكان لها تأثيرها الواضح على نظام تعليم العلوم الإنسانية، ومن ثم اتسعت الدائرة لتشمل المزيد من الجماعات والطبقات الاجتماعية المختلفة. ولم تقتصر نهضة البلاغة على إيطاليا – حيث بدأت – بل امتدت شمالاً، وغربًا، وشرقًا فى أوروبا ومنها إلى المستعمرات فى الأمريكتين، وآسيا، وأفريقيا، ودول الأوقيانوس.

إعادة اكتشاف البلاغة: النزعة الأكاديمية (الإنسانية)

بدأت البلاغة فى عصر النهضة كنتيجة لإعادة اكتشاف بعض مخطوطات البلاغة الكلاسيكية وهي: خطبتين لشيشرون ومراسلاته مع أتيكوس Atticus وأعاد اكتشافهما بيترارك Petrarch (١٣٠٤ - ١٣٧٤)، وكذلك رسائل شيشرون المعروفة باسم **الرسائل غير الرسمية Familiar Epistles** التي أعاد اكتشافها كولوشيو سالوتاتي Coluccio Salutati (١٣٣١ - ١٤٠٦)، والنص الكامل لكتاب شيشرون المعنون **حقيقة الخطيب De oratore**، وهو موجود فى مخطوط يحوي أيضا كتابه **بروتوس Brutus** وكتابه **الخطيب Orator** (١٤٢١) وأعاد اكتشافه جيراردو لاندرياني Gerardo Landriani، أسقف لودي Lodi، والنص الكامل لكتاب **قواعد الخطابة Institutio oratoria** لكونتيليان وأعاد اكتشافه بوجيو براشيوليني Pogio Bracciolini – وهو أحد وزراء البابا – Papal Secretary فى عام ١٤١٦.

وعلى الرغم من أن شيشرون لم يكن معروفا كأحد علماء البلاغة في العصور الوسطى، فإن شهرته جاءت من رسالة بعنوان **حقيقة الإبداع De inventione**، وكتاب آخر نسب إليه بعنوان **البلاغة إلى هرنّيوم Rhetorica ad Herennium**. أما الآن فقد تغيرت هذه الصورة، وأصبح شيشرون معروفًا بأنه كان كاتبًا حاذقًا للمحاورات البديعة بلغة لاتينية راقية. وعلاوة على ذلك فقد أصبح معروفا بأنه من أوائل المنظرين للبلاغة، والممارسين لها كمحام ورجل دولة، وهو بهذا يجمع بين صفتين هما: الحياة التأملية vita contemplativa والحياة النشطة vita activa.

أما المرحلة التالية لإحياء البلاغة فتواكبت مع طبع المخطوطات اللاتينية واليونانية التي أعيد اكتشافها، مما فتح المجال لاحتمال نشر هذا النوع من المعرفة فى كافة أرجاء أوروبا. وبناء على ذلك، فقد تم طبع كتاب

شيشرون "**الخطيب**" فى سوبياكو Subiaco (عام ١٤٦٥ تقريبا)، وفي روما (عام ١٤٦٨)، وفي البندقية (عام ١٤٧٠ تقريبا)، وفي نابولي (عام ١٤٧٥)، وفي ميلانو (عام ١٤٧٧)، ثم طبع هذا الكتاب ثمانية عشر مرة بعد ذلك، بما فى ذلك الطبعة التي أصدرتها جامعة أكسفورد عام ١٦٩٦ (انظر كتاب ميرفي Murphy، الصادر فى عام ١٩٨١، صفحة ٧٩). أما مجموعة الكتب المهمة المعنونة **بالخطباء اليونانيين Rhetores graeci** فقد طبعت فى دار نشر ألدين Aldine فى البندقية فى الفترة ما بين ١٥٠٨ و ١٥٠٩ فى مجلدين من القطع الكبير، ويحتوي هذا الكتاب على قائمة من الأعمال مرتبة حسب الترتيب الأبجدي كالتالي:

- **فن البلاغة ars rhetorica** لهيرموجينيس Hermogenes
- ثلاثة كتب للبلاغة لأرسطو
- كتاب **فن الشعر ars poetica** لأرسطو
- كتاب بعنوان أسئلة **حول تأليف الخطب وصياغتها وخاصة فى القضايا القانونية Questions Concerning the Composition of Declamations Especially in Judicial Causes** لسوباتر الخطيب Sopater Rhetor
- **الاختلافات فى القوانين والتشريعات The Differences of Statutes** لسيراس السوفسطائي Cyrus the Sophist
- **فن البلاغة The Art of Rhetoric** لديونيسياس من هاليكارناسوس Dionysius of Halicarnassus
- **حقيقة التأويل On Interpretation** لديمتريوس من مدينة فاليرون Demetrius of Phaleron

- حقيقة الصور البلاغية الحسية والمفردات **On the Figures of Sense and Diction** لألكسندر السوفسطائي Alexander the Sophist

- حواش تفسيرية للصور البلاغية **Annotations on the Figures of Rhetoric** لمؤلف مجهول

- تقسيم القضايا فى فن التشاور **The Division of Causes in the Demonstrative Genre** لميناندر معلم البلاغة و الخطيب Menander the Rhetor

- حقيقة خطاب الجماهير **On the Civil Oration** لأريستديس Aristeides

- حقيقة الخطبة البسيطة **On a Simple Oration** المؤلف نفسه السابق

- مبادئ فن البلاغة **Precepts on the Art of Rhetoric** لأبسينوس Apsinus

ولا شك أن هذا الكم الكبير من المؤلفات للكتاب الإغريق – غير المعروفين حتى للمتخصصين المعاصرين – يعكس الاهتمام الكبير، بل والحماس الذي أثاره إعادة اكتشاف هذه الأرض الثقافية المجهولة cultural terra incognita. وقد أدت قلة الكفاءة اللغوية إلى وجود مرحلة أخرى من الإحياء ونقصد بها ترجمة النصوص الكلاسيكية إلى اللغات المحلية vernacular حتى يستطيع جمهور القراء الذين لا يعرفون اللاتينية أو اليونانية بالقدر الكافي (وهو اتهام طالما وجهه بن جونسون Ben Johnson إلى منافسه وليام شكسبير William Shakespeare) الاطلاع عليها. فمثلا كان الإنسانيون Humanists لا يجيدون اليونانية؛ مما استدعى ترجمة الكثير من النصوص اليونانية إلى اللاتينية، وهي لغة المثقفين والمتعلمين فى كثير من أنحاء أوروبا فى تلك الفترة، وهم من كان يطلق عليهم دائرة العلماء والمفكرين respublica literaria. ولذلك قام جورجيوس ترابيزونتياس Georgius Trapezuntius (ولد فى باريس عام ١٤٧٥ تقريبًا، وتوفى فى ليون فى عام ١٥٤١) بترجمة كتاب **البلاغة**

Rhetoric لأرسطو إلى اللغة اللاتينية. بينما قام برناردو سيجني Bernardo Segni فى عام ١٥٤٩ بترجمة كتابي أرسطو: **البلاغة وفن الشعر** إلى الإيطالية تحت عنوان **Retorica، et poetica d'Aristotile. Tradotte ... di greco in lingua vulgare fiorentino da Bernardo Segni.** بينما قام توماس ويلسون Thomas Wilson بترجمة كتاب ديموستينيس Demosthenes المعنون **ثلاث خطب عن مآثر الأولينثيين Three Orations in Favour of Olynthians**، وهذا الكاتب وصفه ويلسون بأنه" أحد أهم الخطباء فى تاريخ اليونان" (صدر فى لندن عام ١٥٧٠).

وشهدت المرحلة الثالثة من الإحياء البلاغي Rhetorical revival للنصوص الكلاسيكية، دخول فكرة التفسير والتأويل فى شكل حواشي تفسيرية annotations وتعليقات، ولعل أهم الأمثلة التي يمكن أن نذكرها هي تلك المسارد glosses والتعليقات النقدية على أعمال شيشرون البلاغية، وهو ما يشير إلى سعة اطلاع وثقافة الذين قاموا بهذه التعليقات (انظر كتاب وارد Ward الصادر عام ١٩٨٣).

إعادة إبداع البلاغة: من مرحلة التقليد إلى مرحلة المحاكاة

بعد أن أعاد الإنسانيون اكتشاف الرسائل والأبحاث الكلاسيكية التي كتبت عن البلاغة وتفسيرها، قام الإنسانيون أنفسهم بكتابة أبحاث ورسائل جديدة، بعض هذه الرسائل كانت عبارة عن تقليد مطلق للرسائل الكلاسيكية، أما البعض الآخر فقد تم تعديله ليكون ملائمًا لمقتضيات العصر. فإذا ما قمنا ببحث ببليوجرافي (انظر مرفي Murphy، ١٩٨٣ وبليت Plett عام ١٩٩٥) فسوف نجد أن علماء البلاغة فى عصر النهضة قد قاموا بكتابة بعض الرسائل والأبحاث، وتم نشرها فى أشكال مختلفة مثل الكتب المدرسية،

أو كجزء من كتاب يضم مقتطفات مختارة من هذه الرسائل والأبحاث، أو في شكل كتب من القطع الكبير والصغير تحتوي على مجموعة من الحواشي التفسيرية، أو في شكل جداول مصغرة. ونشرت هذه الكتب باللغة اللاتينية الجديدة neo - Latin، ثم ظهرت لها ترجمات باللغات المحلية vernaculars في مرحلة لاحقة. وبحلول عام١٦٥٠ يمكننا القول إن عدد هذه الرسائل والأبحاث قد وصل إلى عدة آلاف.

والمثال الواضح على كيفية قيام الإنسانيين بكتابة ومراجعة عمل بلاغي ومراجعته، وهو الرسائل الثلاث لفيليب ميلانشثون Philip Melanchthon الملقب بمعلم ألمانيا Praeceptor Germaniae الذي كان من أشد المؤيدين والمروجين لحركة الإصلاح (انظر كتاب كنابي Knape الصادر في عام ١٩٩٣). وظهر العمل لأول عام ١٥١٩ في ويتينبيرج Wittenberg تحت عنوان **Philippi Melanchtho - /nis de Rhetorica / libri Tres** وتبع هذا الكتاب المنهج الشيشروني الكلاسيكي في تقسيم الخطابة إلى خمسة فنون وهي:الإلقاء elocutio، والإبداع invention، والتنسيق dispositio، والحافظة memoriaأو الذاكرة، والفعل actio ولم يحظ آخر فنيين بقدر جيد من التناول والمعالجة. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن هذه الرسالة لم تخل من الإضافات الإبداعية ممثلة في إضافة بعض الفصول حول علم التأويل De enarratorio genere، وDe commentandi ratione والعظات De sacris concionibus. والخصيصة التي سيطرت على هذه الخطابة في مجموعها هي التأكيد على فكرة الحجاج، وهو ما ينصح المؤلف طلابه بدراسته مرة ومرات. وتحولت هذه الرسالة إلى شكل كتاب مقرر لكي يدرس في جامعة توبينجن University of Tübingen حيث كان ميلانشتوب من أوائل الأساتذة الذين درسوا البلاغة، ومن ثم فلا عجب أن تحمل الطبعة الثانية من هذا العمل عنوانًا منهجيا هو: **توجيهات بلاغية Institutiones rhetoricae** (١٥٢١)، وكانت هذه الطبعة

أصغر من سابقتها، كما اقتصرت على بعض التعريفات المتخصصة لبعض الأشكال البلاغية، وذكر بعض الأمثلة التوضيحية التي يسهل تذكرها. وقد سار الكتاب فى تقسيماته على نهج كتاب **البلاغة** **De Rhetoric** ولكن مع زيادة مساحة الجزء الذي يتناول فن الخطابة وهو ما يؤكد على الأهمية الكبرى التي أولاها الإنسانيون للأسلوب. وقد ظهر هذا النهج واضحًا فى آخر طبعة منقحة لهذا العمل، والتي ظهرت إلى النور تحت عنوان **عناصر البلاغة** **Elementa rhetorices** فى عام ١٥٤٢، مع اختلاف وحيد هو تقسيم العمل إلى كتابين: يتناول الكتاب الأول الإبداع Inventio، والتنسيق Dispositio، ويتناول الكتاب الثاني الإلقاء Elocutio. ويؤكد ميلانشثوب فى هذه الطبعة – وكما فعل فى الطبعة الأولى – على الصلة الوثيقة بين الجدل والبلاغة.

وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى زمانه، ويظهر هذا جليًا فى عدد الطبعات التالية، فقد طبع هذا الكتاب ثلاث وثلاثين مرة حتى وفاة ميلانشثوب فى عام ١٥٦٠. وقد شاع مفهوم ميلانشثوب للبلاغة، ويظهر ذلك جليا فى الخلاصة الوافية لهذا المفهوم التي عرضها بيتروس موسيلانوس Petrus Mosellanus فى كتابه **Tabulae**، وهو أحد الناس الذين اشتهروا بقدرتهم على تلخيص أعمال الآخرين وإخراجها فى صورة بسيطة وملخصة. وقد ظهر كتابه **In Philippi Melanchthonis rhetorica tabulae** فى فترة قصيرة بعد ظهور كتاب **توجيهات بلاغية** **Institutiones rhetoricae**، وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات. وبصفة عامة يمكننا أن نقول إن الكتب الثلاثة التي نشرت حول مفهوم ميلانشثوب البلاغي بطبعاتها المختلفة، وكتاب موسيلانوس **(Tabulae)** يثبتان مدى انتشار البلاغة اللاتينية الجديدة neo - Latin rhetoric فى أوروبا فى عصر النهضة، وخاصة بعدما ثبت فى يقين الناس أن لهذا النوع من البلاغة فائدة عامة، وتجلى ذلك فى تدريس هذا النوع من انبلاغة فى

المدارس التي اهتمت بتدريس اللاتينية واليونانية grammar schools، فضلا عن الجامعات. وعلى الرغم من ذلك لم تتح أفكار ميلانشثوب للجميع نظرا لعدم ترجمة أعماله إلى اللغات المحلية.

تمييز البلاغة: الأنواع البلاغية Rhetoric Differentiated: The Rhetorical Genres

أدى تعقد الحياة الاجتماعية فى فترة عصر النهضة إلى ضرورة وجود أدلة (جمع دليل) بلاغية لكل مهنة ومناسبة تقدم أساليب الإقناع بشكل عملي ومناسب. وكانت هذه الأدلة العملية فى بداية الأمر عبارة عن تقليد للأمثلة الكلاسيكية، ولكن سرعان ما تحررت من هذه القيود الكلاسيكية، وأصبحت تتسم بالاستقلالية والمعاصرة. وبصفة عامة يمكننا أن نقول إن أكثر مؤلفي البلاغة موهبة وتنوعا فى تلك الفترة هو إرازموس Erasmus (١٤٦٦م تقريبا – ١٥٣٦ م)، الذي قلده الكثيرون فى أسلوبه (انظر كتاب شويك Schoeck الصادر فى عام ١٩٩٣). وتصنف البلاغة فى عصر النهضة إلى ثمانية أنواع أو أنواع مختلفة وهي:

بلاغة الفنون الخمسة

وقد سادت الكتيبات والأدلة التي صدرت فى عصر النهضة على غرار النماذج الكلاسيكية المتمثلة فى رسائل شيشرون عن البلاغة وكتاب كونتيليان المعنون **قواعد الخطابة Institutio Oratoria**. وكان هدف الإنسانيين المحبين لبلاغة الفنون الخمسة الكبرى the five great arts (انظر كتاب هاول Howell الصادر فى عام ١٩٥٦) هو إخراج عمل متكامل ومن ثم كانت كتبهم تتكون من عدة أجزاء وبها العديد من المسارد والتعليقات العميقة، فضلاً عن عرض مفصل لمحتويات الكتاب، إضافة إلى فهارس للأسماء والموضوعات. ويعد جورجيوس تريبزونتياس Georgius Trapezuntius (١٣٩٥م تقريبا – ١٤٩٣م

نقريبا) من أوائل البلاغيين الذين ألفوا مثل هذه الكتب الشاملة عن البلاغة. ويعد كتابه **كتب البلاغة الخمسة Rhetoricorum libri V** (صدر فى البندقية عام ١٤٣٣ - ١٤٣٤) هو الكتاب الوحيد الذي كتبه أحد الإنسانيين الإيطاليين فى القرن الخامس عشر عن البلاغة العلمانية Secular Rhetoric (البلاغة بعيدًا عن الأوساط الدينية) (انظر كتاب مونفاساني Monfasani الصادر عام ١٩٧٦). ويعد هذا الكتاب النموذج الذي اهتدى به ميلانشثوب فى مفهومه الجدلي عن البلاغة، وإن يكن على نطاق ضيق. وقد استخدم أحد مدرسي القراءة الإنجليز ويدعى ليونارد كوكس Leonard Cox إحدى النسخ المسروقة لكتاب ميلانشثوب المعنون **البلاغة de Rhetoric** والذي نشر فى مدينة كولون Cologne فى عام ١٥٢١ فى ترجمته التي نشرت فى لندن عام ١٥٣٥ تقريبًا تحت عنوان **فن أو صنعة البلاغة The arte or crafte of Rhethoryke** ويقتصر هذا الكتاب على تناول فن الإبداع فى البلاغة أما الأمور الأخرى المتعلقة بقواعد البلاغة، وتقليد النماذج الكلاسيكية، فكان كوكس يرى أن هذه أمور يصعب على الإنسان أن يمتلك ناصيتها. ومن ثم فإن البلاغة التي تناولها كوكس هي فى واقع الأمر صورة مبتورة وغير كاملة لمفهوم شيشرون عن البلاغة المكون من خمسة أجزاء. لم يدع كوكس لنفسه أصالة الفكر ولكنه – كما جاء على لسانه – "يود نقل فن البلاغة المبهج إلى كل من يدخل فى عمله فن الكلمة سواءً كان محاميًا أو سفيرًا أو معلمًا للبلاغة والفصاحة بأسلوب عقلاني ومنطقي يقبله جمهور المستمعين". وقد سار توماس ويلسون على نهج كوكس نفسه فى كتابه **فن البلاغة Arte of Rhetorique** (١٥٥٣)، وكان يرى أن البلاغة تلعب دورًا محوريًا فى بعض المجالات مثل القانون والسياسة، والطقوس الكنسية. ويعد هذا الكتاب – والذي طبع ثماني طبعات – أكثر الكتب مبيعًا فى العصر الإليزابيثي. ولعل من فوائد هذا الكتاب تلك الأمثلة التوضيحية التي أضافها إلى التراث

الكلاسيكي مثل "إذا أردت أن تسدي النصح لأحد، فيجب عليك أن تدرس قوانين إنجلترا"، و"قيمة القديس جورج فيما يرمز إليه"... إلخ. واستمرت هذه النوعية من الكتب التي تتناول البلاغة بشكل شامل في الظهور. ويعد كتاب توماس فارنبي Thomas Farnaby المعنون: **فهرس البلاغة لطلاب المدارس والناشئة** **Index Rhetoricvs. Scholis & institutioni tenerioris aetatis accommodatus** (١٦٢٥) – وكما يشير عنوانه – كتابًا مدرسيًا يستخدم في تدريس البلاغة، وقد عرضت مادته العلمية في شكل ميسر يسهل على الطلاب حفظه. ومن ناحية أخرى تظهر المسارد الجانبية المتعددة التي استخدمها الكاتب سعة اطلاعه وتبحره، وهو ما يفخر به الكاتب، ويظهر بين سطور الكتاب. ومن ضمن ما أشارله الكاتب في هذه المسارد سلسلة كتب مؤلفة من ستة عشر كتابًا تحت عنوان **الخطوط المتوازية بين البلاغة الدينية (المقدسة) والبلاغة العلمانية** **Eloquentiae sacrae humanae paralela et** كتبها الكاتب الفرنسي اليسوعي نيكولا كوسينوس Nicolaus Caussinus وكان يعمل أستاذا للبلاغة، وكاهنًا للاعتراف Confessor عند الملك لويس الثالث عشر، والذي أهدى إليه المؤلف هذه السلسلة. وطبعت هذه السلسلة لأول مرة في باريس عام ١٦١٩، ثم أعيدت طباعتها عدة مرات كان آخرها في مدينة كولون عام ١٦٨١. وقد نالت استحسانًا كبيرًا في كثير من دول العالم لما تحتويه من مادة علمية رصينة. وعلى الرغم من أن هذه السلسلة تعد إحدى ثمار الحركة المناهضة لحركة الإصلاح الديني Counter - Reformation، فإنها تخطت كل الحواجز المتعلقة بالعقيدة الدينية. فالكتاب الرابع يبدأ بمقدمة عن الفنون الخمسة التقليدية للبلاغة، ويقدم عرضًا وافيًا للابتكار(Inventio)، أما الفنون الأخرى وتتناولها الكتب التالية على النحو التالي: الكتاب السادس يتناول التنسيق dispositо، والسابع يتناول الإلقاء elocution، والتاسع يتناول الفعل وطريقة النطق actio/pronunyiatio. أما جوانب البلاغة الأخرى فلم

تغفلها هذه السلسلة فقد تناول الكتاب الخامس الإسهاب amplificatio، وتناول الكتاب الثامن فكرة المشاعر affections، وتناول الكتاب العاشر والحادي عشر الجوانب البلاغية الإيضاحية، وتناول الكتاب الثاني عشر فكرة اللباقة لدى عامة الناس، وتناول الكتاب الرابع عشر فن الوعظ وقواعده homiletics. ويجب أن نلفت النظر إلى أن هذا التناول الشامل للنسق البلاغي هو إحدى سمات الحقبة الباروكية Baroque era (وهو أسلوب أدبي ساد فى القرن السابع عشر واتسم بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة)، وتوجد كتب أخرى موازية لهذا الكتاب وفي نفس السياق ولكنها كتبت باللغات المحلية التي كانت مستخدمة فى القرن السابع عشر (انظر كتاب بارنر Barner الصادر فى عام ١٩٧٠).(انظر النظم Arrangement، المقال الذي يتناول النظم التقليدي Traditional arrangement، وبيان مفصل بالجوانب المختلفة Inventory).

فن الوعظ: Art of Preaching

يضفي الكتاب الرابع لأوغسطين Augustine المعنون **العقيدة المسيحية De doctrina Christiana** الصبغة الشرعية على البلاغة الشيشرونية Ciceronian rhetoric لكي تستخدم فى التبشير بالإنجيل، ومن ثم تتحقق "التوليفة" المطلوبة بين العقيدة المسيحية والبلاغة الوثنية.Pagan rhetoric ويعد إرازموس Erasmus أحد أهم الإنسانيين الذين ظهروا فى القرن السادس عشر الذين تبنوا هذه التوليفة كما يظهر جليًا فى كتاب **الواعظ أو أسلوب الوعظ Ecclesiastes sive de ratione concionandi** والذي ظهر عام ١٥٣٥ من خلال تبني نسق الفنون الخمسة للبلاغة. أما فى عصر ما بعد إرازموس Post - Erasmian era فقد تفرعت النظريات التي تتناول فن الوعظ طبقا للطائفة المسيحية التي ينتمي إليها المؤلف، هل هو كاثوليكي أم بروتستانتي؟ ويظهر أثر انتماء المؤلف لإحدى الطائفتين فى تبنيه لموقف أصولي orthodox أو ليبرالي liberal. ومن الأسماء التي تطرح نفسها فى هذا السياق اسم

أندرياس جيرهارد هيبريوس Andreas Gerhard Hyperius وهو بروتستانتي معتدل عاش فى إنجلترا فى الفترة من عام ١٥٣٦ وحتى عام ١٥٤٠. وفي عام ١٥٤٢ أصبح أستاذاً للاهوت فى ماربرج Marburg، وقد كتب رسالة باللغة اللاتينية بعنوان **حقيقة تأليف العظات المقدسة** **De formandis concionibus sacris** ونشرت فى ماربرج عام ١٥٥٣ فى كتابين، ثم ظهرت ترجمة (صدرت فى لندن عام ١٥٧٧) تحت عنوان (طويل) هو: **ممارسة الوعظ أو بالأحرى الطريق إلى المنبر: ويحتوي على أسلوب متميز يصف طريقة تأليف العظات وكيفية تفسير الكتاب المقدس بما يتناسب مع عقليات العوام، كتبه باللاتينية القس الجهبذ أندرياس هيربيوس وترجمه إلى الإنجليزية جون لودهام كاهن ويذرفيلد:**

The Practise of Preaching, otherwise called the Pathway to the Pulpet: Conteyning an excellent Method how to frame divine sermons, & to interpret the Holy Scriptures according to the capacitie of the vulgar people. First written in Latin by the learned pastor of Christes Church, D. Andreas Hyperius: and now lately (to the profit of the same Church) Englished by Iohn Ludham, vicar of Wetherfield

وليس الغرض الوحيد من هذه الرسالة هو عرض الأساليب البلاغية لكتابة وتأليف العظات، بل تعدى الأمر إلى التأويليات النصيَّة textual hermeneutics وهذه بلا شك هي تلك التوليفة التي تحدثنا عنها آنفا، وهي الجمع بين البلاغة الكلاسيكية واستخدامها فى العقيدة المسيحية الذي أشار إليه أوغسطين فى الكتاب الرابع من العقيدة المسيحية. فهو يرى أنه توجد العديد من السمات المشتركة بين الواعظ والخطيب، ففنون البلاغة الخمسة وهي الإبداع، والتنسيق، وفن الإلقاء والمذكرات الشخصية، وطريقة النطق يحتاجها كل من الواعظ والخطيب على حد سواء. فكلاهما يهدف إلى تعليم الناس،

وإسعادهم، وتغيير وجهات نظرهم. وكلاهما يستخدم مفردات الكلام بمستوياتها الثلاثة: الرفيعة، والمتداولة، والعامية، وكلاهما يحتاج إلى الصنعة فى تنويع الخطب، وترتيبها، واستخدام البديع فيها.

ويرى الإنساني المسيحي Christian humanist أن المساواة بين الخطيب الوثني pagan orator والواعظ البروتستانتي Protestant preacher لا تعد نوعًا من التناقض، بل هي ظاهرة ثقافية واضحة بذاتها. وإذا بدت أي ملاحظات تتعلق بالإبداع والحافظة، فإنها تنبع من الممارسة الحرفية، والأنواع الثلاثة الأخرى، ولا ترجع لأسباب أيديولوجية. ويرى هربيوسHyperius أن المفهوم البلاغي للمشاعر يأتي فى المقام الثاني فى الأهمية بعد النص الديني، الذي له مفعول السحر فى تحريك مشاعر الناس. ولكن من ناحية أخرى يرى أن القواعد الكلاسيكية التي تعلمها فى جامعة باريس Paris University لها من القوة والتأثير ما جعله يفرد لها فى الفصل السادس عشر جزءًا تناول فيه بإيجاز النظرية الرواقية Stoical doctrine (وهو أن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة) فيما يتعلق بالانفعالات. وقد جاء عالم اللاهوت المتميز بجامعة كامبريدج وليام بيركنز William Perkins (١٥٥٨ – ١٦٠٢) بنظرية وعظية homiletic theory نشرها باللاتينية فى رسالة بعنوان **Prophetica، sive de sacra et vnica ratione Concionandi** (١٥٩٢)، ثم ظهرت ترجمة إنجليزية لهذه الرسالة قام بها توماس توك Thomas Tuke تحت اسم **فن الوعظ أو رسالة فى الطريقة المقدسة والصحيحة وأسلوب الوعظ** (١٦٠٧). **The arte of prophecying or a treatise concerning the sacred and onely true maner and methode of Preaching**، وقد ظهرت الرسالتان فى طبعات عديدة؛ وأدى هذا إلى نشر أفكار الكاتبين ليس فقط فى بريطانيا، ولكن أيضا فى أمريكا الشمالية. وتنتهي هذه الرسالة بالإشارة إلى الكتاب الذين اعتمد عليهم بركينز

فى استقاء أفكاره وهم: أوجستين Augustine، وهيمينجيوس Hemingius، وهيبريوس Hyperius، وإرازموس، وإليريكاس Illyricus، وويجاندوس Wigandus، وأياكوباس متياس Iacobus Mathias، وتيودوراس بيزا Theodorus Beza، وفرانسيسكاس إيونيوس Franciscus Iunius.

وعلى الرغم من السمة الانتقائية (اختيار عناصر مستمدة من مصادر مختلفة) لهذا العمل، فإن وجوده راسخ كما يظهر فى مسلمات العقيدة الكالفانية Calvinist. ويظهر هذا جليًا فى المقدمة التي كتبها بركينز Perkins حينما يقول "أهدي هذا العمل إلى القساوسة البروتستانتيين المخلصين الذين يخدمون الكنيسة". ويختصر بركينز فنون البلاغة الخمسة، بحذف الحافظة المصطنعة "فهو يرى أن إحياء الصور فى الذهن – وهو مفتاح الحافظة – هو عمل لا يتسم بالتقوى والورع؛ لأنه يتطلب نوعا من التأمل العبثي والوقح وهو ما يثير ويهيّج مشاعر ذلك الجسد الإنساني الفاني". وهذا الخروج عن التقاليد الكلاسيكية من حيث الوقوف ضد إثارة المشاعر وتأجيجها يأتي متوافقًا مع ما كان ينادي به بركينز من أن مخاطبة الجماهير يجب أن تتم بأسلوب بسيط وواضح يناسب عقول الناس، ويعكس جلال الروح.

ولا شك أن تلك المبادئ التي تحدث عنها بركينز والتي تتحدث عن الكلام البسيط أو الأسلوب الواضح هي إحدى مسلمات العديد من النظريات البروتستانتية التي تناولت الوعظ، وإحدى سمات التوجه المعتدل والذي كان يمثله العديد، ومنهم جورج هربرت George Herbert على سبيل المثال. أما فى إنجلترا فقد كان أعضاء الجمعية الملكية Royal Society وأتباع فرانسيس بيكون Baconians يعتنقون أفكارًا ومفاهيم أسلوبية توازي هذه الأفكار. فبينما كان التبسيط البلاغي (المعتدل) هو السمة الغالبة على تلك الكتيبات البروتستانتية التي تتناول الوعظ، كانت الرسائل الرومانية الكاثوليكية (ومعظمها كان يسوعيًا

Jesuit) تتسم بالاستخدام الكامل لكل وسائل الإقناع المتوفرة فى التراث الكلاسيكي من أجل تحقيق الأهداف الدعائية للحركة المناهضة لحركة الإصلاح الديني Counter - Reformation. وبالتالي فقد أكدت مثل هذه الكتيبات والأدلة (جمع دليل) على الجانب الحسي للتأثير البلاغي وعلى مفهوم المشاعر. ويعد الواعظ النمساوي الشهير أبراهام سانتا كلارا Abraham Santa Clara (١٦٤٤ - ١٧٠٩) نموذجًا لتلك الغزارة الباروكية فى البلاغة، كما يعد الواعظ الفرنسي جاك بينين بوسيه Jacque - Bénigne Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤) هو النظير الفرنسي لسانتا كلارا. (انظر فن الوعظ Homiletics والدين Religion).

البلاغة الرسائلية Epistolary rhetoric

تحول فن الخطابة فى العصور الوسطي على يد البريتش من مدينة مونيتكاسينو Alberich of Montecassino وآخرين إلى فن كتابي لكي يتوافق مع النزعة العملية التي كانت تتبناها الدولة والكنيسة. أما فى عصر النهضة فقد أدى إعادة اكتشاف رسائل شيشرون على يد الإنسانيين الإيطاليين Italian Humanists إلى التقدير الشديد لمزايا هذه الرسائل الأسلوبية، وإلى الإعجاب الشديد بالمؤلف. وكانت هذه الرسائل تستخدم فى تدريس اللغة اللاتينية فى المدارس الثانوية، وكانت الطبعة المستخدمة تحتوي على تعليقات لأحد الإنسانيين الذي ينتمي لمدينة ستراسبوج وهو جونس سترم Johannes Sturm (١٥٠٧ - ١٥٨٩). كانت الكتيبات الجديدة التي تتناول فن كتابة الرسائل - والتي حلت محل الكتيب الذي كان موجودًا من العصور الوسطى بعنوان **فن التأليف** (تأليف الرسائل) **artes dictaminis** - تحتوي على جزء إضافي يتناول الرسائل الشخصية (غير الرسمية) epistola familiaris. وأصبحت هذه الرسائل الشخصية هي وسيلة الاتصال المتداولة بين الإنسانيين، الذين استخدموها

لتبادل الأفكار ونقلها إلى دائرة العلماء والمفكرين respublica literaria، ولكن كان يوجد أيضًا ازدياد ملحوظ فى استخدام هذه الرسائل الشخصية بين المتعلمين من أبناء الطبقة المتوسطة. وقد اتبعت أهم الكتيبات التي تناولت فن كتابة الرسائل والتي كتبت باللاتينية الجديدة neo - Latin النمط البنائي للأنواع البلاغية الكلاسيكية من حيث تصنيف الخطابات الرسمية إلى عدة أنواع. وتضم قائمة هذه الكتيبات الأسماء الآتية: **كتابة الرسائل De conscribendis epistolis** (١٥٢٢) لإرازموس، و**أسلوب كتابة الرسائل Methodus conficiendarum epistolarum** لكونرادوس سيلتيس Conradus Celtes (١٤٥٩ – ١٥٠٨) (و نشر بعد وفاته فى عام ١٥٣٧)، و**حقيقة أسلوب الكتابة De ratione scribendi** (١٥٤٥) لأوريلياس ليبوس براندوليناس Aurelius Lippus Brandolinus (١٤٥٤م تقريبا – ١٤٩٧ م تقريبا). ويرى إنجيل داي Angel Day فى كتابه **السكرتير الإنجليزي The English Secrertorie** (١٥٨٨) أن الرسائل تنقسم لأربعة أنواع: رسائل توضيحية Demonstrative، ورسائل تشاورية Deliberative، ورسائل قانونية Judicial، وأخيرا رسائل شخصية familiar، ثم انقسمت هذه الرسائل الأربع إلى أنواع أخرى فرعية. وكانت هذه الرسائل تكتب على نمط الخطب الكلاسيكية، فضلا عن استخدام فنون البلاغة البديعية الخمسة، باستثناء عنصري الحافظة، والإلقاء، حيث كان يعتبران من العناصر غير الضرورية فيما يتعلق بفن الكتابة.

ومن ثم فإن غالبية الرسائل التي كتبت فى عصر النهضة حول فن كتابة الرسائل تتبنى كل ما يتعلق بالبلاغة الشفهية oral rhetoric بما فى ذلك تصنيفاتها التقليدية، وخطواتها، والتركيبات البنائية المستخدمة فيها. ولكن يوجد الكثير من الكتاب الذين رفضوا هذا النهج، ولعل الاسم البارز فى هذا الصدد هو جاستس ليبسياس Justus Lipsius (١٥٤٧ – ١٦٠٦) الذي رفض تحويل الرسالة إلى قالب بلاغي، فقد كان يرى أن الرسالة هي نوع واحد

وهي الرسالة الشخصية. وفي خضم هذا الزخم حول كتابة الرسائل، ظهر بعض الكتاب الذين أكدوا على أهمية الأسلوب، ولعل أبرزهم إنجيل داي الذي نشر طبعة ثانية لمؤلفه **The English Secretorie** (1592) والذي أضاف إليه جزءًا تناول فيه أنواع البديع، والصور البلاغية، والمحسنات البديعية التي تناسب أسلوب كتابة الرسائل.

وتتسم الكتب التي كتبت عن وصف كتابة الرسائل epistolography بأن المساحة المخصصة للأمثلة التوضيحية المذكورة فيها تتعدى بكثير تلك المساحة المخصصة لمناقشة قواعد كتابة الرسائل، كما أن عدد الأمثلة يفوق بكثير عدد القواعد. وتكمن أهمية هذه الكتب فى وجود عدد كبير من المختارات للرسائل التي تغطي الكثير من المناسبات، وتلقي الضوء على الأغراض المختلفة للكتابة. ولذلك نشر - على سبيل المثال - مجموعة مختارة من الخطابات الغرامية فى لندن فى عام ١٦٣٣ تحت عنوان طويل وهو **رسول كيوبيد أو الصديق المخلص الذي لديه العديد من أنواع الرسائل الجادة، والطريفة، والمبهجة، والغرامية، والسارة.**

Cupid's Messenger or A trusty Friend stored with sundry sorts of serious, witty, pleasaunt, amorous, and delightfull Letters.

وهذه الكتب والكتيبات هي أمثلة للبلاغة العملية practical rhetoric، وهي تشبه الكتب المعتادة فى الشكل والوظيفة (انظر فن التأليف (تأليف الرسائل) ars dictaminis والبلاغة الرسائلية Epistolary rhetoric).

بلاغة الصيغ Formulary rhetoric

لا يتكون هذا النوع من البلاغة من مجموعة من المبادئ، وإنما من مجموعة من الأمثلة والنماذج التي تستخدم لتقليدها. وتتمثل هذه البلاغة فى مجمع الأمثال، والأقوال المأثورة، ومجموعات الخطابات النموذجية، ودواوين المقتطفات

الشعرية، وقواميس الاقتباسات. وهذا النوع من البلاغة ينشر فى الشكل المعتاد للكتب (ليس فى شكل رسائل أو أبحاث)؛ لأن محتوى هذه الكتب عبارة عن مجموعات من الأقوال، والمقتطفات المتميزة المأخوذة من أعمال لمؤلفين كلاسيكيين، أو أعمال معاصرة تعد من الكلاسيكيات الحديثة modern classics. ولا شك أن مثل هذه الأقوال والمقتطفات قد استخدمها الكثيرون من الخطباء والمؤلفين، وهي تعد معيناً لا ينضب لمن يريد أن يسير على تقليد من سبقوه، أو يبني على مؤلفاتهم ويضيف لها من بنات أفكاره. ولا شك أن المادة التي يقدمها هذا النوع من البلاغة تعد ذاكرة حية للكتب الكلاسيكية الشهيرة والمؤلفين الكبار الذين تنسب إليهم هذه الأقوال والمقتطفات. وأصبح لهذا النوع من البلاغة شعبية واسعة فى عصر النهضة. وكانت الأقوال والمقتطفات ترتب أبجديا طبقًا لعدة معايير تتعلق بالمفاهيم الفلسفية، والعقائد اللاهوتية، والمناهج الدراسية، ويظهر تطبيق هذه المعايير جليًا فى كثير من الأعمال الموسوعية التي ظهرت فى القرن السابع عشر. ولعل أبرز من أصدر أعمالا تندرج تحت هذه النوعية من البلاغة هو إرازموس الذي يعد كتابه **الأقوال المأثورة Adagia** (صدر فى عام ١٥٠٠) – طبقًا لما جاء فى الكثير من الإثباتات البيليوجرافية – عملاً حاز على إعجاب الناس؛ ولذلك طبع عدة مرات، وترجم إلى العديد من اللغات المحلية vernaculars، بل ووصلت شعبيته وشهرته إلى أن أصبح واحدًا من أشهر الكتب فى أوروبا قاطبة. (انظر الحقائق البديهية البالية والمبتذلة Commonplaces، والكتب الشائعة Commonplace books، والمحاكاة Imitation).

بلاغة الصور المجازية The rhetoric of figures

يوجد تراث كبير وممتد لبلاغة الصور المجازية يتمثل فى الرسائل (بمعنى بحث أو كتيب صغير)، والنصوص القديمة والمجمعة، ويمتد هذا التراث مرورًا بالعصور الوسطى ممثلا فى poetriae novae والذي يعد

خلاصة وافية للمحسنات البديعية واللفظية. وقد حاولت الحركة الإنسانية – بإعادة اكتشافها لأسلوب شيشرون الرفيع، وإدراكها للقصور اللغوي فى الكتابات المعاصرة لها – تنقية مصادر اللغة وزيادتها عن طريق تجميع المفردات والتعبيرات التي وردت فى كتابات الجهابذة من الكتاب الكلاسيكيين. ويعد مؤلف إرازموس المعنون **حقيقة الغزارة الثنائية للكلمات والأشياء** **De duplici copia verborum ac rerum** (١٥١٢) إلى حد كبير من أكثر أنواع البلاغة الأسلوبية التي أدت إلى زيادة مصادر اللغة (الراقية) وتنقيتها. وسرعان ما شق هذا الكتاب طريقه من لندن إلى معظم دول أوروبا فى عصر النهضة، مصحوبًا بتعليق نقدي متعمق لإم فيلتكيرشياس M. Veltkirchius. وقام موسيلانوس Mosellanus بإصدار طبعة مختصرة من هذا الكتاب عام ١٥٣٦ تحت عنوان **جداول المحسنات البديعية واللفظية** **Tabulae de chematibus et tropis**. ويتألف هذا الكتاب من مجموعة من الشروح المفصلة للصور البلاغية، فضلا عن مجموعة من الأمثلة التوضيحية الثرية والبديعة؛ مما يجعل هذا الكتاب يحتل مكانة وسطى بين الرسائل البلاغية التي تتحدث عن مبادئ البلاغة من ناحية، وبين تلك التي تضم خلاصة عملية من الأمثلة من ناحية أخرى. وكانت الرسائل التي تكتب عن الصور البلاغية ينظر إليها على أنها كتب دراسية تصلح للتدريس للطلاب، بما فيها رسالة إرازموس المعنونة **أسس الأسلوب المتنوع** **De Copia** ولعل هذا يرجع إلى الأسلوب الرفيع الذي ألفت به هذه الرسائل. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن طلاب المدارس كانوا يتعرفون على الصور البلاغية من خلال تلك الكتب التي تتناول قواعد النحو، مثل تلك التي ألفها كل من جونس ديسباوترياس Johannes Despauterius (١٤٦٨ م تقريبا – ١٥٢٠ م) وويليام ليلي William Lily (١٤٦٨ م تقريبا – ١٥٢٢ م)، والتي كانت تحتوي على العديد من الأجزاء التي تتناول الصور البلاغية (انظر كتاب جرين Green الصادر فى

عام ١٩٩٩). وكانت معظم الكتب التي تتناول الصور البلاغية تدرس لطلاب المرحلة الثانوية. واللافت للنظر أن هذه الكتب كانت تكتب بطريقة متشابهة من حيث ترتيب مادتها العلمية، فنجد المقدمة، يليها استعراض عام لسمات الأسلوب بمستوياته الثلاثة: الرفيع، والمتوسط، والمتدني، يلي هذا الجزء جزء آخر يتناول الصور البلاغية بشكل متعمق، ويقسمها إلى الصيغ البديعية schemes والتي تتضمن تغيرا فى الشكل، والمجازات التي تنشأ من تغيّر معاني الكلمات (مثل الاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل، والمفارقة الساخرة) أو تغيّر فى الجمل (مثل الأمثولة، والتشبيه، والحكاية الرمزية على ألسنة الحيوان، والصورة الرمزية). ولم يكن الهدف الأساسي لمثل هذه الكتب هو إمداد الشعراء بالطرق الأسلوبية والفنية المختلفة، بل كان الهدف منها برجماتيًا محضًا، كما يتجلى فى كتاب هنري بيتشام Henry Peacham المعنون **بستان البلاغة The Garden of Eloquence** (الذي صدرت طبعته الأولى فى عام ١٥٧٧، والثانية فى عام ١٥٩٣). وعلى الرغم من العنوان المنمق الفضفاض لهذا الكتاب، فإن الذي كتبه رجل دين ليستخدمه رجال الدين.

ولكن التغير الجذري الذي طرأ على وضع البلاغة المجازية figurative rhetoric حدث مع الإصلاح الرامي Ramist reform (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي)، الذي قاد إلى تحديد الأمور، حيث أصبح النظم والترتيب disposition، والابتكار invention يدرس تحت علم الجدل dialectic، بينما اختصت البلاغة بفن الخطابة والإلقاء. ولا شك أن التطابق بين مفهومي البلاغة والأسلوب فى ذلك الوقت أدى إلى وجود مفهوم خاطئ لبلاغة مبتورة.

هذا المفهوم الخاطئ – وللأسف الشديد – مازال حيًا بيننا إلى يومنا هذا. ويرجع الفضل إلى البلاغيين الراميين Ramist rhetoricians فى أنهم قاموا "بتشريح جثة" المجاز، وقسموه إلى ثنائيات ورتبوها فى نظام هرمي

منطقي وقاطع؛ مما سهّل حفظ هذا التقسيم. ولعل إحدى أهم سمات الرسائل التي تتناول البلاغة التي كتبها الراميون هو استخدامهم للأمثلة الأدبية وخاصة الكلاسيكية كإحدى وسائل الإيضاح. أما فى تلك الرسائل التي تناولت البلاغة وكتبت باللغة الإنجليزية، فنجد اقتباسات من أعمال الكتاب المعاصرين فى تلك الفترة من أمثال تاسو Tasso، وسيدني Sidney، وسبنسر Spenser، ودو بارتاس Du Bartas. ولعل أبلغ مثال على هذه النوعية من الرسائل رسالة أبراهام فراونس Abraham Fraunce التي نشرت عام ١٥٨٨ (تقريبا)، تحت عنوان **البلاغة الأركيدية Arcadian Rhetoric**.

وحظيت أهمية الصور البلاغية بالنسبة لكتابة الشعر وتفسيره بمكانة خاصة عند الكتاب الذين تناولوا فن الشعر فى هذه الفترة، ويظهر ذلك جليًا فى تخصيص كل كاتب لجزء من مؤلفه يتناول فيه تلك المسألة. ولذلك نجد الجزء (الكتاب) الرابع فى مؤلف جوليوس سيزار سكاليجر Julius Caesar Scaliger عام ١٥٦٩ والمعنون **سبع كتب عن فن الشعر Poetices Libri Septem** يتناول تحليلاً للسمات الأسلوبية، كم يخصص الكاتب فصلاً كاملاً لتناول فكرة الصور البلاغية figuare. وفي كتاب **فن الشعر الإنجليزي The Arte of English Poesie** (صدر فى عام ١٥٨٩) يختلف كاتبه جورج بوتنهام George Puttenham عن سكاليجر فى تناوله للصور البلاغية، حيث يرى أن لها دورًا عاطفيًا واجتماعيًا لا يمكن تجاهله، أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فيتناول ترجمة الكثير من أسماء الصور البلاغية إلى اللغة الإنجليزية، مثل Sententia التي ترجمها بالقول الحكيم، وironia والتي يترجمها بالسخرية اللاذعة....إلخ (انظر **الأسلوب الوافر المتنوع** Copia، والصور البلاغية Figures of speech، والأسلوب Style).

الحافظة: Ars memorativa (memory)

تعد الحافظة هي المرحلة الرابعة من مراحل تأليف أي خطبة أو خطاب شفهي oral discourse، وقد انفصل هذا العنصر (الحافظة) عن العناصر الأخرى الأربعة فى النظام البلاغي، وأصبح له مكانته المستقلة، ويظهر هذا جليًا في قيام الكتاب بكتابة رسائل تتناول هذا العنصر على حدا مثل تلك الرسالة التي كتبها الراهب الدومينكاني جونس هوست دي رومبرتش Johannes Host de Romberch (١٤٨٥ – ١٥٣٣) تحت عنوان **خلاصة الحافظة الفنية** **Congestorium Artificiose Memorie** والتي يخاطب فيه الوعاظ، والمثال الثاني يتمثل فى الرسالة التي كتبها كوزماس روزيلياس Cosmas Rossellius (توفى عام ١٥٧٨) وعنوانها **خزانة الحافظة الفنية** **Thesaurus Artificiosae Memoriae** والتي يخاطب فيها جمهورا أكبر من القراء يشمل الوعاظ، والفلاسفة، والأطباء، ولمحامين. وقام عالم اللاهوت الإنجليزي جون ويليز John Willis (توفى عام ١٦٢٨ تقريبا) بكتابة رسالة باللاتينية بعنوان **فن الحافظة** **Mnemonica** (١٦١٨)، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى الإنجليزية. وفي هذه الرسالة قام ويليز بتعديل "مفهوم المرئي التقليدي"؛ فضم إلى جانب الصورة، التمثيل اللفظي، والصور الرمزية. ويمكننا أن نقول إن عصر النهضة قد شهدت تغيرًا ملحوظًا فى بناء الحافظة. وتحولت الضيعة الرومانية للبلاغة الشيشرونية إلى مسرح أو إلى كاتدرائية أو دير مبني على تراث العصور الوسطى. وقد رفض المصلحون البروتستانتيون الراديكاليون من أمثال ويليام بركينز William Perkins (١٥٥٨ – ١٦٠٢) الفن الكلاسيكي للحافظة؛ لأنه يضر بالنفس البشرية، باعتباره يخاطب الخيال الجامح، والمشاعر. وعلى الرغم من أن الصحافة قد استحدثت وسيطا جديدا أنتج نمطًا جديًدا من حافظة يتميز بموضوعية أكبر، فإن فن الحافظة الكلاسيكي لم يخبو دوره، ولكنه اكتسب وظائف جمالية جديدة فى فني الشعر والرسم. وإذا كانت تلك الرسائل التي شهدها القرن السادس عشر قد جمعت ما بين النظرية

الكلاسيكية، والوصفات الطبية لصون الحافظة الجيدة، إلا أن هذه الحافظة أصبحت الأساس البنائي للعديد من الموسوعات التي صدرت فى القرن السابع عشر (انظر كتاب شميديت – بيجيمان Schmidt - Biggemann الصادر فى عام ١٩٩٣).(انظر الحافظة – الذاكرةMemory).

الإلقاء Delivery

يعد فن الإلقاء أحد أركان البلاغة الخمسة، وقد حاز الإلقاء على بعض الانتباه، وتمثل ذلك فى بعض الكتيبات التي تحدثت عن البلاغة بشكل موسع، وفي المصادر التي تناولت البلاغة الرامية (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي) Ramist rhetoric، ولكن نادرا ما كان الإلقاء موضوعًا لكتاب منفصل. ويخصص جون بولاور John Bulwer كتابه المعنون **فن البلاغة اليدوية** **The Art of Manual Rhetorique** (١٦٤٤) لدراسة الملكات الإقناعية الموجودة فى اليدين والأصابع، حيث يحاول أن يرسي بعض القواعد، حيث يقوم بالربط بين بعض أوضاع اليد والأصابع وبين بعض المشاعر الإنسانية. فالقاعدة الحادية والعشرين مثلاً تنص على أن مصافحة الآخرين باليد، مع تعقد الحاجبين يدل على شعور بالامتعاض، والاستنكار، والكراهية، والرفض، وعدم التقبل. وتصاحب هذه الأوصاف اللفظية صورة لليدين chirogrammatic والتي تحتوي على أمثلة مرئية للإيماءات البلاغية، وهي تعد بصفة عامة نسقًا عامًا للغة الإشارة، كما تعد من نواحي الإبداع فى الفنون المرئية (انظر الإلقاءDelivery).

البلاغة الوسيطة Intermedial rhetoric

في فترة عصر النهضة، وسعت البلاغة من نطاق تطبيقاتها، وأصبحت تعد نموذجًا رمزيًا يشار إليه فيما يتعلق بوسائل الإعلام غير اللفظية nonverbal media سواءً من حيث النظرية والتطبيق. ويوضح أر دبليو لي

R.W.Lee فى كتابه **أوجه التشابه بين الشعر والرسم** **Ut Pictura Poesis** (نشر عام ١٩٤٠ وأعيدت طباعته عام ١٩٦٢) بعض المفاهيم المتعلقة بالذوق decorum والابتكار invention، وإمكانية نقل هذه المفاهيم البلاغية إلى النظرية التصويرية pictorial theory (ليون باتستا البرتي Alberti Leon Battista، وليوناردو دي فينشي Leonardo da Vinci)، وهو ما يخدم بدوره فكرة الإرتقاء بالفن الميكانيكي ars mechanica إلى مرحلة الفن الليبرالي ars liberalis. (انظر كلمة الفن Art). أما فيما يتعلق بنظرية الموسيقى وتطبيقاتها فقد حدث انتقال مماثل للمفاهيم البلاغية للموسيقى، ويعد كتاب جواكيم بيرمايستر Joachim Burmeister المعنون **فن التأليف الموسيقي** **Musica Poetica** (صدر فى عام ١٦٠٠) خير دليل وشاهد على هذا الانتقال. واستمر تحويل الموسيقى إلى قالب بلاغي فى القرن الثامن عشر، حيث كان كبار المؤلفين الموسيقيين من أمثال جوان سباستيان باخ Johann Sebastian Bach، وجورج فريدريك هاندل George Frideric Handel يمارسون ما يسمون بالبلاغة الموسيقية Klangrede. (انظر كلمة الموسيقى Music).

الجوانب العملية للبلاغة فى عصر النهضة

Practicalities of Renaissance Rhetoric

لم تقتصر البلاغة فى عصر النهضة على مخاطبة مهنة أو حرفة إنسانية بعينها، بل امتدت لتغطي مجالاً واسعًا يشمل العديد من الأنشطة النظرية والعملية. فقد كان للبلاغة أثرٌ واضحٌ فى حياة التأمل التي يحياها العلماء والفلاسفة، كما كان لها أثرٌ مماثلٌ فى حياة رجال الدولة والقساوسة المليئة بالحركة والنشاط. وإذا أردنا ذكر بعض المجالات التي لعبت فيها البلاغة دورًا فاعلاً، فيمكننا أن نذكر مجالات مثل البحث، والسياسة، والتعليم، والثقافة، والعلم، والأدب.

وقد كان البلاغيون فى عصر النهضة من العلماء الذين ينتمون للحركة الإنسانية، وكان هدفهم الأساسي هو إحياء النصوص الكلاسيكية التي اندثرت. ولكن بصرف النظر عن هذه المهمة المتمثلة فى إحياء التراث، كان هؤلاء البلاغيون يرون أنه من المهم أيضا وجود نسخ مطبوعة ومصححة لغويًا وتاريخيًا لتلك الكنوز التراثية التي أعادوا اكتشافها. وبناءً على هذا طُبع العديد من أعمال أرسطو، وشيشرون، وهيرموجينيس، وكينتليان مصحوبة بحواشي وتعليقات نقدية. وحينما بدأ هؤلاء بكتابة مؤلفاتهم الخاصة بهم حول البلاغة، حاولوا محاكاة الأقدمين، مستعرضين ثقافتهم الواسعة بالإشارة إلى التراث الكلاسيكي، وإلى الكتاب المعاصرين على حد سواء. ولعل أهم الأمثلة فى هذا المجال تتمثل فى أعمال كل من جونس ستيرم Johannes Sturm (١٥٠٧ - ١٥٨٩)، وهو أحد المنتمين للحركة الإنسانية فى ستراسبورج، وأحد التربويين البارزين، ويبرز أيضا اسم جيراردوس جوناس فوسياس Gerardus Joannes Vossius (١٥٧٧ - ١٦٤٩) وهو أحد المنتمين للحركة الإنسانية فى مدينة لايدن Leiden، وله كتاب شهير بعنوان **طبيعة البلاغة وتأليفها** De rhetorices natura ac constitutione (١٦٢٢).

ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن هؤلاء الإنسانيين لم يكونوا فقط من أصحاب الحب الراسخ للبلاغة الكلاسيكية، وجهابذة العلماء والباحثين، بل كانوا أيضا من أصحاب العقليات العملية، فقد كان منهم المحامون، وكتاب العدل، والوزراء، وآخرون ممن لهم حياة مهنية تتعلق بالشأن العام. ففي إيطاليا تولى كولوشيو سالوتاتي Coluccio Salutati منصب مستشار جمهورية فلورنسا Chancellor of Republic Florence، وفي إنجلترا تولى توماس ويلسون Thomas Wilson منصب وزير الخارجية، وفي فرنسا عمل نيكولا كوسيناس Nicolaus Caussinus ككاهن الاعتراف الخاص بالملك confessor، ومستشاره الخاص. ويمكننا أن نقول إن الأمر صار مبدأ أو قاعدة بين هؤلاء البلاغيين، يكشف عن رغبتهم الشديدة فى العمل فى السلك الدبلوماسي كسفراء لحكوماتهم.

ولعل المثال السيئ الذي يبرز للسطح لأحد رجال السياسة الذي تحول إلى مجال البلاغة هو نيكولا ميكيافيلي Niccolò Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) والذي طور فى كتابه **الأمير The Prince** (صدر فى عام ١٥١٣) نظرية العمل بالسياسة، والتي تقضي بأن الحاكم يجب ألا يقلد الأسد الكاسر، بل يمشي على خطى الثعلب الماكر فى أقواله وأفعاله، وهي قدرة تجعله يتفوق على أعدائه حتى على من يفوقه ذكاءً. وتزخر مسرحيات شكسبير بالعديد من النماذج الميكافيلية الشريرة من أمثال ريتشارد الثالث، وشخصية بروتياس Proteus فى مسرحية **سيدين من مدينة فيرونا Two Gentlemen of Verona**، وشخصية دون جون Don John فى مسرحية **جلبة بلا طحن Much Ado about Nothing**، وشخصية إدموند فى **الملك لير King Lear**، وإياجو Iago فى **عطيل Othello**. وهذه الشخصيات المذكورة ترتكب الجرائم والموبقات من خلال استخدام البلاغة التي تعج بالنفاق والتلميحات. وعلى النقيض من مفهوم ميكيافيلي للبلاغة النفعية utilitarian rhetoric التي تخلو من أي مبادئ أخلاقية، نجد السير توماس إليوت Sir Thomas Eliot (١٤٩٠م تقريبا – ١٥٤٦ م) يقدم لنا فى كتابه **الحاكم المثالي The Book Named the Governor** (صدر فى عام ١٥٣١) نموذجا للحاكم المسيحي الذي يجسد المبادئ الأخلاقية، واللباقة العملية.

أما فيما يتعلق بالتربية، فلم يكن الإنسانيون (الذين ينتمون للحركة الإنسانية) راضين عن مستوى البحث الأكاديمي، ولكنهم حاولوا نشر المحتوى الفكري له بين عامة الناس. وقد حاول كل من ديسيدرياس إرازموس Desiderius Erasmus وسبانيارد جوان لويس فيفز Spaniard Juan Luis Vives (١٤٩٢-١٥٤٠) –وكلاهما من أصحاب التوجه الكوزموبوليتاني cosmopolitan الخالي من الأحقاد القومية – إدخال البلاغة فى مناهج التعليم المدرسية، حتى تكون دراستها فى متناول كل مواطن متعلم. وسار على خطاهما مجموعة من

التربويين الأقل فى المكانة، والمساوين لهم فى الحماس، وتمثل ذلك فى كتابة عدد من الكتب المدرسية والرسائل عن البلاغة مثل كتاب **المعلم The Schoolmaster** (صدر فى عام ١٥٧٠) الذي كتبه روجر أسكام Roger Ascham (١٥١٥ - ١٥٦٨)، وكتاب **المدارس التي تدرس اللاتينية واليونانية Ludus Literarius** الذي كتبه جون برينسلي John Brinsley فى عام ١٦١٢.

ومن ثم أصبحت البلاغة أحد العوامل المسيطرة فى خلق وعي ثقافي إنساني. ويكمن لب البلاغة فى المذهب الشيشروني بأن الحكمة يمكن أن تتحقق عن طريق اللباقة والبلاغة، وأدى هذا الاعتقاد إلى وجود نظرية تقول بأن الكلمة المغلفة باللباقة والفصاحة هي أصل الثقافة. ومن ثم أصبح ينظر إلى الأبطال التراثيين على أنهم حجج علمية يرجع إليها، ومن أمثلة هؤلاء هرقل جاليكاس Hercules Gallicus، الذي استطاع بفصاحته وحسن حديثه أن يحول الغاليين البربر (السلتيون من بلاد الغال) Gauls من أناس بدائيين إلى أهل حضارة وتمدين. وفي السياق نفسه استطاع الخطيب، والشاعر، والموسيقي أورفيوس Orpheus ترويض الحيوانات المتوحشة (و يقصد بهم البشر فى هذه الأسطورة)، وفي نسخة أخرى من الأسطورة استطاع أن يخرج العالم من الفوضى البدائية التي كان يعيش فيها. ومن ثم أصبحت القوة السحرية للبلاغة والموسيقى تخلق نوعًا من التجانس والنظام، بل وتحافظ عليهما فى مجالات الحياة كافة. ولهذا السبب كان الحكام يحبون أن يحتفى بهم وينظر إليهم على أنهم هرقل وأورفيوس، بمعنى أنهم من يحفظون السلام والتجانس بين الناس. وقد فندت واقعية الأحداث هذه الأيدلوجية، كما اضمحلت ثقافة الحركة الإنسانية Humanist culture؛ مما أدى إلى أن محاولة البلاغة أن تجد لها مكانًا وموقعًا ولكن بطريقة مختلفة، بمعنى تحولها إلى ركن أساسي من ثقافة البلاط الملكي courtly culture. وقد تم صياغة هذا المفهوم

أولا على يد بالداسير كاستيجليوني Baldassare Castiglione في كتابه **Il Cortegiano** (صدر في سنة ١٥٢٨، وترجمه إلى الإنجليزية السير توماس هوبي Sir Thomas Hoby في عام ١٥٦١ تحت عنوان **رجل البلاط The Courtier**). وأصبح هناك إيمان راسخ طبقًا لهذه الثقافة أنه لم يعد من اللائق أن يُظهر الإنسان الفن أو يكشف عنه بما في ذلك فن الإقناع، ومن الذكاء أن يخفيه. ويعد إخفاء هذا الفن – والذي يوصف بالإيطالية بكلمة srezzatura، وهي تقارب في الإنجليزية معنى كلمة understatement – أهم إنجازات الفن، وهو ما يتطابق مع فكرة Altera natura أو الطبيعة المغايرة، والتي تعني أنه لم يعد يعرف بعد من حيث هو فن، وإنما أصبح له الطبيعة التي تخلو من الفن artless nature، والطبيعة هنا لا تعني الحالة البدائية الأصلية، وإنما تعني تلك الطبيعة التي روضها الفن.

ويساوي جورج بوتنهام George Puttenham في كتابه **فن الشعر الإنجليزي The Arte of English Poesi** (نشر في عام ١٥٨٩) بين الأمثولة allegoria – وهو نوع البديع الأساسي في بلاغة البلاط الملكي – وبين كل من صورة المظهر الجميل وصورة المظهر الخادع، وهو ما يشير إلى ذلك التوازن الرقيق والدقيق الذي تقوم به ثقافة البلاط الملكي بين المظهر والمخبر، أو بين البهتان والحق. ومن ثم فإن الأمر كله يعد خطوة صغيرة للانتقال من جماليات اللا فن الفني artful artlessness إلى بلاغة ميكيافيلي اللا أخلاقية التي تقوم على الخداع.

وعند ظهور الطبقة الوسطى وامتلاكها للمال والنفوذ الاجتماعي، حاول من ينتمي إلى هذه الطبقة منافسة الطبقة الأرستقراطية عن طريق تبني لغتهم الثقافية؛ وقد أدى هذا في بعض الأحيان إلى نوع من الفشل السخيف ridiculous failure، وهو ما أظهره موليير ببراعة في مسرحيته الكوميدية **الجنتلمان البرجوازي**

Le Bourgeois gentilhomme (١٦٧٠). ولكن مع ظهور أزمة الأرستقراطية crisis of aristocracy (انظر كتاب ستون Stone الصادر فى عام ١٩٦٥) قامت الطبقة الوسطى ذات العقلية الأحادية الأبعاد one dimensional بانتقاد مفهوم البلاط الملكي للثقافة، ونظروا إليه على أنه يعبر عن الانحطاط والاضمحلال. ومن ثم حل الأسلوب الخالي من أي بديع أو فن artless plain style محل الأسلوب المجازي المنمق، وأصبح هذا النوع من الأسلوب هو وسيلة التعبير اللفظية لذلك الجنس الأدبي الذي يعبر عن الأدب البرجوازي، ونقصد به فن الرواية.

ولمَ يكن هناك بلاغة مخصصة للعلوم الجديدة (انظر كتاب موس Moss الصادر فى عام ١٩٩٣، وكتاب نيت Nate الصادر فى عام ٢٠٠٠). لأن البلاغة الكلاسيكية والزخرفة اللغوية لم تكن تناسب موضوعية، ودقة العلوم الجديدة. ولذلك يشير توماس سبرات Thomas Sprat فى كتاب **تاريخ الجمعية الملكية بلندن History of the Royal Society of London** (صدر فى عام ١٦٦٧) إلى القرار الدائم والثابت الذي اتخذته الجمعية وهو: "رفض الاستطرادات والزخارف اللغوية والعودة إلى نقاء اللغة وبساطتها، ووضوحها، والعودة إلى التعبير عن المعنى باستخدام الكلمات اللازمة دون زيادة أو نقصان". وقد أدى رفض الزخرفة البلاغية إلى وجود نوع من البلاغة المضادة التي نراها واضحة فى كتاب جون لوك John Locke على سبيل المثال والمعنون **مقال حول الفهم الإنساني An Essay Concerning Human Understanding** (١٦٩٠) حيث يقول "كل فنون البلاغة لا هدف لها إلا بث الأفكار الخاطئة، وإثارة المشاعر، ومن ثم تضليل العقل. ومن ثم فإن هذه الفنون البلاغية هي فى جوهرها أدوات غش وتدليس كاملة ".

وقد أدى وضع الأدب فى قالب بلاغي إلى ظهور بعض السمات مثل: الزخرفة المجازية، ومزج المفاهيم البلاغية بالمفاهيم الشعرية التقليدية،

والتأثير العاطفي القوي، والانفعال المعتدل، والحيوية الممثلة فى خلق الإيهام بوجود واقع أو وجود ما. ولم يؤد الاهتمام الشديد بالأسلوب الخالي من الزخارف البديعية واللفظية، ولا ظهور القصص النثري إلى التخلي عن هذه السمات، بل ظلت باقية كسمات مميزة للشعر بأنواعه كافة. (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والحركة الإنسانية Humanism).

Bibliograpy قائمة المراجع

Adolph، Robert. *The Rise of Modern Prose Style*. Cambridge, Mass., 1968.

Artaza, Elena ed., Antología de textos retóricos espa. oles del siglo XVI. Bilbao, 1997.

(وهي مجموعة من النصوص الإسبانية التي كتبت عن البلاغة فى القرن السادس عشر ومرتبة طبقا لفنون البلاغة الخمسة)

Ashley, L. R. N. "Research Opportunities in English Homiletics and Rhetoric." *Literary Research Newsletter* 6 (1981), pp.pp. 143–169; 7 (1982), pp.pp. 12–29.

Barner, Wilfried. *Barockrhetorik: Untersuchungen zu ihren geschichtlichen Grundlagen*. Tübingen, 1970.

Baüer, Barbara. *Jesuitische "ars rhetorica" im Zeitalter der Glaubenskämpfe*. Frankfurt a.M., 1986. Castelli, Enrico ed., Retorica e Barocco. Rome, 1955.

Cave, Terence. *The Cornucopian Text: Problems of Writing in the French Renaissance*. Oxford, 1979.

Fumaroli, Marc. *L'Age de l'éloquence: Rhétorique et "res literaria" de la Renaissance au seuil de l'époque classique*. Geneva, 1980.

García Berrio, Antonio. *Formación de la teoría literaria moderna*. 2 vols. Madrid, 1977–1980.

Grafton, Anthony, and Lisa Jardine. *From Humanism to the Humanities: Education and the Liberal Arts in Fifteenth - and Sixteenth - Century Europe*. Cambridge, Mass., 1986.

Graham, Kenneth. *The Performance of Conviction: Plainness and Rhetoric in the Early English Renaissance*. New York, 1992.

Grassi, Ernesto. *Rhetoric as Philosophy: The Humanist Tradition.* University Park, Pa., 1980.

Green, Lawrence D. "*Grammatica movet: Grammar Books and Elocutio.*" *In Rhetorica Movet: Studies in Historical and Modern Rhetoric in Honour of Heinrich F. Plett*, edited by Peter L. Oesterreich and Thomas O. Sloane, pp.pp. 73–115. Leiden, 1999.

Hardison, O. B., Jr. *The Enduring Monument: A Study of the Idea of Praise in Renaissance Literary Theory and Practice.* Chapel Hill, N.C., 1962; reprint, Westport, Conn., 1973.

Hinz, Manfred. *Rhetorische Strategien des Hofmannes: Studien zu den italienischen Hofmannstraktatendes 16. und 17. Jahrhunderts.* Stuttgart, 1992.

(وهي دراسة للاستراتيجيات البلاغية التي استخدمت وروج لها في الكتب والرسائل التي كتبت بالإيطالية عن الذوق)

Howell, Wilbur Samuel. *Logic and Rhetoric in England,* 1500–1700. Princeton, 1956; reprint, New York, 1961.

Javitch, Daniel. *Poetry and Courtliness in Renaissance England.* Princeton, 1978.

Kibédi Varga, Á. *Rhétorique et littérature: Études de structures classiques.* Paris, 1970.

Knape, Joachim. Philipp Melanchthons "Rhetorik." Tübingen, 1993.

Mack, Peter ed., *Renaissance Rhetoric.* Basingstoke, U.K., 1994.

Meerhoff, Kees. *Rhétorique et poétique au XVIe siècle en France: Du Bellay, Ramus, et les autres. Leiden,* 1986.

Monfasani, John. *George of Trebizond: A Biography and a Study of His Rhetoric and Logic.* Leiden, 1976.

Moss, Jean Dietz. *Novelties in the Heavens: Rhetoric and Science in the Copernican Controversy*. Chicago, 1993.

Murphy, James J. *Renaissance Rhetoric: A Short - Title Catalogue on Rhetorical Theory from the Beginning of Printing to A.D.1700, with Special Attention to the Holdings of the Bodleian Library, Oxford. With a Select Basic Bibliography of Secondary Works of Renaissance Rhetoric*. New York, 1981.

(وهذا المرجع عبارة عن ببليوجرافيا مرتبة أبجديًا للنصوص البلاغية التي تنتمي لعصر النهضة فى أوروبا).

Murphy, James J., ed. *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*. Berkeley, 1983.

(وهذا المرجع عبارة عن مجموعة من المقالات التي كتبت عن عدد من الموضوعات المختلفة مثل البحث الببليوجرافي، والأخلاق، وعلم السياسة، واللاهوت، والأسلوب، والأدب.)

Nate, Richard. *Wissenschaft und Literatur im England der frühen Neuzeit*. Munich, 2000.

O'Malley, John W. *Praise and Blame in Renaissance Rome: Rhetoric, Doctrine, and Reform in the Sacred Orators of the Papal Court*, c. 1450–1521. Durham, N.C., 1979.

Ong, Walter J. Ramus, *Method, and the Decay of Dialogue: From the Art of Discourse to the Art of Reason*. Cambridge, Mass., 1958. Reprinted, 1983.

Plett, Heinrich F. Rhetorik der Affekte: Englische Wirkungsästhetik im Zeitalter der Renaissance. Tübingen, 1975.

(هذا الكتاب عبارة عن دراسة لمثيرات العطف والمشاعر فى كل من فن تأليف الشعر والبلاغة الإنجليزي واللاتيني الجديد فضلاً عن الأبحاث والرسائل التي تأثرت بالبلاغة فى بعض المجالات كالموسيقى، والرسم، والسلوك)

Plett, Heinrich F. English *Renaissance Rhetoric and Poetics: A Systematic Bibliography of Primary and Secondary Sources.* Leiden. 1995.

(هذا الكتاب عبارة عن ببليوجرافيا مبوبة للنصوص الشعرية والبلاغية ذات الأهمية، ليس فقط لإنجلترا بل لأوروبا بأسرها فى فترة عصر النهضة، فضلاً عن ببليوجرافيا شاملة للنقد الذي كتب فى القرن العشرين مرتبًا حسب الموضوع)

Plett, Heinrich F., ed. *Renaissance - Rhetorik / Renaissance Rhetoric.* Berlin. 1993.

(هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات البينية التي كتبها مجموعة من العلماء والباحثين بثلاث لغات مختلفة عن علاقة البلاغة بالفلسفة، والأدب، والرسم، والموسيقى، والتمثيل، والطب، والدين، والمجتمع، والسياسة فى العديد من دول أوروبا فى فترة عصر النهضة).

Rabil، Albert ed., *Renaissance Humanism: Foundations, Forms, and Legacy*. 3 vols. Philadelphia, 1988.

Rebhorn. Wayne A. *The Emperor of Men's Minds: Literature and the Renaissance Discourse of Rhetoric.* Ithaca, N.Y., 1995.

Rhodes, Neil. *The Power of Eloquence and English Renaissance Literature.* New York, 1992.

Rölli Alkemper. Dorothee. *Höfische Poetik in der englischen Renaissance: George Puttenhams "The Arte of English Poesie."* Munich, 1995.

(هذا الكتاب عبارة عن دراسة البلاغة الشعرية فى ثقافة البلاط الملكي مع التركيز على جورج بوتنهام)

Schmidt - Biggemann, Wilhelm. *Topica Universalis: Eine Modellgeschichte humanistischer und barocker Wissenschaft.* Hamburg, 1983.

(هذا الكتاب عبارة عن دراسة شاملة للأدب الموسوعي فى القرن السابع عشر من وجهة نظر فلسفية)

Schoeck, Richard J. " 'Going for the Throat': Erasmus' Rhetorical Theory and Practice." *In Renaissance – Rhetorik / Renaissance Rhetoric*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 43–58. Berlin, 1993.

Seigel, J. E. *Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism: The Union of Eloquence and Wisdom, Petrarca to Valla*. Princeton, 1968.

Sloane, Thomas O., and Raymond B. Waddington, eds. The Rhetoric of Renaissance Poetry. Berkeley,1974.

(هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات التفسيرية).

Sonnino, Lee A. A Handbook to Sixteenth - Century Rhetoric. London, 1968.

Stolt, Birgit. *Wortkampf: Frühneuhochdeutsche Beispiele zur rhetorischen Praxis*. Frankfurt a.M., 1974.

(هذا الكتاب عبارة عن مقالات بلاغية عن الأدب الألماني فى بدايات العصر الحديث).

Stone, Lawrence. *The Crisis of Aristocracy, 1558–1641*. Oxford, 1965.

Struever, Nancy S. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

Tateo, Francesco. *Retorica e poetica fra Medioevo e Rinascimento*. Bari, 1960.

Vasoli, Cesare. La dialettica e la retorica dell'Umanesimo: "Invenzione" e "metodo" nella cultura del XV e XVI secolo. Milan. Italy, 1968.

Vickers, Brain. In Defence of Rhetoric. Oxford, 1988.

(يتناول الفصل الثالث البلاغة تحت عنوان برجماتي وهو " Renaissance" Reintegration).

Ward, John O. "Renaissance Commentators on Ciceronian Rhetoric." *In Renaissance Eloquence,* edited by James J. Murphy, pp.pp. 126–173. Berkeley, 1983.

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

مجالس البلاغة Rederijkers

بدأت هذه الحركة - وتسمى بالهولندية rederijker وتعني مجالس البلاغة - فى النصف الأول من القرن الخامس عشر. وكانت تلك الفترة قد شهدت تأسيس العديد من المؤسسات والهيئات الأدبية فى هولندا فى أعقاب تأسيس هيئة مماثلة فى شمال فرنسا وهي المنصة puys. وكانت المجالس الأدبية موجودة فى المدن .التي يسكنها الفلاندیون Flanders والبربانيتون Brabant الذين يتحدثون الفرنسية والهولندية (تقع هذه المدن الآن داخل بلجيكا)، وفي زيلاندا Zeeland (تقع هذه المدينة الآن داخل الأراضي الهولندية)، وهولندا، وهي مساحة كبيرة من الأرض تعادل مساحة دوقية برجاندي duchy of Burgundy، التي كانت موجودة فى القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر. وهذا الموقع الجغرافي يفسر لنا العلاقة التي قامت بين هذه المجالس البلاغية ونظيراتها فى فرنسا. وقد سمى هؤلاء البلاغيون أنفسهم rederijkers منذ أواخر القرن السادس عشر.

وقد اختلفت هذه المجالس البلاغية الهولندية عن نظيراتها التي كانت موجودة فى فرنسا فى أن أنشطتهم لم تكن تحمل الصبغة الدينية. وعلى الرغم من أنهم كونوا هذه المجالس بأسماء بعض الرموز الدينية، وأسماء القديسين مثل الروح القدس Holy Ghost (مدينة براجز)، الكتاب المقدس The Book (مدينة بروكسل)، وسانت كاترين (مدينة أوفاسيلت)، إلا أن هذه المجالس فى كثير من الأحيان كانت تحمل أسماء النباتات والزهور مثل أمستردام التي أطلق عليها أسم نبات نسرين الكلاب eglantine، ولعلها مأخوذة من الألوان البلاغية rhetorical colours التي كانوا يصبغون بها أشعارهم. (انظر اللون Color).

ولم تكن مؤلفات أعضاء هذه المجالس مقصورة على الموضوعات الدينية فقط، بل كانت لهم مواهب شعرية فياضة، وكان يجمع هؤلاء الأعضاء جو من المرح والصداقة؛ مما جعلهم يحافظون على العلاقات العامة للمدينة التي ينتمون إليها الداخلية منها والخارجية. وتوجد الكثير من المؤشرات على الدور الجماهيري الذي لعبته هذه المجالس، ويظهر هذا جليا فى القوانين والتشريعات التي سنها قضاة المدينة بل والدوقات أنفسهم لأعضاء هذه المجالس. ولعل أبلغ مثال على هذا هو مجلس مدينة جينت Ghent المسمى بمجلس النافورة Fountain – وهو أحد أقدم المجالس فى المدينة – والذي أصدر له حاكم الإقليم والمجلس الحاكم قانوناً فى عام ١٤٤٨، وقانونا آخر أصدره الدوق تشارلز الشجاع Duke Charles The Bold فى عام ١٤٧٦.

وكان شعر هؤلاء يتميز باستخدام القوافي الكثيرة، والأشكال الغنائية المحكمة. وكان أهم العناصر الغنائية التي يتميز بها هذا الشعر ما يعرف بالقرار (أو اللازمة) refrain، ويتكون غالبا من أربع أو خمس ستانزات stanzas (مجموعة من الأبيات) كل منها تنتهي بالبيت نفسه، كما أن الاستانزا الأخيرة تخاطب أمير المجلس Chamber Prince. وتدور الأبيات عادة حول موضوعات شتى منها الديني أو الوعظي، أو الكوميدي، أو الغرامي. وكانت المسابقات تقام فى تأليف هذه القرارات أو اللوازم بين المجالس البلاغية المختلفة، وبين أعضاء المجلس الواحد، حيث كانت تقضي شروط المسابقة أن البيت الأخير المكرر يجب أن ينتهي بإجابة لسؤال أثير من قبل. وفي بعض الأحيان كان يتلو هذه اللوازم – أو حتى يحشر بين أبياتها – ستانزات لأغنية تتناول الموضوع نفسه، أو موضوع آخر يشبهه. ومنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر أصبح يتم نشر هذه اللوازم والأغنيات التي تقدم فى المسابقات بعد انتهائها. كما كانت تكتب أغنيات لأيام الأعياد والمهرجانات

مثل أغاني السنة الجديدة New Year's songs، والتي كتب عدد كبير منها مجلس نسرين الكلاب De Eglentier فى أمستردام، وهي تلك الأغنيات التي وصلت إلينا اليوم.

أما الدور الجماهيري التي كانت تقوم به هذه المجالس فكان يتمثل فى قيام أعضائها بأداء بعض المسرحيات الكوميدية والأخلاقيةMorality Plays (نوع من المسرحيات يشخص فيها الممثلون القيم الأخلاقية) فى الأسواق والأماكن العامة. وكان شاعر المجلس chamber's poet هو الشخص المنوط به كتابة مثل هذه المسرحيات. وكانت هناك حركة مسرحية نشطة فى تلك الفترة. كما كانت بعض هذه المجالس تقوم بجمع الأعمال الفنية ونشرها فى شكل مجموعات collections. كما كانت تقام المسابقات حول أفضل المسرحيات بين المجالس المختلفة، ولكنها لم تكن منتظمة مثل المسابقات الشعرية. كما كان شاعر المجلس هو المسئول أيضًا عن كتابة مثل هذه المسرحيات.

ولكن الحدث المهم فى تلك الفترة هو تلك السلسلة من المسابقات التي كانت تنظمها دوقية بربانت duchy of Barbant تحت مسمى جوهرة الأمة Het landjuweel. أقيمت السلسلة الأولى من هذه المسابقات فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، أما الثانية فقد أقيمت فى عدة مدن فى الفترة ما بين عام 1515 وعام ١٥٦١. وكان المجلس الذي يفوز بالجائزة الأولى فى أي من هذه المسابقات يصبح لزامًا عليه تنظيم المسابقات التالية. وأقيمت آخر مسابقة من هذا النوع فى مدينة أنتورب Antwerp فى عام ١٥٦١، وكان أحد مجالس الرسامين painters' chamber المعروف باسم زهرة المنثور (stock - gilly flower) هو الذي نظمها، وكان موضوع المسابقة هو "ما الذي يقود الإنسان إلى حب الفنون وتقديرها". كانت هذه المسابقة حدثًا مهمًا فى تلك الفترة،

وحضر الزائرون للمشاركة فى فاعليتها من كل حدب وصوب. وكانت أولى فقرات هذه المسابقة هي دخول المشاركين فى موكب بديع تغلب عليه الألوان الزاهية، حيث كان الأمراء يدخلون على صهوة الجياد، يحيط بهم عازفو الأبواق التابعون للمجلس، وأعضاء المجالس أنفسهم، وحتى المهرجون والبهلوانات. وشهد شهر أغسطس عروضًا وحفلات يومية. وتعد هذه المسابقة هي آخر الأحداث الكبيرة والمهمة gigantic event فى تلك الفترة. ثم شهدت الفترة التالية حدوث نوع من الانقلاب أو العصيان المسلح ضد ملك أسبانيا، والذي كان - بحكم كونه وريثا لدوقات برجاندي - حاكمًا على هولندا. وأدى هذا إلى دخول البلاد فى حرب طويلة امتدت لثمانين عامًا وانتهت بانفصال الأقاليم الجنوبية الكاثوليكية عن الأقاليم الشمالية البروتستانتية.

أما فى شمال هولندا وبدءًا من عام ١٥٧٩، فلم يعد لهذه المسابقات نفس التأثير الذي كان موجودًا فى السابق، إلا أنها ظلت تعد أحد الأحداث المهمة فى هذه المناطق. وكان ضمن فعاليات هذه المسابقات جمع المال للقيام ببعض الأعمال الخيرية، مثل ما حدث فى المسابقة التي نظمتها مدينة ليدين Leyden فى عام ١٥٩٦ حيث نُظِّم يانصيب lottery تحت رعاية حاكم المدينة جان فان هاوت Jan Van Hout لجمع الأموال لبناء تكية hospice (نزل أو مبرة تخدم الفقراء والمسافرين بتقديم الطعام لهم). ولكن سرعان ما فقد هذا الحدث (إقامة المسابقات) أهميته، حيث أصبحت هناك أحداث جديدة تحظى بالاهتمام مثل الاحتفال بتوقيع اتفاقية سلام، أو الحفاوة بزيارة أحد أفراد الأسرة المالكة لبلد آخر، أو تكريم أحد الأمراء أو النبلاء. ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن هذه الأحداث أيضا كانت تتم تحت رعاية مجالس البلاغة.

في هذه الأثناء كانت البلاغة الكلاسيكية - والتي يسميها الفرنسيون البلاغة الأولى première rhétorique خلافًا للبلاغة الثانية seconde rhétorique - قد أصبحت جزءًا من المناهج الدراسية فى المدارس التي تدرس اللاتينية. ويعد ماتيس دي كاستلين Matthys de Castelein هو أول هولندي يكتب كتيبًا نظريًا تحت عنوان **Const van Rhetoriken** (١٥٥٥) حول فن البلاغة كما تناوله البلاغيون. وحاول كاستلين التوفيق والجمع بين المبادئ الشعرية التي تناولها البلاغيون وبين المبادئ العامة التي تناولها كل من شيشرون فى كتابه **حقيقة الخطيب De oratore** وكونتيليان فى كتابه **قواعد الخطابة oratoria Institutio**، وهوراس فى كتابه **فن الشعر Ars poetica**. أما فيما يتعلق بالشعر الهولندي فقد كان لحركة النهضة اليد العليا فى هذا المجال. ومنذ العقد التاسع من القرن السادس عشر أصبحت الأجيال الجديدة من الشعراء الهولنديين ينظرون بعين الأسى للقوافي التي تحدث عنها البلاغيون التقليديون، حيث كان هؤلاء الشعراء يعتقدون أن هؤلاء البلاغيين لا يستحقون هذا الوصف؛ لأنهم لم يفقهوا ماهية البلاغة الحقيقية.

وقد سار مجلس نسرين الكلاب الموجود فى أمستردام سيرا حثيثا فى موكب التطورات الجديدة، وقام فى تلك الفترة بإصدار كتب حول القواعد النحوية، وفن الجدل، والبلاغة المبسطة باللغة الهولندية. ومنذ بداية العقد الأخير من القرن السادس عشر بدأ هذا المجلس بأداء أول المسرحيات المأساوية الحديثة، والتي كتبها أكثر أعضاء هذا المجلس موهبة وهو بي سي هوفت P. C. Hooft بينما قام الأعضاء الآخرون بكتابة بعض الابيجرامات epigrams (وهي قصيدة قصيرة مختومة بفكرة بارعة أو ساخرة)، والسونيتات sonnet (وهي قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتًا) بدلا من كتابة

القرارات refreinen وما شابهها. أما فيما يتعلق بالعلاقات العامة للمدينة فقد استمرت المجالس البلاغية فى أداء دورها فى الأنشطة التقليدية لفترة من الزمن. أما فى المدن والمناطق الأخرى فقد استمر البلاغيون فى تناول القرارات المقفاة وما شابهها على الرغم من أن المجتمع أصبح لا يحترم هذه الأشكال الأدبية، وخاصة الشعراء الحقيقيين الذين كانوا ينظرون بازدراء لمثل هذه الأشكال الأدبية. والمهم أن نلفت النظر إلى أن هؤلاء الشعراء أصبحوا يشكلون قوة مبدعة وحيوية بين أفراد الطبقة الوسطى الدنيا فى النصف الأول من القرن السابع عشر.

قائمة المراجع

Coigneau، Dirk. "De Const van Rhetoriken, Drama and Delivery." *Rhetoric – Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff and Marijke Spies, pp.pp. 123–140. Amsterdam, 1995.

(ويعد هذا المقال هو المقال الوحيد الموجود عن الشعر الذي كتبه شعراء مجلس المنصة والبلاغيون الهولنديون).

Hummelen, W. M. H. *Repertorium van het Rederijkersdrama 1500 - ca. 1620*. Assen, 1968.

(وهذا العمل عبارة عن ببليوجرافيا بها حواش للنصوص الدرامية).

Koppenol, Johan. *Leids Heelal. Het Loterijspel (1596) van Jan van Hout*. Hilversum, the Netherlands, 1998.

(وهذا الكتاب عبارة عن دراسة مهمة للمسابقة التي أقيمت في ليدن عام ١٥٩٦ مع ببليوجرافيا شاملة للبلاغة الهولندية والشعر في بدايات عصر النهضة).

Pleij, Herman. "The Despisers of Rhetoric. Origins and Significance of Attacks on the Art of the Rhetoricians (Rederijkers) in the Sixteenth Century." *Rhetoric –Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff, and Marijke Spies, pp.pp. 157–174. Amsterdam, 1995.

(وهذا المقال عبارة عن دراسة للمعارضة التي أبداها شعراء الشوارع ضد غطرسة البلاغيين).

Serebrennikov, N. E. " 'Dwelck den Mensche, aldermeest tot Consten verweet.' The Artist's Perspective." *Rhetoric - Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff, and Marijke Spies, pp.pp. 219–246. Amsterdam, 1995. On the rethoricians' contest in Antwerp, 1561.

Spel in de Verte. Tekst, *structuur en opvoeringspraktijk van het rederijkerstoneel*, edited by B. A. M. Ramakers. Ghent, Belgium, 1994.

(يوجد عدد خاص من **Jaarboek De Fonteine** صفحات ٤١ - ٤٢ (١٩٩١ - ١٩٩٢) وهي دورية علمية متخصصة ورائدة في أدبيات المجالس البلاغية، وبها العديد من الإسهامات التي تتناول الجوانب الشعرية والبنائية فضلا عن مرحلة تدشين دراما المجالس البلاغية).

Spies, Marijke. "The Amsterdam Chamber De Eglentier and the Ideals of Erasmian Humanism." In *From Revolt to Riches. Culture and History of the Low Countries 1500–1700. International and Interdisciplinary Perspectives*, edited by Theo Hermans and Reinier Salverda pp.pp. 109–118. (London, 1993).

Spies, Marijke. "Between Ornament and Argumentation: Developments in 16th - century Dutch Poetics." In *Rhetoric - Rhétoriqueurs - Rederijkers*, edited by Jelle Koopmans, Mark A. Meadow, Kees Meerhoff, and Marijke Spies, pp.pp. 117–112. Amsterdam, 1995.

(وهذا المقال عبارة عن مقال قصير يتناول الانتقال من المجالس البلاغية إلى شعر عصر النهضة).

Spies, Marijke. "Developments in Sixteenth - Century Dutch Poetics. From 'Rhetoric' to 'Renaissance'." *Renaissance - Rhetorik. Renaissance Rhetoric*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 72–91. Berlin, 1993.

(وهذا المقال عبارة عن تحليل للتطور الشعري في نصوص المجالس المحلية في القرن السادس عشر).

تأليف: Marijke Spies

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة فى عصر النهضة Rhetoric in Renaissance

اللغة والأدب Language and Literature

كان لبزوغ حركة النهضة فى إيطاليا أثر كبير فى إحياء الاهتمام بالبلاغة الكلاسيكية، وتأجيج الرغبة فى تقليد بلاغة وفصاحة أهم خطيب كلاسيكي وهو شيشرون Cicero (١٠٦ ق. م – ٤٣ ق. م). وقد واكب ظهور المضاربات والمغامرات التجارية من ناحية، وزيادة النفوذ السياسي لمنصب البابا والحكومة فى الدول المدن city - states من ناحية أخرى الحاجة لتعيين وزراء ومستشارين ممن يملكون ناصية اللغة وجوامع الكلم كتابةً وتحدثًا، بالإضافة إلى الإلمام بقواعد البروتوكول، فى الوقت نفسه ممن يشهد لهم بالحزم فى نقاشاتهم، والوضوح فى التعبير عن أفكارهم. كان هؤلاء الرجال من الذين تعلموا بلاغة العصور الوسطى وخاصة فيما يتعلق بكتابة الرسائل، والكتابة التوثيقية (انظر فن التأليف (تأليف الرسائل) Ars dictaminis). وقد بدأ هؤلاء الرجال بالتأثر الشديد بأعمال البلاغة الناضجة – التي كان قد تم إحياؤها مؤخرًا – لشيشرون بالإضافة إلى خطبه والرسائل التي كان يكتبها. وظهر هذا التأثير واضحًا فى سعي هؤلاء الرجال فى نشر مفهوم شيشرون للبلاغة على أنها مزيج من الحكمة واللباقة res et verba، ومن ثم توظيفها فى خدمة الدولة.

وفي تلك الفترة اتسعت دائرة المتعلمين (بعد أن كانت مقصورة على رجال الدين والقضاء) لتشمل العوام من الناس من التجار، والمصرفيين، والمحامين، ولحرفيين، وآخرين ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة. ومن ثم

أصبح الاتصال بعدد أكبر من الجمهور (من المتعلمين) أمرًا ميسرًا، وكان هذا يعني ببساطة أنه أصبح لزامًا على البلاغة أن تدخل مجالاً جديدًا وهو تلك المناقشات والمناظرات التي كانت تدور فى تلك الفترة حول الدين والعلم. (انظر الدين Religion، والعلم Science). ومن ثم فإن نطاق المناقشات البلاغية قد اتسع تدريجيًا على الرغم من أن كثيرًا من الفلاسفة الكبار كان يستهجنون هذا الاتساع فى مجالاتهم الفلسفية. كما أنه ليس من المستغرب أن تسيطر أيضا الأهداف والمفاهيم البلاغية على فن الشعر art of poetics الصاعد فى تلك الفترة. وقد ساعد رد الفعل تجاه البلاغة والتعبير الفني فى نهاية عصر النهضة على تحول الفكرة الشائعة من أن البلاغة والفصاحة يكمنان فى استخدام الجمل المنمقة والمزخرفة إلى استخدام الأسلوب الخالي من الزخارف plain style. (انظر الأسلوب Style).

إرث العصور الوسطى The Legacy of the Middle Ages

تركت العصور الوسطى لبواكير عصر النهضة إرثا ممثلاً فى دراسة العلوم الثلاثة Trivium وهي النحو والمنطق والبلاغة، ولكن البلاغة كانت قد فقدت وظيفتها الكلاسيكية الممثلة فى إقناع الجماهير (انظر المقال الذي يستعرض البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric، وانظر تعبير العلوم الثلاثة Trivium) وكان هذا الدور قد خبا نتيجة للقمع التي كانت تمارسه الحكومات المتوالية فى الإمبراطورية الرومانية، ولم يُفعل هذا الدور مرة أخرى إلا مع دخول القرن الثالث عشر. وعلاوة على ذلك ففي الفترة الأخيرة من العصور الوسطى طغى الجدل على البلاغة، وأصبح يحظى بأهمية أكبر، كما أنه خلق نوعًا من الحيرة فيما يتعلق بمكانة ونطاق الفنون وهذا ما أثار حفيظة المعلمين فى فترة عصر النهضة (انظر الجدل Dialectic). وكان الفلاسفة يرون أن البلاغة هي تقليد باهت للجدل على

الرغم من استخدامها للمنطق والتفكير العقلي، وطرقها للموضوعات التي تهم الكثيرين، فإنها كانت تتعامل مع حالات بعينها، وليس مع الأسئلة الكونية الكبرى grand universal questions. أما الطلاب الذين كانوا يدرسون تحت مظلة التعليم الإسكولائي Scholastic system of education (والإسكولائية هي الفلسفة النصرانية التي كانت سائدة فى العصور الوسطى وبداية عصر النهضة) فكانوا يتدربون بشكل حازم وصارم على استخدام الجدل لكي يتعلموا كيفية الوصول إلى الفروق بين الأشياء، ومن ثم تطبيقها على القضايا الأكاديمية التي تبدو بلا حل. ولكن أسلوب التعليم المتعب والذي يقوم على التكرار دفع الكثير من الطلاب والمعلمين على حد سواء إلى الشعور بالملل الشديد، ولذلك تعرضت هذه المناهج الدراسية للهجوم فى عصر النهضة.

أثر إحياء الأعمال الكلاسيكية The Effect of Recovery of the Classics

لا شك أن عصر النهضة يدين بكثير من الطاقة التي كان يتمتع بها إلى اكتشاف المخطوطات اليونانية والرومانية، والتي أثارت اهتمامًا كبيرًا فى أوساط الباحثين والعلماء، ولفتت انتباههم إلى مجالات جديدة للبحث مثل الخطابة، والنثر، والشعر، والتاريخ، والتربية. وقد كان لإعادة إحياء رسائل شيشرون الشخصية لأصدقائه فى عام ١٣٤٥ على يد العالم الإيطالي بترارك Petrarch (١٣٠٣ - ١٣٧٤) أثر كبير فى إلهام هذا العالم فى تقليد هذه الرسائل وكتابة رسائل أخرى مماثلة لها فى موضوعات لها صفة الديمومة perennial. وكانت هذه الرسائل تختلف عن الأسلوب الصارم والصيغي formulaic التي كتبت به تلك الخطابات الموجودة فى كتاب **فن التأليف (تأليف الرسائل) ars dictaminis**. وبحلول القرن السادس عشر تحولت هذه النسخة من ars dictaminis إلى مقال كتبه كل من ميشيل دي مونتايجين Michel de Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢) وفرانسيس بيكون Francis Bacon

(١٥٦١ - ١٦٢٦). وقد كان لإعادة إحياء أعمال شيشرون الأخرى أثر بعيد المدى. فلم يكن حوار شيشرون المعنون **حقيقة الخطيب De oratore** متاحًا من قبل، وقد كان لإعادة ظهوره وإحياء خطبه أثر كبير فى إحياء مفهوم الخطيب المواطن citizen orator، وتجلى هذا المفهوم فى شخصيات من أمثال كولوشيو سالوتاتي Coluccio Salutati (١٣٣١ - ١٤٠٦)، وليوناردو بروني Leonardo Bruni (١٣٧٠ تقريبا - ١٤٤٤) وبوجيو براشيوليني Poggio Bracciolini الذين لعبوا دورًا كبيرًا كمستشارين فى فلورينساFlorence، وكوزراء للبابا. وكان بوجيو نفسه مسئولاً عن إحياء المخطوط الكامل لكونتيليان Quintilian المعنون **المبادئ Institutes** بالإضافة إلى خطبتين من خطب شيشرون.

كانت إعادة إحياء المخطوطات اليونانية بمثابة إحياء لكل من أفلاطون (٤٢٨ ق.م تقريبا - ٣٤٧ ق.م تقريبا) وأرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق. م). وقد كان لمحاورات أفلاطون دور كبير فى إبراز نقده الشديد للبلاغة، كما ألقت هذه المحاورات مزيدًا من الضوء على سياق البلاغة السوفسطائية. أما كتاب **البلاغة Rhetoric** الذي كتبه أرسطو، فقد أعيد إحياؤه فى القرن الثاني عشر، وحاز هذا الكتاب على مزيد من الاهتمام تمثل فى صدور ترجمة له، وكتابة العديد من التعليقات النقدية عنه فى القرن السادس عشر. وعلاوة على ذلك فقد قام جورج المنتمي لمدينة تريبيزوند George of Trebizond (١٣٩٥ - ١٤٩٣ تقريبا) بتعريف الغرب بنظريات البلاغة الخاصة بكل من إسقراط Isocrates وهيرموجينيس Hermogenes من خلال نشر كتاب جمع بين قواعد وتعاليم البلاغة اليونانية والرومانية.

وقد كان لتطور آلة الطباعة أثر كبير فى نشر نفائس المخطوطات اليونانية والرومانية. وكانت كتب العصور الوسطى الخاصة بالعلوم الثلاثة

Trivium من أمثال حقيقة الابتكار**De inventione** و**البلاغة لهرنياس Ad Herennium** من أوائل الكتب التي طبعت، وهذا ما حفظ لها تأثيرها على الأجيال التالية. وإذا ما أردنا أن نلخص تأثير إعادة إحياء هذه الأعمال الكلاسيكية على البلاغة فيمكننا أن نقول إن هذه الأعمال أعادت بث النشاط والحيوية لممارسة الجدل والمناظرات فى العالم الحقيقي للحياة فى عصر النهضة فى الجانبين in utramque partem. كما أدى هذا إلى طرح العديد من القضايا التي تتعلق بقضايا كبرى فى مجالات السياسة، والعلم، والدين، للنقاش والحوار. وكانت كتابات شيشرون بما فيها من تنوع، وذكاء، واستنارة، وتوهج تعد نموذجا للإقناع المتميز، وهو ما كان يبحث عنه العديد من الخطباء والكتاب فى عصر النهضة. كما أصبحت النماذج الكلاسيكية للرسائل والحوارات تمثل آفاقًا جديدةً للإقناع. وتحول الجدل الذي كان سائدًا فى العصور الوسطى إلى شكل آخر يغلب عليه الطابع الإنساني تمتزج فيه القدرة على الجدل والنقاش بقبول الخطيب لدى الجماهير، وأصبح الجدل يُقدم غالبًا فى شكل حوار لكل من القارئ الأكاديمي، والقارئ العادي على حد سواء. وظهرت هناك استخدامات عديدة للخطب التوضيحية والإقناعية سواء المعدة للذم والمدح بدءًا من كتابة إهداءات الكتب ووصولاً إلى افتتاح المؤسسات الأكاديمية وإلقاء العظات. (انظر نوع الخطابة المحفلية Epideictic genre).

الاتجاه الشيشروني والمحاكاة Ciceronianism and Imitation

كان من المتوقع أن يوفر النظام التعليمي الذي تبنته الحركة الإنسانية الوسائل التي تؤدي بالطالب للوصول إلى التميز البلاغي. فقد قادت الاكتشافات الفيلولوجية والأثرية المعلمين إلى رفض اللغة اللاتينية المدرسية، مفضلين تقليد اللغة اللاتينية الراقية التي كانت تستخدم فى العصر الأوغسطيني Augustan period، وخاصة فى الأعمال النثرية الخاصة

بشيشرون. وقد جعلت الحالة المتردية التي وصلت إليها اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى كاتبًا مثل لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧) يكتب كتابا بعنوان حقيقة **بلاغة اللغة اللاتينية De elegantia linguae latinae** يحاول فيه أن يعرض هذه المشكلة، ويقدم الحلول لها.

كان المعلمون يأملون أن تتحول الصور البلاغية وألوان البديع التي يستخدمها شيشرون بكل أريحية فى مؤلفاته إلى جزء من الطبيعة الثانية second nature للطالب، بحيث تصبح جزءًا لا يتجزأ من فطرته البلاغية Sprezzatura وهي تلك الفكرة التي قال بها بالداسير كاستيجليوني Baldassare Castiglione (١٤٧٨ - ١٥٢٩) فى كتابه **رجل البلاط Il Cortegiano** (نشر فى عام ١٥٤٤). ولا شك أن الصور المجازية تنعش القوة العاطفية، كما أنها تطور المعنى بشكل أكثر حيوية من اللغة العادية المستخدمة فى الحياة اليومية. وعلى الرغم من وجود العديد من الكتب الدراسية التي نشرت فى عصر النهضة والتي تتناول مبادئ البلاغة الخمسة، فإن العديد من الكتب الأخرى تناولت الأسلوب style فقط، وخصصت كتب أخرى عديدة لتناول فكرة الابتكار فقط invention. وكان كتاب إرازموس Erasmus المعنون **أسس الأسلوب المتنوع De Copia** (نشر فى عام ١٥١١) من أوائل الكتب التي أكدت على أهمية الأسلوب وقدمت اقتراحات تتعلق بطرق المزج بين الحكمة والبلاغة من خلال استخدام وسائل التعبير والإسهاب بالتناوب. (انظر كتاب **أسس الأسلوب المتنوع De Copia**). وعادة ما يشار إلى شيشرون على أنه المرجع أو المحك touchstone للأسلوب اللائق والقاطع، على الرغم من رفض إرازموس للتقليد المبالغ فيه لأسلوب شيشرون. وكان المعلمون منذ عهد السوفسطائيين يحثون طلاب البلاغة على المحاكاة. (انظر: المحاكاة Imitation). كما كانوا يعلمون طلابهم السير فى كتاباتهم، وطريقة كلامهم

على نهج المؤلفين السابقين. وفي عصر النهضة كان شيشرون هو أكثر الكتاب الذين احتفي بهم، ونال آخرون من أمثال سينيكا Seneca، وليفي Livy، وسالوست Sallust، وكينتليان Quintilian، وبليني Pliny اهتمامًا مماثلاً ولكن بدرجة أقل. ويعد جاسبارينو بارزيزا Gasparino Barzizza (١٣٦٠ تقريبا – ١٤٣١) من أكثر المؤيدين المؤثرين للأسلوب الشيشروني، وكان مشهورًا بأنه أول من استطاع أن يعود بلغته وطريقته فى التعبير إلى المعايير الشيشرونية. واستطاع بارزيزا أن ينجح فى هذا من خلال الدراسة المتأنية والتحليل المتعمق للكتابات الرومانية. وقد افتتن كثير من العلماء والباحثين باللغة اللاتينية التي يستخدمها شيشرون إلى الدرجة التي جعلتهم لا يقلدون أسلوبه فى الكتابة فقط، بل وتعدى الأمر إلى أن أصبحوا يستخدمون الكلمات نفسها التي كان يستخدمها. ولعل أهم مثال على أولئك الذين افتتنوا بشيشرون هو الكاتب بييترو بيمبو Pietro Bembo (١٤٧٠ – ١٥٤٧) الذي كان يحث أتباعه على الانغماس فى بحر بلاغة شيشرون؛ لأنه يمثل النموذج الأكبر والأمثل. قد تأثر الكثير من الكتاب بهذا التوجه الذي قاده بيمبو. ولعل الاسم الذي يبرز أيضا فى هذا السياق هو اسم الكاتب كريستوف دي لونجويل Christophe de Longueil (١٤٨٨ – ١٥٢٢) الذي صبغ كتاباته بلغة شيشرون وأسلوبه حتى حينما كتب عن الجدل الديني ضد مارتن لوثر. وسرعان ما أدت هذه المداهنة إلى إثارة رد فعلي نقدي.

مناهضة الاتجاه الشيشروني Anti - Ciceronianism

وكان فالا هو أول من أعلن أن يفضل كاتبا آخر من الذين كتبوا باللاتينية ألا وهو كينتليان. وعلى النهج نفسه ظهر أمبروجيني دا بوليزيانو أنجيلو Ambrogini da Poliziano Angelo (١٤٥٤ – ١٤٩٤) الذي كان من أوائل من انتقد التوجه الشيشروني، كما أعلن أنه لا يتبع كاتبًا بعينه، بل كان

يرى أن هناك العديد من الكتاب الكلاسيكيين الذين كانوا يتميزون بأسلوب متفرد. وكان يدافع دائمًا عن استخدامه الانتقائي للغة بمعنى أنه كان يأخذ من لغة الكتاب الكلاسيكيين ما يجد له هوى فى نفسه، وكان يرفض ذلك الانقياد والانصياع الأعمى لكل ما يتصل بشيشرون، وهذا يتنافى مع ما كان يؤمن به اثنان من أقرانه من الكتاب وهما: بارتولوميو سكالا Bartolomeo Scala، وباولو كورتيسي Paolo Cortesi. فقد أعلن كورتيسي أن تقليد شيشرون القائم على الاجتهاد لا يجعل من يفعلون ذلك يبدون كقرود حقيرة تقلد تقليدًا أعمى، بل يجعل منهم أبناء يشبهون أباهم فى ملامحه، ولكن لكل منهم شخصيته المميزة والمتميزة. وقد انتقد جيانفرانسيسكو بيكو Gianfrancesco Pico (١٤٦٩ - ١٥٣٣) - وهو ابن أخ للفيلسوف جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola - بيمبو لعدم اعترافه بجوانب الضعف فى كتابات وأسلوب شيشرون، القدر نفسه الذي يحتفي فيه بنقاط القوة.

ويعد إرازموس أكثر النقاد تأثيرًا ممن ينتمون لتلك المدرسة التي كانت تناهض شيشرون. وفي كتابه الساخر **شيشرون** Ciceronianus (نشر عام ١٥٢٨) انتقد إرازموس المبالغة فى المحاكاة بصفة عامة، وقدم بعض النماذج الكاريكاتيرية لبعض من يحاكون. وقد أثارت الحوارات التي وردت فى هذا الكتاب موجة عارمة من الغضب تمثلت فى فيضان من الرسائل كتبها مؤيدو ومحبو شيشرون ممن وردت أسماؤهم فى تلك الحوارات سواءً تلميحًا أو تصريحًا. وتجلت تلك الموجة من الغضب فى كتابين ملتهبين كتبهما جوليوس سيزار سكاليجر Julius Caesar Scaliger (١٤٨٤ - ١٥٥٨) وهاجم فيهما إرازموس هجومًا شديدًا، كما كتب إتيني دوليت Etienne Dolet (١٥٠٩ - ١٥٤٦) حوارًا مماثلاً كان الهدف منه أيضًا الهجوم على إرازموس.

وقد استمر هذا الجدل الشيشروني لسنوات عديدة، ولكنه تأجج مرة أخرى حينما نشر ماريو نيزولي Mario Nizzoli معجمًا lexicon وكتابا للتعبيرات والمصطلحات phrasebook مأخوذين من تراث شيشرون، ومصحوبين بتعليقات نقدية لدوليت Dolet. وعلى إثر ذلك قام إم أنتوين موريت M. Antoine Muret (١٥٢٦ - ١٥٨٥) وآخرون من العلماء والباحثين المتميزين بمهاجمة هذه المحاكاة المبتذلة. وانضم بيتر راموس Peter Ramous (١٥١٥ - ١٥٧٢) إلى هذه المعركة ضد أولئك المتحذلقين فى فرنسا ويظهر ذلك جليًا فى كتابه **شيشرون** Ciceronianus (نشر عام ١٥٥٧). أما فى إنجلترا فقد طالب جابرييل هارفي Gabriel Harvey (١٥٤٥ تقريبا - ١٦٣٠ تقريبا) فى كتابه **شيشرون** Ciceronianus بمحاكاة المؤلفين المحدثين من أمثال راموس وأمير تالون Omer Talon (١٥١٠ تقريبا - ١٥٦٢)، الذين قاموا بإصلاحات فى البلاغة نعرضها فى السطور التالية:

التكلف Mannerism

في الوقت التي كانت فيه اللغة اللاتينية تفسح المجال بشكل كبير للغات المحلية vernaculars فى القرن السادس عشر، كان هناك عدد من الكتاب الذين كانوا يحاولون تقليد الأسلوب الكلاسيكي عن طريق دمج الكثير من التعبيرات والجمل اللاتينية فى كتاباتهم. كما أن الافتتان بالتعبيرات الفضفاضة الناتجة عن استخدام الصور البلاغية قد أدى فى كثير من الأحيان إلى إجهاد القارئ بمثل هذه التعبيرات والصور. ويعد كتابي جون ليلي John Lyly - **تحليل الألمعية Euphues, the Anatomy of Wit** (صدر فى عام ١٥٧٨) و**الألمعي وإنجلترا التي يعيش فيها Euphues and His England** (صدر فى عام ١٥٨٠) خير مثال على هذا التوجه. فقد جعلت كتاباته التأنق اللفظي euphuism تعبيرًا يبعث على الخزي والعار بين أولئك الذين كانوا

يفضلون أسلوب ديموسثينيس Demosthenes أو سينيكا Seneca. وفي الوقت نفسه كان التأنق اللفظي سمة للشعراء فى إسبانيا وإيطاليا. ومن ضمن هؤلاء الشعراء يبرز اسم لويس دي جونجورا أرجوتي Luis de Gongora Argote (١٥٦١ - ١٦٢٧) والذي كان يكتب بأسلوب معقد يغلب عليه استخدام التعبيرات وتراكيب الجمل اللاتينية، وهو ما سخر منه النقاد وأطلقوا عليه الأسلوب الجونجوري Gongorism. وعلى الدرب نفسه سار جيامباتستا مارينو Giambattista Marino (١٥٦٩ - ١٦٢٥) والذي كان يتسم أسلوبه بالمبالغات التشبيهية والاستعارية، وهو ما جعل النقاد يسخرون منه أيضًا، ويطلقون على أسلوبه الأسلوب المارينوي Marinism. أما فى القرن السابع عشر فقد أدى ظهور الأسلوب العلمي الجديد new scientific style إلى نمو الاعتقاد بأن الزخارف الفنية واللفظية عفا عليها الزمان، ولم تعد تناسب روح العصر الجديد.

البلاغة وفن الشعر Rhetoric and Poetics

بدأ العلماء منذ بدايات القرن السادس عشر يفصلون فن الشعر عن النحو، ويأكدون مكانته بما هو أحد الفنون المقالية الثلاثة three discursive arts وهي: النحو grammar، وفن الشعر poetics، والبلاغة rhetoric. فمنذ البداية كانت البلاغة تسيطر على التطور النظري لفن الشعر ربما بسبب ميل العلماء والباحثين فى تلك الفترة إلى تصنيف الفن بطريقة الأنساق والنظم التي ورثوها عن المعلمين المدرسيين scholastic teachers. فغالبيتهم كانوا يرون عروة وثقى بين البلاغة وفن الشعر، ولكن ليس فقط بسبب اهتمامها المتبادل بالأسلوب والصور المجازية. وكان ابن رشد Averröes (١١٢٦ - ١١٩٨) - وهو أحد الذين تخصصوا فى كتابة التعليقات النقدية على أعمال أرسطو فى العصور الوسطى - يرى أن البلاغة وفن الشعر يجب أن يصنفا مع العلوم العقلية والمنطقية التي قال بها أرسطو فى **الأورجانون Organon**. وفي السياق نفسه

أشار بارتولوميو لومباردي Bartolomeo Lombardi إلى أن البلاغة والشعر ملكتان تهتمان بكل أنواع الموضوعات. فكلاهما يستخدم شكلاً عقلانيًا معروفًا وشائعًا فى طرح الأمثلة والقياس الإضماري enthymeme، وكلاهما يتناولان الموضوعات السياسية. وسار فرانسيسكو روبرتلو Francesco Robertello على نهج التعليم المدرسي من حيث وضع الفنون المنطقية على مقياس يبدأ باليقين وينتهي بالكذب والبهتان فى أدنى درجاته، وبالتالي وضع الجدل مع المحتمل، والبلاغة مع الإقناع، والسوفسطائية مع ما يبدو فى الظاهر محتملا، وفن الشعر مع ما هو زائف أو خرافي.

ومنذ منتصف القرن السادس عشر ظهرت مجموعة أخرى من العلماء كانت ترى أنه يوجد تصنيف آخر يضم البلاغة وفن الشعر تحت مظلة العلم البنائي (المعماري) architectonic للسياسة. ويفسر أليساندرو بيكولوميني Alessandro Piccolomini (١٥٠٨ - ١٥٧٨) فى تعليقاته النقدية على **كتاب البلاغة وكتابة الشعر Rhetoric and Poetics** أن كلاً من البلاغة وفن الشعر هما من فنون الوسائل instrumental arts لأنهما يشتركان فى هدف واحد هو نفع الجماهير وإفادتها. وطبقا لوجهة النظر هذه فإن الشاعر يشترك فى المكانة والوظيفة مع ما سماه شيشرون بالخطيب المتكامل orator perfectus.

أما العلماء الذين جاءوا بعد ذلك من أمثال جيوفاني باتستا جواريني Giovanni Battista Guarini (١٥٣٨ - ١٦١٢) فكانوا يرون أن المتعة وليس السياسة هي غاية الشعر، ووسيلته فى ذلك هي المحاكاة. وأشار جواريني أن أرسطو لم يضع الشعر أبدًا فى مرتبة أدنى من السياسة وأضاف أن الشاعر يأخذ أدواته من البلاغة، لا من الفلسفة الأخلاقية. فالبلاغة ترشد الشاعر إلى تطوير شخصيته وقضاياه، بل أنها تساعده على أن يلقي القبول لدى

الجماهير. ويؤكد أنطونيو ريكوبوني Antonio Riccoboni (١٥٤١ - ١٥٩٩) - الذي قام بترجمة مشهورة مصحوبة بتعليقات نقدية لكتاب **البلاغة وفن الشعر Rhetoric and Poetics** في نهاية هذا القرن - هذا المعني الأرسطي في اعتماد فن الشعر على البلاغة في مراحل التأليف الأولى ولكنه يؤكد أيضًا على فكرة الدراسة المنفصلة للشعر. وكان يرى أن فن الشعر والبلاغة يشتركان في هدفين: المتعة والمنفعة.

وكان المعلمون المدرسيون scholastic teachers يؤكدون على ما تهتم به البلاغة ممثلاً في الجمهور، وشخصية الشاعر، والرسالة التي تهدف القصيدة إلى توصيلها لجمهور القراء. أما من يؤيدون الاتجاه الشيشروني فكانوا يتحدثون عن الابتكار invention، والنظم والترتيب arrangement، والأسلوب style. (انظر النظم والترتيب Arrangement، المقال الخاص بالنظم والترتيب التقليدي Traditional arrangement، والابتكار invention). وهؤلاء هم من الذين آمنوا بتعاليم كينتليان وهوراس، واللذين كانا يرددان نصيحتهما حول الحاجة إلى مراجعة النظر إلى القصيدة، والنظر إليها كوحدة متكاملة، وحتمية أن يلم الشاعر بفكرة المواءمة. وكان ينظر لفترة طويلة لكتاب **فن الشعر Art poetica** الذي كتبه هوراس على أنه نص بلاغي يؤكد الارتباط بين الفنون. وعلاوة على ذلك فإن الاهتمام بالبديع والصور البلاغية في تعليم البلاغة والشعر أعطى للشعر عنصر العاطفة والشخصية المستقلة وهي عناصر مهمة للإقناع البلاغي rhetorical persuasion. (انظر الصور البلاغية Figures of speech). كما أن تعلم البديع والصور البلاغية أمد الشعراء والخطباء بوسائل جديدة للابتكار.

الإصلاحات البلاغية Reforms of Rhetoric

يأتي الابتكار invention على رأس قائمة أولويات تعليم البلاغة، وهذا يرجع إلى أن المصلحين التربويين كانوا يشعرون بالإحباط بسبب المناهج المدرسية التقليدية. وهذا ما جعلهم يؤمنون بأن الاهتمام بتدريس الابتكار فى الحجج الإقناعية لا يزال أمرًا ضروريًا لا غنى عنه. وقد بدأت الدراسات الإنسانية studia humanitatis فى النصف الأول من القرن الخامس عشر واشتملت على البلاغة كأحد الأركان الرئيسية فى البرامج الدراسية الجديدة التي كانت تضم النحو، وفن الشعر، والتاريخ، والفلسفة الأخلاقية، ولكن حُذف تدريس مادة المنطق من هذه المناهج. وقد ساعد رودولفاس أجريكولا Rudolfus Agricola (١٤٤٤ - ١٤٨٥) وهو أحد المنتمين للحركة الإنسانية فى هولندا، والذي قام بكتابة التعليقات النقدية على كتاب **التدريبات الاستباقية Apthonius's Progymnasmata** على نشر هذه التمرينات القديمة ancient exercises فى شمال أوروبا، هذا بالإضافة لقيامه بكتابة مؤلف آخر مهم وهو **الابتكار الجدلي De inventione dialectica** (نشر فى عام ١٥١٥). وفي هذا الكتاب يحاول أجريكولا تبسيط فكرة تدريس الحوار الإقناعي، وتضمين الابتكار البلاغي داخل الجدل dialectic وهذا المزيج يكفي الإنسان ليجيب على أنواع الأسئلة كافة. وكان يرى أيضا أن وظيفة البلاغة هي توفير الزخارف ذات الصبغة العاطفية.

وسار بيتر راموس Peter Ramus وكان يعمل أستاذًا بكلية برسلس فى باريس Collège de Presles على خطوات أجريكولا، ولكنه قام بالفصل بين الفنين (البلاغة والجدل) وعمل على تبسيطهما. كان راموس من المناهضين للتراث الكلاسيكي، وهذا ما دفعه للهجوم على الرموز الكبيرة فى تاريخ البلاغة من أمثال أرسطو، وشيشرون، وكينتليان. وأن يؤمن أيضا أن الحشو

والتكرار آفات يجب التخلص منها؛ وهذا ما جعله يضع فى كتابه **تدريب على الجدل** **Institutiones Dialecticae** (صدر فى عام ١٥٤٣) الابتكار، والنظم والترتيب، والحافظة تحت فن الجدل، بينما وضع الأسلوب والإلقاء تحت فن البلاغة. (انظر الإلقاء Delivery، والجدل Dialectic، والحافظة Memory). وقد قام أومير تالون Omer Talon رفيق درب راموس بنشر مفهومه للبلاغة. وكان تأثير الرجلين كبيرًا فى شمال أوروبا، وهو ما عزز الاعتقاد بأن الأسلوب هو شيء يضاف إلى الفكر. وتضم قائمة مصلحي التراث البلاغي أسماء بارزة صاحبة مؤلفات كتب لها الشيوع والانتشار من أمثال فيليب ميلانشثون (١٤٩٧ - ١٥٦٠)، وبارثولومياس كيكرمان Bartholomeus Keckermann (١٥٧١ - ١٦٠٩).

أما فى إسبانيا وإيطاليا فغالبًا ما كانت التيارات المدرسية والإنسانية تأتلف وتتوحد. فعلى سبيل المثال قام الكاتب الأسباني اليسوعي سيباريانو سوارس Cipariano Soares (١٥٢٤ - ١٥٩٣) بتأليف كتاب مدرسي عن البلاغة (١٥٦٢)، يعتمد على التراث الكلاسيكي، متجاهلا فيه تلك التصورات والتقسيمات الجديدة التي كان ينادي بها مصلحو البلاغة. واتخذت مدرسة رومانو اليسوعية Jesuit Collegio Romano التي كانت قد تأسست قبل ذلك بعشر سنوات قرارًا بأن يكون هذا الكتاب مقررًا على طلابها، وأصبح مقررًا فى جميع المدارس اليسوعية، بل انتشر وذاع صيته فى جميع أنحاء العالم. وأشار العالم الإنساني (نسبة إلى الحركة الإنسانية) ريكوبوني Riccoboni - والذي كان يقوم بالتدريس فى جامعة بادو University of Padua فى عصر جاليليو - فى تعليقه النقدي على كتاب أرسطو **البلاغة Rhetoric** إلى أن البلاغة تتعامل مع ما هو قابل للإقناع persuasible بينما يتعامل الجدل مع ما هو محتمل probable.

وقد حافظ جيراردوس جونس فوسياس Gerardus Johannes Vossius (١٥٧٧ - ١٦٤٩) فى أوائل القرن السابع عشر فى شمال أوروبا على البلاغة الأرسطية بنكهة إنسانية. وقد تناول فوسياس المحاجة (الحجاج) الأرسطية بمختلف عناصرها تناولاً كاملاً: الشخصية، والدليل، والعاطفة، كما أضاف إليها كذلك تعاليم كل من شيشرون وهيرموجينيس.

البلاغة والعلم فى عصر النهضة Renaissance Rhetoric and Science

كان العلم بالمعنى الأرسطي الذي كان سائدًا فى العصور الوسطى ومعظم فترة عصر النهضة يعني المعرفة التامة perfect knowledge، وهو ذلك النوع من المعرفة الذي يمكن الحصول عليه فى حالة توافر الأدلة المطلوبة، بمعنى وجود بعض المبادئ والأسباب التي تقود الإنسان إلى نتيجة يقينية لا تحتمل الشك. وهذا المورد لم يكن للبلاغة أن ترده. وعلى الرغم من ذلك كان هناك إمكانية لاستخدام الاستدلال الجدلي للبحث عن المبادئ الأساسية التي تقود إلى دليل ما. وقد أدى صعود نجم الدراسات الإنسانية، وتأثير الجدل الذي نادى به كل من راموس وأجريكولا، وزيادة الجمهور الذي يقبل على العلم إلى إزالة الحواجز التقليدية بين العلم والبلاغة.

أما فى إنجلترا فقد أدت فلسفة فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) إلى التأكيد على إزالة تلك الحواجز. وفي كتابه **حول تقدم التعلم On the Advancement of Learning** (١٦٠٥) يصف بيكون البلاغة بأنه خادم مطيع للمعرفة، ومثير رائع للمشاعر والإرادة. وقد أدى به هذا الرأي الذي يرى أن البلاغة ما هي إلا عامل ناقل وليس صانعا للمعرفة إلى الاستغناء عن فكرة أن البلاغة هي الفن التقليدي الخماسي الأجزاء. وكان يرى أيضا أن الابتكار البلاغي (والجدلي) لا يؤدي فى واقع الأمر إلى ابتكار

أي شيء، ولكنه يستدعي فقط ما هو موجود بالفعل فى الحافظة، وما يجده هذا الاستدعاء يضعه فى شكل حجج استنباطية. أما الابتكار الحقيقي كما يراه بيكون فيوجد فى العلم ووسيلته هي الاستقراء induction.

اعتنق توماس سبرات Thomas Sprat فى كتابه **تاريخ الجمعية الملكية History of the Royal Society** أفكار بيكون، وأعلن أن الكتابة العلمية يجب أن تتجنب استخدام الصور البلاغية، وأن تستخدم أسلوبًا واضحًا يخلو من الزخارف اللفظية وألوان البديع، لكي تستطيع أن تعبر عن اكتشافاتها. وقد أيد الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) هذا الاتجاه الذي يهدف إلى البعد عن التعبير البلاغي الواعي، كما رفض استخدام البلاغة مشيدًا باستخدام النموذج الرياضي فى التفكير.

وبينما استغل الذين ينتمون إلى الحركة الإنسانية البلاغة الجدلية المتحررة لإثارة مشاعر قطاع أكبر من الجماهير، كان صعود نجم الأسلوب العلمي الجديد قد أعطى الحجة قالبا مدرسيا scholastic cast. وكان بيكون يرى أن الحجة لا يدعمها إلا الملاحظة والتجربة، وأن الحالة الواحدة، التي تكررت ملاحظتها، هي التي تؤدي عن جدارة إلى الدليل الاستقرائي، وهذا يؤدي بدوره إلى استنباط المبادئ العلمية، كما يؤدي إلى الحجة المقنعة.

ولعل برنارد لامي Bernard Lamy (١٦٤٠ - ١٧١٥) فى كتابه **فن الكلام Art de Parler** هو النموذج الأمثل لذلك الانفصال الذي حدث بين البلاغة من ناحية الحجة الصحيحة من ناحية أخرى. فكان لامي يرى أن أفضل الأدلة هي تلك الحقيقة الواضحة بذاتها (البديهية) self - evident truth. ولكي ينقل المتحدث هذه الحقيقة إلى الذين لا يعرفونها، يجب عليه أن يعزف على وتر مشاعر الجمهور ويؤثر عليه بشخصيته المعروفة. وهنا يأتي دور البلاغة التي تستطيع أن تستميل الجمهور وتسيطر عليه. وعلى الرغم من

هذه العملية التي يصفها لامي تستثير ما أسماه أرسطو بالإقناع الأخلاقي ethos وإثارة العواطف pathos والعقل logos إلا أن هذه العناصر – كما كان أرسطو يعتقد – لا يمكن أن تندمج معا.(انظر: الإقناع الأخلاقي Ethos، والعقل Logos، وإثارة العواطف Pathos). وهكذا أصبح الدليل البلاغي rhetorical proof برهانا جازمًا، وليس مجرد حجة إقناعية. وهذا يعني أن فكرة النظر إلى طرفي الحجة التي تتضح فى تراث السوفسطائيين، وأرسطو وشيشرون وكينتليان قد ذهبت أدراج الريح.

(انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والحركة الإنسانية (Humanism).

Bibliography قائمة المراجع

Conley, Thomas. *Rhetoric in the European Tradition*. Chicago, 1990.

Fumaroli, Marc. *L'age de l'éloquence: rhétorique et "res literaria" de la Renaissance au euil de l'époque lassique*. Geneva, 1980.

Howell, Wilbur S. *Logic and Rhetoric in England*. 1500–1700. New York, 1956.

Jardine, Lisa. Francis Bacon: *Discovery and the Art of Discourse*. London, 1974.

Joseph, Sister Miriam. *Rhetoric in Shakespeare's Time: Literary Theory of Renaissance England*. NewYork, 1962. First published 1947.

Kristeller, Paul Oskar. *Renaissance Thought: The Classic, Scholastic, and Humanist Strains*. New York, 1961.

Mack, Peter ed., *Renaissance Rhetoric*. New York, 1994.

Mack, Peter. *Renaissance Argument*. Leiden, 1993.

Moss, Jean Dietz. *Novelties in the Heavens: Rhetoric and Science in the Copernican Controversy*. Chicago, 1993.

Murphy, James J., ed. *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*. Berkeley, 1983.

Ong, Walter J. *Ramus: Method and the Decay of Dialogue*. Cambridge, Mass., 1958.

Seigel, Jerrold E. *Rhetoric and Philosophy in Renaissance Humanism*. Princeton, 1968.

Sloane, Thomas O. *On the Contrary: The Protocol of Traditional Rhetoric*. Washington, D.C., 1997.

Struever, Nancy. *The Language of History in the Renaissance: Rhetoric and Historical Consciousness in Florentine Humanism*. Princeton, 1970.

Vasoli, Cesare. *La dialettica e la retorica dell'Umanesimo: "Invenzione" e "metodo" nella cultura del XV eXVI secolo. Milan*, 1968.

تأليف: Jean Dietz Moss

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة فى عصر الإصلاح الديني والحركة المناهضة له

Rhetoric in the age of Reformation and Counter – Reformation

كان لحركة الإصلاح الديني تأثير كبير على التراث البلاغي فى عصر النهضة، من حيث المناداة بإعادة إعلاء كلمة الله، وأدى هذا التوجه إلى عدة نتائج هي:

١ – نظريات وممارسات جديدة للوعظ.

٢ – إعادة تقييم كل من النص الديني المكتوب وأنواع الأسلوب اللفظي.

٣ – مناظرات وجدل حول إمكانية وجود فصاحة فى الأوساط الدينية المسيحية هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار الهجوم اللاهوتي الذي شنته حركة الإصلاح الديني على البلاغة التي كان ينادي بها الإنسانيون (المنتمون للحركة الإنسانية Humanists) وخاصة فيما يتعلق بالافتراضات الأساسية عن الحقائق الإلهية، وكذلك تلك المتعلقة بالطبيعة البشرية.

الوعظ فى الفترة التالية للإصلاح الديني Post - Reformation Preaching

سار مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٦٤) على نهج مؤيدي إصلاح الكنيسة الذين جاءوا من قبله فى رفض الوعظ المدرسي المفرط فى العقلانية الذي ساد فى الأجيال السابقة. فقد كان لوثر يؤمن أن كل مؤمن يصلح أن يكون كاهنًا وقسيسًا لنفسه، وهذا يعني أن كل المسيحيين لو تلقوا قدرًا من التعليم الواضح يستطيعون فهم الأمور الأساسية المتعلقة بالعقيدة. وقد بقى هذا

التأكيد على أهمية تعليم الناس أحد عناصر النقاش المتعلقة بالوعظ فى عصر الإصلاح الديني، ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن المصلحين الدينيين فى تلك الفترة كانوا يؤكدون دائمًا على أهمية وجود مستمعين لكي يحصلوا على رد الفعل العاطفي حينما يتعلق الأمر بالوعظ الديني. والمقصود برد الفعل العاطفي هنا بعض المشاعر التي يتم إثارتها مثل الشعور بالراحة عند ذكر آيات الإنجيل. وهذا يعني أن البروتستانتيين أرادوا أن يزيحوا الإيمان القائم على المشاعر feeling faith، والذي أدخله الروح القدس Holy Spirit فى قلب كل مؤمن على أن يحل محله الإيمان التاريخي historical faith القائم على المعرفة، وعلى الحقائق التي يمكن تصديقها.

وقد وجدت بذور هذه القاعدة البلاغية المزدوجة (تعليم العقيدة +إثارة المشاعر) فى مؤلف أوغسطين Augustine المعنون **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana** وهو ما استخدمه لوثر كمثل ونموذج فى عظاته والتي كانت هدفها النصح والتعليم بأسلوب لغوي عاطفي، وكتبت هذه العظات على نسق خطب كينتليان التي كان يغلب عليها الروح التشاورية (ويرجع تاريخ هذه الخطب إلى القرن الأول بعد الميلاد)

ويعد كل من فيليب ميلانشثون Philipp Melanchthon (١٤٩٧ – ١٥٦٠) وديسيدرياس إرازموس (١٤٦٦ تقريبا – ١٥٣٦) – وهما رفيقا درب لوثر – من أكثر منظري البلاغة الوعظية sermon rhetoric تأثيرًا فى العقود الأولى من عصر النهضة. فمن جهود ميلانشثون أنه قام بتأليف عدد من الكتب المدرسية عن البلاغة، كما قام بكتابة عدد من الخطب عن البلاغة الدينية، فضلا عن كتابته لدفاع كلاسيكي classical defence عن البلاغة المسيحية ردًا على قيام أحد أعضاء الحركة الإنسانية فى إيطاليا وهو جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola فى عام ١٤٨٦ بالهجوم عليها مستخدمًا الأسلوب الأفلاطوني Platonizing attack. وهذا الدفاع

يربط بين البلاغة الإنسانية Humanist rhetoric والوعظ الذي يخاطب المشاعر كأسلحة لمحاربة الأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة الرومانية. أما فيما يتعلق بجهود إرازموس فقد قام بنشر العديد من الرسائل التي تتناول البلاغة، كما قام بنشر نسخ لبعض المخطوطات التي لها علاقة بالنصوص المقدسة أو نصوص آباء الكنيسة الأوائل، ويأتي فوق رأس القائمة كتابه **حقيقة فن الوعظ** Ecclesiastes (١٥٣٥) الذي يعد كتيبًا شاملاً ومؤثرًا عن الوعظ، ويؤكد فيه إرازموس على مكانة الوعظ السامية، فضلا عن قيامه بفهرسة موضوعات الوعظ الشائعة، وتعديل بعض المبادئ المأخوذة من التراث البلاغي الكلاسيكي بما يتناسب مع المنبر، ونقصد بهذا أنواع الخطب، وأقسام الخطبة، وأهداف البلاغة، ومستويات الأسلوب، والصور البلاغية، وأنواع البديع. ولقد تحول هذا الكتاب إلى مصدر لجأ إليه كل من كتب عن الوعظ والفصاحة المسيحية بما في ذلك كتاب أندرياس هبرياس Hyperius Andreas المعنون **De formandis concionibus sacris** (صدر في عام ١٥٥٣ وترجمه جون لودهام John Ludham في عام ١٥٥٧ تحت عنوان **ممارسة الوعظ The Practis of Preaching**)، وأيضا كتاب **بلاغة القساوسة De rhetorica ecclesiastica** الذي كتبه بارثولوميو كيكرمان Bartholomew Keckermann عام ١٦٠٠، وكتاب **Commentariorum rhetoricorum** لجيرارداس فوسياس Gerardus Vossius (نشر في الفترة من ١٦٠٣ إلى ١٦٠٦) وأخيرا كتاب جوان هاينرتش ألستيد Johann - Heinrich Alsted تحت عنوان **الخطيب Orator** ولذي نشر في عام ١٦١٢.

وقد قام البلاغيون في إنجلترا بدراسة هذه الرسائل التي كتبت عن البلاغة باللاتينية الجديدة Neo - Latin، واقتبسوا منها، ولكنهم قاموا أيضًا بكتابة عدد متنوع من الرسائل باللغات المحلية vernaculars حول البلاغة المسيحية متأثرين في ذلك بمذهب كالفين اللاهوتي Calvinist theology بالجدل

الرامي Ramist dialectic (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي). وأهم هذه الرسائل على الإطلاق هي تلك الرسالة المعنونة **فن الوعظ The Art of Prophesying** (صدرت النسخة اللاتينية فى عام ١٥٩٢ والنسخة الإنجليزية فى عام ١٦٠٧) التي كتبها الكاهن البيوريتاني ويليام بيركنز William Perkins (١٥٥٨ – ١٦٠٢). وقد اتبعت أجيال من الواعظين البيوريتانيين فى أمريكا وإنجلترا الإرشادات التي أرساها بيركنز فيما يتعلق بتفسير النص الديني وتقسيمه إلى قسمين: عرض العقيدة الصحيحة، وتطبيقها على الحياة الروحية لجمهور المصلين.

وكان بيركنز يؤيد استخدام الأسلوب الواضح المباشر الخالي من الزخارف اللفظية، كما كان يؤيد استخدام الأسلوب الذي ورد ذكره فى الجدل الرامي، وهو ما يشير إلى تقسيم الخطبة إلى عناوين جانبية وتحت كل عنوان توجد عدة أقسام، وهو ما يساعد الواعظ على التذكر والإلقاء بطريقة منظمة. وقد ظهرت كتب أخرى كتبت باللغات المحلية، وكانت تتميز بأنها أكثر ليبرالية مثل الكتاب الذي ألفه ريتشارد برنارد Richard Bernard تحت عنوان **الراعي المخلص The Faithful Shepherd** (نشر فى عام ١٦٠٧ ثم ظهرت طبعات أخرى بعد هذه الطبعة)، والكتاب الذي كتبه جون برايدو John Prideaux تحت عنوان **البلاغة الدينية Sacred Eloquence** (نشر عام ١٦٥٩). واعتمد هؤلاء المؤلفين على مصادر متنوعة من الفكر، مما جعلهم أوسع أفقًا، وبالتالي نادوا بأن يكون هناك تنوع كبير فى الأسلوب، بالإضافة إلى بعض الصقل البلاغي لاعتقادهم بأن طريقة بركينز الجدلية الواضحة سوف تقلل من الأثر العاطفي للعظة. وأخيرا كانت توجد بعض الكتيبات البسيطة والتي أعيد طبعها عدة مرات مثل ذلك الكتيب الذي ألفه ريتشارد باكستر Richard Baxter عام ١٦٥٦ تحت عنوان **القس الصالح Gildas Salvianus** وذلك الكتيب الذي ألفه جون

ويلكنس John Wilkins عام ١٦٤٦ تحت عنوان **حقيقة فن الوعظ.Ecclesiastes**
وفي هذين الكتابين تحدث المؤلفان عن البلاغة المسيحية عن طريق تحليل مؤهلات القس الورع وشخصيته.

وقد ردت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على دعوات الإصلاح الداخلية والخارجية من خلال مجلس ترينت Council of Trent (١٥٤٥ – ١٥٦٣)، حيث أكدت أن الوعظ هو الواجب الأساسي للأساقفة praecipuum episcoporum munus؛ ووضعت معايير ومتطلبات واضحة للوعظ على كافة مستويات التسلسل الهرمي hierarchy داخل الكنيسة. فالوعظ يجب أن يعلم الناس أشياء تساعدهم على الوصول إلى الخلاص salvation، كما يجب حض الناس على ترك الرذائل والتمسك بالفضائل من خلال لغة موجزة وواضحة، مع التأكيد على أن الفعل الأخلاقي يجب أن يخضع لعقيدة المجلس فى الخلاص، بمعنى الوصول إلى الخلاص عن طريق العمل وليس عن طريق منحة إلهية grace. وكانت هذه الخطوات الإصلاحية التي أقرها المجلس، ورعاية كبير الأساقفة تشارلز بوريمو Charles Borromeo لها بمثابة الشرارة التي أشعلت طاقات العديد من البلاغيين المدرسيين الذين قاموا بإنتاج العديد من المؤلفات فى الفترة من ١٥٧٠ إلى ١٦١٠، ولعل أبرزهم هم: أجوستينو فاليريو Agostino Valiero فى كتابه **حقيقة بلاغة القساوسة De rhetorica ecclesiastica** (صدر فى عام ١٥٧٤)، ولويس دي جراندا Luis de Granda فى كتابه **بلاغة القساوسة Rhetoricae ecclesiasticae** (صدر عام ١٥٧٦)، وديبجو دي ستيلا Diego de Estella فى كتابه **Modus concionandi** (صدر عام ١٥٧٦). وقد قام الكثير من البلاغيين الترايدنيين Tridentine rhetorics بما يشبه التمرد أو الثورة على المدرسة التوماوية Thomistic Scholasticism التي انتشرت فى العصور الوسطى فيما يتصل بفن الوعظ ars praedicandi، بمعنى قيام هؤلاء البلاغيين بتقليد بنية الرسالة البلاغية التي كتبها شيشرون

مستشهدين بكثير من النماذج غير الكلاسيكية للبلاغة المسيحية (ونقصد بها النماذج التوراتية، والهللينية وتلك التي لها علاقة بآباء الكنيسة الأوائل). (انظر البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric المقال الخاص بالقواعد فى العصور الوسطى Medieval grammar).

وكانت الكنيسة الرومانية تنهي الوعاظ عن الكلام على المنبر عن بعض المعتقدات التي كانت الكنيسة تعتقد أنها تندرج تحت الهرطقة heretical، وهذا خشية أن يساء فهم تعاليم الكنيسة الحقيقية بسبب قلة كفاءة بعض الوعاظ أو جهل بعض الجمهور. أما فى حالة وجود جمهور متعلم ومثقف، فعلى الوعاظ أن يثنوا على - ولا يبرروا - معتقدات الكنيسة وتقاليدها. وكانت البلاغة القائمة على التشاور deliberative rhetoric هي النمط السائد، حيث كان الوعاظ يدعون جمهور المستمعين إلى الأعمال التي تؤدي بالإنسان إلى التوبة، كما كانوا يدعونهم للمشاركة فى القربان المقدس sacrament. (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre). وكانت جمعية يسوع Society of Jesus (والمقصود بها اليسوعيون) قد تأسست في عام ١٥٤٠، وسرعان ما قامت بتأسيس العديد من المدارس فى أنحاء العالم كافة التي تقوم بتدريس بعض المناهج الصارمة التي تقوم فى جوهرها على البلاغة الكلاسيكية. وقام أعضاء هذه الجمعية بتأليف العديد من الرسائل التي تناولت البلاغة، والتي طبعت عدة مرات. وقد تدرجت هذه الرسائل فى الصعوبة والتعقيد من أكثرها صعوبة، المتمثل فى الرسالة التي كتبها نيكولاس كوسيين Nicolas Caussin والمكونة من عدة أجزاء تحت عنوان **حقيقة بلاغة الأقدمين humana et sacra De eloquentia** (نشرت فى الفترة الممتدة من عام ١٦١٧ حتى ١٦١٩)، ووصولا إلى أبسطها وهي المتمثلة فى تلك الرسالة التي كتبها سيبريانوس سواريز Cyprianus Soarez تحت عنوان **فن البلاغة De arte rhetorica**.

الكتاب المقدس والأسلوب Scripture and Style

لجأ المصلحون الأوائل إلى سلطة الكتاب المقدس ووقابليته للتعقل ضد ما اعتبروه مساوئ ارتكبتها الكنيسة الرومانية. وقد أدى هذا إلى تشجيع علماء فقه اللغة philologists إلى البحث عن نص أصلي للكتب المقدس يمكن الوثوق به authentic، واللجوء إلى المترجمين لترجمته إلى اللغات المحلية vernaculars؛ لكي يكون فى متناول العامة. وأحيانا كان الكتاب المقدس لدى البروتستانت يجنح بعيدًا عن المبادئ الأسلوبية للتراث البلاغي فى عصر النهضة. فعلى سبيل المثال أدى الجدل حول الاتجاه الشيشروني فى أوائل القرن السادس عشر إلى حث المؤيدين المتحمسين لهذا الاتجاه - الذين كانوا يرون أن رقي الأسلوب يتمثل فى اختيار شيشرون للمفردات وأنماط الجمل - على الوقوف فى وجوه خصومهم من مؤيدي الإصلاح الذين كانوا يرون أن القول بهذا الرأي (في اختيار شيشرون للمفردات وأنماط الجمل) يعوق الدور المنوط بالكلمات، والأخيلة، ورسالة الكتاب المقدس.

ولأن هؤلاء المصلحين كانوا يؤيدون التفسير الحرفي لا الرمزي للإنجيل، ولأن كثيرًا من أجزاء هذا الكتاب المقدس (و خاصة رسائل بولس) لم تتطابق مع مبادئ الفصاحة والبلاغة الشيشرونية، فقد أدى هذا إلى ارتباط تاريخي بين الكتاب المقدس لدى البروتستانت، وصعود نجم الأسلوب الإنجليزي النثري الأكثر وضوحًا والخالي من الزخارف اللفظية. وعلى الرغم من ذلك كله فإن رسائل بولس كانت تحتوي على أمثلة للسمات الأسلوبية مثل نقيض القضية antithesis والترصيع isocolon والصور البلاغية للتكرار، وهو ما يتطابق تماما مع الأسلوب الشيشروني.

وبدأ العلماء فى الآونة الأخيرة الاعتراف بالأثر الكبير للإنجيل الذي نقل إلى اللغات المحلية وبخاصة تلك الترجمة التي أخرجها ويليام تينديل William Tyndale للعهد الجديد فى عام ١٥٢٥، وهي الترجمة التي ستصبح أساسا **لنسخة الملك جيمس من الإنجيل King James Bible** والتي صدرت فى عام ١٦١١ - على تطور الأسلوب النثري الإنجليزي.

وقد قام العديد من المصلحين بتحليل أسلوب الكتاب المقدس وقدموا تفسيرات لإمكانياته النظرية. وتضم قائمة أسماء المصلحين أسماءً من أمثال متياس فلاسياس إليريكاس Mathias Flacius Illyricus (١٥٢٠ - ١٥٧٥) الذي ألف كتابا ضخما يحلل فيه لغة الكتاب المقدس تحت عنوان **sacrae scripturae Clavis**، وجون كالفين John Calvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤) الذي كتب العديد من التعليقات على الكتاب المقدس، وأخيرا يأتي اسم جون سميث John Smith فى كتابه **مفتاح أسرار البلاغة The Mysterie of Rhetorique Unvail'd** الذي صدر عام ١٦٥٧، والذي يقدم فيه قائمة للمحسنات البديعية، والصور البلاغية، مصحوبة بأمثلة توضيحية من الإنجيل (انظر علم التأويل Hermeneutics، والأسلوب Style).

وعلى الرغم من أن البلاغيين عزوا تحقيق أهداف البلاغة الدينية إلى الروح القدس من خلال دراسة الكثير من الاعترافات التي قالها الناس للكهان، فإنهم طوروا العديد من التفسيرات والرؤى حول كيفية إجازة الروح القدس للأساليب اللفظية المتنوعة. وانقسم هؤلاء البلاغيون إلى فريقين، الفريق الأول يرى أن الواعظ من خلال بلاغته وفصاحته يجب أن يكرر الحديث عن جلال الله، وإعجازه فى الخلق. وهذا يعني أن قدرات الواعظ الفنية اللفظية يجب أن تتعاون مع الروح القدس لتحريك مشاعر المستمعين، وإصلاح أخلاقهم، بنفس الطريقة التي "تتعاون" فيها أعمال الإنسان مع النفحات الربانية لكي يحصل الإنسان على الخلاص الأبدي eternal salvation.

وكان العلماء يرون أن عقلية الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المرتبطة بالقربان المقدس التي تحاول تجسيد رحمة الله غير المرئية فى أدلة مرئية منحت البلاغيين من أتباعها الفرصة (أكثر من نظرائهم من البروتستانتيين) لتبرير استخدام الزخرفة الأسلوبية، والصور البلاغية التي تبعث الحيوية والنشاط فى النص، وهو ما وصل إلى حد اتباع الأسلوب الباروكي (مثل العظات التي ألقاها لانسلوت أندروز Lancelot Andrewes فى الفترة من ١٥٥٥ حتى ١٦٢٦ فى بلاط ستيوارد الكاثوليكية philo - Catholic Stuart court). أما الفريق الآخر فكان له وجهة نظر مختلفة تتمثل فى رؤيتهم أن الفصاحة الإنسانية تشوه أو تعوق عمل الروح القدس ومن ثم تحول الواعظ إلى أداة للروح القدس. وهذا يفسر كلاً من الأسلوب البيوريتاني الواضح الذي يتسم بإخفاء المعرفة الإنسانية (التي تميز طريقة الإلقاء) التي استخدمت فى تحضير عظة ما من ناحية، والوعظ الحماسي الراديكالي من ناحية أخرى. والرأيان لم يمنعا وجود فريق ثالث من العلماء أكثر اعتدالاً كان يرى أن فنون الخطاب arts of discourse هي هبات ومنح ربانية مثلها مثل ذهب المصريين الذي ذكر فى قصة الخروج Exodus story، بمعنى أن فنون الخطاب أسسها وثنيون pagans، ولكن الروح القدس منحتها للكنيسة المختارة لمساندتها وتمجيدها. ويرى هذا الفريق أن الاختلاف الأساسي بين البلاغة الدينية والبلاغة العلمانية يكمن فى الدافع وليس فى الأسلوب، بمعنى أن كلا من الواعظ والكاتب يمكن أن يستخدما فنون البلاغة على شرط أن يتسما بالتواضع والبر، وليس الصلف والعجب بالذات. وقام هذا الفريق بعقد مماثلة بين العقيدة اللاهوتية للعون الإلهي divine accommodation والتي تقول: "والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده كما يوجد من الأب مملوءا نعمة وحقا" (يوحنا:١:٤١) وبين فن التأويل البلاغي الذي يرى أن الحقائق الإلهية ينبغي تطويعها من خلال الكتاب

المقدس للارتقاء بالفهم الإنساني. ومن ثم اعترف مؤيدو هذه الفكرة بما فيهم إرازموس، وميلانشثون، وفلاسياس Flacius بأن الظروف التاريخية المحددة، ونطاق الكتاب المقدس، ورسائل العقيدة الجوهرية – مثل تجسد المسيح، والموت والنشور، وخلاص المؤمنين الأتقياء الأصفياء – لها صلة وثيقة بتحديد معاني الأجزاء الصعبة، وتصحيح المجاز والغموض الروماني الكاثوليكي والمدرك إدراكا سيئا.

الهجوم اللاهوتي على البلاغة The Theological Attack on Rhetoric

على حين كانت آراء حركة الإصلاح الديني فيما يتعلق بالوعظ ودراسة الكتاب المقدس تتضمن العديد من الأفكار المأخوذة من التراث البلاغي للحركة الإنسانية، إلا أن هذا لم يمنع الكثير من العلماء فى العصر الحديث من القول بأن حركة الإصلاح الديني قللت من أهمية هذا التراث بطرح الأسئلة وبث الشك فى رؤية الحركة الإنسانية المتفائلة للطبيعة الإنسانية. فكان لوثر يؤمن بفسوق الإرادة الإنسانية، وفساد العقل الإنساني وهو ما جعله فى مناظرته الشهيرة مع إرازموس حول الإرادة الحرة (١٥٢٤ – ١٥٢٥) يرفض اعتقاد الكنيسة الرومانية أن العلاقة الفردية لكل مسيحي مع الله تختزل فى بعض المفردات البلاغية التطويعية المتعلقة بالحكمة والعقل والفضيلة، وهي مفردات لم تلق قبولاً عند لوثر الذي استخدم مفردات لاهوتية أخرى أشد قسوة وصرامة تدور حول ارتكاب الخطيئة، والإيمان والنعمة. وقد قوضت إصلاحات لوثر العقائدية أركان البلاغة اللاهوتية theologia rhetorica التي تبنتها الحركة الإنسانية، وقوضت ثقتها فى إمكانية الاستخدام الدائم للعقل الرشيد فى تناول قضايا الإيمان، والفصل فى أي جدل عقائدي. هذا الجانب المتطرف من الجدل والمناظرة يجعل استخدام الفصاحة والبلاغة الدينية أمرا مستحيلا فى بعض الأمور التي يكون استخدامها فيها ضروريًا،

ومن ثم لا يستطيع المسيحيون – طبقا لوجهة النظر المتطرفة هذه – بما لديهم من عقل ساقط fallen reason، وإرادة مكبلة enslaved will، وأحاسيس لا يوثق بها unreliable sense أن يستخدموا فن البلاغة دون أن يسلموا إيمانهم طواعية لشطحات الرغبات الجسدية، والعقلانية الرومانية الشيشرونية، فضلا عن التشريع اليهودي. ولعل أشهر الأقوال فى هذا المجال ما قاله السير فيليب سيدني Sir Phillip Sidney إن "الحصافة والفطنة تخربهما الإرادة الفاسدة". ومن ثم فقد رفض المصلحون الراديكاليون البلاغة والفنون الأخرى؛ لأنها تغوي المؤمنين على عبادة المخلوق لا الخالق. ويرى خصوم البلاغة المسيحية أنها حتمًا لا تجيد تصوير الحقائق الإلهية والدينية الراسخة، أو بعبارة أخرى فإن البلاغة تغوي الإنسان "البراني"outer man بما فيه من خطايا وشهوات، وتتجاهل الإنسان "الجواني "inner man – وهو الأرقى طبعًا – بما فيه من جوانب روحية. وهذا يعني بكل بساطة أن كلمة الإنسان (والمقصود هنا استخدام البلاغة) تشوه كلمة الله وتدنسها.

كان أحد ردود الأفعال على هذه الآراء المعارضة لاستخدام البلاغة هو الإصرار على أن الواعظ الذي تحرك الروح القدس مشاعره يستطيع أن يحرك مشاعر المستمعين، وهذا يعني التخلص من وصمة الدوافع الإنسانية الآثمة عن طريق اعتبار الروح القدس مصدر الفصاحة المسيحية. وقد حاول بعض العلماء التلطيف من حدة هذا الجدل بالقول بأنه إذا كان هناك الكثير من المصلحين الذين رفضوا البلاغة اللاهوتية التي نادت بها الحركة الإنسانية، إلا أنهم يقدرون تمامًا استخدام البلاغة فى الأمور الدنيوية التي تشرف عليها الكنيسة. ومن ثم يجب أن نقبل بالبراءة الإلهية من الإثم والتي يعتبر المرء بفضلها صالحًا وجديرًا بأن ينعم بالخلاص ولكن وفقا لشروط الرب، وهي شروط تسيء للعقل وكرامة الإنسان، ولكن الواعظ قادر تمامًا على الجدال مع مستمعيه وإقناعهم بقيمة الإيمان الصحيح وبجدوى الفعل

الأخلاقي. وهذا الاختلاف بين البلاغة العليا upward rhetoric، والبلاغة الدنيا downward rhetoric يفسر لماذا نعت لوثر العقل الإنساني بأنه كالبغي "whore" على الرغم من أنه كان يلقي عظات إرشادية على مستمعيه تتطلب إعمال العقل. ويفسر أيضا لماذا وضع كالفين العقيدة المسيحية فى نسق يسمو فوق كل جدل ومناظرة، مع أن خطبته وتعليقاته على الكتاب المقدس تزخر بالجوانب البلاغية المصقولة.

وهذا الاختلاف هو الذي شكل أيضا تلك المناظرات والحالة من الجدل التي شقت صفوف البروتستانتيين الإنجليز أثناء وبعد حكم الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ - ١٦٠٣). ولذلك استمد البيوريتانيون الإنجليز من رسائل بولس قواعد بلاغية واضحة لا تقوم على التضاد بين الجسد والروح، ولكن على التضاد الكنسي بين الفوضى والنظام، بين التدمير والتثقيف، بين الصرامة التشريعية والتطويع المحبب. وبذلك أيد البيوريتانيون فى الفترة الأولى من عصر الملكة إليزابيث السياسات التي تبنتها الكنيسة مثل توفير قساوسة أكثر علمًا وأرقى تعليمًا يستطيعون تعليم الناس من خلال هذه العظات، وليس مجرد قراءتها عليهم، أو إقامة الطقوس والشعائر فحسب. وكان من ضمن هذه السياسات إعطاء المصلين حق انتخاب القساوسة أو رعاة الأبرشية الذين يلبون احتياجاتهم الروحية من خلال عظاتهم، وهو ما يؤكد المبدأين البلاغيين، اللذين أقرتهما الحركة الإنسانية وهما: الذوق decorum والمواءمة accommodation.

وفي السياق نفسه ميز بركينز بين أنواع المستمعين فمنهم الجاهل والمتعلم، والمتكبر والمتواضع، والمنحل أخلاقيًا والراسخ الإيمان، وأكد على أن القسيس أو راعي الأبرشية يجب أن يطوع عظته بحيث تخاطب كل هؤلاء الأضداد. ومع ذلك فهذا التأكيد الدعوي كان (ولا يزال) مغلفا بالمناظرات العقائدية الملتهبة. (انظر الذوق Decorum) (انظر أيضا فن الوعظ Homiletics والدين Religion).

قائمة المراجع

Bayley, Peter. *French Pulpit Oratory, 1598–1650: A Study in Themes and Styles, with a Descriptive Catalogue of Printed Texts*. Cambridge, U.K., 1980.

Bouwsma, William. *John Calvin: A Sixteenth - Century Portrait*. Oxford, 1988.

(يؤكد هذا الكتاب الوسط الإنساني الذي يميز أعمال كالفين ووجهة نظره اللاهوتية)

Boyle, Marjorie O'Rourke. *Rhetoric and Reform: Erasmus's Civil Dispute with Luther*, Cambridge, Mass.,1983.

ولمزيد من الاطلاع على البلاغة اللاهوتية ننصح بالاطلاع على كتاب Language and Method in Theology لنفس المؤلف صدر فى مدينة تورنتو عام ١٩٧٧)

Breen, Quirinus. *Christianity and Humanism: Studies in the History of Ideas*. Grand Rapids, Mich., 1968.

Eden, Kathy. *Hermeneutics and the Rhetorical Tradition: Chapters in the Ancient Legacy and Its Humanist Reception*. New Haven, 1997.

(يحتوي هذا الكتاب على فصول تتناول كلا من إرازموس، ميلانشثون، وفلاسياس).

Erasmus. Desiderius, *Ecclesiastes, sive de ratione concionandi libri quatuor*. edited by Jacques Chomarat. Amsterdam, 1991.

(توجد نسخة حديثة لرسالة إرازموس المهمة موجودة فى المجلد الخامس من **Opera Omnia Desiderii Erasmi Roterodami** (أمستردام ١٩٦٩) وقد قام تشومارات Chomarat بكتابة المقدمة وبعض الحواشي التفسيرية المفصلة).

McGinness, Frederick J. *Right Thinking and Sacred Oratory in Counter - Reformation Rome*. Princeton, 1995.

Mueller, Janel M. *The Native Tongue and the Word: Developments in English Prose Style*, 1380–1580.Chicago, 1984.

(يقدم هذا الكتاب دراسة مفصلة لتأثير التوراتية البروتستانتية والبلاغة المسيحية على أسلوب النثر الإنجليزي).

Nembach, Ulrich. *Predigt des Evangeliums: Luther als Prediger, Pädagoge und Rhetor*. Neukirchen – Vluyn, Germany, 1972.

(يقدم هذا الكتاب دراسة مهمة لبلاغة لوثر الوعظية).

O'Malley, John W., S. J. *Praise and Blame in Renaissance Rome: Rhetoric, Doctrine, and Reform in the Sacred Orators of the Papal Court, c.1450–1521*. Durham, N.C., 1979.

O'Malley, John W., S. J. "Content and Rhetorical Forms in Sixteenth - Century Treatises on Preaching." In *Renaissance Eloquence: Studies in the Theory and Practice of Renaissance Rhetoric*, edited by James J. Murphy, pp.pp. 238–252. Berkeley, 1983.

Shuger, Debora K. Sacred Rhetoric: The Christian Grand Style in the English Renaissance. Princeton, 1988.

(يقدم هذا الكتاب دراسة تفصيلية للنظريات المتعلقة بالإقناع والانفعال التي فى الكتيبات التي كتبت باللاتينية الجديدة مع التركيز على مصادرها الكلاسيكية ومن قلدها باللغات المحلية).

Smith, Hilary Dansey. *Preaching in the Spanish Golden Age: A Study of Some Preachers of the Reign of Philip III*. Oxford, 1978.

Spitz, Lewis W. "Luther and Humanism." In *Luther and Learning*, edited by Marilyn J. Harran, pp.pp. 69– 94. London, 1985.

(يقدم هذا البحث مدخلاً جيدًا للمناظرات العلمية حول تأثير اللاهوت فى عصر الإصلاح الديني على الحركة الإنسانية المسيحية).

تأليف: Gregory Kneidel

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الموقف البلاغي Rhetorical Situation

كان مقال لويد بيتزر Lloyd Bitzer المعنون "**الموقف البلاغي**" **The Rhetorical Situation** هو المقال الرئيسي فى دورية **الفلسفة والبلاغة** **Philosophy and Rhetoric** (الصادرة فى عام ١٩٦٨)، وهي دورية تهتم بنشر الدراسات والمقالات عن العلوم البينية interdisciplinary. ومنذ نشره لأول مرة أصبح هذا المقال هو محور العديد من المناقشات فى كثير من الدراسات التي تتناول الأدب والاتصال (مع الجماهير). ومازال المفهوم الذي طرحه بيتزر منذ أكثر من أربعة عقود يشغل مكانًا مهمًا فى المحاضرات التي تتناول البلاغة، أو أي خطاب علمي مثقف scholarly discourse.

يرى بيتزر "أنه طالما أن كل سؤال يتطلب إجابة فإن كل موقف بلاغي يتطلب خطابًا بلاغيًا". وبعد هذه المقارنة البسيطة التي كان الغرض منها توضيح ذلك الارتباط الشرطي، يقدم بيتزر التعريف التالي "يمكن تعريف الموقف البلاغي على أنه مجموعة متشابكة من الأشخاص، والأحداث، والأشياء، والعلاقات التي تمثل ضرورة قائمة أو محتملة يمكن إزالتها أو التخلص منها تمامًا أو جزئيًا، إذا دخل الخطاب الذي يستطيع كبح القرار أو الفعل الإنساني من أجل إحداث تعديل جوهري لهذه الضرورة" (صفحة ٦). والمكونات الثلاثة التي أبدى بيتزر اهتمامه الشديد بها هي: الضرورة exigence، والجمهور audience، والكوابح والعوائق constraints.

ويعرف بيتزر الضرورة بأنها "خلل ما يتطلب تدخلاً عاجلاً، وقد يكون هذا الخلل نقصًا معينًا، أو عقبة، أو شيئا ينتظر التغيير، أو أمرًا كائنًا بشكل يختلف عما يجب أن يكون عليه" (صفحة ٦). وبعبارة أخرى الضرورة هي آفة اجتماعية أو مشكلة عويصة فى هذه الدنيا، بمعنى أنها أمر جلل يجب أن يلتفت الناس إليه. ولهذه الضرورة وظيفة تنظيمية بمعنى أن الموقف يتطور متمحورًا حول هذه الضرورة. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن توصيف الضرورة البلاغية rhetorical exigence على هذا النحو لا ينطبق على كل مشكلة نراها أو نسمع بها فى هذه الدنيا، وهذا يفسره بيتزر فى السطور التالية:

"إن الضرورة التي لا يمكن تحويرها وتلطيفها وتعديلها هي ليست فى واقع الأمر ضرورة بلاغية بمعنى أن الأمور الحتمية مثل الموت، وفصول السنة، وبعض الكوارث الطبيعية على سبيل المثال فى واقع الأمر ضرورة حتمية، ولكنها ليست ضرورة بلاغية. ومن ثم فإن الضرورة البلاغية هي تلك الضرورة القابلة للتحوير أو التعديل الإيجابي الذي يتطلب إما خطابا discourse، وإما مساندة" (صفحتي ٦،٧)

ويعكس وصف بيتزر للضرورة البلاغية فكرة أرسطو التقليدية المتعلقة بالاحتمالية أو المصادفة contingency. (انظر المصادفة والاحتمالية Contingency and Probability). ويتفق بيتزر مع أرسطو (٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م) فى أن البلاغة تنشغل بما هو محتمل، وليس بما هو ضروري.

وهذا يعني أن بعض الضرورات البلاغية تتطلب خطابًا معينًا، بينما يمكن حل البعض الآخر بمساعدة الخطاب (وليس باستخدامه). فإذا ما أخذنا قضية العنصرية racism كمثال على النوع الأول من الضرورات، فيرى بيتزر أن الطريقة الوحيدة التي تجعل الناس يغيرون من سلوكهم الذي يحط من قدر الآخرين الذين ينتمون لخلفية مختلفة (دين، ولون، وجنس،...) هي إقناعهم

بضرورية تغيير هذا السلوك. ومن ثم تظهر أهمية الخطاب الإقناعى persuasive discourse كوسيلة لتخفيف أو تحوير ضرورة العنصرية. ويضرب بيتزر مثالاً على النوع الثاني من الضرورات بقضية تلوث الهواء: "تمثل قضية تلوث الهواء ضرورة بلاغية لأن تحويرها أو تعديلها الإيجابي – بتخفيض معدلات التلوث – يستدعي مساعدة الخطاب من أجل نشر الوعي بين الناس، وإثارة سخطهم، وحثهم على اتخاذ الفعل الصحيح" (صفحة ٧).

ويساعدنا هذا المثال الثاني (تلوث الهواء) على توضيح العلاقة بين الضرورة، وذلك المخزون من الموضوعات التي تتعلق بالسببية causality التي تعد أحد محاور النقاش فى نظرية الجدل المعاصرة. فالوجود المادي لبعض الجزئيات الخطرة فى الهواء – ظاهرة تلوث الهواء – هو بلا شك مرض أو وضع يهدد صحة الإنسان. والخطاب فى حد ذاته لا يستطيع أن يزيل هذا التلوث، ولكن يستطيع أن يساعد فى إزالة هذا التلوث لو استخدم فى إقناع المشرعين بوضع قانون جديد ينص على تقليل نسبة أو كمية المواد الضارة المنبعثة من السيارات والمصادر الأخرى الملوثة للهواء. والضرورة المحددة هنا تتمثل فى حث المشرع على اتخاذ هذه الخطوة، بمعنى أن الضرورة هنا تتعلق بمشكلة تأييد سياسة ما أو هي الحاجة إلى حث هيئة تشريعية لاتخاذ فعل معين تجاه آفة أو مشكلة تلوث الهواء. وفي النهاية يجب أن نلفت النظر إلى أن الضرورات تستطيع إعادة تطوير نفسها، بمعنى عودتها للحياة بعدما نظن كل الظن أنها محيت. ومن ثم يعتقد معظم علماء البلاغة أن الضرورات البلاغية يمكن حلها بشكل مؤقت من خلال التأني والتشاور والفعل، ونادرًا ما يتم حلها أو إزالتها بشكل مطلق. (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre).

ولا يقتصر الجمهور البلاغي rhetorical audience على تلك المجموعات من الأفراد الذين ساقتهم الصدفة إلى الاستماع إلى خطبة، أو قراءة مقال في الصحف أو المجلات. ويرى بيتزر أن الجمهور البلاغي يجب أن يتوفر فيه شرطان: وهما أولاً: أن يكون لدى هذا الجمهور استعداد لتقبل فكرة التأثير عليه، وثانيًا: أن يقبل أن يكون وسيطًا للتغيير mediators of change. فالجمهور الذي ليس لديه استعداد أن يتقبل وجهات نظر أخرى يعرضها مناصر لقضية ما، أو ليس لديه استعداد لتقبل وجهات نظر بديلة لا يمكن من وجهة نظر بيتزر أن يكون جمهورًا بلاغيًا. فإذا أراد شخص ما أن ينضم لهذا الجمهور البلاغي، أو أرادت مجموعة ما أن توصف بأنها جمهور بلاغي، فيجب على كليهما أن يثبتا أن لديهما أدنى قدر من الانتباه والاستعداد للاستماع لما يعرضه نصير قضية ما. أما الشرط الثاني للجمهور البلاغي فيتعلق بقدرة هذا الجمهور على أن يكون وسيطا للتغيير mediators of change، فأحيانا يحتاج من يؤيد قضية ما أن يقنع جمهورا من المستمعين أو القراء أنهم قادرون على أن يكونوا وكلاء للتغيير agents of change (ولعل أكثر الأمثلة صلة بهذا المعنى هي تلك الجهود التي بذلها هنري جارنيت Henry Garnet، (وهو أمريكي من أصل أفريقي فى إقناع العبيد الأفارقة فى القرن التاسع عشر بأنهم يملكون القوة لتعديل أوضاعهم). وفي أحيان أخرى قد لا تملك مجموعة من الناس القوة أو السلطة لصنع قرار نهائي فى موضوع ما، ولكنها تملك القدرة على التأثير على أولئك الذين يملكون سلطة صنع القرار النهائي. ويمكن تقسيم الشرط الذي قال به بيتزر والمتعلق بالقدرة والاستطاعة إلى:

١- جمهور قادر على صنع القرار النهائي.

٢- جمهور يستطيع ممارسة تأثير ما على أولئك الذين لديهم سلطة صنع القرار النهائي، وإجمالاً فإن الجمهور البلاغي هو ذلك الجمهور المنفتح على الخطاب والمهتم به، والذي يمتلك القدرة لكي يكون وسيطا للتغيير.

وتمثل الكوابح أو العوائق المكون الثالث لأي موقف بلاغي (على الرغم من أن الملحق الذي نشره بيتزر عام ١٩٨٠ يحتوي على فكرة المصادر "resources" كمكمل لفكرة الكوابح). وكان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) قد كتب - هذه السطور مأخوذة من مقالة مطولة لماركس بعنوان "**الثامن عشر من بروميير لوي بونابرت**" **"The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte"**– "أن الرجال هم الذين يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه كما يحبون ويرضون، فهم لا يصنعونه فى ظل ظروف اختاروها هم بأنفسهم، وإنما فى ظل ظروف صنعها لهم الماضي" (انظر **The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte** صدر فى نيويورك عام ١٩٩٤. وطبع أول مرة فى ١٨٥٢).

ولكي نبسط وجهة نظر ماركس وندمجها داخل وصف بيتزر للموقف البلاغي، فإن الناس يصنعون التاريخ عن طريق مواجهة الضرورات. فهم يصنعون أو يؤلفون الخطاب لكي يساعدوا فى حل هذه الضرورات. وهذه المهمة تجعلهم يواجهون ظروفًا لم يختاروها، ولو أتيحت لهم حرية الاختيار ما كان لهم أن يختاروها، وهي ظروف من المحال أن يرضوا هم عنها. وتتضمن قائمة هذه الظروف الآتي: التاريخ (أحداث الماضي، التراث،.... إلخ)، الأشخاص، والأحداث الحالية، والحقائق المتعارف عليها، والقيم والمعتقدات، والعادات والتقاليد، والوثائق المكتوبة (مثل العقود والخطابات)، والنصوص الموثوق بها (مثل الكتاب المقدس والدستور الأمريكي)، والمكان، وعوامل أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية. فالكوابح هي فى جوهرها تلك العوامل التي تؤثر أو تمنع نصيرًا لقضية ما من أن يكون قادرًا على التدخل لحل ضرورة ما. فمثلا الصورة السلبية لرجل السياسة قد تكون عائقًا أو كابحًا يمنعه من الوصول لمنصب أعلى. والآراء المتصارعة بين العلماء هي كابح أو عائق يمنع الاستشهاد بأي من هذه الآراء لتبني سياسة ما أو موقف ما. (انظر الإقناع الأخلاقي ethos والسياسة Politics المقال الذي يناقش المجالات الشخصية،

والتقنية، والعامة للحجة The personal, technical and public spheres of argument .
فالحجج التي تنشغل بها المعارضة هو كابح أو عائق يمنعها من اتخاذ أي مبادرة لتنفيذ سياسة ما. والاعتراف الذي وقع عليه المتهم هي كابح أو عائق يمنع محاميه من الدفاع عنه. وحينما توفر الظروف مادة ما material يمكن أن يستغلها نصير قضية ما لمصلحته، فإن هذه الظروف تعد مصدرًا ممكنًا يمكن لهذا النصير أن يحاول استغلاله. فمثلا معرفة النصير المسبقة بالجمهور قد تكون مصدرًا فى محاولته للفوز بدعمهم فى استفتاء يتعلق بنظام الضرائب مثلاً.

وفي ذلك الملحق الذي نشر عام ١٩٨٠ يضع بيتزر نموذجا تطوريا evolutionary model للمواقف البلاغية، بمعنى أن المواقف البلاغية لا تظهر ببساطة كاملة النمو والتطوير، ولكنها تتطور بتطور الزمن عبر أربع مراحل: المرحلة الأولى هي مرحلة النشوء والتطور الأولى، وفي هذه المرحلة تنشأ ضرورة ما، ثم نفترض أن شخصا ما تعرّف على هذه الضرورة وحددها، ولكن فى هذه المرحلة يغلب عدم الوضوح على كل من ماهية الجمهور، والكوابح، والمصادر، أو أن هذه العناصر لم تتطور بعد بالشكل الكامل. أما فى المرحلة الثانية الأكثر نضجًا، فإن الضرورة تكون واضحة للعيان ونقصد بذلك المتحدث والجمهور، ويستطيع الجمهور تحوير هذه الضرورة وتعديلها بسهولة، مع وجود الكوابح والعوائق الفعالة والمؤثرة. ويرى بيتزر أن مدة هذه المرحلة قد لا تكون أكثر من لحظة، وقد تمتد إلى ما لا نهاية. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التدهور والانحدار. وفي هذه المرحلة تتغير صورة هيئة المكونات بطريقة تجعل تطوير أو تعديل هذه الضرورة أكثر صعوبة. أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي مرحلة التفكك، وتشهد هذه المرحلة تفكك صورة أو هيئة المكونات (الموقف البلاغي)، بحيث يختفي الجمهور، ويصبح استيعاب الضرورة أمرًا غير ممكن، ويتم تجفيف المصادر، وتصبح الكوابح أو العوائق أمرًا مسيطرًا يصعب الفكاك منه. ومن

ثم يصبح المناصر لقضية ما والذي يصر على التعامل مع موقف مفكك كمن يصرخ وحيدًا فى البرية. ولكن دوام الكمون من المحال، بمعنى أن القضايا تبعث من جديد، وتبث فيها الحياة، كقضايا الرعاية الصحية، أو إعادة ظهور الحركة النسوية feminism فى الستينيات من القرن الماضي.

وأحد جوانب مفهوم الموقف البلاغي عند بيتزر، الذي جذب إليه الانتباه والنقد فى ذات الوقت هو جانب الموضوعية ذات المعنى purported objectivism. ففي عام ١٩٦٨ كتب بيتزر التالي:

"إن الضرورة ومجموعة الأشخاص، والأشياء، والعلاقات التي تؤدي إلى ولادة خطاب بلاغي هي أمور موجودة فى الواقع، وهي حقائق موضوعية وتاريخية ويمكن للجميع فى هذا العالم الذي نحيا فيه ملاحظتها، كما يمكن للمراقبين والنقاد والمعنيين بالأمر فحصها وتمحيصها ودراستها. وإذا ما وصفنا الموقف بأنه موضوعي فإن هذا يعني أنه حقيقي. ويمكن التمييز بين المواقف الحقيقية وتلك السوفسطائية، فالمواقف الحقيقية تتضمن ضرورات حقيقية، بينما المواقف السوفسطائية تتضمن وجود مزعوم لمكونات هي فى واقع الأمر نتيجة لخطأ أو جهل أو من وحي الخيال وبحيث تكون الضرورة والجمهور والكوابح خيالية ولا وجود لها". (صفحة ١١).

وقد هاجم العلماء والباحثون الذين جاءوا بعد بيتزر فكرته هذه وهي أن الموقف ظاهرة موضوعية objective phenomenon، بمعنى أنه شيء موجود وجودا واقعيا بصرف النظر عن استيعاب الإنسان له، أو اعترافه به، أو تفاعله معه. ويعد ريتشارد فاتز Richard Vatz من أوائل من كتبوا نقدًا لفكرة موضوعية الموقف. ويظهر هذا جليًا فى قوله: "لا يوجد موقف يمكن أن يكون له طبيعة مستقلة عن استيعاب وفهم من يحاول تفسيره، أو أن تكون هذه الطبيعة مستقلة عن البلاغة التي اختارها لكي يحدد بها ملامحه وماهيته"

(صدر عام ١٩٧٣، صفحة ١٥٤). ويرى فاتز وكثير من علماء البلاغة أن المؤيدين لقضية ما لا يستجيبون فقط للمواقف بل يخلقونها أو يحددونها". وطبقًا لوجهة النظر هذه، فإن الخطاب البلاغي لا يعد أداة فقط، بل يمتلك قدرة بنائية وتأسيسية كذلك (انظر السياسة Politics، المقال الذي يتناول البلاغة التأسيسية Constitutive rhetoric). وحينما يثير أحد المنظرين مثل فاتز فكرة القدرة البنائية والتأسيسية للخطاب، فإن هذا لا يعني أن الخطاب هو الذي يخلق الجزيئات والعوالق المادية التي تلوث الهواء. وتشير فرضية القدرة البنائية والتأسيسية للخطاب إلى أن هذا الخطاب هو الذي يوضح ماهية الأجسام المادية كالملوثات، أو الجوانب الاجتماعية كالجريمة والفقر.

وإذا كانت المناظرات بين من يسمون أنفسهم أنصار الموضوعية objectivists وأولئك الذين يؤيدون لونا ما من البنائية constructivism يظهر انفصالا حصريا متبادلا بينهما، فإن هذا المظهر هو مظهر خادع. فمعظم علماء البلاغة يعتقدون أن المسألة لا تتعلق بمدى صدق قيام الخطاب بالاستجابة للمواقف أو خلقها من الأساس، فهو فى حقيقة الأمر يقوم بالأمرين. وفي عام ١٩٧٩ أدلى جون باتون John Patton بدلوه فى الجدال الدائر حول طبيعة المواقف البلاغية بقوله: "إن معنى المواقف البلاغية هو فى جوهره عملية ثنائية dual process: فهو يتعلق بوضوح ودقة استيعاب الموقف من ناحية، وبالفعل الإنساني الفني المقصود من ناحية أخرى" (صفحة ٤٩). وفي عام ١٩٨٠ أدخل بيتزر تعديلاً على الموضوعية الصارمة التي اتسمت بها تركيبته الأولية بإضافة المصالح الإنسانية human interests كجزء من عملية تشكيل الضرورة وصياغتها. ويتضح هذا التعديل فى قوله: "تتكون الضرورة البلاغية من حالة حقيقية واقعية فضلاً عن وجود مصلحة ما لها علاقة بهذه الضرورة..... فوجود الضرورة مرهون بوجود ارتباط بين وضع حقيقي قائم ومصلحة ما " (صفحة ٢٨). فعلى سبيل المثال تعد الاختبارات فى المدارس

وضعًا حقيقيًا، بمعنى أن الامتحانات تعقد، ويحاول الطلاب الحصول على أعلى الدرجات، ثم تظهر نتائج الاختبارات. ولكن بيتزر يرى أن هذا الوضع الحقيقي يمكن أن يتحول إلى ضرورة – كما ذكر فى مقاله الذي نشر عام ١٩٨٠ – لو ارتبط بمصلحة إنسانية. ويضيف بيتزر أن "إضافة المصلحة الإنسانية تجعل هذا الوضع القائم شيئًا مختلفًا عن أمر قائم آخر يمثل نقصًا أو مثلبة يجب تغييرها" (صفحة ٢٨). فنتائج الاختبارات تميط اللثام عن مشكلة يمكن إدراكها إذا ما كان هناك ثمة ارتباط بالمصالح الإنسانية مثل النجاح، والرفاهية، والإنجاز. ولا شك أن النتائج المتدنية فى الاختبارات تمثل تهديدًا لهذه المصالح. فإذا كان الأمر كذلك، فهناك ضرورة تبرز إلى الوجود.

وبهذا المعنى يتحول كل موقف إلى موقف متفرد فى ذاته، بمعنى وجود مجموعة من الأحداث المحددة تشكل موقفًا بعينه لا يتكرر مرة ثانية بنفس التفاصيل والتداعيات. ويرى بيتزر أن المواقف المتشابهة التي تستدعي استجابات متشابهة تحدث من يوم إلى يوم، ومن عام لآخر (١٩٦٨، صفحة ١٣). كانت هذه الملاحظة مثيرًا ومحفزًا مهمًا فى تطور نظرية الجنس الأدبي، وتطور النقد فى الدراسات البلاغية المعاصرة. ويمكن لملاحظة بيتزر هذه أن تنهج نهجًا آخر، فوجود أوجه التشابه بين المواقف يؤيد تطور الدراسة الرمزية typology لضرورات الموقف التي تثير السؤال التالي: ما هي بعض المشكلات المتكررة التي تنظم الموقف البلاغي، ومن هم المؤيدون أو المناصرون المعنيون بالاستجابة لها؟

وحينما يتناول الناقد نصًا معينًا فأول ما يقوم به هو إعادة بناء أو تركيب الموقف من أجل تحديد الضرورات، والكوابح أو العوائق، والمصادر والجمهور ذي الصلة بموضوع النص. (انظر السياسة politics، وخاصةً المقال الخاص بالبلاغة النقدية Critical Rhetoric). وكان بيتزر قد اعترف (١٩٦٨)

بأن تحليل الموقف أساس أي مجهود يبذل لفهم وتقييم الوظيفة الأداتية instrumental function للممارسة البلاغية... وطالما أن علماء البلاغة يشغلون أنفسهم باكتشاف هذا البعد للخطاب، فسوف يظل مفهوم الموقف البلاغي يلعب دورًا فاعلاً في هذا الاتجاه. (انظر الجمهور Audience، والأنواع الأدبية المهجنة Hybrid genres، والابتكار Invention، والمناسبة أو الحدث Occasion).

Bibliography قائمة المراجع

Biesecker, Barbara A. "Rethinking the Rhetorical Situation from within the Thematic of *Différance*." *Philosophy and Rhetoric* 22 (1989), pp.pp. 110–130.

(يقدم المؤلف فى هذا البحث رؤيته فى الجدل الدائر حول الموقف البلاغي من وجهة نظر ما بعد البنيوية)

Bitzer, Lloyd. "Functional Communication: A Situational Perspective." In *Rhetoric in Transition: Studies in the Nature and Uses of Rhetoric*. Edited by Eugene E. White, pp.pp. 21–38. University Park, Pa., 1980.

(يعرض هذا البحث لجهود بيتزر لتطوير فكرته عن الموضوعية).

Brinton, Alan. "Situation in the Theory of Rhetoric." *Philosophy and Rhetoric* 14 (1981), pp.pp. 234–248.

(يقدم هذا البحث تحليلات أفضل لموقف بيتزر الأصلي).

Consigny, Scott. "Rhetoric and Its Situations." *Philosophy and Rhetoric* 7 (1974), pp.pp. 175–186.

(يعد هذا البحث أحد أوائل الكتابات النقدية التي وجهت لبيتزر).

Crable, Richard E., and Steven L. Vibbert. "Managing Issues and Influencing Public Policy." *Public Relations Review* 6 (1985), pp.pp. 3–16.

(يتناول هذا البحث الاختلاف بين الجمهور الذي يملك السلطة النهائية والجمهور الآخر الذي يملك التأثير).

Gorrell, Donna. "The Rhetorical Situation Again: Linked Components in a Venn Diagram." *Philosophy and Rhetoric* 30 (1997), pp.pp. 395–412.

(يمثل هذا البحث إحدى أهم المساهمات الأخيرة فى النقاش الدائر).

Jamieson, Kathleen M. H. "Generic Constraints and the Rhetorical Situation." *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp.pp. 162–170.

(يحاول هذا البحث تطوير فكرة وجود رابط بين المواقف والأنواع البلاغية).

Jasinski, James. *Key Concepts in Contemporary Rhetorical Studies*. Thousand Oaks, Calif., in press.

(يحاول هذا الكتاب تطوير دراسة رموز الضرورات).

Miller, Arthur B. "Rhetorical Exigence." *Philosophy and Rhetoric* 5 (1972), pp.pp. 111–118.

(يعد مؤلف هذا البحث واحدًا من أوائل من انتقدوا فكرة بيتزر عن الموضوعية).

Patton, John H. "Causation and Creativity in Rhetorical Situations: Distinctions and Implications." *Quarterly Journal of Speech* 65 (1979), pp.pp. 36–55.

(يحاول مؤلف هذا البحث التوصل إلى أرضية مشتركة بين بيتزر ومن انتقده).

Vatz, Richard E. "The myth of the rhetorical situation." *Philosophy and Rhetoric* 6 (1973), pp.pp. 154–161.

(يمثل هذا البحث أشهر نقد وجّه لفكرة بيتزر عن الموضوعية).

تأليف: James Jasinski

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الرؤية البلاغية Rhetorical Vision

يعد تحليل موضوع التخيل Fantasy theme analysis – وهو خط بحثي أدى إلى تطور نظرية التقارب الرمزي symbolic convergence theory– في جوهره دراسة تجريبية للخيال المشترك. كما يعد تحليل موضوع التخيل أيضًا دراسة إنسانية للتاريخ البلاغي، والنقد، والمداخل التفسيرية لدراسة الاتصال على مستوى الإعلام والمنظمات والمجموعات الصغيرة، والأفراد، وقد جاءت فكرة الأساس العلمي الاجتماعي للتقارب الرمزي من المعامل التي تستخدمها المجموعات الصغيرة. فقد اكتشفت الدراسات التي أجريت فى هارفارد ومينسوتا العملية الأساسية للسلاسل التخيلية للمجموعات group fantasy chains، والذي أوحى بتطور تحليل موضوع التخيل.

وقد خرجت نظرية التقارب البلاغي وتطورت من رحم فكرة التخيل فى العقود القليلة السابقة كجزء من الحركة العامة لدراسات البلاغة والاتصال التي تهدف إلى إعادة أهمية اللغة الخيالية imaginative language (و الخيال) إلى المعاملات اللفظية وغير اللفظية والتأكيد عليها، وينطبق الكلام نفسه على فكرة الوعي الجمعي group consciousness. وقد تضمنت الجهود التي كانت ترمي إلى التوصل لبعض التطويع لفكرة الخيال والمشاعر، والخيال المرئي envisioning من ناحية، والعقلانية من ناحية أخرى، بحثًا واستقصاء فى موضوعات شتى، وكان البعض يظن أن طرق هذا الموضوع يناسب علم الجمال، والفن، والأدب أكثر مما يناسب البلاغة. وفي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كان على هذه الجهود مواجهة حاجز العقلانية. فبينما كان

البلاغيون يعطون بعض الاهتمام للبعد الخيالي للبلاغة، كان اهتمامهم يجنح للتركيز على ما هو منطقي. ومن بين هؤلاء الذين كانوا يرون أنفسهم علماء الاتصال من يعتقد أن هيمنة العقلانية أدت إلى انتشار وجهة نظر فى الاتصال ترى أن الأساطير تقوم على الكذب والبهتان، وأن القصص ما هو إلا محض خيال، وأن الاستعارات والصور البلاغية ما هي إلا زخارف بلاغية، وأن الأدلة المبنية على الحكايات والنوادر anecdotal evidence ما هي إلا مواضع للشك والاتهام.

تقوم نظرية التقارب الرمزي على دراسات الاتصال. وقد قام العلماء والباحثون باختبار نظرية التقارب الرمزي وإثباتها، وتعديلها عن طريق الدراسات القائمة على الملاحظة، والتجارب، من خلال استخدام أسلوب أطلق عليه اسم النظرية الراسخة "grounded theory" ولا شك أن نظرية التقارب الرمزي شقت ومازالت تشق طريقها عبر الزمن والثقافات.

ولكي نفهم الطبيعة العامة والمميزة لنظرية التقارب الرمزي، يتعين علينا أن نفهم منهجية "النظرية الراسخة" المستخدمة فى اكتشاف هذه النظرية وتطويرها. فقد قام مطورو نظرية التقارب الرمزي بدمج خطين بحثيين فى صيغة جامعة overarching formula. فالخط الأول يمثله روبرت إف بيلز Robert F. Bales ورفقاؤه فى هارفارد حيث كانوا يدرسون ديناميكيات المجموعات dynamics of groups عن طريق تحليل محتوى الاتصال للمجموعة موضع الدراسة. وقاموا بتطوير نظامٍ شفريٍ coding system أطلقوا عليه مسمى تحليل عملية التفاعل interaction process analysis، وهو الذي استخدموه فى ملاحظة وتشفير (بمعنى الصياغة فى شكل رموز شفرية) المجموعات فى أثناء عملها. أما الخط البحثي الثاني فيتزعمه إرنست جي بورمان Ernest G. Borman ورفقاؤه فى مينسوتا (١٩٩٤) الذين كانوا يقومون

بدراسة المجموعات الموجودة عن طريق استخدام بعض الأساليب مثل: تحليل المحتوى، وكتابة يوميات عن المشاركين، وإجراء مقابلات معهم، وتسجيل هذه المقابلات (والأنشطة الأخرى) بالصوت والصورة.

وكان يوجد مدخل بحثي آخر في مينسوتا يستخدم النقد البلاغي rhetorical criticism لفحص ودراسة ديناميكيات الاتصال في المجموعات التي أسند إليها القيام بعملٍ ما أو نشاط ما. وقام الفاحصون بدراسة واختبار طبيعة استخدام أعضاء المجموعة لأساليب الإقناع، وجهود بناء وتوطين الإقناع الأخلاقي ethos، والحجة المنطقية، والأسلوب، والنتائج المترتبة على كل ذلك. (انظر الإقناع الأخلاقي ethos، الحجة المنطقية logical argument، والإقناع persuasion، والأسلوب style). وفي هذه المرحلة في مينسوتا نشر روبرت بيلز آخر النتائج التي توصل إليها فريقه في كتاب بعنوان **الشخصية والسلوك الشخصي Personality and Interpersonal Behavior** (نشر في نيويورك في عام ١٩٧٠). وبينما كان فريق مينسوتا يقوم بقراءة ومناقشة الاتجاه أو المدخل الجديد، أدركوا أن فريق بيلز أسس شكلاً من أشكال لنقد البلاغي.

وقد سجل فريق بيلز ملاحظة مؤداها أنه عند قيام أحد الأعضاء باستخدام اللغة الخيالية، فإن هذا يتسبب أحيانا في "انفجار" أو "دوي" نتيجة لاستخدام هذه اللغة مصحوبًا بنوبات من الضحك، أو الإثارة، وأحيانا الحزن، ومشاعر قوية أخرى. وفي أثناء هذه التداعيات يتغير الجو العام الذي كان يسيطر على المقابلة. فالمجموعة التي كانت تشترك في النقاش discussion group وكان يغلب عليها الكبت المخلوط بالهدوء والتوتر تحولت فجأة إلى المشاركة التي تغلب عليها روح الإثارة. وقد طبق بيلز وفريقه التناول الفرويدي Freudian approach على تحليلهم لمحتوى هذه اللحظات، ووصفوها بأنها أفكار خيالية مشتركة بين أفراد المجموعة، وتوصلوا إلى أن اشتراك أفراد المجموعة في التخيل ساعدهم على خلق ما يمكن أن نسميه بتلاحم المجموعة

group cohesiveness وأعلن فريق بيلز أن السلاسل التخيلية fantasy chains أدت إلى اشتراك أفراد المجموعة فيما يمكن أن نسميه بالتخيل الجماعي group fantasy، وما يصاحبه من الأساس الرمزي المشترك، والاستدعاء العاطفي، والدوافع، وثقافة المجموعة.

وقد استمر الباحثون فى مينسوتا فى دراستهم من خلال استخدام بعض الأساليب كالملاحظة، وإجراء المقابلات، وتحليل المحتوى. وكان من أوائل المشروعات التي أجريت هو تكرار النتيجة التي توصلت إليها مجموعة بيلز فيما يتعلق بعملية التخيل الذي يشترك فيه أفراد مجموعة ومدى تأثيره. وبدأت الاختبارات بتعريف حذر للرسائل التي وضعت فى قالب درامي dramatizing messages، ثم قام المراقبون (مراقبو التجربة) بدراسة تأثير هذا القالب الدرامي على أفراد المجموعة، فوُجد أن هذا القالب الدرامي يتسبب فى انفجار رمزي ثانوي فى شكل رد فعل متسلسل chain reaction. وفى أثناء اشتراك أعضاء المجموعة فى التخيل ارتفع إيقاع المحادثة، وأصبح المشتركون أكثر إثارة، وأصبح يقاطع بعضهم بعضا، ونسي كل منهم الإحساس بذاته self - consciousness . وكانت استجابة كل منهم متلائمة مع ما يسمع من خيال، فكانوا يضحكون مع من يقص قصة لطيفة مضحكة، أما إذا كانت القصة تتطلب استجابة جادة ووقورة فكانت استجابتهم كذلك. وأثبتت بعض الدراسات الأخرى أن أفراد المجموعة فى بعض المناسبات أبدوا عدم اكتراث ولا مبالاة، وتجاهلوا ذلك القالب الدرامي، بينما رفض البعض الآخر التخيلات الموجودة فى ذلك القالب الدرامي. ووجد العلماء فى مينسوتا أن الاشتراك فى التخيلات ميز استجابات المستمعين والقراء تجاه عدد كبير من أشكال الاتصال مثل المحادثات، والخطب الجماهيرية، والرسائل التي تبثها وسائل الإعلام، والدردشة الإلكترونية، والكتابة على الإنترنت (الكتابة الإلكترونية)، فضلا عن قراءة الكتب والصحف.

والشيء الذي أدهش فريق مينسوتا هو ذلك الإعلان عن وجود شكلين علميين متمايزين: العلم الاجتماعي social science والنقد البلاغي rhetorical criticism. وفي عام ١٩٧٠ كان علماء الاتصال يستخدمون أحد الأسلوبين فى البحث، ونادرًا ما كانوا يجمعونهما معا. وكان فريق مينسوتا يرى أن أفكار الخيال المشترك هي العنصر الأساسي فى دمج العلم الاجتماعي مع الفلسفة الإنسانية، وبدعوا يستخدمون هذه الفكرة فى الدراسات المتعلقة بالنقد البلاغي.

ونتج عن هذا الأسلوب عدة أشياء: أولاً: فى أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي أكد كل من خبراء الخطب الجماهيرية والإقناع الدور المهم للأدلة المنطقية، والحجة. كما أكد تحليل فكرة الخيال على وظيفة اللغة الخيالية فى بناء الوعي الجماعي، والالتحام والتلاصق بين أفراد المجموعة، وصنع القرار. ثانيًا: أعاد تحليل موضوع التخيل الجمهور إلى النموذج الإرشادي الاتصالي communication paradigm والذي طالما تضمن أربعة عناصر وهي: المتحدث speaker، والخطبة speech، والجمهور audience، والمناسبة أو الحدث occasion. ومع مرور الوقت خرج الجمهور من هذا النموذج، وأصبح الاهتمام ينصب على النص text. ثالثًا: يعد تحليل موضوع التخيل مدخلاً اجتماعيًا لدراسة الاتصال الجمعي. رابعًا: أفسح التأكيد على أهمية التخيل المجال لتحليل أكثر تعقيدًا للغة الواقعية غير الخيالية (ونقصد هنا لغة الحقائق) واللغة الخيالية (ونقصد هنا التخيلات). ولا شك أن إحدى سمات النظرية الراسخة هي أن تكرار التجارب نفسها سوف يؤدي إلى النتائج نفسها. وبدأ الفريق يرى شكلاً مميزًا لصيغة علمية اجتماعية أطلق عليها نظرية التقارب الرمزي، وسميت هذه الصيغة بهذا الاسم؛ لأن كلمة "رمزي" تشير إلى أن هذه النظرية تتناول اللغة والتخيل، بينما تشير كلمة "تقارب" إلى أن جوهر هذه النظرية ينصب على أن العملية الديناميكية لاشتراك أفراد المجموعة فى تخيل واحد قد يؤدي بدوره إلى تقارب العوالم

الرمزية symbolic worlds للمشتركين. بمعنى أن أفراد المجموعة يرون الأشياء من منظور واحد، كما يحدث تقارب بين آرائهم ومعتقداتهم، بمعنى مرور هؤلاء القراء بتجربة مشتركة تتلاقى فيها العقول والآراء والمشاعر.

أما الآن فقد توصلت الأبحاث المستمرة فى مينسوتا إلى أن عملية التقارب الرمزي تحدث فى وسائل الإعلام، وفي المواقف التي تجمع المتحدث أو الخطيب بالجماهير، وأيضا فى الوثائق التاريخية. وفي حقيقة الأمر وجد فريق البحث أن هذه العملية موجودة فى كل موقف اتصالي لاحظوه. كما توصل هذا الفريق إلى نتيجة علمية واضحة وهي أن استخدام أساليب الملاحظة، وإجراء مقابلات مع المشتركين فى التجربة كان له أثر فاعل وناجح فى تلك الدراسات التي يقوم فيها فريق الفحص بمتابعة وتقييم الاتصال (الموقف الاتصالي)، أما فى الدراسات التاريخية والسياقات التي يصعب أو يستحيل فيها القيام بالملاحظة المباشرة، فهنا تظهر الحاجة إلى استخدام أساليب أخرى مختلفة.

ومع استمرار البحث والفحص، أصبح واضحًا أن عملية التقارب من التعقيد بمكان بحيث يصعب حصرها فى مفهوم وحيد وهو موضوع التخيل. وجاء أول تغيير مع الاعتراف بوجود بنية أعم من موضوع التخيل، والمقصود بهذا وجود ظاهرة تغلب عليها صفة العمومية تجمع خطوط حبكات القصص الخيالية المماثلة. فعلى سبيل المثال قد تشترك المجموعة فى فكرة تخيلية عن الطريقة التي يتعامل بها البيوريتانيون مع النساء المتهمات بممارسة السحر، فإذا ما أُدينت أية امرأة بهذه التهمة فمصيرها هو الإعدام حرقا بالشد إلى خازوق at stake. وبالتالي تصور هذه القصة قادة المجتمع الذين نفذوا هذا الحكم على أنهم حفنة من الأشرار، كما تظهر النساء فى ثوب الضحية. وفيما بعد تشترك هذه المجموعة فى فكرة تخيلية أخرى مؤداها قيام

الكونجرس بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق فيمن يشتبه في اعتناقهم مبادئ الشيوعية من بين موظفي وزارة الخارجية الأمريكية. وعلى المنوال نفسه تصور هذه القصة رؤساء هذه اللجنة على أنهم حفنة من الأشرار، والموظفين المتهمين على أنهم الضحايا. ثم يبادر أحد أفراد المجموعة معلقًا فيقول: "إن هذا الموقف يشبه تمامًا ما حدث للساحرات في قرية سالم Salem"؛ مما يؤدي بالطبع إلى أن يكون هناك عامل مشترك بين هذه الدراما (التي حدثت للساحرات) وبين السيناتور ماكارثي Senator McCarthy مصورًا في زي قسيس بيوريتاني. وبعد ذلك يتعود أفراد هذه المجموعة على الإشارة لجلسات الاستماع البرلمانية (في الكونجرس) على أنها محاكمات للساحرات. ثم يلي ذلك أن يشترك أفراد المجموعة في فكرة تخيلية عن مجموعة يمينية من المحافظين المسيحيين Christian conservatives الذين يحاولون اتهام رئيس الدولة بالتقصير والخيانة، ثم يصفون هذا الموقف "بمحاكمة ساحر آخر"؛ وهذا يعني أنهم خلقوا الآن نمطًا تخيليًا fantasy type له مخزون من الحبكات والقصص التي يفهمونها ويعرفون أبعادها وتفاصيلها. وبناءً على هذا يقوم هذا النمط التخيلي بوضع وضم معظم الأفكار التخيلية المسبقة إلى جانب السيناريوهات المشابهة في جنس أدبي واحد.

وبالتالي يصبح هذا النمط التخيلي لمحاكمة الساحرات شكل للمقارنة يستخدمه أفراد المجموعة لكي يفهموا الأحداث المزعجة والمحيرة التي يمكن أن يصفوها بأنها محاكمة الساحرات. وحينما يعثر الباحثون على الأنماط التخيلية (المتشابهة) في السجلات، أو المواد الأرشيفية، وكتب المقتطفات، والخطابات، والنصوص والمصادر الأخرى، يستطيعون استخدامها كدليل للإشارة إلى أن المشاركين (في هذه الأنماط التخيلية) اشتركوا في أفكار تخيلية دون الحاجة لتطوير تجربة ما أو تطبيقها.

كما تعطي ظاهرة المشاركة الثانية second sharing phenomenon دليلاً على أن المجتمع قد اشترك فى فكرة تخيلية. وقد أطلق الباحثون على هذه النتيجة اسم الإيعاز الرمزي symbolic cue وهي سمة غامضة (خفية المعنى) للاتصال اللفظي وغير اللفظي الذي يتسبب فى وجود ما يذكّر المستمع بالفكرة التخيلية الأصلية. ثم يمر المستمع بنفس تجربة استجابة المجموعة عندما اشتركت فى نفس الفكرة التخيلية، فإذا كان الإيعاز الرمزي نكتة كانت الاستجابة هي الضحك أو الابتسامة. أما إذا كان هناك شخص ما لم يشارك فى الفكرة التخيلية الأولى التي خلقت هذا الإيعاز الرمزي فإن استجابته سوف تغلب عليها الحيرة والاضطراب. وبالتالي سيكون رد فعل الشخص الذي اشترك فى الفكرة التخيلية الأولى (والذي كان يضحك منذ قليل) أن يقول للشخص الآخر (الذي لم يشارك فى الفكرة التخيلية الأولى) "كان يجب أن تكون معنا فى ذلك الموقف" وباختصار فإن هذه الإيعازات الرمزية تشير إلى وجود دليل على الاشتراك فى تجربة تخيلية فى الماضي.

ويوجد مفهوم إضافي آخر أسفرت عنه تلك النتائج التي توصل إليها هذا البحث، ونقصد به هنا أنه توجد بعض المواقف التي يوجد فيها الكثير من الناس الذين يشتركون فى بعض الأنماط والأفكار التخيلية الجمعية التي يحولونها إلى رؤية واضحة لبعض جوانب واقعهم الاجتماعي social reality. وقد أطلق الباحثون على هذه الفكرة الجديدة تعبير الرؤية البلاغية rhetorical vision؛ وقد استخدم الباحثون هنا لفظ "بلاغي"؛ لأن اللغة البلاغية التخيلية قامت ببناء تراكيب أو أبنية رمزية أكبر سببتها تلك الأفكار التخيلية المشتركة. وهذه الرؤية هي فى جوهرها عبارة عن توحيد وتجميع لبعض النصوص المتنوعة بحيث تعطي المشاركين (في الحدث أو التجربة) رؤية أعم وأكبر للأمور. وعادة ما يتم تلخيص أو اختزال الرؤية البلاغية فى شكل كلمة أو تعبير محوري key word (مثل الحركة النسوية feminism)، أو شعار slogan (مثل

قوة الزنوج Black Power)، أو مسمى تعريفي label (مثل الحلم الأمريكي American Dream). وهذا الاختزال ما هو إلا حالة خاصة من ظاهرة الإيعاز الرمزي، ولكن فى هذا المثال لا تقتصر الإشارة الخفية المعنى هذه على تفاصيل الأفكار الخيالية أو أنواعها، ولكن تتعداها هذا إلى وجهة نظر شاملة وواضحة لأحد جوانب الواقع الاجتماعي للمشاركين (في التجربة).

والمصطلح الفني الحالي والأخير الذي سنطرقه هو الساجا Saga (قصة زاخرة بالأعمال البطولية)، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أن الدراسات المستقبلية لن تصنيف مصطلحات أو تعبيرات إضافية. وقد حظي مفهوم الساجا بقدر أكبر من الدراسات فى مجال الاتصال التنظيمي organizational communication، وهو نفسه المجال الذي خرج منه هذا المصطلح (الساجا). وقد ظهرت الحاجة لمصطلح جديد؛ لأن الدراسات التي أجريت على المدارس والمنظمات والهيئات المختلفة كشفت عن وجود العديد من الوحدات الكبيرة التي بها مجموعات مكونة من وحدات رسمية أو مجموعات غير رسمية لها رؤى بلاغية مختلفة. وغالبًا ما أدت هذه الرؤى إلى صراع ومنافسة بين العناصر المختلفة داخل نفس المنظمة أو المؤسسة. ولكن فى كثير من الأحيان يلتزم أعضاء أو أفراد هذه المنظمة أو المؤسسة بما فيهم أولئك الذين يشتركون فى رؤى بلاغية متصارعة بواجب تجاه المنظمة أو المؤسسة ككل (التي قد تكون شركة أو مدرسة أو ربما الوطن). وقد كشفت دراسات التقارب الرمزي لمثل هذه المواقف عن ظاهرة وهي التزام معظم أو كل أفراد المجتمعات البلاغية المختلفة بوثيقة للرؤية البلاغية rhetorical vision writ؛ ومن ثم كان الغرض من تصميم أو اختراع مفهوم الساجا هو الإشارة لوجود هذه البنية أو البناء البلاغي الذي يضم الجميع تحت لوائه umbrella - like. وغالبًا ما يكون للساجا نمط تخيلي خاص بالمؤسسين (الأوائل) وما يصاحبه من قوالب درامية ترتبط بتأسيس كيان ما

كالدولة مثلاً، ففي الولايات المتحدة نجد كلا من الرئيس جيفرسون Jefferson، والرئيس واشنطون Washington يمثلان شخصية الآباء المؤسسين، بينما يمثل الرئيس لينكولن Lincoln شخصية البطل heroic persona. وحينما يشترك العاملون والموظفون فى أي هيئة أو مؤسسة فى الفكرة التخيلية عن المؤسسين، سوف نجد هذه الهيئة أو المؤسسة ربما تهتم بتخصيص يوم للاحتفال بيوم المؤسس founder's day، وربما توجد بعض الأحداث والأيقونات أو الرموز التي تجعل هذه الساجا حية فى نفوس كل من ينتمي إلى هذه الهيئة أو المؤسسة. وعادة ما تكون هناك أحداث، وانتصارات وانكسارات تشكل جزءًا مهمًا من هذه الساجا. كما أن هناك عناصر أخرى يمكن أن تلعب دورًا مهمًا فى هذه الساجا مثل بعض الأشخاص، وبعض الصفقات والمهمات التي أُنجزت.

وكان فريق مينسوتا قد وسع من نطاق النظرية بحيث أصبحت تشتمل على عنصر أو مكون آخر وهو العلم الاجتماعي، وتمثّل هذا فى دمج ما قام به ستيفنسون Stephenson فى تطوير أسلوب أو طريقة الكيو Q - methodology. ففي كتابة دراسة السلوك: طريقة الكيو وأساليبها **The Study of Behavior: Q - Technique and its Methodology** (صدر فى شيكاغو عام ١٩٥٣) كتب ستيفنسون أنه اخترع طريقة الكيو لتطوير علمٍ يتناول الذاتية a science of subjectivity من وجهة نظر المشارك (في التجربة) وحسب تفسيره لمجريات الأحداث. وكان ستيفنسون يرى أن العلماء رفضوا تلك البصائر والقدرة على استبطان الأحداث التي يمتلكها الروائيون novelists؛ لأنها تتناول أحداث بعينها، وأشار أنه يفضل استخدام تلك البصيرة والقدرة على استبطان الأحداث التي كان يتمتع بها الإنسانيون humanists ولكن لأغراض علمية. والأسلوب أو الطريقة التي وقع عليها اختياره هو أسلوب تحليل المحتوى أو المضمون content analysis.

وقام البروفسير نورمان فان توربرجن Norman Van Turbergen بتصميم برنامج كونال الحاسوبي Quanal computer program لاستخدام تحليل العوامل factor analysis لتصنيف المجموعات البلاغية المتنوعة الموجودة داخل عينة من الجمهور. وحدث هناك نوع من الانسجام والتكامل بين النقد البلاغي وبين هذه البيانات حينما كشف برنامج كونال عن التخيلات المشتركة بين هذه المجموعات، ثم استطاع الباحثون حينئذ استخدام تحليل لموضوع التخيل fantasy theme analysis للتوصل إلى نقد بلاغي لوعي هذا الجمهور. وأوجدت هذه الطريقة علاقة تكافلية symbiotic relationship بين هذين الأسلوبين من البحث.

ولاشك أن نظرية التقارب الرمزي تؤتي ثمارها حينما تستخدم مع تحليل موضوع التخيل. ويستطيع النقاد الذين يعيدون بناء الرؤية البلاغية للمجموعات الإنسانية أن يطرحوا أسئلة بلاغية عامة من أجل تحليل آمال ومخاوف هذه المجموعات، ونبرتها العاطفية، وحياتها الداخلية عن طريق دراسة كيف تتعامل البلاغة مع المشكلات الكونية الأساسية basic universal problems. مثل هذا الاستبصار ينبع من الإجابات على مثل هذه الأسئلة، ولعل أهمها: كيف استطاع التواصل التعامل مع مشكلة خلق الإحساس بالمجموعة والاحتفاء به؟ وهل ساعد هذا التواصل على استحداث صورة للجماعة وللفرد تتسم بالقوة والثقة، والمرونة؟ وكيف ساعدت البلاغة (أو أعاقت) تكيف المجموعة مع البيئة المحيطة؟ وكيف كان موقف التواصل من المشكلة البلاغية المتعلقة بخلق واقع اجتماعي يوفر معايير لسلوك المجموعة فيما يتعلق بمستوى العنف، والاستغلال، والهيمن، والظلم؟ وهل خلق التواصل صورة شاملة أفادت بعض الوظائف الخيالية مثل إعطاء أفراد المجموعة وصفًا شافيًا لهذه الدنيا، والقضاء والقدر، وهل أضاف هذا الوصف معنى للمجموعة ككل، ولكل فرد منهم على حدة؟ وكيف ساعدت الرؤية البلاغية أولئك المشاركين فيها على التعايش مع المشاركين فى رؤى بلاغية مختلفة؟

ولأن تحليل موضوع التخيل ينضوي تحت نظرية علمية اجتماعية عامة للتواصل (ونقصد بها نظرية التقارب الرمزي)، فهذا يعني أن هذا التحليل يقوم على عدد من المصطلحات الفنية الشائعة، تم تعريفها بعناية فائقة. وهذه المصطلحات هي جزء لا يتجزأ من بناء نظري واضح يعطي محللي موضوع التخيل القدرة على مقارنة ودمج نتائج عدد من الدراسات المنفصلة فى قوانين أو قواعد عامة تحكم فكرة التواصل. فعلى سبيل المثال جمع الباحثون مادة علمية طيبة ومعرفة وثيقة بالحملات السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الجمع بين نتائج عدد كبير من الدراسات التي استخدمت تحليل موضوع التخيل من ناحية ونظرية التقارب الرمزي من ناحية أخرى من أجل دراسة البلاغة المستخدمة فى الحملات السياسية. فقد قام كل من بورمان Bormann، وكراجان Cragan، وشيلدز Shields بعمل مسح وتجميع لنتائج ثمانٍ وسبعين دراسة لتحليل موضوع التخيل فى سياق تحليلهم لفكرة الرؤية البلاغية للحرب الباردة، ونشروا هذا التحليل فى دراسة بعنوان **اتساع مكون الرؤية البلاغية لنظرية التقارب اللفظي: الحرب الباردة أنموذجا An Expansion of the Rhetorical Vision Component of the Symbolic Convergence Theory: The Cold War Paradigm Case** (نشرت فى عام ١٩٩٦، وننصح بقراءة الجزء الخاص بالتواصل الموجود فى صفحة ٦٤).

ولعل الشكوى الشائعة التي كانت موجودة فى السنوات الأولى من تطور نظرية التقارب اللفظي كانت تتعلق بغموض التخيل fantasy كمصطلح فني يستخدم فى أسلوب دراسة كلٍ من العناصر المنطقية والخيالية للبلاغة. ولكن فى السنوات الأخيرة زال هذا الغموض، والقليل من الباحثين هو من يرى فى المصطلح إشارة إلى الجانب التخيلي فحسب.

ويجب أن نلفت النظر إلى أن كثيرًا من النقد السلبي قد توقف نتيجة لتلك الدراسات الجديدة التي قام بها العلماء من ناحية، ونتيجة لاستخدام النتائج التي توصلوا إليها من أجل إحكام المفاهيم والافتراضات التي ساقتها لنا نظرية التقارب الرمزي، من ناحية أخرى. وهذا لا يعني أن المرجفين والمشككين قد تواروا وذهبوا إلى غير رجعة، وإنما يعني أن القرن الجديد قد شهد ترسيخًا لهذه النظرية وأساليبها المميزة، بل وأصبح ينظر لهذه النظرية على أنها أسلوب قابل للتطبيق لكل ما يتعلق بدراسة البلاغة، ونقدها، وتطبيقها.

قائمة المراجع Bibliography

Bormann, Ernest G. "Fantasy and Rhetorical Vision: The Rhetorical Criticism of Social Reality." *Quarterly Journal of Speech* 58 (1972), pp.pp. 396–407.

(يعد هذا البحث أول ما نشر عن تحليل موضوع التخيل).

Bormann, Ernest G. *The Force of Fantasy: Restoring the American Dream.* Carbondale, Ill., 1985.

(يعد هذا الكتاب دراسة تاريخية لدور المشاركة فى التخيل فى البلاغة فى الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الأهلية، والتي تحولت من الروح الدينية إلى الروح العلمانية).

Bormann, Ernest G., John F. Cragan, and Donald C. Shields. "In Defense of Symbolic Convergence Theory: A Look at the Theory and Its Criticisms after Two Decades." *Communication Theory* 4 (1994), pp.pp. 259–294.

(يعرض هذا المقال للآراء المؤيدة والمعارضة لنظرية التقارب الرمزي).

Chesebro, J. W., J. F. Cragan, and P. W. McCullough. "The Small Group Techniques of the Radical Revolutionary: A Synthetic Study of Consciousness Raising." *Communication Monographs* 40 (1973), pp.pp. 136–146.

(يعد هذا البحث من أول ما نشر عن تحليل موضوع التخيل وزيادة الوعي بفكرة منح الحريات للمثليين)

Cragan, J. F., and D. C. Shields. *Symbolic Theories of Applied Communication Research: Bormann, Burke, and Fisher.* Creskill, N.J., 1992.

(يقدم هذا الكتاب توضيحًا لفائدة استخدام نظرية التقارب اللفظي في بحوث الاتصال التطبيقية)

Mohrmann, G. P. "Fantasy Criticism: A Peroration." *Quarterly Journal of Speech* 68 (1982), pp.pp. 306– 313.

Swartz, Omar. *The View from On the Road: The Rhetorical Vision of Jack Kerouac*. Carbondale, Ill., 1999.

(يقدم هذا الكتاب الأدلة التي تشير فكرة المشاركة الخيالية فى سياق تاريخي، كما يعرض الآراء المؤيدة والمعارضة لتحليل فكرة الخيال أو التخيل).

تأليف: Ernest G. Bormann

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

العلم Science

كان للعلم بكل تأكيد بُعد بلاغي، على الأقل إلى أن سك رجل الكنيسة والجيولوجي ويويل Whewell فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى اللغة الإنجليزية كلمة "عالم" Scientist لكى يشير إلى شخص يملك مؤهلات أكاديمية ويتلقي أيضا أجرا مقابل ممارسة العلم فى عمل يستغرق دواما كاملا – وهو ما يعنى أن هذا الشخص ليس مجرد مخترع أو باحث فى الطبيعة. بعد ذلك سرعان ما ظهرت بلاغة يطلق عليها فى العادة اسم "فلسفة العلم" لتمييز العلماء الحقيقيين عن أولئك الذين يعدون الآن من أشباه العلماء برغم ممارستهم للمهنة. ومع هذا، ففى الأجيال السابقة كان الأخيرون يشكلون أغلبية العاملين فى المجال الذى نطلق عليه الآن اسم العلم. فمعظم أعضاء الجمعية الملكية كانوا يندرجون ضمن هؤلاء الهواة كما يندرج فى نفس الفئة أيضا معاصر "ويويل" whewell، الأصغر منه سناً، وهو تشارلز داروين Charles Darwin. كما ضمت الفئة نفسها أمريكيين من عصر التنوير من أمثال بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson، اللذين كانا يعتبران أن مزاولة العلم مثلها مثل امتلاك العقارات والأراضي أساسية للمواطن الجمهوري.

وكان بإمكان هؤلاء الهواة تدعيم مزاولتهم للعلم من خلال وصية أرسطو فى بداية "كتاب ما بعد الطبيعة" (القرن الرابع قبل الميلاد) والذى قدم فيه البحث عن المعرفة على أنه أسمى أنواع تحقيق الذات وأنه نشاط متاح لكل

من يملك الوقت الكافي. وهذا يعنى أنه قبل أن يبتكر "ويويل" هذه اللفظة الدلالية، لم يكن هناك تفكير فى العلم على أنه حقل تخصصى بحيث لا يمكن تناول وسائله وأهدافه فى مناقشات عامة. وظل هذا النوع من المناقشات محدودا بالطبع، لأن عددًا قليلا (من الرجال) كان ينعم بالوقت الكافي لمزاولة العلم وليس لأن الموضوع نفسه يحول دون مشاركة جمهور أكثر فيه.

لم يكن هناك تنافر، قبل إعطاء حقوق المواطنة لكل الذكور البالغين في القرن التاسع عشر، بين كلمة "عام" وكلمة "صفوة"، وفى تلك الفترة كانت كلمة "technical" تعنى فنا قريب الصلة بإحدى المهارات اليدوية.

وبالتالى فإن الحجاج الذى ظهر مؤخرا والذى يستند إلى معلومات مستمدة من العصر الكلاسيكى بأن مصطلح "بلاغة العلم" ينطوى على تناقض من الممكن أن يكون فى غير محله. حتى يقتنع أمثال أرسطو بأن المشهد المعاصر يمنع أن يكون للعلم طابع بلاغى، سيكون من اللازم بيان أن ما نسميه بالعلم يعتمد بشكل رئيسي على مهارات متعلقة بدرجة كبيرة بسياق محدد بحيث إن الممارسين له فقط هم من يستطيعون التكلم عن توجهاته على نحو معقول. ولكن الاعتراف بذلك (أيضا وفقا لأرسطو) يعنى إنكار أن يكون شأن معرفي عام. ما نسمية" علما" ومن المؤكد، فإن هذه مسألة سوف يسر معظم علماء اجتماع العلم بالموافقة عليها. ومن جانبهم، يحسم فلاسفة العلم شأن هذا التوتر الأرسطى بقولهم إن العلم الآن (ولربما لم يكن كذلك فى الماضى) يتصل بالخبرة نظرا لتخصص موضوعاته ومما يزيد من تحديده الحديث عن المنهج الافتراضى الاستنباطى والتفسيرات الاستنباطية المنطقية. فعلى من يرغبون فى المشاركة فى الخطاب العلمي، أن يجيدوا أولا هذه التقنيات.

وللأسف يتم التعامل مع وجهة النظر هذه على نحو خاطئ على أنها بلاغة العلم، بينما هى فى حقيقة الأمر بلاغة موجهة للعلم كمهنة يمارسها من يتفرغون للعمل بها، لا مهنة يمكن أن تمارس فى أوقات الفراغ فحسب. ومن وجهة النظر الكلاسيكية، تعتبر إذن مناقضة للعلم. وبالتالى يظل بإمكان البلاغيين الدفاع عن وجهة النظر الكلاسيكية بأن الخطاب العلمي لابد أن يسمح بمشاركة الجمهور لكي يحقق التوجه العام. صحيح أن هذا الأمر يعد صعبا فى ظل المناخ الثقافي الحالى، ولكن بمجرد إنعاش المهمة الكلاسيكية، سيصبح من المعقول للبلاغيين أن يوضحوا الغموض الذى يكتنف المصطلحات العلمية وأن يدخلوا اعتبارات تجبر العلماء على مخاطبة جمهور أعرض من الجمهور الذى يخاطبونه فى الحالات الأخرى. ولقد بُدئ فعلا فى هذه المهمة، ولكن أكثر من يقومون بها ليسوا ممن يقومون بالبحث فى "بلاغة العلم" ولكنهم مدرسون فى مجال الاتصال التقنى technical communication االذين ينشغلون بتعليم طلاب كليات العلوم والهندسة والطب كيفية التعامل مع الحاجة المتعاظمة لتبرير الحكم المتخصص للجماهير".

ويمكننا رؤية مثال جيد على التناقض بين بلاغة العلم وبين ما يعاكس بلاغة العلم فى ردود الأفعال على ظهور نظرية الخلق creationism مرة أخرى فى مدارس الولايات المتحدة. ففي سلسلة من المقالات الشهيرة مثلا استعاد البلاغي الشهير جون أنجيس كامبل John Angus Campbell الموقف البلاغي الأصلي الذى نبع من كتاب داروين "أصل الأنواع" (١٨٥٩). سيكون من الصعب فهم الدافع وراء اختيار الشكل البنائى للكتاب، إلا إذا تم افتراض أن داروين كان مهتما بمخاطبة "أسلاف أصحاب نظرية "التصميم الذكى" الموجودين الآن. وعلى العكس من هذا يقوم الفيلسوف فيليب كيتشر Philip Kitcher فى كتابة "إساءة استخدام العلم" باستبعاد نظرية "الخلق" من النقاش العام باستخدام منهج معاكس للبلاغة بوضع معايير لتحديد العلم لا تنطبق بطبيعة الحال على من يؤمنون بنظرية الخلق.

علينا عند تقييم مواقف "كامبل" و"كيتشر" أن نتذكر أن الطبيعة الفيدرالية للدستور الأمريكى تفرض الفصل بين الكنيسة والدولة، ولكنها أيضا تحيل القرارات الخاصة بالتعليم إلى السلطات المحلية. فحتى إذا سلمنا بوجوب استبعاد تدريس الدين فى المدارس، فإن هذا لا يعنى أننا يجب أن ندرس المعرفة العلمية المتفق عليها بشكل جامد. بل إن المتسائلين الذين يستلهمون أسئلتهم من الدين قد يكونون فى وضع يسمح لهم بأكثر مما تستطيع الغالبية أن يروا العيوب فى الشروح العلمية العلمانية - هذا بمنتهي البساطة لأن ما يحركهم هو شيء آخر غير نظام المكافأة الخاص بالمؤسسة العلمية. وهذا بالطبع لا يضمن صحة ملاحظاتهم، وبالأحرى لا يضمن صحة المعتقدات الدينية التى تدعم تلك الملاحظات، ولكنه يوفر نوعا من الضابط الذى قد لا يصادفه العالم المتخصص فى الأحياء التطورية.

وأخيرا قد تكون أفضل وسيلة لتبرير الوضع البلاغي للعلم هى ملاحظة أن كل من القضايا الأساسية والعملية المتعلقة بالعلم التى تدخل دائرة النقاش العام تتجاوز خبرة أي عالم بعينه. وعلى الرغم من أن القسم المتزايد من العمل الذهني فى مجال العلوم قد استخدم فى كثير من الأحيان للسماح ببلاغة معاكسة لبلاغة العلم، فإنها فى الواقع تعطي مبررا لفتح مجال التداول نظرا لأن كل تخصص جديد غالبا ما يتم تعريفه بربطه بمجالات موجودة بالفعل لا بمشكلة اجتماعية مستقلة، فإن جهل غير المتخصصين وتخصص الخبراء يصبحان موقفين بلاغيين متساويين يمكن الحجاج منهما بوجود احتياج إلى توجه ديمقراطى فيما يتصل بمناقشة السياسة العلمية.

تاريخ البلاغة كدليل لبلاغة العلوم:

عادة ما يركز بوجه عام، من يرون العلم والبلاغة مهنتيين متناقضتين على استخدامهما المتباين للغة. ويشكل وليم فيوزفيلد William Fusfield نقطة بداية جيدة لبحث هذه الفكرة. "إن الرغبة فى إثباتها أمر غير ضروري محقا"

ويفحص فيوزفيلد تمييزًا ساد على مدار التاريخ الكامل للبلاغة الغربية بين ما يسمي بالبلاغة البرهانية demonstrative rhetoric والبلاغة التوضيحية declarative rhetoric. من وجهة نظر هذا التاريخ، يرغب المدافعين عن التناقض بين العلم والبلاغة فى إنكار الطابع البلاغي للبلاغة البرهانية والطابع العلمي للبلاغة التوضيحية. وعلى هذا فإن المدافعين عن البلاغة البرهانية يميلون إلى ممارسة بلاغة معاكسة لبلاغة العلم. فمنذ زمن الإغريق وحتى الآن كان النموذج الإشادى للبرهان هو الهندسة لأن كل مقدماتها واضحة، ولأن أسلوبها مدروس، ولأنها تهدف إلى الإجماع. وإذا كان البرهان يعتمد على منهج، فإن التوضيح يقوم على الفطنة ويتم توصيل رسالته بشكل غير مباشر وبأكثر من أسلوب فى الوقت نفسه، وهى تدعو الجمهور إلى المشاركة من أجل إتمام الرسالة التى قد تختلف وفقا للسياق. ووجهة النظر هذه هى التى أيدها السوفسطائيون (القرن الخامس قبل الميلاد) الذين رفضوا الفصل بشكل جاد ومبدئى بين البلاغة والعلم، وهو ما أفزع سقراط.

وعلى الرغم من أنه لم يكن من الصواب تماما تفسير ثنائية فيوزفيلد على أساس الكلاسيكية ضد الرومانسية أو الحداثة ضد ما بعد الحداثة، فإن التناقضين يحملان بصمة نزاعات الإغريق الأصلية. يذهب فيوزفيلد إلى أن التفرقة بين البرهانى والتوضيحى نبع من اختلاف المواقف البلاغية حيث يعتبر الخطاب القصير المحدد هو النموذج المثالى فى البلاغة البرهانية بينما الكتابة المركبة هى النموذج المثالى فى البلاغة التقريرية التوضيحية. فالنموذج السابق يعطى استجابة فورية وصريحة شائعة فى اللقاءات التى تتم وجها لوجه فى المجال العام والإثباتات المنطقية. ويفترض النموذج القائم على الحديث أن الإجماع هو هدف الاتصال إما لأن الخطاب العقلي من المفترض أن يكون مقنعا للجميع (منطقيا) وإما لأن الحاجة مشتركة بين كل من يسمعون الخطاب (السياسة) ولكن يفترض النموذج القائم على الكتابة أن

أهداف الاتصال متنوعة لأن الجمهور نفسه متنوع، كما يتضح من اختلاف الأماكن التى يستطيع الناس فيها قراءة نص مكتوب – حيث لا يكون كلهم مجتمعين معا فى فصل أو منتدى. لهذا فبدلا من الاتفاق على مجموعة من المقترحات أو حتى على انتهاج نهج مشترك، فإن الهدف هنا يكون تحفيز القارئ إيجابيا بطرق مختلفة قد تكون كلها مغايرة للمألوف والمشترك. ومن غير المستغرب أن تلقي المراوغة تقديرا فى البلاغة التوضيحية بينما تلقي احتقارا فى البلاغة البرهانية (انظر الغموض). وعلى العكس، كثيرا ما يساور أصحاب البلاغة التوضيحية الشك بشأن الوضوح، بينما يعتبره البرهانيون أساسيا للاتصال.

وهكذا فإن البرهانى سيحتج بأن فكرة النشوء لداروين تتمتع بمكانة المثال أو النموذج الإرشادى فى علم الأحياء لأن صدق المزاعم الأساسية لداروين يجعل من الممكن تطبيقها فى مواضع نظرية وعملية مختلفة، أما صاحب البلاغة التوضيحية فسوف يقول إن نظرية داروين مفتوحة بدرجة تسمح بتبرير أفعال وأقوال كثيرة. وسوف يفسر البرهانى مقاومة أفكار داروين فى أول الأمر على أساس قصور إدراكي إما عند داروين نفسه وإما عند جمهوره، أما التوضيحي فسوف يفسرها على أساس الصعوبات التى لقيها الجمهور حتى يجعل النظرية تقوم بأشياء نافعة بالنسبة له. وهذا الفرق فى التأكيد يشير إلى فهم مغاير للبعد البرجماتى اللغوى. ولسوف يشير البرهانيون إلى الوضعيين المناطقة ومعظم الفلاسفة التحليليين الذين يحاجون بأن مضمون نظرية داروين أي "دلالتها" ثابتة من قبل حدوث أي عملية اتصال، وأن الاتصال نفسه يعتبر "تطبيقا" لمضمون النظرية. وعلى النقيض سيتعامل التوضيحي مع مضمون نظرية داروين بطريقة تأويلية أكثر، أي أنه سيعتبر أن النظرية قد تشكلت على نحو جزئى فى كتاب "أصل الأنواع" وبعد ذلك سيتتبع تاريخ استقبال النص، أى العملية التى يتم بها تركيب وإعادة

تركيب حجاج داروين على نحو دائم من جانب القراء. وتدل المراجعات الهائلة التى مر بها كتاب "أصل الأنواع" من الطبعة الأولى إلى الطبعة السادسة (١٨٥٩ - ١٨٧٢) على أن الطريقة التقريرية هى الأكثر ملاءمة للدراسات التجريبية عن بلاغة العلم التى استبقت نصف الكتاب الأصلى فحسب، وجاءت هذه التغييرات إلى حد كبير نتيجة للاستقبال النقدى للكتاب. ويميز هذا النموذج الأعمال العلمية (وحتى الفلسفية) التى حظيت بجمهور عريض. وهو ما يشير إلى أن الحجاج العلمي هو دائما أمر مستمر لا ينقضى حتى بعد أن يقوم الأستاذ بوضع الأساس له، وهكذا فإن نيوتون Newton وداروين Darwin وأينشتاين Einstein– أشهر ثلاثة علماء فى العصر الحديث – قد استفادوا جميعا من وسطاء بلاغيين مهمين هم: لوك Locke وهاكسلي Huxley وبلانك Plank الذين لم يترجموا فقط تقنيات مذهلة جدا ولكنهم أضافوا أيضا صورا جذابة تلخص أعمال الأساتذة.

وعلاوة على هذا، ربما يكون الأسلوب التوضيحي قد تعامل بالفعل مع مشكلات فكرية لم يبدأ البرهانيون فى التعرف عليها إلا الآن. ومن الأمثلة الجيدة على هذا ما يسمى، تبعا للفيلسوف ف.أزكواين فى كتابه "الكلمة والموضوع" (V.O.Quine WordandObject, Cambridge, Mass, 1960) "تقص التحديد فى اختيار النظريات فى العلم". والفكرة الرئيسية هنا هى أنه من الممكن أن تقوم مجموعة من النظريات المتناقضة بتفسير معلومة معينة، إذا ما تم تعديل افتراضات هذه النظريات. وهو ما يشير إلى أن النظريات تعمل بطريقة تشابه طريقة الإفتاء فى مسائل الخير والشر، بحيث تتحول النظرية من هدف إلى رمز فى الحجاج العلمي. وفي الوقت الذى يعد فيه هذا التحول أمرا جديدا جدا بالنسبة للبرهانيين فهو عادى بالنسبة للتوضيحيين الذين لا يرون البلاغة إضافة تسبق نتائج المنطق وعلم المنهج وإنما هى شىء يتم منه استخلاص المنطق وعلم المنهج بشكل لاحق. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا

إذن أمضى الفلاسفة وقتا أكثر فى التعبير عن بناء النظريات العلمية وتشكيلها من الوقت الذى أمضوه فى تعريف السياقات التى ينبغي أن تختار فيها تلك النظريات وتطبق؟ وفى النهاية لا يعطى العلماء سوى القليل جدا من الجهد لهذه الأمور الفلسفية، حيث إن النظريات بالنسبة إليهم هى نصوص قابلة للتأويل المرن ويمكن تعديلها وفقا لمتطلبات الموقف.

إن الاختلاف البلاغي بين البرهانيين والتوضيحيين فى هذا الصدد يكمن فى أن البرهانيين يهتمون بالحبكة أكثر مما يهتمون بالمناسبة، بينما التوضيحيون يهتمون بالمناسبة ومراعاة المقام أكثر من الحبكة؛ أي أن الأهمية تولى منطق الأحداث الداخلي الذى تسرده حكاية علمية (الحبكة) methos لا على أسباب حدوث هذا التسلسل بتلك السرعة وفي هذه المدة من الزمن الحقيقي (المناسبة): أى الزمن فى مقابل التوقيت المناسب. وقد اهتمت بالطبع بعض تواريخ العلم بالتوقيت وبالذات شرح بول فورمان لتبنى تفسير عدم التحديد لظواهر الكم quantum من قبل علماء الفيزياء فى فيمار بألمانيا، خصوصا أن الأفكار الأساسية ظلت تناقش ويتم الجدل حولها دون نتيجة حاسمة طوال الخمسين سنة الماضية. ولم يبرر ظهور حجج جديدة ولا نتائج تجارب غلقا سريعا لهذا – اتجه فورمان فى "ثقافة فايمار، والسببية ونظرية الكم: ١٩١٨ – ١٩٢٧" Historical Studies in the physical sciences 3,1971,pp.1 - 115 إلى المعاداة المتنامية للحتمية والمادية التى صاحبت هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى والتى كانت تهدد تمويل الأبحاث فى مجال الفيزياء.

ودون إنكار للمحاولات النظرية الموجودة منذ زمن طويل فى تاريخ العلم، فكثيرًا ما يكون موضوع النقاش غير واضح من المنظور البلاغي، بخلاف مسألة كونه يتعلق بالطريقة السليمة فى الكلام عن ظواهر معينة. وليس غريبا إذن أن تستمر هذه المجادلات لفترة طويلة دون أن تعطل القيام بالتجارب

وجمع البيانات. وقد يكون مغريا أن نحذو حذو إيان هاكنج Ian Hucking فى ادعائه أن الاستقلال Representing and Intervening, Cambridge. U.K.1983) النسبي للمجادلات النظرية يثبت إلى حد ما عدم تأثيرها على مسار البحث العلمي. ومع هذا فهناك أوقات يصل فيها الجدل إلى الذروة، ويصبح النموذج الإرشادى Paradigm فى محنة، ثم تلى ذلك ثورة، وفي النهاية يتم الوصول إلى خاتمة للجدل. وسيفترض البرهانى أن وقت الختام هو دائما ملائم وأن القضية المثيرة للاهتمام ترتكز على الحجاج الحاسم وعلى الأدلة. وعلى العكس من ذلك، سوف يسأل التوضيحي "لماذا جاءت لحظة القرار فى هذا الوقت وليس فى وقت آخر؟ فلو كانت اللحظة قد تقدمت قليلا أو تأخرت قليلا لتغير الموقف النسبي لأطراف الجدل، بالإضافة إلى أن تركيبة الجانبين كان من الممكن أن تكون مختلفة. وبتغيير طفيف فى السياق، كان من الممكن جدا أن يكون الحجاج الأضعف هو الحجاج الأقوى.

والخلاصة هى أن الإسهام الذى تقوم به البلاغة فى فهم تاريخ العلم من الممكن التعبير عنه بالفرض الناجز التالى: تلك اللحظات المميزة (الفارقة) فى الثقافة العلمية وهى التى يتحدد فيها أصلا النموذج الإرشادى، على رأى كون (1962) Kuhn– تحدث فقط لأن العلم لا يتبع دائما المسار الداخلي الخاص به. ويمكننا هنا استخدام تشبيه مأخوذ من علم الأحياء، فنقول إن الضغوط الخارجية توفر "الأُطر" التى توجد موازنات داخلية جديدة للعلم. فإذا ما تُركت نظريتان متضادتان فى حالة جدلية، فكل حجاج جديد أو كل دليل جديد من الممكن أن يقابل بحجاج أو دليل معاكس. ولكن فى نهاية الأمر تتشابك مسائل الجدل مع الأفعال العلنية (وهى المادة الخام للجدل) مما يضطر الطرفين إلى حسم الخلافات على نحو عاجل. ومن يتحكمون فى موعد القرار يتحكمون أيضا فى نوع القرار. بالتالي فإن العلم بالبلاغة

ضرورى لمعرفة متى نبدأ الحجاج ومتى ننهيه وإلا استمر إلى الأبد. ومع هذا فهذا التحليل النقدى ليس إلا إعادة إبداع لرد فعل الحركة الإنسانية إبان عصر النهضة لاختزال البلاغة المدرسة الوسيطة Medieval إلى الجدل.

الفهم الجماهيرى للعلم باعتباره مشكلة بلاغية:

تمثل مجموعة القضايا المتعلقة بالبحث والسياسات المتصلة بالفهم الجماهيرى للعلم النقطة التى تعالج فيها بلاغة العلم بمنتهي الوضوح مسألة جعل العلم ديمقراطيًا، وأيضا ما يمكن أن نسميه "علمنة" Secularizaion العلم فى المجتمع الأكبر. وتتجلى الأنشطة الموجهة نحو فهم الجماهير للعلم بوضوح أكبر فى الدول التى تكون فيها العلاقة بين العلم والدولة أقل أمنا. وبريطانيا هنا هى المتزعمة لمشكلة "الثقافتين" الموجودة لديها دائما والتى تضع المجال العام فى نطاق سيطرة ثقافة "الفنون". وهكذا فإن الاتجاه الملاحظ فى تاريخ العلم على مدار الثلاثمائة وخمسين عاما الأخيرة هو أن بريطانيا قامت بإنتاج العباقرة الأصلاء، ولكن المناخ المؤسسى الأكثر لطفا فى فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة مكن هذه الدول من تحويل رؤى هؤلاء العلماء إلى برامج بحثية كاملة وفي أحيان كثيرة إلى تخصصات أكاديمية. ودائما ما احتاج العلماء البريطانيون من جانبهم إلى إقناع جمهور متشكك فى قيمة أعمالهم. وكانت النتيجة لذلك هى تشكيل هيئات قوية للعلاقات العامة مثل الرابطة البريطانية لتقدم العلوم، وأيضا حدوث أكبر استهلاك للفرد لكتب العلم الشعبية فى العالم. أما الأمريكيون الذين كانوا متشبثين بتقاليد المواطن – العالم الموجودة لدى الأباء المؤسسين، فقد كانوا قريبين من البريطانيين وكانوا يشاركونهم شكوكهم حول الدعم العام للأهداف العلمية المهنية. كان هذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ولكن بعد ذلك أصبحت السياسة العلمية جزءًا لا يتجزأ من الأمن القومي الأمريكى. ومع هذا فقد شهدت نهاية

الحرب الباردة رفع التمويل العام للأبحاث والتعليم فى العلم، مما اضطر الكثيرين من العلماء الأمريكيين إلى اللجوء إلى الأساليب نفسها التى استخدمتها الأديان عندما تم الفصل رسميا بين الدوله والكنيسة. وبالتالى فقد حدث ارتفاع فى "الإنجيلية العلمية" Science evangelism، حيث توجه الحجاج لدعم العلم ناحية إشباع الاحتياجات الإنسانية. ويتجلى الاتجاه العام الأكثر وضوحا فى تحول الاهتمام الفكرى والمالى من فيزياء الطاقة العليا وبرنامج الفضاء إلى مشروع الجينوم البشرى وأدوية الشيخوخة الجديدة. فحل المشكلة المحيرة التى دامت لألفين وخمسمائة عام عن طبيعة المادة تعطي أساسا أقل من الناحية الإقناعية بالنسبة للسياسة العلمية العامة عن احتمال القضاء على الأمراض الوراثية لدى النسل.

وقد أدى هذا التحول إلى تمزق غريب فى معنى كلمة "العلم" يشبه مصير كلمة "الدين" فى الزمن العلمانى حيث أصبحت تشير إما إلى مجموعة متكررة من الطقوس الطائفية تؤدى بدون تفكير، وإما إلى إحساس عام حول معنى الحياة غير متعلق بأى ارتباطات طائفية. وبالتالى فالعلم فى بعض الأحيان لا يشير إلى أكثر من موضوعات لابد من اكتسابها من أجل الوصول إلى المؤهلات اللازمة للنجاح فى الحياة. وليس هناك التزام روحاني تجاه هذه المعرفة، وإنما يوجد وعى عملي بوظيفتها فى عمليات إعادة الإنتاج الاجتماعي. وفي أحيان أخرى يعنى العلم نظرة عامة إلى العالم تسمح بالشك فى الآراء العلمية الشائعة إذا لم تتفق مع إحساس الفرد الشخصي بما هو علمى على الحقيقة. فى تلك الحالة يمكن الشك فى وجود تدخل للدولة غير شرعي. والأخيرة تنجذب إلى الأعمال المروجة للعلم التى تُغيب الخط الفاصل بين الواقع والخيال، وبين الملموس والروحاني وهكذا. وتكون النتيجة هى زعزعة معنى المفاهيم العلمية الرئيسية وأبرزها كلمة "جين" gene (المورث).

وأصبحت أوصاف "الجين" الشائعة بين الناس أوصافا من قبيل: " عدوانى" و"محب للغير" و"أنانى" و"مجتمعى". فمنذ ١٩٧٥ وتلك الأوصاف هى التى تصنع الأجندة البحثية فى عدة فروع من علم الأحياء.

تألفت الموجة الأولي من الأبحاث التجريبية التى اهتمت بالفهم الجماهيرى للعلم من مجموعة من الدراسات التى أجرتها الجمعية الملكية بالمملكة المتحدة فى أواخر الثمانينات. وقد صممت هذه الدراسات من أجل تشخيص أسباب التدهور الواضح فى الدعم الجماهيرى للعلوم الطبيعية، وبالذات عدم الاستعداد لتمويل الأبحاث العلمية والدراسة المنهجية للموضوعات العلمية. وقد افترض وجود علاقة مباشرة بين غياب هذا الدعم وبين تدهور وضع بريطانيا على المسرح العالمي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد زعمت هذه الدراسات أنها توضح أن شك الجمهور فى العلم هو دليل على جهل بالحقائق والمبادئ العلمية الأساسية، وهو ما أنتج "نموذج النقص المعرفي" فى الفهم الجماهيرى للعلم. وبالتالى فإن اختلاف المستجيبين للآراء العلمية المألوفة اعتبر دليلا على الجهل لا على الاختلاف العقلاني المبرر. وفضلا عن ذلك، لم يتم وضع حد أدني من الكفاءة العلمية بين العلماء المحترفين بحيث يمكن استخدامه فى قياس مستوى الكفاءة العلمية عند الجمهور. بل افترض بمنتهى البساطة أن عالم الفيزياء مثلا سوف يتعرف بسهولة على المبادئ الأساسية للأحياء النشوئية، حتى ولو لم يتعرف غير العلماء عليها.

وسرعان ما ظهرت اعتراضات على دراسات الجمعية الملكية، خصوصا من جانب علماء الاجتماع الذين قالوا إن غير العلماء يملكون معارف متصلة بحياتهم غير موجودة لدى العلماء، أو أن العلماء يقومون بتجاهلها على أساس أنها مجرد حكايات. وعادة ما تشتمل مثل هذه المعرفة

غير المتخصصة على الخبرات المتراكمة الناجمة عن كون الشخص مربيا للأغنام مثلا أو مريضا بالسرطان. والعلماء بالطبع يرفضون الاعتراف بالسياسات غير المؤكدة أو الغامضة المتضمنة فى معرفة هؤلاء، كما أن هذا سيلفت النظر إلى معرفة هؤلاء بالسياسات الصناعية - المعامل والحاسبات الآلية - التى عادة ما يتم إنتاج المعرفة العلمية من خلالها. ومع هذا فإن النقاد الاجتماعيين قد تراجعوا عن الاعتراف بالإسهام المعرفي للجماهير إلى الاحترام الخالي من النقد تجاه جماعة ما متأثرة بمصالحها.

ومع أن الديمقراطية تهدف إلى إعطاء فرصة التعبير للجماعات التى حُرمت هذا الحق، فإن هذا لا يجعلهم بمعزل عن النقد، إذا ما عبروا عن رأيهم. إن الديمقراطية تجعل من العملية السياسية فضيلة، وهو ما يفترض أن كل الأطراف قابلة للتغيير فى ضوء التشاور الجمعي. بل إن الديمقراطية ربما لا تكون قابلة لأن تتحقق على نحو كامل، إلا إذا كان الناس على استعداد لإعادة التفكير فى المعتقدات التى يعتزون بها كثيرا بغية العمل المنظم. ومن هذه الوجهة يكون أي إحساس بالهوية غير قابل للتفاوض لأنه مرتبط بنوع معين من المعرفة يعتبر بغيضا بالنسبة إلى بلاغة ديمقراطية للعلم. ويمثل بول فاير أبند Paul Feuerabend الموقف المعترض على هذه النتيجة، حيث يحاج بضرورة أن تتضاءل سلطة الدولة حتى تتمكن كل جماعة من العمل على أساس القاعدة المعرفية التى تفضلها. وهكذا فإن الفهم العلماني يعطي نوعا من "المراجعة الواقعية" للطابع المصطنع للمعرفة العلمية فقط ولا أكثر من ذلك - خصوصا عندما تؤخذ قرارات اختيار السياسات نيابة عن وحدات اجتماعية كبيرة تتضمن أشكالا متعددة للمعرفة المحلية كما هو الحال فى المسائل المتعلقة بالطب والبيئة. وهنالك حاجة إلى إعادة بناء الأطروحات المعرفية لكل من العلماء وغير العلماء فى إطار عملية ديمقراطية حقيقية تسمح بالأخذ والعطاء للجانبين. ولا يزال الفهم الجماهيرى للعلم بحاجة إلى تجاوز ثنائية أن

الشخص إما أن يعرف شيئا ما بنفسه وإما أن ينحنى لخبرة الآخرين. يتمثل الوسط بين هذين الطرفين وهو المكان الذى توجد فيه بلاغة العلم فى تجارب فى الديمقراطية التشاورية deliberative democracy مثل هيئات الإجماع والمواطنين الذى يلعبون دور المحلفين. وتحتوى هذه التجارب على محادثات نقدية منظمة بين خبراء متعددين وعينه ممثلة للمواطنين فى أمور تجمع بين الاهتمام الجماهيرى والمحتوى العالى التخصصي. والنتيجة الرئيسية هى مجموعة من الإرشادات لوضع السياسات من قبل مواطنين تعطي أساسا معقولا للسياسات الخاصة بالعلم والتكنولوجيا. وقد استخدمت حتى فى بلدان كاليابان لا تتمتع بتقاليد سياسية ديمقراطية قوية. وفى أثناء هذه العمليات عادة ما يُقصى الأشخاص توجهاتهم الشخصية لصالح ما يعتقدون أنه سيخدم على أفضل وجه مصالح المجتمع. ولكن للأسف تظل الديمقراطية التشاورية خارج نطاق الدول الإسكندنافية مجرد نوع من التدريب الأكاديمى الذى فشل فى تغذية عمليات الحوكمة المؤسسية.

التعبير عن الصوت العلمى:

ما معنى التواصل من خلال صوت علمى؟ توحي الدراسات التى أجريت مؤخرًا أن الإجابات تتضمن على الخصوص تحديد كيف أن الأشخاص الغائبين عن موقع إنتاج المعرفة، معمليا أو ميدانيا، يصدقون شهادة الأشخاص الموجودين فى الموقع. ويفترض أن منتجى المعرفة يفيدون من أوجه الشبه بينهم وبين الجمهور المتوقع، وأيضا من أى سمات مميزة فى تاريخهم مثل خبراتهم السابقة فى المجال التى تجعلهم مؤهلين بشكل خاص لتقديم تعليقاتهم الخاصة. ويفترض فى كل هذا، أن يعرف العلماء بالضبط من يخاطبونهم. ولكن يمكن الجدل بأن هذا الأسلوب لا يخص سوى الجماهير المتعددة التى تخاطب فى آن واحد: بخلاف الزملاء من المتخصصين (الذين

يجب ألا يتضايقوا من استحواذ الشخص على الذاكرة الجمعية للتخصص) والجماهير العامة (مثل القراء غير المتخصصين والمقيمين الأكاديميين وواضعى السياسات الذين لابد أن يجدوا قيمة شكلية فيما يقال وأيضا الاهتمامات المراوغة للأجيال اللاحقة وهم المحكمون النهائيون لما تم تقديمه حيث سيعتبرونه إما أساسا وإما عقبة. ربما تكون تلك الجماعة الأخيرة هى الأحق بالاحترام للظن ببعدها عن الظروف الوقتية التى تجعل استجابة الجماهير الأخرى غير متناسبة مع مزايا الأطروحات.

ومن الواضح ضرورة استخدام ألوان مختلفة من الحجاج لإقناع هذه الجماهير المختلفة، ولكن متضمن فى طبيعة العلم أنهم جميعا بشكل ما جزء من الجمهور العام نفسه من الباحثين عن المعرفة. فكيف يمكن إذن تصور هذه التعددية الفعلية وكأنها وحدة مثالية؟ هناك ست استراتيجيات بلاغية للرد على هذا السؤال:

١- من الممكن تبني مذهب الحقيقة المزدوجة فنكتب لإرسال حقيقة سطحية لمعاصرينا العاديين في الوقت نفسه الذى يتم فيه إرسال حقيقية أكثر عمقا لصفوة تملك الاستعداد الذهنى (ربما توجد هذه الصفوة فى المستقبل). وقد تم ربط هذه الاستراتيجية بقراءات باطنية لجمهورية أفلاطون المفهومة من قبل فئة قليلة، وبقيا التساؤل الفلسفى الجذرى فى الأسرالسياسى والدينى.. إن صفاته المميزة هى التخفيف والحذف من باب الحذر. وتشتمل الأمثلة على ذلك، وهى مأخوذة من تاريخ العلم، تصوير كوبرنيكوس Kopernicus فى القرن السادس عشر للكون المتمركز حول الشمس على أنه تبسيط للفلك البطلمى القديم، ولا أدرية داروين بشأن الوعى الضمنى للتطور عن طريقة الانتخاب الطبيعى على أنها ألوهية الإنسان، وفشل كون فى تطبيق نظرية النماذج الإرشادية والثورات العلمية على فهم لعلم كبير Big Science معاصر.

٢- وتلاحظ إستراتيجية متصلة بذلك أن كتاب معظم الأعمال الكبرى فى فلسفة العلم، وقبل أن تصبح كتاباتهم تخصصا قائما بذاته، كانوا ضمن المعسكر الخاسر فى النقاشات العلمية الرئيسية الدائرة فى أزمانهم (تحضرنا أسماء ويويل وماخ ودوهم) وحتى الوضعيين المنطقيين الذين احتفوا بالتطورات الثورية فى النسبية ونظرية الكم، كان أساتذة الفيزياء الذين رفضوا إجازة رسائلهم فى درجة الدكتوراه يعتبرونهم فلسفيين أكثر مما ينبغى وبالفعل كانت النداءات الوضعية بوحدة العلم عند نهاية الحرب العالمية الأولى تتسم بحنين إلى الماضى. وكان الصوت العلمى بالنسبة إليهم مثالا معياريا آخذا فى الزوال بعيدًا عن الممارسات التى تزداد تشظيا وتلحق بها الشبهة لأنها تخضع لمجموعة من الوظائف غير العلمية بالمرة (أى الأيديولوجية والتكنولوجية). ويدل استمرار الإعجاب برؤية كارل بوبر Karl Popper (١٩٤٥) للعلم على أنه " المجتمع المفتوح" على قوة هذا المثل الأعلى، رغم كونه يتضمن ماهو أدني من غالبية "العلم المعياري" normal science.

٣- يمكن الاعتراف بوجود أصوات فى البلاغة العلمية دون افتراض تصنيفها على نحو طبقى فى أسلوبين: واحد للجماهير والآخر للصفوة، وقد دعم القرن التاسع عشر هذه النقطة لأن ازدياد القدرة الجماهيرية على القراءة والكتابة قد تزامن مع ظهور أنواع الخطاب المتخصصة. وقد خاطبت الأعمال العلمية الكبرى فى تلك الفترة الاثنين دون التنازل لأى منهما. ويعد كتاب "أصل الأنواعَ لداروين مثالا على هذا الاتجاه. لقد راقت فكرة التطور عن طريق الانتخاب الطبيعى للقراء البرجوازيين الذين اعتادوا على تفسير الحياة الاجتماعية عن طريق " اليد الخفية " وهو ما أعطى للكتاب المصداقية السطحية المطلوبة لكى يستمر رغم شك المتخصصين بأن داروين قد فشل فى تقديم شرح صحيح من منظور علم الوراثة لانتقال الصفات المنتخبة إلى

الذرية. وبالفعل فإن المصداقية السطحية لاستعارة metaphor داروين هى التى أبقت على وجود نظريته إلى أن أعتقد علماء الوراثة بقدرتهم على تفسير آليات التطور.

٤- وعلى خلاف ذلك، من الممكن بناء الصوت العلمى بلاغيًا باختزال التعدد، مثلا عن طريق افتراض أن من يعتبرون أنفسهم علماء يضطرون أحيانا إلى اتخاذ قرار لا رجعة فيه يختارون فيه بين طريقين بديلين للبحث. وسيكون من الصعب التقليل من أهمية هذه البلاغة بالنسبة لتاريخ العلم الحديث التى بدونها تكون أي فكرة خطية (مستقيمة) عن التقدم مستحيلة. ويعد كتاب جاليليو" محاوات عن نظامى العالم (١٩٣٢) هو النموذج الأصلى لهذا التوجه صراحة وهو ما جعله مسببًا الفزع لمحاكم التفتيش البابوية، لأنه كان على العلماء الحقيقيين الاختيار بين فلك كوبرنيكوس والكتاب المقدس.

٥- ويمكن أيضا تنظيم الأصوات العلمية فى حركات تحيط باستقبال نص مفضل. بدأت هذه الممارسة فى الغالب مع معركة الكتب التى اشترك المثقفون فيها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوروبا. كان الجدال رسميا يتعلق بتفسير الكلاسيكات. لقد اعتبر البعض أن القدماء يتصفون بالكمال من حيث التأليف والابتكار، أما المحدثون فقد رأوا أنهم نسخ ناقصة من الحقيقة لا تزال فى انتظار تعبير أفضل. وقد استمر هذا الجدال حتى وصل إلى القرنين التاسع عشر والعشرين فى صورة جانبى "الفنون" و"العلوم"، اللذين أطلق عليهما سى بى سنو C.P. Snow اسم الثقافتين (١٩٥٩). وقد اعتبر هذا التقسيم مصدرًا للمشاكل مع ازدياد التخصص فى التعليم العالى. وظهر فى الوقت نفسه مثال آخر لحركة معتمدة على النصوص حيث تم إنتاج كتابات شديدة التركيب وعالية التقنية فكر فيها على أنها تعطى إطارًا لأنشطة متابعة وليس القبول التعددى فقط. إن كتاب المبادئ الرياضية لنيوتون Newton

(١٦٨٧) وكتاب رأس المال لكارل ماركس Karl Marx (١٨٦٧) كتابان مختلفان جدًا لكنهما يندرجان تحت هذا التصنيف. لقد بحث الأول عن الاكتمال عن طريق للعلم العادى والثانى عن طريق الممارسة الثورية.

٦- وفى بعض الأحيان ينشأ الصوت العلمى من توتر بين الأصوات الموجودة. فلقد كان شائعًا فى القرن التاسع عشر تحت تأثير المدرسة الرومانسية المقابلة بين العمق والتفرد من جانب والسطحية والعمومية من جانب آخر. كان الأولان مقابلين لبلاغة الشاعر (جوته) والآخران مقابلين لبلاغة الفيزيائى (نيوتون). وفى محاولة للإمساك بالحالة الإنسانية بقسط من النظام الذى تتمتع به العلوم الطبيعية قام من نصبوا أنفسهم علماء للاجتماع بالجمع بين العمق والعمومية، ولكنهم حققوا التوازن بطرق مختلفة. فعلى سبيل المثال افترض جورج زيمل George Simmel(١٩١٨ - ١٨٥٨) أن حالة واحدة منتقاة تستطيع أن تمثل مجموعة كاملة من الظواهر الاجتماعية، بينما زعم إميل دوركهايم Emile Durkheim (١٩١٧ - ١٨٥٨) أن الإحصاءات تستطيع الكشف عن صفات للحياة الاجتماعية لا يدركها التركيز على الحالات الغريبة. وهناك أيضا المشكلة العكسية وهى تشظى الوحدة المؤدى إلى التعددية. ويظل هذان المنظوران مثالين على المنهجين الصغير والكبير فى علم الاجتماع. ولكن دمج التعددية لخلق وحدة ليست هى المشكلة الوحيدة فيما يتعلق بالتكوين البلاغى لصوت علمى. هنالك أيضا المشكلة العكسية وهى الوحدة المؤدية إلى التعدد وهو ما يحدث فى أي ترجمة، لأنه عادة ما يكون هناك موازنة بين ترجمة الإطار الفكرى والمعنى العملى لنص المصدر إلى اللغة المستهدفة. فبعض التعبيرات الدقيقة التى من الممكن أن تكون لها أصداء على مستويات متعددة مع القراء من الممكن أن تبدو متحذلقة بالنسبة إلى القارئ الإنجليزى. وتسوء المشكلة عندما يبدو أن الكاتب الأصلى قد وصل بالضبط إلى التوازن السليم فى لغته الأصلية. وعلى سبيل

المثال، رغم استبعاده من المؤسسة الأكاديمية الألمانية، استطاع سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) أن يجد صوتا تم الثناء عليه لمزاياه العلمية والأدبية معا. ومع هذا فقد تعذر على جيمس ستراتش James Strachey المترجم المفوض لفرويد أن يحتفظ بالميزتين فى اللغة الإنجليزية فركزت ترجمته على الجانب العلمى من المعنى الذى يقصده فرويد مما أدى إلى إضفاء طابع مادى على عمليات نفسية مثل الأنا ego والأنا الأعلى superego والهو Id.

التراث النصي فى بلاغة البحث العلمى

عدد كبير من الأعمال الرائدة فى بلاغة العلم قام بها أشخاص لهم خلفية أدبية قوية من أمثال تشارلز بيزرمان Charles Bazerman (١٩٨٧) وآلان جروس Alan Gross (١٩٩٠) وقد رسخت تلك الأصول الشكل التجريبى للمجال أو الميل إلى اتخاذ نص معروف كوحدة للتحليل. ولكن بغض النظر عما يسرى على الثقافات الأدبية، لا توجد سوى أدلة قليلة على أن النصوص العلمية تقرأ بالعناية التى اعتادها متخصصو العلوم الإنسانية، بل إنه لا يوجد سبب قوى للاعتقاد أن أساليب القراءة التى يقدرها متخصصو العلوم الإنسانية هى التى يستخدمها العلماء الطبيعيون الذين يقومون بدراستهم. فبينما تعنى العلوم الإنسانية فى المقام الأول بدراسة النصوص. نجد النصوص فى العلوم الطبيعية وسائل لأهداف أخرى. فوفقا لما قاله " ستيفن شيبيان Stephen Shapin وسيمون شيفر Simon Schaffer (التنين والمضخة الهوائية Leviathan and the Air - pump، برينستون، ١٩٨٥)، فإن جزءًا من تراث الثورة العلمية هو عدم صبر العلماء على الحجاج والفنون اللغوية الأخرى لأنها تستغرق وقتا كثيرا مما يلزم لتصميم الأدوات اللازمة، لإثبات

النتائج وخصوصا التى يحتاجون إليها لتوضيح النتائج والتى يصممونها خصيصا لإسكات المعارضين.

وليس غريبا أن يظهر تاريخ كتابة الدوريات العلمية مستحدثات متتالية من أجل تنظيم عملية القراءة. الآن يُقسَّم النص العلمى إلى وحدات مثل "النظرية، "المنهج"، "البيانات، " النقاش" حتى يستطيع قراء العلم الاستحواذ على الأجزاء المتصلة بأغراضهم وتجاهل بقية الأجزاء. وبالفعل فإن انتقاء بعض أجزاء المقال لقراءتها قد تبدو للمتخصص فى العلوم الإنسانية محض إهمال، ولكنه ضروري للنمو التراكمى وتعزيز المجال الذى يميز المعرفة فى العلوم الطبيعية عنه فى العلوم الإنسانية. بينما فى العلوم الطبيعية فإن المقال الذى يشار إليه كثيرا ويقتبس منه يكون نموذجيا إما فى جانب واحد وإما فى عدد من الجوانب، لكن مثل هذا المقال فى العلوم الإنسانية سينظر إليه بأكثر من طريقة كما سيؤخذ كله فى الاعتبار. وبوسع مؤرخ تاريخ الأدب فى القرن العشرين الاستمتاع بهذه المفارقة. ففى بداية القرن حاج النقاد الشكليون الروس وهم الآباء الروحيون للبنيوية الفرنسية بأن التجديد فى الأشكال الأدبية الراقية جاء من الأنواع الأدبية الشعبية. وفى نهاية القرن اعترف الطلاب التجريبيون فى مجال بلاغة العلم أن حلقات إنتاج واستهلاك النصوص فى العلوم الطبيعية شبيهة بتلك الموجودة فى وسائل الإعلام. وتظهر الأنماط التى يمكن تمييزها فى فهرس الاستشهاد العلمى أنه كلما كان العلم دقيقا كانت دورة حياة تخصصاته البحثية شبيهة بالتقاليع. وعلى العكس فإن التخصصات البحثية فى العلوم الأقل دقة لها أنصاف أعمار أطول، بحيث إنه لا يكون واضحًا متى تصبح نمطا قديما. وهذا يعكس فى أغلب الظن التشابهات فى حجم وشكل المشروع العلمى ووسائل الإعلام. وفى الحالتين، تقوم الكليات غير المنظورة" و"قادة الرأى" ببناء استقبال النصوص وتوجيهها. فهل يجب أن يدفع هذا الأمر بالبلاغى إلى أن يعيد تقييم توجهنا العام لإعطاء قيمة ما لأنواع مختلفة من المعرفة؟ سؤال مفتوح ولكنه مهم .

عندما يُواجه من يحترم النص بالطبيعة القاسية للقراءة والكتابة العلمية يكون لديه ثلاث اختيارات: أولا أن يستبدل القراء الحقيقيين بقارئ مثالى تكون لديه معرفة بالعلم الذى تتم مناقشته ولكن يكون لديه أيضا حس المتخصص فى العلوم الإنسانية المتسم بحساسية تفسيرية للصور والموضوعات والطرائق. وللأسف قد تبدو هذه الأريحية وكأنها تحض على أنواع خادعة من الفهم التاريخى التى تشكك فى شرعية بلاغة العلم فى ذاتها. ومع هذا فهى منتشرة بين بلاغيي العلم ممن لهم ميول أدبية.

ثانيًا، من المعترف به أن كل الأشخاص يسيئون قراءة نصوص الآخرين بشكل روتينى. فمنذ أن أعاد التفكيكيون تعريف الأصالة الشعرية والفلسفة على أنها القدرة على "قراءة مسيئة قوية" لواحد من الأسلاف المتميزين أصبحت لوجهة النظر هذه مصداقية. واهتم المؤرخون بإعادة تكوين جدال من وثائق أصلية حتى يحيلوا الصراع بين الأضداد إلى نوع من كوميديا الأغلاط. إن العقول العظيمة لو أنها تكبدت مشقة قراءة نصوص الغير بدقة أكبر لكانت ستدرك أن الاختلافات بينهم ليست شاسعة. عندئذ يصبح أي إحساس بالتقدم المعرفى غامضا. ورغم غرابة هذا الأسلوب فى التفكير، فإنه مفيد لأنه يوضح ما يجرى عندما توضع مفاهيم معينة مسلم بها عن الاتصال فى اختبار تجريبى حقيقى.

ثالثًا: هناك ادعاء أن العلم سوف يتحسن إذا ما تبنى العلماء الممارسات التقنية لعلماء الإنسانيات، حتى ولو تعارض ذلك مع ميولهم المهنية. ومن الممكن أن يكون فايرابند (١٩٧٩) حليفا للحجاج القائل إن الخسائر السياسية والاقتصادية المحتملة تجعل من المستحيل أن يعامل العلماء المعاصرون حجاج بعضهم البعض بالعناية الواجبة، ذلك أن أموالا طائلة ومستقبل كثيرين يتوقف على كونهم على حق، وبالتالى يكون المرء مضطرًا لأن يأخذ احتمال أن يكون مخطئا مأخذ الجد.

قلب الموقف لصالح البلاغة: البلاغة بوصفها علمًا

هل يمكن أن تكون البلاغة علما؟ إذا كان هذا ممكنا، فأى نوع من العلم تكون؟ إن التشكك الذى يحيط بهذا التساؤل عادة ما ينبع من صعوبة ربط المفهوم الكلاسيكى عن المواءمة البلاغية مع الطموحات العلمية الحديثة فى الوصول إلى قوانين عامة (انظر الفلسفة، مقال عن الموضوعات الدائمة والمصطلحات). ومن جانب، هل يمكن بعد قبول وجهة النظر البلاغية الاعتقاد بأن هناك نوعا من التعبير يلائم كل الأزمنة والأماكن؟ ومن الجانب الآخر إذا ما تم قبول وجهة النظر العلمية كيف يمكن التعامل مع احتمالات الكلام على أنها أكثر من مجرد مبادئ عامة للتعبير الإنسانى؟ يبدو أن البلاغة تختزل الأسلوب العلمى إلى أيديولوجية للهيمنة أو أن العلم سيختزل أسلوب البلاغة إلى استغراق فى التفاصيل الهامشية لعلم النفس التطورى.

لقد حاول السوفسطائيون اليونان حل هذه الصعوبة بأن حاجوا بإمكانية وجود علم للموقف، أي مبادئ عامة تتحكم فى الطابع الدلالى للإقناع والتعبير بغض النظر عن مضمونه المحدد. لم يتحمس سقراط للحجاج السوفسطائى لمثل هذا العلم، فقد كان يعتقد أن أي خبرة حقيقية مرتبطة بهذه المبادئ ستأتى ببساطة من مهارات فنية أخرى يمتلكها من يقوم بالإقناع، وبالتالى فإن الخباز المقنع سوف يكون الشخص الذى يوضح إذا ما طلب منه ذلك أنه قادر على أن يصنع خبزًا، وهى مهارة تتضمن العلم بالخبز لا بالبلاغة. (ولكن حقيقة أن معظم الشركات اليوم تنفق على الإعلان أكثر مما تنفقه على إنتاج بضائعها وهم راضون عن نتائج ذلك، يوجب علينا أن نتساءل عن صحة هذا الحجاج).

وعلى الرغم من هواجس سقراط، فإن الرغبة فى إنشاء علم للموقف قد استمر، كتيار تحتى، تهتم به الفلسفة، لما سماه جون دون سكوتس

John Dunns Scotts فى القرن الثالث عشر،"الإنية" "thisness"، والمدرسة الاجتماعية هى التطور العلمى الأظهر لما أصبح المنهجية الإثنية ethnomethodology. بالإضافة إلى هذا فمن الجائز أن يكون سقراط قد فاته الالتفات إلى الروح الديمقراطية الحقيقية التى تسود الموقف، ألا وهى، أن القدرة الوحيدة ذات الصلة بالمجال العام هى القدرة على التحكم فى تسلسل الحجاج، حيث إن كل القدرات الأخرى لها نفس الأهمية تقريبا إلى أن تثبت البلاغة غير ذلك. ومن الجائز أن تأتى أفضل الوسائل الحديثة للتغلب على هذا الطريق المسدود من الناحية الفكرية المحيط بـــ " علم البلاغة " من سوسيولوجية المعرفة، التى تميط الغموض عن الفرق بين الاحتمال والضرورة، فالاحتمال تم ربطه عادة بالبلاغة والضرورة تم ربطها بالعلم.

ويزعم علماء سوسيولوجيا المعرفة أن الإحساس بالضرورة ينجم عن الجهل بالظروف التى نزعم أن معرفتنا العامة تنطبق عليها. كون معرفة ما بعينها يتم استحضارها فى سياقات معينة ولا تستحضر فى سياقات أخرى أمر لا نتطرق إليه فى مداولاتنا. فنحن ندمج ببساطة بين الظروف العامة لما تزعمه المعرفة والظروف العامة للحالات التى تنطبق فيها (القضية الكبرى والمقدمة الصغرى فى القياس الأرسطى).(انظر: القياس Syllogism) فى تلك الحالة توفر البلاغة المستوى الكافى من الوعى الذاتى حتى تجعل نقد محتوى المزاعم العامة والإبداع فى تطبيقها مستقبليا ممكنا. وهذا يعنى من ناحية التطبيق أن القوانين العلمية أصبحت تعامل كالقوانين المدنية التى تلعب معها السوابق القانونية والحجاج المؤسس على القضية دورا حاسما فى تحديد تطبيق القانون. ومؤخرًا تبنى علم الاجتماع العلمى هذه الرؤية التى تركز على المرونة التى يمارسها العلماء عند تعديل القوانين العامة على سياقات خاصة بتجاربهم وملاحظتهم. وإذا استعنا بالمصطلحات اليونانية الكلاسيكية يمكننا تلخيص هذه الطريقة بالقول إن العلم يخفى إحساسه بالملاءمة عن

طريق تقديم أكثر معارفنا عمومية على أنها "طبيعية" ولكن بعد كشف غموضها يتضح أنها مواضعة (عادة) momos بمعنى آخر ما كان يعتقد أنه قوانين عامة للطبيعة يظهر أنه نوع من التكلم البطنى ventriloquism يتم من خلاله عرض مجموعة ثانوية من مواصفاتنا الاجتماعية على لوحة الحقيقة الأكبر حجما. ومع هذا فبعد أن يزال غموض هذه المواصفات، فإنها قد توحى أن الجرى وراء العلم يظلم لا البلاغة وحدها وإنما القدرة الإبداعية للنوع الإنسانى Homo Sapiens. ففى النهاية، القوانين التى تحكم العلم تتعلق أساسا بالسيطرة على الأشياء المادية الملموسة بما فيها البشر الذين ينظر إليهم على أنهم جموع تخضع حركاتهم لقيود تفرضها قوى خارجية. ومن يتعاطفون مع مثل هذا الشك سيكونون ضمن من يتبعون القاضى النبابولونى جيا مباتيسافيكو Giambattista Vico الذى عاش فى القرن الثامن عشر، والذى وضع البلاغة فى مرتبة أعلى من العلم - أو بتحديد أكثر وضع البلاغة التقريرية فوق البلاغة البرهانية بسبب استخدامها الأكمل لقدرات الخيال والذاكرة وهى القدرات التى تميز البشر عن الحيوانات الدنيا (انظر بلاغة القرن الثامن عشر).

Bibliography

Bazerman, Charles. Shaping Written Knowledge. Madison, Wis., 1987.

Campbell, John Angus. "Intelligent Design, Darwinism, and the Philosophy of Public Education." Rhetoric

and Public Affairs 1 (1998), pp.pp. 466–502.

Carley, Kathleen, and David Kaufer. Communication at a Distance. Hillsdale, N.J., 1993

معالجة مركبة لنمو المعرفة العلمية من خلال اعتبار الكتابة امتدادًا للكلام.

Collier, James. Scientific and Technical Communication: Theory, Practice, and Policy. London, 1997.

الكتاب الذى يعطى التوضيح الأفضل للتحدى الذى توجده دورات الاتصال التكنولوجى بالنسبه للبلاغة الرسمية للعلم.

Feyerabend, Paul. Science in a Free Society. London, 1979.

Fuller, Steve. Philosophy, Rhetoric, and the End of Knowledge. Madison, Wis., 1993.

محاولة منظمة لتبرير أن بلاغة العلم كانت ستسحتوز على إعجاب السوفسطائيين.

Fuller, Steve. The Governance of Science: Ideology and the Future of the Open Society. Milton Keynes,

U.K., 1999

يحاجج من أجل بلاغة ديمقراطية للعلم، على الرغم من حجم المشاريع العلمية المعاصرة.

Fuller, Steve. Thomas Kuhn: A Philosophical History for Our Times. Chicago, 2000.

عن إضعاف تأثير كوون لبلاغة العلم.

Gjertsen, Derek. The Classics of Science: Twelve Enduring Scientific Works. New York, 1984.

أفضل مصدر لتاريخ استقبال العلم من إقليدس حتى داروين.

Gross, Alan. The Rhetoric of Science. Cambridge, Mass., 1990.

Gross, Alan, and William Keith, eds. Rhetorical Hermeneutics: Invention and Interpretation in the Age of

Science. Albany, N.Y., 1997.

أهم مجموعة أعمال معاصرة عن بلاغة العلم، وهى تركز على ردود الأفعال لما زعمه فيليب جونكر بأن المجال يعتبر قريبا لسوسيولوجيا العلم.

Hess, David. Science in the New Age. Madison, Wis., 1993.

Howe, Henry, and John Lyne. "Gene Talk in Sociobiology." Social Epistemology 6 (1992), pp.pp. 1–54.

تعاون مهم بين متخصص فى البلاغة وعالم عن تأثير الخطاب الشعبى على الخلافات التقنية.

Irwin, Alan, and Brian Wynne, eds. Misunderstanding Science? The Public Reconstruction of Science and

Technology. Cambridge, U.K., 1996.

Jonsen, Albert, and Stephen Toulmin. The Abuse of Casuistry. Berkeley, 1988.

Krips, Henry, James McGuire, and Trevor Melia, eds. Science, Reason, and Rhetoric. Pittsburgh, 1995."

محاوله لتوحيد الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء البلاغة تحت راية بلاغة العلم.

Kuhn, Thomas S. The Structure of Scientific Revolutions. Chicago, 1962.

Lepenies, Wolf. Between Literature and Science: The Rise of Sociology. Cambridge, U.K., 1988.

McCloskey, Deirdre N. The Rhetoric of Economics. Madison, Wis., 1998.

نشر للمرة الأولى فى ١٩٨٥ . وهى أول عالمة اجتماع تعترف صراحة بالطبيعة البلاغية لمجالها.

Montgomery, Scott. The Scientific Voice. New York, 1995.

Nelson, J., A. Megill, and D. McCloskey, eds. The Rhetoric of the Human Sciences. Madison, Wis., 1987.

ما زالت أفضل مجموعة فى العلوم الاجتماعية عن بلاغة العلم.

Pera, Marcello, and William Shea, eds. Persuading Science: The Art of Scientific Rhetoric. Canton, Mass.

1991.

يبين نقاط القوة والضعف فى المداخلات الفلسفية فى بلاغة العلم.

Popper, Karl R. The Open Society and its Enemies. London, 1945.

Prelli, Lawrence. A Rhetoric of Science. Columbia, S.C., 1989

يظل هذا العمل قريبا من توجه البلاغة الكلاسيكية.

Roberts, R. H., and J. M. M. Good, eds. The Recovery of Rhetoric: Persuasive Discourse and

Disciplinarity in the Human Sciences. Bristol, U.K., 1993.

أفضل مجموعة بريطانية تؤكد على دور البلاغة فى إعادة فهم علم النفس.

Snow, C.P. The Two Cultures and the Scientific Revolution. New York, 1959.

Taylor, Charles Alan. Defining Science. Madison, Wis., 1996.

يوضح أحقية البلاغة فى "مشكلة التفرقة" بين العلم الصحيح وما يشابه العلم.

Woolgar, Steve. Science: The Very Idea. London, 1988.

هذا المصدر جيد لأنه دراسة حديثة لسوسيولوجيا العلم من منظور بلاغي، متأثرة بقوة بالمنهجية الإثنية.

تأليف: Steve Fuller

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

التقوى العلمانية Secular Piety

يجمع هذا التعبير بين ما هو مادي وملموس فى هذه الدنيا، وما هو ديني وروحاني فى العالم الآخر. ويمكن تأكيد أيٍ من الكلمتين بمعنى أننا لو أكدنا معنى كلمة علماني فمعنى هذا أن هذه الدنيا لها أهمية - على سبيل المثال - للعالم الذي لديه التزام ديني فى عمله. ولو أكدنا على كلمة تقوى فمعنى هذا أننا نقدر الأساس الروحاني فى بعض الحالات مثل تعديل وتكييف المعتقدات الدينية لكي تناسب الاكتشافات العلمية. وإذا ما أكدنا معنى الكلمتين فى الوقت نفسه وبنفس القدر، فسوف ننتهي إلى بعض الرؤى المتنافرة والمتناقضة مع بعضها البعض. فعلى سبيل المثال حينما حدثت الحروب الصليبية crusades فى القرن الثاني عشر كان الفارس فى الجيش يعد قائدًا علمانيًا ينفذ "بتقوى" وصية الكنيسة! أما اليوم فقد تتخذ التقوى العلمانية شكلاً مختلفاً مثل مناصرة حق الطلاب فى الصلاة داخل المدارس العامة public schools فى الولايات المتحدة الأمريكية.

والتقوى العلمانية هو مصطلح غامض متناقض يصف الطريقة التي يتوحد فيها الناس مع خبرتهم الحياتية. ويأتي الغموض من أنه يمكن التأكيد على معنى كل من الجانبين المجردين(التقوى والعلمانية) اللذين يشكلان المصطلح ويأتي التناقض من أن المصطلح يجمع بين الأضداد بمعنى أنه يجمع بين وجهتي نظر متعارضتين تمام التعارض. ويوجد منظوران بلاغيان أحدهما **تقليدي** traditional والآخر **بركي** Burkean (نسبة إلى كينيث بيرك Kenneth Burke) ويمكن أن يفسرا لنا بمزيد من التوضيح ماهية مصطلح التقوى العلمانية، واستخدامه فى البلاغة.

المنظور التقليدي:Traditional Perspective

تشكل كلا من الحركة التقوية Pietism (وهي حركة دينية نشأت فى ألمانيا فى القرن ١٧ وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية)، والحركة العلمانيةSecularism والتي ظهرت فى القرن التاسع عشر الأساس لمعنيي تلكما الكلمتين اللتين تشكلان المصطلح. وأن الحركتين قد تألقتا فى المجتمع فإن الكلمتين (التقوى والعلمانية) أصبح لهما العديد من المعاني. ويقدم مفهوم الذوق Decorum المستخدم فى البلاغة الكلاسيكية منظورا تقليديًا حول إمكانية التوازن بين هذه المعاني.

والحركة التقوية هي حركة دينية بروتستانتية ظهرت فى القرن السابع عشر، ونشرت فكرًا مفاده أن الإخلاص فى العبادة والعلاقة الشخصية مع الله هما جوهر المسيحية، وليست الهوية اللاهوتية الجامدة التي تتجلى فى بعض الطقوس مثل التعميد، والقربان المقدس، والاعتراف. ولم تعط هذه الحركة أي اهتمام للجانب الأكاديمي النظري، بل كانت تظهر إصرارًا راسخا بأن الإيمان يجب أن يُرى فى أعمال الإنسان الفعلية كالتوبة، والهداية، وتغيير نمط الحياة. وعارضت الحركة بشدة جمود الفكر فى كلا من الكنيسة الكاثوليكية، والكنائس البروتستانتية، وأيدت بشدة استخدام الإنجيل فى التأمل والروحانيات مع رفض الفصل بين رجال الدين وعامة الناس من جمهور المؤمنين. كما أكدت الحركة على المسيحية العملية practical Christianity وليس المسيحية اللاهوتية theological Christianity رافضة الجدل الديني، ومؤكدة على أهمية إعادة الحياة والحيوية للوعظ كوسيلة لتثقيف وتهذيب الناس.

ومنذ عام ١٦٥٠ وحتى عام ١٧٥٠ كانت الحركة التقوية تمثل قوة عظيمة فى اليقظة الدينية فى غرب أوروبا والمستعمرات الأمريكية. وبحلول عام ١٧٦٠ أصبح للحركة وجود قوي فى الكنائس البروتستانتية فى أوربا،

كما أصبح لها إرساليات تبشيرية فى المستعمرات الأوربية فى جرين لاند، وفي الأمريكتين، ومصر، والكاريبي. أما فى أمريكا الشمالية فقد قام بعض البيوريتانيين من أمثال كوتن ماثر Cotton Mather، وجوناثان إدواردز Jonathan Edwards، وتى جى فريلينجين T.J. Freylinguyen، وجورج وايتفيلد George Whitefield، وجيلبيرت تينينت Gilbert Tennent بنشر أفكار الإحياء الديني، والتي تحولت مع الوقت إلى ما يعرف باليقظة الكبرى Great Awakening والتي وصلت إلى ذروتها فى الفترة ما بين عام ١٧٣٩ وعام ١٧٤٤. واليوم لا تعطى الكنائس البروتستانتية أهمية للطقوس، ولكنها تؤكد على العظة الكنسية، كما أنها ترى وتؤكد على أن المؤهلات الدينية والأخلاقية أهم من المكانة الإكليريكية، وأن التقوى الحقيقية تكمن فى الأعمال الخيرية، والأنشطة التبشيرية. وقد نتج عن الحركة التقوية فى أمريكا الشمالية من خلال اليقظة الكبرى وسيطرة البيوريتانيين تأثير برجماتي طويل المدى long - term pragmatic effect ساعد فى تشكيل الحركة التبشيرية فى كل من أمريكا وبريطانيا.

وعلى النقيض ظهرت الحركة العلمانية secularism كحركة أخلاقية لا دينية، لها نظريتها الأخلاقية الإيجابية فى الحياة، والتي ساعدت فيما بعد فى نشر العلمانية secularization. وكانت الحركة العلمانية قد ولدت فى منتصف القرن التاسع عشر بسبب المعارضة الشديدة لبعض أصحاب النفوذ المؤثرين للحرية السياسية والدينية. وكانت فى جوهرها حركة احتجاجية لها أصول فلسفية فى فكر المدرسة التي ينتمي إليها جيمس ميل James Mill (١٧٧٣ - ١٨٣٦) وجيريمى بينثامJeremy Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢)، والنزعة الإلحادية عند كل من توماس بين Thomas Paine(١٧٣٧ - ١٨٠٩)، وريتشارد كارليل Richard Carlile (١٧٩٠ - ١٨٤٣).

وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر نحت كل من جورج جيكوب هولى أوك George Jacob Holyoake (١٨١٧ – ١٩٠٦)، وريتشارد برادلاف Charles Bradlaugh (١٨٣٣ – ١٨٩١) مصطلح العلمانية للتفرقة بين المعتقدات الإلحادية وتلك الإيمانية. وتقوم الحركة العلمانية على مبدأ أساسي وهو أن تطور الإنسان يجب أن يكون من خلال الوسائل المادية وحدها، وهذا التطور قائم على الخبرة التي يمحصها العقل. وفي البداية تعامل الناس مع الدين ومع ما هو علماني على أنهما عالمان مختلفان، أحدهما معروف لنا وهو الدين والآخر قابل للمعرفة knowable وهو ما هو علماني، ولكن من خلال الخبرة والتجربة. أما العلمانية فتعنى اضمحلال تأثير الدين ويظهر ذلك فى الأنشطة والمعتقدات والمؤسسات الدينية.

وفي بداية القرن التاسع عشر أدت العلمانية لوجود نمط للتطور الاجتماعي عرّفه كثير من علماء الاجتماع ومنهم أوجست كومت Auguste Comteعلى أنه ذلك النمط الذي لا تسيطر فيه الفرضيات الدينية على مجريات الأمور، وحيث تتمتع المؤسسات الاجتماعية بمزيد من الاستقلالية. واستمرت العلمانية فى القرن العشرين، وحاولت تعميق فهم النظام الموجود فى الطبيعة natural order مشجعة الانعزال عن المؤثرات الأخرى عند الملاحظة العلمية، وهذا ما سيؤدى بدوره إلى أن يصبح العلم عملا مؤسسيًا institutionalization of science.

ويخلط المنظور التقليدي فى البلاغة بين العالم العلماني الموجود الآن مع العالم الآخر من التقوى فى شكل منظومة من المعتقدات بمعنى أنه لو لم توجد أي إمكانية للتوحيد بين العالمين، فعلى الأقل يمكن توحيدهما فى شكل لغة يمكن استخدامها. وتشير بعض المفاهيم البلاغية الكلاسيكية كالذوق decorum واللياقة propriety إلى إمكانية ذلك المزج المفيد، والذي يمكن استخدامه واللجوء إليه. (انظر كلمة الذوق Decorum).

ويرى نقاد ما بعد الحداثة مثل بول ريكورPaul Ricoeur أن البلاغة الكلاسيكية لم تعد ذات فائدة لأنها مليئة بالتناقضات. ومن أهم متناقضات البلاغة – من وجهة نظرهم – أنها وسيلة للجدل كما أنها وسيلة للإمتاع، وأنها تتوجه للمتحدث وتتوجه للجمهور، وأنها تؤكد على ما هو رمزي وما هو عملي، وما هو وظيفي وما هو جمالي. ورد مايكل ليف Michael Leff على هذا الرأي بأن أشار إلى أن اللياقة التي تؤكد على التوازن بين الأطراف موجودة فى البلاغة الكلاسيكية يسير ليف على خطوات تزيتان تودروف Tzvetan Todorov حينما يقدم الذوق بشكل أساسي فى خطب شيشرون Cicero كوسيلة للتوفيق والتوازن بين الأفكار والمطالب المتناقضة. ويشير ليف إلى أن الذوق يدخل فى حياتنا فى كل موقف حينما نصدر حكمًا دون الإشارة إلى الثوابت المطلقة حينما نقول "هذا ملائم" أو "ذاك ملائم"، حينما نتحدث عما نقوله أو عما نفعله سواءً كان الأمر جللاً أو تافهًا (انظر ليف صفحة ١٢١). ثم يصف ليف ماهيات الذوق الثلاث وهم: "خلق التكيف والتوافق مع الظروف المحيطة"، و"التوسط بين الشكل والمضمون"، وأخيرا "المبدأ التنظيمي الذي يحكم الشكل الداخلي للخطاب" (انظر الصفحة السابقة). ومن ثم تجيز البلاغة التقليدية من خلال مبدأ الذوق المزج بين المتناقضات الموجودة فى التقوى العلمانية.

المنظور البركي Burkean Perspective

يرى كينيث بيرك أن الاتجاه الدرامي يتعامل مع المصطلحات الموجودة والمستخدمة فى التقوى العلمانية على أنها عوالم متنافرة تتعامل مع بعضها البعض من خلال الجدل. وتشرح مفاهيم بيرك الثلاثة وهي: "الصلاة العلمانية secular prayer"، و"التطابق identification"، و"المنظور

المتنافر perspective by incongruity" الوظائف الدرامية للتقـــوى العلمانيـــة. (انظر التطابق Identification والمنظور المتنافر Perspective by incongruity).

ويناقش بيرك (١٨٩٧ - ١٩٩٣) كلاً من مفهوم "التقوى" piety ومفهوم "علماني" secular في سياق الصلاة العلمانية على الرغم من أنه لم يستخدم مصطلح التقوى العلمانية نفسه. فهو يرى أن الصلاة العلمانية كعمل أخلاقي يهدف إلى بناء الشخصية وهو بمثابة تهذيب سحري للمواقف magical coaching of an attitude (انظر كتاب مواقف Attitudes صفحة ٣٢٢). ويربط بيرك بين الصلاة العلمانية وبين كلمة سحر (انظر صفحة ٣٢١ من المرجع السابق)، فالأطفال في لعبهم ولهوهم ينغمسون في صلاة علمانية؛ لأنهم ينفصلون عن الواقع، ويطلقون على الموجودات المحيطة "كالمنزل" أو "الشجرة" أسماءً مختلفة، وهو نفس ما يفعله البالغون حينما يفسرون الأحداث التي يمرون بها ويطلقون عليها مسميات مثل "الحماقة"، و"الأقلية" وحتى "الرأسمالية"، و"الصراع الطبقي" (انظر المرجع السابق صفحتي ٣٢٢ - ٣٢٣).

ويرى بيرك أن الدعاية وأفضل أشكال الإقناع هما في جوهرهما نوع من الصلاة العلمانية؛ لأنهما ينطويان على نوع من تهذيب الموقف. ويشير بيرك إلى فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto (١٨٤٨ - ١٩٢٣) حينما يناقش أكثر الصلوات العلمانية استفزازًا وهو المدخل العلمي المحض الذي يدعى الموضوعية والدقة الرياضية (انظر صفحة ٣٢٦ من المرجع السابق). ويوجد شكل للصلاة العلمانية يتمثل في إطلاق أسماء على جوهر بعض المواقف والعمليات المعقدة "كالفاشية"، و"العنصرية"، و"الكوكبية"، و"المجتمعية"، ثم يقوم الشخص بتجنيد الآخرين إلى جانبه ليشتركوا في صراع مع الآخرين الذين يمثلون هذه الاتجاهات والتوجهات (التي ذكرناها والتي تمثل جوهر المواقف والعمليات المعقدة).

ولا شك أن قيام بيرك بالربط بين كلمتي "التقوى" و"العلمانية" و"الصلاة العلمانية" يجعل لهذه المصطلحات وظائف بلاغية فعالة وإيجابية وليست خاملة وسلبية فى أداء دورها لتهذيب المواقف. وهو يقر بأن الدين هو جوهر التقوى، ثم يؤكد على أن التقوى تتخطى ذلك بكثير لتمثل كلاً متوحدًا لا يتجزأ ينبع لدى الإنسان من خبرات الطفولة. وفي النهاية يعرف بيرك التقوى بأنها الإحساس بوضع الشيء فى مكانه اللائق (انظر كتاب الديمومة Permanence صفحة ٧٤). ومن ثم يمكن أن نقول إن بيرك يرى أن التقوى مفهوم ديناميكي له سمات مثل التدين، والملائمة، والتوجه، والتكامل والتفاعل. ويناقش بيرك كلمة علماني داخل سياق التقوى، وهو ما يشبه ما أسماه فرويد فى عملية التحليل النفسي "بالهداية اللادينية non - religious conversion" (انظر صفحة ١٢٥ من المرجع السابق). ولأن التقوى هي "الوفاء لمصادر وجودنا" loyalty to the sources of our being، والتي يراها فرويده دينية بالفطرة، فإن ذكر كلمة علماني – على النقيض – يعد إعادة توجيه درامي بأخذ شكل الهداية اللادينية (انظر صفحة ١٢٥ من المرجع السابق). ويفسر بيرك رؤية فرويد لعلاج المريض على أنه نوع من إعادة التوجيه الذي يحدث بتغيير الفكر من منظومة التقوى التي توجد فى أعماق إحساس المريض بالحزن والارتباك إلى مجموعة من المفردات الدينية المحايدة التي تتحول إلى هداية لا دينية (انظر المرجع السابق من صفحة ١٢٥ حتى ١٢٧). ومن ثم فهو يرى أن السمات التي تصف ما هو علماني تشمل صفات مثل "علمي"، و"لا ديني"، و"غير تقي"، و"غير مبجل أو إكليريكي".

ويفسر مصطلح التقوى العلمانية – والذي يتسم بالغموض والتنافر – بأنه الطريقة التي يتكيف بها الناس مع خبراتهم الحياتية ويتوحدون معها. ويتم التوصل إلى الهوية من خلال عملية يطورها بيرك ويطبقها فى كتابه **بلاغة الدوافع A Rhetoric of Motives**. يفسر بيرك هذا قائلاً "إذا كان س

غير متطابق مع زميله ص، لكن إن تلاقت مصالحهما تطابقا. وقد يتطابق س مع ص على الرغم من عدم تلاقى مصالحهما إذا تصور س أنهما يتلاقيان أو أنه أقنع نفسه بذلك " (انظر الكتاب صفحة ٢٠). فإذا كان الذوق decorum يمزج بين المتضادات فى البلاغة الكلاسيكية، فإن نظرية بيرك فى التطابق تسمح للناس – على اعتبار أن مصالحهم تتلاقى – بالتأكيد على وجود وحدة بين عدة أشياء تبدو للناظر أنها تفرق أكثر مما توحد. فمن خلال التقوى العلمانية يستطيع الناس التكيف مع عالمهم، ويتوحدون مع ما هو دنيوي مادي وما هو روحاني. ومن ثم فإن المعاني المختلفة للتقوى العلمانية تمثل فى الواقع عدة طرق يستطيع الناس بها بلاغيا أن يتكيفوا مع خبراتهم الحياتية ويربطون فيما بينها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الطبيعة الغامضة والنافعة للمصطلح يمكن فهمها من خلال ما سماه بيرك بالمنظور المتنافر والذى نحته اعتمادًا على استخدام أوزرالد سبينجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ – ١٩٣٦) لطريقة نيتشه فى جمع الأحداث التى حدثت فى مراحل متشابهة ولكن فى فترات زمنية مختلفة. ويخرق ربط الأفكار المتنافرة بشكل واع قواعد اللياقة والروابط السابقة بين الكلمات عن طريق إخراجها من السياق out of context. وتسمح الروابط الجديدة للناس أن يكتسبوا رؤى وبصائر جديدة. ويضرب بيرك بعض الأمثلة مثل الإشارة إلى القرد الذى يعبد كإله ape - god كنموذج للمنظور المتنافر القادر على توصيل وخلق رؤى جديدة من خلال الروابط الجديدة بين الكلمات المتنافرة (انظر كتاب **الديمومة** صفحة ٩٠). وعلى نفس المنوال تربط التقوى العلمانية بشكل متنافر بين ما هو مادى وعلمى من ناحية، وما هو روحانى ودينى من ناحية أخرى وهو ما يخلق الكثير من المعانى الجديدة.

ولا شك أن فهمنا العميق لمعرفة كيفية أن الجمع بين كلمتى "علمانى" و"تقوى" يخرق أو ينتهك جذور معانى الكلمتين على السواء؛ مما يمهد الطريق للمرء أن يفهم استخدام كلمات مثل "السحر"، و"الدين"، و"العلم" على أنها استعارات للإشارة للتاريخ الثقافي الغربي. وحينما يستخدم الناس إطارًا محددًا من المفاهيم لطريقة تفكيرهم فإن هذا يؤدى بدوره إلى أن يتحول هذا الإطار بمرور الوقت إلى توجه. ويحلل بيرك هذه العملية حينما يناقش الفكر لغربي المجتمعي فى شكل ثلاث توجهات متتالية فى المنحنى أو المنعطف التاريخيCurve of History (انظر كتاب **مواقف Attitudes** الصفحات من ١١١ حتى ١٧٥).

والسحر حينما ينظر إليه كنمط للفكر والعقلانية إنما هو محاولة للتحكم فى القوى الطبيعية فى العالم عن طريق محاولة فهم هذه القوى كأسباب فاعلة لكثير من الظواهر كتعاقب الفصول المناخية، ونمو الزرع، وإنجاب الأطفال. أما الدين فإنه يؤكد على وجود قوى أكبر وأعظم higher force وهو الله سبحانه وتعالى الذي يلجأ إليه الإنسان بالصلاة والدعاء لتغيير ما يحدث فى الكون أو فى حياة الإنسان. بينما يؤكد العلم على القدرة على التحكم فى مجريات الأمور من خلال التكنولوجيا والمخترعات الجديدة (انظر كتاب **الديمومة** الصفحات من ٥٩ حتى ٦٦).

ثم يفسر بيرك أن هذه التوجهات الثلاث يمكن أن تحل محل بعضها البعض بل ويتنبأ كيف ستحل حركة إنسانية شعرية وأدبية أكثر إنسانية، وأكثر تعددية، وأكثر ذاتية، وأكثر روحانية محل العلم (انظر صفحات ٦٥ - ٦٦ من المرجع السابق). وهذا الإحلال والتبديل بين المصطلحات يدل على وجود قيم وروابط مختلفة لكل من التوجهات المذكورة. ومن ثم فحينما نقتطع كلمة "علماني" من الإطار العلمي ونضعها بجانب كلمة "التقوى" المأخوذة من

الإطار الديني، فإن هذا يعنى أننا أمام نمطين مختلفين تمام الاختلاف فى الفكر تم ربطهما بشكل جدلي مما أدى إلى وجود مفهوم غامض ambiguous concept له العديد من المعاني. ليس هذا فحسب بل إن وضع تعبير مثل التقوى العلمانية داخل إطار الحركة الإنسانية الشعرية يخلق احتمالات أكبر لمعانٍ جديدة خلاقة new creative meanings؛ لأن الحركة الإنسانية الشعرية نفسها تجمع ما بين التكنولوجيا (التوجه العلمي) والروحانية الفردية (التوجه الديني).

Bibliography قائمة المراجع

Burke, Kenneth. *Permanence and Change*. Berkeley, 1984. First published 1935.

Burke, Kenneth. *Attitudes toward History*. Boston, 1961. First published 1937.

Burke, Kenneth. *A Rhetoric of Motives*. Berkeley, 1984. First published 1950.

Craig, Edward ed., *Encyclopedia of Philosophy*, vols. 7, 8. New York, 1998.

Eliade, Mircea ed., *The Encyclopedia of Religion*, vols. 11, 13. New York, 1987.

Frankel, Marvin E. "Faith and Freedom." In *Faith and Freedom: Religious Liberty in America*. New York, 1994.

Hastings, James. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, vol. 10. New York, 1919.

Leff, Michael. "Decorum and Rhetorical Interpretation: The Latin Humanistic Tradition and Contemporary Critical Theory." *Vichiana* 3d series, 1 (1990), pp.pp. 107–126.

المصادر الأخرى

"Code of Ethics and Honor in the Crusades." http:// www.umich.edu/~eng415/ topics/chivalry/chivalry - article.html. Last modified 20 November 1997; maintained at the University of Michigan, Ann Arbor. Provides links to related sites.

تأليف: Bernard L. Brock

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

التشبيه Simile

هي كلمة إغريقية دخلت إلى اللاتينية وتشير إلى علاقة التشابه بين شيئين باستخدام أدوات التشبيه ككلمتي "مثل" وحرف الجر "ك". والمثال الذي يمكن أن نذكره فى هذا السياق هو البيت الأول من قصيدة لروبرت برنز Robert Burns "إن حبي يشبه وردة حمراء يافعة " "My luve is like a red red rose". ويتضمن هذا التشبيه المقارنة أو المقاربة بين شيئين أو مفهومين باستخدام صفة يشترك فيها كلاهما tertium comparationis. وعلى النقيض من الاستعارة (والتي عادة ما يشار إليها على أنها تشبيه محذوف منه أحد طرفيه) فإن التشبيه يشير إلى علاقة التشابه expressis verbis. وقد أثبت التشبيه أنه أداة مناسبة للتوجيه لأنه يفي بمتطلب مهم وهو الوضوح perspicuity. وتوجد كثير من أمثلة التشبيه المستخدمة فى العهد الجديد على لسان عيسى عليه السلام عند الحديث عن ملكوت السماء the kingdom of heaven. (إنجيل متى:٢٠:١) ويمكن استخدام التشبيه كشكل من أشكال الإسهاب البلاغي كما يظهر فى استخدام هوميروس Homer للتشبيه الملحمي epic simile، وفي التشبيهات البيانية كذلك فى الكتاب المقدس الواردة فى نشيد الإنشاد لسليمان (عليه السلام).

ويشير التشبيه إلى فكرة ما من خلال استخدام أكثر من كلمة ثم تتحول هذه الفكرة إلى حكاية رمزية parable على مستوى النص ككل. وإذا ما قمنا بحذف أدوات التشبيه سيتحول التشبيه إلى استعارةmetaphor أو قصة رمزية allegory، وهذا التحول يقلل من وضوح التشبيه ويزيد من غموض الصورة الجديدة المستخدمة. (انظر الأمثولة Allegory، والمحسنات البلاغية Figures of Speech، والاستعارة Metaphor).

تأليف: Richard Nate

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البلاغة السلافية Slavic Rhetoric

تختلف الدول السلافية عن الدول الواقعة فى غرب أوروبا فى التطور السياسي والثقافي والديني، وتنعكس هذه الاختلافات فى تقاليد المدارس البلاغية، وفي تطبيق مبادئ البلاغة فى الحياة العامة. ومن ثم فإن الأبحاث والدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية التي تجرى عن الثقافات السلافية يجب أن تأخذ فى الاعتبار ليس فقط الوظيفة التكاملية للبلاغة integrating function of rhetoric كلغة عالمية تعبر عن أوروبا بما فيها الدول السلافية، ولكن أيضا التأثيرات الخاصة بالدول السلافية حيث كانت البلاغة فى بداية تطورها. وبصرف النظر عن هذه الاختلافات، فإن فترة ازدهار الحركة الإنسانية شهدت وجود مراكز انتشرت منها الدراسات البلاغية التي تخطت الحواجز الأخلاقية والسياسية. وكانت الاتصالات بين التشيك والبولنديين، والبولنديين والأوكرانيين، والأوكرانيين والروس، والروس والصرب تتميز بالديناميكية الشديدة، وزاد من قوة هذه الاتصالات هجرات الطلاب والأساتذة بالإضافة إلى نشر الكثير من الكتيبات التعليمية teaching manuals، وترجمة هذه الكتيبات إلى اللغات المستخدمة فى هذه المناطق. كان هذا التواصل أحد جوانب عالمية الدراسات البلاغية cosmopolitanism of rhetoric studies التي كانت تميز الدول الأوربية فى تلك الفترة. فعلى سبيل المثال أسهمت حركة النهضةRenaissance فى إيطاليا إسهامًا كبيرًا فى نهضة كرواتيا وسلوفينيا (ومثال ذلك المؤلف فرانسيسكو باتريزى بتريسFrancesco Patrizzi - Petris ١٥٢٩ - ١٥٩٧ الذي صاغ أحد مبادئ البلاغة من أصول سلافية).

ولعله من المهم أن نلفت النظر إلى وجود تأثير ثنائي (لغوي وثقافي) فى المراحل الأولى من تاريخ البلاغة السلافية: فالمنطقة الأولى صاحبة التأثير هي المنطقة الشرقية البيزنطية والتي يظهر تأثيرها منذ نهاية القرن التاسع بشكل خاص فى بلغاريا وروسيا، والمنطقة الثانية هي المنطقة الغربية اللاتينية والتي يظهر تأثيرها منذ القرن الثاني عشر فى شكل بعض الكتيبات التي تتحدث عن بلاغة الرسائل وأساليب الوعظ (انظر البلاغة فى العصور الوسطىMedieval rhetoric)، ولكن الحدود بين المنطقتين تبدو غير واضحة المعالم. ففي بولندا وتحديدًا فى نهاية القرن السادس عشر، قامت الجامعات فى مدينتي وارسوWarsaw وكراكاوCracow وبعض المراكز الأخرى بنشر بعض التعليقات النقدية لأعمال الكثير من البلاغيين ومنهم هيرموجونيس Hermogenes، أما فى بوهيميا فقد قام جان كوسينJan Kocin بنشر أعمال هيرموجونيس مع بعض التعليقات النقدية (١٥٧٠ - ١٥٧١). ومن ناحية أخرى فقد تأثر تعليم البلاغة فى كل من أوكرانيا وروسيا بالمدارس اللاتينيةLatin schools التي تعمل فى بولندا وليتوانيا.

وأقدم الكتيبات التي كتبت فى البلاغة فى التراث السلافي عبارة عن رسالة صغيرة كتبت باللغة السلافية بعنوان **حقيقة الصور البلاغية O (On Figures) obrazěch ъ**، وهي جزء من مجلد كبير يسمى **سفياتوسلافSviatoslav** والذي يرجع تاريخه إلى عام ١٧٠٣. وهو عبارة عن نسخة سلافية (بتصرف) لأعمال المؤلف البيزنطي جورجوس كيروبوسك Georgos Kherobosk (وتشير المصادر الإغريقية إلى أن هذا الرجل عاش فى فترة ما بين القرن الرابع والقرن العاشر الميلادي). وعند ترجمة هذا الكتيب وجد أنه يشير إلى سبعة وعشرين نوعا من أنواع البديع tropes والصور البلاغية figures ولكن باستخدام التعبيرات والمصطلحات السلافية التي تقابل الأصل اليوناني. وفي شرق البلاد السلافية ظل هذا الكتيب متفردا لفترة طويلة من الزمن، بينما كان الأمر فى غرب البلاد (في بوهيميا وبولندا) مختلفًا حيث أصبحت بلاغة الوعظ والرسائل sermonic

and epistolary rhetoric جزءًا من المناهج الدراسية فى المدارس البلدية والمدارس التابعة للكنيسة، ليس هذا فحسب بل شهد عام ١٣٤٨ تطورًا جديدًا حيث أسس تشارلز الرابع Charles IV جامعة براغ وأصبحت دراسة البلاغة أحد متطلبات القبول بالجامعة prerequisite.

بوهيميا Bohemia

ترجع أقدم النصوص التي تتناول البلاغة فى بوهيميا إلى القرن الثالث عشر حينما انتقل أحد ممثلى البلاغة البولونية Bolognese rhetoric وهو هنرينكوس من مدينة إسرنياHenricus of Isernia الإيطالية إلى مدينة براج وقام بتأسيس مدرسة للكتاب Scribes' school فى كاتدرائية فيشيهراد Vysehrad cathedral. وفى عام ١٢٧٨ قام بجمع كتيب عن البلاغة بعنوان **كتابة الرسائل Epistolare dictamen** بالإضافة إلى مجموعة من نماذج لكتابة الخطابات letter - writing models. واستمر هذا التأثير خلال فترة حكم هنري الرابع من خلال الأنشطة التي قامت بها الجماعات الإنسانية Humanist circles والتي أنتجت العديد من الكتيبات والتعليقات النقدية حول البلاغة. ولكن أكثر هذه التعليقات النقدية أهمية وتأثيرا كانت تلك التي جمعها نيكولاس ديبينNicolas Dybin حول الكتاب الذى كتبه كل من إيبررهارد Eberhard وجالفريد Galfred بعنوان **فن الشعر Artes poetriae** فى النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وكان لنيكولاس ديبين علاقات وثيقة بالمدارس الموجودة فى براغPrague ودريسدن Dresden. وكانت البلاغة التي ظهرت فى فترة الحركة الإنسانية Humanist rhetoric مصدرًا للإلهام تأثر به عدد من الطلاب والباحثين الذين ينتمون إلى أصول تشيكية، والذين جاءوا إلى بوهيميا من مدارس مختلفة من عدة مدن مثل بازل Basel، ويتينبيرج Wittenberg، وستراسبورج Strasbourg، وكان الكثير من هؤلاء الطلاب والباحثين أعضاء نشيطين فى الجماعات الإنسانية، وكانت هذه الجماعات

على اتصال بالممثلين القياديين للثقافة البلاغية الأوربية من أمثال إرازموس فى روتردامErasmus of Rotterdam، وجوان فروبينياس Johann Frobenius، وفيليب ميلانشثوبPhillip Melanchthon، وجونيس ستزام Johannes Sturm (انظر مقال: حول البلاغة فى عصر النهضة Renaissance rhetoric).

وبعد عودة هؤلاء الطلاب والباحثين إلى براغ بذلوا أقصى ما فى وسعهم لنشر أفكار الشخصيات التي ذكرناها فى أوطانهم، بل حاولوا تقليدهم فى أعمالهم فى الشكل والمضمون، وكانت معظم هذه الأعمال مكتوبة باللغة اللاتينية والبعض الآخر باللغة التشيكية. ويتسم أسلوبهم الذي يسمى **novitas moderna** بتقليد أسلوب المؤلفين الكلاسيكيين والذي كان يزخر بلغة البيان figurative language، واستحداث أشكال أدبية جديدة والتوفيق بين الآراء الدينية، والعلمية، والفنية. وكانت المصطلحات البلاغية المحكمة والمكتوبة باللغة التشيكية هي أحد أهم سمات الكتيب الذي صدر باللغة اللاتينية والتشيكية تحت عنوان فن **كتابة الرسائل Ars dictandi** والذي ألفه بروكوبياس براجينسيس Procopius Pragensis المؤرخ والأستاذ بكلية الآداب ببراغ (١٤٠٠ تقريبا - ١٤٨٢).

وقد تطورت الحركة الإنسانية التشيكية تحت تأثير أفكار حركة الإصلاح الديني Reformation (انظر البلاغة فى عصر النهضة Renaissance rhetoric، المقال الخاص بالبلاغة فى عصر حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة لها Rhetoric in the Age of Reformation and Counter - Reformation)، وقد اخترقت حركة الإصلاح الديني كافة طبقات المجتمع التشيكي بسبب الراديكالية السياسية للهوسيين political radicalism of Husites (وهم أتباع أحد قادة حركة الإصلاح الكنسي جان هوسJan Hus)١٣٧٢ تقريبا - ١٤١٥) (بل إن حركة الإصلاح الديني شكلت الجوانب الأخلاقية، والتربوية، والنقدية، والقومية للحركة الإنسانية التشيكية. وقد تشابهت الحركتان فى كثير من الجوانب، فكما كان ينظر للحركة

الإنسانية على أنها إحياء للتراث الكلاسيكي، كان ينظر لحركة الإصلاح الديني على أنها إحياء للمسيحية الأولى early Christianity. كما اتفقت الحركتان على التأكيد على الحاجة إلى تفسير متأنٍ للنص الخاص بالقوانين الكنسية canonical text من أجل استخدامه للتعليم، وللإقناع فى تعبير لفظي. أما فى بوهيميا فكانت روح القرون الوسطى الأرسطية هي الغالبة على تدريس البلاغة من حيث التأكيد على دراسة الحجاج نظريًا وتطبيقيًا، وليس على الروح الإنسانية (نسبة إلى الحركة الإنسانية) التي تهتم بالبراعة الفنية للأسلوب virtuosity of style. وكان الحديث الإقناعيpersuasive speech هو إحدى أهم سمات المناظرات الجامعية، والوعظ الذي يحض على القتال combative preaching وخاصة فيما يتعلق بالبيانات الرسمية الهوستية Husite manifestoes والتي تعد أمثلة بارزة للنثر الخطابيoratorical prose الذي انتشر فى القرن الخامس عشر.

ويعد جان بلاهوسلافJan Blahoslav (١٥٢٣ - ١٥٧١) أحد أبرز ممثلي الحركة الإنسانية التشيكية، وأحد أعضاء حركة اليوتراكويست Utraquists (أحد الطوائف المسيحية) والمعروفة باسم اتحاد الإخوان Brethren's Union. وقد أنتج بلاهوسلاف المولع بفقه اللغة (والذي تتلمذ على يد ميلانشثوب وكاميرارياس Camerarius) كتابا يتناول قواعد النحو التشيكية، والذي يحتوى على عدد من الأجزاء التي تتناول البلاغة وكتابًا آخرًا هو **أخطاء الواعظ Preacher's Errors** وهو عمل مكتوب باللغة التشيكية ويركز على الأسلوب المتميز والإلقاء الرصين، وهو ما يتناقض مع المبالغات الموجودة فى العظات التي كان يلقيها الوعاظ الموجودون فى تلك الفترة. وتم العثور على مخطوطة لم تنشر حول البلاغة التشيكية يرجع تاريخها إلى الثمانينات من القرن السادس عشر للكاتب جيلينياس سوشيكىGelenius Susicky الذي كان يعمل مدرسا فى إحدى المدارس الريفية. ويتبع هذا الكاتب النموذج البلاغي الراموسى Ramist model of rhetoric (نسبة إلى راموس وهو فيلسوف إنساني فرنسي) من حيث استخدام الثنائيات dichotomies فى عرضه.

وصاحب وصول الهابسبرجيين Habsburgs إلى الحكم فى عام ١٥٢٦ وفقدان الدولة لاستقلالها فى عام ١٦٢٠ وجود حركة مضادة للإصلاح الديني أدت إلى هجرة الكثير من اليوتراكويست بما فى ذلك العديد من المفكرين. وأدت هذه الأحداث إلى ظهور ما يسمى بأدب الاغتراب exile literature، وظهر ذلك جليًا فى الأعمال التربوية لجان أموس كومينياس Jan Amos Comenius (١٥٩٢ – ١٦٧٠). وكان كومينياس يعتقد فى المفهوم الأفلاطوني الجديد الذي يقوم على أن الحوار هو أساس تعليم وتهذيب الفضائل الإنسانية، بمعنى أن يشترك الجميع فى البحث عن إجابات لأسئلة يثيرها الناس، ويعد كتابه **تقرير وكتيب الوعظ Report and Manual of Preaching** محاولة للتأكيد على مثل هذا النوع من الحوار(البناء). وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير على الكثيرين حتى على أولئك الذين كان لهم آراء مختلفة بل ومتناقضة من أمثال بوهوسلاف بالبين Bohuslav Balbin، الذي كتب كتابين فى البلاغة عامي ١٦٧٧ و١٦٨٨. وقد دفع عدم استقلال الدولة الطويل المدى جوزيف يونجمان Josef Jungmann (وهو ممثل اليقظة القومية التشيكية، ومؤلف لكتاب فى الشعر والبلاغة بعنوان **الأدب الراقي Slovesnost**) إلى القول بأن "بوهيميا لا تفسح مجالاً للخطب البلاغية أو السياسية". وفي واقع الأمر فإن نفس الكلام والمنطق كانا ينطبقان على سلوفاكيا. وفى كتابه **الخلاصة الجمالية Compendium Aestheticae** (١٨٢٦) ضم جريجس Greguss فصلاً قصيرًا عن فن البلاغة، والتي كان يراها تعتمد فى المقام الأول على أسس أخلاقية ethical grounds.

بولندا Poland

تأسست جامعة كراكاو Cracow University فى بولندا مهد البلاغة فى عام ١٣٦٤. وكان انتشار تدريس العلوم الثلاثة trivium (وهي البلاغة والنحو والمنطق) فى كلية الآداب هو خلاصة جهود بعض المدرسين

والخريجين الذين ينتمون إلى الحركة المضادة للإصلاح الديني، وإلى جامعة تشارلز Charles University فى براغ من أمثال إرازموس من مدينة نيسا Erasmus of Nysa، وألبرت من مدينة ملودزو Mlodzow، وفرانسيس من مدينة بريزج Francis of Brezeg، والذين تركوا براغ أثناء الحروب الهوستية بحثاً عن أوضاع آمنة تناسب اجتهاداتهم التربوية والعلمية (انظر كلمة العلوم الثلاثة Trivium). وتأسس قسم القواعد وفن الشعر والبلاغة فى كراكاو عام ١٤٠٦. وكان تدريس البلاغة يقوم على توجهين واضحين: الأول يقوم على الترجمة اللاتينية التي قام بها موربك Moerbecke لكتاب **البلاغة Rhetoric** الذي كتبه أرسطو والذي كان يعتبر دليلاً لتدريس الفلسفة العملية practical philosophy، والأخلاقيات التطبيقية applied ethics، والنظرية السياسية political theory، أما التوجه الثاني فكان يقوم على رأى شيشرون فى البلاغة على أنها فن الكلام المنمق. وقد قام بعض الكتاب بنشر بعض الكتب التي هي فى واقع الأمر عبارة عن مجموعة من الخطابات النموذجية model letters من أمثال سيوليك Ciolek فى كتابه **Liber cancelariae** الذي يعود إلى القرن الخامس عشر. والدليل على انتشار الروح الشيشرونية هو الكتيب البلاغي الذي أصدره جان ستول Jan Stoll الذي ينتمي لمدينة جلوجاو (النسخة الوحيدة الباقية يرجع تاريخها إلى الفترة من ١٤٣٥ وحتى ١٤٤٢)، بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى، مثل الكتاب الذي أصدره جون لودزيسكو John Ludzisko تحت عنوان **فن كتابة الرسائل De arte dictaminis** وهو عبارة عن مجموعة من الخطابات الدبلوماسية diplomatic letters التي كتبت فى الفترة من ١٤٦٠ وحتى ١٤٦٧ فضلاً عن التعليقات النقدية العديدة والمتنوعة على الأعمال الكلاسيكية. أما قائمة أسماء مناصري الروح الشيشرونية فى نهاية القرن الخامس عشر فتضم أسماء مثل جان جرزيمالا Jan Grzymala صاحب كتاب **De origine et vi eloquentiae** وجان أورسن Jan Ursyn صاحب كتاب **Modus epistolandi** (١٤٩٦).

ومع ظهور أعمال كل من لورنزو فالاLorenzo Valla وإرازموس فى بداية عصر النهضة، بدأت أوروبا كلها فى إدخال بعض التعديلات على المدخل البلاغي الإنساني الذي يقدس أعمال شيشرون. وكان لهذا التوجه تأثيره على حركة البلاغة فى بولندا، وخاصة فى الجدل الذي دار بين كل من جاكوب جورسكى Jakub Górski (١٥٢٥ تقريبا - ١٥٨٥) وبنيديكت هربستBenedykt Herbest (١٥٣١ - ١٥٩٨) حول الجملة الطويلة المعقدة التركيب كوحدة من وحدات الكلام.

وقد شجع موقف جورسكى الليبرالي من هذا الموضوع على وجود تقليد خلاق للنماذج الأدبية الكلاسيكية، بينما كان لهربست موقفاً صارمًا (مبنى على مصادر بيزنطية) يقوم على الاتباع الصارم للقواعد النحوية والدلالية والعروضية. وقد انتشرت آراء جورسكى، ومهد هذا الانتشار الطريق لظهور الكثير من الأعمال القيمة المكتوبة باللغة اللاتينية والتي عبرت عن عصر النهضة فى بولندا وعن الحقبة الباروكية Baroque period (وهو أسلوب أدبي ساد فى القرن السابع عشر واتسم بالتعقيد والصور الغريبة الغامضة). وفى القرن السابع عشر زاد عدد المدارس البلاغية وخاصة المدارس اليسوعيةJesuit schools. واتسمت رؤية هذه المدارس للبلاغة بسمات باروكية تميل إلى التأنق والتكلف. وتضم قائمة المؤلفين المتميزين الذين ينتمون لهذه المدارس أسماء مثل ميخائيل راداو Mikhail Radau، وزيجمونت لوكسمين Zygmunt Lauxmin، وبارتولوميج كيكرمان Bartolomiej Keckermann الذي ألف كتابًا فى عام ١٦١٤ تحت عنوان **النسق البلاغي Systema rhetoricae**.

وتنتمي أعمال ماسيج كازيميرز ساربيوسكى Sarbiewski Maciej Kazimierz (١٥٩٥ - ١٦٤٠) إلى الروح الباروكية والتي تظهر بوضوح فى الأدب الإسباني اليسوعي Spanish Jesuit literature الذي كتبه بالتاسار جراشيان

Baltasar Gracian والذي يتسم بالصور المعقدة، وألوان الحجاج. وكان ساربيوسكى قد تأثر بشكل كبير بأعمال جان كوتشانوسكى Jan Kochanowski، والذي تعد أعماله درة التاج فى الشعر الباروكي البولندي. ويركز ساربيوسكى فى كتبه الذي كتبها عن البلاغة على الفطنة (البلاغية)acumen ومؤداها الخرق الواعي للسنن والقواعد اللغوية من أجل جذب انتباه القراء أو المستمعين لإثارة دهشتهم ومشاعرهم. وعلى النقيض من العناصر المثيرة للعاطفة pathos التي ميزت الأسلوب الباروكي، روّج الكتاب الذي كتبه ستانيسلو كورنارسكى Stanislaw Konarski عام ١٧٦٧ باللغة اللاتينية عن البلاغة للتوجه الكلاسيكي (ممزوجا بروح الأفكار التي سادت فى عصر التنوير Enlightenment)، وأكد على أهمية التوفيق بين اللغة والأفكار.

أوكرانيا وروسيا

تميز ظهور البلاغة ثم تطورها بعد ذلك فى كل من أوكرانيا وروسيا بالجمع بين مصدرين متنافرين: المصدر الغربي اللاتيني والمصدر البيزنطي اليوناني، وأكبر مثال على هذا الصراع هو الجدل الحاد التي احتوته الرسائل المتبادلة بين القيصر إيفان الرهيب Ivan the Terrible كأحد مناصري السلطة المطلقة، والكونت أندرى كوربكسى Andrey Kurbskii فى الفترة ما بين عام ١٥٦٣ و١٥٦٤، والفترة ما بين عام ١٥٧٧ وعام ١٥٧٩. وكانت خطابات كوربكسى والذي كان ينتمي للطبقة الأرستقراطية الروسية القديمة تتميز بالأسلوب الشيشروني الرفيع، بينما كانت خطابات القيصر تتسم بالبلاغة البيزنطية التي كانت تجمع بين التعبيرات العامية الأدبية والسوقية فى الوقت نفسه.

وتطورت دراسة البلاغة فى روسيا تحت تأثير فكرة أن موسكو هي روما الثالثة Moscow as the third Rome، ويظهر ذلك جليًا فى الرسالة التي بعثها الراهب فيلوفي Filofei للقيصر فاسيلي الثالث Vasilii III عام ١٥١٦. ويرى مروجو هذه الفكرة أنه بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية، وانتهاء سيطرة الإمبراطورية الرومانية على العالم المسيحي، أصبحت روسيا هي مركز القيادة للقضايا العلمانية والروحانية. ونجح كل من القياصرة والبطاركة فى روسيا فى خلق نوع من التقارب مع أوروبا الغربية بمساعدة أوكرانيا والسلافيين البلقانيين Balkan Slavs على وجه الخصوص. وبدأ التأثير الغربي فى الانتشار من بولندا وليتوانيا وأوكرانيا، ثم زاد هذا التأثير خاصة بعد عام ١٥٦٤ بعد انتصار روسيا على بولندا ودخولها فى وحدة مع أوكرانيا. ولكي تقوم بدورها على أكمل وجه، بدأت روسيا فى إجراء إصلاحات كنسية واسعة.

ولكن سرعان ما واجه مؤيدو الإصلاح الديني الذي تقوده الدولة مقاومة شديدة، وخاصة من المؤمنين القدامى Old Believers الذين كانوا يرون الإصلاحات الجديدة بمثابة تهديد لرجال الدين التقليديين، وللطرق الروسية الراسخة لنشر العقيدة المسيحية. وبدأ بروتوبوب أفاكومProtopop Avvakum (١٦٢٠ تقريبا - ١٦٨٢) وهو أحد المتحدثين البارزين باسم حركة المقاومة فى حث الجماهير على عدم الانسياق وراء فن الخطاب art of speech ولا الفلسفة؛ "لأن أهل البلاغة والفلسفة ليسوا من أتباع المسيحية". كما استنكر بشدة تدريس العلوم الثلاثة؛ لأنها تعطينا "حكمة خارجية فى زي تنكري مصنوع ببراعة".

ويعود أول كتاب كتب فى البلاغة فى روسيا وهو الذي كتبه الأسقف مكاري Bishop Makarii إلى عام ١٦٢٣. ويظهر التأثير الواضح للنماذج

البولندية التي كتبت باللاتينية Polish models على هذا الكتاب الصغير الذي يبلغ عدد صفحاته ستة وستون صفحة. وتعد لغة هذا الكتاب بمثابة تنقيح للغة السلافية المستخدمة في الكنائس، والتي تستخدم أيضا في الأوساط الثقافية. وظهر هذا الكتاب في طبعات عديدة منقحة بعد ذلك.

وقد انتشرت الكثير من المراكز التي تدرس البلاغة في كل من روسيا وأوكرانيا، ولعل أشهرها أكاديمية موهيليانMohylian Academy بكييف، وكلية أخرى في مدينة تشيرنيجو، وكلتاهما من المدارس اليسوعية البارزة. وعد فيوفان بروكوبوفيتشFeofan Prokopovich (١٦٨١ - ١٧٣٦) (وهو أحد المؤيدين للإصلاحات التي أدخلها بطرس الأكبر Peter the Great) خير من يمثل الأدب الوعظي الشرعي homiletic،juridical literature ، والذي كان نتاجا لهذا المناخ. ويعد كتابه أول كتاب كامل عن البلاغة يظهر في روسيا، ويستعرض كافة تفاصيلها، بناءً على معرفة عميقة بالمؤلفين الكلاسيكيين. وأصبحت النسخة الوجيزة المكتوبة باللغة الروسية والتي ظهرت عام ١٧٢١ وثيقة رسمية لعصر بطرس Petrine period. وقد نشرت هذه النسخة ليستخدمها الوعاظ، والمحامون والدبلوماسيون.

وكانت الأكاديمية السلافية الإغريقية اللاتينية إحدى المراكز التي كانت تقوم بتدريس البلاغة في موسكو، وكانت المناهج التي تدرس تشبه كثيرا تلك التي تدرس في المدارس اللاتينية الغربية. وكانت البلاغة تدرس في هذه الأكاديمية طبقا للقواعد التي وضعها كوزان Caussin، وسواريز Suarez، وبروكوبوفيتش Prokopovich، كما كان يتم تدريس الكتاب الذي كتبه فيدور كويتنيكيFedor Kwetnickii بعنوان **Glavis poetica** والمنشور عام ١٧٣٢ كمدخل للعلوم الثلاثة. وكان الكتّاب في تلك الفترة يميلون إلى استخدام أسلوب يعكس ولعهم بالزخرفة اللفظية الباروكية Baroque ornamentation،

ويظهر ذلك جليًا فى شعر سيمون بولوتسكى Simeon Polotskii. وقد وصلت إلينا نسخة مكتوبة لقواعد البلاغة باللغة اللاتينية كتبها راهب أوكراني اسمه بور فيري كريسكى Porfyrii Kraiskii، وظلت هذه النسخة فى حوزة العالم الروسي إم. فى. لومونوسوفM.V. Lomonosov.

وتعد مدينة نوفجرود الكبرىGreater Novgorod المركز الثالث لتدريس البلاغة، وهي المكان الذي كتب فيه إيوانيكى جولياتوفسكى Ioannikii Golyatovskii كتابه عن البلاغة فى عام ١٦٥٣؛ وفتح هذا الكتاب الباب للعديد من الكتب التي كتبت عن البلاغة بعد ذلك باللغة الروسية، وأبرز مثال لهذا التوجه ما كتبه لومونوسوف وتابعيه، ومنهم على سبيل المثال وليس الحصر إم إم سبيرانسكي M.M. Speranskii الذي كتب كتاب **قواعد الفصاحة الراقية The Rules of High Eloquence** فى عام ١٨٤٤.

وفى القرن الثامن عشر حلت اللغة الفرنسية مكان الروسية فى تلك المدارس التي تنتمي إليها الصفوة الروسية المثقفة. وقد أيد إيه سوماروكوف A. Sumarokov وهو ممثل الكلاسيكية الروسية استخدام اللغة الفرنسية؛ فقد كان يرى أن الأدب الروسي يجب أن يتقبل القواعد الكلاسيكية وهو ما يصل به إلى مكانة الأدب الفرنسي. وعلى النقيض من هذا فإن كاتبًا مثل إم فى لومونوسوف M.V. Lomonosov (١٧١١ - ١٧٦٥) كتب كتابًا عن البلاغة الروسية (فى نسختين إحداهما كاملة والأخرى موجزة فى عامي (١٧٤٢ - ١٧٤٨) يؤيد فيه أن مصدر إلهامه تمثل فى شيشرون والأعمال المترجمة للمؤلفين اللاتينين. وهذا التوجه الكلاسيكي للكتاب - على الرغم من وجود كثير من العناصر الباروكية - قد لعب دورًا كبيرًا؛ لأن لومونوسوف من الشعراء الكبار المتميزين الذين ينظر إليهم بعين الاحترام والتقدير.

نهضة البلاغة فى الثقافة الروسية فى القرن العشرين

ولا شك أن إحدى النتائج البارزة للدور الاجتماعي الذي لعبته البلاغة فى التاريخ الثقافي لروسيا تمثل فى أن الخطوات الأولى لنهضة البلاغة فى العشرينيات قام بها أعضاء فى المدرسة الشكلية الروسية Russian formalist School من أمثال ياكبسون Jakboson، وفى إم بريكV.M Brik، وفى شكلوفسكي V. Shklovskii وغيرهم. وكان الهدف الأساسي لهؤلاء الكتاب هو تحديد الفارق بين لغة الشعر poetic language، واللغة العملية practical language. ولا شك أن البلاغة كانت مصدر إلهامهم فى الإجابة على سؤالين وهما: أي الصور البلاغية أو المحسنات البديعية التي تسهم فى تشكيل وظيفة النص؟ وما هو مدى تأثير هذه الأدوات على القارئ أو المستمع؟

وقاموا أيضا بدراسة أعمال بعض الشعراء الروس من أمثال مياكوفسكي Mayakovskii وخليبينكوفKhlebnikov، بالإضافة لدراسة أشكال أخرى من الخطاب. كما أعلنوا عن الحاجة إلى إدخال بعض الإصلاحات على تدريس البلاغة لمواكبة التطورات التي طرأت على هذا المجال، وأوضحوا أن بساطة روايات تولستوي Tolstoy، وخطب لينين Lenin السياسية تخفى وراءها فكرًا عميقًا. لم تدم فترة توهج المدرسة الشكلية الروسية Russian formalist school طويلاً بسبب القمع السياسي، ولكن تأثيرها ما يزال واضحًا فى أعمال الكثير من العلماء وخاصة ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (١٨٩٣ - ١٩٧٥). ويظهر إيمان باختين بفكرة الحوار وتعدد الأصواتpolyphony فى بعض أعمال دوستويفسكي Dostoyevski حيث تظهر بوضوح المواجهة والصراع بين الأصوات المتعددة للشخصية (الواحدة)، وهذا يذكرنا بفكرة الحجاج البلاغي rhetorical argumentation التي وردت فى كتاب **utramque partem**. وكانت أفكار باختين مصدرًا للإلهام لكل من جوليا

كريستيفا Julia Kristeva وتزفيتان تودوروفTzvetan Todorov وهما من المنظرين الأدبيين الفرنسيين المعاصرين من ذوى الأصول البلجيكية ويظهر هذا جليا فى أعمالهم عن التناص intertextuality كأحد المفاهيم الأساسية للبلاغة الحديثة modern rhetoric.

(انظر أيضا البلاغة المقارنة Comparative rhetoric).

قائمة المراجع

Cracraft, J. "Feofan Prokopovich." In *The Eighteenth Century in Russia*, edited by J. G. Garrard, pp.pp. 75–105. Oxford, 1973.

France, P. "Rhétorique et poétique chez les formalistes russes." Rhetorica 6 (1988),pp.pp. 127–136.

Jaffe, S. P. "Nicolaus Dybinus' Declaracio oracionis de Beata Dorothea." In *Studies and Documents in the History of Late Medieval Rhetoric*. Wiesbaden, Germany, 1974.

Kraus, J. *Rétorika v evropské kultuře* (Rhetoric in European culture). Prague, 1998.

(يقدم هذا الكتاب تاريخًا عامًا للبلاغة، فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية خاصة من صفحة ١٦٤ وحتى ١٦٧)

Lachmann, R., ed. Die Makarij - Rhetorik. In Rhetorica Slavica, Vol. 1 Cologne - Vienna, 1980.

(توجد نسخة من هذا العمل الذي قام به مكارى Makarii فى تلك المجموعة المختارة المعنونة **Undol'skii** والموجودة فى مكتبة موسكو، وتحتوى هذه النسخة على تعليق تفسيرى مطول)

Lachmann, R., ed. *Prokopovič Feofan, De arte rhetorica libri X. Rhetorica Slavica*, Vol. 2. Cologne - Vienna, 1982.

(ويضم هذا الكتاب تعليقًا مفصلاً للمحرر)

Lachmann, R. *Die Zerstörung der schönen Rede. Rhetorische Tradition und Konzepte des poetischen* (Essays on the history of Russian and Polish rhetoric and poetics.) Munich, 1994.

(ويضم هذا الكتاب قائمة ببليوجرافية ثرية)

Lichański, J. Z. *Retoryka od średniowiecza do baroku*. Warsaw, 1982.

(يعرض هذا الكتاب تاريخ البلاغة البولندية فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية)

Murav'ev, M. N. *Institutiones rhetoricae*, edited by A. Kahn. Oxford, 1995.

(يقدم محرر هذا الكتاب عرضا توضيحيًا لتاريخ البلاغة الروسية فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية)

Piccio, R., and H. Goldblatt, eds. *Aspects of the Slavic Language Question*. 2 vols. New Haven, 1984.

Retoryka v XV stuleciu. *Studia nad tradycjami, teoria i praktyką retoryki piętnastowiecznej*, edited by M. Frankowska - Terlecka. Warsaw, 1988.

(يقدم هذا الكتاب عرضا توضيحيًا لتاريخ البلاغة البولندية فى القرن الخامس عشر، ومستخلصات بالفرنسة لبعض المقالات، فضلاً عن قائمة ببليوجرافية ثرية)

Tříška, J. *Pražská rétorika*. Prague, 1987. Prague rhetoric, with bibliographical data.

تأليف: Jiří Krause

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

المعرفة الاجتماعية Social Knowledge

يقصد بالمعرفة الاجتماعية الحكمة التقليدية لثقافة ما، كما يظهر جليًا فى الممارسات البلاغية الكائنة، وبعبارة أخرى فإن المعرفة الاجتماعية هي محصلة ما يمكن أن نسميه بالثقافة البلاغية rhetorical culture ويوجد الكثير من المفاهيم والأفكار التي تشبه كثيرًا فكرة المعرفة الاجتماعية مثل فكرة doxa عند الإغريق (وهي تعنى الاعتقاد أو الرأي الشائع)، وفكرة sensus communis عند الرومان)، وتشير إلى مجموعة الافتراضات غير المعلنة، والقيم التي يسلم بها الخطباء عند مخاطبة الجماهير)، وهو ما يشبه أو يتقاطع مع بعض الأفكار المعاصرة مثل "الرأي العام"، و"الرؤية السياسية"، و"الوعي الأخلاقي". وتعد هذه المفاهيم من العناصر الأساسية فى البلاغة القديمة والحديثة على حد سواء. وبالطبع يجب أن نلفت النظر إلى أن الحكمة التقليدية غير معصومة fallible، بل يمكن أن تقع فى أخطاء كارثية، ومن ثم فإن السؤال الذي يشغل بال الطلاب الذين يدرسون البلاغة يتعلق بمكانة هذه الحكمة التقليدية، والحد الذي يمكن معه الاعتماد عليها. بمعنى ما هي فائدة المعرفة الاجتماعية للفنون العملية practical arts، وهي تلك الفنون التي تستدعى التروي عند الحكم عليها؟ سوف نحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال استعراض وجيز لمكانة الحكمة التقليدية فى أصول الممارسات البلاغية، ويلي هذا استعراض معاصر لبعض المشاكل والقضايا التي تتعلق باستخدام المعرفة الاجتماعية.

وعلى الرغم من المحاولات المتكررة لإضفاء جو من الغموض على عالم البلاغة، فإننا نعتقد – وبناءً على الكثير من الآراء العلمية – أنه يمكن تحديد ظهور البلاغة فى فترة تاريخية محددة، وعلى وجه التحديد فإن ظهور البلاغة يرتبط بظهور التاريخ نفسه بمعنى ظهور أشكال الكتابة والتدوين (ذاكرة التاريخ)

لأحداث ما نسميه نحن اليوم الحضارات الكلاسيكية classical civilizations. فحينما تحولت الحقائق الثقافية cultural truths إلى جزء من الأساطير أو السلطة المطلقة (التي لا يجوز تفنيدها)، ووافق الجميع على هذا الوضع، أصبحت ممارسة من قبيل البلاغة لا يُسبر غورها، كما هو الحال فى بعض الثقافات الموجودة إلى يومنا هذا. وقد أدت الخلافات فى (وجهات النظر) إلى وجود الحروب، والنفي السياسي، والإعدام، وهذه الأشياء تحولت بدورها إلى مادة خصبة للأساطير وسلطة الكهانة التي ظهرت بعد ذلك.

وتظهر البلاغة فى الفكر السوفسطائى فى بدايته مع الشك المتعجرف والساخر المتعلق بفكرة أن الحقائق الثقافية هي فى جوهرها مجموعة من الأعراف الغير معصومة من الذلل والخطأ. والمدهش أن البلاغة السوفسطائية (كما يظهر فى كتاب **مديح هيلين Encomium of Helen** لجورجياس Gorglas، وكتاب **الحقيقة Truth** لبروتاجوراس Protagoras، وحتى كتاب **التبادل Antidosis** لإيزوقراط Isocrates) ترى الأسطورة كنوع من العرف، أو شكل من أشكال الأمثولة، أو إحدى وسائل الإيضاح.

ويرتبط صراع البلاغة وهي تشق طريقها إلى الوجود بعلاقة متضاربة ومتناقضة ambivalent مع الأعراف والتقاليد الثقافية وخاصة تلك التي تتعلق بالجمهور. وقد أعلن معلمو البلاغة الأوائل عن قدرة البلاغة على السيطرة على آراء الجماهير حتى تلك الآراء التي تتعلق بالأمور المقدسة sacrosanct (مثل الدفاع عن هيلين). ومن أجل أن تتحول البلاغة إلى علم راسخ، ومن ثم يمكن تعليمها للآخرين، ظهرت الحاجة إلى أسلوب ملائم يعتمد عليه، ويمكنه أن يحتوى تلك الأفكار الراسخة التي أصبحت جزءًا من الحياة اليومية للناس. ولا شك أن وجود أسلوب حازم قد أعطى للبلاغة القدرة على تحدى عالم السحر والأساطير، والخروج منه.

كان الفلاسفة الأوائل فى التراث الغربي هم أول من أحسنوا استغلال ذلك التوتر القائم بين البلاغة والأعراف والتقاليد الثقافية. فقد استطاع السوفسطائيون المتجولون itinerant Sophists فهم الأعراف والتقاليد الثقافية للعديد من الدول المدن city - states، وأيقنوا أن كثيرًا من هذه التقاليد والأعراف مختلفة تمام الاختلاف، بل إن بعضها غير مناسب لحياة الناس. أما أولئك الفلاسفة الذين كانوا يسعون وراء الحقيقة المحضة من أمثال سقراط (٤٧٠ ق.م تقريبا – ٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٨ ق.م تقريبا – ٣٤٧ ق.م تقريبا) فإن البلاغة بالنسبة لهم ما هي إلا شيء هلامي، أو فن زائف يعلم أشياء مختلفة لأناس مختلفين بلا فائدة مرجوة فى نهاية الأمر. والسؤال الذي ما زال مطروحًا إلى يومنا هذا هو: هل علينا أن ننقاد إلى تلك القناعات العامة التي نرثها من ثقافاتنا، أو هي التي يجب أن تقودنا، وخاصة حينما تتعلق المسألة بقضايا عملية كقضية الاختيار، والإبطال، والسلوك الجمعي؟

قادت كل هذه الاتهامات التي وجهت للبلاغة (والتي ذكرناها آنفا) فيلسوفًا ومصلحًا كبيرًا كأرسطو (٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م) إلى أن يقول بأن هذه الاتهامات هي ذاتها التي توجه إلى قدرة المتعلمين والمثقفين على التعرف على الخبرات المشتركة وعلى التعلم منها، والتأمل فى فحواها. وإذا ما نزعنا هذه القدرة من البلاغة، قد تنعم البلاغة ببعض القوة، ولكنها ستفقد ثقلها الأخلاقي. ولعل هذا هو السبب الذي دفع أرسطو إلى القول بأن البلاغة هي فى جوهرها أسلوب رفيع grand method للتساؤل والتأثير، وهي بذلك تكمل الدور الذي يلعبه الجدل (انظر مادة الجدل Dialectic). ففي دفاعه الشهير عن البلاغة، يبدو أن أرسطو كان يرى كل اتهامات أفلاطون ماثلة أمام عينيه. فقد دافع عن اتهام البلاغة بأنها بلا محتوى ملموس بقوله إن البلاغة تتناول الأمور التي تهم الناس، وهي تلك الأمور التي تظهر فيها

وجهات النظر الشائعة بينهم (وهي نوع من المعرفة الشائعة أو الحكمة التقليدية). وعلى الرغم من أرسطو قد دافع بشكل مباشر وواضح عن تهمة أن الحكمة التقليدية قد يشوبها الذلل والخطأ، فيمكن أن نستنتج من دفاعه أنه كان يرى أن الحكمة التقليدية أقرب ما تكون إلى الحقيقة. ومزج أرسطو بين أشكال مختلفة من المبادئ العقلية وبين الحكمة التقليدية ليشكلا معًا الأشكال البلاغية التي تهدف إلى الإقناع بناءً على الاستدلال وإصدار الأحكام (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والاستدلال Inference، والحكم Judgment، والمبدأ العقلاني – العقل Logos).

ومن المستحيل أن نتناول فى هذه السطور القليلة الطرق العديدة التي اقترحها أرسطو فى كتابه **البلاغة Rhetoric** حول كيفية تحويل ما شاع بين الناس (من حكمة وفكر وآراء) إلى قالب أو شكل بلاغي. وإذا ما أردنا أن نعرف المزيد من التفاصيل حتى تكتمل الصورة فيجب أن نذكر الخطين الرئيسيين للتفكير العقلي فى البلاغة وهما: الاستدلال البلاغي rhetorical deduction والاستقراء البلاغي rhetorical induction من ناحية والقياس الإضماري enthymeme والشاهد القصصي exemplum (انظر القياس الإضماري والشاهد القصصي). والخطان يناقشان المقدمات المنطقية المتعارف عليها بين الجمهور. فأدوات مثل الأدلة والبراهين والاحتمالات، والأمثلة، والنماذج تعد وسائل إقناعية تفي لاختبار الخبرة المعتادة للجماهير. ويرى أرسطو الخطاب التشاوري deliberative discourse كأرقى أشكال البلاغة؛ لأنه يخاطب الجماهير على أنهم أفضل من لديه القدرة على الحكم على اهتماماتهم (انظر نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre) ولعل أبرز ما يميز تحليل أرسطو هو اعتماده بشكل كبير على وجود وجهات نظر وآراء متفق عليها من الجميع. وانتهى أرسطو فى تحليله المفصل لكل عناصر البلاغة وأدواتها إلى أن البلاغة فن عملي ومنتج.

ولا شك أن ما تركه أرسطو من فكر فى كتابه **البلاغة** قد أثار العديد من التساؤلات، وأثار روح التحدي عند كل من جاء بعده سواءً الذين نظروا للبلاغة، أو الذين مارسوها. وأهم هذه الأسئلة على الإطلاق هو السؤال الذي أثرناه فى بداية هذا المقال وهو: إلى أي مدى يمكن الاعتماد على الأعراف والتقاليد الثقافية فى توجيه الرأي العام، وحثه على اتخاذ إجراء ما؟ ولا شك أن الإجابة على هذا السؤال ليست أمرًا يسيرًا. فالأولويات التي نتخلى عنها فى سبيل احترام القوانين واللوائح تتبع من نفس هذه الأعراف والتقاليد التي نحن بصدد الحديث عنها. ومن ثم يمكننا أن نقول إن البلاغة هي مثل اللغة تمامًا باعتبارهما أمرين لا مفر من اللجوء إليهما inescapable، والاستعانة بهما.

ولكن إذا كان اللجوء إلى البلاغة أمرًا لا مفر منه، فمازالت الأسئلة حول أولوية استخدامها، وطبيعة المهمة المنوطة بها عند مناقشة الأمور العامة مثيرة للجدل والنقاش. فعلى سبيل المثال حاولت حركة التنوير Enlightenment فى كل من بريطانيا وأسكتلندا أن "تزاوج" ما بين مبادئ البلاغة وبين التوجه الجديد الذي ينظر إلى النفس البشرية من منظور علمي. وقد شاعت البلاغة كنظرية لفترة من الزمن، ولكن استخدام البلاغة بشكل مؤثر قد اقتصر على المنابر، وفى جلسات مجلس اللوردات House of Lords. وقد واكب خفوت الاتجاه الذي كان ينظر إلى النفس البشرية من منظور علمي انسحاب البلاغة إلى بعض المجالات مثل فن الخطابة والإلقاء elocution، وعلم الأساليب stylistics، وفنون المحاكاة imitative arts التي كانت ضمن اهتمامات الطبقة المرفهة. وفى نفس الوقت شن أولئك الذين كانوا يمارسون البلاغة فى ثوبها القديم old rhetoric حربًا كلامية حول كثير من القضايا المهمة والتي لم تحسم مثل قضية الحرب والسلام، والرق والعبودية، والانتخابات وحق الاقتراع (انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth century rhetoric).

ويوجد بالطبع العديد من التفسيرات المحتملة لذلك الانفصال التاريخي الذي حدث بين البلاغة كنظرية أكاديمية، والبلاغة كممارسة مدنية مزدهرة. ولكن الشيء الذي يعطى البلاغة بعض الأمل فى بعث جديد لها هو تلك المكانة التاريخية المذبذبة للمعرفة الاجتماعية كأحد المصادر التي يلجأ إليها الناس. فحيث كانت الطموحات المشتركة، والمصالح المتبادلة، والرموز المتداولة، والقضايا الحية، فثم وجه البلاغة. ومثل هذه المواقف – قديمًا وحديثًا – تتطلب استخدام اللباقة وحسن القول، والذان لا يتأتيان إلا فى الوجود الواضح للبلاغة.

وقد شهدت السنوات الأخيرة محاولات عدة "لجمع الشمل" بين ممارسة البلاغة، وبين المعرفة العامة public knowledge التي يمكن الاعتماد عليها. وقد حاولت الكثير من الدراسات التي أجريت فى عدة مجالات مثل علم الاثنوجرافيا، وعلم الانثروبولوجيا النظرياة النقدية والحجاج تحقيق هذا الهدف، وسعت البلاغة بالطبع إلى أن تحدد الملامح المميزة للمبادئ الثقافية cultural precepts التي يمكن أن يكون لها دور فاعل فى ممارسات الناس الخطابية civic discourse practice، ولكن العجيب والغريب أن تلك السمات التي تميز المعرفة الاجتماعية هي ذاتها السبب فى وجود عراقيل شديدة تقف فى وجه إحياء دور هذه المعرفة فى البلاغة التي يستخدمها الناس، ويلجأون إليها.

فأولا، اتسمت المعرفة الاجتماعية بأنها نوع من الإجماع بين الجماهير يمكن أن يستخدم فى البلاغة، ولكن الأمر أبعد من هذا بكثير، بمعنى أن المعرفة الاجتماعية قد ينظر باعتبارها ما نتخيل أننا اتفقنا عليه، من أجل تقديم الحجة. وهذا التعريف أو التوصيف قد يكون مفيدًا بقدر ما يساعد على توجيه انتباهنا إلى تلك المسلمات التي تتعلق بالاستدلالات البلاغية المقبولة فى المقام الأول. وهذه السمة تؤكد على حقيقة مهمة وهي إغفال دور البلاغة كمصدر للتاريخ الاجتماعي، وكسجل للمسلمات التي آمنت بها الثقافات قديمًا فى أوقات تاريخية مختلفة.

ولكن رغم أن هذه السمة تعد إحدى السمات المميزة للمعرفة الاجتماعية، فإنها هي نفسها التي فتحت الباب للهجوم من قبل تيارين فلسفيين يبدو فى الظاهر أنهما مختلفان تمام الاختلاف. فالتيار الوضعي للعلوم الاجتماعية يرى أن القول بأن المعرفة الاجتماعية هي غرس ثقافي بعيد تمام البعد عن الحقيقة، وبناءً على أسس تجريبية يرى هذا التيار أن هذا الرأي خيالي imaginary بالمعنى السلبي للكلمة. وبالتالي فمن السهل علينا أن نعيد تقديم تلك السمعة السيئة للبلاغة التي أرساها السوفسطائيون بقولهم إن البلاغة تقدم للجمهور ما يسهل عليهم تصديقه. ومن وجهة نظر التيار الثاني (وهو تيار سياسي) فإن الماركسية العلمية Scientific Marxism قد قامت بدحض تهمة مشابهة لهذه التهمة. ويعترف هذا التيار بأن حقائق وبديهيات وتقاليد المعرفة الاجتماعية ليست حقيقية بالنظرة المادية للأشياء، وهذه الحقائق والبديهيات والتقاليد تؤكد على أهمية "الروتين" الثقافي cultural routine بشكل "روتيني" بل وتتحول إلى نوع من المصادر المعيارية التي تدعم النظام الاجتماعي كما نعرفه. ويتحدى هذا التيار أهل البلاغة المناصرون للمعرفة الاجتماعية مؤكدًا على أنها أكثر من مجرد وعي زائف، أو أنها مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي تناسب الميل (السيئ) للحداثةmodernity .

ويوجد الكثير من الآراء التي ردت على هذين التيارين، ولا يتسع المجال هنا لذكرها، ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن الهجوم نادرًا ما كان يصدر من "الحلفاء الفلسفيين أو الأكاديميين" academic and philosophical allies للبلاغة. ومن ثم فإن تنوع مثل هذه الاتهامات وحدتها يسهم بلا شك فى التأكيد على تلك العلاقة الراسخة بين مثل هذه القواعد المعرفية والبلاغية.

والسمة الثانية المهمة - والمثيرة للجدل - التي تتسم بها المعرفة الاجتماعية هي تلك التي تتعلق بالتناقض الواضح مع نوع آخر من المعرفة

التقنية technical knowledge ولم يستند الاختلاف بين هذين النوعين من المعرفة فى يوم من الأيام على اعتبارات معرفية (بمعنى المكانة الفعلية للمعرفة الاجتماعية كنوع من المعرفة) وإنما على العلاقات الوظيفية بين أنواع المعرفة والنظام الاجتماعي. فالمعرفة التقنية كان ينظر إليها دائمًا على أنها نوع من الخبرة المتخصصة المقصورة على فئة قليلة مدربة. وهذا النوع من المعرفة لم يكن يتطلب موافقة ضمنية من الجمهور كي يتم تطبيقه بشكل مؤثر، وهو نوع من الخبرة مطلوب فى كل المجتمعات على حد سواء. وعلى الجانب الآخر توجد مجموعة من الحقائق الاجتماعية social facts، وهى مجموعة من الأشياء التي اتفق عليها الناس، وهي أشياء لا يستطيع أي نظام اجتماعي أن يبقى بدونها، مثل آداب اللياقة، واحترام القواعد والقوانين فى الرياضة (وفى الحياة)، واحترام الناس لحق كل إنسان فى أن يحصل على دوره فى أي حوار...إلخ. وهذه القواعد لا يكتشفها الإنسان بمفرده، بل يتعلمها، وإما أن يطبقها، أو ينتهكها، كما أنها تمثل مجموعة من السنن والمعايير البلاغية rhetorical norms التي لا غنى عنها لأي مجتمع.

ولم تنج المجموعة الثانية من الفروق من الاتهامات التي تستند بشكل كبير على أسس معرفية. وتدور الاتهامات حول أن الفرق بين المعرفة الاجتماعية، والمعرفة التقنية هو فرق صرف أكثر من اللازم بمعنى أنه إما أنه يحول كل المعرفة إلى معرفة اجتماعية (بما فى ذلك المعرفة العلمية)، أو يجعل الأمور تبدو غير دقيقة إذا ما قام أحد بفصل نوع معين من المعرفة عن النقد الثقافي وهو الغرض من وراء القول بمثل هذا الفرق. ويبدو أن هذا الفرق يضع المعرفة التقية تحت ما يمكن أن نسميه بالواقعية الوضعية positivist realism والتي استخدمت فيما سبق للهجوم على المحتوى الذي تقدمه البلاغة.

وليس من الغريب أن نذكر أنه يوجد العديد من الردود على هذه الاتهامات أيضا، ولكن لا يتسع المجال هنا لذكرها وبالطبع فإن الشبح الذي يختبئ وراء كل هذه الخلفيات هو ذلك الاعتداء المشئوم الذي قام به المشروع التقني على كل ما هو اجتماعي. وإذا أردنا أن نتحدث بشكل أعم فيمكن القول بأن الاتجاه المتصاعد لدى الأنظمة المستحدثة modernized systems فى القرن العشرين هو رؤية المزيد من القضايا التي يمكن تصنيفها تحت ما يسمى بأولويات النظام، وهي تلك الأولويات المعقدة والتي لا يستطيع عامة الناس فهمها أو سبر أغوارها. ولذلك فإن أولئك الذين تساءلوا حول مصداقية الفرق بين المعرفة الاجتماعية والمعرفة التقنية رأوا أن مثل هذا التعريف هو تعريف محكم يجيز تلك الفجوة المعلوماتية التي لا تزال قائمة information gap the still - ongoing.

وتوجد طريقة أخرى أقل تشاؤمًا لكي نقرأ مثل هذه الازدواجيات المصطنعة artificial dualities، والتي هي فى واقع الأمر مجرد وصف لتوتر وربما لجدل دائر، يميز الحداثة نفسها فى مرحلتها الأخيرة. فالمعرفة التقنية لها منعتها ضد النقد. وعلى الجانب الآخر فإن العرف الاجتماعي عادة ما ينظر إليه على أنه من الأشياء التي عفا عليها الزمن archaic، كما أن وجوده لم يعد ضروريًا إذا كنا بصدد الحديث عن السيطرة المؤثرة. والأمل المرجو فى اعتماد البلاغة على المعرفة الاجتماعية إنما يرتبط بقضية التعامل مع الجماهير، بمعنى أن يقوم هذا التعامل على الإنسانية، والمبادئ، والعدل، وأن يقوم هذا التعامل مع ما يعرفه كل شخص، وليس مع البدائل التي يمكن التنبؤ بها foreseeable alternatives. (انظر الابتكار Invention)

قائمة المراجع Bibliography

Aristotle. *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*. Translated with commentary by George A. Kennedy. New York, 1991.

(يعد هذا الكتاب أول دراسة شاملة لعلاقة البلاغة بالمعرفة الاجتماعية)

Brown, Richard Harvey. *Society as Text: Essays on Rhetoric, Reason, and Reality*. Chicago, 1987.

(يقترح Brown في هذا الكتاب بعض الطرق التي تفرز بها التخصصات العلمية الأكاديمية نوعًا من المعرفة يعد موردًا للحياة المدنية)

Farrell, Thomas B. "Knowledge, Consensus, and Rhetorical Theory." *The Quarterly Journal of Speech* 62 (1976), pp.pp. 1–5.

(يحاول كاتب هذا المقال تعريف المعرفة الاجتماعية ووصف وظائفها البلاغية)

Farrell, Thomas B. *Norms of Rhetorical Culture*. New Haven, 1993.

(يعد هذا الكتاب محاولة لاكتشاف أسس تفسير تأييد الجماهير والحكم عليه)

Gitlin, Todd. *The Twilight of Common Dreams: Why America is Wracked by Culture Wars*. New York, 1995.

(يعد هذا الكتاب نداءً بلاغيًا لاستعادة الإحساس بالجماهير فى السياسة المعاصرة)

Schaeffer, John D. *Sensus Communis: Vico, Rhetoric, and the Limits of Relativism*. Durham, N.C., 1990.

(يعد هذا الكتاب محاولة لاكتشاف تراث المعرفة الاجتماعية فى فترة ما بعد عصر النهضة فى إيطاليا)

Walton, Douglas. *Appeal to Popular Opinion*. Pennsylvania University Park, 1999.

(يعيد هذا الكتاب النظر فى فكرة القبول لدى الجماهير من وجهة نظر برجماتية ديالكتية)

Winch, Peter. *Trying to Make Sense*. New York, 1987.

تأليف: Thomas B. Farrell

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الحركات الاجتماعية Social Movements

أصبح رفض المواطنة الأمريكية الزنجية روزا باركس Rosa Parks للجلوس فى آخر إحدى الحافلات فى مدينة مونتجمري Montgomery بولاية آلاباما Alabama فى عام ١٩٥٥ رمزًا لشجاعة وتصميم المواطنين الزنوج العاديين فى صراعهم لكسر أصفاد التفرقة العنصرية المؤسسية والمقننة فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الممكن أن نوسع نطاق هذا السياق بحيث نجعل مدينة مونتجمري جزءًا من الكفاح العالمي لحقوق الإنسان، واستمرارًا لجهود الزنوج من أجل التحرر منذ أيام الرق، أو صورة مصغرة لذلك الصراع الذي استمر لقرون عدة من أجل فكرة المساواة بين البشر.

ولا شك أن لكل وجهة نظر وجاهتها واحترامها، إلا أن كثيرا من الناس الذين يدرسون الحركات الاجتماعية يميلون إلى دراسة فترة تاريخية محدودة وهى تلك التي تمتد من عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٧٠، وهى الفترة التي ازدهرت فيها حركة المطالبة بالحقوق المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية. وحتى دراسة تلك الفترة تنطوي على مصاعب وهو ما لاحظه ليلاند جريفن Leland Griffin الذي أخذ يحض علماء البلاغة على جمع المادة العلمية المطلوبة لإجراء دراسة شاملة لتلك الحركة، وهذه المادة لا تقتصر فقط على نصوص الخطب الفردية لقادة الحركة، بل تتعدى لتشمل نوعيات الجمهور المختلفة، وكيف اختلفت هذه الرسائل باختلاف التيارات المتغيرة في تاريخ الحركة (انظر مقال ليلاند جريفن المعنون " بلاغة الحركات

التاريخية "The Rhetoric of Historical Movements والمنشور فى دورية الخطاب الربع سنوية **Quarterly Journal of Speech** العدد ٣٨ سنة ١٩٥٢ الصفحات من ١٨٤ – ١٨٨).

ولا جدال أن الحركة الاجتماعية هي فى جوهرها حركات جماهيرية تحركها قضية ما، فقد يكون هدف الحركة هو مناصرة أيديولوجية معينة مثل تلك التي تطالب بالمساواة فى الحقوق، أو تنفيذ برنامج عمل واضح مثل القضاء على التفرقة العنصرية. وهذه الأهداف تتحقق فى فترة ممتدة من الزمن، بالإضافة إلى أن هذه الحركات تبحث دائمًا وأبدًا عن كيفية خروج تأثيرها فى الخارج إلى عموم الجماهير، وهو ما يختلف عن بعض الجماعات الأخرى المتقوقعة على ذاتها مثل جماعة مراقبي ويت Weight Watchers.

وتشير معظم التعريفات للحركات الاجتماعية إلى أنها حركات غير مؤسسية تخرج فى معظم الأحوال والأحيان عن الاتجاه أو الفكر السائد فى الدولة، فمثلا فى تلك الحادثة التي رفضت فيها روزا باركس الجلوس فى آخر الحافلة، فإن أفكار هؤلاء النشيطين الذين قادوا الحركة، وأفعالهم والمنظمات التي ينتمون إليها كان ينظر إليها بعين الريبة وعدم الشرعية داخل المجتمع الذين هم جزء منه. بل إن المثل الذي يبدو أكثر قسوة هو ما حدث فى ميدان تيانانمن Tiananmen Square (بوابة السماء) فى الصين فى ربيع ١٩٨٩ حينما خرج مئات الآلاف من طلاب الجامعات الصينية للمطالبة بالحريات، وهو ما يشبه احتلال بعض الطلاب الأمريكان للسوق المجاور لنصب واشنطون التذكاري Washington Monument. ومن ثم فإن هذه الحركات الاجتماعية ينظر إليها على المستوى الرسمي على أنها حركات جماهيرية غير مؤسسية تسعى إلى إحداث تأثير خارجي (على بقية المجتمع) فيما يتعلق بقضية ما، وحركة المطالبة بالحقوق المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية هي أبلغ مثال على مثل هذه الحركات.

وقد شملت الحركات الاجتماعية المطالبة بالحقوق المدنية للزنوج فى الولايات المتحدة فى الستينيات من القرن الماضي الحركات الآتية: مؤتمر القيادات المسيحية الجنوبية Southern Christian Leadership Conference(SCLC) (والتي كان يرأسها مارتن لوثر كينج Martin Luther King (١٩٢٩ - ١٩٦٨)، واللجنة التنسيقية السلمية الجنوبية Southern Nonviolent Coordinating Committee (SNCC)، ومؤتمر المساواة بين الأجناس Congress on Racial Equality (CORE)، والجمعية الوطنية لتنمية الملونين

National Association for the Advancement of Colored People (NAACP)

(انظر البلاغة الأفرو - أمريكية African - American rhetoric، المادة المتعلقة بالقومية الزنجية Black Nationalism). ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن ليس كل من توحّد مع هذه الحركة وساندها كان ينتمي لإحدى هذه المنظمات، ولكن وجود هؤلاء الأشخاص هو الذي أعطى الحركة كيانها بل ووجودها الحقيقي. وإذا نظرنا نظرة ضيقة للقضية التي أوجدت حركة المطالبة بالحقوق المدنية فلا شك أنها كانت قضية إلغاء التمييز العنصري فى القوانين، ولكن النظرة الأشمل تشير إلى قضية أكبر وهى إلغاء كل أشكال هذا التمييز.

كانت حركة المطالبة بالحقوق المدنية فى الستينيات من القرن الماضي غير مؤسسية من أوجه ثلاثة: أفكارها، وأفعالها، ومنظماتها. فقد كان المناهضون لهذه الحركة فى الجنوب يرون معارضتها لنظام الفصل العنصري بمثابة الاعتداء على طريقتهم التقليدية فى الحياة. فقد كان ينظر بعين الاحتقار والازدراء لأساليب الحركة فى المواجهة مثل الاعتصام عند طاولات الطعام فى المطاعم التي كانت تطبق الفصل العنصري. وتعدت هذه النظرة فى الشمال إلى بعض أولئك الذين كانوا يؤيدون أهداف الحركة حيث كانوا يرون أن مثل هذه الأساليب غير قانونية ومستفزة. وكانت منظمات

الحركات الاجتماعية التي تؤيد هذه الحركة تحظى بدرجات متفاوتة من الشرعية، فقد كانت الجمعية الوطنية لتنمية الملونين تحظى بقدر كبير من الاحترام بسبب أساليبها المحافظة، وطول بقائها كمنظمة. وعلى النقيض من هذه الجمعية كان أعضاء اللجنة التنسيقية السلمية الجنوبية يجدون متعة كبيرة لهذه المكانة الجديدة داخل الجنوب "الأبيض".

ولا شك أن الحركات الجماهيرية يمكن أن تحظى بأي شكل من أشكال المؤسسية فمثلا تحظى المنظمة القومية للمرأة (NOW) National Organization for Women بقدر كبير من الاحترام فى المجتمع؛ لأنها دائما ما تشترك فى أنشطة أو ممارسات نادرًا ما ينظر إليها على أنها خروج عن الاتجاهات السائدة فى المجتمع، على الرغم من أن الأجندة النسائية بعيدة كل البعد عن الشكل المؤسسي (انظر البلاغة النسوية Feminist rhetoric)، وفى نفس السياق تحظى الرابطة الوطنية للبندقية National Rifle Association (NRA) بقدر كبير من القبول داخل المجتمع على الرغم من أنها تبذل جهودًا كبيرة لمناهضة الاتجاه الذي يريد فرض حظر على حيازة الأسلحة، وهي قضية جدلية كبيرة داخل المجتمع الأمريكي، ومع ذلك ينظر إليها على أنها جزء من حركة اجتماعية.

الرؤى البلاغية للحركات الاجتماعية:

Rhetorical Perspectives on Social Movements

تتناول بلاغة الحركات الاجتماعية بشكل كبير فكرة الوكالة أو الوساطة فى الكفاح الذي تقوده هذه الحركات، بمعنى دراسة ما يقوله أو يفعله ممثلو هذه الحركات (و ما تقوله القوى المناهضة لهم) من أجل تحقيق ذلك الاختلاف في العالم من حولهم. وتؤكد البلاغة على الاتجاه الذي يهدف إلى إحداث تغيير اجتماعي مخطط وممنهج أكثر من ذلك التغير الاجتماعي غير المخطط أو الممنهج، وهو عادة نتيجة لبعض العوامل التي ترجع إلى تركيبة المجتمع

ذاته، والتي تخرج عن نطاق سيطرة أي فرد أو جماعة. وتميل الرؤى البلاغية للحركات الاجتماعية (سواء كان أصحابها من علماء البلاغة أو علماء الاجتماع أو المؤرخين) إلى التأكيد على فكرة الوكالة الاجتماعية أو التمثيل الاجتماعي فى مواجهة التأثيرات القسرية للعنف أو القوة الاقتصادية. وتميل هذه الرؤى أيضا إلى النظر إلى الإنسان على أنه قادر على إحداث الاختلاف من خلال اختياره لكلماته وأفعاله الرمزية وصولاً لتغيير المسلمات والأفكار فى المجتمع كمفهوم الأسرة والعنصر والعشيرة والأمة، بل امتد الأمر إلى إعادة رؤية الشرور، والأعداء، والمشكلات والقضايا كأبنية بلاغية تعبر عن فكر الحركة، وباعتبارها وسائل إقناع للجماهير.

ويمكننا ضمناً أن نقول إن الحركات الاجتماعية والحركات المضادة لها والمؤسسات المختلفة كلها مشغولة أساسا بالصراع حول المعنى (انظر مؤلف ستيوارت Stewart وسميث Smith ودينتون Denton الصادر عام ١٩٩٤). ويتفق علماء الاجتماع والمؤرخون الين يرون الحركة تناضل بلاغيا، يميلون إلى المشاركة فى تحليلات البلاغيين الأسلوبية فى التركيز على ديناميكية صناعة المعنى؛ أي كيف ينتقى ممثلو الحركات الاجتماعية وسائل إقناع معينة من بين الكثير من وسائل الإقناع الموجودة، وكيف تتغير الحيل البلاغية من وقت إلى آخر وكيف يتحول الصراع بين القوى المتعارضة إلى صراع رمزي، وكيف يحقق الواقع الذي تحول إلى رمز أهدافا أخرى، وكيف يتحكم ممثلو الحركات فى الاختيارات البلاغية المختلفة ويفرضونها على الجماهير (انظر جاسبر Jasper ١٩٩٧).

ويشترك علماء البلاغة المعنيون بدراسة البلاغة المتعلقة بالحركات الاجتماعية مع النشطاء فى تركيزهم على فكرة الوكالة أو التمثيل، فمثلا من الصعب أن نتخيل قائدًا لإحدى الحركات النسائية يؤمن أن تحرير المرأة أقل قيمة، من الناحية البلاغية، من بعض الأمور الأخرى مثل الحاجة للعمالة النسائية أثناء الحرب العالمية الثانية.

أشكال الحركات الاجتماعية Types of Social Movements

تختلف أهداف الحركات الاجتماعية بشكل بيّن، كما تختلف في الوسائل التي تتبعها من أجل تحقيق أهدافها. فمثلا تسعى الحركات الإصلاحية Reformist movements إلى تمرير قوانين معينة، أو إلى تطبيق أفضل لقوانين محددة، أو إلى التخلص من بعض المسؤلين الفاسدين، وأبلغ مثالين على مثل هذا التوجه الحركة التي تطالب بالحقوق المدنية، وتلك التي تطالب بحرية حيازة السلاح. أما الحركات الثورية Revolutionary movements فتذهب إلى مدى أبعد من ذلك من حيث السعي إلى استبدال أيدلوجيات أو مؤسسات بأخرى، وأحيانا السعي إلى استبدال النظام الحاكم برمته من خلال اقتراح مبادئ أخرى للحكم. بل إن هذه الحركات عادة ما ترتبط بالتهديد باستخدام القوة أو استخدامها بالفعل (مثال الثورة الأمريكية)، ولكن يجب الإشارة إلى أنه توجد بعض الثورات السلمية peaceful revolutions مثل تلك التي حدثت في بولندا في عام ١٩٨٩.

أما حركات المقاومة Resistance movements فهي لا تؤيد عادة التغيير بل تريد بقاء الوضع على ما هو عليه (مثال: الحركة التي تطالب بحرية حيازة السلاح the anti - gun control movement)، فمثلا الحركة التي تؤيد الإجهاض Pro - choice movement تطالب باعتمادات فيدرالية للنساء الفقيرات لمساعدتهم على الإجهاض وهي بذلك تعد حركة إصلاحية، بينما تعد حركة الحق في الحياة pro - life movement والتي تناهض فكرة الإجهاض حركة مقاومة أما الحركات الإحيائية Restorative movements فتهدف إلى العودة إلى أسلوب قديم للعيش، ولكنه أفضل مما هو موجود الآن. فالقضية التي تتبناها حركة الهوية المسيحية Christian Identity movement تعيد إلى الأذهان بلاغة الكراهية rhetoric of hate تجاه الأقليات في الولايات المتحدة والتي كانت

موجودة فى الماضي على يد ما كان يعرف بمجالس المواطنين البيض White Citizens Councils وجماعة جون بيرتش John Birch. وتعتبر الحركة التي أسسها ماركس جارفى Marcus Garvey العودة إلى أفريقيا (Back to Africa) إحدى الحركات الإحيائية.

وأخيرا يأتي الحديث عن الحركات التعبيرية expressivist movements والتي تسعى لتغيير الأفراد أكثر من تغيير المؤسسات أو القوانين بشكل مباشر، وتعد الجماعات التبشيرية مثل جماعة المحافظين على الوعد Promise Keepers أحد أهم الأمثلة على هذا النوع من الحركات. ويؤمن المنتمون لهذه الحركة أن مؤسسات المجتمع صنعها أفراد، وبالتالي يمكن أن تتغير هذه المؤسسات بنفس الطريقة التي يتغير بها الأفراد. ومن أهم أفكار هذه الحركة إيمانهم بالمسئولية الفردية.

ومن المهم أن نلفت النظر أن مسألة تصنيف الحركات الاجتماعية بهذه الطريقة ليست أمرًا سهلاً دائما بسبب النزاعات الداخلية حول الأهداف والوسائل بالإضافة إلى التغيرات التي تطرأ على الأهداف والاستراتيجيات. فمثلا الحركة النسوية feminism قد حققت تغيرًا اجتماعيًا كبيرًا من خلال العلاقات التي تقوم على اللقاء وجها لوجه، سواءً تم الإعلان عن هذا التغير الاجتماعي فى السياسة العامة للحركة أم لا.

وسائل الحركات الاجتماعية Tactics of Social Movements

لا شك أن الحركات الاجتماعية عادة ما تختار مجموعة من الوسائل المنتقاة والتي تتناسب مع المكان والزمان مثل تنظيم المظاهرات الجماعية ضد الممارسات الإدارية، ونادرًا ما يحدث هذا فى المجتمعات الأوتوقراطية ولكنه شائع فى المجتمعات الديمقراطية. هذا بالإضافة إلى وجود بعض

الأساليب الأخرى مثل القيام بعمليات إعدام رمزية لتماثيل بعض الشخصيات فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإنجلترا، إلا أن هذا الأسلوب عفا عليه الزمن ولم يعد شائعًا.

ومن جهة أخرى تعتمد بعض الحركات على المناشدات اللفظية، بينما تعتمد بعض الحركات الأخرى على مزيج من إبداء النصح، وتنظيم المظاهرات، بينما يميل النوع الثالث إلى التهديد واستخدام القوة. ولكن الثابت بين كل الحركات أنها تعتمد على أساليب المواجهة لعرض قضاياهم وهذا ما يقوم به المحتجون فى الشوارع، ولكن الحركات التي تتبنى التغير الأيدلوجي - أو مقاومة التغير الأيدلوجي فى أحيان أخرى - تستخدم أساليب ومناورات سياسية تعبر عن ثقافتها.

المواجهة Confrontation

إذا ما عدنا بالذاكرة إلى المظاهرات التي نظمها الطلاب الصينيون فى ميدان بوابة السماء عام ١٩٨٩، فلسوف نكتشف أن بعضهم قد أضرب عن الطعام، ولم يكن هناك طالب واحد يعلم ما هي اللحظة التي سوف تضرب فيها الحكومة الصينية بيد من حديد. فإذا أراد الإنسان أن يوصل رأيه للآخرين فلا يوجد أكثر تأثيرًا من وضع جسده على المحك.

ويرى السيد توماس شيلينج Thomas Schelling (وهو أحد المنظرين لفكرة الصراع) أنه يوجد فرق بين إلقاء الخطب، وبين اتخاذ خطوات فعلية، فاتخاذ الخطوات لا شك يؤدى إلى تغيير قواعد اللعبة مع الاستعداد لكل النتائج والتكاليف. وفي هذا الصدد يقول شيلينج " الكلام رخيص أما الفعل فمكلف" (انظر كتاب شيلينج **استراتيجية الصراع Strategy of Conflict**).

فالتحركات التي قام بها المتظاهرون فى ميدان بوابة السماء كانت بلا شك أشكالاً للمواجهة، وهي تعيد للأذهان تلك الاعتصامات والمظاهرات التي سادت الجامعات الأمريكية فى نهاية الستينيات من القرن الماضي. وكانت بعض المواجهات سلمية فى جوهرها، بينما كان البعض الآخر عنيفاً، ولكن الهدف الذي كان يجمع بين كل هذه المواجهات هو لفت الانتباه، وتأصيل الفكرة التي تقوم على الفعل الذي يجمع بين التعبير الشفهي وأساليب الضغط.

ويعمد المشاركون فى هذه المواجهات إلى انتهاك متعمد للقواعد والقوانين التي تحكم المؤسسات سواءً كانت مكتوبة أو غير مكتوبة وبتركيز شديد على تلك المحظورات أو التابوهات taboos التي يعتبرها المحتجون قيمًا كاذبة وممارسات غاشمة لهذه المؤسسات، بهدف إحراج هذه المؤسسات وإجبارها على تقديم تنازلات، وهذا بلا شك يعد محنة وورطة لهذه المؤسسات؛ لأن قمع هذه المواجهات سوف يشوه الصور الليبرالية لهذه المؤسسات ويؤجج نار الاحتجاجات. كما أن السماح بمثل هذه الانتهاكات للقانون سوف يفسح الطريق أمام انتهاكات أخرى تهز صورة السلطة والانضباط داخل المؤسسة.

وعادة ما تعد المؤسسات بالاستماع الجيد لمطالب المحتجين مع مطالبتهم باستخدام وسائل أكثر اعتدالاً للتعبير عن رأيهم، ولكن يذهب هذا كله أدراج الرياح حين يقوم من يمثل هذه المؤسسات بقمع هذه المواجهات ومعاقبة المحتجين. وعلى الرغم من نجاح هؤلاء الممثلين للمؤسسات من احتواء هذه المواجهات ولو مؤقتا، فإنهم- وبغباء لا يحسدون عليه - يؤكدون صورتهم كأنذال villains.

السياسيات الثقافية Cultural Politics

عادة لا تحدث المواجهات بين الحركات وتلك المضادة لها فى الشوارع والطرقات. فعلى سبيل المثال اندلعت مواجهة أطلقت عليها الصحافة اسم الحروب الثقافية بين مجموعات تطالب بليبرالية القيم الاجتماعية liberalization of social values (اليسار الثقافي cultural left) وأخرى تقاوم ما تراه انحلالاً أخلاقيًا (المحافظين الاجتماعيين social conservatives). وقد حاول أنصار بعض التيارات مثل تيار التعددية الثقافية وتيار الحركات النسوية وبعض التيارات الأخرى التي تنتمي لليسار الثقافي إحداث بعض التأثير والتعديل على المناهج الدراسية. وفي المقابل قام المحافظون الاجتماعيون ردًا على هذه المحاولات بتشكيل حركات مضادة تمارس ضغوطا من أجل وجود رقابة على الكتب الدراسية من ناحية ومن أجل تحجيم الاعتمادات المالية الفيدرالية لهذه المجموعات من ناحية أخرى. ويحاول بعض المحافظين الاجتماعيين العودة بالولايات المتحدة إلى ما يظنونه زمن المجد والسؤود، وهو الزمن الذي سبق منع الصلاة فى المدارس، ولم تكن المحكمة العليا قد أقرت فيه بشرعية الإجهاض.

هذه المعارك الأيديولوجية لا تدور رحاها فى الشوارع – كما ذكرنا آنفًا– بل فى المؤسسات والهيئات مثل المؤسسات المختصة بالتمويل الفيدرالي، والجامعات، وشبكات الأخبار (وخاصة التليفزيونية منها) والسينمات، والكنائس، ومراكز الصحة العقلية، والمحاكم. ففي المحاضرات التي تتناول الدراسات الخاصة بالمرأة يركز من يقوم بإلقاء هذه المحاضرات على تحرير عقلية الطلاب من الأيديولوجية الذكورية patriarchal ideology، والتي تقوم على أن الذكر هو الذي يجب أن يكون مصدر السلطة والسيطرة دائما. وفي قاعة دراسية أخرى وربما فى نفس الجامعة نجد أستاذًا فى الفلسفة ممن

ينتمون لحركة المحافظين الاجتماعيين يهاجم ما بعد الحداثة، والتفكيكية، والنسبية الثقافية وبعض التحديات الفكرية الأخرى التي تواجه الإيمان التقليدي لدى الثقافة الغربية بالمنطق والموضوعية والمعنى والأسلوب العلمي. وهذه الأمور كلها ما هي إلا مناوشات لبعض الحروب الثقافية فى عالم اليوم ولكنها توضح ماهية المناورات السياسية الثقافية التي تعد فى واقع الأمر محاولة من كل الجبهات والتيارات للتأثير على فكر أيديولوجي معين من خلال المؤسسات مثل المدارس والتي لا تعد غالبًا من ضمن وسائل وأدوات الدعاية فأساليب المناورات السياسية الثقافية لا تقتصر فقط على تجميع الأنصار، ولكنها تمتد للسيطرة على ما يقحم للتلميذ فى الكتاب الدراسي، أو ما يتم إدخاله فى البرامج التليفزيونية. بالنسبة لمشاهدي التليفزيون، أو ما يشاهده زوار المتاحف من أعمال فنية...إلخ.

الاحتجاجات الاجتماعية ووسائل الإعلام Social Protests and Mass Media

إذا كانت السياسيات الثقافية تعتمد بشكل كبير على وسائل التسلية التليفزيونية لكي توصل رسالة ما، فإن المناورات السياسية التي تقوم على المواجهة التقليدية، والتي تتبناها بعض الحركات الاجتماعية تعتمد وبشكل أساسي على التغطية الإعلامية وخاصة من خلال قدرة التليفزيون على الوصول إلى أكبر قدر من المشاهدين من خلال وجود مساحة من الجذب الدرامي (اقرأ كتاب جيتلينGitlin **العالم كله يشاهد The Whole World is Watching**) وهذا الانتباه يؤدى بدوره إلى جذب المزيد من الأنصار للحركة، كما يدفع بأولئك المتعاطفين مع الحركة إلى تقديم المزيد من الموارد والدعم. وكلما زاد حجم الحركة، وزاد عدد المظاهرات وتأثيرها، كلما زادت التغطية الإعلامية، وهذا بالطبع يزيد من عدد الذين يدعمون الحركة. ومن هذه الناحية فإن للجذب الإعلامي دورًا يجب أن يعود بالفائدة على الحركات الاجتماعية.

ولكن سلطان وسائل الإعلام ومدى انتشارها هما مشكلة لكثير من الحركات المعاصرة، وخاصة تلك الحركات التي تهدف إلى إحداث إصلاحات كبيرة فى المجتمع. ويرى جيتلين أن الحركات الإصلاحية والثورية يجب أن تلتزم بقواعد اللعبة الإعلامية وإلا سوف يكون مصيرها الرفض والإهمال. وهذه القواعد الإعلامية فى كثير من النواحي هي القواعد التي تحكم ثقافة المجتمع ككل، وتقضى هذه القواعد بعدم المساس بالمصالح الأساسية للنخبة السياسية، والحفاظ على قواعدهم السائدة للحكم. ومن ثَم فإنه على الرغم من أن الدولة نفسها تكون مسئولة عن الكثير من المساوئ والفساد، فإنه يجب أن ينظر إليها دائمًا على أنها القادرة على القضاء على هذه المساوئ وعلاج الفساد الموجود.

الحركات الاجتماعية القيادية: مدخل إلى المتطلبات، والمشكلات، والاستراتيجيات

سنتناول فيما يلي الإطار العام للحركات الاجتماعية القيادية، أو محاولة تحليل تحركات وخطب هذه الحركات من وجهة النظر البلاغية النقدية، ولكن علينا فى البداية أن نرسخ المفاهيم الآتية:

١ - يجب أن ينطبق على الحركة معيار مهم وهو أنها حركة مؤسسية جماهيرية. وهذه السمة تشكل المتطلب البلاغي لكي نصف هذه الحركة بأنها قيادية.

٢ - وجود صراعات بين المتطلبات البلاغية يخلق ما يمكن أن نسميه مشكلات بلاغية rhetorical problems.

٣ - وهذا يؤثر بدوره على قرار اتخاذ الاستراتيجية البلاغية المناسبة rhetorical strategy.

ولا شك أن الاختبار الأولى لأي شخص يمكن أن نصفه بأنه قائد للاستراتيجيات التي يستخدمها هو دراسة قدرة هذا الشخص على الوفاء بمتطلبات الحركة من خلال التخلص من المشكلات البلاغية، أو على الأقل التقليل منها.

المتطلبات Requirements

لا شك أن المتطلبات الوظيفية الأساسية لأي حركة اجتماعية تكمن فى القدرة على خلق حالة من الحراك للموارد البشرية والمادية لخلق تأثير خارجي، وزيادة المقاومة للضغوط المضادة. وهذه المتطلبات لا تختلف عن تلك التي تواجه قادة المؤسسات الجماهيرية كالمؤسسات التجارية الكبيرة والجهات الحكومية. فعلى سبيل المثال يجب على المديرين فى شركة جنرال موتورز توظيف وتدريب وتشجيع الموظفين، وعليهم أيضا أن يزيدوا من الموارد المادية وحسن توظيفها فى صناعة السيارات وعربات النقل. وعلى نفس المنوال يجب على قادة الحركات الاجتماعية تشجيع وتوظيف وتجنيد النشطاء، كما يجب عليهم زيادة الموارد المادية (ونقصد بذلك المال).

كما يجب على شركة جنرال موتورز تسويق منتجاتها من السيارات (وهو ما يمثل القدرة على التأثير الخارجي)، وهزيمة المنافسين (وهو ما يمثل مقاومة الضغوط المضادة)، يجب أيضًا على قادة الحركات الاجتماعية الترويج للقضية التي تتبناها الحركة، والتعامل مع المعارضة التي تلقاها من الحركات المضادة (مثال: الحركة المؤيدة للإجهاض فى مقابل حركة الحق فى الحياة)، أو من الحركات الأخرى التي تنظر إلى الحركة على أنها تمثل تهديدًا لها.

المشكلات Problems

لا تستطيع الحركات الاجتماعية تحقيق هذه المتطلبات في معظم الأحوال بسبب استراتيجياتها الداخلية، ومكانتها داخل المجتمع، وهذا ينطبق تمامًا على الحركات التي تفتقد إلى نوع من الشرعية. وإذا ما قارنا بين قادة المؤسسات الرسمية المعترف بها (مثل جنرال موتورز) وقادة الحركات الاجتماعية، فيجب أن نلفت النظر إلى أن لهؤلاء القادة (قادة الحركات الاجتماعية) سيطرة داخلية محدودة على الحركات بينما يواجهون في الوقت نفسه مقاومة خارجية ضخمة. وإذا كان قادة المؤسسات التجارية الضخمة يستطيعون زيادة الإنتاج من خلال المكافآت الملموسة وفرض الجزاءات، فإن الحركات الاجتماعية هي حركات جماهيرية تعتمد على الالتزام الأيدلوجي والاجتماعي. وعلاوة على ذلك فإن الحركات الاجتماعية قد توجد خارج إطار مفاهيم المجتمع لمعنى العدل والواقع، ومن ثَم ينظر إليها على أنها مصدر تهديد للعقوبات والمحظورات التي يمكن أن يفرضها المجتمع عليها بقوانينه وأعرافه وأذواقه، ومصادر سلطته. ليس هذا فحسب بل إن قادة هذه الحركات الاجتماعية مطالبون بالقيام بمهام وظائفهم الداخلية والتي تلقى دائمًا معارضة خارجية، كما أنهم مطالبون بالحصول على دعم خارجي على الرغم من أنهم مجردون من وسائل السيطرة التي تتسلح بها المؤسسات الرسمية. كما يجب على قائد أي حركة اجتماعية الدفاع عن موقعه من خلال إقامة التوازنات بين الأمور التي تهدد موقعه، وتهدد الحركة بشكل عام.

وكثير من المشكلات التي ذكرناها آنفا تشكل محنًا للقادة، فمن ضمن ما تطالب به المؤسسات أن يتمكن قادتها من التواصل الدقيق مع كل المستويات لإظهار كفاءتهم في إدارة هذه المؤسسات والقدرة على التعبير بأسلوب يتسم بالاستمرارية والتوقع. وهذا يختلف بالطبع عن الحركات الاجتماعية، حيث يجب عقد التوازنات بين قول الحقيقة وبين الحاجة إلى جذب مزيد من

الأعضاء وبين رد الهجوم الذي يشنه خصوم الحركة. كما يجب السعي إلى وجود توازنات بين الكفاءة المؤسسية وبين رغبات الأفراد المتطوعين (يمكن إجبار بعضهم على الطاعة والبعض الآخر يدفع له) لتحقيق الإشباع والرضا الشخصي والطموحات الفردية. كما يجب وجود توازن بين الاستمرارية الإيدلوجية وبين الحاجة إلى التوافقات البرجماتية pragmatic adaptations.

ولا شك أن الحركات الاجتماعية قابلة للتفكك من داخلها أو للقهر من خارجها، فداخل تنظيمات هذه الحركات تظهر الصراعات بين الفصائل المختلفة حول بعض القضايا والتوجهات مثل اختيار الاستراتيجيات والتكتيكات وطرق التطبيق...إلخ. فالمثاليون purists والبرجماتيون pragmatists يتصادمون عند الحديث عن مزايا الحلول الوسطى والتسويات. والأكاديميون والنشطاء يتجادلون حول أهمية التخطيط البعيد المدى، والآخرون يدخلون هذه الصراعات إما لتصفية حسابات شخصية أو تدفعهم مصالح خفية. ويجب دعوة الجماعات التي سبقت وجود الحركة إلى الانضمام لما لها من نفوذ على الرغم من مواقفها الأيدلوجية المتنافرة.

هذه الاختلافات وغيرها يمكن أن تنعكس على مستوى القيادة أيضا، فنادرًا ما نجد قائد حملة أو حركة يستطيع أن يتعامل مع كل الأدوار القيادية المطلوبة منه، أو أن يقوم بكل المهام الموكلة إليه. ومن هنا تظهر الحاجة الشديدة لوجود أنماط مختلفة من القادة كالمنظرين، وأولئك الذين يقودون الحملات الدعائية، وآخرون يهتمون بالأمور السياسية، وفريق رابع يهتم بالأمور البيروقراطية. وقد يوجد نوع من الشقاق أو التضارب بين الذين يملكون السلطة، وأولئك الذين يمتلكون سحر الشخصية والقبول الذي يأسر قلوب الناس، وأيضا أولئك الذين يتمتعون بقدرات خاصة، وأولئك الذين لديهم مصادر خاصة للتمويل والنفوذ خارج الحركة.

الاستراتيجيات Strategies

إذا كانت أي استراتيجية تمثل محاولة لتحقيق مجموعة من المتطلبات المتنافرة، فهذا يعنى أن أي استراتيجية لا تحقق الرضا الكامل. وعلاوة على ذلك فإن كل استراتيجية تخلق نوعًا جديدًا من المشكلات البلاغية أثناء محاولة حل المشكلات البلاغية القديمة.

المعتدلون والمقاتلون Moderates and Militants

يمثل المعتدلون العقل والتحضر والرقى فى طريقة احتجاجهم على السياسات والممارسات المؤسسية. لا شك أنهم يغضبون ولكنهم لا يصرخون، يصدرون منشورات ولكن لا يصدرون بيانات رسمية باعتراضاتهم، يتمردون على العادات الاجتماعية ولكنهم لا يتجاوزون فى لغة خطابهم، وعدوهم الأول هو أوضاع معينة أو مجموعة من السلوكيات أو جماعة منبوذة، وليس الأشخاص الذين يحاولون التأثير عليهم. وهذه النوعية من (المعتدلين) لديهم دائما فضيلة الاستماع لصوت العقل.

فإذا كان المعتدلون لديهم أو يدعون أن لديهم هوية محددة لمصالحهم تميز بين الحركة ومن يناصبها العداء، فإن الخطباء المقاتلين يفترضون وجود صدام جوهري بين المصالح. والفريقان يفتخر كلّ منهما بأن أسلوبه له أصول فى التراث الفلسفي، فالتزام المعتدلين بالإقناع الودي له أصوله فى التراث الإغريقي والروماني Greco - Roman tradition، كما أن فكرة الأخوة الإنسانية موجودة فى التراث اليهودي والمسيحي Judeo - Christian tradition، ولها أصول فى إيمان إيمرسون Emerson`s faith (١٨٠٣ - ١٨٨٢) بالقدرة الإنسانية على التعلم، ولها أصول فى اقتناع جون ستيوارت ميل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) بأن الحقيقة يجب أن تبقى فى نهاية أي منافسة مفتوحة على العديد من الأفكار المختلفة.

وعلى النقيض من المعتدلين، يميل المقاتلون إلى عدم الثقة فى المواطنين العاديين أو أنهم يفترضون أن الأنظمة التي يواجهونها يصعب ترويضها أو التعامل معها. فهم يسيرون على خطى كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ – ١٨٨٣) فى الاعتقاد بأن الجماهير لم تعد ترى مصالحها الحقيقية أو أن من يملكون السلطة من الصعب أن يتنازلوا عنها طواعية. وعلى الرغم من أن ميكيافيلي Machiavelli (١٤٦٩ – ١٥٢٧) قد يقصد بما كتبه الأمراء وليس أولئك الذين ينظمون الاحتجاجات، فإن المقاتلين يؤمنون بأن فكرة ميكيافيلي عن الإقناع تأتى كمكمل لاستخدام القوة، وليس بديلا عنها.

ولا يعنى هذا على الإطلاق أن المقاتلين لا يعبأون بالقيم المشتركة، بل يعني أنهم يهتمون بها بطريقتهم الخاصة. وبصفة عامة فإن المقاتلين يعبرون عن قدر أكبر من عدم الرضا من ذلك الذي يعبر عنه المعتدلون. فإذا كانت أسئلة المعتدلين دائمًا ما تحمل التساؤل حول الاختيارات المتاحة، وإذا كان المعتدلون يرون بعض أوجه القصور وعدم الكفاءة فى بعض الممارسات الموجودة فى المجتمع، فإن المقاتلين يرون هذه الممارسات كنوع من الجور والظلم البيّن. وينظر المعتدلون إلى رجال السلطة على أنهم قد ضلوا الطريق على الرغم من شرعية وجودهم، بينما ينظر المقاتلون إلى نفس الشخصيات على أنهم يبحثون عن مصالحهم الشخصية وأن وجودهم فى السلطة غير شرعي. وبينما يظهر الفريقان الاحترام المطلوب للقانون، فإن المقاتلين أكثر ميلاً إلى عدم احترام القوانين الوضعية عند مقارنتها بالقوانين "الأعلى" higher laws. وبناءً على ذلك فقد قام بعض معارضي الإجهاض على سبيل المثال بتفسير أحد النصوص الإنجيلية بطريقة تجعلها تبرر تفجير بعض العيادات والمراكز الطبية التي تقوم بعمليات الإجهاض.

ولكن يجب هنا أن نتوقف قليلاً حيث لا ينطبق ما ذكرناه سابقًا على كل أفعال المقاتلين؛ فممارسة العصيان المدني بشكله الكلاسيكي يمثل حدًا فاصلاً بين التبعية للمقاتلين أو للمعتدلين. ولكي يحكم المقاتلون على مشروعية أحد القوانين، فإنهم يقومون بخرق هذا القانون. ولكن يجب أن نؤكد على عدة أمور منها أن خرق هذا القانون يتم علانية ودون أن يصاحبه أي أعمال عنف، كما لا يصاحب هذا الخرق خرق آخر لقوانين أخرى، كما لا يتم المساس بحقوق المواطنين الأبرياء. ليس هذا فحسب، بل إنه إذا أدين أحد هؤلاء المقاتلين بخرق أحد هذه المحظورات فإنه يتقبل العقاب راضيًا صاغرًا.

وهذا بالطبع يتناقض مع بعض الأفعال الأخرى التي لا توصف إلا بأنها قتالية مثل تنظيم الإضرابات، والقيام بأعمال الشغب، والتفجيرات، وعمليات الخطف، وهو ما يشبه كثيرًا حروب العصابات المنظمة. ويستطيع المحتجون الذين يمارسون ما يسمى بالإقناع القتالي combative persuasion ومن خلال الجدل اللفظي، وأساليب الفعل المباشر تهديد الطرف الآخر وتملقه، وإثارته، وقهره، واستعدائه. وعلى الرغم من أن أساليب الضغط يكون الغرض منها إنزال العقاب المباشر (مثل الإضرابات والمقاطعة)، فإنها بشكل أو بآخر أشكال للبلاغة الجسدية التي تهدف إلى إضافة النكهة الدرامية لبعض القضايا، واستقطاب المزيد من المؤيدين والمتعاطفين، وإضافة صفة عدم الشرعية على النظام القائم – باستثناء مواقف الثورة الحقيقية – وإجبار النظام على إعادة النظر فى بعض القوانين والممارسات الموجودة، أو تمهيد الطريق للوصول لتسوية عن طريق المفاوضات.

ولا شك أنه توجد اختلافات كبيرة بين المفاهيم البلاغية للاستراتيجيات التي يتبعها كل من المعتدلين والمقاتلين لدرجة أنه قد يخيل للمرء أن المنهجين يمكن أن يكون كلٍ منهما فاعلاً وناجحًا. ولكن التغيرات الحاسمة

فى كل المجالات التي تسببت فيها القواعد البلاغية التي ينتهجها المقاتلون فى السنوات الأخيرة تعطى مصداقية أكبر لوجهة النظر التي تقول إن الإقناع الودي friendly persuasion ليس هو البديل الوحيد. ولعل من المناسب أن نلخص الجوانب الإيجابية والسلبية للمدخلين المعتدل والمقاتل فيما يلي:

١- تمنح التكتيكات القتالية الحركة الاجتماعية وجودًا مرئيًا، بينما تدخل التكتيكات المعتدلة فيما يمكن أن نسميه دوائر صناعة القرار.

٢- وللعديد من الأسباب يبدو هناك تنافر بين الاتجاهين حول مفهومي النجاح والفشل. فالمقاتلون تظهر قدراتهم عند التعامل مع ظلم من يستهدفون، أو قصوره فى أداء عمله، فإذا فشل عدوهم فى القيام بما يطالبون به يشعرون بأنهم أثبتوا أنفسهم أيديولوجيًا، ولكنهم يشعرون بالفشل والإحباط فيما يتعلق ببرنامجهم، أما إذا تحققت مطالبهم فإنهم يشعرون بأنهم فى موقف متناقض بمعنى أنهم عليهم أن يرفضوا هذه "المسكنات". وعلى النقيض منهم فإن المعتدلين يطالبون بدليل ملموس على أن من يواجهونهم قد لانوا، ولكن النجاح الزائد يمحو أسباب وجودهم.

٣- من السهل بث الحماس والطاقة فى المقاتلين بينما من السهل السيطرة على المعتدلين. وقد يؤدى التوحد القوى بين الأعضاء وأهداف الحركة – وهو شيء جوهري يخلق الروح الجماعية والإحساس بالتضامن – إلى الاقتناع بأن أي وسائل يمكن أن تبرر، كما يخلق حالة من عدم الصبر على تلك التكتيكات التي تستغرق وقتًا طويلاً. وقد تؤدى القيود التي يفرضها المجتمع على الطرق الشرعية للتعبير إلى اللجوء إلى استخدام العنف، ووسائل أخرى تثير الشكوك والتساؤلات. ومن ثَم قد يلجأ قادة الحركة إلى إخفاء أهداف الحركة الحقيقية، ويدينون على الملأ استخدام بعض التكتيكات التي يؤيدونها داخل الغرف المغلقة أو بينهم وبين أنفسهم، وقد يضطرون إلى

الوعد بأشياء لا يستطيعون القيام بها، أو إلى المبالغة عند الحديث عن قوة الحركة وتأثيرها... إلخ. وتنشأ دائرة مفرغة تخضع فيها تكتيكات المقاتلين لمزيد من القمع؛ وبالتالي تدفع الحركة إلى استخدام وسائل أكثر تطرفاً. ومن ثم يتحول قادة الحركة إلى ضحايا لأنفسهم ويظهر هذا فى عدم القدرة على احتواء الطاقات المتفجرة لأتباعهم أو الحفاظ على مناصبهم. وعلى الجانب الآخر يشتكى قادة الجماعات المعتدلة دائمًا من أن أتباعهم من أصحاب الولاء الشفهي الذين لا يمكن الاعتماد عليهم عند القيام بأعمال من أجل الحركة.

٤ – يظهر تأثير المقاتلين جليًا عند مواجهة أصحاب السلطة المزعزعة power - vulnerables، بينما يظهر تأثير المعتدلين عند مواجهة أصحاب السلطة الراسخة power - invulnerable، ولكن لا ينجح أحدهما مع الفريقين. وتستهدف الاحتجاجات بعض الناس ممن يصنفون على أنهم من مزعزعي السلطة بسبب الآتي:

(أ) إن لديهم ما يفقدونه مثل الأملاك، والمكانة، والمنصب المرموق.

(ب) إنهم لا يستطيعون الهروب من مصدر الضغوط (على عكس سكان الضواحي على سبيل المثال الذين تمكنوا من الهرب جسمانيًا ونفسيًا من أعمال الشغب التي حدثت فى بعض أحياء اليهود فى الستينيات).

(ج) إنهم لا يستطيعون الانتقام من مصدر الضغط (إما بسبب قيود مادية أو معيارية). ويشمل هؤلاء المستهدفين من مزعزعي السلطة رؤساء الجامعات، وقادة الكنائس، والمسئولين الحكوميين المنتخبين (وخاصة إذا كانوا من الليبراليين أو أصحاب الفكر المرموق) بالمقارنة بجموع المواطنين الذين ربما لا يملكون شيئًا ثمينًا أو مرموقًا يخشون فقده، وهم الذين يستطيعون الهروب أو لا يشعرون بوجود قيود تمنعهم من الانتقام، وهم بذلك من أصحاب السلطة الراسخة. وعند الاختيار بين الاتجاهين (المعتدل والمقاتل) يواجه قائد

الاحتجاج مجموعة من المحن؛ فالاتجاهان كلاهما لن يفي بكل متطلب بلاغي rhetorical requirement أو يحل أي مشكلة بلاغية، ولكن الواقع يقول بأن اللجوء لأحد الاتجاهين قد يخلق مشكلات جديدة.

ومن ثَم قد يلجأ قادة الحركة الاحتجاجية إلى التخلص من المحن التي ذكرناها آنفا أو على الأقل تجنبها من خلال تبنى الاستراتيجيات الوسطى أو التوفيقية، وهو تعبير جامع يشمل الجهود المبذولة للتوفيق بين أنماط التأثير التي يحدثها الاتجاهان. وتتنوع هذه الجهود ما بين الوصول إلى حلول وسطى من ناحية والتهديد بإنزال العقاب من ناحية أخرى، أو الحديث اللين الهين داخل الغرف المغلقة من ناحية، والخطب الحماسية الجماهيرية من ناحية أخرى. وقد تؤدى هذه الجهود إلى تشكيل ائتلاف يذيب الفوارق الأيديولوجية أو اللجوء إلى خطباء أو محدثين لهم نفس القيم ولكن يستخدمون أساليب مختلفة ومتناقضة، وهؤلاء ما يمكن أن نسميهم الراديكاليين المحافظين conservative radicals أو المحافظين الراديكاليين radical conservatives وهم الذين يؤيدون استخدام لغة تعبر عن القيم السائدة فى النظام الاجتماعي أو الشعارات النضالية بدلاً من الاقتراحات المعتدلة، وهؤلاء يدافعون عن "اعتدالهم" بالظهور فى صورة من يحاول كبح جماح التابعيين المقاتلين.

لكن تلك الوسطية أو التوسط بين الاتجاهين قد تكون لعبة خطرة، فالسعي لبث الحماس فى المناصرين، واجتذاب المحايدين، والضغط على مزعزعي السلطة، وتهدئة المعارضة، قد يؤدى فى نهاية المطاف إلى استعداء كل هؤلاء. *ومن ثم فإن* استخدام تعبير يدل على المراوغة قد ينظر إليه على أنه حيلة دنيئة، وينظر للمنطق على أنه محاولة "لمنطقة" الأمور، وينظر للتعليقات التي تدل على البلاغة أنها مراوغة لغوية ركيكة artless dodge. بل يصل الأمر بنا إلى أن تحتاج الوسطية إلى غموض مدروس studied ambiguity وربما يحتاج

الأمر إلى بعض التشويه، ولكن الخطر الداهم الذي يواجهه هؤلاء القادة هو أن يتوصل الآخرون إلى حقيقة فكر هؤلاء القادة، أو ما يحاولون إخفاءه عن الناس.

ولكن ما تزال توجد بعض الاستراتيجيات التي يمكن أن توفق بين كل من المداخل المعتدلة والمقاتلة، دون الحاجة إلى المناورة أو الالتفاف حولهم. وقد ينجح هؤلاء القادة في إقناع النظام القائم على أن الدواء المر bad - tasting medicine مفيد له، بل قد يكونون قادرين على تعبئة الجماهير المتنافرة لمساندة الحركة. ولكن المحك الحقيقي هو قدرة هؤلاء القادة على إظهار مستوى أعلى من الحكمة، وشعور أعمق بالعدل، والارتفاع عن الصغائر، وتجسيد المبادئ.

ويتفق الكثيرون على أن مارتن لوثر كينج كان صورة مصغرة وتجسيدًا حيًا لهذا الاتجاه؛ فقد استطاع اجتذاب المعتدلين والمقاتلين إلى حركته، كما حظي باحترام الجميع حتى أعدائه؛ لأنه استطاع أن يوفق بين الأمور التي تبدو مستعصية على أي اتفاق. وقد لخص كينج نفسه قضية الوسطية (بين الاتجاهات) في عبارة بليغة حينما قال: "أن ما نحتاجه هو مزيج من القوة والمحبة" "What is needed is a combination of power and love".

مصير الحركات الاجتماعية The Fate of Social Movements

يوجد تنوع واضح في المصائر التي آلت إليها الحركات الاجتماعية، فبعض هذه الحركات قد حصل على اعتراف شرعي بوجودها في المجتمع، فعلى سبيل المثال أصبحت حركة الاتحاد العمالي المقاتلة militant labor union movement في الولايات المتحدة إحدى الحركات المؤسسية المعترف بها. كما نجحت بعض الحركات الأخرى في عرض قضاياها، وكلما كان هدف هذه الحركات معتدلاً ومقبولاً، كلما حظيت بفرص أفضل للنجاح (ومثال على هذه

الأهداف المعتدلة هو التطبيق الصارم لقوانين المرور). ونجحت بعض الحركات فى الحصول على شرعية الوجود، بالإضافة إلى تحقيق الأهداف المرجوة، بينما فشلت حركات أخرى فى تحقيق أي من الأمرين. وعلى الرغم من ذلك فقد يخفى الفشل الواضح تأثيرًا إيجابيًا بعيد المدى.

وكثيرا ما يتم تجاهل الآثار الرمزية المادية لهذه الحركات على بعضها البعض. فقد نجحت هذه الجماعات المقاتلة فى مساعدة بعض الجماعات المعتدلة على الحصول على الشرعية، وهذا ما فعلته بالضبط حركة أمة الإسلام Nation of Islam التي كان يقودها مالكوم إكس Malcolm X. وفي أحيان أخرى أسهمت حركة بعيدة جغرافيًا فى التأثير على حركة أخرى، ويظهر هذا جليًا فى تأثر كينج بغاندي Gandhi (١٨٦٩ - ١٩٤٨). كما يظهر جليًا تأثير التطورات الثورية فى أوروبا الشرقية، وتحرير الصحافة فى الاتحاد السوفييتي على حركة الطلاب فى بكين. ومازالت الحركات التي حدثت فى الماضي تعيش إلى الآن فى شكل أساطير وحكايات تتناولها الأجيال المتعاقبة، وفي شكل مؤسسات وبرامج عمل تم تعديلها لكي تتناسب مع متغيرات الأوضاع والظروف.

الحركات المتفتحة والحركات ضيقة الأفق "Open" and "Closed - minded" Movements

تناولنا فى هذا المقال مجموعات من الحركات التي كانت تطالب بالحقوق المدنية، وهي حركات يستطيع القارئ أن يتعرف عليها بسهولة. ولكن من المهم أن نؤكد على حقيقة قد تخفى على البعض وهي أن الحركات الاجتماعية تتنوع فى أشكالها وأحجامها، فبعض هذه الحركات تتسم بالقبح الشديد، والبعض الآخر يثير الخوف والذعر بالمقاييس الغربية، ففلاديمير لينين Vladimir Lenin (١٨٧٠ - ١٩٢٤) قاد حركة اجتماعية، ونفس الأمر

ينطبق على أدولف هتلر Adolph Hitler (١٨٨٩ - ١٩٤٥). والعقائد الدينية فى جوهرها حركات اجتماعية، ونفس الأمر ينطبق على حركة الميليشيا اليمينية right - wing militia movement. وخلاصة الأمر أن المثال الذي يختاره الإنسان لهذه الحركات هو ما يدفعه لتمجيد هذه الحركة، والقدح فى الأخرى. ولا شك أن ميول المرء السياسية لها دور فعال فى هذا الصدد.

ولا شك أن هناك مقياسا واحدا يطبقه البلاغيون للحكم على الحركات الاجتماعية، وهذا المقياس هو التفتح open - mindedness أو ضيق الأفق closed - mindedness. فالحركات ضيقة الأفق تتبنى فكرًا جامدًا قاطعًا، وعادة ما تقدم هذه الحركات توجهاتها الأيديولوجية فى شكل حقائق مسلم بها لا تقبل النقاش أو التفنيد. وعلى الأعضاء الذين ينتمون لهذه الحركات تقبل هذه الحقائق دون مناقشة، كما يجب عليهم سد الفراغات gaps التي يجدونها فى منطق قادتهم بما تجود به قرائحهم. وينظر إلى هذه الحركات على أنها حركات معزولة تعانى من البارانويا "paranoid" والخوف المرضى ممن لا ينتمون لها xenophobic. وتنظر هذه الحركات إلى العالم الخارجي كمصدر للكآبة والتهديد. كما ينظر إلى الأعضاء الذين ينتمون لهذه الحركات على أنهم خطاءون sinners أو يميلون إلى الخروج عن الطريق الأيدلوجي القويم، ولكن هناك وعد بالمغفرة والخلاص من خلال قيام هؤلاء الأعضاء بأعمال تدل على رغبتهم فى المساهمة والتطهر فى ذات الوقت.

ومن الواضح أن هذه السمات لا تنطبق على كل الحركات حتى تلك التي نميل إلى اعتبارها حركات راديكالية radical أو متطرفة extreme. فحينما نميل إلى استنكار الراديكاليين أو المتطرفين، يجب علينا أن نتذكر الذين قاموا بالثورة الأمريكية، وهم ليسوا من المعتدلين على الإطلاق. (انظر مادتي الوصف العام Overview والبلاغة التأسيسية Constitutive rhetoric فى باب السياسة Politics)

قائمة المراجع

Darnovsky, Marcy, Richard Flacks, and Barbara Epstein, eds. *Cultural Politics and Social Movements*. Philadelphia, 1995.

Gamson, William. *The Strategy of Social Protest*. 2d ed. Belmont, Calif., 1990.

(يقدم هذا الكتاب منهجاً جديدًا للاستخلاص حقائق عامة فيما يتعلق بالجماعات الاحتجاجية فى الولايات المتحدة منذ عام ١٨٠٠).

Gitlin, Todd. *The Twilight of Common Dreams: Why America is Wracked by Culture Wars*. New York, 1995.

(يقدم هذا الكتاب رؤية ساخرة لكاتب موهوب عن الحروب الثقافية).

Jasper, James M. *The Art of Moral Protest: Culture, Biography, and Creativity in Social Movements*. Chicago, 1997.

(يقدم هذا الكتاب منظورًا بلاغيًا للحركات الاجتماعية لأحد علماء علم الاجتماع المثقفين يركز على الجوانب الإبداعية، والابتكارية، والأخلاقية للأعمال الاحتجاجية).

Klandermans, Bert. *The Social Psychology of Protest*. Oxford, 1997.

(يقدم هذا الكتاب تناولاً منهجيًا للعوامل التي تعوق المشاركة فى الحركات المختلفة من خلال بعض الدراسات التي تناولت هذه الحركات على جانبي المحيط).

McAdam, Doug, and David A. Snow. *Social Movements: Readings On Their Emergence, Mobilization, and Dynamics*. Los Angeles, 1997.

(ننصح بالاطلاع على المقالات الموجودة فى الجزء السادس والثامن).

Simons, Herbert. W. *Persuasion in Society*. Thousand Oaks, Calif., 2001.

(ننصح بالاطلاع على الفصل العاشر بصفة خاصة والذي يتناول التخطيط للحملات والفصل الرابع عشر والذي يتناول قيادة الحركات الاجتماعية).

Simons, H. W., E. W. Mechling, and H. N. Schreier. "The Functions of Human Communication in Mobilizing for Action From the Bottom Up: The Rhetoric of Social Movements." In *Handbook of Rhetorical and Communication Theory*. Edited by C. C. Arnold and J. W. Bowers. pp.pp. 792–868. Boston, 1984.

Smith, Ralph R., and Russell R. Windes. Progay/Antigay: *The Rhetorical War Over Sexuality*. Thousand Oaks, Calif., 2000.

(تميل الدراسات التي تتناول الحركات إلى التركيز على حركة واحدة والتغاضي عن الحركات المماثلة. وهذا المزج بين النظرية البلاغية البركية وعلم الاجتماع التفسيري له قيمته ليس فقط لمساهمته فى الدراسات التي تتناول الشواذ والسحاقيات، ولكن كدراسة حالة لبلاغة الحركات والحركات المضادة لها).

Stewart, Charles J., Craig A. Smith, and Robert E. Denton. *Persuasion and Social Movements*. 3d ed. Prospect Heights, Ill., 1994.

(يقدم هذا الكتاب الدراسي أعمال علماء الاتصال من ذوي التوجهات البلاغية)

تأليف: Herbert W. Simons

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

السوفسطائيون: Sophists

شكل السوفسطائيون جزءا من الثقافة الفكرية لليونان قديمًا، وتحديدًا فى النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان من المعروف عن السوفسطائيين أنهم معلمون محترفون professional educators، وأنهم من أصحاب العلم الكبير والمتنوع. فإلى جانب تركيزهم على البلاغة، كانوا يقومون بتدريس بعض العلوم الأخرى كالسياسة، والقانون، وعلم الاجتماع، والنظرية الأدبية، والقواعد، والرياضيات، والعلوم الطبيعية. واستخدم السوفسطائيون معتقداتهم وممارساتهم كأدوات لتحويل الانتباه من التأملات الكونية التي كانت سائدة فى عصر ما قبل سقراط إلى البحث فى أصل الجنس البشرى بطريقة عملية. وعلى الرغم من أن السوفسطائيين ليسوا فلاسفة بالمعنى الحديث للكلمة، فإنهم وجدوا لهم مكانًا فى تاريخ الفلسفة بدءا من كتاب هيجل Hegel الذي صدر فى بدايات القرن التاسع عشر تحت عنوان **محاضرات فى تاريخ الفلسفة Lectures in the History of Philosophy**.

ولا شك أن المعلومات التي وصلتنا عن حياة السوفسطائيين وأعمالهم موجودة فى بعض كتابات المهتمين بجمع الآراء والأقوال الفلسفية اليونانية doxographers من أمثال ديوجينيس ليرتيوس Diogenes Laertius وفيلوستراتوس Philostratus فى القرن الثاني قبل الميلاد. ولكن الوصف الفكري الدقيق جاء فى أعمال أفلاطون ومن أهمها: محاورة **بروتاجورس Protagoras** (وهو فيلسوف إغريقي يعد السوفسطائي الأول وتقوم فلسفته على مبدأ أن " الإنسان هو مقياس كل الأشياء ")، ومحاورة **جورجياس Gorgias** (وهو فيلسوف، وبلاغي، وسوفسطائي

إغريقي)، ومحاورة **هيبياس** Hippias، ومحاورة **الجمهورية** The Republic (الجزء الأول) ومحاورة **السوفسطائى** The Sophist. ويفرد أفلاطون فى هذه الأعمال مساحة لمناقشة المكانة التي حظي بها السوفسطائيون، موضحًا أن آراءهم لا يمكن أن تمر دون تدقيق جدلي. وفي حقيقية الأمر فقد انتقد أفلاطون السوفسطائيين لتفضيلهم المظهر على الجوهر، ولمحاولاتهم إظهار الجانب الأضعف فى المناقشات والحجاج على أنه الأقوى، مفضلين ما هو مرضٍ لأنفسهم عما هو واضح وصحيح، ومفضلين آرائهم الشخصية على الحقيقة، والاحتمالية على اليقين، والبلاغة على الفلسفة. وقد ظهرت آراء أخرى ترد على تقييم أفلاطون القاسي، وتبرز هذه الآراء المكانة التاريخية المتميزة للسوفسطائيين، وتعطى أهمية كبيرة لأفكارهم العصرية، وتظهر هذه الآراء جلية فى كتاب جورج جروت George Grote **تاريخ اليونان** **A History of Greece** وبعض أعمال الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzsche، وفي كثير من الأعمال الأخرى التي ظهرت فى القرن العشرين.

ويمكن تحديد عدة مبادئ للفكر السوفسطائى التي تتعلق بماهية الوجود فى هذا العالم، فيرى السوفسطائيون أن الإنسان هو مقياس كل الأشياء man is the measure of all things، وأن اللغة والاستيعاب والفهم الإنساني أساس المعرفة، وأن الكلمات تختلف عن الأشياء التي تسميها، وأن اللغة تمثل ما هو كائن وما هو غير كائن، وأن الإنسان قادر دائمًا على الإقناع، وأن المكانة الاجتماعية والسياسية يمكن أن تتحقق عن طريق الإقناع، وأن لكل قضية جانبين يعارض أحدهما الآخر، وأن القوي هو من بيده أن يرسى مبادئ العدل فى الأمور المختلفة، وأن وجود الآلهة خارج القدرات الاستيعابية للمعرفة الإنسانية، وأن هذه الآلهة هي فى جوهرها من خلق الإنسان human creations، الغرض منها فرض السيطرة على السلوك الإنساني.

وكانت هذه المبادئ موضوعا للنقاش من كافة الأطراف والتوجهات الفكرية والفلسفية مثل المذهب النسبي relativism، والبرجماتية pragmatism، ومذهب المنفعة utilitarianism والمذهب التجريبي empiricism، والمثالية الذاتية subjective idealism، والمذهب الإلحادي atheism، والمذهب اللا أدرى agnosticism. وفي ضوء المبادئ السوفسطائية لا ينظر للإنسان على أنه كيان مستقل بذاته الفردية ولكن من خلال علاقاته مع الآخرين داخل الدولة المدينة city - state، ومن خلال مؤسساتها السياسية، والقانونية والاجتماعية. كما أن دور اللغة لا يقتصر فقط على تنظيم العلاقات الإنسانية وتحديد تركيبة المؤسسات، بل يمتدد ليشمل تشكيل الفكر الإنساني، وتوجيه الفعل الإنساني. كما أن الحقائق والقيم ليست كلية كما أنها ليست ثابتة، بل تحددها المواقف المختلفة، وحاجات الإنسان ومصالحه، التي تختلف باختلاف الأماكن، والأزمنة، والبشر. والسياسة فى جوهرها هي المناظرة والتحاور حول شئون الدولة المدينة. وعلى نفس المنوال، فإن الأخلاق فى جوهرها هي الاتفاق حول فاعلية المستويات السلوكية المجتمعية والشخصية المتعارف عليها.

والهدف الرئيسى لبرنامج السوفسطائيين التعليمي هو تحويل الإنسان إلى مواطن مؤثر، وقد كان للمتطلبات العملية practical demands دور أكبر من البحث الفلسفي فى تشكيل هذا البرنامج التعليمي. ففي الثقافات الشفهية oral cultures، تتطلب المواطنة المؤثرة أن ينصت المواطن بأذن الناقد، وأن يحاول أن يكون مقنعًا حينما يتعلق الأمر بالقضايا المشتركة، كما أن المواطن المؤثر هو ذلك الشخص الذي يشترك ويسهم فى إدارة شئون مجتمعه الذي يعيش فيه. وتتنوع وتتعدد الأدوار التي يلعبها المواطن كالمشرع أو القاضي أو المدعى أو المدعى عليه داخل أروقة المحاكم، أو المتفرج أو المتحدث فى المهرجانات التي ترعاها الدولة، أو القائد لجماعة سياسية أو أحد أعضائها. وتتطلب كل هذه الأدوار أن يكون الشخص متمكنًا من مواجهة الجمهور،

ومن الجدل، والحوار، واتخاذ القرار، والحكم بين الناس، وإصدار الأحكام النقدية. وبناءً على هذا تعهد السوفسطائيون بأن يسلحوا الشخص الذي تكون لديه رغبة بالبلاغة والمهارات الأخرى التي تمكن الشخص من النجاح فى معترك الحياة العامة.

وقد أسهم بحث السوفسطائيين الأنثروبولوجي فى القرن الخامس قبل الميلاد فى المناظرة حول الطبيعة physis والعرف nomos. فالبعض كان يرى أن الإنسان ككائن يخضع للنظام الموجود فى الطبيعة؛ ومن ثم فإن كل ما استحدثه الإنسان من أشكال وكيانات مؤسسية كالمدنية، والنظام السياسي، والقانون، والمجتمع تخضع لقوانين الطبيعة. بينما رأى البعض الآخر أن الإنسان أرقى من الحيوانات الأخرى بفضل ذكائه؛ ومن ثم يستطيع أن يتجاوز الطبيعة (أو قوانينها) بما لديه من موهبة اللغة والحكمة العملية. وقد تجدد هذا النقاش مرة أخرى فى القرن الرابع قبل الميلاد على يد أفلاطون، وسقراط، وأرسطو. واتفق الثلاثة على تفوق الإنسان فى الخلقة، ولكنهم أثاروا العديد من التساؤلات حول آراء السوفسطائيين فى المعرفة، وفي الاستخدام الصحيح للبلاغة.

وكان أفلاطون على وجه الخصوص الذي احتج على أن رأي السوفسطائيين فى البلاغة ينقصه الكثير؛ لأنه لا يقدم لنا أي نوع من الإرشاد حول الاستخدام الأخلاقي للبلاغة ethical use of rhetoric، ثم أنه يقوم على وجهة نظر لا على حقائق تم التوصل إليها عن طريق حقائق جدلية يُطمئن إليها. ففي محاورة **جورجياس** رفض أفلاطون أن يُنزل البلاغة منزلة الفن أو الصنعة techne، مؤكدًا على أنها نوع من البراعة أو القدرة اللاعقلانية irrational knack التي يكتسبها الإنسان بحكم العادة. وبالإضافة إلى ذلك كان أفلاطون يرى أن البلاغة تحاول كسب ود الجماهير الجاهلة دون تعليمهم أو توجيههم، وتحاول

دغدغة مشاعرهم دون مشاركة ملكاتهم العقلية فى شيء له معنى. وكان يرى أيضًا أن البلاغة تهتم بإحلال رأى مكان رأى آخر دون سند من المعرفة، كما أنها تستخدم للوصول إلى المتعة والنفوذ، وليس للوصول إلى الخير وإحلال العدل. أما فى محاورته فيدروس **Phaedrus** فيخفف أفلاطون من نبرته الجادة ويعطى المجال لوجود البلاغة القانونية legitimate rhetoric وهي البلاغة التي لا يقتصر دورها على الإقناع فقط، بل يتعدى ذلك ليصل لمرحلة التوجيه والإلهام. ويرى أن هذا النوع من البلاغة يجب أن يفي بعدة معايير منها على سبيل المثال معرفة الأنواع المختلفة من الطبائع البشرية souls، والتعرف على الوقت الملائم للكلام أو التزام الصمت. وتنبثق هذه المعايير من برنامج أفلاطون التعليمي والذي يقوم على الجدل كوسيلة لاكتساب المعرفة بالحق والخير والجمال (انظر كلمة الجدل Dialectic).

وقد شكّلت آراء السوفسطائيين ومعارضات أفلاطون لها جانبًا كبيرًا من تاريخ البلاغة، ومازال الصراع بينهما حتى يومنا هذا مصدرًا مهمًا للبحث والتأمل فى كثير من القضايا التي تخص اللغة، والأخلاق، والتعليم (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، والمبدأ العقلاني – العقل Logos وأشخاص الرواية أو المسرحية Persona والفلسفة Philosophy، والموضوعات والمصطلحات المتواترة Perennial topics and terms)

قائمة المرجع

Backman، Mark. *Sophistication: Rhetoric and the Rise of Self - Consciousness.* Woodbridge، Conn., 1991.

(يقدم هذا الكتاب قراءة لمبادئ السوفسطائيين الموجودة فى التراث اليوناني والتي مازالت موجودة فى الكتابات المعاصرة)

Guthrie, W. K. C. *The Sophists.* Cambridge, U.K., 1971.

(يقدم هذا الكتاب تحليلاً متميزا لحياة السوفسطائيين ونظرياتهم من خلال دراسة السياق الثقافي لعصرهم والعصور التي تلت ذلك العصر)

Havelock, Eric, A. *The Liberal Temper in Greek Politics.* New Haven, Conn., 1957.

(يقدم هذا الكتاب دفاعًا روحيًا عن ليبرالية السوفسطائيين فى مواجهة الفكر السياسي الفاشستي والمحافظ لكل من أفلاطون وأرسطو)

Jaeger, Werner. Paideia: *The Ideals of Greek Culture*, vol. 1. Translated by Gilbert Highet. New York, 1939.

(يقدم هذا الكتاب تحليلاً متعمقًا لمكانة السوفسطائيين فى تاريخ الثقافة مع التركيز على نظرياتهم التربوية والأزمات السياسية التي حدثت فى عصرهم)

Jarrett. Susan C. *Rereading the Sophists: Classical Rhetoric Refigured.* Carbondale, Ill., 1991.

(يقدم هذا الكتاب تفسيرًا لمبادئ السوفسطائيين كتمهيد تاريخي وأساس للسياسة التقدمية المعاصرة، والحركة النسائية)

Kerferd, George B. *The Sophistic Movement.* Cambridge, U.K., 1981.

(يقدم هذا الكتاب بحثًا متميزًا عن الأدلة المتعلقة بفقه اللغة والمتعلقة بالسوفسطائيين، فضلاً عن تحليل لمبادئهم وممارستهم التي لها علاقة بالفكر اليوناني القديم وكذلك بأفلاطون وأرسطو)

Poulakos, John. *Sophistical Rhetoric in Classical Greece*. Columbia, S.C., 1995.

(يقدم هذا الكتاب وصفًا للطريقة التي استقبل بها كل من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو السوفسطائيين وبلاغتهم).

Sprague, Rosamont Kent, ed. *The Older Sophists*. Columbia, S.C., 1972.

(يقدم هذا الكتاب ترجمة إنجليزية لبعض المقتطفات التي تنسب للسوفسطائيين والتي جمعها كل من هرمان ديلز Hermann Diels وفالتر كرانتس Walther Kranz. في كتاب بعنوان Die Fragmente der Vorsokratiker)

Untersteiner, Mario. *The Sophists*. Translated by Kathleen Freeman. New York, 1954.

(يقدم هذا الكتاب دراسة مطولة للسوفسطائيين من خلال مصطلحاتهم الفلسفية المتعلقة بالظواهر المختلفة وفي سياق الاتجاه الفكري الخاص ببندتو كروتشه Benedetto Croce)

تأليف: John Poulakos

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

١

الكلام Speech

أي دراسة للكلام بوصفه حقلا أكاديميًا لابد أن تبدأ بتجذير هذا الموضوع فى أصوله البلاغية. فمن خلال تعريف البلاغة بوصفها الرابط بين الفكر والكلام، تتجلى على الفور طبيعتها المزدوجة الممتدة عبر خمسة وعشرين قرنًا من الحضارة الغربية. فحين يتم التعامل مع البلاغة على أنها فكر فإنه يتم التركيز على أمور مثل الإنشاء composition، لكن حين يتم التعامل مع البلاغة على أنها كلام فإن التركيز يتوجه إلى الإلقاء delivery. [انظر مقالا يقدم إطلالة على الإنشاء].

لقد تم الاعتراف بشرعية التركيز على الأمرين قبل القرن الرابع قبل الميلاد. ومارست البلاغة أعظم تأثيراتها استنادًا إلى شكلها الشفاهي قبل أن يجعل اختراع الصحافة المطبوعة فى عام ١٤٥٠ التوزيع الجماهيري للنصوص المكتوبة ممكنًا. ثمّن اليونانيون التراث الشفاهي فى عروضهم المسرحية، وفي مسابقات الشعر الغنائي، وفي الخطب العظيمة لمتحدثي القرن الرابع قبل الميلاد. وبعد عصر الإحياء – بما تضمنه من إعادة اكتشاف الأعمال الكلاسيكية – أصبحت البلاغة مرموقة فى جامعات أوروبا الغربية، وتجذّر هذا التقليد بالمقابل فى الولايات المتحدة.

مع ذلك، فقد وجدت دومًا قلاقل بين فروع البلاغة المتنافسة؛ أو لنقل بين مكوناتها المكتوبة والشفاهية. وقد أصبحت دراسة الكلام ودراسة اللغة الإنجليزية منذ منتصف القرن التاسع عشر فرعًا معرفيًا مستقلا، يركز على

هذين المكونين المختلفين للتراث البلاغي. [انظر، مدخل الإنشاء Composition، مقال حول تاريخ أقسام اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة]. وقد أصبحا متمايزين للغاية في بدايات القرن العشرين إلى حد أن أقسام دراسة الكلام شرعت في الانفصال عن أقسام اللغة الإنجليزية.

إن القول بأن أقسام اللغة الإنجليزية وأقسام الكلام قد انقسمت نتيجة انفصال بُعدَي التفكير والكلام البلاغيين هو نوع من التبسيط الأكثر إخلالا، وفي الوقت ذاته وسيلة مشروعة لوضع خط فاصل معترف به بين شيئين يعينان على جعل بعض التمييزات الأوسع واضحة على الفور.

ركزت أقسام الكلام التي تأسست حديثًا - بشكل حصري تقريبًا - على مخاطبة الجمهور في أثناء العقدين الأولين من عمرها. [انظر مخاطبة الجمهور Public speaking]. وكان من المثير للحيرة أنه تم تجاهل مخاطبة الجمهور في أثناء القرن التاسع عشر، وهو العصر العظيم للخطباء الأمريكيين. لقد كانت الخطب -قبل اختراع وسائل الإعلام الرسمية الإلكترونية - هي الشكل الرئيسي للتسلية في الأحداث السياسية، والوظائف الدينية، وحفلات العطلات مثل الرابع من يوليو[١]. وحتى في حقبة متأخرة مثل نهاية القرن التاسع عشر، كان متحدث مثل ويليام جينينجز برايان Bryan، يُلقي بأريحية مماثلة خطبًا في ساحات المحاكم، وفي الحملات الانتخابية، وفي احتفاليات الشاتوكوا[٢] Chautauqua الترفيهية. وكان في الواقع متكلمًا بالغ البراعة إلى حد أنه ولج إلى هذه المجالات الثلاثة المنفصلة محدثًا تغييرات ضئيلة على محتوى كلامه وأسلوبه وطريقة إلقائه، أو غير محدثٍ أي تغيير أصلا.

---

(١) عيد الاستقلال الأمريكي.

(٢) إشارة إلى احتفاليات صيفية ترفيهية وتربوية تقام كل عام على ضفاف بحيرة الشاتوكوا في جنوب غرب نيويورك (المراجع).

ركزت تلك البرامج التعليمية الجديدة حول مخاطبة الجمهور - بشكل كامل تقريبًا - على الأبعاد العملية لإلقاء خطبة ما. وعلى الرغم من أن البرامج كانت جديدة ونفعية بطبيعتها، فإنها وظفت المعرفة المتلقاة التي رسخها فلاسفة كلاسيكيون من أمثال أرسطو، وشيشرون وكينتليان [انظر البلاغة الكلاسيكية **Classical rhetoric**]. علاوة على ذلك، فإنه نتيجة لاهتمامها بتدريس المهارات التي تؤدي إلى التوظيف خارج الجامعة، فإنها لم تكن البلاغة مهتمة على نحو خاص بالأسئلة النظرية أو التأملية.

بحلول عشرينيات القرن العشرين، ظهرت فى الأفق برامج للخريجين حول الكلام، ونظر إلى الحقول الجديدة للبحث بأنها مُباينة لتقاليد المعرفة الراسخة فقط، وتجنبًا للأسئلة غير المستقرة. ولسد هذه الثغرة تطورت مدرستان متباينتان لهما منهجيات وغايات شديدة التباين. فى تلك المحاولات المبكرة لشق طرق جديدة للكلام يمكن أن ترى جذور ذلك الصراع الذى سيزدهر فى النصف الثاني من القرن العشرين، حول ما إذا كان الحقل المعرفي لابد أن يُنظر إليه باستمرار كأحد فروع الإنسانيات، أو أن يتم تصنيفه كعلم من العلوم الاجتماعية.

أعادت مدرسة ميدوسترن The Midwestern School - بقيادة جيمس أونيل O"Neill (1881-1970)، وهنري وولبرت Woolbert (1877-1929) - صياغة الحقل المعرفي لكي يدرس الكلام فى كل أبعاده. ولتحقيق هذه الغاية تضمن منهجهما الكلام (ما يزال على نحو كبير مخاطبة الجمهور) وكذلك الحجاج، والتمثيل، والصوت والنبر، والتأويل الشفاهي، والراديو والتليفزيون، ولاحقًا العلاقات العامة والدراسات الصحفية. هذه القائمة المثيرة للإعجاب ليست شاملة؛ وكان الأكثر إثارة للجدل هو المنهجية التي اقترحتها الجماعة، حيث وظفت الدراسات التجريبية والمتخصصة المستخدمة فى كل من تلك الحقول المعرفية، وبعض منها جمع قدرا كبيرا من البيانات المتخصصة أو "العلمية".

واعترضت مدرسة كورنيل Cornell School، التي سُمّيت على اسم الجامعة التي وجدت فيها، على التصور المتنامي بأن العلم كان سبيلا مناسبًا لدراسة فن مثل فن الكلام (مخاطبة الجمهور). فقد حاجج أنصار هذه المدرسة بأن الأفراد متفردون، ومن ثمَّ فإن الكم الضخم من البيانات الذي يتم جمعه فى ظروف مقيَّدة لكي يقيس عدة متغيرات فحسب فى وقت معين لا يمكن أبدًا أن يعطي صورة دقيقة عن أيٍّ من أجزاء عملية التواصل. وفي حين أن لكل من هاتين المدرستين أوجه قصوره والانتقادات الموجهة له؛ فإن وجهتي نظرهما تطورتا بشكل مستمر، كما أن حجج كل منهما ما تزال توجد حتى اليوم بصيغة أو بأخرى.

تكمن إحدى المشكلات الأخرى التي تنبأت بها مدرسة ميدوسترن فى الحقيقة التي لا مهرب منها وهي أن كل الأنظمة المعرفية الأخرى تنقل أحيانًا موضوع دراستها إما بطريقة شفاهية أو مكتوبة. بناء على ذلك فإن العديد يدَّعون أنهم يملكون بعض أجزاء من حقل البلاغة، ويفترضون إما مما تحتويه من أفكار أو من مكونات الكلام فيها. فاللغويون والفلاسفة وعلماء اللغة الاجتماعيين، وكذلك دارسو الأسطورة (خاصة من زاوية ارتباطها بالتراث الشفاهي)؛ ودارسو الطب (بعض مدارس الطب الآن تعرض برامج حول كيف يجب على الأطباء أن يتواصلوا مع مرضاهم)؛ ودارسو التاريخ (الذين يعملون على تراث التواريخ الشفاهية، كما يُحتمل أن يكون هوميروس قد فعل)؛ وهؤلاء الذين لديهم اهتمام حميد بالمدخل الصوتي أو الفسيولوجي، كل هؤلاء – من بين آخرين لا حصر لهم فى النصف الأول من القرن العشرين – قاموا بتطوير اهتماماتهم فى حقل الكلام.

وفي حين أن تلك المداخل الجديدة وفرت أرضية جديدة للغاية للبحث، فى وقت كان هذا الحقل يبحث بنشاط عن مواطن جديدة للتعلم، فإنها كذلك وضعت بذور صعوبات خفية، لم تظهر ثمارها إلا فى النصف الثاني من القرن العشرين. حاولت بعض تلك الأنظمة المعرفية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين – محبِّذة الانتقال إلى الكلام ومبادئه لأجل فهم أفضل لحدود تداخلها مع محتواها الخاص – أن تستأثر بأجزاء كاملة من مقررات الكلام بحلول نهاية القرن العشرين. فعلى سبيل المثال، نظرًا لأن العديد من الوظائف الإدارية أو التعليمية تطلبت أجزاءً مكثفة من الكلام، فقد بُذلت الجهود لإبعاد هذه الأجزاء من الحقل المعرفي للكلام إلى تلك الحقول الأخرى. هذه الأنواع من السطو حدثت حتى فى داخل الجامعات، حين حاولت بعض مدارس الإدارة أو التربية السيطرة على كل البرامج والأنشطة الدراسية المتصلة بالكلام، حتى قامت وكالات الاعتماد الخاصة بهم بإعادة تلك المهمة إلى المتخصصين فى الكلام. ومع ذلك استمرت تلك المعارك الحدودية تطغى على الحقل.

وفي منتصف القرن العشرين ظهرت ببطء طريقة جديدة لرؤية البلاغة فى كل من سياقيها (بوصفها فكرًا أو كلامًا). هذه البلاغة الجديدة التي تنوعت تسمياتها بين "البلاغة الجديدة" أو "نظرية استجابة السامع/القارئ/الجمهور"، قد حولت الاهتمام بعيدًا عن تحليل المتكلم أو المؤلف أو تحليل مقاصده، لكي تركز الاهتمام على التأويل الذي يضعه السامع أو القارئ أو الجمهور لما يسمعه. [انظر نظرية الاستقبال **Reception theory**]. وساعدت الهيمنة المتزايدة لوسائل الإعلام الإلكترونية – مثل الراديو والصور المتحركة والتليفزيون الذى يلتقط المرئيات العامة – على زيادة وتيرة هذا الاتجاه. أثبت هذا التغير أنه أكثر إزعاجًا مما قد يبدو للوهلة الأولى. ففجأة لم تعد القواعد التي وضعها الفلاسفة الكلاسيكيون القدماء فى اليونان وروما هي السبل الوحيدة لتقييم الخطاب. وربما كان الأكثر إدهاشًا من ذلك التحول فى وجهة النظر، قبول النظام المعرفي للعديد

من تلك المنهجيات والتقنيات الجديدة بوصفها طرقًا صالحة بنفس القدر للحكم على حقيقية تواصل ما بنفس قدر أية منهجية وضعها أرسطو أو كينتليان. وبدلا من نظام مغلق بشكل تام لتقييم التواصلات– وهو نظام كان كل بعد من أبعاده معروفًا ومسيَّجًا بقواعد صارمة – قدمت المنهجية الجديدة نظامًا مفتوحًا بشكل صارم، كان بنفس درجة تفرد كل شخص يستجيب لنص معين.

تكوَّن فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين اتجاه فى بعض الجامعات يركز بقوة على الإلقاء فيما يشبه كثيرًا أسلوب البيانيين الإنجليز فى القرن الثامن عشر. [انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth - century Rhetoric]. هذا التركيز على الإلقاء يتجلى بطريقتين: الأولى، والأقل قابلية للملاحظة، هي تعليم لهجة الطبقة العليا، خاصة فى جامعات جنوبية مختارة حيث كان نظام ديلسارت Delsarte system – وهو نظام للممثلين تبناه معلمو الكلام، ينقل كل شعور واتجاه بمعية حركة جسمية معينة – أكثر شيوعًا عنه فى بقية أجزاء البلاد. وفي حين أن النظام قد طُوِّر فى الأصل لجعل التمثيل والتحدث أكثر طبيعية؛ فإنه فقد قيمته فى النهاية لأنه جعلهما متصنعين تمامًا وقابلين للتنبؤ. هذا التركيز على الإلقاء عكس تشديدًا شائعًا على ما أطلقت عليه البي بي سي (هيئة الإذاعة البريطانية) تسمية "النطق المستقبَل *received pronunciation*". لكن التوجه الأكثر هيمنة، بعد أن تغلغل الراديو ثم التليفزيون فى الحياة الأمريكية، كان هو تعليم كل طالب لهجة وسط الأطلنطي Mid - Atlantic التي فضَّلتها صناعة البث. لم يكن أي شيء جدّ ملعون بالنسبة لفرصة أن يلتحق طالب بهذه المهنة مثل أن يكون لديه لهجة نطق جنوبية خالصة. لكن تغير ذلك بمرور الوقت واعتراف النظام أنه ليس كل الطلاب الملتحقين بالفصل الدراسي الأساسي للكلام راغبين فى العمل فى مهنة البث الإذاعي. ربما تجعل اللهجة شخصًا ما عضوًا فى جماعة اجتماعية ما –هي غالبًا ما تكون الجماعة التي تربى الشخص فيها – ولكن هذا لا يحدث دائمًا. ونظرًا لأن تغيير اللهجة يساعد فى فصل الشخص عن تلك

الجماعة، فإن القليل من المحاولات بذلت لتغيير لهجة الطالب فى فصل الكلام الأساسي. وهؤلاء الذين تمنوا تغيير عاداتهم فى الكلام عادة ما كانت لديهم إمكانية اختيار دراسة برنامج الصوتيات أو برنامج النبر والصوت ليساعدهم على فعِّل ذلك. لقد أدى تعهد جون كينيدي بأن يهبط الإنسان على سطح القمر فى أثناء عقد الستينيات إلى تضخم هائل فى التجارب، ونتج عنه انفجار فى التطورات التكنولوجية، غيَّرت بشكل جذري حقل الكلام بمعية العديد من الحقول الأخرى للجهد الإنساني. وقد برهنت مناظرات نيكسون وكينيدي فى الستينيات على التأثير الهائل الذي يمكن أن يمارسه التليفزيون ليس على حياة الأمريكيين عمومًا فحسب، بل على الانتخابات الرئاسية على وجه التحديد. (لقد اعتقد الكثيرون أن نيكسون خسر لأن برنامج "ظلال الساعة الخامسة Five O'clock Shadow" جعله يظهر بمظهر المتحول وغير أهلٍ للثقة على التليفزيون).

هناك باحث كندي كان يراقب أيضًا نتائج تلك المناظرات ودراسات الحالة التي تمت عليها هو مارشال مكلوهان (1911-1980) McLuhan. تكشف الدراسات عن أن أولئك المستمعين للمناظرات على الراديو ظنوا أن نيكسون قد كسب المناظرة، لكن هؤلاء الذين شاهدوها على شاشات التليفزيون جعلوا السبق من نصيب كينيدي. من الجلي أن أي محلل للمحتوى كان سيوضح أن جوهر المناظرة لم يتغير بالنسبة لكل جمهور، فكل منهم سمع نفس الكلمات. الفرق الوحيد هو الوسيط. استنتج مكلوهان أن الوسيط فى هذه الحالة كان هو ذاته الرسالة، ومن هذه الحالة المحددة وصل إلى تعميم أن الوسيط لابد أن يكون هو ذاته الرسالة فى سياقات أخرى عديدة كذلك. وقد أدى هذا إلى تبسيط مخل لنتائجه، جاوز الحد فى نظر الكثير من نقاده. وقد ذُكِر عن أحد المدافعين عن مكلوهان قوله إنه لا يهتم بماهية الخبر بقدر ما يهتم بماهية الوسيط الذي نقل الخبر. وعلى الرغم من مبالغات مكلوهان فإن كتاب "بلاغة الفكر الغربي The Rhetoric of Western Thought" قد وضع قائمة بأربع نتائج بلاغية مستمدة من فلسفة مكلوهان ومهمة لكل علماء البلاغة الجادين، وهي:

١) التأثير الكبير للوسيط على الرسالة؛ ٢) اختيار المتكلمين للوسائط ينسجم مع أساليبهم؛ ٣) إحياء التقاليد الشفاهية فى عصر وسائل الإعلام الإلكترونية؛ ٤) أن الخطاب العام يعاد بناؤه ليتناسب مع وسائل الإعلام الإلكترونية (ص ٢١٨ - ٢١٩).

ولو بدا أن التليفزيون لا ينسجم بأريحية مع الحقل التقليدي للكلام فإن تغيير الاسم سوف يكون هو المطلوب. وحتى منذ فترة سابقة على ١٩٦٠، بدأت كلمة "التواصل" *communication* تحل محل كلمة الكلام *speech* كاسم للحقل المعرفي، وهو اتجاه تنامى خلال الثلاثين عامًا التالية. لو كانت حقيقة الواقع هي أن كاميرا التليفزيون تنسجم بأريحية مع هذا السياق التواصلي المخترع حديثًا؛ فإن هذا هو بعينه ما حدث بالفعل مع الأسلاف الثلاثة للتليفزيون: وسائل الإعلام المطبوعة والراديو والسينما. لم يتوقف الحقل المعرفي عن احتواء الأسلاف الثلاثة. بالطبع كان مصطلح **التواصل** مستخدما لمئات السنين قبل أن يحل محل مصطلح **الكلام** كاسم للحقل المعرفي. وحتى التعريف المقبول على نطاق واسع لهذا المصطلح الجامع كان قد تنبأ به آي. إيه. ريتشاردز (١٩٢٤، ص ١٧٧):

"التواصل.. يحدث عندما يستجيب عقل امرئ ما لبيئته بحيث يتأثر عقل امرئ آخر، وتحدث فى هذا العقل خبرة مشابهة للخبرة الموجودة فى العقل الأول، وحدثت جزئيًا بواسطة هذه الخبرة."

يواصل ريتشاردز شرحه مبينًا أنه لو ربط امرؤ ما شيئًا بشيء آخر عن شخص لا يعلمه الشخص الآخر، فإن الآخر سوف يعتمد كلية على الأول فى الحصول على المعلومة. ولو لم يكن الأول كفئًا تمامًا وبشكل غير عادي فى وصف الشخص موضوع الاهتمام، فإن الخبرة الموجودة فى ذهني المتكلم والسامع سوف تكون غائمة أو تقريبية. ويُستنتج من هذا أن إمكانيات

سوء التواصل تكون كبيرة للغاية، ويختم ريتشاردز كلامه بأن إمكانيات سوء الفهم عظيمة إلى حد أن السارد والمستمع المذكورين فيما سبق ربما لا ينجحان مطلقا في توصيل أي شيء، ويظل كلاهما غير واع بأنه لم يحدث أي اتصال يُذكر.

تم تطوير كتلة مهمة من الأعمال بعد ١٩٦٠ لتقيس كيف يوجد تداخل كبير بين ما يقوله المتكلم وما يسمعه المستمع. لقد أصبح خبراء التسويق هذه الأيام أكثر مهارة في الجمع بين شكل الرسالة الإقناعية المأخوذ عن أرسطو من ناحية، والصور المرئية الماهرة المأخوذة من الواقع الافتراضي للثقافة الحديثة من ناحية أخرى، لضمان أقصى درجة من الترابط الممكن بين رسائلهم وإدراكات الجماهير لرسائلهم.

لكن في حين أن المصطلح الجديد (التواصل *communication*) استدعى بلا شك دراسات في حقول معرفية أكثر بكثير من المصطلحات القديمة الأكثر تقيدًا كالبلاغة أو الكلام أو البيان، فإنه يشير في النهاية إلى عناصر شديدة التنوع إلى حد تستعصي فيه على أية محاولة يقوم بها أنصاره لتحديد كيان مميز من المعرفة يمكن له أن يدعي امتلاكه على نحو حصري. [انظر **Communication**]. ولقد فشل كذلك أنصار المصطلح في الاتفاق على سلسلة من المبادئ المؤسسة التي يجب أن يخضع لها كل هؤلاء الراغبين في الدخول إلى المجال، وهو ما قاد إلى اتهامات بأن الحقل يفتقد في هذه الآونة إلى موضوع اهتمام ملازم له، وإلى منهجيات بحث متفق عليها بشكل كلي. وما يزال المجتمع الأكاديمي اليوم منقسمًا حول ما إذا كان البرنامج الأساسي للتواصل يجب أن يتكون على نحو حصري من مخاطبة الجمهور، أم يجدر به أن يستكشف، إضافة إلى ذلك، عددًا متنوعًا من المواقف التواصلية. لقد تطورت العديد من المناطق البحثية كطرق مؤدية إلى الاعتراف بقبولها في الحقل، سنذكر بعضًا منها فحسب: التواصل الداخلي الشخصي، التواصل

البيني للأشخاص، التواصل داخل الجماعات الصغيرة (التواصل مع ما يقل عن ١٥ شخصًا)، مخاطبة الجمهور (التواصل مع جمهور يزيد عن ١٥ شخصًا)، التواصل الجماهيري (التواصل مع الآخرين عبر وسائل مطبوعة أو إلكترونية)، نظرية التواصل (دراسة السبل التي يحدث بها التواصل) التواصل المؤسساتي (دراسة الممارسات التواصلية الداخلية والخارجية لمنظمة ما)، والتواصل المتعدد الثقافات (دراسة ممارسات التواصل عبر ثقافات متباينة). لم يتم حصر كل قوانين التواصل، وما تزال تقترح تباعًا ميادين جديدة للبحث فى أبعاد جديدة للحقل المعرفي. بالإضافة إلى ذلك، فإن كل الموضوعات التي ورد ذكرها فيما سبق تنشطر إلى العديد من حقول البحث الأصغر، ويمكن لأي موضوع بحث خاص فى الغالب أن يُفرَد بدراسة لمحتواه التواصلي.

ولقد تطور التواصل السياسي فى أثناء ستينيات وسبعينيات القرن العشرين كطريقة مميزة فى النظر إلى تأثير أنواع معينة من الخطاب الإقناعي على الأنماط التصويتية. ونظرًا لأن معظم المرشحين السياسيين، خاصة المرشحين الرئاسيين، أدركوا قيمة تقديم أنفسهم بأفضل مميزاتهم؛ فإنهم بأسلوب مكلوهاني خالص قاموا بمراجعة مواهبهم repackaged مرارًا وتكرارًا حتى عثروا على الرسائل وملامح الشخصية التي تتوافق مع العدد الأكبر من الناخبين.

شهدت الثمانينيات والتسعينيات تحسينًا أكثر للعملية بواسطة جعل المرشحين يقدمون تواصلات ووجوهًا مختلفة لمجموعات تجريبية قبل الاستقرار على الوجه أو التواصل السليم الذي سيقدمه لجمهور أكبر فى الوضع الأفضل أمام الجماعات التجريبية. وقد حرصوا على ضمان أن تكون الرسالة التي سيرسلونها مطابقة لتلك الموجودة بالفعل فى أذهان الناخبين، وذلك فى قلب تام لتعريف ريتشاردز للتواصل. وبدلا من استخدام الرسالة للتواصل بشأن شيء جديد على الناخب، فإن السياسي اليوم غالبًا ما يستخدم التواصل ليعزز رؤية الناخبين للعالم الذي يودون العيش فيه.

لم تكن بحوث التواصل التي استقطبت عددًا كبيرًا من الأكاديميين وممارسي التواصل التجاري فى كلٍ من بيئة الجامعة وإدارة الأعمال جديدة على النصف الثاني من القرن العشرين، فى حين تزايدت هذه البحوث على نحو عظيم بفعل الإتاحة السهلة لأنظمة إيجاد البيانات الإلكترونية. يثني بارنت بيرس Pearce فى مقاله "تواصل الكلام في القرن العشرين Speech Communication in the 20th Century" على العمل الذي أُنجز فى وقت سابق من القرن قبل أن يحوّل اهتمامه إلى الكم الهائل من البحوث المتاحة الآن، ويستنتج من هذا البحث أن قوة الحقل المعرفي تكمن فى كلٍ من تنوع موضوعات اهتمامه وفوضاويته (وهي مرحلة ضرورية فى تطور أي شيء قيِّم).

في تسعينيات القرن العشرين دخل مصطلح دراسات التواصل *communication studies* إلى المعجم، وحلَّ فى بعض المواضع محل مصطلح التواصل. تعرِّف ليورا سالتر دراسات التواصل بأنها "دراسة السبل التي تُعطى بها المعلومة معنى من قِبَل هؤلاء الذين ينتجونها أو يوزعونها أو يؤلونها" ("Communication Studies." *Canadian Encyclopedia*, vol. 1, (Edmonton, Alberta, 1985, pp. p. 382). وفي حين أن اختراع المصطلح ما زال حديثًا للغاية للتيقن من أن استخدامه سوف يجمع تلك المجالات المعرفية الهائلة فى وحدة دراسية أكثر توحيدًا وتماسكًا، فإن المؤشرات حتى الآن تشير إلى أن الحقل ما زال يتوسع ويزداد عمقًا بسرعة ولا يضيق وينحسر.

ولا يبدو من هذه الميزة vantage المبكرة أن الانتقال من **التواصل** إلى **دراسات التواصل** سوف يُحدث تغييرات ضخمة فى المحتوى المصاحب للتغير الأسبق فى **دراسات الكلام**.

قائمة المصادر والمراجع

Berger, Charles R., and Steven H. Chaffee. *Handbook of Communication Science*. Newbury Park, Calif., 1989.

مجموعة من المقالات حول تحليل التواصل ووظائفه بوصفه علمًا.

Berthoff, Ann E., ed. *Richards on Rhetoric*. New York, 1991.

مجموعة من مقالات ريتشاردز تُظهر كيف تغيرت أفكاره عن البلاغة عبر الزمن.

McCroskey, James C. *An Introduction to Rhetorical Communication*. Engelwood Cliffs, N. J., 1972.

معالجة تاريخية لأصل البلاغة وتطورها.

McLuhan, Marshall. *Understanding Media*. New York, 1964.

نظريات مكلوهان بالغة الإثارة للخلاف بقلمه هو.

Richards. I. A. *Principals of Literary Criticism*. New York, 1924.

شروح ريتشاردز ودفاعاته عن تعريفه الشهير للتواصل.

Richards, I. A. *Practical Criticism*. New York, 1929.

دراسة نفسية للنقد الشعري.

تأليف: Robert A. Gaines

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

Spin control السيطرة على الجمهور (عن طريق بث المعلومات)

(انظر بلاغة العرض والإيضاح Expository rhetoric، والصحافة Journalism).

الملفوظات بوصفها أفعال كلام Utternces as Speech Acts

أفعال الكلام تؤدَّى - أو من الضرورى أن تؤدَّى - خلال قول شيء ما أو بواسطته؛ وتشتمل أفعال الكلام على قول شيء ما بعينه، وعلى أفعال أخرى مثل **الوعد والنصيحة والاتهام والاقتراح والأمر والإقناع والاقتناع.** وحين ننظر إلى الملفوظات بوصفها أفعال كلام فإن الانتباه يتوجه على نحو دقيق إلى كل من الفعل الذي يُنتج التلفظ، وإلى نتاج ذلك الفعل.

وتاريخيًا، اهتم طلاب النحو والبلاغة والجدل بأنواع محددة من أفعال الكلام. فقد صنَّف النحويون وعلماء اللغة الجمل إلى جمل طلبية وخبرية وتعجبية. وعرَّف طلاب الجدل والمنطق الاقتراحات بوصفها نتاجًا للتأكيد أو للأمر. وتقليديًا ركز البلاغيون على الخطاب المصمم للإقناع، لكن اهتماماتهم فى دراستهم لأساليب الإقناع توجهت بالمثل نحو عدد متنوع من أفعال الكلام الأخرى. وتم تحديد معظم الأنواع البلاغية الكلاسيكية الكبرى جزئيًا بالإحالة إلى النصح والاتهام ودفع التهمة، والمدح واللوم. [انظر: **Deliberative genre; Epideictic genre;** and **Forensic genre**]. هذه المخططات الموروثة تقترب على نحو ما من أفعال الكلام، لكنها تركز على نتاج تلك الأفعال؛ وهي بالتحديد: الجمل، والتأكيدات، والنصيحة والإقناع، أكثر مما تهتم بأفعال الكلام ذاتها. كذلك لم تحاول الفنون التقليدية فى الفكر والكلام أو البحث أن تبحث بشكل منظَّم أو عام فى الأفعال الكلامية.

وقد نشأ الاهتمام المنظم بأفعال الكلام فى فلسفة اللغة التي دشنها العمل الرائد لجين أوستن (١٩١١ - ١٩٦٠). وإذا وضعنا جانبًا التمييزات

الموروثة فإن كتاب "كيف تنجز أشياءً بواسطة الكلمات (١٩٦٢) *How to Do Things with Words* أُلِّف ليوضح الفعل التواصلي الكامل بكل تعقيده وتنوعه كما ينعكس فى اللغة التي يستخدمها الأشخاص لأداء أو تحديد أفعال الكلام الخاصة بهم. يولي عمل أوستن اهتمامًا عظيمًا لأمور انشغل بها العديد من الفلاسفة المعاصرين فى استعمال اللغة والألعاب اللغوية. ويحدد أوستن ثلاثة مكونات لأفعال الكلام فى إطار الفعل الأوسع للتواصل: فعل قولي *locutionary act* –أي فعل التلفظ بشيء ما، فى خطاب مباشر أو غير مباشر؛ فعل إنجازي *illocutionary act* –وهو الفعل الذي يؤدَّى بقول شيء ما، مثل الاقتراح والوعد والاعتذار –؛ وفعل تأثيري *perlocutionary act*، يتم تحديده بشكل أساسي من منظور عائد أو نتائج الجهد التواصلي (مثل الإقناع أو الاقتناع). ومن بين هذه الأصناف الثلاثة فإن الفعل الإنجازي يُعتبر الإضافة المفهومية الأعظم لأوستن. فعلى الرغم من أن السمات التي وضعها للفعل الإنجازي كانت موضع مراجعات ضخمة فإن أفراد هذا الصنف هي التي ترد أولا إلى الذهن حين نذكر **أفعال الكلام**.

الفعل الإنجازي بالنسبة لأوستن هو فعل معلن بشكل جوهري، يؤدَّى بالضرورة بواسطة نطق شيء ما وهو شيء – لو تم أداؤه فى توافق مع الأعراف السائدة – تكون لديه القوة على التأثير فى النظام الاجتماعي والأخلاقي. المثال الجيد على هذا هو إعطاء وعد: فلكي يعطي المتكلم وعدًا عليه أن ينطق شيئًا ما مرادفًا دلاليًا لـ"سوف أفعل كذا"، حيث إن "كذا" هي عبارة عن الفعل الذي يَعِد المتكلم بأدائه. يتكلم مُعطي الوعد بالضرورة ولديه نية معلنة بإعطاء الموعود سببًا لكي يؤمن بأنه سوف يفعل "كذا"، فقط لأنه قال ذلك. يمكن للمتكلم إن يصرح بنيته، بواسطة استخدام تعبير "أنا أعد أن.."، ولكن هذا غير ضروري. ومن خلال الوعد بفعل كذا فإن المتكلم يجعل النظام الأخلاقي بحيث يضع نفسه فيه تحت الإلزام أن يفعل كذا. ويرى

أوستن أن الوعد له تلك القدرة لأنه يؤسَّس بواسطة أعراف تُقر بأنه حين يتلفظ متكلم بتلك الكلمات بنيَّة صريحة؛ فإن تلفظه يمتلك قوة إنجازية لخلق إلزام على التنفيذ.

هذه النقطة الأخيرة فى فكر أوستن –أي أن الأفعال الإنجازية يتم تأسيسها بواسطة أعراف – هي التي تعرضت لأعمق مراجعة. لقد بزغ مفهوم أوستن حول القوة الإنجازية من التأمل فى أفعال أدائية مثل الزواج والتعميد وطرد لاعب من لعبة، وهي أفعال يتم تأسيسها بواسطة قواعد عرفية. هناك عرف فى بعض السلطات القضائية أنه لو نطق كل من الطرفين "أنا أفعل"، فى الظروف الملائمة، أمام الوكيل المسئول، فإنهما يصبحان زوجين. وقد ظن أوستن أن أفعالا مثل الوعد والنصيحة هي أيضًا عرفية. وقد تم تداول فكرة أن الأفعال الإنجازية تؤسَّس عرفيًا على نطاق واسع خارج دائرة فلسفة اللغة بواسطة كتاب جون سيرل المؤثر "أفعال الكلام: مقال فى فلسفة اللغة" *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*.

تحدَّت أعمال مهمة لزملاء أوستن (مثل ب. ف. ستراوسن، وج. وارنش، ودينيس ستامب P. F. Strawson, G. J. Warnoch, and Dennis Stampe)، فكرة أن الأفعال الإنجازية حول نظام الوعد والنصيحة هي عرفية بشكل أصيل. وبدلا من ذلك، فإن مجموعة مهمة من الأفعال الإنجازية يمكن النظر إليها على أنها مؤسسة بواسطة حسابات عملية تستغل المصادر المتاحة فى قول شيء ما. وقد كان تحليل جرايس Grice للتلفظ – المعنى أداتيًا فى تطوير وجهة النظر هذه. ويوفر تحليل جرايس مخططًا عامًا لما يحتاجه المتكلم لكي يقول بجدية شيئًا ما يعنيه، ويقترح تفسيرًا للكفاءة الأساسية لقول الأشياء. ووفقا لجرايس فإن المتكلم يتمكن من قول شيء ما بواسطة إنتاج تلفظ، فى حين

يُخبر - بشكل مقصود وصريح - مخاطبيه بأنه يريد منهم أن يستجيبوا على نحو مخصوص (مثل أن يصدقوا ما يقوله المتكلم). ويتم تصميم هذه المجهودات، وفي ظروف ملائمة تساعد فى تزويد المخاطبين بدوافع لإنتاج استجابات متسقة مع ما يقصده المتكلم بشكل أساسي. يتولد تبرير استجابة المخاطب تقريبًا على النحو التالي: بإظهار المتكلم صراحة لنواياه الأساسية بأن يضمن استجابة من المخاطب - بتحمل المسئولية بشأن جهده التواصلي الأولي. ثمَّ بقيامه بناء على ذلك بتوليد افتراض المصداقية (أي افتراض أنه يعبِّر بإخلاص عن معتقداته، وهي الحقيقة التي قام بجهد معقول لترسيخها). ويمكن بعد ذلك للمخاطب أن يفكر بأن المتكلم لن يجعل نفسه معرضًا لأن يُنتقد بسبب الزيف، إن لم يقم بجهد معقول فى أن التحدث بصدق.

وبدوره يدعم هذا التفسير التداولي للقوة الإنجازية لقول شيء ذي مغزى تفسيرًا عامًا لكيفية عمل الأفعال الإنجازية. فبعمل وعد - على سبيل المثال - يقول المتكلم إنه سوف يأتي للمنزل فى تمام السابعة، ومن ثمَّ يولِّد افتراضًا أنه يقوم بجهد معقول لكي يقول الحقيقة. لكن لكي يدعم الواعد مخاطَبه فإنه يؤكد هذا الافتراض بواسطة إعطاء مخاطبه سببًا للاعتقاد بأنه سوف يجعل هذا الالتزام حقيقيًا، لو أنه علم فحسب أن المخاطَب يعتمد عليه. ربما يقول المتكلم -على سبيل المثال - فى اقتراح فعل إنجازي مهم بلاغيًا: إنه هو والمخاطَب يجدر بهما استثمار مثل هذا الدعم المتبادل، وهو اقتراح سوف يكون من غير المرغوب مبدئيًا التفكير فيه. ولكي يحظى المقترِح باهتمام ولو محدود من مخاطبه، فإنه يدافع عن مسلِّمة الصدق، بأن يُلزم نفسه بشكل معلن - ليس فحسب بأن لديه أسبابًا لمساندة الحقيقة فيما يقول - بل أيضًا بأن يقدم تلك الأسباب لمخاطبيه مستجيبًا لأى أسئلة أو اعتراضات قد يثيرها المخاطبون. ومن ثمَّ يولِّد المقترح مسلمة بأن ما قاله ربما يثبت استحقاقه لاهتمام شديد.

ويبدو أنه توجد أفعال إنجازية أخرى ربما تعمل بالطريقة نفسها لكي تشجع المخاطبين على عمل استجابات من أنواع معينة، بواسطة توليد مسلمات خاصة مبنية على الافتراض الأساسي للصدق. مثل هذه الأفعال الإنجازية تتشكل من خلال الحسابات العملية التي تستعمل مصادر إضافية متأصلة فى الفعل القولي الأولي للتلفظ بشيء وبقصد معنى شيء.

هكذا يبدو أن أحد إسهامات أفعال الكلام يمكن أن يُتوقع منها أن تلقي ضوءًا جيدًا على كفاءة الوسائل التواصلية، ومن ثمَّ يمكن أن توضِّح مسائل لها أهمية بلاغية تقليدية. ومع ذلك، فإنه توجد بعض العقبات التي يلزم تجاوزها للانتقال من إسهام أفعال الكلام كما تطورت فى فلسفة اللغة إلى مفاهيم مفيدة لفن البلاغة. لقد بُني تصنيف أوستن لأفعال الكلام على اعتبارات نحوية ومنطقية. وهو لا يعكس اهتمامات مركزية تقليدية بالنسبة للبلاغة إلا على سبيل الصدفة. فمقولته حول الأفعال التأثيرية، التي تشمل فعل الإقناع الذي يشغل مركز البلاغة، يتم تعريفه كنقطة ارتكاز لتمييز الفعل الإنجازي، وليس بوصفه مقولة مميَّزة وانشغالا مهمًا. فالأكثر أهمية هو أن أفعال الكلام كما درسها الفلاسفة واللغويون قد تم تحديدها على أساس التمييز المشتق من كلام الحياة اليومية، فى حين أن البلاغة كانت تركز بشكل تقليدي على الخطاب فى المنتديات العامة. وهذا الأخير هو منتج فني، فى حين أن كلام الحياة اليومية هو بمعنى ما طبيعي. يتطلب فن الخطاب العام ممارسات خطابية تقوم الأعراف التي اعتادت عليها الجماهير بالحفاظ عليها، ومن ثمَّ فإن بعض المعايير تنفصل بعيدًا عن المحادثات اليومية. ومهما يكن من أمر، فنظرًا لأن المزيد والمزيد من الخطاب البلاغي يتم توجيهه للجماهير العادية، التي تشتق معارفها بشأن الأحداث التواصلية بشكل كبير من ممارسات التحادث العادية فإن مفاهيمنا العادية حول أفعال الكلام وفهمنا للدوافع

الأساسية لأفعال الكلام يتوجه بشكل مباشر للغاية إلى الأمور ذات الاهتمام البلاغي التقليدي.

يكمن الرابط الأكثر وضوحًا بين فهمنا العادي لأفعال الكلام والدلالة المعجمية للفن البلاغي في تطور الأنواع البلاغية وتميزها. وتستمد بعض الأنواع البلاغية بنيتها الأساسية بشكل مباشر من التماثل مع أفعال الكلام. فحين يفتتح ألكسندر هاميلتون "الأوراق الفيدرالية" *Federalist Papers* (1787) باقتراح الدستور الجديد لقرائه من أجل تأمله تأملا دقيقًا، فإنه يفعل تمامًا ما يفعله المتكلم في المحادثة العادية عندما يقترح شيئًا. فهو يستدعي بانفتاح نفس المسئوليات تقريبًا التي سوف يتكفل بها مقترح عادي، وعلى الرغم من أنه هو ومؤلفوه المشاركون يعبرون عن تلك الواجبات بمستوى غير عادي من الأداء الفني، فإن لحججهم نفس درجة القوة التي يمكن للمرء أن يعثر عليها دفاع منافس للاقتراح. من بين أفعال الكلام فإن الاتهام والنصيحة والمدح التي يمكن من خلالها التعرف على أنواع بلاغية مناظرة. في مثل هذه الأنواع، وما شابهها من أنواع الخطاب البلاغي، يؤسس الشخص البليغ علاقة تواصلية مبدئية مع جمهوره، ويرسخ بشكل مفتوح إثبات خطابي. وبواسطة الإطلاق الاختياري لهذا الإلزام، فإنه قد يولد تبريرات لجمهوره، على سبيل المثال، لكي يتأمل بعناية اقتراحه، ويمسك بالاتهام غير قابل للإجابة، ويزن نصيحته، ويكرم الشخص الذي يتلقى مدحه.

يمكن أيضًا رؤية أن أفعال الكلام تقوم بعملها في الخطابات التي لا تستمد هيكلها التوليدي من أفعال إنجازية عادية تراسلية. تقع خطبة مارتن لوثر كينج الاحتفالية (١٩٢٩ - ١٩٦٨) "ثمة حلم لدي "I Have a Dream"، تحت نوع الخطب الاحتفالية. وهي تلبي سلسلة من توقعات الجماهير التي تشمل المهام الآتية: (١) أن المتكلم سوف يربط الالتزام الراهن للجمهور

بالغاية التي جمعتهم معًا؛ (٢) أن المتكلم سيُلهم الجمهور الراهن بأن يكشف عن التزامه بهذه الغاية (٣) أنه سيفي بهاتين المهمتين بطريقة تكشف لجمهور عريض من المشاهدين، مفكك غالبًا، عن عمق التزام الجمهور بغاية خيِّرة قيمة. في مفتتح خطابه، وبعد أن أعاد بلباقة تكرار الإنكار التاريخي للحقوق المدنية للأمريكيين السود، اضطلع كينج بالواجبات الراهنة التي تقع على عاتق متكلم احتفالي. فقد قال لجمهوره الراهن: "وهكذا فقد أتينا اليوم لكي نتباكى على وضع مخجل". هذا التصريح الواضح حول النوايا يُلزم المتكلم بسلسلة واضحة من الواجبات المتتابعة وثيقة الصلة. وبواسطة جعل هذا الالتزام صريحًا يُعرِّض كينج نفسه للنقد فى حالة فشله فى الوفاء بتلك الالتزامات؛ ووفقًا لذلك فإنه يدافع عن افتراض يدعم جدية خطابه. ويتوازى التزام كينج الافتتاحي مع بنية ووظيفة الفعل الإنجازي غير العرفي، على الرغم مما يبدو من أنه لا يوجد فعل كلام عادي مؤسس يتناظر معه. انظر [Hibrid, Genres].

إن العلاقات بين الافتراض المسبق وعبء الإثبات burden of proof فى الخطاب الحجاجي هي مسألة ثانية أبانت عنها أفعال الكلام الحجاجية. [انظر الحجاج]. فعلى الأقل منذ كتاب "عناصر البلاغة" لريكارد واتلي Whately، اعتقد دارسو الحجاج– تمامًا كما هو الحال فى الساحات القضائية – أن الافتراض المسبق ببراءة المتهم حتى تثبت إدانته تفرض عبء الإثبات على الأطراف التي تقدم تهمًا بارتكاب جريمة، وبالمثل فإن الافتراضات المسبقة فى سياقات حجاجية أخرى يمكن تمييزها بأنها تضع مسئوليات إثباتية probative على طرف أو آخر من أطراف الخلاف. توضح هذه الرؤية المهمة البلاغة الحجاجية كثيرًا، لكنها لم تكشف عن صياغتها على نحو ملائم. ففي أفعال كلام مثل الاقتراح والاتهام، يعتمد المتكلمون بصراحة على أعباء الإثبات، ويقومون بذلك بالنسبة

للافتراضات المسبقة الموازية. يَعِدُ الانتباه الحذر لديناميات أفعال الكلام تلك بأن يجلو أسئلةً ظلت مطروحة لفترة طويلة حول نشأة أعباء الإثبات الحجاجية، وحول قوة الحجج التي تبطل تلك الأعباء.

إن فهم تداوليات أفعال الكلام يلقي كذلك الضوء على بعض الأبعاد الفنية للإقناع الأخلاقي *ēthos* التي يمكن أن يولِّدها المتكلمون. [انظر *ēthos*]. تُدرِّس البلاغة الكلاسيكية أن الشخصية الباهرة للمتكلم – بحسب ما تُعرف من سمعته وكما تتجلى فنيًا في خطابه – تقوم بوظيفة المصدر الرئيسي للدليل البلاغي. تكشف تداوليات أفعال الكلام عن أحد السبل المهمة التي يستطيع من خلالها المتكلمون إظهار تلك الأبعاد من شخصياتهم التي تضمن لهم استجابات محببة من جمهورهم. فحين يجعل المتكلم نفسه عرضة للنقد عندما لا يقول الحق – على سبيل المثال –، أو عندما يُهمش مصالح الجمهور واهتماماتهم، أو أن يعامل خصومه بشكل غير عادل، فإن المتكلم يستطيع أن يكشف أبعادًا من شخصيته تضمن إعادة الاعتبار لتلفظاته وقبولها.

وباختصار، فإن الدراسة الفلسفية لأفعال الكلام تجذب الاهتمام إلى ما يفعله المتكلمون، بها بإنتاجهم لهذه التلفظات، وهذا الاهتمام يُضيء المحفزات الخطابية العملية للاهتمام المناسب للفن البلاغي.

قائمة المصادر والمراجع

Austin, J. L. *How to do Things with Words*. Edited by J. O. Urmson. Cambridge, Mass., 1962.

Grice, H. P. "Meaning." *Philosophical Review* 62 (1957), pp. pp. 397–388.

Grice, H. P. "Utterer"s Meaning and Intention." *Philosophical Review* 78 (1969), pp. pp. 147–177.

Searle, John R. Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge, U. K., 1969.

Stampe, Dennis. "Meaning and Truth in the Theory of Speech Acts." In *Speech Acts*. Edited by Peter Cole and Jerry Morgan, pp. pp. 25–38. New York, 1975.

Strawson, P. F. "Intention and Convention in Speech Acts." *Philosophical Review* 73 (1964), pp. pp. 439– 460.

Warnock, G. J. "Some Types of Performative Utterance." In *Essays on J. L. Austin*, pp. pp. 69–90. Oxford, 1973.

تأليف: Fred J. Kauffeld

ترجمة: عماد عبد اللطيف

مراجعة: مصطفى لبيب

نظرية الاستقصاء الرباعية Stasis

لا شك أن نظرية الاستقصاء الرباعية Stasis Theory (في اللاتينية status أو constitutio) مسئولة عن تطوير نظام أو نسق صمم لمساعدة الخطيب فى تحديد القضايا الرئيسية فى مناظرات ما، كما تساعده فى العثور على الموضوعات الحجاجية المناسبة، والتي تعود عليه بالنفع فى مناقشة القضايا التي هو بصدد مناقشتها. وقد أعطت هذه الوظيفة نظرية الاستقصاء الرباعية مكانة كبيرة فيما يتعلق بالنظرية البلاغية الخاصة بالابتكار rhetorical theory of invention.

ويعد هيرماجوراس Hermagoras المنحدر من مدينة تيمنوس Temnos (١٥٠ تقريبا ق.م) هو أكثر الذين يعود إليهم الفضل فى إعطاء النظرية ماهيتها الحقيقية وشكلها الأساسي، على الرغم من أن التصورات الأولى عن هذه النظرية تعود لفترة سابقة لهذا التاريخ. ومن خلال العديد من المصادر المتنوعة التي أطلعنا عليها، يمكننا أن نقول إن هيرماجوراس بنى فكرته الأساسية عن هذه النظرية أو الفكرة على ما يدور فى أروقة المحاكم ممثلاً فى المناظرات والمجادلات التي تنشأ من الصراع الذي ينتج من اتهام ما أو ادعاء ما، والدفع بهذا الاتهام أو الادعاء. فتأكيد المدعي plaintiff على أقواله يمثل الأساس للاتهام أو الادعاء، ثم يقوم المدعي عليه defendant بنفي الاتهام نفيا يقوم على أساس استجابته له، أو يتطلب هذا النفي طرح سؤال. والأصل اللغوي فى اليونانية لكلمة stasis غير مؤكد تماما، ولكن الاحتمال

الأرجح والأقوى أنها علامة أو إشارة مميزة للموقف الذي يتخذه طرفان فى جدل أو خلاف فى بدايته، ويستخدم نفس المصطلح للإشارة إلى الموقف الذي يتخذه الخصوم فى بداية قتال ما، أو فى حالة الحرب الأهلية.

وبعد قيام هيرماجوراس بتحليل القضية التي تربط بين الطرفين المتنازعين أو المتباريين قام بترتيب أربعة عناصر للمجادلة فى ترتيب يبدأ بالأقل رغبة من وجهة نظر الدفاع. فإذا اتهم شخص بأنه قام بارتكاب جريمة ما، فإن أكثر أشكال الدفاع تأثيرًا ووقعًا هو نفي القيام بهذه الجريمة المزعومة؛ وهذا العنصر يسمى stasis of stochasmos بمعنى أمر الواقعة fact أو الحدس conjecture. ويبقى السؤال مطروحًا هل قام المدعى عليه بهذه الجريمة (مثل سرقة إناء أو وعاء من إحدى دور العبادة). فإذا كان هذا الخط الدفاعي موضع شك، يتم الانتقال إلى الاستراتيجية التالية المتاحة وهي التسليم بالفعل (ارتكاب الجريمة) وإثارة قضية التعريف issue of definition. والسؤال هو هل ما قام به المدعى عليه يصنف تحت الأفعال التي توصف فى المصادر المعيارية وثيقة الصلة بأنها محرمة أو محظورة أو ممنوعة forbidden (فمثلا هل سرقة الإناء أو الوعاء المذكور من أي منزل عادي يعد تدنيسا للمقدسات أو الحرمات sacrilege؟). وهذا العنصر الثاني يسمى stasis of horos ونقصد بها تعريف الفعل نفسه. أما خط الدفاع الثالث فيقر بارتكاب الفعل، ولكن يجد العذر والمبرر للقيام به فى ظروف شديدة الخصوصية؛ ومن ثم لا يستحق العقاب الكامل المنصوص عليه (مثل استخدام المدعى عليه هذا الوعاء أو الإناء لصب الزيت المغلي على رؤوس جنود العدو الذين كانوا يحاولون تسلق أسوار المدينة لاقتحامها)، وهذا يثير قضية stasis of kata، ونقصد بها الطبيعة والكيفية quality (طبيعة الجريمة وكيفية القيام بها وأسبابها). وأخيرا نأتي للمرحلة والعنصر الأقل رغبة أو قبولاً من المدعى عليه وهو الاعتراف

والتسليم بالقيام بعمل يستحق العقاب، ولكن مع إثارة قضية الإجراءات issue of procedure، بمعنى هل المحكمة المنعقدة هي المحكمة المخول لها نظر هذه القضية (فعلى سبيل المثال هل يجب نظر هذه القضية أمام محكمة دينية أم محكمة مدنية).

وبغض النظر عن هذه العناصر الأربعة، قام هيرماجوراس بوضع رؤية عامة لأربع قضايا تتعلق بالتفسير أو التأويل القانوني legal interpretation. وأول هذه القضايا تتناول العلاقة بين المنطوق الحرفي للحكم القانوني والغرض منه أو القصد وراءه، فمثلا إذا كان هناك قانون أو مرسوم يمنع المركبات من دخول متنزه ما، فهل هذا الحكم ينطبق على سيارات الإسعاف أيضا. أما القضية الثانية فتتناول القوانين المتناقضة contradictory laws، فعلى سبيل المثال كيف يمكن التخلص من ذلك الصدام بين القانون السابق (الذي يمنع دخول السيارات إلى المتنزه) وبين قانون آخر يقضي بأن تقوم سيارات النقل بنقل القمامة والمخلفات من المتنزه؟ أما القضية الثالثة فتتناول الحالات التي يكتنفها الغموض cases of ambiguity، فعلى سبيل المثال هل تعني كلمة "يوم" التي وردت بالقانون الخاص بالمتنزهات أربعا وعشرين ساعة، أم فترة النهار فقط؟ أما القضية الأخيرة فتركز على حالات المقارنة، فعلى سبيل المثال هل ينطبق الحظر على المركبات المنصوص عليه فى القانون على ألواح التزلج skateboards أيضًا؟

ونستطيع أن نجد المؤشرات والإرهاصات الأولى للنظريتين التي قال بها هيرماجوراس فى كتاب **البلاغة Rhetoric** الذي كتبه أرسطو فى عام ٣٣٥ قبل الميلاد (تقريبا)، حيث نجد الإشارة إلى النقاش الذي دار حول خطوة الانتقال من الاعتراف بفعل ما إلى مرحلة التوصيف القانوني للحدث، ثم التأكيد على أهمية التعريف (تعريف الفعل المجرَم) فى هذا السياق. وأشار

هيرماجوراس إلى كل من القانون غير المكتوب (العرف) unwritten law، ومبدأ العدالة والإنصاف equity فهما في جوهرهما عنصران مكملان ومصوبان لا غنى عنهما للقانون المكتوب، والذي لا يستطيع بمفرده أن ينظم أو يضع قاعدة واحدة تنطبق على ذلك العدد اللا متناهي من الظروف والملابسات. كما يقدم هيرماجوراس تناولاً أوليًا ومبدئيًا للحجج التفسيرية المتعلقة بالقانون المكتوب وغير المكتوب، وفكرة العدل والإنصاف، والقوانين المتضاربة، والغموض، فضلا عن حجج مناظرة أخرى مشابه حول تفسير العقود contracts. ونستطيع أن نجد استباقات مماثلة لذلك في مؤلفات أنتيفون Antiphon وخاصة في **الرباعيات Tetralogies** في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وفي كتاب **البلاغة إلى ألكسندر Rhetorica ad Alexandrum** المنسوب إلى أناكسيمينيس Anaximenes في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

ويمكننا القول إن هيرماجوراس قدم لنا مادة بلاغية تقليدية تتسم بالثراء، والتنظيم. وقد قام الكتاب الذين جاءوا من بعده باستكمال هذه المسيرة بإضافة بعض التفاصيل لبعض الأقسام الثانوية، وتعديل بعض المصطلحات والتعبيرات، وإعادة ترتيب بعض الفئات الأساسية. ولعل الأمر الذي شجع إلى حد ما على إجراء هذه التغييرات هي تلك الحدود الهشة permeable boundaries بين الفئات الأساسية لنظرية الاستقصاء الرباعية التي يصعب الفصل بينها، فمسائل الواقعة يصعب فصلها عن قضية التعريف، والتعريف في حد ذاته يلعب دورًا مهمًا في التفسير القانوني للأمور، وقضايا المنطوق الحر للقانون، والقصد من ورائه تتكرر عند مناقشة المسائل التفسيرية القانونية الأخرى. (لمزيد من التفاصيل عن هذه التطورات انظر قائمة المراجع المرفقة).

ومن المهم أن نلفت النظر إلى أنه حدث تطوران مهمان فى تناول المواقف العقلية والعامة فى تلك المرحلة الانتقالية من البلاغة الهللينية الممثلة فى الأعمال الرومانية الأولى مثل **البلاغة لهرنياس** **Rhetorica ad Herennium** وكتاب شيشرون المعنون **الابتكار** **De inventione** (أوائل القرن الأول قبل الميلاد) ووصولاً إلى أعمال شيشرون الأخيرة التي ظهرت فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، بالإضافة للكتاب الذي كتبه كينتليان تحت عنوان **قواعد الخطابة** **Institutio oratoria** وظهر فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد. ونلاحظ فى هذه الكتابات المتأخرة ظهور اتجاه لإلغاء فكرة دراسة الدعوى القضائية process كفئة تحليلية منفصلة، والنظر إليها على أنها شكل منفصل أو مختلف لمسائل الواقع issue of fact، والتعريف definition، والكيفية quality التي تتعلق بالوضع الإجرائي للقضية (لمزيد من الاطلاع انظر كتاب كينتليان ٣،٦،٦٨،٧٩، وكتب شيشرون **الخطيب** **Orator** ١٤ و١٥، وكتاب **أقسام الخطابة** **Partitiones oratoriae** ١٠١، وكتاب **المواضع الجدلية** **Topica** صفحة ٢١ و٨٢). ولا شك أن إقصاء الحوار أو المناظرة القانونية خارج هذا الإطار البلاغي يسهل إصرار كينتليان – والذي يسير على خطى شيشرون – على قوله بأن المكونات أو العناصر الثلاثة الباقية (وهي الحدس conjecture، والتعريف definition، والكيفية quality) تنطبق على كل المسائل، والنزاعات وليس فقط على النوع القضائي، كما أن المواقف القانونية، يمكن أن أيضا تندرج تحت هذه العناصر الثلاثة (٣,٦,٨٠ – ٨٢). ويحاول كينتليان فى نقاشاته التالية لنظرية الاستقصاء الرباعية إثبات وجهة نظره مشيرًا إلى أن مسائل الخطابة التشاورية issues of deliberative oratory تندرج أيضا تحت العناصر الثلاثة المذكورة (٣,٨,٤ – ٥)، ولكن يجب أن نذكر أن كينتليان اكتفى بهذا القدر ولم يتطرق كلية إلى جوانب أو أمثلة أخرى وثيقة الصلة بهذا الموضوع. ولم يبد الكتاب الذين جاءوا من بعده نفس الالتزام والاهتمام بهذه القضية، وإنما اهتموا بشكل

كبير بذلك الانتقال الصارم rigid transmission، ولم يشغلوا أنفسهم بالتفكير المستمر فى إعادة صياغة نظرية الاستقصاء الرباعية هذه، ويظهر هذا التوجه فى ضعف الاهتمام بالأمور والقضايا المتعلقة بممارسة الخطابة بصفة عامة، والعلاقة بين نظرية الاستقصاء الرباعية وممارسة البلاغة القانونية بصفة خاصة.

وبعد محاولات مبدئية محدودة التي قام بها هؤلاء الكتاب المتأخرين لدمج ما ورد ذكره عن الممارسة القانونية الرومانية فى أعمال كل من شيشرون وخاصة **البلاغة لهرنياس Rhetorica ad Herennium** وكتاب كينتليان، انشغل هؤلاء الكتاب بالبلاغة داخل الفصول الدراسية تاركين البلاغة القانونية داخل أروقة المحاكم ليقوم القضاة والقانونيون بدراستها.

وحينما قام هؤلاء الخبراء القانونيون بدراسة هذا الجانب من البلاغة، لم يظهروا فى حقيقة الأمر اهتمامًا بعناصر نظرية الاستقصاء الرباعية، وخاصة تلك المتعلقة بالحجج التفسيرية للمواقف القانونية، أو المبررات والحجج التي نوقشت فى سياق المواقف الكيفية. وفتح أوغسطين Augustine فى كتابه **حقيقة العقيدة المسيحية De doctrina christiana** (صدر فى بدايات القرن الخامس بعد الميلاد) مسارًا آخرًا للتأثير لتكييف عناصر المواقف القانونية لأغراض تفسير الإنجيل، ومن ثم دخلت فى تطور المنهج المدرسي الوسيط، ثم فى القانون الكنسي canon law. (انظر البلاغة فى العصور الوسطى Medieval rhetoric، المقال الخاص بالنحو فى العصور الوسطى Medieval grammar، ومقال الدين Religion). ومن خلال هذه القنوات القضائية التي قادت إلى العصور الوسطى وما بعدها استمرت نظرية الاستقصاء الرباعية فى ممارسة دورها المؤثر فى تطور القانون فى العالم الغربي، على الرغم من قلة الاهتمام بقواعدها فى الدراسات البلاغية والقانونية بشكل كبير.

وفي بدايات العصور الوسطى حينما كان الثقافة القانونية juristic sophistication في أدنى مستوياتها، نقل تدريس نظرية الاستقصاء الرباعية على الأقل المعرفة القانونية الأولية للأجيال التالية. وتعد الأعمال التي كتبها كل من ماريتيانوس كابيلا في Martianus Capella في كتابه **De nuptiis Philologiae et Mercurii** في القرن الخامس، وكاسيودوراس Cassiodorus في **الإرشادات Institutiones** في القرن السادس، وإيسيدور الإشبيلي Isidore of Seville في **عالم الإيتمولوجيا Etymologia** في القرن السابع الميلادي، وألوسيين Alcuin في **rhetorica et Disputatio de de virtutibus** في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع، ونوتكر لابيبو Notker Labeo في **فن البلاغة De arte rhetorica** في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر خير مثال على هذا الرأي. وقد واكب إحياء دراسة القانون الروماني في نهاية القرن الثاني عشر حدوث تطور تمثل في الاستبدال التدريجي لنظرية الاستقصاء الرباعية، وحلت محلها المقولات التصورية للجدل كأفضل تخطيط لتنظيم الحجج القانونية. (انظر الجدل Dialectic).

وعلى الرغم من ذلك استمرت الأعمال الأولى مثل كتاب **الموجز Summa** الذي كتبه سيكارد Sicard، وكتاب **Libellus disputatorius** الذي كتبه بليوس Pilius (وكلاهما ينتمي للعقود الأخيرة من القرن الثاني عشر) في استخدام هذا التخطيط (السابق ذكره) في تنظيم الفروض القانونية legal assumptions، وهو دليل إرشادي يلقي الضوء على الاختلاف القانوني الجوهري بين الأسئلة المتعلقة بالحقيقة الواقعية questions of fact وتلك المتعلقة بالقانون questions of law.

واستمرت معظم الكتب المخصصة لتدريس البلاغة في إبراز نظرية الاستقصاء الرباعية على الرغم من اختفائها من التطبيقات القانونية المعاصرة.

ويعد كتاب **Rhetoricorum libri V** (١٤٣٣) الذي ألفه جورج أوف تريبزوند George of Trebizond من أكثر الكتب التي تناولت نظرية الاستقصاء الرباعية فى فترة عصر النهضة، وهذا الكتاب ما هو إلا إشارة أو خطوة فى اتجاه التطبيق القانوني من خلال إدخال بعض العناصر مثل السؤال عن الواقع، والأسماء، والأنواع، والأفعال لمواقف العلاقات الأربع، وبخاصة الأول والرابع منها بالنسبة للاصطلاح القانوني (انظر الاستعراض الكامل لهذه التفاصيل فى المقال المعنون بالبلاغة فى عصر النهضة Renaissance rhetoric). وما زلنا نعثر على إشارات للأربعة جوانب الخاصة بالجدال القانوني فى تلك الكتب القانونية التي خصص فيها أجزاء لمناقشة التفسير أو التأويل القانوني legal interpretation ويظهر إحياء الاهتمام بهذه الجوانب الأربعة فى نهاية القرن الخامس عشر والذي واكب صعود جنس أو نوع أدبي منفصل يتناول التفسير القانوني. وتضم قائمة أهم الكتب فى هذا المجال الأسماء التالية: كتاب **De interpretatione legum** الذي كتبه ستيفانوس دي فيديريسيس Stephanus de Federicis عام ١٤٩٥ (تقريبا)، وكتاب **Iurisconsultus** الذي كتبه فرانشويس هوتمان François Hotman فى عام ١٥٥٩، وكتاب **Interpres** الذي كتبه فالنتين ويلهيلم فورستر Valentin Wilhelm Forster عام ١٦١٣. كما نجد إشارات واضحة للتفسير القانوني فى بعض المؤلفات التي ظهرت بعد ذلك، مثل كتاب **De iure belli ac pacis** الذي ألفه هوجو جورتياس Hugo Grotius فى عام ١٦٢٥، وكتاب **De iure naturae et gentium** الذي ألفه صمويل بوفيندورف Samuel Pufendorf فى عام ١٦٧٢.

وأدى الاهتمام بالتشريع السياسي فى القرن الثامن عشر وخاصة في الدول الأوربية إلى ظهور دعوات تطالب بعلم التأويل القانوني a science

of legal hermeneutics، وكان البعض يعتقد أن هذا العلم (المنفصل و المستقل) سوف يضعف التفاعل بين التأويلات المتضادة، ويظهر هذا جليًا فى التراث البلاغي الذي تناول نظرية الاستقصاء الرباعية، ومفضللا المناهج التي كانت تطالب بوجود تأويلات صحيحة ومتفردة للمعايير القانونية. ويظهر هذا التوجه فى بعض المؤلفات مثل كتاب **Hermeneuticae iuris libri duo** الذي كتبه Chr. H. Eckhard فى عام ١٧٥٠، وكتاب **Theorie der Auslegung des römischen Rechts** الذي كتبه إيه. أي.جيه ثايبوت A.E. J. Thaibut، وظهرت طبعته الثانية فى عام ١٨٠٦، وكتاب **System des heutigen römischen Rechts** الذي ألفه إف. سي. فون. سافيجني F.C.Von Savigny فى عام ١٨٤٠. (انظر البلاغة فى القرن الثامن عشر Eighteenth - century rhetoric وكذلك القانون Law).

ويعد كتاب ويليام بلاكستون William Blackstone المعنون **تعليقات على القوانين فى إنجلترا** **Commentaries on the Laws of England** (الفترة ما بين ١٧٦٥ - ١٧٦٩) من الأعمال التي أظهرت تقبلاً لإمكانية وجود الجدل فى التأويل القانوني. وهي فكرة لا تبدو مزعجة فى ثقافة طالما أكدت على أهمية الاستقلال القضائي. وعلى الرغم من ذلك تناول المحامي الأمريكي جون كوينسي آدمز John Quincey Adams (والذي أصبح فيما بعد رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية) باختصار فى كتابه **محاضرات فى البلاغة والخطابة** **Lectures on Rhetoric and Oratory** (نشر فى عام ١٨١٠) المواقف العقلانية، ولم يرد ذكر المواقف القانونية إطلاقًا. ويصر آدمز على أن إقرار العدل هو فى جوهره قياس منطقي محكم، يمثل فيه القانون المكتوب القضية الرئيسية الكبرى، ويمثل فيه حكم المحلفين القضية الصغرى، وتمثل فيه العقوبة sentence النتيجة (لهذه القياس) (انظر القياس المنطقي Syllogism).

واستمر هذا التفضيل للقياس المنطقي على الفهم البلاغي فى الحجاج القانوني طيلة القرن التاسع، ولكنه أصبح هدفا للهجوم من ذلك الوقت.

كانت هناك حركة إحيائية قوية للاهتمام بالبلاغة بشكل عام ونظرية الاستقصاء الرباعية بشكل خاص، وخاصة فى النصف الثاني من القرن العشرين. وينعكس هذا الاهتمام فى قائمة المراجع المرفقة (في آخر هذا المقال)، والتي سوف تقود القارىء إلى قراءة موسعة فى هذا المجال. وبغض النظر عن الدراسات التاريخية ركزت المناقشات بصفة رئيسية على مدى إمكانية تطبيق نظرية الاستقصاء الرباعية على الحجاج التشاوري والقضائي، فضلاً عن نظرية الحجاج العام general argumentation theory. وإذا كانت هذه التحليلات توضح أن نظرية الاستقصاء الرباعية تقدم اقتراحات واعدة فيما يتعلق بنظرية وممارسة الحجاج المعاصر، إلا أن تقييم مدى تحقق هذا الأمر إذا ما تم استخدام نظرية الاستقصاء الرباعية فى التطبيق المعاصر مازال ينتظر الكثير من الأعمال فى القرن الحادى والعشرين التي ستدلي بدلوها فى هذا الصدد (انظر الحجاج Argumentation و نوع الخطابة التشاورية Deliberative genre).

(انظر أيضا التحايل الشرعي على القوانين Casuistry، والبلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric، ونوع الخطابة النيابية أو القضائية Forensic genre، والابتكار Invention، والمناسبة والحدث Occasion، والمواضع الجدلية Topics).

قائمة المراجع

Barwick, Karl. "Zur Erklärung und Geschichte der Staseislehre des Hermagoras von Temnos." *Philologus* 108 (1964), pp.pp. 80–101.

Braet, Antoine C. "Variationen zur Statuslehre von Hermagoras bei Cicero." *Rhetorica* 7 (1989), pp.pp. 239–259.

Braet, Antoine. *De klassieke statusleer in modern perspectief. Een historisch - systematische bijdrage tot de argumentatieleer.* Groningen, The Netherlands, 1984.

Calboli Montefusco, Lucia. *La dottrina degli "status" nella retorica greca e romana*. Hildesheim, 1986.

Heath, Malcolm. "The Substructure of Stasis - Theory from Hermagoras to Hermogenes." *The Classical Quarterly* 44 (1994), pp.pp. 114–129.

Hohmann, Hanns. "Juristische Rhetorik." In *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, edited by Gert Ueding, vol. 4, col. 779–832. Tübingen, 1998.

Hohmann, Hanns. "Classical Rhetoric and Roman Law: Reflections on a Debate." *Jahrbuch Rhetorik* 15 (1996), pp.pp. 15–41.

Hohmann, Hanns. "The Dynamics of Stasis: Classical Rhetorical Theory and Modern Legal Argumentation." *American Journal of Jurisprudence* 34 (1989), pp.pp. 171–197.

Hultzén, Lee S. "Status in Deliberative Analysis." In The *Rhetorical Idiom: Essays in Rhetoric, Oratory, Language, and Drama Presented to Herbert August Wichelns*, edited by Donald C. Bryant, pp.pp. 97– 123. New York, 1966.

Leff, Michael. *The Frozen Image: Sulpicius Victor and the Ancient Rhetorical Tradition*. Ph.D. Dissertation: University of California, Los Angeles, 1972.

Matthes, Dieter. "Hermagoras von Temnos 1904–1955." *Lustrum* 3 (1958), pp.pp. 58–214.

Nadeau, Ray. "Hermogenes on 'Stock Issues' in Deliberative Speaking." In *Readings in Argumentation*, edited by J.M. Anderson and P.J. Dovre, pp.pp. 142–151. Boston, 1968.

Nadeau, Ray. "Hermogenes' On Stases: A Translation with an Introduction and Notes." *Speech Monographs (Communication Monographs)* 31 (1964), pp.pp. 361–424.

Nadeau, Ray. "Classical Systems of States in Greek: Hermagoras to Hermogenes." *Greek, Roman, and Byzantine Studies* 2 (1959), pp.pp. 53–71.

Newman, R. P. "Analysis and Issues—A Study of Doctrine." In *Readings in Argumentation*, edited by J. M. Anderson and P. J. Dovre, pp.pp. 166–181. Boston, 1968.

Stroux, Johannes. *Römische Rechtswissenschaft und Rhetorik. Potsdam*, 1949.

Vonglis, Bernard. *La lettre et l'esprit de la loi dans la jurisprudence classique et la rhétorique*. Paris, 1968.

Wesel, Uwe. *Rhetorische Statuslehre und Gesetzesauslegung der römischen Juristen*. Köln, 1967.

تأليف: Hanns Hohmann

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الأسلوب Style

الأسلوب مقولة مركزية في البلاغة، تمتلك فى الوقت نفسه دلالة ثقافية عميقة. وبوصفها تعبيرًا بلاغيًا، فإنها جوهرية بالنسبة إلى البلاغة، غير أنها أيضا ترتبط بشكل مهم بميادين أخرى من الإنتاج الثقافي مثل الأدب، ولها دلالات ضمنية سوسيو – جمالية عميقة. يشكل الأسلوب الجزء المركزي فى المراحل الخمس التي تصورها النموذج التقليدي للإنتاج النصي، ونظرية الواجبات الخمسة أو فنون البلاغة (officia oratoris, partes rhetorices). بعد اكتشاف الأفكار المعقولة والحجج في مرحلة أولى من مراحل عملية التأليف (الإيجاد inventio) وترتيبها أو توزيعها على نحو مؤثر فى مرحلة ثانية (الترتيب dispositio)، يتم التعبير عنها فى لغة خاصة فى مرحلة ثالثة (الأسلوب elocutio)، التي يعقبها تذكر النص فى مرحلة رابعة (الذاكرة memoria)، ثم الإلقاء (الفعل actio) فى مرحلة خامسة. إن الأسلوب elocutio حاسم فى عملية تأليف النص، لأنه مسؤول عن تجليه بوصفه نصًا. فهو الذي يمنحه وجودًا لغويًا. ومن دونه أو من دون التعبير اللغوي، لا يمكن الإيجاد والترتيب أن يحدثا تأثيرا، كما أنه هو الذي يمنح الأساس إلى الذاكرة والإلقاء. يُعبّر كينتيليان (القرن الأول الميلادي ce) عن الطبيعة الجوهرية للأسلوب قائلا إن أفكارنا من دون أسلوب لا جدوى منها مثلها مثل سيف ظل مخبأ في غمده (Institutio oratoria 8, Prooemium; p. 15). فيما سيأتي سيتم النظر أولا إلى مفهوم الأسلوب فى معناه البلاغي الضيق، أي بوصفه نسقا قديما، ثم يرد بعد ذلك وصف التطورات المهمة فى تاريخ المفهوم وفي

نسقه، وذلك ابتداء من العصور الكلاسية حتى القرن العشرين الذي سيشمل قضايا جمالية وثقافية أوسع، ما دام الأدب والثقافة ظلا بشكل حميم مرتبطين لفترة طويلة بالبلاغة وعلى نحو خاص **بجزئه المركزي** المتمثل فى الأسلوب. وستتم أيضا مناقشة انفصال مفهوم الأسلوب عن البلاغة الذي حدث فى المرحلة الرومانسية، وما نتج عن ذلك من تطور أفكار غير بلاغية جديدة حول الأسلوب.

الأسلوب ومكوناته فى العصور القديمة.

في العصور القديمة تبلور نسق شامل ومتماسك للأسلوب ومظاهره، وكان العمل الأكثر تأثيرا فى هذا السياق هو "Rhetorica ad Herennium" (c. 80 bce). هذا العمل المنسوب إلى شيشرون سيعتمده الكتاب المتأخرون فى معالجتهم للأسلوب، من كينتيليان حتى عصر النهضة. تفترض النظرية الكلاسية انقسامًا بين المحتوى (res) والشكل (verba) يصل بينهما جسر الأسلوب. فالمتكلم يجعل حججه مؤثرة بواسطة تقديمها فى قالب لغوي ملائم. يحدد مؤلف "Ad Herennium" (١. ٣) الأسلوب بوصفه "مطابقة الألفاظ والجمل ومناسبتها للمحتوى المبتكر" (idoneorum verborum et sententiarum ad inventionem adcommodatio). وتستخدم فى هذا السياق عادة استعارة تصف الأسلوب بأنه لباس أو زخرف (inventa vestire atque ornare oratione, Cicero, De oratore, 1.142). [انظر: البلاغة الكلاسية].

وتعد نظرية صفات الأسلوب أو مزاياه (virtutes elocutionis) ونظائرها السلبية، عيوب الأسلوب (vitia)، جزءًا مهمًا من مفهوم الأسلوب التي طورها تلاميذ أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) أمثال ثيوفراستوس Theophrastus وديميتريوس Demetrius ثم تولاها شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) وكينتيليان.

المزية الأولى المذكورة هي نقاء اللغة وصحتها (latinitas)، وهي تعد إلى حد بعيد سؤالا يتعلق بالنحو؛ يعنى بالاختيار الصحيح للألفاظ، مثلما يعنى بصحة تأليف اللفظ وبصحة التركيب. وتسمى أي رخصة فى الانحراف عن الصحة بميتابلاسم metaplasm، وهو تحول فى اللفظ لأغراض فنية شعرية. وينتمي هذا الصنف ممن الصور إلى ما يدعى بالرخص (licentiae)، وهي انحرافات عن المعيار النحوي لأغراض أسلوبية. ويسمى الانحراف غير المسموح به عن الاستعمال الصحيح عيبا (vitium). ويسمى استخدام الألفاظ غير المناسبة مثل العبارات المبتذلة والمهجورة والمحدثة والتغييرات التي لا تغتفر فى صوت اللفظ وشكله، بالعُجمة (barbarismus)؛ ويدعى أي خرق لا يغتفر فى البناء التركيبي لحنا (soloecismus).

المزية الثانية من بين مزايا الأسلوب هي الوضوح (perspicuitas)، وهو مطلب لتحقيق الصدق فى ألفاظ الخطيب؛ أي استخدام الألفاظ والجمل الواضحة وغير الملتبسة. ويعد الغموض (obscuritas) وهو نقيض الوضوح عيبًا. ويمكن أن يشتق الغموض من اللبس، ومن الإيجاز الشديد، أو من التطويل. وترتبط مزية الأسلوب الثالثة بالوضوح، وهي الشاهد evidence (GK. Enargeia, Lat. evidentia)، الذي يروي بشكل حي أحداثا حقيقية أو متخيلة لجعل المستمع شاهد عيان (ante occulos ponere). وبينما يتجه الوضوح إلى إحداث أثر فى الملكة العقلية للمتلقي (logos)، ينزع الشاهد إلى إثارة الانفعالات والعواطف (pathos). والخاصية الأسلوبية المرتبطة بالشاهد وبالمزية الأكثر عمومية المتمثلة فى حيوية التعبير وقوته (enargeia) هي التفخيم (amplificatio)، وتعني إعلاء الحجة أو تكثيفها بواسطة خصائص بلاغية مثل المبالغة exaggeration (incrementum)، والمقارنة (comparatio)، وإركام التعبيرات (congeries).

ويعد التناسب (aptum) مزية الأسلوب الرابعة. وتتطلب هذه الصفة أن تلائم ألفاظ الخطيب موضوع الخطاب وشخصية المتكلم وطبيعة الجمهور المستمع والزمان والمكان. وتمتد مقولة التناسب من البلاغة إلى الأدب والحياة والثقافة بشكل عام. بالنسبة إلى شيشرون يعد التناسب ذات أهمية كلية: "القاعدة الكلية هي اعتبار التناسب سواء فى الخطابة أو فى الحياة" (De oratore, p. 71). ويترادف مع التناسب لفظ الذوق decorum، وهو ذو إيحاء أخلاقي. [انظر: Decorum]. وقد أكد كينتيليان على البعد الأخلاقي فى مفهوم التناسب: "من الملائم بالنسبة إلى كل الرجال فى كل الأزمنة وفي كل الأمكنة أن يتصرفوا ويتكلموا كما يليق برجل شريف" (Institutio oratoria 11. 1. 14).

المزية الخامسة من مزايا الأسلوب هي الزخرف أو الزينة (ornatus). والزخرف مبدأ جمالي فى الأسلوب (بليث، ١٩٧١) فهو فى حد ذاته شرط لازم لإحداث البهجة فى المتلقي (delectare). يتكون الزخرف من المجازات والصور البلاغية والصوت والإيقاع. فى العصور القديمة، كان الزخرف يحظى بوزن كبير، وكان يدرك بوصفه أكثر من مجرد إضافة عرضية. وكما يشير كينتيليان فى مدخل تناوله للزخرف، فإن الصحة والوضوح ليسا كافيين على نحو مؤكد لضمان نجاح الخطيب (٨. ٣. ١). فالمرجح أكثر أن يقتنع المستمعون عندما تحدث مهارة المتكلم فى استخدام الزخرف البهجة أو حتى الإعجاب (٨. ٣. ٥). ثمة توتر مؤكد بين مطالب الوضوح وبين الزخرف؛ إذ ينبغي للخطيب فى سعيه إلى زخرفة خطابه ألا ينحرف بشدة عن مزية الوضوح ويسقط ضحية عيب الغموض.

المجازات والصور أو الصيغ البلاغية.

طورت البلاغة الكلاسية نسقا وصفيا وتصنيفيا لمقولات الأسلوب، وقد ابتكر فى الأصل للإقناع فى معناه الأولي، بيد أنه وفر قاعدة للأسلوب فى

الأدب أيضا. التمييز الجوهري الذي أقيم فى الكتابات الكلاسية حول الأسلوب كان بيْن المجازات والصور أو الصيغ البلاغية. **فالمجازات تتكون من الاستخدام المجازي للألفاظ المفردة (أو الجمل)؛ فالاستبدال** هو المبدأ الأساس فى تكوين المجازات، حيث يحل اللفظ المجازي (verbum improprium) محل اللفظ الحقيقي (verbum proprium). ويمكن تمييز المجازات بواسطة معيار المسافة الدلالية القليلة أو الكبيرة بين اللفظ الحقيقي واللفظ المجازي. هناك فى الواقع تنوع كبير فى العلاقات الدلالية فى المجازات يمتد من التطابق الأمين مع اللفظ الحقيقي (الترادف) إلى التعارض (التضاد antonymy). إذا قلت "أخيل يزأر فى المعركة"، بدل "أخيل محارب ممتاز"، فهناك تشابه دلالي بين اللفظين الحقيقي والمجازي، وهو ما يميز الاستعارة بوصفها مجازا فى هذا المثال. غير أنني إذا قلت عن عملاق: "يا له من قزم"، فثمة تباين دلالي واضح بين اللفظين، أو بتعبير آخر ثمة شكل أقصى من التباين يميز التعبير بوصفه سخرية. كما أن المجازات صنفت تقليديا أيضا بالاستناد إلى العلاقات المنطقية التي يمكن أن توجد بين اللفظين اللذين يدخلان فى الاستبدال مثل النوع مقابل الجنس والسبب مقابل النتيجة، والجزء مقابل الكل. [انظر: صور الخطاب].

تحدد البلاغة مختلف أنواع الاستبدال التي تدخل فى تكوين المجازات. في الكناية عن الصفة periphrasis يستبدل باللفظ الحقيقي تعبير غير مباشر يقوم عادة بخدمة التفخيم. للكناية عن الصفة وظائف مختلفة تمتد من التلطيف اللفظي (التهوين euphemism) إلى التحديد. والمثال على الكناية عن الصفة سوف يكون استبدالا للتعبيرات، كأن نقول "قضى نحبه" و"ذهب إلى عالم أفضل" و"ألقى بالدلو" بدل "مات". وهناك صيغة خاصة للكناية عن الصفة بنكهة ساخرة تتمثل فى صيغة الإثبات بالنفي litotes التي تقوم على إثبات الشيء بواسطة نفي ضده، كقولنا "إنه ليس شاعرا عاديا". والمجاز المرسل هو تعبير ينوب فيه الجزء عن

الكل، والخاص عن العام، والمفرد عن الجمع، وعكس ذلك. وهناك مثال، "ثلاث أسر تعيش تحت سقفي". يقارن كينيث بيرك فى كتابه (أجرومية الموتيفات Motives، ١٩٥٥، ص. ٥٠٨) العلاقة "التمثيلية والنيابية" للفظين الحقيقي والمجازي فى المجاز المرسل بالعلاقة الفلسفية بين العالمين الكبير والصغير. والصيغة الخاصة للمجاز المرسل المطبقة على الأسماء هي الاستبدال البلاغي (الكناية) antonomasia، مثال ذلك إطلاق لقب "الشاعر المتجول" " the bard of Avon" على شيكسبير، ودينمارك "Denmark" على ملك الدنمارك، وكازانوفا "casanova" على الفاسق.

والصورة المرتبطة بالمجاز المرسل هي الكناية التي تستبدل لفظا بلفظ آخر تقوم بينهما علاقة تجاور، كعلاقة السبب والنتيجة، والمؤلف والعمل، والمحل والمحتوى. وأمثلة ذلك قولنا "الصحافة" بدلا من الصحف، و"الخشبة" بدلا من المسرح، و"الفولاذ" بدلا من السكين. وبينما تقوم الكناية على التجاور، وهو علاقة حقيقية بين لفظين، تعبر الاستعارة عن الشيء بألفاظ شيء آخر ينتمي إلى سياق مختلف يقوم بينهما تشابه، مثال ذلك قول شيكسبير "شتاء سخطنا" (Richard III). كان كينتيليان يؤمن مثل الآخرين بأن الاستعارة هي تشبيه مقتضب؛ على هذا النحو يصبح تعبير "إنه أسد" نسخة مختصرة لتعبير "إنه مثل أسد" (٨. ٦. ٨)، غير أن التشبيه يختلف عن الاستعارة فى كونه لا يقوم على أساس مبدأ الاستبدال. وتختلف الأمثولة الكنائية allegory بوصفها مجازا عن الاستعارة بامتدادها واسترسالها الكبيرين، ويسميها كينتيليان بـــ"الاستعارة الممتدة أو المسترسلة"(٩. ٢. ٤٦). فى الأمثولة يتم التعبير عن فكرة أو مركب من الأفكار بواسطة صورة أو مركب من الصور المماثلة (مثال ذلك اعتبار رحلة فى البحر أمثولة لتقلبات الحياة). إن المجازات ليست دائما قابلة للتصنيف الواضح؛ فالسطر المأخوذ من قصيدة "طلوع الشمس The Sunne Rising" لجون دون John Donne: "إنها جميع الدول وجميع الأمراء"

"She's all States and, all Princes"، يحتوي على استعارتين يمكن تحديدهما بوصفهما صيغتي مبالغة؛ أي استبدال التعبير المبالغ فيه باللفظ الحقيقي. وباسترسال الاستعارة في هذا السطر، يصبح ذا صلة بالأمثولة أيضا.

اعتادت البلاغة الكلاسية أن تقيم تمييزا بين المجازات وبين الصور أو الصيغ البلاغية. فبينما تتشكل المجازات بعملية الاستبدال ذات النتائج الدلالية، فإن الصور أو الصيغ البلاغية لا تحدث فى العادة تغييرا فى المعنى. يحدد بليث (١٩٧٧)، متبعا فى ذلك كينتيليان (٩. ١. ٤)، الصورة بوصفها "أصغر وحدة لغوية تقوم على الانزياح". يمكنها أن تتميز بوصفها تحولا عن المألوف فى الصيغة وترتيب اللفظ أو التأليف فى متتالية من الألفاظ (فوهرمان Fuhrmann)، وهو تحول لا يؤثر فى معنى الألفاظ المفردة، ولكنه يمكن، مع ذلك، أن يمتلك تأثيرات عميقة فى القوة العاطفية والضغط الحجاجي للتلفظ. وفي تقليد يعود إلى الأزمنة الكلاسية، وخاصة كينتيليان (١. ٥. ٣٨ - ٣٩)، أقيم تمييز بين ثلاثة أصناف من الانحراف: الزيادة (adiecto) والنقص(detractio) والنقل أو التبادل (transmutatio). (وقد أضاف كينتيليان صنفا رابعا هو الاستبدال أو التعويض immutatio الذي يحيل إلى تكوين المجازات). وفي فحص شامل حديث قائم على التراث الكلاسي للصور البلاغية، ميز بليث (١٩٧١) بين صور الموقع وصور التكرار وصور الكم وصور الاستئناف appeal.

وصور التكرار مألوفة إلى حد بعيد فى البلاغة وتحدث بأشكال شديدة التنوع، مثل تكرار الصدارة anaphora وتكرار نهاية الجملة epistrophe وتماثل النهاية والبداية anadiplosis. وهناك مثال يوضح القوة العاطفية الممكنة فى التكرار، هو السطر الشعري المرسل المشهور فى مسرحية الملك لير: "أبدا، أبدا، أبدا، أبدا، أبدا". وصور التكرار الجزئي هي جناس الاشتقاق polyptoton

(تكرار نفس الكلمة مع اختلاف فى تصريف النهايات، كما فى homo homini lupus)، والاشتراك اللفظي paronymy (تغيير اشتقاقي للفظ مكرر، مثال ذلك: "How should we term your dealings to be just, if you unjustly deal with those that in your justice trust ?) والجناس paronomasia (تقارب الألفاظ فى النطق واختلافها فى المعنى دون صلة اشتقاقية كقول شكسبير فى مسرحية روميو وجولييت "these times of woe afford no time to woo").

يعد الحذف صورة مركزية بين صور النقص، وهي ترك لفظ أو ألفاظ عديدة للقارئ يتولى إضافتها إلى القول، كما نجد فى "ما الأخبار؟". هناك صور أخرى للنقص، وهي السكوت الفجائي aposiopesis وتقوم على حذف نهاية قول ما utterance، والعبارة الجامعة zeugma وتقوم عادة على الربط بواسطة فعل واحد بين أسماء متباعدة دلاليا، مثال ذلك "الوقت وعمته يتحركان ببطء" (جين أوستين، كبرياء وحكم مسبق)، والفصل asyndeton ويقوم على حذف الروابط بين الكلمات والجمل أو الفقرات ("جاء، رأى، انتصر").

ومن صور الموقع، القلب على سبيل المثال، وهو تغيير فى الترتيب النحوي الصحيح لأجزاء الجملة (« Of man's first disobedience... /Sing, Heavenly Muse » ميلتون، الفردوس المفقود)، والمقابلة العكسية chiasmus وهي صورة تقوم على تكرار للألفاظ بترتيب عكسي؛ كقول شكسبير فى مسرحية ماكبيث "Fair is foul, and foul is fair".

ويعد الالتفات apostrophe الصورة المركزية من بين صور الاستئناف التي تستند إلى حضور المستمع أو جمهور المتلقين، ويذكر منها أيضا الاستفهام والاستئذان والتعجب.

الأساليب الثلاثة (genra elocutionis, genera dicendi).

تميز البلاغة الكلاسية بين ثلاثة أنواع ومستويات فى الأسلوب: الأسلوب الوضيع أو البسيط (genus humile)، والأسلوب المتوسط (genus medium) والأسلوب الرفيع والسامي (genus grande /grave/sublime). وكان هذا التمييز قد أقيم أولا فى كتابRhetorica ad Herennium . ويتوقف اختيار هذه الأنواع فى خطبة أو فى عمل أدبي فى الدرجة الأولى على: (١) قصد المتكلم؛ أي إذا ما كان يتوخى أن يعلم ويمتع أو يحرك (يقنع) (/docere probare, delectare, movere). (٢) وعلى طبيعة الموضوع المتناول الذي يتطلب أسلوبا معينا باعتبار ذلك نتيجة من نتائج التناسب (decorum(aptum. فالأسلوب الوضيع أو البسيط يلائم التعليم والإثبات. إنه يستعمل خطابا شائعا وطريقة التخاطب العامي، ويخلو بشكل كبير من المجازات، ولا يحتفي بالصور البلاغية. ومن بين أنواع الخطاب التي تستعمل تقليديا الأسلوب الوضيع هناك الرسالة والمقال واليوميات والسيرة والملهاة والهجاء والأدب التعليمي والخطاب العلمي. والأسلوب المتوسط أكثر سموا وتهذيبا فى الإلقاء من الأسلوب البسيط؛ فهو يتجنب ما هو عامي، ويزخر بالمجازات والصور البلاغية، ويمكنه أن يكشف عن شكل منمق. ويندر العثور هنا على صور الاستئناف، كما أن الإمتاع (delectare) هو التأثير المقصود. ومن بين أنواع الخطاب التي تستعمل الأسلوب المتوسط هناك الشعر الرعوي (Virgil's Georgica)، وسونيتات بيترارتش Petrartch وقصة Euphues لجون للي John Lyly وملاهي شكسبير. وتجنح البلاغة الاحتفالية إلى استخدام الأسلوب المتوسط.

والأسلوب الرفيع هو الأسلوب الأكثر سموا وتأثيرا، وهو يلائم الموضوعات السامية وعظيمة الشأن. ووظيفتها تحريك الجمهور "مثل شلال ضخم يدحرج

الصخور" (كينتيليان، ١٢. ١٠. ٦١). وهو أنسب ما يكون فى خاتمة الحديث، وأنواع الخطاب التي يستعمل فيها هذا الأسلوب قبل كل شيء، هناك الملحمة والتراجيديا الكلاسيتان.

المنزع الأدبي Literarization

الظاهرة التي يتوجب الوقوف عليها فى سياق تطور البلاغة الكلاسية والتي عاودت البروز فى العصور المتأخرة، هي عبور البلاغة من سياقها الشفاهي الأولي إلى سياق أدبي ثانوي. لقد استخدم جورج كينيدي George Kennedy اللفظ الإيطالي letteraturizzatione لتحديد طبيعة نزوع البلاغة نحو تغيير بؤرة اهتمامها من الإقناع الشفاهي إلى الأدب. ويمكن ملاحظة هذه النزعة عند كينتيليان فى العدد الكبير من نماذج الصور والمجازات التي استمدها من النصوص الأدبية.

العصر الوسيط

لم توجد فى العصر الوسيط مؤلفات بلاغية شاملة ونسقية مثلما نجد فى كتاب كينتيليان "نظام الخطابة". يتحدث فيكرز Vickers عن "تجزيء قروسطوي" للبلاغة. وباقتفاء البلاغة نزعة الأبحاث الكلاسية المتأخرة، فقد غدت مساوية عمليا للأسلوب. وبقدر ما تكون العناية بالأسلوب، يكون كتاب Rhetorica ad Herennium مؤثرا باستمرار. وقد كان الأسلوب موضوع أبحاث حول النحو (ars grammatica) والشعر (ars poetriae). والفرعان الاثنان فى النظرية البلاغية اللذان أنتجهما العصر الوسيط؛ أي فن كتابة الرسالة (ars dictaminis) وفن الوعظ (ars praedicandi)، لم يشكلا أي مبادئ حول الأسلوب. وقد استمر النقاش القديم حول التمييز بين الصور والمجازات، من لدن كتاب أمثال إيزيدور إشبيلية

Izidore of Secville (c. 560 - 636). وقد تمثل الإبداع القروسطوي فى إقامة التماثل بين فن الرسم والبلاغة؛ فقد سميت مقولات الأسلوب بـ"ألوان البلاغة" (colores rhetorici) فى عديد من الأبحاث. [انظر: اللون.] إنها تُجمّل أو تمنح لونا للغة العادية (مورفي، ١٩٧٤، ص. ١٨٩).على هذا النحو أضاف كتّاب أمثال أونولف Onulf of Speyer فى سنة ١٠٥٠ أو ماثيو Matthew of Vendome فى سنة ١١٥٧ لفظ "الألوان" إلى استعارات الزينة (ornatus, exornation) والكساء (vestitus) التقليدية. [انظر: بلاغة القرون الوسطى].

وتمثلت الظاهرة القروسطوية الأخرى فى بروز نوع من الشعرية أطلق عليه لفظ poetriae بني على مقومات التراث البلاغي الذي يحتل الأسلوب بينها موقعا خاصا (أمثال ماثيو من فيندوم وجيوفري من فينسوف وجون من غارلاند Matthew of Vendome, Geoffry of Vinsauf, John of Garland). وفي مجرى العصر الوسيط، وخاصة فى القرنين الثاني والثالث عشر، أصبحت البلاغة مصدرا مهما للشعراء. [انظر: الشعر] والتمييز الجديد الذي ظهر كان هو التفريق بين أنماط الأسلوب: النمط الأكثر تعقيدا والمكون في الأغلب من المجازات (ornatus difficilis)، والنمط الأبسط المكون في الأغلب من الصور البلاغية (ornatus facilis)، وهما المصطلحان اللذان طبقهما جون من غارلاند John of Garland (Knappe, p. 1040). أما جيوفري من فينسوف Geoffrey of Vinsauf فقد استخدم مصطلحي "الصعوبة المنمقة" (ornata difficultas) و"السهولة المنمقة" (ornata facilitas). ولا تتعلق هذه التمييزات بنظرية الأساليب الثلاثة الكلاسية التي يربطها جون غارلاند بعجلة فيرجيل rota Virgilii، وهي تصنيف مفصل لأعمال فيرجيل البارزة على أساس الأساليب الثلاثة (Faral ; Quadlbauer).

عصر النهضة

لقد مثلت إعادة اكتشاف المؤلفين الكلاسيين فى عصر النهضة إعادة اكتشاف للبلاغة.

بلاغة عصر النهضة والاتجاه نحو الأسلوب

شملت النهضة جميع ميادين الإنتاج الثقافي حتى سمي هذا العصر بعهد الثقافة البلاغية (بليث، ١٩٩٣). ولما كان المؤلفون الكلاسيون أمثال كينتيليان قد جعلوا تدريس البلاغة جزءا من برنامج تعليمي واسع النطاق، فإن دعاة المذهب الإنساني أمثال إيرازموس Erasmus(c. 1466 - 1536) قد نظروا إلى الكفاية البلاغية بوصفها ملكة مركزية فى عملية ارتقاء الإنسان إلى الإنسانية الكاملة. يمكن أن يكون ذلك استمرارية بين العصر الوسيط وعصر النهضة مادام التركيز على الأسلوب قائما. غير أن بروز البلاغة فى عصر النهضة كان فى الأساس نتاج بحث واستيعاب وتركيب للأبحاث الكلاسية (فيكرز، ص. ٢٥٥)، كما يوضح ذلك فهرس مورفي المختصر(١٩٨١) وببليوغرافيا بليث (١٩٩٥). ومع بداية عصر النهضة بالضبط سيحظى الأسلوب بالاهتمام الأكبر بدل الإيجاد أو الترتيب، كما نجد ذلك فى كتاب لورنزو فالا Lorenzo Valla " Elegantiae lingua latinae" (١٤٤٧) أو كتاب أغوسطينو داتي Agostino Dati "Elegantiolae" (١٤٧٠)، وهما يشكلان مجموعة حواشي تتعلق بنماذج وتعاليم حول التعبير تتوخى تقديم اللغة اللاتينية فى صورتها التامة إلى القارئ وتزويده بأسس نحوية وأسلوبية لأجل تحسين لغته اللاتينية الخاصة. وقد كان هناك اعتراف بأن شيشرون (١٠٦ – ٤٣ قبل الميلاد) أستاذ الأسلوب الذي لا يُتجاوز. وكان هدف هذا النمط من الأدب، الذي يقف فيه تقليد إيرازموس De copia verborum ac rerum(1512)، تمكين متلقيه من تطوير أسلوب غزير (copiosus و ornatus).

وتنتمي الكتب المرشدة مثل Baldassare Castiglione's Il Cortegiano (1528) التي رعت المحادثة اللبقة ذات الشكل الأكثر تهذيبا بوصفها غاية فى ذاتها، إلى أوضح تجليات انشغال عصر النهضة بالأسلوب. [انظر: Copia وكذلك فقرة "البلاغة فى لغة وأدب عصر النهضة" ضمن مادة "بلاغة عصر النهضة"].

إن الاتجاه نحو الأسلوب، الذي يعد تطورا مهما فى عصر النهضة، تجلى فى الطبيعة المتميزة التي اتخذتها كتب البلاغة فى هذا العصر. ويعد كتاب فيليب ميلانشطون Philipp Melanchthon عن البلاغة (١٥٢١) الذي شدد على الأسلوب على حساب الإيجاد (Knape) عملا رائدا فى هذا السياق؛ فتقريره الشامل والمتميز بشكل رفيع حول صور الأسلوب، شكل قدوة لعديد من كتب البلاغة فى عصره. ويُعدُّ كتاب هنري بيشام "حديقة البيان" (١٥٧٧، ١٥٩٣) الموجز الإنجليزي الأكثر كمالا حول صور الأسلوب. وبيشام يمنح للصور أهمية أكبر مما يمنحها للمجازات. إنه يولي الأهمية إلى الإمكانات العاطفية والتعبيرية فى الصور ويصنفها وفق قوتها العاطفية (Vickers, pp. 327 - 326). يقول فى تقديمه (الرسالة) "Epistle" لطبعة ١٥٧٧، "..الخطيب يمكن أن يقود المستمعين نحو الجهة التي يشاء، ويجرهم نحو العاطفة التي يريد: يمكنه أن يجعلهم غاضبين ومبتهجين وضاحكين وباكين ومعولين، ويجعلهم يحبون ويكرهون ويشمئزون.... تسهم الصور فى نظر بيشام جوهريا فى قدرة البلاغة على تحريك الناس؛ إنه يمثل عديدا من كتاب البلاغة فى عصر النهضة الذين آمنوا بأن الإقناع يعمل بواسطة التأثير فى الانفعالات والعواطف (بليث١٩٧٥؛ فيكرز ١٩٨٨). [انظر: الباثوس]

تفضيل الأسلوب فى الراموسية.

ويعد "البلاغة الأركادية" "The Arcadian Rhetoric" (١٥٨٨) لأبراهام فراونس Abraham Fraunce كتابا بلاغيا آخر أظهر جنوح عصر النهضة نحو

الأسلوب، ويحيل عنوانه إلى رواية فيليب سيدني "أركاديا" Arcadia (١٥٨١)، الذي أخذ منه شواهده على صور الأسلوب. يتكون الكتاب من قسمين؛ القسم الأول، وهو الأطول، مخصص لمعالجة الصور وقضايا النظم والإيقاع، بينما تناول القسم الثاني، وهو قصير نسبيا، الإلقاء (actio, pronuntiatio). يميز هذا التقسيم النص بوصفه ينتمي إلى الراموسية، وهي مدرسة تأصلت في القرن السادس عشر ومارست تأثيرا قويا في القرن السابع عشر. وقد سميت بعد مؤسسها بيتروس راموس Petrus Ramus (Pierre de la Ramée, 1515 - 1572)، الذي كان يدرس البلاغة في باريس بصحبة صديقه ونصيره أومير طالون Omer Talon (Audomarus Talaeus). لقد حاول أتباع الراموسية الذين كانوا منظرين نسقيين، وكانوا يرون أن البلاغة والجدل يتناولان إلى حد كبير نفس الموضوعات، إعادة تحديد ميادين هذين الحقلين. لقد أثبتوا أن البلاغة باهتمامها بالإيجاد (inventio) والترتيب (dispositio) قد أعادت ما صنعه سابقا المناطقة بشكل جيد. لأجل ذلك جردوا البلاغة من الإيجاد والترتيب اللذين أسندوهما للجدل، مختزلين بذلك البلاغة في الأسلوب والإلقاء. وبهذا البتر للبلاغة وبالفصل بين تلازم الأسلوب والفكر، الذي شكل انقطاعا جذريا مع التقليد الكلاسي وبشكل خاص مع أرسطو وشيشرون، فإن أتباع الراموسية نزعة أثبتت نفسها خلال القرن السادس عشر، وهي نزعة مساواة البلاغة بالأسلوب.

القوة البلاغية للأسلوب الشعري

تمثل العلاقة القريبة بين البلاغة والأدب، التي سيلاحظها فراونس في كتابه الذي أخذ شواهده من الصور والمجازات عن كتاب سيدني، سمة مميزة لعصر النهضة. والعمل الشعري الذي يمكن استخدامه لبيان الانصهار المُميَّز بين البلاغة والأدب في هذا العصر هو كتاب جورج بوتنام "فن الشعر الإنجليزي"

(١٥٨٩) الذي يتناول الأسلوب فى المقام الأول. يتعمد بوتنام الربط بين الشعر والبلاغة. وقوله إن "الشاعر هو الخطيب الأكثر قدما من بين الجميع"، مرتبط بفكرة بدهية تفيد أن الزخرف البلاغي يناسب الشاعر أكثر مما يناسبه أي شيء آخر: "لا ريب فى أنه ليس ثمة شيء أنسب له، كما يناسبه أن يكون مزودا بكل الصور البلاغية، وهكذا تفعل اللغة الأكثر جمالا مع البيان والقول البليغ" (ص. ١٩٦). وعلة رأيه بأن الشعراء هم "أكثر إقناعا"، وهم يَفضُلون الخطباء فى السيطرة على الزخرف، وبما أن للزخرف القوة الأعظم فى السيطرة على أذهان الناس ومشاعرهم، فإن الشعراء هم أفضل البلغاء (مولر Muler، ١٩٩٤، ص. ١٤٣). ومثل غيره من منظري هذا العصر يثبت بوتنام أن النظم أنسب للزخرف من النثر، وبذلك فهو "أفصح وأبلغ". يوجد الأسلوب فى قلب هذا الفهم البلاغي للشعر. وقد أسندت للشعر نجاعة أكبر من تلك التي أسندت للبلاغة، لأن الشعر يفوق النثر فى استعداده لتقبل الصور والمجازات. ويمكن أن يكون هذا أحد الأسباب التي تفسر لماذا جعل شكسبير، الذي كان ربما هو أيضا منغمسا فى بلاغة عصر النهضة، نظم أنطوني تريومف Antony triumph فوق نثر بروتس Brutus فى العرض المسرحي لمسرحية يوليوس قيصر Julius Cesar.

الوظيفة الاجتماعية للأسلوب فى ثقافة التأنق

ثمة مظهر آخر للأسلوب المرتكز على الشعر ينبغي أن يذكر؛ فعمل بوتنام ينتمي إلى سياق ثقافة التأنق. ومفهومه للأسلوب يقوم على قاعدة سوسيوجمالية، عندما يستخدم استعارات الملابس. إنه يحاول أن يثبت أنه ما دامت السيدات المتأنقات يكتسبن جمالا مقبولا بالكساء الغني بالزخرف فقط، فإن الزخرف الأسلوبي هو الذي ينتج التأثير الجمالي فى الشعر. لقد صمم كتاب بوتنام "فن الشعر" بوصفه "علما" للتأنق يُعلم فن "الظهور بالمظهر

الجميل"، "المهنة الرئيسة للتأنق والشعر على حد سواء" (ص. ١٥٨). لقد انكشف الأساس الاجتماعي لنظرية الأسلوب عند بوتنام فى محاولته العثور على ما يعادل فى اللغة الإنجليزية مصطلحات الصور والمجازات فى اللغتين اليونانية واللاتينية. فى هذا السياق تبدو المجازات أكثر أهمية من الصور (التي كان بيشام وتابعه فيكرز يمنحانها الأولوية). يغلب على مصطلحات بوتنام أن تكون أسماء الفعل nomina agentis تحيل إلى أدوار اجتماعية. هكذا سميت المبالغة ب "the Ouer reacher" أو "the loud lyer"(ص. ١٩١)، وسميت الكناية ب"استعمال الاسم المغلوط"(ص. ١٨٠)، وسمي التحقير tapinosis بـــ"the Abbaser". ومن المهم جدا بالطبع أن يمنح الأمثولة اسم "المتأنق أو صورة الظهور بمظهر"، بوصفه المجاز الذي وضعه بوتنام فى مرتبة عالية فى كتابه عن تأنق فن الشعر.

الأسلوب بوصفه صورة الروح مقابل الأسلوب باعتباره كساء

التطور الذي حصل فى تاريخ مصطلح الأسلوب فى عصر النهضة كان هو تحول مفهومه لكي يصبح علامة على الروح، وهو المفهوم المنفصل كثيرا أو قليلا عن مفهوم الأسلوب البلاغي. فالأسلوب لم يكتسب معناه الحديث إلا فى عصر النهضة (مولر، ١٩٨١). ولفظ الأسلوب فى الإنجليزية مشتق من اللفظ اللاتيني stilus الذي يعني "دبوس" و"ساق" و"أداة للكتابة". وبواسطة الانتقال الكنائي تحول اللفظ الدال على وسيلة الكتابة إلى الدلالة على طريقة فى الكتابة والحديث (modus scribendi /dicendi). لقد اعتاد الكتاب اللاتينيون استخدام لفظ الأسلوب بمعناه المعياري، رابطين بينه وبين أنواع الأساليب الثلاثة (genera dicendi) على سبيل المثال، أو بالأنواع الدرامية كالكوميديا والتراجيديا،tragicus stilus, comicus stilus. لم يكن هناك سوى آثار لفهم يحدد الأسلوب بوصفه دليلا على فردية جلية؛ على سبيل

المثال فى جمل من قبيل stilus Aesopi أو stilus Homericus (مولر، ١٩٩٩). وقد وجد مفهوم الأسلوب بوصفه علامة على الشخصية على نحو خاص فى جنس الرسالة العائلية التي كانت تتحدد باعتبارها صورة أو مرآة للروح. ومثل هذه الاستخدامات للفظ الأسلوب حالت دون خضوعه لقواعد البلاغة ومبدأ المحاكاة. هكذا فإن اللغة الشعرية التي طورها غيدو غونيزولي Guido Gunizelli وغيدو كافالكانتي Guido Calvacanti وآخرون فى القرن الثالث عشر انطلاقا من الشعر البروفانسي، كان يستحسن تسميتها بـــ" dolce stil nuovo". وعلى الرغم من إعجابهم بالنماذج الكلاسية ومحاكاتهم لها، فإن الإنسانيين سعوا إلى تطوير أسلوبهم الخاص. وكانت صيغة "العبقرية والأسلوب" (ingenium et stilus, « l'ingegno e lo stile ») متداولة فى لاتينية بيترارك Petrarch's Latin والأعمال الإيطالية. فهو يؤمن بأن الأسلوب هو التعبير المعادل للعبقرية.

كان ذلك تعارضا فى عصر النهضة بين المفهوم التقليدي للأسلوب بوصفه كساء للفكرة (exornatio) المقترن بالذوق decorum البلاغي، وبين المفهوم الفردي الحديث للأسلوب بوصفه تجسيدا للفكر والذهن. هذان الموقفان يمكنهما أن يحدثا جنبا إلى جنب عند المنظر الواحد وقد يصعب فك ارتباطهما، كما هو الحال عند جورج بوتنام فى كتابه عن التأنق فى فن الشعر ١٥٨٩ (مولر، ١٩٩٤)، الذي حدد الأسلوب من جهة بوصفه تنميقا "exornation" – "الزخرف هو الرداء الملائم والأجمل للغة والأسلوب" (ص. ١٤٣)، ومن جهة أخرى بوصفه "صورة للإنسان [mentis character]" (ص. ١٤٨). فى جميع الأحوال، يبدو أن بوتنام يشدد على الأسلوب بوصفه كساء أكثر مما يشدد على الأسلوب بوصفه إنسانا. إن استعارة اللباس هي مجرد وسيلة مثيرة تم إجراؤها على فكرة الأسلوب فى كتاب "فن الشعر الإنجليزي". عندما قارن بوتنام الفساتين المزخرفة للسيدات المتأنقات بتزيين الشعر أسلوبيا بواسطة الصور

والمجازات، فإن صورة البلاغة فى عصر النهضة بوصفها سيدة فى ثياب فخمة – وهي الصورة التي تطابق بين البلاغة والأسلوب – ترد إلى الذهن. وبهذا الاعتبار يكون بوتنام مؤلف عصر النهضة بشكل متميز. وعلى العموم، فإن مفهوم الطابع الفردي للأسلوب نادر فى عصر النهضة، الذي كان إلى حد بعيد عصر المحاكاة. وقد برز قبل كل شيء لدى ممثلي مدرسة معارضي شيشرون. ووفق إيراسموس "Dialogus cui titulus Ciceronianus" (١٥٢٨)، فإن المحاكاة التامة لشيشرون والتعبير الأصيل عن الشخصية ينفي أحدهما الآخر. وقد حاول أن يبرهن أنه إذا كتبت مثل شيشرون، فإنك لن تتمكن من التعبير عن نفسك، وإذا لم تعبر عن نفسك، فإن أسلوبك سيكون صورة زائفة عن شخصيتك ("Si te ipsum non exprimis, mendax speculum tua fuerit oratio (Opera omnia, Amesterdam, 1971, 1. 2, p. 649). وعلى نحو أكثر جذرية أيضا، أثبت كل من ميشيل مونطين Michel Montaigne فى كتابه "مقالات" "Essais" (١٥٧١ – ١٥٨٥) وروبرت بورتن Robert Burtun فى كتابه "تشريح الملنخوليا (السوداوية)"(١٦٢١) أن محاكاة شيشرون ورصد القواعد البلاغية فى التأليف بشكل عام تعوق التعبير الذاتي الصادق. لقد دافعا عن مبدأ "الأسلوب ينم على الإنسان" stylus virum arguit (Burtun, Anatomy, London, 1881, p. 8).

الدعوة إلى أسلوب عار وتجديد مفهوم الأسلوب بوصفه كساء فى القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر.

عند نهاية القرن السادس عشر وفي القرن الثامن عشر كان مفهوم الأسلوب بوصفه كساء قد تم استبعاده نتيجة البيوريتانية والعلم الجديد وروح مذهب المنفعة وفلسفة العقلانية. فالحاجة إلى أسلوب بسيط وواضح أو "سهل"، قادت إلى إعادة تحديد مفهومه (Adolph ; Trimpi)، حيث أصبحت

صورة "عري" الأسلوب فى تعارض مع صورة الأسلوب بوصفه كساء للفكرة. لقد ظهرت استعارة العري على سبيل المثال فى كتاب (رسالة إلى السيد جون سيلدن) لبين جونسون Ben Jonson (١٥٧٢ - ١٦٣٧)، الذي مارس تأثيرا عميقا على حركة نحو مثل أعلى للأسلوب السهل. والاستعارة ذاتها يمكن العثور عليها فى بيان بيوريتاني حول أسلوب المواعظ بواسطة ويليام بيمبل William Pemble (A Plea for Grace, London, 1629, pp. 22 - 233). إن المجتمع الملكي الذي لم يسع إلى الارتقاء بنمو العلم فقط، بل دافع أيضا عن إصلاح اللغة والأسلوب، كان يدعو إلى "طريقة فى الكلام طبيعية وقريبة وعارية" تتخللها "تعبيرات إيجابية" و"معان واضحة" و"سهولة فطرية"، "حاملة كل الأشياء بالقرب من البساطة الرياضية" (Thomas Sprat. تاريخ المجتمع الملكي، ١٦٦٧، edited by J. I. Cope and H. W. jones, pp. p. 113. Saint Louis, 1958). ونتيجة لاستبعاد مفهوم الأسلوب بوصفه زخرفا، اختفت الصورة المرئية للبلاغة بوصفها سيدة ذات الكساء الغني التي ولع بها عصر النهضة.[انظر: Iconography]. ومع ذلك يمكن العثور على تنويع مهم لهذه الصورة فى نظرية كلوبسطوك F. G. Klopstock عن أسلوب النصف الثاني من القرن الثامن عشر، التي تعبر عن العلاقة بين اللغة والفكر بمساعدة الصورة الشبقية لفتاة تخرج من الحمام بكسائها الذي يلائم بإحكام جسدها (Kretzenbacher, p. 24 ; Muller 1996, pp. 164 - 165). يرتبط فى هذه الصورة مفهومان تقليديان فى نظرية الأسلوب: فكرة وضوح الأسلوب الذي يكشف عن الحقيقة "بشكل عار"، وفكرة الأسلوب بوصفه كساء.[انظر: بلاغة عصر النهضة، الجزء الخاص بالبلاغة فى عصر الإصلاح والإصلاح المضاد].

من الشيق أنه بعد الانتشار الواسع للأسلوب السهل والعاري فى القرن السابع عشر، أن يحدث فى عهد الكلاسية الجديدة فى النصف الأول من القرن

الثامن عشر تجديد معتدل لفكرة التحسين فى الأسلوب. فى هذه العملية اكتسبت استعارة الأسلوب بوصفه كساء حياة جديدة. فى كتابه "مقال عن قصيدة فرجيل "زراعيات" "An Essay on Virgil's « Georgics »(1697)"، يقابل جوزيف أديسون Joseph Addison بصراحة بين فكرة الكساء وفكرة العري، عندما يقول إن "الزراعيات Gorgics" ينبغي "ألا تظهر فى بساطة موضوعها وعريه، ولكن فى الكساء الشعري المبهج الذي يمكن أن يوضع عليه". هناك مثالان بارزان من بين تحديدات الأسلوب بوصفه كساء القائمة فى كل زمان ومكان، هما تحديد ألكسندر بوب Alexander Pope: "التعبير كساء الفكرة" (مقالة فى النقد Essay on Criticism 1711, 1. 318 .)، وتحديد لورد شيستيرفيلد Lord Chesterfield: "الأسلوب كساء الأفكار"(رسالة ٢٤ نوفمبر ١٧٤٩). وتعد استعارة الكساء ذات أهمية بالغة أيضا فى تحديد بوب المشهور للفطنة wit التي يمكن أن تفهم بوصفها شعرية الكلاسية الجديدة فى فن المنمنمات (مولر، ١٩٨١، ص. ٧٦ – ٧٧): "مقالة فى النقد Essay on) 2 - 297 .2 , Criticism ومن المهم أن ندرك أن مفهوم التناسب، أو بكلمات أخرى المقولة البلاغية لـــ"aptum"، وثيقة الارتباط بالمفهوم النيوكلاسي للأسلوب. هذا المفهوم مركزي فى تحديد جوناتان سويفت Jonathan Swift: "الكلمات المناسبة فى الأماكن المناسبة، هو ما يصنع التحديد الصحيح للأسلوب" (Irish Tracts 1720 - 1723, edited by H. Davis, p. 65. Oxford, 1963). كما أن مفهوم التناسب لا يمكن فصله عن الذوق الاجتماعي. فى رسالة إلى بوب Pope فى ٩ سبتمبر ١٧٠٦، يربط ويليام وولش William Walsh بين استعمال صديقه لاستعارة الكساء فى حديثه عن الأسلوب، وبين الكساء المناسب للنساء. "في الواقع إن التعبير بالنسبة إلى العقل يماثل اللباس بالنسبة إلى الجمال، رأيت نساء كثيرات مثقلات باللباس". وبوب نفسه عبر عن فكرة الذوق الاجتماعي لمختلف أنواع الأسلوب بالاستناد إلى استعارة الكساء: "أساليب

مختلفة لمقامات مختلفة مثل ألبسة متعددة للبلد والمدينة والمحكمة"(مقالة فى النقد (Essay on Criticism , 2. 322 - 323) [انظر: بلاغة القرن الثامن عشر].

الأسلوب بوصفه كساء للفكرة مقابل الأسلوب بوصفه تجسيدا للفكرة (من الموقف النيوكلاسي إلى الموقف الرومانسي).

خلال القرن الثامن عشر تطورت الأفكار الجديدة حول الأسلوب إلى نقاش نقدي حول المفهوم النيوكلاسي للأسلوب بوصفه كساء للفكرة. فى كتابه "قراءات فى البلاغة والآداب الجميلة" (١٧٨٣)، استبعد هاف بلير Hugh Blair فكرة الأسلوب بوصفه زخرفا خارجيا، وفكرة الفصل بين الألفاظ والأفكار: "إن الفكرة السائدة عن زخارف الأسلوب خاطئة جدا، وكأن ثمة أشياء توجد منفصلة عن الموضوع، وأنها يمكن أن تلصق به مثلما يلصق شريط فوق سترة." فى وجهة نظره الخاصة، ينبثق الأسلوب من الفكر والإحساس فى عملية ذات تعبير خيالي: "تنبثق زخارف الأسلوب الحقيقية والمناسبة من العاطفة. إنها تجري فى نفس النهر مع تيار الفكر. إن كاتبا عبقريا يتصور موضوعه بقوة؛ فهو يشحن خياله ويؤثر فيه، ويسكب نفسه فى هذه اللغة التصويرية التي يتحدث بها الخيال بشكل طبيعي". (Vol. 1, 4th ed., p. 231. London, 1790). يُظهر هذا الاقتباس العناصر الحاسمة فى الشعرية الرومانسية الجديدة مثل الطبيعة التعبيرية والعضوية للتعبير الأدبي، وهو المفهوم الذي أوضحه أبرامز M. H. Abrams فى دراسته "المرآة والمصباح"(١٩٥٣)، غير أنه لم يُستغن عن مفهوم الزخارف حتى الآن. لكن هذا ما سيحدث مع ذلك فيما بعد بقليل فى كتاب ويليام وردزورث William Wordsworth "مقالات عن خطب الرثاء" Essays upon Epitaphs, II، الذي استبعد استعارة الكساء والزخرف بشكل عام: "إذا لم تكن الألفاظ.. تجسيدا للفكر وإنما لباس لها فقط، فإنها بالتأكيد ستبرهن على موهبة سقيمة". إن ما هو حاسم هو أن التعبيرات "لا تماثل اللباس بالنسبة إلى الجسد،

ولكنها تماثل الجسد بالنسبة إلى الروح؛ فهي جزء مكون وقوة أو وظيفة فى الفكر". (أعمال وردزورث النثرية، ed. by W. J. B. Owen and J. Worthington Smyser, vol. 2 ; p. 84. Oxford, 1974). مع هذا الحكم الذي اقتبسه وعززه توماس دي كوينسي Thomas De Quincey فى رسالة عن "الأسلوب"(١٨٤٠)، اتُخذ موقفٌ سيؤخذ به طوال القرن التاسع عشر.

قول بوفون Buffon المأثور "الأسلوب هو الرجل نفسه"، تأويلاته وتنويعاته فى القرن التاسع عشر.

لقد اقتبس المنظرون الذين تبنوا تصورا فردانيا individualistic للأسلوب منذ بداية القرن التاسع عشر تحديد كومت دي بوفون فى كتابه "خطاب حول الأسلوب" الذي سلمه فى ١٧٥٣ إلى الأكاديمية الفرنسية. يحاول بوفون أن يثبت أن محتوى العمل – غنى المعرفة وفرادة الوقائع المبلغة وجدة الاكتشافات – لا يضمن لا أخلاقية الإنسان، ولكن الأسلوب بوصفه شهادة صادقة على طبع الإنسان، هو العلامة الحقيقية على عظمة العمل: "هذه الأشياء [أي المحتويات] توجد خارج نطاق الإنسان، الأسلوب هو الرجل نفسه" (أعمال بوفون الفلسفية، edited by J. Piveteau, p. 503. Paris, 1954). يتوافق هذا التعريف كلية مع ثقافة عصر العقل. فهو لا يختلف فى جوهره عن تعريفات الأسلوب الكلاسية الجديدة عند بوب وشيستيرفيلد، مادامت تقوم هي أيضا على الفصل بين المحتوى والشكل. كما أنها لا تعبر عن فكرة جديدة، إذ نجد لها أسلافا قديمة من قبيل Imago animi sermo est or ut vir, sic oratio. غير أن إيجاز صيغة القول المأثور "الأسلوب هو الرجل" وأناقتها، ومطابقته بين الرجل والأسلوب، جعلته قابلا للتذكر السهل، كما أن انتزاعه من السياق الذي ورد فيه يمكن أن يفضي إلى تأويله بطريقة ذاتية. فمنذ الفترة الرومانسية حدث أن أصبح تحديد بوفون "الأسلوب هو الرجل" صيغة محددة للمفهوم الفردي وغير البلاغي

للأسلوب، وأصبح الأسلوب – تبعا لهذا – صورة الذهن وعلامة على هوية الكاتب (مولر، ١٩٨١). [انظر: بلاغة القرن التاسع عشر].

وقد استخدم قول بوفون المأثور أيضا باعتباره نقطة انطلاق تحديدات رأت فى الأسلوب نوعا من السيمياء. فجين بول Jean Paul (١٧٦٣ – ١٨٢٥) الذي استشهد ببوفون يسمي الأسلوب "الجسد المرن الثاني للذهن".
"(der zweitr biegsame Leib des Geistes"Vorschule der Asthetik, 1804)

ويحيل سالي برودوم Sully Prudhomme (١٨٣٩ – ١٩٠٧) إلى الأسلوب بوصفه "سيمياء ثانية" للكاتب (وصية شعرية، ١٩٠١). وقد وجدت هذه الفكرة صيغتها المحكمة فى تحديد شوبنهاور Schopenhauer "الأسلوب هو سيمياء الذهن. إنه أكثر وضوحا من سيمياء الجسد" (« Der Stil ist die Physiognomie des Geistes. Sie ist untruglicher als die des Leibes. » Parerga und Paralipomena, 1892 first pub. 1851 4 - 5. 282).

الأسلوب بوصفه رؤية

شهد القرن التاسع عشر تطويرا إضافيا لمفهوم فردانية الأسلوب، حدث ذلك بشكل مهم فى حقل الفلسفة الجمالية. وقد مثلت رسالة وولتر باتر Walter Pater عن "الأسلوب"(١٨٨٨) أوج هذا التطور. فقد مُنح قول بوفون، "الأسلوب هو الرجل نفسه"، معنى جديدا فى سياق حركة النزعة الجمالية. وأصبح الأسلوب فى هذا القرن معادلا للعمل الفني، إنه تجسيد لما هو داخلي فى شكل موضوعي ولا شخصي "ترجمة من الداخل إلى الخارج". استبعد باتر "الذاتية" بوصفها "نزوة الفرد الخالصة". فقد ربط مفهوم بوفون "الأسلوب هو الرجل" بفكرة عمل فني موضوعي ينطوي على طريقة فردية فى الرؤية، وعلى "إدراك" شخصي "للعالم". والفكرة الجديدة والمفارقة، فى نظر التحديدات

التقليدية، هي أنه إذا كان الأسلوب هو الرجل، "في كل لون وكثافة فهم حقيقي، سيكون فى معناه الحقيقي "لاشخصيا". وبتمثل فكرة اللاشخصية داخل مقولة الأسلوب، تكون جماليات باتر قد أظهرت انتماءها إلى سياق الحركة الرمزية. وثمة عنصر مهم فى نظرية باتر يرتبط بالحداثة، وهو مفهومه للأسلوب بوصفه طريقة فى الرؤية. وبهذا الموقف يكون باتر قد تابع جوستاف فلوبير الذي يرى أن الأسلوب يشكل "منفردا طريقة مطلقة فى رؤية الأشياء" (رسائل إلى لويز كوليت Loise Colet، ١٦ يناير ١٨٥٢)، واستبق مارسيل بروست الذي حدد الأسلوب بوصفه "خاصية الرؤية، ووحي الكون المتميز" .R) Dreyfus. Souvenirs sur M. Proust, p. 292. Paris 1926). تلتقي هنا نظرية الأدب حول الأسلوب مع النزعات التي ميزت نظرية وعلم الفن المرئي فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الأسلوب بوصفه قوما(أو أمة)؛ الأسلوبية

يلتقي بروز مفهوم فردانية الأسلوب فى الحركة الرومانسية وما قبل الحركة الرومانسية بما فهم بـــ"الأسلوب القومي" بوصفه تعبيرا عن "الشخصية القومية"، وهو ما يمكن العثور عليه مثلا فى بحث ويلهلم فون هومبولدت "Uber den Nationalcharkter der Sprachen (1822)" Wilhelm von Humboldt. وقد أعاد إدموند أرنولد Edmond Arnoud صياغة قول بوفون على النحو الآتي: "الأسلوب هو الأمة" (محاولات فى نظرية الأدب وتاريخه، ص. ٣٩. باريس، ١٨٥٨). إن مفهوم الأسلوب بوصفه تعبيرا عن العقل الفردي، والمفهوم النظير القائل بانعكاس الشخصية القومية فى لغتها، يشغلان بداية الحقل اللغوي للأسلوبية. إن باحثين أمثال كارل فوسلر Karl Vossler وليو سبيتزر Leo Spitzer اللذين استخدما التحليل الأسلوبي باعتباره مفتاحا للكشف عن سيمياء الكاتب الثقافية، طبقا إجراءً مماثلا على اللغات القومية التي تعاملوا معها بوصفها أساليب.

الأسلوب فى نظرية الفن - عودة إلى الأسلوب بوصفه رؤية

كان للفظ الأسلوب تاريخ طويل فى نظرية الفنون المرئية (مولر، ١٩٩٩). فقد طبق أولا على فن الرسم فى بحث بواسطة لومازو G. P. Lomazzo (١٥٤٨)، حيث يشير إلى "البراعة الشخصية" فى ترادف مع لفظ الطريقة المميزة maniera الذي اكتسب فى خلال تاريخ الفن الإيحاء السلبي المتزايد للاعتباطية الذاتية، بينما استخدم الأسلوب عند بوسان H. Poussin وبيلوري G. P. Bellori وآخرين للإحالة إلى عبقرية الفنانين بوصفها نتيجة لدراسة مكثفة فى الطبيعة وأشكالها المثالية. إن التمييز المشهور الذي أقامه غوته Goether بين الأسلوب والطريقةالمميزة manner فى محاولته Einfache Nachahmung der Natur, Manier, Stil (1789) – الذي أضاف إليه مقولة المحاكاة ("Nachahmung") – تأثر فيه بأسلافه الإيطاليين. وقد حدد غوته المحاكاة بالنسخ الهادئ للطبيعة، والطريقة المميزة بالإتقان الذاتي فى تمثيل الطبيعة، والأسلوب بطاقة الوعي بالوجود المثالي للأشياء فى هيآت مرئية. إن الخاصية المعيارية والمطلقة التي أسندت إلى لفظ الأسلوب من لدن غوته وآخرين كانت إشكالية فى زمن اكتشاف الوعي الفردي والعبقرية الأصيلة. لهذا السبب أضاف هيجيل فى كتابه "Voresungen uber die Asthtik(1835 - 1838) مقولة الأصالة إلى لفظي الطريقة المميزة والأسلوب.

ويمكن ملاحظة الاتجاه الصريح نحو المفهوم المعياري وغير الذاتي للأسلوب فى واحدة من أكثر نظريات الأسلوب تأثيرا فى تاريخ النقد الفني التي برزت فى بداية القرن العشرين، يتعلق الأمر بتصنيف هنريش ولفلين Heinrich Wolfflin للأشكال المستقلة للرؤية ("Sehformen")، المنشور فى Kunnstgeschichtliche Grundbegriffe (1915). هذا العمل، الذي كان معاديا للمواقف الجمالية القائمة على الفردية، وجد مصدر الأسلوب فى قوة الفرد

على التعبير. يرى وولفين أن الأسلوب يتحدد بطريقة الرؤية؛ أي "علاقة العين بالعالم". وفي تحليل مقارن لفني النهضة والباروك، طور مقولات أساس من قبيل التعارض بين الخطي والمزخرف، وبين السطحية والعمق، وبين الشكلين المغلق والمفتوح، وبين التنافر والانسجام. وقد تعرضت نظرية وولفلين إلى نقد بعض مؤرخي الفن، غير أنها كانت ذات تأثير عميق، وخاصة فى مؤرخي الأدب أمثال أوسكار والزيل Oscar Walzel وفريتز ستريش Fritz Strich اللذين آمنا بأنهما وجدا فى مقولاته مفتاحا لتحليل شكلي وجمالي للأعمال الأدبية. هناك تواز مهم بين إعادة تحديد الأسلوب بوصفه رؤية فى فترة النزعة الجمالية (باتر) وبين نظرية وولفلين عن أشكال الرؤية. [انظر: فن].

الأسلوب والفلسفة (أسلوب التفكير، "Denkstil") - أسلوب الخطاب العلمي.

لقد تبين أن لفظ الأسلوب كان طوال تاريخه ينزع نحو التعالي على إحالاته الأصلية إلى حقلي البلاغة والأدب، لكي يحيل إلى سياقات غير بلاغية وغير أدبية. هكذا أصبح الأسلوب مقولة مركزية فى علم الجمال وفي نظرية الفن المرئي. وهناك مفهوم آخر للأسلوب غير بلاغي فى الظاهر، وهو ما يطلق عليه أسلوب التفكير ("Denkstil")، والمقصود به أسلوب الفلاسفة الذي ينظر إليه باعتباره وثيق الصلة بحججهم، وهي الظاهرة التي لاقت انتباها منذ سنة ١٩٤٠. فجيلبيرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠ - ١٩٧٦) على سبيل المثال، يثبت أن الإنجاز الحقيقي لبرتراند راسل Bertrand Russell تمثل في ابتكار "أسلوب فى التفكير" وإدخاله بوصفه أداة استكشافية ("بيرتراند راسل" ١٩٧٢). وقد كان "مفهوم العقل" نفسه (١٩٤٩)، وهو أحد كتب راسل الرئيسة، موضوعا لتحليل بلاغي أسلوبي (oesterreich) كشف عن الصيغة الحجاجية في نهج الفلاسفة. هنا تم الاعتراف بالبلاغة بوصفها مكونا فى الحجاج الفلسفي.

استقر مصطلح "أسلوب التفكير" فى الأسلوبية الألمانية بشكل جيد. والمصطلح الذي يرتبط به فى علم السرد ذي التوجه اللغوي هو الأسلوب الذهني mind - style؛ أي الأداء الأدبي المتميز للوعي الفردي، والشكل الأبرز له هو "تيار الوعي" (Fowler, 1977 ; Leech and Short). والفلاسفة الألمان هم من قاموا بنحت هذا المصطلح (Muller, 1999). ومصادره هي ("فلسفة الحياة") فى بداية القرن العشرين Lebensphilosophie وفلسفة الكانطية الجديدة. ويعد فيرديناند فيلمان Ferdinand Fellmann ومانفريد فرانك Manfred Frank ولامبيرت ويسين Lambert Wiesing الفلاسفة الذين أقروا بأن الأسلوب عنصر مكون فى التفكير. فى هذا السياق يظهر الجدل الفلسفي وكأنه تقريبا نوع من تنافس الأساليب. ومثلما اكتسب الأسلوب والبلاغة أهمية جديدة فى الفلسفة، فقد نوقش الدور الحاسم للأسلوب فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، فى أشكال أخرى من الخطاب العلمي والثقافي. فى نظرية ما بعد الحداثة تحطمت بشكل واسع الحدود بين الخطابين الأدبي وغير الأدبي. وبسبب التحول الأسلوبي أو البلاغي فى عديد من مجالات الخطاب غير الأدبي، هجرت التابوهات الثلاثة بالنسبة إلى الخطاب العلمي، والمتمثلة فى منع إحالة الكاتب إلى ذاته (تابو "الأنا")، ومنع السرد، ومنع الاستعارة (Kretzenbacher). [انظر: الفلسفة، مقال حول البلاغة والفلسفة.]

ملاحظة حول مفهوم الأسلوب والأسلوبية.

من الشائع أن مصطلح الأسلوب فى علم اللغة يتسم بالغموض؛ فهو، كما عبر إينكفيست Enkvist، "مصطلح إيحائي conotational" (ص. ١٧)، يعاد تحديده من جديد فى كل مرة، حسب مناهج وأهداف التحليل الأسلوبي (Esser, 1993, I. 6. 168). ولعل معظم هذه التحديدات تلتقي حول أن الأسلوب يتكون من مجموعة من السمات اللغوية المميزة والخاصة (Wales, pp. 435 - 437)

بالمؤلف والنص والنوع والعصر والسجل وغيرها. ومهما تختلف السياقات، يمكن النظر إلى الأسلوب على نحو أدق بوصفه استخداما متميزا للغة، واختيارا وتأليفا مخصوصين لـ"وحدات اللغة" (Plett,1979). ويمكن بسهولة ربط التحديدات المعروفة للأسلوب بوصفه اختيارا أو انحرافا بمبادئ البلاغة الكلاسية.

لقد اتجه التحليل الأسلوبي في العقود الأولى من القرن العشرين إلى الانطلاق من فكرة بوفون عن الأسلوب باعتبار علاقته بصاحبه، حيث يتولى عزل وتأويل السمات اللغوية المتميزة التي تكشف عن السيمياء الثقافية للمؤلف (فوسلر، سبيتزر). وسيتطور هذا المنهج أكثر مع ريشارد أوهمان Richard Ohmann الذي حدد الأسلوب بوصفه "اختيارا ابيستيميا" وأقر بالمكون البلاغي أو الإقناعي في الأسلوب، ومع لويس ميليك Louis Milic الذي تحدث عن "الاختيارات الأسلوبية" (الأسلوب هو الرجل) و"الاختيارات البلاغية" (الأسلوب بوصفه إقناعا). ويعد الأسلوب الذهني Mentalstilistik، أحدث تطبيقات قول بوفون على تمثيل الشخصية في الرواية. لقد تحول تحديد "الأسلوب هو الرجل" إلى "الأسلوب هو الصورة" (Nischik). ويتمثل المفهوم المضاد لكل هذه المواقف في فكرة رولان بارت عن الكتابة في درجة الصفر (درجة الصفر للكتابة، ١٩٥٣)، الكتابة المحايدة واللامبالية التي تتحدد بغياب الأسلوب. فقد وجد في نصوص أندريه جيد André Gide وألبير كامو Albert Camus أسلوب يتحدد على نحو مفارق بوصفه ليس أسلوبا. إن التحول نحو دراسة النص الأدبي بوصفه نسقا جماليا مستقلا بعلاقاته الدلالية المتعددة، والذي برز في حقبة ما يسمى بالنقد الجديد، قاد أيضا إلى تنويع آخر لقول بوفون، "الأسلوب هو العمل" (A. Muller,1981, PP. 195 - 192). ويمكن أن نجد تنويعا أحدث لذلك القول عند (شايفر Schaefer): "الأسلوب هو النص". وبينما اتجه النقد الأسلوبي الأكثر قدما إلى إقامة طريق

مختصرة بين السمات الصوتية والمورفولوجية والمعجمية والتركيبية المنتقاة حدسيا، وبين معنى النص، فإن أحدث الأعمال المتقدمة حول الأسلوب تقر بأهمية مظاهر بنية النص التداولية والمتعلقة بالسياق (مير Mair). وفي خلال تطور مفهوم الأسلوب انتهى إلى ترك مكانه لمفهوم آخر هو الخطاب. وهناك أعمال احتفظت بالمظهر الأسلوبي المرتبط بالعبارة لمفهوم الأسلوب كما نجد ذلك فى عمل كيت وولز Kate Wales "معجم الأسلوبية"(١٩٨٩). وحتى دراسة تمهيدية مثل "الأسلوب: تحليل النص والنقد اللغوي" (١٩٩٦) لدينيس فريبورن Dennis Freeborn، خصصت جزءا موسعا إلى حد ما لـــ"الأسلوب البلاغي" و"المجازات والصور". لم تختف المجازات والصور بأى حال من الأحوال من الأسلوبية ونقد النص، بل هناك نزعة إلى إسناد الدلالة الأدبية والثقافية للمجازات الفردية، على سبيل المثال، فى نظرية ديفيد لودج Davide Lodge عن الأسلوب الأدبي التي تستعمل الاستعارة والكناية بوصفهما مقولتين مركزيتين فى محاولة إقامة تصنيف جديد للأدب الحديث، أو فى تحليل هايدن وايت Hayden White لأسلوب الكتابة التاريخية (Metahistory 1973)، الذي ربط بين الأشكال الرئيسة للتاريخ الأوروبي وبين المجازات الأربعة (الاستعارة والكناية والمجاز المرسل والسخرية).

Bibliography مصادر ومراجع

Adolph, Robert. *The Rise of Modern Prose Style*. Cambridge, Mass., 1968.

Barthes, Roland. *Le degré zéro de l'écriture*. Paris, 1964. First ed. 1953.

Bolgar, R. R. *The Classical Heritage and Its Beneficiaries*. Cambridge, U.K., 1954.

Chatman, Seymour ed., *Literary Style: A Symposium*. London, 1971.

Enkvist, Nils Erik. *Linguistic Stylistics*. The Hague, 1973.

Esser, Jürgen. *English Linguistic Stylistics*. Tübingen, 1993.

Faral, Edmond. *Les Arts poétiques du XIIe et du XIIIe siècle*. Paris, 1923; reprint, Paris, 1971.

Fowler, Roger. *Linguistics and the Novel*. London 1977.

Fowler, Roger ed., *Style and Structure in Literature: Essays in the New Stylistics*. London, 1975.

Freeborn, Dennis. *Style: Text Analysis and Linguistic Criticism*. London, 1996.

Freeman, Donald C., ed. *Linguistics and Literary Style*. New York, 1970.

Freeman, Donald C., ed. *Essays in Modern Stylistics*. London, 1981.

Fuhrmann, Manfred. *Die antike Rhetorik*. Munich, 1984.

Hough, Graham. *Style and Stylistics*. London, 1969.

Javitch, Daniel. "Poetry and Court Conduct: Puttenham's *Arte of English Poesie* in the Light of Castiglione's *Cortegiano*." *Modern Language Notes* 87 (1972), pp.pp. 865–882.

Jones, Richard Foster. *The Seventeenth Century: Studies in the History of English Thought and Literature from Bacon to Pope*. Stanford, Calif., 1951.

Kennedy, George A. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Chapel Hill, N.C. 1980.

Knape, Joachim. "Elocutio." In *Historisches Wörterbuch der Rhetorik*, vol. 2, pp.pp. 1022–1083. Tübingen, 1994.

Kretzenbacher, Heinz L. "Wie durchsichtig ist die Sprache der Wissenschaften?" In *Linguistik der Wissenschaftssprache*, edited by H. L. Kretzenbacher and H. Weinrich, pp.pp. 15–39. Berlin, 1995.

Lanham, Richard A. *A Handlist of Rhetorical Terms: A Guide for Students of English Literature*. Berkeley, 1991.

Lausberg, Heinrich. *Handbuch der literarischen Rhetorik*. Munich, 1960.

Leech, Geoffrey N., and Michael H. Short. *Style in Fiction*. London, 1981.

Leeman, A. D. *Orationis Ratio: The Stylistic Theory and Practice of the Roman Orators, Historians, and Philosophers*. Amsterdam, 1986.

Lodge, David. *The Modes of Modern Writing: Metaphor, Metonymy, and the Typology of Modern Literature*. London, 1977.

Mair, Christian. "Dramatic Dialogue between Linguists and Literary Scholars." *Dialogische Strukturen. Dialogic Structures. Festschrift für Willi Erzgräber*, edited by Thomas Kühn and Ursula Schaefer, pp.pp. 290–307. Tübingen, 1996.

Milic, Louis T. *A Quantitative Approach to the Style of Jonathan Swift*. The Hague, 1967.

Milic, Louis T. "Rhetorical Choice and Stylistic Option: The Conscious and Unconscious Poles." In *Literary Style*, edited by Seymour Chatman, pp.pp. 77–88. The Hague, 1971.

Müller, Arnulf. *Stil: Studien zur Begriffsgeschichte im romanisch - deutschen Sprachraum*. Diss. Erlangen, 1981.

Müller, Wolfgang G. *Topik des Stilbegriffs. Zur Geschichte des Stilverständnisses von der Antike bis zur Gegenwart*. Darmstadt, 1981 [A revised edition will appear in 2001].

Müller, Wolfgang G. "*Ars Rhetorica* und *Ars Poetica* Zum Verhältnis von Rhetorik und Literatur in der englischen Renaissance." *Renaissance - Rhetorik. Renaissance Rhetoric*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 225–243. Berlin, 1993.

Müller, Wolfgang G. "Das Problem des Stils in der Poetik der Renaissance." *Renaissance - Poetik. Renaissance Poetics*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 133–146. Berlin, 1994.

Müller, Wolfgang G. "Die traditionelle Rhetorik und einige Stilkonzepte des 20. Jahrhunderts." *Die Aktualität der Rhetorik*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 160–175. Munich, 1996.

Müller, Wolfgang G. "Stil." *Historisches Wörterbuch der Philosophie*. X, pp.pp. 150–159. Basel 1999.

Murphy, James J. *Rhetoric in the Middle Ages*. Berkeley, 1974.

Murphy, James J. *Renaissance Rhetoric. A Short - Title Catalogue of Works on Rhetorical Theory from the Beginning of Printing to A.D. 1700*. New York, 1981.

Nischik, Reingard M. *Mentalstilistik: Ein Beitrag zur Stiltheorie und Narrativik, dargestellt am Erzählwerk Margaret Atwoods*. Tübingen, 1991.

Oesterreich, Peter L. *Person und Handlungsstil: Eine rhetorische Metakritik zu Gilbert Ryles "The Concept of Mind."* Essen, 1987.

Ohmann, Richard. 1962. *Shaw: The Style and the Man*. Middletown, 1962.

Plett, Heinrich F. *Einführung in die rhetorische Textanalyse*. Hamburg, 1971.

Plett, Heinrich F. *Rhetorik der Affekte: Englische Wirkungsästhetik im Zeitalter der Renaissance*. Tübingen, 1975.

Plett, Heinrich F. "Die Rhetorik der Figuren. Zur Systematik, Pragmatik und Ästhetik der Elocutio." *Rhetorik. Kritische Positionen zum Stand der Forschung*, edited by Heinrich F. Plett, pp.pp. 125–165. Munich, 1977.

Plett, Heinrich F. "Concepts of Style: A Classification and a Critical Approach." *Language and Style* 12 (1979), pp.pp. 268–281.

Plett, Heinrich F. "Aesthetic Constituents in the Courtly Culture of Renaissance England." *New Literary History* 14 (1982–1983), pp.pp. 597–621.

Plett, Heinrich F., ed. *Renaissance - Rhetorik. Renaissance Rhetoric*. Berlin, 1993.

Plett, Heinrich F. *English Renaissance Rhetoric and Poetics: A Systematic Bibliography of Primary and Secondary Sources*. Leiden, 1995.

Quadlbauer, Franz. *Die antike Theorie der genera dicendi im lateinischen Mittelalter*. Vienna, 1962.

Saisselin, Rémy G. "Buffon, Style, and Gentleman." *The Journal of Aesthetics and Art Criticism* 16 (1958), pp.pp. 357–361.

Schaefer, Ursula. "Der Stil als Text: Über Ernest Heming - way's Erzählung 'Cat in the Rain'." *Stilfragen*, edited by Willi Erzgräber and Hans - Martin Gauger. [Script - Oralia 38] Tübingen, 1991, pp.pp. 163–181.

Sonnino, Lee A. *A Handbook to Sixteenth - Century Rhetoric*. London, 1968.

Trimpi, Wesley. *Ben Jonson's Poems: A Study of the Plain Style*. Stanford, 1962.

Ullmann, Stephen. "Style and Personality." *A Review of English Literature* 6.2 (1965), pp.pp. 21–31.

Vickers, Brian. *In Defence of Rhetoric*. Oxford, 1988.

Wales, Katie. *A Dictionary of Stylistics*. London, 1989.

Whigham, Frank. *Ambition and Privilege: The Social Tropes of Elizabethan Courtesy Theory*. Berkeley, 1984.

تأليف: Wolfgang G. Müller

ترجمة: محمد مشبال

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الأسلوب السامي الرفيع The Sublime

ثمة شكل بلاغي اعتقد الكثيرون أنه اندثر بنهاية القرن التاسع عشر إلا أنه أصبح مصدرًا لجذب الانتباه مرة أخرى فى القرن العشرين، لكن التركيز هذه المرة كان على الأسلوب السامي لفترة ما بعد الحداثة post - modern sublime. ويثير هذا الشكل البلاغي الكثير من الموضوعات مثل الإشارات اللغوية للمعاني الدفينة، وبنية الموضوع، ونهاية السلطة المهيمنة. وقد أشار جان فرانسيس ليوتارد Jean - François Lyotard فى كتابة **الوضع فيما بعد الحداثة: تقرير عن المعرفة The Postmodern Condition: A Report on Knowledge** (صدر فى عام ١٩٨٤) إلى أن السامي كنوع من أنواع البديع يمكن أن يكون نقطة التقاء بين عدة تخصصات بعينها مثل علم العلامات semiotics، وعلم النفس، وعلم السياسة. ويكشف هذا المقال النقاب عن أصول السامي، وعن سماته المحيرة، وما ينطوي عليه من إيحاءات وإشارات تخص البلاغة المعاصرة.

وبصفة عامة يمكن وصف السامي بأنه البلاغة الفخيمة grandiose rhetoric التي تحدث تأثيرًا على المستوى الفردي والاجتماعي والسياسي. وهو يتكون من عنصرين بنائين أساسيين: عنصر لغوى linguistic وآخر عاطفي affective. وتتميز لغة السامي بأنها تستخدم بعض الأدوات مثل الصور البلاغية المركبة، والتركيبات اللغوية الممتدة، والجمل غير التقليدية، والأساليب المتوهجة التي تميل إلى الزخرفة. ويخلق السامي مجموعة من المشاعر مثل الإحساس

العميق، والوعي الذاتي، والعاطفة الجياشة التي هي نتاج التأثير القوي الذي يحدثه السامي فى المستمعين والقراء. وعلى مر الزمن اختلف المنظرون فى أي العنصرين يجب التركيز عليه أكثر من الآخر.

وعلى الرغم من كل ما أشرنا إليه فإن التوصل إلى تعريف دقيق للسامي مازال مستعصيًا علينا إلى يومنا هذا. فعادة ما تشير التعريفات إلى العناصر غير اللغوية مثل الجمال beauty أو الرهبة terror اللذين تثيرهما الطبيعة nature فى النفوس، أو البساطة العميقة profound simplicity (وأبلغ مثال على ذلك الكلمات الأولى التي وردت فى سفر التكوين فى التوراة)، والدوافع التي تبنى على الإقناع مثل وصف الأعمال البطولية بطريقة تشجع نفوس الآخرين على تقليدها والسير على خطاها. ويوجد مؤلف مجهول عاش فى الفترة من٢١٣ م إلى ٢٧٣ م أطلق عليه المعلقون القدامى اسمًا هو كاسيوس لونجينوس Cassius Longinus، وقد وصف هذا المؤلف السامي بأنه تلك الأداة التي يصعب تعريفها وتخرج المستمع من ذاته إلى عوالم أخرى أكثر رحابة. وبوسع المرء أن يقول إن السامي هو شكل غامض من أشكال البلاغة، له القدرة على خلق مشاعر تصعب وصفها بالكلمات، كما أنه يرتبط بحالة من الوعي تأخذ الإنسان إلى آفاق بعيدة كل البعد عن الخبرات اليومية المعتادة.

أما إذا تحدثنا عن تاريخ السامي، فهو تاريخ متقطع حظى بقدر من الاهتمام الشديد فى الحقبة الكلاسيكية. ثم تعرض السامي لفترة طويلة من التجاهل حتى تم إحياؤه مرة أخرى فى القرن السابع عشر. وتخلص السامي من الصبغة الكلاسيكية الجديدة ولبس ثوب الرومانسية التي أججت روح التغير السياسي والاقتصادي الثوري. أما فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فقد ارتبط السامي بفن الخطابة الرصين، والإحساس بالاتساع والرحابة

الذي تخلقه الطبيعة فى الروح. وعلى الرغم من أن تأثير السامي قد أخذ فى الذبول فى بداية القرن العشرين، فإن التطور الذي طرأ عليه والانتقال من الاهتمام به من علم التداولية pragmatics إلى علم الجمال، ثم علم السياسة قد خلق له تراثًا معاصرًا جديدًا يختلف عن التراث القديم الذي ظل مسيطرًا على الأذهان لفترة طويلة.

يبدأ التراث القديم للسامي مع اسم لونجينوس بكتابه المعنون **حقيقة السامي On the Sublime**، والذي اختلف عن كل من الروح الشيشرونية المسيطرة فى تلك الفترة، والتقاليد الإغريقية من أوجه عدة (انظر البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric). فالسامي يختلف عن المداخل المبنية على العقل التي تبناها كل من أرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م) وشيشرون(١٠٦ ق.م - ٤٣ ق.م) فى أنه مهتم بالأسلوب، ومشغول بإثارة العاطفة (انظر إثارة العواطف pathos والأسلوب style).

ويختلف تناول لونجينوس فى أنه جعل من جمهور القراء نقادًا أكثر من كونهم خطباء وأدباء. وأخيرًا فإن لونجينوس قدم أيضا فهمًا مختلفًا تمامًا لفكرة الإسهاب البلاغي rhetorical amplification. فبعيدًا عن مقاييس الزيادة والنقصان، والإفراط والتفريط، نجد توجهًا نحو قوة الخيال وعظمة وجلال الفكر (انظر الإسهاب Amplification والأسلوب المتنوع Copia).

ويرى لونجينوس أن السامي يوجد بشكل أساسي فى روعة كلام المتحدث أولاً، وثانيًا فى الأبعاد المتباينة لرد فعل الجمهور. وعلى خطوات ديونسيوس Dionysius (القرن الأول قبل الميلاد) وماركوس فابياس كينتليانMarcus Fabius Quintilian (١٠٠ ق.م - ٣٥ ق.م) اللذين ربطا بين الأسلوب الرفيع grand style الذي يستخدمه المتحدث وبين العواطف المتأججة، سار لونجينوس الذي أمعن النظر فى التأثير النفسي للسامي (انظر

كتاب **حقيقة السامي**، لندن، ١٩٢٧). فهو يرى أن السامي بطبيعته المحضة يسمو بنا، فهو يملأنا بشعور بالكبرياء الممتع الذي يجعلنا نشعر بالزهو، وكأننا نحن الذين ألفنا أو أنتجنا ما سمعناه من الكلام الذي ملأنا بهذا الشعور (صفحة ١٣٩).

ويشبه لونجينوس السامي بإحدى قوى الطبيعة التي تكتسح كل شيء أمامها وكأنها عاصفة من النار fire storm. وتجنب لونجينوس أن يخوض فى الجدل القديم حول وجود فن ما يمكنه أن يعلم الناس السامي، فهو يرى أن الطبيعة ليست عشوائية، ولكنها تدار طبقًا لمبادئ وقوانين يمكن للإنسان أن يفهمها. وعلى نفس المنوال تحتاج العاطفة والاندفاع إلى فهم عميق، وهداية حكيمة. ويحلل الكتاب أيضا المصادر العديدة للسامي، بالإضافة إلى أوجه القصور التي تمنع السامي من أن يؤدي مهمته. والمثير والعجيب فى الأمر أن مصادر السامي تماما كأوجه القصور على السواء تخضع لسلطان اللغة.

ومن ضمن مصادر السامي الخمسة وضع لونجينوس المصدر الأول على رأس القائمة واصفًا إياه بالعظمة والنبل ألا وهو جلال الفكر grandeur of thought. وهناك إلى جانب هذا المصدر المهم عدد لونجينوس أربعة مصادر أخرى هي: التناول المتوهج (بالحيوية والنشاط) للعواطف، والاستخدام الفني للصور البلاغية، والنبرة الراقية للتعبير، وجلال وسمو تركيب ونظم الكلام (أو الأدب). (انظر نظم وترتيب الكلام arrangement، مادة النظم والترتيب التقليدي Traditional arrangement). ورفض لونجينوس بشدة ما أشار إليه أرسطو من مشاعر التطهر Catharsis (الخوف والشفقة)، مشيرًا إلى أنهما مشاعر أقل رقيًا، وأقل تأثيرًا وإثارة للعاطفة. وأضاف أن القصور الذي يصيب أسلوب الكاتب يظهر فى عدة سمات وهي تفاهة الأسلوب، والكلام المنمق الطنان، وصبيانية التعبير، والوجدان الزائف، وفتور المشاعر. وإذا كان أرسطو

ينصح الكتّاب بأن يتسم أسلوبهم بالوضوح، والتناسب، والاعتدال، فإن لونجينوس ينظر للأمر بشكل مختلف، فهو يرى أن أسلوب الكاتب يجب أن يحتوي على قدر من الغموض الفني artful ambiguity يعادل ما أسماه بجلال الفكر. (انظر غموض المعنى Ambiguity). لم ينل مؤلف لونجينوس أي شهرة في زمانه بسبب الإسراف اللغوي الذي يتسم به، وطواه النسيان حتى بداية العصر الحديث. ولا شك أن الترجمة الفرنسية لهذا المؤلف على يد نيكولاس بويلو ديسبارو Nicolas Boileau Despreaux (١٦٣٦ - ١٧١١) هي التي جعلت هذا المؤلف ذائع الصيت، وزادت شهرته بعد أن تم طبعه في كل من ألمانيا وإنجلترا. وربط المنظرون الأوربيون بين البلاغة من ناحية وبين الآداب belles lettres والأدب الخيالي imaginative literature من ناحية أخرى، أكثر ما ربطوا بينها وبين مخاطبة الجماهير (انظر البلاغة في القرن الثامن عشر Eighteenth Century rhetoric). وقد ربط هؤلاء المنظرون بين السامي والمفاهيم المتعلقة به (مثل الجمال والفتنة) من ناحية، وبين الشكل الجمالي في النحت، والرسم، والتصوير الأدبي من ناحية أخرى، ولكنهم أكدوا على العلاقة بين الشيء نفسه (مصدر الجمال والفتنة) ورد فعل المتلقي. وقد استقى بعض الكتاب من أمثال أرشيبولد أليسون Archibald Alison (١٧٥٧ - ١٨٣٩) في كتابه **مقالات حول طبيعة الذوق ومبادئه Essays on the Nature and Principles of Taste** (صدر في أدنبرة عام ١٧٩٠) وريتشارد بين نايت Richard Payne Knight (١٧٥٠ - ١٨٢٤) في كتابه **بحث تحليلي في مبادئ الذوق An Analytical Inquiry into the Principles of Taste** (صدر في لندن عام ١٨٠٥) نظرياتهم حول السامي ومثيرات الفتنة والجمال من مبادئ علم النفس التي كانت شائعة في تلك الفترة. وقد طبق هنري هوم Henry Home ولورد كيمس Lord Kames (١٦٩٦ - ١٧٨٢) في كتابهما **عناصر النقد Elements of Criticism** (صدر في إدنبرة عام ١٧٦٢) مبادئ السامي والجميل the sublime and the beautiful على بعض

التصميمات المعمارية، وفن تخطيط الحدائق landscape gardening (فن ترتيب الأشجار والممرات والينابيع بحيث تخلق فى النفس أثرًا مستحبًا) من أجل تحديد ماهية الذوق الجمالي aesthetic taste.

وقد تحدى إدموند بيرك Edmund Burke (١٧٢٩ - ١٧٩٧) أحد المبادئ الكلاسيكية الجديدة فى كتابه **بحث فلسفي فى أصول أفكارنا حول السامي والجميل A Philosophical Enquiry into the Origins of Our Ideas of the Sublime and the Beautiful** (صدر فى لندن عام١٧٥٧)، والذي ادعى فيه أن السامي ليس مجرد تأثير مصطنع، ولكنه تأثير نفسي أيضًا، بمعنى أنه عملية طبيعية ونفسية. فعلى سبيل المثال ربط بيرك بين مفهوم الجمال وبين التناسق والتوازن والهدوء وهي سمات أنثوية فى المقام الأول، وعلى النقيض من هذا ربط بين السمو والجلال وبين الخشونة، وعدم التناسب وهي سمات ذكورية فى المقام الأول. ويرى بيرك أن مشاعر الخوف والرهبة التي تتملكنا حينما نتعرض بشكل مباشر لإحدى قوى الطبيعة كالعواصف والزلازل هي فى جوهرها نموذج لمشاعر السامي. واختلف الكثيرون من معاصريه مع هذه الفكرة ليس بسبب التفرقة الثنائية المبنية على الجنس (ذكوري وأنثوي)، وإنما بسبب علم الجمال الشكلي formalistic aesthetics الذي يضع مسافة آمنة بين المراقب observer والمصدر source. ولكن يجب أن نؤكد أن آراء بيرك حول السامي كانت تبشر بقدوم الحقبة الرومانسية Romantic period.

وحينما ناقش إيمانويل كانطImmanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فلسفة الجمال فى كتابه **نقد ملكة الحكم The Critique of Judgment** (١٧٩٠)، كان هذا إيذانا بالانتقال من المفهوم الكلاسيكي الجديد للسامي إلى المفهوم الرومانسي. فالسمو لم يعد يستند إلى الموضوع الإستطيقي بل إلى ملكات

الوعي الإنساني، وخاصة عند نقطة التلاقي بين الترنسندنتالي (العقل المحض)، وبين الميتافيزيقي (العقل العملي). ويرى كانط إن الترنسندانس يتجلى فيما سماه هو السامي الرياضي mathematical sublime. فحينما يفكر الإنسان فى أكبر رقم يمكن أن يخطر بباله (العدد اللا متناهيinfinity)، هنا يصبح استيعاب هذا الأمر صعب على العقل الإنساني، وعند هذه النقطة تنهار عملية الاستيعاب والفهم، وهنا أيضا يدرك العقل حدوده التي لا يجب عليه أن يتخطاها. وهذا يقودنا لأن نقول إن فكرة السمو معقدة ومجردة للغاية، وهي بذلك تختلف تمام الاختلاف عن السامي الميتافيزيقي metaphysical sublime أو السامي الديناميكي dynamic sublime. وإجمالاً فإن السامي الديناميكي يثير فى الإنسان السمو الذي يصاحب تأمل السماء بنجومها، وتأمل القانون الأخلاقي داخل النفس البشرية. وهنا يربط كانط ما بين العقل العملي وبين فلسفة الجمال (وليس الإقناع) ويرى أن القانون الأخلاقي ليس إجبارًا أو فرضًا، وإنما هو أحد شروط الوجود فى هذا الكون.

وقد خلق تنظيم كانط للسامي فى شكل نسق (مع التأكيد على الجانب الأخلاقي) رد فعل واسع فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وحددت المدرسة التعبيرية الرومانسية Romantic expressionism والتي يؤيدها فريدريك فون شيلر Friedrich Von Schiller (١٧٥٩ – ١٨٠٥)، والمدرسة الفردية المتفائلة optimistic individualism والتي يؤيدها رالف والدو إيمرسون Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣ – ١٨٨٢)، والاتجاه الذي يهدف إلى الاحتفاظ بعظمة الحياة البرية wilderness grandeur والذي كان يؤيده جون راسكين John Ruskin (١٨١٩ – ١٩٠٠) معالم السامي الرومانسي، وهذه الفكرة هي التي شكلت الثقافات القومية لأوروبا الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية. وفى منتصف القرن التاسع عشر أصبح السامي يستخدم للإشارة إلى حدث له تأثير عاطفي أو روحاني كبير. وفى كتابه **الرسامون**

العصريون Modern Painters، يشير راسكين إلى أن "كل ما يسمو بالعقل هو السامي، وسمو العقل لا يتأتى إلا بتأمل عظمة شيء أو ظاهرة، وهذا يعنى أن السمو هو كلمة أخرى للإشارة إلى تأثير العظمة على مشاعر الإنسان " (صفحة ١٢٨).

وبعد عصر راسكين تحول السامي إلى فكرة عامة وجزءًا أساسيًا من أي تلميحات أو إيحاءات أخلاقية أو روحانية، وسواء استخدم السامي فى الخطاب السياسي للعصر الذهبي للبلاغة أو فى سياق آخر فإنه يثير ردود أفعال وطنية عاطفية، ويظهر هذا الأثر واضحًا فى تشكيل وجدان الشخصية الأمريكية. وتحولت فكرة السامي إلى وسيلة متداولة لتعظيم الشعور القومي، ونشر الوعي البيئي. فعلى سبيل المثال فى بداية القرن التاسع عشر كان دانييل وبستر Daniel Webster فى الولايات المتحدة يمثل نموذجًا للعظمة الأمريكية المتكبرة عند مخاطبة الجماهير، بينما حاول جون ميور John Muir فى فترة لاحقة من نفس القرن الحصول على تأييد الجماهير للحفاظ بعظمة وسمو الحياة البرية sublime wilderness من خلال إنشاء المتنزهات الوطنية. وهذا يظهر انتشار فكرة السامي التي أصبحت تقترن ببعض الكلمات التي تتكرر فى كل مناسبة مثل السمو والهيبة، والجلال، والخوف، والدهشة. ونتيجة لهذا انتشر هذا المفهوم فى كل أنحاء العالم فى هذا القرن، كما ظهر هذا جليًا فى استخدامه تجاريًا، مع الانزواء الكامل لفكرة أنه مبدأ جمالي وبلاغي.

في مثل هذا المناخ لم يكن غريبا أن يظهر كتاب صمويل مانك Samuel Monk تحت عنوان **السامي: دراسة النظريات النقدية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر The Sublime: A Study of Critical Theories in the Eighteenth - Century England** (صدر من نيويورك عام ١٩٣٥)، والذي يعد إحدى الدراسات القليلة التي ظهرت عن السامي فى النصف الأول من

القرن العشرين. ولأن هذا الكتاب قد كتب فى الفترة التي سبقت ظهور النظرية النقدية الأدبية الجديدة والتي تركز على الشكل (١٩٤٠ - ١٩٦٥) فقد أعطى هذا الكتاب مكانة خاصة لتلك العلاقة الحميمة والمعقدة بين النص والقارئ. وبناءً على ذلك فقد رفض الكتاب الأدب الكلاسيكي الجديد والأدب الرومانسي بسبب الأساليب المتكررة المستخدمة، والمبالغات العاطفية والسياسية. ويرى مانك أن السامي متفرد فى إثارة المشاعر القوية. وهذا يشير إلى أن مانك يسير على خطى كانط فى رؤيته لدور الأدب فى استثارة المشاعر الراقية، بينما يظل فى ذاته كاملا غير منقوص.

وعلى مدار القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تضاءلت النظريات التي تتناول السامي (مثل تلك التي يتبناها مانك) بل وتجاهلت الجوانب البلاغية، والشعورية، والتداولية مفضلة عليها الجوانب الجمالية، والتأملية، والروحانية. لكن لو تكلمنا عن الممارسة الفعلية فيمكننا أن نقول إن تأثير السامي قد ظهر واضحًا فى الخطاب الذي تستخدمه الإعلانات التي تبث عبر وسائل الإعلام، والمهرجانات الإعلامية، والدعاية، والأفلام السينمائية. وتحولت فكرة السامي بتفاصيلها التي تناولها الرومانسيون فى القرن التاسع عشر إلى مخزون يلجأ إليه أولئك الذين يسعون وراء الهيمنة الثقافية من أمثال جوزيف جوبلز Joseph Goebbels (١٨٩٧ - ١٩٤٥)، وبنيتو موسوليني Benito Mussolini (١٨٨٣ - ١٩٤٥)، وماوتسي تونج Mao Zedong (١٨٩٣ - ١٩٧٦). ولا شك أن إيمان هذه الشخصيات بتأثير السامي فاق أهميته العلمية التي كانت قد خبت إلى نهايات القرن العشرين، ففي تلك الفترة ظهر تناول جديد لفكرة السامي، وقد واكب هذا التطور إحياء الدراسات البلاغية، وظهور حركة ما بعد الحداثة postmodernism.

ومن بين كل الكتاب الذين ينتمون لما بعد الحداثة يبزغ اسم بول دي مان Paul de Man فى تتبعه للبلاغة وفكرة السامي فى كثير من الأعمال

الأدبية والنقدية مثل **مجاز القراءة: لغة المجاز فى أعمال روسو، ونيتشه، وريلكي وبروست**، **Allegories of Reading: Figural Language in Rousseau، Rilke Nietzsche Proust and** (صدر فى نيو هيفن عام ١٩٧٩)، **وكتاب العمى والبصيرة: مقالات حول بلاغة النقد المعاصر Blindness and Insight: Essays in the Rhetoric of Contemporary Criticism** (صدر فى مينا بوليس عام ١٩٨٣)، وكتاب **مقاومة النظرية The Resistance to Theory** (طبع فى مينا بوليس عام ١٩٨٦). وأعاد دي مان البلاغة إلى موقعها متحديًا القواعد الثنائية للتراث الكلاسيكي (الواقعية المرجعية والتأثير الإقناعى)، ومؤيدا للآراء المعاصرة فى الخطاب discourse والتي تراه لا مركزيا decentered، وتفكيكيا deconstructive، وبلا أساس ungrounded. ويرى دي مان السامي كأحد أنواع البديع اللغوية linguistic trope، ويعترف أن اللغة هي التي تؤدى إلى غموض المعنى. ولكن على الرغم من جهود دي مان الحثيثة لتوضيح ماهية السامي فإنه ضحى بقوة السامي وسلطته ولم يترك أي مجال لذكر مثال تطبيقي سياسي مؤثر.

وعلى النقيض من دي مان فقد حاول هارولد بلووم Harold Bloom في كتابه **قلق التأثير: نظرية (جديدة) للشعر The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry** (صدر فى نيويورك عام ١٩٧٣) وتلميذه بول ويسكيل Paul Weiskel فى كتابه **الصورة الرومانسية للسامي: دراسات فى علم نفس السمو وبنيته The Romantic Sublime: Studies in the Structure of Psychology of Transcendence** (صدر فى بالتيمور عام ١٩٧٦) الغوص فى بنية الذاتية الفردية individual subjectivity مستخدمين أسلوب التحليل النفسي. فمدرسة فرويد الكلاسيكية ترى أن رد الفعل للسامي هو فى جوهره دفاع عصبي ضد القلق الذي تخلقه العلاقات اللاواعية داخل الأسرة الصغيرة nuclear family، وعلى الخصوص فى التعبير السلطوي، والرأسمالي. وقد صنف كل من بلووم وويسكيل القلق الذي

تخلقه هذه الأنظمة السلطوية تحت مسمى الإشارات الأدبية، واللغة الرمزية والطبيعة نفسها وهي التعبيرات التي تستخدم من قبل الذين يؤمنون بالخواء أو الفراغ الكوني cosmic void. ففي حالة البلاغة الأدبية تم تحويل الخوف المفرط من هذه القوى المسيطرة إلى حالة من التماثل والاندماج مع هذه القوى. وتحولت الموضوعات التي يناقشها الأدب من موضوعات تقع تحت تأثير وقهر هذه القوى إلى مصدر للقوة والتمكين فى حد ذاتها.

والتمكين هنا لا يتضمن التمكين السياسي والاجتماعي. وقد تناول كل من جان فرانسوا ليوتار، ونيل هرتز، وهايدن وايت بشكل مباشر إمكانية اتخاذ فعل سياسي عند تناولهم لفكرة السامي اللاحقة postmortem sublime. وقد أشار ليوتار فى كتابه **الوضع فيما بعد الحداثة** **The Postmodern Condition** (صدر فى مينا بوليس عام ١٩٨٤) إلى أن السامي فكرة ثورية جمالية اعتنقتها مجموعة من الطلائع رفضت الإرهاب الذي يبثه المجموع totality واحتفت بلعبة التنوع. واعترف نيل هرتز فى كتابه **نهاية المسار** **The End of the Line** (صدر فى نيويورك عام ١٩٨٥) بأن السامي يندرج تحت بلاغة المواجهة rhetoric of confrontation وهي إحدى سمات عالم السياسة. ويربط هايدن وايت فى مقاله المعنون "**تسييس التفسير التاريخي: التهذيب وعدم التسامي** **The Politics of Historical Interpretation: Discipline and De - Sublimation**" المنشور فى **كتاب محتوى الشكل** **The Content of the Form** (صدر فى بالتيمور عام ١٩٨٧) بين السامي وبين الكتب التاريخية المسيسة، والتي على الرغم من بشاعتها، فإنها تقر بوجود قبول نفسي للفاشية fascism's psychological appeal.

وفى إطار القواعد البلاغية الجديدة لما بعد الحداثة، اكتسبت القوة العملية للسامي التي أقر بها لونجينوس قبل ذلك عند تناوله لمخاطبة الجماهير

– وجودًا وتأثيرًا. ويبدو السمو بديلاً للتراث البلاغي الموجود ويظهر هذا جليًا فى الاستخدام الحديث للكلمة، ويتمثل هذا فى ظهور السامي النسوي feminist sublime، والسامي التكنولوجي technological sublime، والسامي الديمقراطي democratic sublime. وأخيرًا وليس آخرًا فإن التراث التاريخي للسامي متقطع، ومتشذر، وهي سمات تميز السامي نفسه قبل أن تميز تاريخه. (انظر الذوق Decorum واللباقة – البلاغة Eloquence).

قائمة المراجع

Boileau - Despréaux, Nicolas. *Traité du Sublime, ou du Merveilleux dans le Discours, Traduit du Grec de Longin. In Oeuvres complètes.* Introduction by Antoine Adam; edited and annotated by Françoise Escal. Paris, 1966. Boileau - Despréaux's translation of "Longinus's" treatise was first published in 1674.

Crowther, Paul. *The Kantian Sublime: From Morality to Art.* Oxford, 1989.

(يقدم هذا الكتاب شرحًا وافيًا وراقيًا لنقد ملكة الحكم).

Emerson, Ralph Waldo. *Nature.* Introduction by Jaroslav Pelikan. Boston, 1985. A facsimile of the first edition published in 1836.

Freeman, Barbara Claire. *The Feminine Sublime: Gender and Excess in Women's Fiction.* Berkeley, 1995.

(يحول مجموعة ما الباحثين فى الحركة النسوية فى هذا الكتاب تغيير ما قاله بيرك عن جنس السمو)

"Longinus." Aristotle The Poetics. "Longinus" *On the Sublime. Demetrius On Style.* Translated by W. Hamilton Fyfe and W. Rhys Roberts. London, 1927.

(تعد هذه الترجمة من الترجمات الشائعة)

Longinus. *On the Sublime.* Translated with commentary by James A. Arieti and John M. Crossett. New York, 1985.

(تعد هذه الترجمة من أحدث الترجمات وأكثرها حيوية فضلاً عن وجود العديد من الحواشي التفسيرية)

McDaniel, James P. "Fantasm: The Triumph of Form (An Essay on the Democratic Sublime)." *Quarterly Journal of Speech* 86.1 (2000), pp.pp. 48–66.

McKinsey, Elizabeth R. Niagra Falls: *Icon of the American Sublime.* New York, 1985.

(يعد هذا الكتاب قراءة مهمة وجدلية لصعود وسقوط السامي الأمريكي فى الأدب والفنون المرئية)

Muir, John. *The Mountains of California*. New York, 1894.

(يعد هذا الكتاب أهم ما كتب المؤلف لجمهور القراء الأمريكي عن السامي الطبيعي فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر)

Nye, David E. *The American Technological Sublime*. Cambridge, Mass., 1994.

(يطبق هذا الكتاب فكرة السامي ليس فقط على الخطابة والطبيعة ولكن على الرأسمالية الصناعية أيضًا)

Ruskin, John. Modern Painters, parts 1 and 2. In *The Works of John Ruskin*. Edited by E. T. Cook and Alexander Wedderburn, vol. 3. London, 1903.

(نشر الجزء الأول المجهول المؤلف من **Modern Painters** فى عام ١٨٤٣، ثم توالى نشر الأجزاء الأخرى من الثاني حتى الرابع على فترات متباعدة، بينما نشر هذا الكتاب فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٥٦)

Schiller, Friedrich von. *Naïve and Sentimental Poetry and On the Sublime*. Translated with introduction and notes by Julius A. Elias. New York, 1966.

(مازال تاريخ النشر الأصلي لـــ **Über das Erhabene** غير معروف، وإن كانت التقديرات تشير إلى الفترة من ١٧٩٣ إلى ١٨٠١)

تأليف: Christine L. Oravec

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: عماد عبد اللطيف

الحذف البلاغي ـ التعليق المعنوي – الشمول المعنوي Syllepsis

هو نوع من الحذف البلاغي، تظهر فيه الصور البلاغية وقد حذفت منها كلمة (أو كلمات)، بينما تقوم فيه كلمة أخرى (أو كلمات) بأداء أغراض أخرى متعددة. وتوجد حيرة فى أوساط البلاغيين فيما يتعلق بالتعبير الجامع لكل التركيبات اللغوية التي تعرضت للحذف، هل هو الحذف البلاغي Syllepsis أم هو العبارة الجامعة zeugma. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن الحذف البلاغي ينطبق على الحالات التي استخدم فيها التنافر أو التعارض النحوي (أو التركيبي) syntactic incongruity من أجل إحداث التوازن (بين جملتين أو أكثر) مثل بيت الشعر الذي قاله سبنسر Spencer فى قصيدته " Amoretti" (ظهرت عام ١٥٩٥) "حبيبتي تشبه الثلج، وأنا النار ". وقد يكون الغرض من استخدام الحذف هو خلق أثر كوميدي comic effect، إذا كان الحذف على المستوى الدلالي (انظر أيضا الصور البلاغية Figures of speech، والعبارة الجامعة Zeugma).

تأليف: Peters Heiner

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: عماد عبد اللطيف

القياس المنطقي: Syllogism

القياس المنطقي هو أحد الأبنية العقلية الأساسية فى المنطق الصوري formal logic، ويتكون الشكل التقليدي لهذا النوع من القياس من ثلاث قضايا: مقدمتين premises ونتيجة conclusion. وعادة ما تبنى النتيجة على ما ورد فى المقدمتين بمعنى إذا كانت المقدمتان صحيحتين، فيجب أن تكون النتيجة صحيحة. ولا يمكننا بأي حال من الأحوال الحكم على صحة المقدمتين من التركيب أو البنية نفسها، ولكن - وكما قلنا آنفا - إذا كانت المقدمتان صحيحتين، فمن المحال أن تكون النتيجة خاطئة. كما يجب أن نلفت النظر إلى أن النتيجة لا تحتوى على أي معلومات جديدة أكثر مما ورد فى المقدمتين. فقد تعيد النتيجة ترتيب المعلومات التي وردت فى المقدمتين، وقد توضح ما كان مبهما، ولكنها لا تضيف جديدا.

وللقياس المنطقي ثلاثة أنماط: وهي القياس الحملي categorical، والقياس الشرطي الاستثنائي (الشرطي المتصل) conditional (or hypothetical)، والقياس المنفصل disjunctive (alternative) فالقياس الحملي، وهو الأشهر، يحتوى على عبارات تربط فئات بأخرى، وقد تكون العلاقات بين الفئات كلية universal، وقد تكون جزئية partial هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد تكون هذه العلاقات مستغرقة (شاملة) inclusive أو غير مستغرقة exclusive. ولنقرأ الأمثلة الآتية:

عبارة أ: كل الكلاب من الثدييات

عبارة ب: الكلاب ليست من الثدييات

عبارة ج: بعض الكلاب من الثدييات

عبارة د: بعض الكلاب ليست من الثدييات

فالعبارتان أ وب عبارتان كليتان عامتان، والعبارتان ج ود عبارتان جزئيتان. العبارتان أ وج عبارتان موجبتان (فهما تحتويان أو تضمان فئة داخل فئة:الكلاب داخل الثدييات) والعبارتان ب ود عبارتان سلبيتان (فهما ينفيان دخول فئة داخل فئة أخرى: الكلاب داخل الثدييات). فكلمة بعض فى العبارتين ج ود تشيران إلى فرد واحد على الأقل (من أفراد هذه الفئة). والتدرج graduation الذي يظهر فى بعض الكلمات مثل "قليل من " "كثير من"، "معظم" لا وجود له هنا. فالكلمات التي تشير إلى الكميات التي تستخدم فى هذا النوع من القياس هي "كل"، أو "بعض"، أو "لا" أو "ليس" (اللتان تنفيان الجنس بكامله). وعلاوة على ذلك فإن العبارتين أ ود من ناحية تتناقضان مع العبارتين ب وج من ناحية أخرى. ومن المهم أن نشير إلى أنه توجد مصطلحات وتعبيرات فنية متخصصة تصف العلاقة بين العبارة أ والعبارة ب، وتلك العلاقة بين العبارة ج والعبارة د، والعلاقة الثانية بين العبارة أ والعبارة ج، وأخيرا العلاقة بين العبارة ب والعبارة د.

ويقوم القياس الحملي - كما يظهر من الاسم - علـــى بعـــض قـــضايا الفئات مثل:

كل الكوكب أجرام سماوية

<u>كل الأسطح التي تحوى حياة هي كواكب</u>

كل الأسطح التي تحوى حياة هي أجرام سماوية

وهذا القياس صحيح كما يظهر لو رسمنا أشكال فن Venn diagrams (وهي دوائر تتقاطع مع بعضها البعض أو توضع الواحدة داخل الأخرى لتوضيح فكرة ما)، أو طبقنا قواعد التوزيع distribution rules. فالكلمة توزع إذا كانت العبارة التي تحتوى على هذه الكلمة عبارة كلية بمعنى أنها تشير إلى كل أفراد الفئة. وهذا ما ينطبق على الموضوع فى العبارة أ وب

(الكلاب)، والمحمول فى العبارة ج ود (الثدييات). والقواعد التي تحكم توزيع الكلمات كالآتي:

١- المصطلحات أو الكلمات التي تظهر فى النتيجة إما أن يتم توزيعها مرتين، أو لا توزع على الإطلاق.

٢- والمصطلحات أو الكلمات التي تظهر فى المقدمتين فقط يجب أن توزع مرتين تقريبًا. والقياس التالي قياس غير صحيح:

كل الحيوانات المنزلية مخلوقات أليفة

<u>بعض الكلاب ليست حيوانات منزلية</u>

بعض الكلاب ليست مخلوقات أليفة

وفى حالة مثل هذه يعجز الإنسان عن رسم أشكال فن فالدائرة التي تحوى كلمة "الكلاب" ستتقاطع جزئيًا مع الدائرة التي تحوى عبارة "الحيوانات المنزلية"، ولكن دخول هذه الدائرة التي تحمل كلمة "الكلاب" داخل الدائرة التي تحوى عبارة "مخلوقات أليفة" أمر غير معلوم. وطبقا لقواعد التوزيع فإن هذا القياس هو قياس غير صحيح؛ لأن كلمة "الحيوانات المنزلية" تم توزيعها مرتين. ولكن يجب أن نلفت النظر إلى أن نتيجة القياس غير الصحيح قد تكون صادقة – كما هو الحال فى المثال السابق – ولكن لا يمكن تأكيد صدقها من خلال الاستدلال من المقدمتين.

أما القياس الشرطي فيبدأ بكلمة إذا، كما هو الحال فى المثال التالي:

إذا تم انتخاب شخص جمهوديمقراطي، فسوف ترتفع الأسعار

<u>تم انتخاب شخص جمهوديمقراطي</u>

سوف ترتفع الأسعار

توصف هذه العبارة التي تحوى كلمة "إذا" بأنها "المقدم" وتوصف العبارة الثانية - التي يتوقف حدوثها على حدوث العنصر الشرطي الأول - بأنها "التالي" والشكل الصحيح من هذا القياس يؤكد المقدم - كما هو الحال فى المثال السابق - أو يكذب التالي (إذا لم ترتفع الأسعار حينئذ - بناء على المقدمات - يمكن أن نتأكد أنه لم يتم انتخاب جمهوديمقراطي Republocrat). وعلى الجانب الآخر إذا كذبنا المقدم وصدقنا أو كذبنا التالي فسوف يؤدى هذا لوجود أشكال غير صحيحة لهذا النوع من القياس. والسبب هو نفس السبب بمعنى أنه بناءً على المقدمتين لا يوجد شيء يمنع الأسعار من الارتفاع حتى لو لم يتم انتخاب جمهوديمقراطي. وإذا أردنا أن نحصل على شكل جديد للقياس فى الحالة الأخيرة فيجب أن يبدأ المقدم بعبارة " إذا وإذا فقط" "if and only if".

أما القياس المنفصل فيحتوي على كلمتين هما "إما....أو"، ثم يلي ذلك اختيار أو رفض أحد الاختياريين، للوصول لنتيجة تتعلق بالاختيار الآخر:

إما أن نذهب إلى الشاطئ أو نلعب الورق

<u>لن نلعب الورق</u>

إذن سوف نذهب إلى الشاطئ

وعلى الرغم من أن كلمة "أو" تستخدم فى اللغة العادية لتعني (أحد الاختيارين)، فإن معناها فى المنطق - إلا إذا ذكر غير ذلك - يعني الاختيار الأول أو الثاني أو كلايهما. ومن ثم إذا كانت المقدمة الثانية موجبة (سوف نذهب إلى الشاطئ) فيمكننا أن نصل إلى نتيجة صحيحة فيما يتعلق بالاختيار الثاني، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بالفعلين: يذهب إلى الشاطئ، ويلعب الورق. وهذا النوع من القياس هو النوع الوحيد الذي يسمح بصحة اختيارين فى الوقت نفسه.

ونتج عن القياس المنطقي تأثيران متضادان فيما يتعلق بالدراسات البلاغية. فمن زوايا معينة كان هذا القياس نموذجا للتفكير والاستدلال (انظر كلمة الاستدلال Inference). وبناء على وجهة النظر هذه فإن المنطق الغير صوري Informal logic والبلاغة لا يمكن الاعتماد عليهما بشكل كامل كوسائل للاستدلال على النتائج؛ لأنهما لا يصلان لدرجة اليقين التي يصل إليها القياس المنطقي. وكان أرسطو يرى أن القياس الإضماري enthymeme هو النظير البلاغي rhetorical counterpart للقياس المنطقي (انظر القياس الإضماري). ففي القياس الإضماري تكون إحدى المقدمتين مستقاة من معتقدات الجمهور، وبالتالي يرى الجمهور أن النتيجة سوف تكون مبنية على المقدمات المذكورة.

وفي المقابل فإن القياس المنطقي تم رفضه كنموذج يتلاءم مع التفكير البلاغي بسبب طبيعته اللانمطية الغالبة. فنادرًا ما يفكر المرء بهذه الطريقة الموجودة فى القياس المنطقي؛ بسبب عدم مرونة كلمة "بعض"؛ أو لأن الحقيقة والصدق لا يمكن فصلهما بشكل منتظم كما يتطلب هذا النوع من القياس. وعلى الرغم من ذلك يعكس ذلك التمرد ضد المدرسة الصورية - والتي كانت مسيطرة على البلاغة منذ منتصف القرن العشرين - الاقتناع بأن النتيجة التي لا تحتوي على معلومات جديدة - كما هو الحال فى القياس المنطقي - لا يمكن أن تكون أحد مكونات أسلوب التفكير الذي يخدم البلاغة. وعلى العكس تمامًا فإن التفكير البلاغي يعطى القدرة للجمهور على الانتقال من مرحلة ما يعرفونه بالفعل إلى مرحلة جديدة يتبنون فيها موقف الخطيب الذي يخاطبهم. وبناءً على وجهة النظر هذه فإن علم النفس المعرفي cognitive psychology والمنطق غير الصوري هما أكثر نفعًا للبلاغة من دراسة القياس المنطقي (انظر أيضا القضية Thesis ونقيض القضية Antithesis).

Bibliography قائمة المراجع

Aristotle. *Prior Analytics*. Translated by Robin Smith. Indianapolis, c.1989.

Lukasiewicz, Jan. *Aristotle's Syllogistic from the Standpoint of Modern Formal Logic*. Oxford, 1957.

Rose, Lynn E. *Aristotle's Syllogistic*. Springfield, Ill., 1968.

تأليف: David Zarefsky

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

التكرار البلاغي المتعاقب Symploce

هو أحد أنواع الصور البلاغية التي يلعب التكرار فيها دورًا مهمًا، ويتم التمييز بين هذه الصور البلاغية التي تستخدم التكرار باستخدام عدة معايير هي: مواقع التكرار فى الكلمة، وعدد مرات التكرار، وكم التكرار، ونمط توزيع الحروف المتكررة. وهذا النوع الذي نحن بصدده يحدث حينما نجد مجموعة من الجمل المتكررة والمتعاقبة التي تبدأ وتنتهي بتكرار نفس الكلمات مثل المثال التالي الذي ذكره ستيرن Sterne فى روايته **تريسترام شاندي Tristram Shandy** (١٧٦٠ - ١٧٦٧):

"May the Father who created man, curse him. - May the Son who suffered for us, curse him."

(انظر anaphora و Epiphora و Epistrophe، و Figures of speech).

قائمة المراجع Bibliography

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew T. Bliss, Annemick Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of Handbuch der literarischen Rhetorik, first published 1960.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik*. Munich, 2000.

تأليف: Heiner Peters

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

الترخيم الوسطي: الحذف من الوسط لمقطع
أو لحروف من الكلمة Syncope

وصف توماس ويلسون Thomas Wilson الترخيم الوسطي فى كتابه **فن البلاغة The Art of Rhetoric** (صدر فى عام ١٥٦٠ - صفحة ١٧٧) بأنه الحذف من المنتصف "cutting from the middle"، وبعبارة أخرى فهو أسلوب بلاغي يقضي بترخيم الكلمة بحذف حرف أو أكثر من وسطها. فمثلا كلمة "ma'am" كانت فى الأصل "madam" وعبارة "good - bye" كانت فى الأصل "God be with you". ويعد الترخيم الوسطي نوعًا من البربرية اللغوية إذا كان ناتجًا عن خطأ أو إهمال، أما فى الشعر فهو إحدى الرخص الشعرية التي يستخدمها الشاعر بسبب الوزن meter أو رخامة الصوت euphony فعلى سبيل المثال وردت على لسان كلودياس Claudius فى مسرحية **هاملت** عبارة تعد نموذجًا لهذا النوع من الحذف:

"Howe'er my haps, my joys were ne'er begun"

(الفصل الرابع - المشهد الثالث - السطر التاسع والستين)

(انظر أيضا Figures of speech).

المجاز المرسل Synecdoche

هو نوع من الصور البلاغية ينطوي على العلاقة بين الجزء والكل، فهو يقدم لنا الجزء بدلاً من الكل، والكل بدلا من الجزء. ولنقرأ المثال التالي: "قام قيصر بغزو بلاد الغال Gallia "، فقيصر هنا يمثل كل أفراد الجيش الروماني (الجزء يمثل الكل) والمثال التالي يعبر عن الحالة الأخرى (الكل يمثل الجزء) "هبط الأمريكان على القمر" فالمقصود بالأمريكان هنا هم رواد الفضاء الذين هبطوا على القمر.

ويشبه المجاز المرسل الكناية metonymy فى أنهما يبنيان على استبدال نقاط التماس الدلالي، وإذا اعتبر هذا التماس الدلالي هو السمة المميزة للكناية، فيمكننا فى هذه الحالة أن نقول إن المجاز المرسل هو أحد أنواع الكناية (انظر كتاب بليت Plett الصادر عام ٢٠٠٠، صفحتي ١٩١ و١٩٢). وبناءً على هذا يصف لوسبيرج Lausberg المجاز المرسل بأنه كناية تشير إلى علاقة كمية quantitative relationship بين الكلمة المستخدمة والمعنى المقصود (١٩٩٨ – القسم ٥٧٢). وعلى الرغم من أن كينتليان Quintilian يرى أن كلاً من الكناية والمجاز المرسل نوعان من البديع، فإنه يرى أن الكناية كمرحلة بديعية تسبق المجاز المرسل (بخطوة) (انظر كتاب **قواعد الخطابة Institutio oratoria**، القرن الأول الميلادي، الصفحات ٦ – ٨ – ٢٣)

ويوجد العديد من أنواع المجاز المرسل التي يمكن التفرقة بينها بناءً على الوظيفة البلاغية التي يؤديها إما التعميم أو التخصيص (انظر كتاب بليت الصادر عام ١٩٩١، صفحتي ٧١ و٧٢). ويتضمن النوع الأول الاستبدال:

١ – استبدال الكل بالجزء مثل قولنا "فازت أمريكا (المقصود الرياضيون الأمريكيون) بالألعاب الأوليمبية.

٢ – استبدال النوع بالجنس مثل "غرق فى الماء" (المقصود المحيط).

٣ – استبدال الجمع بالمفرد مثل "يؤسفنا أن نبلغك (و المتحدث مفرد) أننا.....".

أما النوع الثاني فيشمل:

١ – استبدال الجزء بالكل "كانت توجد ثلاثة وجوه (المقصود ثلاثة من الناس) معروفة بين الجماهير".

٢ – واستبدال الجنس بالنوع "انفق آخر جنيهات (يقصد المال) معه".

٣ – واستبدال المفرد بالجمع "اكتشف كولومبس (ومن معه من بحارة) أمريكا عام ١٤٩٢".

لكينيث بيرك Kenneth burke تفسير خاص للمجاز المرسل ذكره فى كتابه **القواعد النحوية للدوافع A Grammar of Motives** (صدر فى بيركلي Berkeley عام ١٩٦٩، صفحتي ٥٠٧ و٥٠٨)، فهو يرى أن المجاز المرسل والاستعارة metaphor، والكناية والمفارقة الساخرة irony يمثلون أنواع البديع الأربعة الكبرى Four Master Tropes. ويرى بيرك أن المجاز المرسل يرتبط بوظيفة التصوير والتمثيل، كما أنه يشير إلى علاقات توصف فى حالات وأماكن أخرى بأنها نوع من الكناية، ويقصد بهذا فكرة الاستبدال "الجزء بالكل والكل بالجزء، النوع بالجنس والجنس بالنوع، المشير بالمشار إليه والمشار إليه بالمشير، والعلة بالمعلول والمعلول بالعلة... إلخ". ويصف بيرك الكناية بأنها تطبيق خاص special application للمجاز المرسل. ويرى بيرك أن علاقات المجاز المرسل هي علاقات قابلة للتحويل convertible ويمكن أن

توظف فى الاتجاهين (الكل يحل محل الجزء والعكس)، بينما علاقات الكناية مقصورة على استبدال الكيفيات qualities بالكميات quantities؛ وبالتالي فهي علاقات لا توظف فى الاتجاهين كما هو الحال فى علاقات المجاز المرسل.
وعثر بيرك على ضالته ممثلة فى مثال عبقري وجده فى الفكرة الفلسفية حول العلاقة بين العالم الصغير microcosm (والمقصود به الإنسان)، والعالم الكبير macrocosm (والمقصود به الكون)، والتي ترى الإنسان بمثابة العالم الصغير "little world". ووجد بيرك مثالا آخر فى تاريخ الفكر وهو المثال الذي استخدمه جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseu ونقصد بهذا استخدام مفهوم الإرادة العامة volonte Generale ليمثل الاختيارات التي يقوم به كل أفراد المجتمع.

(انظر أيضًا الصور البلاغية Figures of Speech، الكناية Metonymy والأسلوب Style).

Bibliography قائمة المراجع

Jakobson, Roman. "Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances." In *Fundamentals of Language*, by Roman Jakobson and Morris Halle. 2d ed., pp.pp. 67–96. The Hague, 1971.

Lausberg, Heinrich. *Handbook of Literary Rhetoric: A Foundation for Literary Study*. Translated by Matthew C. Bliss, Annemiek Jansen, David E. Orton; edited by David E. Orton and R. Dean Anderson. Leiden, 1998. English translation of *Handbuch der literarischen Rhetorik*, first published in 1960.

Plett, Heinrich F. *Einführung in die rhetorische Textanalyse*. 8th ed. Hamburg, 1991.

Plett, Heinrich F. *Systematische Rhetorik: Konzepte und Analysen*. Munich, 2000.

Ruwet, Nicolas. "Synecdoques et Métonymies." *Poetique* 6 (1975), pp.pp. 371–388.

تأليف: Richard Nate

ترجمة: خالد توفيق

مراجعة: مصطفى لبيب

البُعد الضمني Tacit Dimention

نقول دائما أقل مما نعنيه. وليس الأمر فحسب أننا لا نقول أو نكتب كل ما نعنيه، وإنما لا يمكننا أن نحاول كما ينبغي. وهناك فى الواقع، ممارسة جيدة هى محاولة قول أو كتابة كل شيء نقصده حتى بالنسبة لجملة بسيطة؛ وسرعان ما يجد المرء ذلك عمليةً مملةً ومحبطةً: مملة، لأن الكثير مما سوف يضيفه الشخص ليكون واضحًا تمامًا، يبدو تافها لا داعي له؛ ومحبطة لأنه إذا عمل الشخص بجدية فستكون المهمة شاقة.

في الحديث أو الكتابة، يفترض الشخص دائمًا وجود ارتباط من نوع ما بسياق الجمل. "من نوع ما"؟ أي نوع؟ وأي سياق؟ إن السياقات مرنة على الدوام. وكل شيء هو سياق لأي شيء، ولكن نحن دائما نفكر فى جزء من ذلك الكل الواسع كسياق خاص بنا. وعلى هذا الأساس، تُوجَّه البلاغة. فإذا كنا نتكلم أو نكتب لشخص ما، نحس مرارًا وتكرارًا أن الآخر يستدعي (أي يخلق) سياقًا يختلف بعض الشيء عما يدور فى عقلنا، وبالتالي، يكون علينا أن نقدم إضافات تتوافق معه. وإذا لم يكن هناك شيء يمكن افتراضه، يصبح الاتصال من الصعب إلى حد يبدو معه مستحيلا.

إن هذا هو ما يعكس مفهوم مايكل بولاني Michael Polanyi عن " البعد الضمني"، وهو صاحب التعبير الذي تم استخدامه كعنوان لهذه المقالة. يفهم البشر أنفسهم، والآخرين، وبيئتهم إلى حد ما؛ فجميع أشكال الفهم لها بعد ضمني. يستمر بولاني بهذا الشكل: الفهم الإنسانى هو البؤرة. فأنا أفهم

«هذا» أو «ذاك». وعلاوة على ذلك، نحن كائنات بؤرية، أى إن أعضاء الشعور هي مستقبلات للمعلومات حول بيئتنا، والآخرين، وذواتنا. إنه يجب علينا التركيز على شيء من أجل الفهم. وإذا أردنا التركيز، فنحن نستبعد الكثير مما يمكن أن نشعر به. ومع ذلك، لا يوجد فصل حاد بين ما نشعر به وما لا نشعر به. وباختصار، هناك هامش نستوعبه، ولكن ليس بشكل بؤري.

يوضح بولاني العلاقة بين الوعي البؤرى والوعي الهامشي بعدد لا يحصى من الطرق. إحداها: لعل الجميع قد مر بتجربة الوقوف على جسر فوق النهر، والنظر إلى أسفل. فى كثير من الأحيان، يكون لدى الشخص شعور بأن الجسر يتحرك فى حين أن المياه ساكنة. ثم فجأة، يتوقف الجسر والشخص، ويتحرك الماء. ما الذي حدث؟ التقطت الرؤية الهامشية للشخص شيئًا ثابتًا على الشاطئ. هذا الشيء، الذى يتم الشعور به هامشيًا، "يثبِّت" رؤية المشاهد، بينما يتدفق الماء بشكل معتاد (أو على الأقل، ما ندرك أنه معتاد).

نحن ندرك بشكل تقليدي تمامًا، أن فى ممارسة البلاغة الكثير مما هو ضمني، وهو ينعكس فى نظريتها. وإذا ما كان «العقل»Logos أساسيًا فى البلاغة، فإن أشكال التفكير، التى غالبًا ما نقرنها بالمفهوم تحتوي على افتراضات غير معلنة. [انظر **Logos**] وعلى الرغم من أن أرسطو يذكر أن القياسات المنطقية فى كثير من الأحيان – وليس بالضرورة – غير مكتملة، حتى لو كانت كاملة، فالمقدمات المنطقية التى يفترض أنها مفيدة بناء على قبول الجمهور تظل مدمجة فى الفهم الضمني. [انظر **Enthymeme**] علاوة على ذلك، فإن البلاغة فى كثير من الأحيان ينظر إليها كأسلوب، وللتعرف على الاستعارة كمجاز يجب أن ندرك أن العلاقات موجودة، ولكنها غير معلنة. إن شرح الاستعارة بشكل كامل، إذا كان ذلك ممكنًا، سيكون أمرًا مملاً وسوف يضعف من فعاليتها.

في اقتراح « البلاغة كممارسة »، الذي أشرت إليه – والذى اعتمد على وجود بعد ضمني للفهم، فإن المبدأ القديم القائل إن نظرية البلاغة وتدريسها يتحددان بملاحظة خبرات الاتصال – قد ميزناه بشكل عام بمفهوم "الإقناع". [انظر **الإقناع Persuasion**] إن للصيغ المختلفة لهذا المصطلح فى تعريف "البلاغة" تاريخًا طويلاً سيتم تقديمه بالتفصيل تحت عناوين واضحة فى هذه الموسوعة. لقد شكلت الملاحظات حول الممارسة أبحاثًا لتدريس البلاغة على مدى لا يقل عن أربعة وعشرين قرنا. هذه الأبحاث ينظر إليها على أنها نظرية أو نظريات البلاغة. وهنا نسأل ما الفرق الذى سوف يقدمه التفكير فى ضوء البعد الضمني للفهم لنظرية البلاغة والتدريس؟ إذا كانت النظرية يجب أن تسبق التدريس، فسوف يكون التقدم الى الوراء.

علم أصول التدريس pedagogy

ما الاستنتاج أو الاستنتاجات التي يجب أن نستخلصها كمعلمين من مفهوم "البعد الضمني" المطبق على البلاغة؟ لا يمكننا تدريس كل ما نفهم، أو على العكس، لا يمكن لطلابنا أن يقوموا بالفهم الذى يحتاجونه لما نستطيع تدريسه بوضوح. ويبدو هذا الاستنتاج واضحًا الآن فى الدراسات وورش العمل التي تركز على "التعلم النشط". إن اكتشاف مفهوم أو التكيف معه أو الممارسة يختلف عن القدرة على ذكر المفهوم، أو عرض الممارسة. نحن هنا نقوم باستنتاج (تمثيل) analogy لما يوصف "بالنظم الخبيرة. "(وهو مصطلح نشأ من محاولة وضع مفهوم لتلك النظم لزيادة استخدام أجهزة الكمبيوتر للقيام بمهام أو أجزاء مهمة من تلك المهام.) إن الأداء الموسيقي غالبًا ما يستخدم كأداة تفسيرية لتوضيح هذه "النظم"، وبمعنى آخر يقوم المؤدي تدريجيًا باستيعاب هذه النماذج كوحدات وأساليب حتى يستطيع عزف نماذج كبيرة بدلاً من عزف علامة موسيقية واحدة. ويجب على الموسيقيين

الذين يعزفون معًا كمجموعة أن يستمعوا لبعضهم بعضا. لماذا؟ حتى يتمكنوا من التكيف مع باقى الأفراد، والإحساس السريع والقدرة على التعديل ليس فقط مع وجود التغيرات الواضحة فى السرعة والقوة، والتي يمكن أن تلاحظ بسهولة، ولكن أيضا مع وجود التغيرات الطفيفة فى درجة النغمة ونوعها، وهي تغيرات يقومون بأدائها بشكل لا إرادى. ويمكن لأعضاء المجموعة أو لقائد المجموعة تفسير الصياغة، ولكن هناك دائما ما هو أكثر مما يمكن تفسيره، أى وصفه بدقة كتعليمات.

يصاب متعلمو المهام المعقدة دائمًا بالإحباط بسبب المدربين أو المعلمين. وكذلك يصاب المدربون بالإحباط بسبب السؤال المعتاد للمتعلمين: ما الذى تريده بالضبط؟ ويمكن للمدرب الماهر أن يفسر عدة أشياء بلمحة خفيفة، نوعًا ما، حتى لو لم يكن المدرب نفسه على وعى بذلك. ويمكن للمعلم فقط أن يستمر فى الحث لفظيًّا على القيام بمحاولات مستمرة أو تقديم التشجيع العام أو دلائل على السرور عندما تكون النتائج إيجابية. لقد ذكرت سابقًا "مدربين أو معلمين"، كما لو كانا مختلفين. فهل هما كذلك؟ إنهما كذلك إذا كان الشخص قد استجاب فى القراءة للبعد الضمني، بمعنى أنه أحس "بما هو أكثر" مما قلت. ويشكل "المعلم" "نموذجًا"، أى ذلك الشخص الذى يقدم الأمثلة التعليمية: المؤدي الماهر الذى يقوم بتوجيه المبتدئ.

وأنا أفترض أن جميع المتعلمين، بمن فيهم أولئك الذين تعلموا ليكونوا مدربين مهرة، قد مروا بإحباطات الاستيعاب وانتصاراته. وكما يقول بولاني: "في كل مرة نقوم باستيعاب أداة لجسدنا تخضع هويتنا لبعض التغيير؛ ويمتد شخصنا داخل أنماط جديدة من الكينونة" (١٩٥٩، ص٣١). وهنا يجب علينا أن ندرك أن المفاهيم والممارسات، فضلا عن الوسائل، هي أدوات.

قد يُنظر للبلاغة على أنها مجموعة من المخططات تساعدنا على إنتاج الخطاب أو أن نصبح واعين نقديًا ونكون قادرين على شرح مثل هذه الممارسات الإنتاجية. فى الحالتين، نحن نحاول بشكل تعليمى أن نُعد أشخاصًا لديهم المهارة. وعند القيام بذلك، يجب أن ندرك حدود أنظمتنا وما يرتبط بها من وعود.

النظرية Theory

يمكننا فهم "النظرية" فى أبسط معانيها على أنها "تفسير" للظواهر. الظواهر التي نحن بصددها هي تلك الخاصة بالممارسة المتقنة للمتكلمين أو الكتاب. يتم كل من التحدث والكتابة فى نطاق الوقت الذى يمثل تسلسلاً لما نعطيه من تسميات مختلفة. ويشير التقليد القديم إلى أن الترتيب المنتظم للكلام disposition يُشكل جزءًا أساسيًا من البلاغة. وفي استخدام "جزء" فإن علاقات الجزء/ الكل تكون موجودة ضمنًا. بالنسبة للمبتدئين، ويميل تحديد أنماط لتنظيم المنتج اللفظي إلى أن يصبح مظهرًا مبكرًا للتعلم (والتدريس). وحتى مع أبسط هذه الأمور، مثلا التسلسل الزمني، فإن هناك وجودًا للأبعاد الضمنية ولتوضيح ذلك، نأخذ اثنين من المفاهيم البلاغية، "المواضع الجدلية" و"الاستعارة"، والتي ستتم مناقشتها من وجهات النظر الأخرى فى أماكن أخرى فى هذه الموسوعة. "المواضع الجدلية" مصطلح مهم وصعب، وغالبًا ما يكون محل جدل، لأنه مصطلح تجريدى ويشير على الفور للممارسة كوسط له، لدرجة أنه يكون غير موجود بشكل مستقل عن تلك الممارسة. [انظر **المواضع الجدلية** Topics.] فالموضع الجدلي ليس حجة وليس جزءًا من حجة، بل هو اقتراح لخلق حجة.

هذا المصطلح مقيد بتأكيد أرسطو على أن "البلاغة" ليست "للإقناع" بل هى الأساس الذي ينمو فيه الخطاب، فى حالات معينة (Rhetoric ١،١ – ٢)(*). أما الحجة، كما يستخدمها أرسطو، فهي الوظيفة الأساسية للبلاغة والمواضع الجدلية هي المحرك الإبداعي..

وعلى الرغم من أن أرسطو يبدو أنه يقدم القوائم التي غالبًا ما تُتَّخذ كمواضع جدلية، فأنا أقدّر أن هذه هي الخطوة الأولى، وهى أن الموضع الجدلي لا يمكن أن يحدث إلا بوجود شخص ما فى ظروف حجاجية محددة. وبالتالي، فما هو «بالأَوْلى» ليس موضعًا جدليًّا، على الرغم من أنها تؤخذ فى كثير من الأحيان على هذا النحو، بل هى مؤشر لذلك، أى أنها ذلك المفهوم الذي يدفع ممارس البلاغة إلى عمل تأملى إذا كان فى موقف بلاغي. وهناك احتمالات لإدراك ذلك الموقف الذى تؤدى من خلاله مقومات الفكر إلى مقدمات منطقية محددة يمكن بناء الحجج عليها. وباختصار، بالنسبة للمناقشة هنا، تشكل المواضع الجدلية بعدًا ضمنيًّا للممارسة البلاغية. هذه الممارسة تشكل البلاغة الإنتاجية للمسارات التى من "المحتمل" أن تتخذها البلاغة لكى تصبح خطابًا محددًا. وللأسف، فإن استخدامنا اليومى "للمواضع الجدلية" فى اللغة الإنجليزية فإن (ما هو أوْلى) a fortioris – بمعناها الواسع أو الضيق – هى الموضع الجدلي. إن وضع الفكر الذي ينشأ من فهم مجرد للمفهوم يؤدي إلى الفكر النشط اللازم لتلك المنتجات: الفرضية، القياس المنطقى، الحجة، الكلام ولكنه ليس الفكر النشط فى حد ذاته.

(*) ما يقوله أرسطو بالتحديد هو «يمكن أن نحدَّ الخطابة بأنها الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان»(الخطابة: ١:٢ – ٢).

ما تم التعبير عنه أعلاه سيكون مثار جدل بين علماء البلاغة، وهو ما يشير إلى وجود جهد مستمر نحو مزيد من الفهم التام، على المستوى الفردي والجماعي؛ ومثل هذا الجهد الملحوظ يكشف باستمرار عن الأبعاد الضمنية.

ومن المفاهيم البلاغية الأخرى المثيرة للجدل "الاستعارة". (انظر: **الاستعارة Metaphor**). ويمكن تعريفها بشكل غير كاف، على أنها "إلباس الفكر ملابس اللغة" (وهي عبارة تعتمد فى صيغتها على استعارة ضعيفة ومبهمة). وقد عرف جورج لاكوف، مع آخرين، "الاستعارة"، على أنها تنظيم «رسم خرائط» فهم مجال ما من خلال مجال آخر. وهنا تبدو كلمة استعارة "خرائط" هى "المفصل" (استعارة آخرى). فالاستعارة من ثم مرتبطة بشكل وثيق بالنشاط الإبداعي الذى نسميه "الفكر" إنها مثل «الموضوعات الجدلية»، تحتوى فى جزء منها على بعد ضمنى يشير باستمرار تجاه كل من العملية الإبداعية والمنتجات اللحظية لتلك العملية. وهناك نوع من التراجع غير المحدود المقيد فى أي لغة يحاول الوصول إلى جوهرها، سواء فى كونها "رسمًا للخرائط" لدى لاكوف أو فى فهم إ. أ. ريتشاردز لها. إن "ثراء" النظرية ينتمي فى جزء منه على الأقل لبعد ضمني فى الفهم.

وعلى مستوى الفكر

على أساس الفكر؟ أليس كل من النظرية البلاغية وعلم التدريس أنشطة فكرية؟ نعم، هما كذلك. النقطة الأساسية هنا هي بكل بساطة أن كلايهما ينتمي إلى النطاق الأكبر من الأنشطة التي نعتقد أنها "فكرية".

ولذلك يجب علينا أن نتوقع أن نجد فى نظرياتنا، وتعليمنا، وكلامنا وكتابتنا ذلك الجهد المستمر من أجل الفهم والنقاط الغامضة التي تحدث مع ذلك الجهد. يجب علينا أن نتوقع ونرحب بهذه النقاط الغامضة، على الرغم

من أننا سوف نشارك فى تقليل أو تثبيت تلك النقاط الغامضة فى بعض الممارسات اللحظية. إن الحياة تدفعنا إلى أن نحدد نقاطًا معينة تكون موضع تركيزنا، ومع التركيز، فإن الأبعاد الضمنية المصاحبة للفكر تكون نشطة.

نحن دائمًا نقول أكثر مما نعنيه، أى إن الأقوال تأخذنا إلى مدارات أوسع نطاقًا مما كنا ننوي. النوايا هى بؤر "الأهداف" كما يمثلها الفكر. والأبعاد الضمنية هي إمكانيات الأفكار. وعلى الرغم من أهميتها لكل بؤرة تركيز، فإنها تعد مداخل لمزيد من التفكير. وهكذا فالبلاغة يتم تجديدها من خلال قولنا دائما بأقل مما نعنيه أو على العكس بأكثر مما نعنيه.

المراجع

Booth, Wayne. *Modern Dogma and the Rhetoric of Assent*. South Bend, Ind., 1974 .

Lakoff, George, and Mark Johnson. *Metaphors We Live By*. Chicago, 1980 .

Lakoff, George, and Mark Turner. *More Than Cool Reason*. Chicago, 1989 .

Norton, Robert W. "Conviviality: A Rhetorical Dimension. " *Central States Speech Journal* 26 (1975), pp. pp. 164–170 .

Polanyi, Michael. *Personal Knowledge: Towards a Post - Critical Philosophy*. New York, 1964. First published 1958 .

Polanyi, Michael. *The Study of Man*. Chicago, 1963. First published 1959 .

Polanyi, Michael. *The Tacit Dimension*. New York, 1967. First published 1966 .

Richards, I. A. *Philosophy of Rhetoric*. New York, 1936 .

Scott, Robert L. "The Tacit Dimension and Rhetoric: What It Means to Be Persuading and Persuaded. "*Pre/Text, An Interdisciplinary Journal of Rhetoric*. 2 (1981), pp. pp. 115–125 .

Verene, Donald Philip. "On Rhetoric and Imagination as Kinds of Knowledge. " Mimeograph, 16th World Congress of 'Philosophy, Düsseldorf, 27 August–2 September 1978 .

تأليف: Robert L. Scott

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الاتصالات التقنية Technical communication

هناك حقيقة لا يمكن إنكارها فى التاريخ الحديث، وهى تلك الفجوة الآخذة فى الاتساع بين الذين يمتلكون كفاءات متخصصة للغاية والذين ليست لديهم هذه الأنماط من الخبرة. ولم تعد الثنائيات البسيطة والتسلسلات الهرمية تكفي لتفسير هذه التناقضات. وفي عالم مترابط بالشبكات تسيطر عليه فلسفة العولمة على نحو متزايد، يكون ممارسو الاتصالات المتخصصة عرضة لأن يصبحوا قراصنة كمبيوتر مثلما هم عرضة لأن يصبحوا علماء. هذا المقال لا يحاول أن يلم بالتنوع الاستثنائي لأنواع الاتصالات التقنية؛ فأي محاولة من هذا القبيل ستصبح عتيقة قبل أن يتم وضعها فى صفحة مطبوعة. وبدلاً من ذلك، نبدأ بدراسة ثلاثة مفاهيم مهمة عن "المجتمع التكنولوجي"، وكذلك مضامينها لما يعتبر اتصالات تقنية. ثم علينا محاولة عزل المعالم المتكررة للاتصالات التقنية التي تبدو ثابتة عبر الأنماط.

يتضمن الجذر اليوناني لكلمة التقنية *Technē* نوعًا من الشفرة الدقيقة والنظامية لقواعد وإجراءات الاتصالات "التقنية"، وهى شفرة معرفية. ويشير هذا الجذر أيضًا إلى أن عالم التقنية ليس ظاهرة حديثة، بل قديمة قدم التخمينات المنهجية نفسها. ومع ذلك، فإن إحدى سمات النقد الحديث ونقد ما بعد الحداثة الاجتماعية هو الشك فى أن عالم التقنية قد أصبح يهيمن على معظم - إن لم يكن كل - المواقع المعاصرة للمداولات والحكم. يصاحب هذا الشك شعور متأصل بأن هيمنة الاتصالات التقنية ليست شيئًا جيدًا. قد نأخذ

بعض الاستثناءات لهذا النقد. ولكن أولاً لابد من اتخاذ الإجراء السليم للنقد نفسه. نضع مهمتنا ضمن سياق مفهومي سابق من خلال لمحة عامة عن ثلاث وجهات نظر مختلفة بتعريف المجتمع التكنولوجي، باعتبارها تفسيرات للصورة الأكمل التى نسعى إليها قد تعاني الأوصاف ذاتها من نقاط ضعف خطيرة، ولكنها مع ذلك ذات قيمة كعلامات تاريخية لهذا المفهوم الذى لا يزال قائمًا. وتتناول المناقشة التالية المجتمع التكنولوجي باعتباره وسيلة للسلوك فى عالم الحياة، وباعتباره وسيلة للتفكير، وأخيرًا باعتباره أسلوبًا للوجود.

المجتمع التكنولوجي بوصفه سلوكًا Tecnological Society as Conduct

نستمد حديثنا عن السلوك بشكل ما، من نظرية ملاءمة النظم لهابرماس Habermas (١٩٧٥). وفي وضعه أنواعًا مختلفة من الشروط الأساسية للنظم، يميز هابرماس بشكل أساسي بين ما يسميه عالم الطبيعة الخارجية، وعالم الطبيعة الداخلية. تشمل الطبيعة الخارجية كل ما نفكر فيه كالأرض نفسها، والنباتات، والبيئة. ومن ثم، ولكون ذلك عادة يقع داخل العالم الحي للنظم الاجتماعية، يلتقى الشخص بالطبيعة الداخلية: عالم المعاني الثقافية، والعادات والممارسات المستمدة مع الطبيعة **الذاتية**، والجهاز المثمر للوعي البشري. وبوجه عام، يرى هابرماس، أنه علينا الاقتراب من عالم الطبيعة الخارجية فى سياق تقنى والاقتراب من عالم الطبيعة الداخلية فى سياق اجتماعي واتصالي.

التمييز الأولي لا يخلو من خلاف، وليس من المؤكد أن يشارك فيه هابرماس بعد الآن. فالمسألة هي أن الاهتمام التقني فى مجال الكفاءة، والقيادة، والسيطرة قد بدأ يحوّل - بشكل متزايد - ليس فقط عالم الطبيعة الخارجية ولكن عالم الحياة فى الطبيعة الداخلية أيضًا. وهذا هو تعبير هابرماس عن الثورة الإدارية التي قال بها ماكس فيبر Weber، فحياتنا تزخر

بالأقفاص الحديدية، والخبراء، وهيمنة التخصصات المقيدة. ويريد هابرماس الآن بشكل مميز، أن يتجاوز مصطلحات النظام الخاصة به وينحيها جانبًا، تلك المصطلحات التى تسيطر عليها استعارة التوجيه الجذرية. ورأى أن هذا التمييز المسبق كان يمكن أن يتم لو كانت هناك اهتمامات أخرى ومنهج لعالم الحياة. وهذا يسمح له بإعادة تقديم المسلّمات بما يكفي لتحرير الاهتمامات التى من شأنها أن تعيد ترتيب الأولويات التقنية والاجتماعية فى المجالات المختلفة. ولكن جدول الأعمال هو فى النهاية أقل أهمية بالنسبة لنا من ذلك التوصيف المتميز. هذه وجهة نظر ناقد ومنظّر للمجتمع التكنولوجي.

المجتمع التكنولوجي بوصفه نموذجًا للتفكير Tecnological Society as Thinking

ونحن قد نفكر أيضًا فى المجتمع التكنولوجي بأنه يتميز بطريقة عامة للتفكير: العقل الحسابي، الذى يسعى إلى تفعيل كل الخصائص المعيارية على أنها ممكنة القياس، ومن ثم إنتاج سلع قابلة للتداول. وقد كان مُخطّط هذا المفهوم الأكثر شمولا هو جاك إيلول Jacques Ellul، مؤلف كتاب: The Technological Society (١٩٦٨). ويُعد تقييم إيلول أكثر تشاؤمًا بشكل ملحوظ من تقييم هابرماس. فعلى عكس الرؤية المثالية للماضي المجتمعى (من خلال "النحل" والتجمعات الرعوية)، يطرح إيلول الأسبقية الحديثة للتقنية كواقع كبير لا توجد فرصة للفرار منه. وهنا، يختزل السبب إلى علة، والتبرير والغرض إلى أثر. وتبرر الغاية الوسيلة. ولا داع لتبرير ما يخالف ذلك. ويصنّف الفعل والتصرف كسلوكيات بشكل لا يقبل التمييز. هنا يعاد تصور لغة الموت والحياة والرفاهية والدمار، ويتم تشويهها فى إحصاءات احتمالات التكلفة والمنفعة. وهنا، تزيح اعتبارات السلطة والخبرات التقنية التأملَ الفطرى فى مصالح الإنسان القابلة للتعميم. ويكفي القول إن الوظيفة البلاغية الأساسية للسلطة التقنية هى التخفيف من التأمل النقدى. وفي أكثر

أشكاله تطرفًا، يبدو التفكير التقني عمليًّا أنه يلغي المحتويات المعيارية وأشكال الحِكَم.

المجتمع التكنولوجي أسلوب للوجود Tecnological Society as Mode of Being

وأخيرًا، نأتي إلى مفهوم هايدجر Heidegger عن المجتمع التكنولوجي باعتباره أسلوبًا للوجود. إن حجة هايدجر الخاصة هى فى حد ذاتها درجة عالية من التقنية، الغارقة فى لغة الأنطولوجيا الأوروبية. وبغض النظر عن بعض الفروق الدقيقة، فإن من شأن حجة هايدجر أن تؤكد على أن المجتمع التكنولوجي يعطينا الثقافة التي تحركها أولويات واحتياجات شيء ما غير أنفسنا. وفي مثل هذا المناخ، عادة ما يكون الأشخاص منفصلين عن أفعالهم. ونصبح بذلك مراقبين للعالم أكثر من كوننا مشاركين فيه. فى واحد من تعليقاته الأكثر وضوحًا بشأن هذا الموضوع (من كتاب The Question Concerning Technology)، يذكر هايدجر: "صورة العالم... لا تعني صورة العالم، ولكن العالم، كما نراه ونتصوره.... وصورة العالم لا تتغير من عالم القرون الوسطى إلى صورة حديثة، ولكن الحقيقة أن العالم يصبح صورة بالفعل، وهذا ما يميز جوهر العصر الحديث "(١٩٧٧، ص ١٣٠). فى حين أن طبيعة الإنسان هى مقولة إشكالية بالنسبة لهايدجر، إذ يمكن أن يكون هناك أدنى شك فى أن هيمنة التكنولوجيا تضعنا فى وضع يكون غريبًا عن طبيعتنا الحقيقية. هذا النمط من الوجود يجسِّد القيمة، كما أنه يختزل الحرفة فى الأداة، والأسلوب فى التقنية، والغرض فى الوظيفة. إنه وضع غير مألوف فى هذا الوجود.

تشير هذه الأفكار عن المجتمع التكنولوجي إلى عالم صناعى ومقيد بنظم بشكل متزايد، يتم فيه شراء الكفاءة والرضا العام على حساب المشاركة الحقيقية. لقد استخلصنا هذه المعانى الخاصة بالمجتمع التكنولوجي أولاً، حتى

يتسنى لنا أن نقدم بعض المقيدات اللازمة لها، وبشكل أكثر تحديدًا، حتى نتمكن من معالجة السمات المميزة للاتصالات التقنية.

لكن لدينا أولاً، إضافتان بسيطتان: فبغض النظر عن الشكل المعين الذى يتخذه النقد الشمولي، فإنه يجب أن نتعامل معه بحذر. فمن الخطأ اعتبار أن التحرك نحو المجتمع التكنولوجي منحنى لا رجعة فيه للتطور. فى الواقع، إن هذه هي إحدى خرافات التفكير التقني وهى أن هناك امتدادًا ونتيجة منطقية واحدة فقط للتطور التاريخي، وهى ما يسمى بالتقدم الاجتماعي. هذه النتيجة - بشكل واضح لا شك فيه - هى التحول المتزايد إلى التكنولوجيا فى كل شيء. هذه النقطة هي، فى أفضل الأحوال، محل جدل.

الإضافة الثانية هى أن اعتبار جميع أشكال التكنولوجيا على نفس القدر من الشر، والزيف، أو الدمار أمرٌ يتسم بقصر النظر. فهناك أدوات السمع، وآلات غسل الكلى وجهاز ضبط ضربات القلب، وغيرها. وإذا فكرنا فى التاريخ والتكنولوجيا على حد سواء فى صيغة الجمع بدلاً من المفرد، فإننا سوف نتقدم فى هذا الاتجاه. إن القضية هى جدوى الجمع بين هذه التفسيرات المعيارية واسعة النطاق بشكل معروف، وما إذا كانت هذه الأمور المشتركة تلقي المزيد من الضوء على خصائص الاتصالات التقنية. الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب.

وترى المنظورات الثلاثة كلها عالم التقنية عالمًا يتقارب مع شيء مغاير. إذ يقوم هابرماس بالتمييز التقليدي بين الطبيعة والثقافة، ذلك التمييز المماثل للتمييز اليوناني القديم بين الطبيعة physis والقانون nomos [انظر **السوفسطائيون Sophists**.] وقبل ثورة الوعي التى أثارها البلغاء اليونانيون الكلاسيكيون، كان معظم الناس يفترضون أن الطبيعة نفسها تحييها مبادئ كالثقافة (أي الآلهة الميثولوجية). وعلى نحو متزايد، أثارت النظرية النقدية

التقليدية جدلاً حول كون الطبيعة مثلها مثل الثقافة تم النظر إليها على أنها شيء يمكن تفسيره، بدلاً من تقديره. وباعتباره فيلسوفاً ماركسيًّا متأثرًا بكانط Kant – يضع هابرماس الأفق الإنساني المعياري كليًّا ضمن نطاق الثقافة، وبوصفه فيلسوفاً متاثرًا بكانط وذا تعاليم ماركسية، فإنه يميل إلى افتراض أن الطبيعة هي كذلك ضمن هذا النطاق، لتسخيرها أو تحويلها. أما بالنسبة لإيلول وهيدجر، فيبدو مجال التقنية وكأنه يبتلع كل شيء. ولكن حتى هذه الرؤى المحبطة تبدو متقاربة مع شكل من أشكال الاتصال يبدو أحدث وأنقى، سواء كان حواريًّا، أو اجتماعيًّا، أو يقوم على المشاركة.

وهناك قاسم مشترك ثان هو أن عالم التقنية يعتبر ذا طابع استثنائى، وهذه السمة بالإضافة لسمات أخرى تعتبر مثيرة للجدل. ويتصور هابرماس صعود " فئة جديدة "من التقنيين الذين يحكمون فى المقام الأول من خلال الخبرة. كما يشير إيلول أيضًا إلى ظهور السلطة التقنية بوصفها الصورة القائمة للتبادل القائم على المشاركة. ويرى هايدجر البشرية نفسها "مستبعدة" من وجودها الأصلى عن طريق الهيمنة المستشرية لما هو تقني.

بعض السمات المشتركة للاتصالات التقنية

Some Common Features of Technical Communication

تساعد القواسم المشتركة – إذا ما نظرنا إليها بشكل شمولي – على تسليط الضوء على السمات التقنية للاتصالات، حتى مع دعوتها لدقة الوصف. ومن الواضح أن مقارنة الاتصالات التقنية تتم مع العالم التقني ذاته. [انظر **السياسة** Sophists، مقال عن **المجالات الشخصية والفنية، والعامة للحجة** **of argument. The personal, technical, and public spheres**.] وهي طريقة التفاعل التي تقتصر على مجال الخبرة. وسوف تعتمد طريقة التعبير إلى حد

كبير على الرموز والاختصاصات المميزة للمجال محل الدراسة. ومن خلال التعريف، سوف يتقيد هذا النمط من التواصل تقريبًا بالمشاركة. ولن تكون لغة جراحة العظام أو المتخصصين فى السيارات أو قراصنة الكمبيوتر غير مفهومة تقريبًا لغير المطلعين على رموزها. إن الاتصالات التقنية تكون بمعزل عن النقد لدرجة أن المختصين بتلك الرموز يضعون مسميات مختصرة أو عامية لمفاهيمهم المعقدة. ولكننا نعتقد أنه من الممكن أيضًا أن تتخذ نهجًا أكثر توازنًا للمشاكل المعيارية التى يجدها النقاد فى المجال التكنولوجي، على الأقل عندما يتعلق الأمر بالاتصالات نفسها. إلى الحد الذى تكون فيه تقنية الاتصالات فى خدمة مباشرة للهيمنة وسيطرة المجتمع التكنولوجى التى أشار إليها هابرماس، وإيلول، وهايدجر، وهذه الحقيقة - بطبيعة الحال - مما نعترض عليه. ومع ذلك فمما يدعو إلى التساؤل هو ما إذا كان مثل هذا التوصيف المفرد عادلاً، وذلك نظرًا لتعقد وتنوع ما هو تقني فى عصرنا. فخلال الاحتجاجات الطلابية فى ميدان تيانانمين عام ١٩٨٩، على سبيل المثال استطاع الطلاب الصينيون الأمريكيون معرفة أحداث القمع الوحشي للمعارضة من قبل سلطة الدولة من خلال وسيلة كانت العقود السابقة تعتبرها غير متصورة. لقد تابعوا الأحداث المأساوية عن طريق البريد الإلكتروني.

ومع ذلك فإنه يبدو من غير المحتمل أن يكون من قبيل المصادفة وصول ثلاثة مفكرين جريئين حالمين لمثل هذه الاستنتاجات عن المجال التقني بشكل متماثل. وتتضمن السمات التى وجدناها فى تقنية الاتصالات أنها، إلى حد ما، غير متناسقة. إنها تسمح لاجتياز محدود، وتركيز مقيد، وخبرة انتقائية. إنها ترى جزءًا من الصورة الأكبر، وتنطوي على نوع من التسلسل الهرمي العلماني حيث الهيمنة لكل من السلطة والنفوذ. ونظرًا لهذه الخصائص، فمن السهل أن نستنتج أن الأهمية المتزايدة لما هو تقني تهدد القيم الثقافية التقليدية إلى حد ما. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نصل إلى هذا

الاستنتاج بشكل تام. وما نأمل بيانه هو بعض التحديات التي يتضمنها الاتصال التكنولوجي للممارسة البلاغية.

الاتصالات التقنية بما هي تحدٍ للبلاغة

Technical Communication as Challenge to Rhetoric

يقدم كتاب تارلا راي بيترسون وهو: Tarla Rai Peterson Sharing the World: the Rhetoric of Sustainable Development (١٩٩٧) افتتاحًا ملائمًا لتوضيحاتنا من خلال تقديم تفاصيل عدد من الخلافات البيئية التى تميز الاتصالات التقنية. والأمر المحوري فى تحليلها، والذي يحظى باهتمام خاص لهذه المناقشة، هو تمييز بيترسون المحيِّر بين ما تسميه "الخطاب التكنولوجي" و"الخطاب الإبداعي. " وفي إطار ذلك، الفصل بين الرموز المقيدة والمتقنة – وربما حتى المعرفة الاجتماعية والتقنية – فإن بيترسون قادرة على تحديد أول التحديات البلاغية وأبرزها تلك التي تطرحها الاتصالات التقنية؛ وهي قدرتها على تبرير استبعاد أولئك المشاركين فى المجادلة الذى يُفترض أن يكون قد قلَّل كفاية القضية محل الدراسة. فى الواقع، تذهب تارلا إلى حد القول بأن هذه الوظيفة الاستبعادية هى السمة الرئيسية التى تحدد الاتصالات التقنية.

وفي تصويرها لهذا التحدي – مجادلة ثور الغابات فى كندا – تقدِّم فريقًا من خبراء استخدام الأراضي الكنديين الذين يقومون باستخدام ما لديهم من أدلة لاستبعاد قبيلة من السكان الأصليين من الهنود الكنديين من أي مشاركة فى نزاع حول استخدام أراض عمرها قرون. وربما يكون من المبالغة الادعاء بأن الاتصالات التقنية تفعل ذلك تحديدًا. ولكن من المؤكد أنها القضية التي يَفرِض فيها دورُ دليل شهادة الخبير فى النزاع (عادة ما يكون دليلاً غير فني)، مطالبَ جديدة على مسئوليات الجمهور. [انظر **البلاغة الكلاسيكية Classical rhetoric**.]

ما تبقى من مناقشتنا، نتبع فيه القواسم المشتركة التي تتضمن آليات المجتمع التكنولوجي فى الشئون المعيارية. وهذا ما يصدق بنفس القدرعلى الاتصالات التقنية. ولا يتوقف الأمر على مجرد المجادلات البلاغية حول انتشار تلك التقنيات. إن التحدي المقنع للاتصالات التقنية من الناحية البلاغية هو عملية معقدة وتنطوى على قدر من المفارقة الساخرة. ولا يبدو أن الاتصالات التقنية بالنسبة للمتعاملين برموزها وآلياتها – تتطلب إضافة بلاغية؛ ويكفي ما تبدو عليه من موضوعية عاملاً للإقناع. ولكن هذا "الإقناع" يعتبر فى الأساس تحصيل حاصل، وهو يفترض السؤال الأكثر تحديًا عن كيفية استقطاب المزيد لحقل التكنولوجيا. وكما شاهدنا من المثال السابق، فإنه ليس من المألوف لمروجي الاتصالات التقنية أن يقوموا ببساطة باستبعاد المدافعين الآخرين عن البلاغة من المشاركة على أساس الكفاءة.

ولكن هذا ببساطة لن ينجح فى سياقات أكثر عمومية. وربما نجد من الجماهير العادية من يقوم بمقاومة الاتصالات التقنية بقوة بسبب تعقيدها الشديد وعزلتها (يتبادر إلى الذهن حكم و. ج. سيمبسون O. J. Simpson الشهير). ومن النادر أن نجد الاتصالات التقنية التي تقنع الجماهير بأدواتها الخاصة بشكل كلي وفعال. ومن الناحية العملية، فإن هذا يعني أن الاتصالات التقنية لا تعمل إلا فى إطار مجال أوسع عندما تستكمل أدواتها بشكل تقليدى من خلال البلاغة. وليس من الضروري أن يتم التعبير عن هذه البلاغة صراحة، بل يمكن أن تظل كامنة وراء الكواليس كعامل ضمني. ولكنه يأخذ دائمًا شكلاً خياليًّا على وجه التقريب. لقد تم الكشف بشكل تقليدى عن هذه الظاهرة من خلال ملاحظة هوركهايمر Horkheimer وأدورنو Adorno الألمعية حيث ينبع التنوير بشكل متكرر من الخرافات، وكذلك "التقدم" (١٩٧٢). إن المفارقة الساخرة، بالطبع، هي أن عالم الخرافة على وجه التحديد هو ما زعم العلم إزالة غموضه. كما لاحظ جورج

سيمل Georg Simmel (philosophie des geldes، ليبزيج، ١٩٩٠) فى مطلع القرن الماضي، إن الأوهام فى هذا المجال [أي الاستقبال التقني] تنعكس بوضوح تام فى مصطلحاته المستخدمة، والتي يكون فيها نمط التفكير ناجحًا بتحرره من الخرافة، وكشفه النقيض المباشر لها. إن التفكير فى أننا نقوم بغزو الطبيعة أوالسيطرة عليها هو افتراض طفولي للغاية، حيث إن جميع مفاهيم الغزو والإخضاع يكون لها معنى مناسب فقط إذا تم كسر إرادة القوى المعارضة.... وعلى هذا النحو فإن الأحداث الطبيعية لا تخضع لهذه البدائل من الحرية والإكراه ورغم أن هذا يبدو مجرد قضية مصطلحات، فإنه يضلل من يفكرون بشكل سطحي فى اتجاه التفسيرات المجسمة الخاطئة، ويدل على أن الوضع الخيالى للفكر قابع فى الداخل فى إطار النظرة العلمية الطبيعية. (ص ص ٥٢٠ - ٥٢١).

وقد أكدت الأحداث فى الآونة الأخيرة على الملاحظة التنبؤية لسيميل. فعندما هبط أول رجل على القمر، وصف الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون Richard Nixon الحدث على أنه الأكثر أهمية منذ خلق الكون. وبعد مرور ثلاثين عامًا، ظهر الرئيس كلينتون Clinton مع اثنين من الفرق البحثية المنافسة للإعلان عن خريطة شبه كاملة للجينوم البشري، ليس هذا فقط بل إن الرئيس وكذلك علماء البحوث أنفسهم ادعوا أنهم كشفوا عن بصمة الله فى النفس البشرية. وإذا كان حدسنا صحيحًا، فإن هذه التسميات ليست مجرد خدعة، ولكنها ضرورية بشكل بلاغي لوضع كل اختراع تقني مذهل فى إطار مقبول جماهيريًا.

إن التحدي البلاغي الأخير - وربما الأقل حظًّا من الدراسة- والمصاحب للاتصالات التقنية ينبثق من السلبية المحيرة للمجتمع التكنولوجي، أى الفشل في السيطرة، على الصورة الضوئية العابرة، غير المتوقعة على شاشة الرادار

المجتمعية: المفهوم المحير للخطر. وأول مظاهر تلك السلبية أن اللغة التى تشكل إطار تلك الاتصالات التقنية، لغة الفلسفة الوضعية، غير ناجعة مع وجود أي سلبيات لهذا الجانب من مثل الفرض الصِّفري. ثانيًا، لا توجد المخاطرة بصورة آمنة، داخل نطاق عالم الحقيقة سواء بالسلب أو بالإيجاب، بل تكمن فيما بينهما من حيز الإمكان. إن ما تثيره تلك المخاطرة داخل أمزجتنا من ظلال للمعانى يدخل فى نطاق القلق وليس الراحة. الثالث، يبدو أن خطر الغطرسة التقنية أشبه بكعب أخيل. فبشكل مباشر – وإن لم يكن دقيقًا ومع التنبؤ الواثق والتحكم فى الاتصالات التقنية، تظل الممارسة هى الكلام المخيف الذى يشير إلى الخطأ البشري: "كيف حدث ذلك؟" وأخيرًا – وكما يوحي السبب السابق – فإن المخاطرة هى ما يستحضر القضية الإشكالية؛ فالإنسان معرض لأضرار وفشل محتملين حتى يتقن تلك التقنية. لكل هذه الأسباب، فإن المخاطرة تعرض للاتصالات التقنية جنبًا إلى جنب مع التحديات البلاغية.

وفي إطار التخلص من تلك التحديات البلاغية، أعطتنا العلوم الاجتماعية تنوعات متقنة للاتصالات التقنية فى أشكال نظرية الاحتمالات، وتحليل المخاطر – الفوائد، ومحاكاة نظرية اللعبة المثيرة للإعجاب. ولكن هذا قد لا يؤدي إلا إلى تعقيد الأمور، بدلاً من وضع حد لها. وفي الوقت نفسه فإن مما يزيد من تلك التحديات ظهور تقنية ما بشكل غير متوقع، مع العلم أنه من المألوف أن ما يحدث فى الواقع العادى يجب أن يكون متوقعًا سلفًا فى الواقع الافتراضى.

في دراسة Accidental Rhetoric: The Root Metaphors of Three - Mile Island 2 (١٩٨١)، لاحظ توماس فاريل Thomas Farrell وج. توماس جودنايت G. Thomas Goodnight أن الاتصالات التقنية لا يمكن الاعتماد عليها لتهدئة المخاوف فى أوقات الأزمات. فبغض النظر عن الأضرار

الفعلية التي تسبب فيها "حادث" جزيرة الثلاثة أميال فالذي نجح – فقط – التراجع إلى اللغة الفنية فى تصوير الخطر العام. وقد أشار والتر كرونكايت Walter Cronkite إلى أن الأمر قد يستغرق وقتًا حتى يتم بناء الثقة فى الاتصالات التقنية. ففي شرحه للأحداث المتلاحقة، قال: إن ما يواجهه الإنسان من عبث بالقوى الطبيعية – وهو موضوع مألوف من أساطير بروميثيوس إلى قصة فرانكنشتاين – يصبح أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال على مدار الأيام" (١٩٧٩). ويستنتج فاريل وجودنايت أن لحظات المخاطر، داخل نطاق التقنية (وهو ما يمكن أن يعتبر خطرًا فعليًا)، يوفر دافعًا قويًّا نحو ظهور إضافات بلاغية تعويضية.

الاستجابات البلاغية للاتصالات التقنية

Retorical Responses to Technical Communication

تتميز هذه الإضافة بصعوبة الإحاطة بها مثل الاتصالات التقنية نفسها؛ إذ إنها مستمرة فى التطور. ومع ذلك، فإننا نذكر ثلاثًا من تلك الإضافات، لأسباب تتعلق بهذا المقال: البلاغة التي تكمل الاتصالات التقنية تبدو وكأنها خرافية النطاق، دفاعية النوع و(رواقية المزاج على نحو بطولي).

ويبدو أن للميثولوجيات علاقة متكررة وضمنية بتقنية الاتصالات. فقد تم خلق بعض الأساطير بشكل معتاد لتكون معادلاً رمزيًّا للهبوط على سطح القمر واكتشافات الجينوم. إن أساطير التقدم والإيمان الطفولي بما لا يدع مجالاً للشك تعد جزءًا من المعرفة الاجتماعية التى هي الأساس الذى يرتكز عليه التقدم الإيجابي الكبير للتكنولوجيا ذاتها. فإن الارتباط بين تلك الأساطير والاتصالات التقنية يبدو أخطر من أن نشير إليه هنا. إن واقع المخاطرة – أو تجسيدها – ربما يعود بنا (على حد قول كرونكايت وكما يظهر فى أفلام الخيال العلمى – راشينج وفرينتز Rushing Frentz،١٩٩٥) – إلى إشارات

دالة على غياب الدور الرقابى، وربما فشل التفكير العلمى بشكل عام. ومما يؤكد هذا التوجه، تلك البساطة التى تسم تعبيرنا الرمزى ومصطلحاتنا الموهمة التى عبرنا بها عن بعض المشكلات التقنية. [وما يُعد تراجعًا – فى هذا الإطار – هو شكل معقد من أشكال الدفاع عن النفس وإعلان الاعتذار يعود للظهور بشكل متكرر [بمظهريه: خيالية النطاق واعتذارية النوع [كلما ثبت عدم قدرة الاتصالات التقنية على تفسير اخفاقات التكنولوجيا. إن السعى للتدقيق المعلن فى هذا الإطار – حرصًا على اعتبارات المستهلك – والذى يتلافى ذلك الإهمال المؤسسى، لن يتفق مع محاولة التمادى من خلال الخطب، أو تكرار نفس أنماط الاتصالات الداخلية. فالمشكلة الإنسانية تتطلب وجود دعم مؤسسى كاف للتوافق مع أعبائها.

ومع بداية الثمانينيات بدأ فى الظهور بشكل متكرر ذلك النوع البلاغى الهجين المسمى «الاعتذار المؤسسى». [انظر الأنواع المهجَّنة **Hybrid genres**]. فالعشرات من الكيانات المؤسسية مثل: فورد، وإكسون، ويونايتد كاربايد، وكونتيننتال للطيران، وفيليب موريس – وجدت أن الاتصالات الداخلية الخاصة بها غير كافية لمعالجة الأخطاء العامة. وتأخذ هذه الإخفاقات شكل الجرم الصارخ إذا ما وضعت فى شكل (تحليل التكاليف والمنافع) وتم الكشف عنها للجمهور. ومع محاولات الإصلاح واستعادة ثقة المستهلك، يسعى المسئولون وخبراء تلك المؤسسات إلى التواصل مع الجماهير فى محاولة لرأب هذا الصدع، وإشراكهم فى المسئولية بدمجهم فى الوجود الجمعى باعتباره عاملاً مسئولاً عن هذا النقص أيضًا.

أما من الناحية البلاغية، فإن مثل هذه العروض لم تقدم ما تميز به نفسها؛ إذ إنها اكتفت بمجرد التلميح العام عند الاعتذار لقادة الرأى العام فى المجتمع الجماهيرى. وعلى الرغم من انتهاجها نهجًا زمنيًا قائمًا على

التسلسل الزمنى المركّز، الذى تعمل فيه على إعادة الأمور إلى نصابها بشكل مميز، فإنها لم تعتمد الفصاحة أساسًا لهذا الكلام، كما لم يكن الوصول إلى الضحايا الحقيقيين هدفها المباشر. لقد كان الهدف هو تحويل الرأى العام عن متابعة عناوين الأخبار الكاشفة لتلك الإخفاقات إلى قضايا أخرى. إن توالي مثل تلك الرسائل الجماهيرية المعتمدة على الاتصالات التقنية – يحقق الهدف منه عند التعامل مع قضايا عامة.

يتضمن المكون الثالث من الإضافات البلاغية للاتصالات التقنية مسألة الحالة المزاجية. فمع التقدم التقنى تبدو تلك الحالة متألقة وخصبة. وما يؤكد هذا التألق استخدام الأساطير للتعبير عن الجوانب التكنولوجية. ولكن مع المواجهة المتكررة لإخفاقات المجتمع التكنولوجى فإن الأمر يتطلب عندئذ المزيد من التوافق مع الإقناع الأخلاقي [انظر: الإيتوس **(الإقناع الأخلاقي)** Ethos]. وإذا كان مقدرًا لنا أن نعيش مع التقدم التكنولوجي (وهو افتراض لا جدال فيه)، فعلينا أيضًا أن نكون مستعدين للتعايش معه، لمواجهة أعبائه، حتى لو كانت هذه الأعباء قاتلة أحيانًا. وتشير الحالة المزاجية التي ندعوها "الرواقية البطولية" إلى وجود نوع من القدْرية دون استسلام كلي. وبالمعنى الخاص ببيركين، فإنها تفيد تحديد "القيمة"، حتمًا، كتضحية بطولية تتطلب تجديد القضية وكمال الالتزام بها. ونحن نعتقد أن هذه الحالة المزاجية وصلت إلى لحظة كمالها الخاصة خلال سنوات حكم ريجان.

يمكننا القول إن الكارثة التكنولوجية الأكثر شهرة فى العصر الحديث كانت انفجار المركبة الفضائية تشالنجر على مرأى ومسمع من آلاف المشاهدين فى يناير ١٩٨٦. وقد تزامن مع هذا الحدث خطاب الرئيس رونالد ريجان، الذى كان له مغزى رمزي لأن إحدى رائدات الفضاء، كريستا ماكوليف، كان من المقرر أن تكون المدنية الأولى فى الفضاء من وكالة ناسا. ومع وقوع الكارثة

كان هناك الكثير من التساؤلات التقنية بخصوص ما الذى يمكن أن يكون قد حدث. ولكن نظام ريجان أحس أن الإجابات التقنية فقط (حتى وإن كانت متاحة) لن تكفي لإرضاء وإراحة كل الذين شهدوا الحدث.

فبدلاً من ذلك، مساء نفس اليوم (٢٨ يناير ١٩٨٦) قام الرئيس باستدعاء لغة البطولة بشكل خطير لا يغيب عن الذاكرة حيث خلط النجاح المبهر لوكالة ناسا (والذى لم يكن فى أحسن صورة فى ذلك الحدث بالطبع) باليقين الراسخ لرواد الفضاء السبعة الذين سقطوا. فقد شبههم بالرواد وقارن بينهم وبين المستكشف فرانسيس دريك وأبطال القوات الجوية الذين يسقطون أثناء أداء واجبهم. ولكن فى خضم كل هذا، بدت تضحية طاقم تشالنجر أقل، حتى مع ما أبدوه من روح الاكتشاف، مما تطلب إبراز دورهم الرمزي بوصفهم طليعة التقدم التكنولوجي. ففي أحد النصوص، الذى كانت تقشعر له الأبدان قُرِئ حرفيًا، قال الرئيس: "لقد كان طاقم تشالنجر يأخذنا إلي المستقبل، وسوف نتبعهم. " ربما يكون ريجان قام بخلق أسطورة بشكل فعال عن ذلك الجانب المظلم فقط للتكنولوجيا؛ الرومانسية مع الموت. ولكن هذا هو ما نعتقد أن ريجان قام بفعله فى أفضل نموذج للتكملة البلاغية للتكنولوجيا.

حقق خطاب ريجان ما تنجح الاتصالات التقنية فى عمله بشكل روتيني، إذا لم يكن ثمة تحدٍّ يواجهها، فقد أرجأ قضايا الذنب والمسؤولية، والتواطؤ إلى أجل غير مسمى. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن مثل هذه الأمور كثيرًا ما تُثار عند حدوث خلل ما. كما أن هيمنة الخطر (كنوع من الطوارئ السلبية) تولِّد أيضًا ما نعتقد أنهما قضيتان جدليتان جديدتان، أو نقطتا ركود، فى إطار ذلك الجدل المتكرر حول الخطأ فى وقت الأزمات التقنية. [انظر **الركود** stasis.]

القضايا المثارة فى الاتصالات التقنية
Issues in Technical Communication Controversy

أولاً: يبرز على الساحة ما أسماه ج. روبرت كوكس J. Robert Cox المكان locus الذى لا يمكن إصلاحه. وهو ما يشير إلى ما يمكن أن نعتبره سلبية بيئية تظهر فى خضم عالم مترابط بشكل لم يسبق له مثيل. [انظر **ما لا يمكن إصلاحه** irreparable]. فثمة آثار سلبية للإنجازات التكنولوجية الكبيرة أو الصغيرة لا يمكن تداركها. وإذا اعتبرنا طبقة الأوزون والقمم الجليدية فى المناطق القطبية والغابات الحمراء وجميع الغابات المطيرة – شبكة مترابطة للطبيعة الحية، فإنما يلحق بعنصر واحد منها يؤدى إلى عواقب وخيمة لبقية العناصر لا يمكن تداركها. وقد يبلغ حجم الأضرار التى تلحق بأحد هذه الأماكن حدًّا لا تتمكن معه التكنولوجيا من معالجتها. بالإضافة إلى ذلك فإن التكنولوجيا لا تتمكن من تلافي الأضرار المتوقعة فى المستقبل مهما بلغت درجة تقدمها. عندئذ فإن نادرة بلاغية مثل (« عندما تشاهد إحدى الغابات الحمراء فكأنما شاهدتها جميعًا») لن تستطيع التعبير عن كارثة بهذا الحجم.

ثانيًا: مما يطرحه مجال الاتصالات التقنية أيضًا من قضايا إشكالية ذلك الغموض الذى يغلف العالم البشرى. فهيمنة التقنية على عالمنا تجعل المقاومة البشرية لها أمرًا لا طائل منه؛ ويصبح عندئذ من الصعب تجنب وقوع الأضرار الناتجة عن كوارث غير طبيعية (تكنولوجية). ربما تكون بلاغة ريجان قد ألبست هذه القضية ثوب الحزن البطولى، ولكن لن يمر وقت طويل بعد وقوع الكارثة، حتى تظهر أسئلة مزعجة:

لماذا لم تكن هناك أي فتحة هروب فى الكبسولة؟ لماذا أصبح إغلاق الأمان غير محكم؟ هل كانت هناك قنبلة على متن الطائرة المنكوبة فى رحلة شركة تي دبليو إيه؟ هل تم إخفاء بيانات مهمة حول فشل عمليات التفتيش على

السلامة؟ وذلك هو الحال أيضًا حتى إنه مع دخولنا نطاق الكوارث "الطبيعية" إذ قد يكون الباب مفتوحًا لفرض عقوبات بسبب الإهمال البشرى. وفي حالة الفيضانات والحرائق، والعواصف يمكن أن يعزى الأمر إلى سوء الري، وسوء استخدام الأراضي، وإلى طبقات الأوزون المستنفد. ومع تغير طبيعة العالم بسبب التقنية، فالمفارقة أنه اكتسب بالمقابل لحظة عامة خاصة به.

لم يساعد ترابط وسائل الاتصال التقنى فى التخلص من ذلك القلق الموجود فى نفوسنا والمصاحب لتلك الوسائل. ويعود ذلك إلى عدة أسباب. أولها، عدم وجود اتفاق جمعى حيال الضرورات التكنولوجية، بالتكيف معها او تجنبها. فالمرء يمكنه عدم مطالعة بريده الإلكترونى أو تصفح الإنترنت. وهذا معادل موضوعى حديث للنُسْك [أو الرهبنة]. ثانى تلك الأسباب تلك الفجوة الواسعة فى المعرفة والكفاءة بين المناطق الغنية بوسائل الإعلام والأخرى الفقيرة منها، وهى فجوة تتسع مع التطور المستمر للاتصالات التقنية. أما ثالث تلك الأسباب فهو أن حجم الشر المرتبط بالاتصالات التقنية يزداد مع تطورها، وبالتالى فإننا سنجد بشكل مستمر العديد من صور التلصص على أسرار الدول، وكذلك الفيروسات باعتبارها نتاجًا طبيعيًا لتلك الاتصالات.

من أجل كل ما سبق فإن التنبؤات التى ظهرت فى القرن الماضى بأن قرننا قرن الانتصار التكنولوجى، قد جانبها التوفيق. إذ إن هذا الانتشار لم ينجح فى محو المسئولية الإنسانية أو تدميرها، وعلى الأقل فإن هذا التدمير لم يحدث أثناء كتابتنا لهذا المقال. ومما يتصل بالبلاغة فإن عدم قدرة التقنية على إصلاح تلك السلبيات والتهديدات التى أشرنا إليها - يفتح المجال باستمرار لازدهار الفن المعبر عن ذلك.

مراجع

Cox, J. Robert. "The Die is Cast: Topical and Ontological Dimensions of the *Locus* of the Irreparable." In *Landmark Essays on Contemporary Rhetoric.* Edited by Thomas B. Farrell, pp. pp. 143–157. Mahwah, N. J., 1998 .

Cronkite, Walter. CBS Newscast, 30 March 1979 .

Ellul, Jacques. *The Technological Society*. New York, 1964.

أكثر الاتهامات قوة للتكنولوجيا باعتبارها طريقة للتفكير.

Farrell, Thomas B., and G. Thomas Goodnight. "Accidental Rhetoric: The Root metaphors of Three MileIsland." *Communication Monographs* (1981), pp. pp. 271–300.

دراسة حالة تستكشف التوترات المستمرة بين الاتصال التقنى والبلاغة فى محيط جدلى.

Habermas, Jürgen. *Legitimation Crisis*. Translated by Thomas McCarthy. Boston, 1975.

الدراسة الأولى لنزاعات الأزمة فى الرأسمالية المتأخرة.

Heidegger, Martin. *The Question Concerning Technology and Other Essays*. Translated by William Lovitt. New York, 1977.

يستكشف انتصار التقنى باعتباره طريقة للوجود.

Horkheimer, Max, and Theodor W. Adorno. *The Dialectic of Enlightenment*. Translated by John Cumming. New York, 1972 .

Peterson, Tarla Rai. *Sharing the Earth: The Rhetoric of Sustainable Development*. Columbia, S. C., 1997

يقدم معالجة محرضة للطرق التى تتم بها إثارة الاتصال التقنى والممارسة البلاغية أثناء الجدل البيئى.

Pool, Robert. *Beyond Engineering: How Society Shapes Technology*. New York, 1997.

معارضة قوية لوجهة النظر القائلة إن التكنولوجيا تحدد وجودنا الاجتماعى بطريقة ما.

Reagan, Ronald. "The *Challenger* Speech. " *CBS Special Report*. 28 January 1986 .

Rushing, Janice H., and Thomas S. Frentz. *Projecting the Shadow: the Cyborg Hero in American Film*, Chicago, 1995 .

تأليف: Thomas B. Farrell and Thomas Jesse Roach

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

القضية ونقيض القضية (الدعوى ونقيض الدعوى)

Thesis and Antithesis

نقيض القضية هي السمة المميزة للأعمال البلاغية المبكرة فى الكلاسيكيات الغربية. ولكن ليس لها أصول موثقة. وفي الواقع، قد يكون الفكر النقيض انعكاسًا للطبيعة المزدوجة للفكر البشري، على حد قول ليفي شتراوس Lévi - Strauss ، الأنثروبولوجي البنيوي. ويرى إدوارد نوردن Eduard Norden وجون فينلي John Finley الباحثان فى الكلاسيكية واللذان اتبعا كينتليان، الأصول المفاهيمية لحالات التعبير النقيضة المتطورة لما فى قصائد هوميروس من القرن الثامن قبل الميلاد. وهما بذلك يرجعان بنقيض القضية كأسلوب متميز فى التعبير عن النفس إلى فترة السوفسطائيين فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد، حيث وجد العلماء أن نشأتها معاصرة للبلاغة الرسمية الأولى. [انظر **البلاغة الكلاسيكية؛ والسوفسطائيون Classical rhetoric; and Sophists**.] ومع أفلاطون فى التراث الفلسفي (٤٢٩ – ٣٤٧ ق. م.) شكّل كل من القضية ونقيضها وسيلة من وسائل الإثبات. القضية هى طرح موقف يتطلب الإثبات، والذي يأتي من خلال التعبير المنظم عن نقيض قضيته أو نقائض قضاياه (انظر، علي سبيل المثال، Republic 335a عن الصداقة والعداوة، والمظهر والوجود، كل يثبت بنقيضه، (أرسطو، Prior Analytics72a وشيشرون، Toipics 21. 79 من أجل تعريفات بسيطة). وبدايةً، فإن حقيقة التضاد تجعل نقيض القضية ناجحة فى البلاغة والشعر، أو الفلسفة. ويوضح لامي Lamy (De l'Art de parler,1675) الأمر ببراعة: ("بضدها تتميز الأشياء").

ومن سمات النثر فى الأزمنة الأولى أن يتضح النقيض بالمعادلات. أى إنها تظهر فى عبارات متوازنة الطول تتكون غالبًا من عدد متساوٍ من الكلمات. وتعد قياسية الأطوال لصيغة نقيض القضية فى هذه النصوص نتيجة مباشرة للقياسية المرتبطة بالشعر. ولنقيض القضية – فى أبسط أشكالها – نوعان مميزان فى العصور القديمة (أرسطو Rhetoric 3. 9، و Rhetoricaad Alexandrum. وكلاهما فى القرن ٤ ق. م. والأخير ربما يكون من مؤلفات أناكسيمينيس Anaximines ٤٣٥ق. م.): نقيض الكلمات (المفردات) ونقيض المعنى أو الفكر. [انظر **نقيض القضية**] **Antithesis** . ومع وجود أشكال أكثر تعقيدًا فى العديد من النصوص المبكرة من هذا التمييز البسيط، وهى أشكال تصفها كتب القرن الرابع البلاغية، فعلينا أن نحدد الشكلين المشار إليهما على النحو التالى:

(١) النقيض النحوى، و(٢) النقيض الدلالى، وهما يشكلان تقسيمًا مفيدًا فى إطار التعليم البلاغى. ويتضمن النقيض النحوى تناقض الألفاظ أو العبارات أو تناقص الحجج كلها وحتى البنى الأكبر، كما فى الخطب (كينتليان Institutio Oratora، القرن الأول الميلادى ce. 9. 3. 81)؛ فى حين ينطوى النقيض الدلالى على عرض أفكار متناقضة، حتى مع وجود كلمات وجمل تعبر عنها لا تحتوى على تناقض واضح.

إن تاريخ القضية ونقيض القضية يتبع مسارين أحدهما بلاغى، والثاني فلسفى، وإن كانا من أصل مشترك. وتعرض بانتظام أعمال المفكرين السابقين على سقراط سواء كانوا سوفسطائيين أو فلاسفة – مع كونٍ تلك الأعمال مجرد شذرات – التعبير النقيض على أنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما يعبر عنه من أفكار، بنوعيه النحوى والدلالى. ويناقش هؤلاء فكرة كون المفاهيم القائمة على المعنى أساسية عند تحويل الفكر إلى لغة (وجهة نظر

بروتاجوراس) أو أن المعرفة المطلقة (logos or nous) الواحدة التي لا تتجزأ (من بارمنيدس إلى أفلاطون) ولا تنفصم عن الوجود تتحكم فى الكلمات(logoi). ويقدم هيراقليدس أمثلة لنوعى نقيض القضية: النحوى البسيط: « ماء البحر هو الأكثر نقاءً وتلوثًا، لأنه بالنسبة للأسماك صالح للشرب والمحافظة على الحياة، ولكنه بالنسبة للإنسان غير صالح للشرب ومدمر. » (ديلز وكرانز ١٩٥٠ – ١٩٥٢، وفريمان١٩٥٦، B 61)؛ وكذلك لقضية النقيض التى يتم حلها أو تفسيرها فى جملة واحدة بشكل واضح: « ما يتكوّن هو كلٌ وليس كلاً، يجتمع ويتفرق، يتناغم ولا يتناغم؛ من كل الأشياء يكون الواحد ومن الواحد تكون الأشياء» (ديلز وكرانز ١٩٥١ – ١٩٥٢، B10). وبالتالي فيما هو واضح، يستلزم نقيض القضية تناقضًا. فالفهم يأتي من وجود حل لنقيض كل من الكلمة والشيء أو الفعل (logosو ergon، الزوج الأكثر انتشارًا من المتناقضات فى الفكر اليوناني). وهنا بالفعل بدأ المسار الفلسفي لنقيض القضية فى الظهور: القضية ونقيض القضية يوجدان فى توازن، ويقتربان من التوحد، أى إن الجمع بينهما ممكن.

ووفقًا لديوجين Diogenes، كان إمبيدوكليس Empedocles وزينون Zeno (٤٥٠ ق. م.) أول من حاول التوصل إلى الحل الفلسفي لنقيض القضية بالتعبير عن النقائض كمقدمات للحجاج، وهو ما سيقوم أفلاطون، من خلال شكل من أشكال الحوار الدرامي أو الحجاج، المتناقض بطبيعته، بتحويله إلى الطريقة الجدلية.

ولكن أفضل من استخدم التعبيرات النقيضة هو جورجياس Gorgias، تلميذ إمبدوكليس (٤٨٣ – ٣٧٦ ق. م.). وقد ابتعد عن الفلسفة فى ذاتها، وتحرك فى اتجاه الكلمات، (والخطاب) تحركًا مختلفًا: نحو فن البلاغة *technē rhētorikē*. وهو – مثله مثل السوفسطائيين الآخرين فى النصف الثانى

من القرن الخامس قبل الميلاد (كبروتاجوراس وبروديكوس) - يهتم بماهية الكلمات وكيف تقوم بمهمة نقل الحقيقة، أو ما يشبه الحقيقة أحيانًا(أو الظن doxa). ويعتمد الإقناع الجورجيانى على التعبير عن القضية مع نقيضها. إن نقائض القضايا عنده كثيرة، وإن كان ما يقصد من ترتيبه إياها هو أن تفضى إلى النتيجة. وعلى سبيل المثال فى إحدى خطبه الجنائزية التى يرثى فيها القتلى فى سلسلة طويلة متوازنة من نقائض القضايا، ويخلص إلى دلالات معقدة وتناقضات نحوية - يقول: أظهر الرجال « تقديسًا للآلهة من خلال عدالتهم، وتقوى للآباء من خلال رعايتهم، وعدالة لإخوانهم المواطنين من خلال تعاملهم العادل واحترامهم ووفائهم لهم. ولذلك فعلى الرغم من موتهم، فإن الشوق لهم خالد لم يمت، وعلى الرغم من أنه شوق لأجساد ميتة، فإنه يعيش من أجل أولئك الشهداء». (ديلز وكرانز ١٩٥١ - ١٩٥٢، فريمان١٩٥٦،٦).

ارتبط اسم جورجياس بنقيض القضية بشكل وثيق لدرجة أن ما يسمى المحسنات البلاغية الجورجانية فى القرن المقبل، والتى تسهل التعبير المتناقض، تنسب إليه. [انظر **المحسنات البلاغية الجورجيانية** **Gorgianic figures**; and**Isocolon**].

لقد ازدهرت البلاغة كوسيلة من وسائل الإقناع التي تمنح الامتياز للكلمات logoi (الكلمات، والحجج) على الواقع فى الفترة من منتصف القرن الخامس إلى آخره. [انظر **المنطق** logos.] إن كون نقيض القضية تقع فى قلب القضية بدا من الأمور الأكثر اضطرابًا وإشكالية من الناحية السياسية فى ذلك الوقت: فقد أدين السوفسطائيون لأنهم كانوا قادرين على استخدام المنطق السليم التصميم لجعل أسوأ الحجج تبدو وكأنها الأفضل وما يصاحب ذلك، كما أن الزيف معهم يصبح حقيقة. إن الأخطار الكامنة فى هذا النوع من

الحجاج، سواء بالنسبة للمحاكم والتعليم بدت واضحة بشكل عام فى أثينا وتم شجبها بقوة من خلال الصراع بين الكلمات logoi الحقيقية والزائفة فى مسرحية أرستوفان، "السحب"، حيث ينسب المبدأ – على سبيل الخطأ وبطريقة هزلية – لسقراط.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا المبدأ مفهوم تمامًا بين الذين يدرِّسُون البلاغة. فتعليم بناء الخطب المقترنة التى تعبِّر عن المواقف المتناقضة dissoi logoi كان جزءًا من المناهج الدراسية. وكان من الأمور المعتادة فى أثينا أن يقابَل ذلك الحجاج السوفسطائى *agōnes* بالتصفيق سواء كان الأمر متصلاً بالجدال أو بالمدح أو بالهجاء. والحجة المنتصرة فى هذا السياق تعتمد فى نجاحها على أسلوب العرض، وليس بالضرورة على صحة موقفها. والمجموعة الوحيدة من المواقف المتناقضة dissoi logoi بعد مدة وجيزة من عام ٤٠٤ ق. م. تتكون من تسعة أزواج متضادة من الخطب حول موضوعات مثل: الجيد/ الرديء، النبيل/ المشين، العادل/ غير العادل، الحقيقة/ الباطل. وأفضل المواقف المتناقضة هى مجموعة خطب ثيوسيديدس عن تاريخ الحرب البيلوبونوسية (٤٣١ – ٤٠٤ق. م.). أما الحجاج بين كليو وديودوتس حول قتل من ثاروا ضد أثينا(48 - 37 .3)، وخطب نيسيان وألسيبياديس عن الحكمة من غزو صقلية(18 - 6. 9)، فهى من الأمثلة الأشهر.

يعد ثيوسيديدس Thucydides أول مؤرخ سياسى (٤٥٥ – ٣٩٦ ق. م.) يُدخل على هذه التقنية التعقيد والتنوع، الذى يحطم الميل الطبيعى نحو التوازن والتوازى. التنوع variatio هو المصطلح التقنى المعبر عن التجنب المقصود للتوازن الدقيق بين العبارات أو الكلمات. ويسعى ثيوسيديدس بذلك جاهدًا لتجنب النقيضة الجورجيانية، وغالبًا ما يقوم بوضع أحد عناصر إحدى

المجموعات فى مجموعة أخرى. إن تعقُد النتائج قد قيد اليونانيين وإن كان قد قوى الفهم لدى العلماء. وفيما يلى مثالان من خطبة جنائزية يذكرهما ثيوسيديدس على لسان بيريكليس. يتضمن الأول فكرًا نقيضًا، مع غياب للنقيضة اللفظية: «إننا نستخدم نوعًا من الحكومات لا تقوم بنسخ القوانين من جيراننا، إذ إننا نشكل نموذجًا أكثر من كوننا مقلدين للآخرين.» (2. 37. 1). والمثال الثانى به نقيضته المتقنة نحويًّا: «نحن عشاق الجمال باقتصاد، ومحبى الحكمة بدون ليونة، ونحن نستخدم الثروة للعمل المناسب أكثر من التفاخر بها.» (2. 40. 1).

ومع بدايات القرن الرابع قبل الميلاد كان نقيض القضية – باعتباره عنصرًا إنشائيًّا شفاهيًّا – موجودًا بشكل محدود. وكان وجوده يُعزى إلى مجموعة من الوسائل الأسلوبية. وابتعد النثر الخطابى عن التأثير الشعرى المعروف. وكان هناك توازٍ بشكل محدود فى إطار تكرار البناء والكلمات. وفي نقده لثيوسيديدس يحذر ديونيسيوس من الإفراط فى استخدام نقيض القضية ويثنى على الخطيب ليسياس لتجنبه ذلك. لكن ليسياسLysias (٤٤٥ – ٣٨٠ ق. م.) كان مولعًا بالعبارات المتوازنة المسجوعة (التي لها نفس النهايات) حتى مع عدم وجود نقيض دلالي. وكان إيزوقراط يفرط فى استخدام النقيض لتجميل جمله الأكثر توازنًا حتى مع عدم وجود نقيض لدعوى الحجاج.

ومع ذلك فخلال هذا القرن، ومع ابتعاد النقيض الدلالي من النقيض اللفظي الأسلوبي، فقد ظلت السمات النفعية الأساسية لنقيض القضية فى التفكر (dianoia) قائمة. وقد استخدم أفلاطون تعبيرًا يرجع إلى ما قبل سقراط ليعبر عن الأضداد باعتبارها أسلوبًا للمناقشة(الجدل) والحجاج. ويسمي، فى الواقع أرسطو فى مقدمة كتابه "الخطابة" Rhetoric بأنها مناظرة للجدل.

والأهم من ذلك، أنه شرع فى وضع اصطلاحات المنطق والقياس المنطقي على أنها امتداد مباشر للجدل الأفلاطوني. [انظر **الجدل؛ المنطق؛ القياس المنطقي** **Dialectic; Logic; and Syllogism**.] وينطوى كل واحد من تلك الأشكال، التى تمثل الحجج والبراهين الفلسفية على ثنائية إما فى المحتوى وإما البنية. على سبيل المثال، فشكل الحوار يتطلب ما لا يقل عن اثنين من المشاركين؛ وتتطلب القضية والقضية المضادة؛ ويتطلب الجدل قضية يلزم إثباتها بطريقة أو بأخرى. والقياس المنطقي هو صياغة دقيقة (ربما رياضية) للحجاج، والذي يعود فى الأصل إلى التفنيد الأفلاطوني elenchus. ويشمل القياس المنطقي فى جوهره زوجًا متناقضًا من القضايا، وأحيانًا بالتوازي، وفي بعض الأحيان يعبر عن أضداد حقيقية "تستنتج" (المعنى الأساسي للقياس syllogizein) فى توحيد الكلمات logoi المنفصلة، فى تأليف يجمعها. ويرى أرسطو مثل هذا التعبير النقيض يبعث على الرضا (hēdeia): "لأن الأضداد هي أكثر ما يسهُل فهمها، بل تكون أكثر قابلية للفهم إذا كانت متوازنة، وكذلك، لأن نقيض القضية أشبه بالقياس المنطقي لأن الحجة الداحضة تَحضر من البداية معا زوجين متناقضين(elenchos) للقياس (Rhetoric 3. 9. 1410a)[*]. والتوازي بين هذا المسار الفلسفي الذي وجهه نقيض القضية وتطور البنية الدورية للنثر المتكلف والذي وجد على وجه الخصوص فى خطب ديموستين ليس غائبًا عند أرسطو.

إن الجملة التامة التي أحسن سبكها، شأنها شأن القياس الذي أُحسِن تشييده، تتكون من جزأين نقيضين يواجه التالي منهما الأول. (*antikeimenē lexis*). ويُمثِّل هذا البداية الحقيقية للتبعية، أى أن تكون الأفكار إحداها خلف الأخرى، وليست

(*) يقول أرسطو: «إن معنى الأفكار المتقابلة يُدرك بسهولة، لا سيما إذا وضعت بعضها إلى جوار بعض، وأيضًا لأن لها تأثير الحجة المنطقية، فإنك بوضعك نتيجتين متقابلتين إلى جوار بعضهما بعضًا، تبرهن على أن إحداهما كاذبة» (الخطابة، ٣:٩ - p٠١٤١).

جنبًا إلى جنب. (أرسطو، Rhetoric 1409b - 1410a؛ وديمتريوس، On Style 1. 22). وسوف نورد مثالاً مميزًا من ديموستين فى (On the Crown، ٣٣٠ ق. م.) يتضح فيه بشدة وجود النقائض المختلفة داخل إطار التبعية:

حيث إن هذه الأمور هي هكذا موضع نزاع، فإنني أطلب منكم بل أناشدكم جميعًا الاستماع إليَّ بشعور من العدالة وأنا أقدم الدفاع ضد هذه الاتهامات، كما تنص القوانين، والتي فكر سولون - عند الإعداد لها فى الأصل، وهو أيضا ذو تفكير جيد ومن المؤيدين للشعب - أنه كان لا بد من التحقق من صحتها، **ليس فقط من خلال تشريع مكتوب، ولكن أيضا عن طريق قَسَم من هيئة المحلفين، وليس ذلك بسبب عدم الثقة بكم**، كما يبدو لي، **ولكن لرؤية** أن التهم والافتراءات، والتي يكون **المدعي** لها - مع ما يمتلكه من - **فرصة التحدث أولاً، لديه ميزة، لا يمكن للمتهم التغلب عليها**، إلا إذا كان كل واحد منكم كمحلفين يحافظون على احترام الآلهة، **يتلقى برباطة جأش** قضية المتكلم **الثانى، ويتصرف** بطريقة محايدة وديمقراطية وهو **يستمع لكليهما**، وبالتالي سيكون فى وضع يمكنه من استخلاص نتيجة حول القضية برمتها. (٢٢٧)

على وجه الخصوص، يمكن ملاحظة كيفية طلب الاستماع بحياد وبنجاح من لجنة التحكيم فى البداية، ويتم التأكيد عليه مجددًا فى النهاية بأسلوب متناقض، ولكن يتم التوصل إليه كاستنتاج مشروع لجملة بلاغية طويلة تعمل بمثابة دليل على المقدمة المنطقية من البداية. ويوحّد ثيوفراستوس، تلميذ أرسطو، بإيجاز بين الأسلوبية والفلسفة عندما يقول: "نقيض القضية هو الإسناد باستخدام أضداد لنفس الشيء "(ديونيسيوس On Lysias 14).

وظل المساران لنقيض القضية قائمين حتى أواخر العصر الروماني. وأصبح الشكل الأسلوبي لها متعلقًا بالشعر فى العصور الوسطى، ويعمل كشكل فنى إقناعى، وباعتباره موضعًا له topos؛ وتجنب الفلاسفة استخدام نقيض القضية بشكل عام، فى حين برز الحجاج القائم على أساس المناظرة فى النصوص البلاغية والدينية. [انظر stasis]. لم يعد استخدام نقيض القضية إذًا أسلوبًا للحجاج. وبعد إعادة اكتشاف منطق أرسطو وبلاغته فى عصر النهضة، لم يعد لنقيض القضية وجود إلا فى بعض تقاليد النثر الدنيوي، باعتباره سمة مميزة للأسلوب فى مساحات تبدو فيها البلاغة وسيلة إلى المعرفة والتفكير. [انظر مقالة النظرة العامة عن **بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric**]. ومن الأعمال المهمة فى هذا السياق فى أوروبا The Arts of Logicke and Rethorike لفينر (١٥٨٤)؛ و Institutions Rhetoricae لفوسيوس (١٦٠٦)؛ و On the Advancement of Learning لبيكون (١٦٠٥وباللاتينية ١٦٢٣)؛ و Discourse on Method لديكارت (١٦٣٧).

ويعد كتاب بيكون Bacon الأهم بسبب الاعتراف الواضح بالانقسام بين البلاغة والمنطق باعتبارهما جزأى "فن التراث" art of tradition المتميزين. وتغزو البلاغة وفقه اللغة الجديد الكلاسيكية الجديدة فى فرنسا، بينما يظهر، على أي حال، النقيض مرتبطا بالحجة والقياس المنطقي مهيمنًا فى المناقشة الفلسفية الجادة فى بريطانيا وألمانيا. أما كانط فيعمق الهوة بالفعل من خلال جعل البلاغة فرعًا من فروع الكلام جنبًا إلى جنب مع الشعر فى الفنون الجميلة، بعيدًا عن الفلسفة والعلم، Critique of Judgment (١٧٩٠). وهناك فصل تام بين أنواع نقائض القضايا، والوسائل الشعرية والبلاغية وبين الملمح القياسي المنطقي والحجة.

ومؤخرًا، قام هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) بتنشيط الفهم الخاص بفترة ما قبل سقراط، والفهم الأرسطى لنقيض القضية باعتبارها طريقة لتحديد النتائج؛ ومبدأً كونيًّا - وذلك من خلال استخدامه المفاهيم المقترنة، سواء فى حالة كونها متناقضة أو متوازنة. إن المطلق (الكلى، الحقيقى، الله) يمكن أن يفهم عند هيجل من خلال الجدل القائم على التأليف بين القضية ونقيضها، Science of Logic (١٨١٦)، وهو بدوره المعادل الفلسفي للمطلق أو الكائن، الذى يشتمل على العقل المعادل لله.

مراجع

Aristotle. *Prior Analytics*. Translated by H. Tredennick. Loeb Classical Library. Cambridge, Mass., 1983 .

مناقشة مبكرة للمنطق و الميتافيزيقا؛ تطور القياس المنطقي.

Baldwin, C. S. *Ancient Rhetoric and Poetic*. New York, 1924.

مسح عام للتطورات الرئيسية.

Baldwin, C. S. *Medieval Rhetoric and Poetic*. New York, 1928 .

تاريخ البلاغة منذ عصر القديس أوغستين والمدارس الرومانية الأخيرة مرورا بالكارولنجيين وحتى القرن الرابع عشر. يتتبع الدروب عبر العصور الوسطى: البلاغة والمنطق والبلاغة والشعر.

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

تاريخ ممتاز للبلاغة يقوم على النظرية وتطورها كحرفة وجزء لا يتجزأ من الشعر القديم والتاريخ والفلسفة.

Conley, Thomas M. *Rhetoric in the European Tradition*. White Plains, N. Y., 1990.

تاريخ عام وموجز ولكن مع بعض المناقشات العميقة للخطب الفردية لا يتعامل بالضرورة مع النقائض، ولكن يتعامل مع التوترات والخطب المزدوجة.

Connors, R. J., L. S. Ede, and A. A. Lunsford, eds. *Essays on Classical Rhetoric and Modern Discourse*. Carbondale, Ill., 1984 .

Denniston, John D. *Greek Prose Style*. Oxford, 1960. First published 1952.

يتتبع تطور صفات محددة للنثر منذ الفلاسفة والسوفسطائيين الأوائل مرورا بالخطباء والفلاسفة المتأخرين

Diels, Hermann, and Walther Kranz. *Die Fragmente der Vorsokratiker*. Berlin, 1951–1952.

المصدر الرئيسى لحياة ونصوص وأجزاء من أعمال الفلاسفة والسوفسطائيين السابقين على سقراط. انظر فيما يلى ترجمات فريمان وسبراج.

Finley, John Huston Jr. *Three Essays on Thucydides*. Cambridge Mass., 1967.

يوجد مصادر لأسلوب ثوسيديدس عند السوفسطائيين مثل جورجياس وبروديكوس.

Freeman, Kathleen. *Ancilla to the pre - Socratic Philosophers*. Cambridge, Mass., 1956.

ترجمة نصوص عند ديلز وكرانز.

Hegel, Georg W. *The Science of Logic*. Translated by A. V. Miller. London, 1969.

مقال يجدد فيه هيجل عملية «القضية ونقيض القضية» والتأليف.

Hollingsworth, John Emory. *Antithesis in the Attic Orators from Antiphon to Isaeus*. Menasha, Wis., 1915.

مازال أفضل المناقشات للموضوع ويوضح كيف أن كلا منهما استخدم الحجة الداحضة والأدوات الأسلوبية لها.

Kennedy, George. *The Art of Persuasion in Greece*. Princeton, 1963.

تاريخ عام للبلاغة والخطابة اليونانية منذ بدايتها وحتى العصر الهللينستى. يؤكد على السمات والنظرية.

Kennedy, George. *Classical Rhetoric and Its Christian and Secular Tradition from Ancient to Modern Times*. Chapel Hill, N. C., 1980.

مدخل عام للاتجاهات والشخصيات الرئيسية، يغطى الفترة منذ هوميروس حتى القرن العشرين.

Kenyan, Grover Cleveland. *Antithesis in the Speeches of the Greek Historians*. Chicago, 1941.

مجموعة جيدة من أنواع نقيض القضايا والأمثلة التى تمثلها.

Kirk, G. S., and J. E. Raven. *The Presocratic Philosophers*. Cambridge, U. K., 1969.

أفضل المناقشات التمهيدية لهؤلاء المفكرين وإسهاماتهم الرئيسية.

Lloyd, G. E. R. *Polarity and Analogy: Two Types of Argumentation in Early Greek Thought*. Cambridge, U. K., 1966 .

Norden, Eduard. *Die Antike Kuntsprosa*. 2 vols. Stuttgart, 1974. First published 1909.

أفضل تاريخ للعناصر المحددة للنثر القديم. يتتبع الأدوات فى الشعر ولدى مفكري ما قبل سقراط.

Sprague, Rosamond K. *The Older Sophists*. Columbia, S. C., 1972.

ترجمات من أجزاء متفرقة من السوفسطائيين من ديلز وكرانز بمن فيهم *dissoi logoi*.

تأليف: June W. Allison

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

المواضع الجدلية Topics

مصطلح «المواضع الجدلية»، والذي يستمد من الكلمة اليونانية التي تعني "له علاقة بالأماكن العامة" كان هو العنوان الذى أعطى لمجموعات الحجج الكلاسيكية وحجج العصور الوسطى المقبولة أو مجموعة النصوص المستخدمة فى الكلام أو الإنشاء اللغوى. وفي صيغتها المفردة، تدل كلمة topos إما على الموضع المألوف فى النص (وبالتالي هذا النوع من الفقرات التي تخص هذا الموضع)، وإما بالمعنى الأرسطي الأكثر صرامة، تعنى نوعًا من الحجج (الذي يمكن أن يولد فقرة محددة فى النص). والتداخل بين هذه المعاني معقد من الناحية العملية. ويوضح أرسطو فى كتابه طوبيقا Topica (٣٥٠ق. م.) كيفية الجدال حول الأمور المحتملة، ولكن على الرغم من تأثير هذا العنوان، فيجب ألا يعتبر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م.) منشئ الحجج الجدلية أو مصطلح topos. فأولاً، يقدم أرسطو نفسه شروحًا غامضة، بل وحتى متضاربة بشأن الموضع الجدلي topos ويشير أيضًا إلى الخبراء الآخرين الذين غطت أساليبهم البلاغية هذا الـموضع الجدلي topos أو ذاك. وهكذا فقد تدخل فى مصطلح يوناني سوفسطائي مستقر وفي والممارسة الخاصة به [انظر: **السوفسطائيون Sophists**.] وسوف يتناول هذا المقال ما قدمه أرسطو فى كتابه طوبيقا Topica، والذى يعد أول معالجة منتظمة لموضوع الحجج العامة، أو التى يمكن إعادة توظيفها، والعلاقة بين هذا كله وبين بلاغة أرسطو المتطورة، بالإضافة إلى التعديلات الرئيسية للنظرية. كما سيتناول العلاقة بين المواضع الجدلية topoi والاستخدام الخطابي والممارسة والأدبية.

يشرح أرسطو فى كتابه طوبيقا Topica التفكير الجدلي، الذي يتناقض عنده مع التفكير العلمي الذي قدم له معالجة فى كتاب التحليلات الثانية Posterior Analytics. [انظر **الجدل Dialectic**]، ويهدف أرسطو فى الطوبيقا Topica إلى تزويد الفيلسوف أو المتكلم بالمنهج الذي تتم به مناقشة جميع الاحتمالات (endoxa)، ففي حين يوضح التفكير العلمي البراهين الهندسية، مثلا، يعرض الطوبيقا Topica وسائل الجدال التى يمكن للغة أن توضحها. إن المنهج الجدلي الذي يستخدمه هو عملية استفهام وتعزيز لتعريف مقترح، وخلافاً للمنهج العلمي، الذي يتطلب أن تكون مقدماته المنطقية صحيحة، يُعنى الجدل (في هذا التناول المبكر) بالآراء المشهورة. وهكذا يقدم أرسطو طريقة للمتكلم للانتقال من الأفكار المقبولة عمومًا أو بعض الأعراف ليصل إلى غاية معينة. ويرى هذا كلغة عالمية وطريقة إقناع مفيدة لتدريب العقل، على المواجهات اليومية، والبحوث الفلسفية. تطور تفكير أرسطو من هذا الاعتبار المنهجي بشكل واضح فى وقت مبكر، وهكذا فإن الطوبيقا Topica عادة ما تطغى عليه مناقشة القياس الذى لم تذكر فيه المقدمة المنطقية فى كتابه الخطابة **Rhetorica** بينما تطغى مناقشة أنواع الحَمْل (الإسناد) فى مبحث المقولات **Categories**. [انظر القياس الإضماري **Enthymeme**] (وفي الطوبيقا Topica، تندرج جميع صور الحَمْل (الأسانيد) تحت واحدة من أربع فئات هي: التعريف، الجنس، والملكية، والعَرَض). ولعل الطوبيقا Topica من أهم ما يشغل مؤرخ الفلسفة باعتباره الرؤية الأولى لأرسطو فى نظريته عن الحجة الكلية، والذى تم تهذيب أقسامها بشكل كبير فى كتابه «المقولات» **Categories**. وباعتبار الطوبيقا منهجًا من الناحية الكلية قياسيا أكثر مما نجد فى «الخطابة» الريطوريقا **Rhetorica**. ومع اعتبار أن الطوبيقا Topica ليست مقدمة بسيطة "للبلاغة" لدى أرسطو: فإن الجدلي يقوم بفحص الفرضيات الأخلاقية والمنطقية، والمادية الناجمة عن إجماع الناس، أى ما هو مقبول

لدى غالبية الجمهور. ويضيف أرسطو أن هذه الآراء يمكن أن تكون مقبولة لدى الرجال الحكماء، جميعهم، أو الغالبية منهم، أو الأكثر شهرة منهم. وهو لا يعنى بالتناقضات فى هذه المجموعات، لأنه يقوم بمسح واسع فى تحليله للآراء المشهورة. ومع ذلك، لا تتضمن الاحتمالات أكاذيب أو منطقًا زائفًا (والعمل التالي فى "**أورجانون**"، وهو "**حول التفنيدات السوفسطائية**"، **يعالج هذا النوع من الاستدلال**).

على الرغم من تأكيد أرسطو على أهمية الرأي العام، فإنه لا يصف الحجج غير الأخلاقية أو تحريض الرأي العام: إنه يدرس البنى التحتية لتكوين الآراء اليومية بالروح نفسها التي أدت به إلى تجميع القوانين من مختلف التجمعات التماسًا للعناصر المشتركة فى طبيعة البشر، وفي الطوبيقا Topica يُعنى بالبحث عن أسس الإجماع. وبذلك فقط يمكن للفلسفة وللمدينة أن تتقدم.

والواقع أن النظرية تتضمن أن الخطاب يقوم على هذه المبادئ، لأن أرسطو يتصور أن لغة الإنسان مهتمة دائما بالانتقال من النقطة أ إلى النقطة ج، بينما النقطة ب لا يتم التعبير عنها. وفي مرحلة متطورة تمامًا فى كتابه الخطابة **Rhetorica**، فإن هذا ينطوي على العثور على قطعة قياس إضماري. وفي كتاب Topica، يتعلم الطالب تلك الأنواع العامة من التفكير الكامنة خلف كل القضايا. وبمجرد أن نربط القضية التى لدينا بهذه البنى الحاكمة نتمكن من تحديد ما إذا كانت محتملة أو لا. وعلى الأقل هنا، فإن المحتمل يبدو مرادفًا لما هو خير أو مفيد. وباستخدام أحد الأمثلة التوضيحية لأرسطو يتبين ذلك: هل يجب أن يكون الشخص خيرًا مع الأعداء؟ إن المنطق الجدلي يؤدي إلى الإجابة "لا" فى ثلاث خطوات. أولها، هو رأي مقبول عمومًا أنه يجب أن نفعل الخير لأصدقائنا. ثانيها، نستنتج النقيض من ذلك (وهو بطبيعة الحال

زائف أو غير متسق): يجب علينا أن نفعل الخير لأعدائنا. فما يناقض الرأي العام سوف يكون محتملاً، وعندئذ يستطيع الشخص أن ينفي النقيض، ويمكن القول: إنه يجب ألا نفعل الخير لأعدائنا. وهنا يوظف المُستدِل المواضع الجدلية topoi ومنطق الأضداد لاختبار ما إذا كانت الفرضية تناسب الموضع المعروف topos. وهكذا فإن المُستدِل لا يقوم ببساطة نسج الآراء تجريبيًا.

الحجة المتعلقة بالموضوع الجدلي على هذا المستوى توسع المخزون من الآراء الشائعة والأحكام العامة. كما أنها تختبر تلك الحالات التى يوجد فيها خلافات فى الرأي. وأرسطو لا يسأل لماذا يعتقد الناس فى أشياء مختلفة: فهو يصف المنهج الذي يقدم الحَمْل (الإسناد) للحكم على اتساقه. وعلى سبيل المثال، فلو أن قضية تستخدم كلمة clear، فيجب على المُستدِل الحذر لأن الكلمة لها حقول دلالية مختلفة. ويشير المصطلح اللغوي لهذه الكلمة إلى حقل دلالى يخص اللون، وآخر للصوت. ويشير أرسطو إلى أنه فى هذين الحقلين المختلفين لا يمكن أن يرتبط اللون بنفس الموضع الجدلي topoi (ليس هناك وسط بين صوت واضح وغامض فى حين أن رمادي هو الوسط اللونى).

ويبدو أن أرسطو يصف الاستعمال اللغوي، كما أن الكثير من أطروحته يتناول تحليلاً قريبًا للغة المقدمات المنطقية. وفي مثال آخر، فإن الفعل اليوناني الذى يعني "يرى" يمكن أن يعني "لديه بصر": وهنا يقود أرسطو تلميذه ببساطة من خلال نوع من التساؤل لا ينتج عنه بحث لغوي، بقدر ما يظهر فروقًا فى اتساق العناصر المتوازية (ونقائضها). وحيث إن المقدمة تعمل وفقا لمقايسة الجزئيات على الكليات، فعلينا أن نتوخى الحذر من أن لغة المقدمة مماثلة لتلك التي تكون فى الموضوع الجدلي topos، أو لمقدمة أخرى نعرف أنها مثال للموضوع الجدلي topos. والغموض فى كلمة

من الكلمات قد يحول دون استخدامها فى المقدمة. ونتيجة اعتماد هذا المنهج فيجب على المُستدِل أن يمتلك مهارة اكتشاف لا فقط التعريفات المتسقة ولكن أيضًا المقدمات الخاصة التى تعكس بنية المقدمة العامة.

في ظل القواعد المعقدة والشاقة فى طوبيقا Topica لأرسطو (ربما يميل القارئ إلى رأى إيزوقراط [٤٣٦ - ٣٣٨ ق. م.] الذي قال إن الحجج العامة من الصعب جدًّا تعلمها)؛ ومن السهل عندئذ فقدان المنهج. وعلى الجدليين القيام بجمع الاحتمالات من الأعمال المكتوبة وغيرها ومن أي مكان آخر، وهى بدورها تخضع لمناهج صارمة تم وصفها فى الطوبيقا Topica، ولكن المغزى هو أن الطالب يخصص دفترًا للآراء تحت العناوين التي هي موضع جدلي من المواضيع topoi من Topica. [انظر **المواضع المشهورة والكتب الشائعة** Commonplaces and commonplace books]. إن التعريف والملكية، والنوع، والمفترض ليست موضوعات جدلية topos لكن العناوين التى تتشكل تحتها الموضوعات الجدلية topoi (على سبيل المثال، القضايا التي يُحمَل على موضوعها عَرَض من الأعراض هي فى الكتابين الثاني والثالث). وتحت العنوان الفرعي للموضوع الجدلي topoi تَعرض قوائم القضايا. أحد هذه الموضوعات الجدلية topos، على سبيل المثال، هو أن كل قضية لها نتائج ضرورية. وعادة ما تكون مهمة المُستَدِل هي مهمة المجادل السلبي (حتى يتم تقليل عالم الاحتمالات إلى مقدمات منطقية متسقة وإن كانت غير قابلة للتحقق منها بشكل دقيق). فمع القول «إن سقراط رجل» يمكن للمرء أن يسعى إلى نتيجة لا تكون القول فى هذا المعيَّن - على سبيل المثال - تبين أن سقراط ليس ذا قدمين أو غير قادر على التعلم وسوف يتم عندئذ إثبات أنه ليس رجلاً. وتحت الموضوعات الجدلية المقارنة هناك الموضوع التالي: هل يمكن تأكيد خبرين مختلفين عن الفاعل نفسه، إذا كان لأحد أن يستطيع دحض أقوى الاحتمالين، فيمكن أيضًا أن يقال إن الأقل احتمالاً يمكن

تفنيده. والموضوع الجدلي topos من النوع الأكثر حكمة: «الشيء المرغوب فيه في حد ذاته هو أفضل من شيء مرغوب فيه لغرض آخر. هذا هو الرأي الشائع الذى يمكننا من خلاله إثبات أن السعادة هي أفضل من الثروة لأن قيمة الثروة تقدَّر فقط بنتائجها». وهناك العديد من الجمل المقارنة والاختلافات التى تقع تحت العديد من الموضوعات الجدلية topoi. مثال لذلك: إذا كان هناك شيئان يقال إنهما الشيء نفسه، قم بفحص مشتقاتهما، ونظرائهما، ومضاداتهما الجدلية. إذا كان شخص ما يقول إن الشجاعة هى نفسها العدالة، يمكنك أن تجادل فى أن الرجل الشجاع يجب أن يكون مطابقا للرجل العادل. وإذا كان من المستغرب قليلا أن المنظرين اللاحقين قاموا بإهمال حصر وإحصاء أمثلة الموضوعات المتناظرة، واهتموا أكثر بمسائل التعريف، فإن أرسطو كان مهتمًا باستفاضة بتحديد ما يجب القيام به إذا كانت هناك جملة بها الكلمة "مماثل: same".

عاد أرسطو إلى موضوعه فى كتاب الخطابة Rhetoric (14 - 7 .4 .1) حيث كان يتناول موضوعات topoi الخير والشر، والحق والباطل والعدل والظلم. ولكن على العموم، فإن العرض العميق للاستدلال القياسي يغير كثيرًا من التناول السابق للفكر الجدلي أو يتداخل معه من خلال عرض تلك الموضوعات الجدلية. ويبدو أن أرسطو يستخدم الموضوع الجدلي أحيانًا على نحو غامض (Rhetoric. 2. 22). فهو يقول: إن «مدح أخيليس» يعد موضوعًا جدليًا شريطة أن يُمدح باعتباره رجلاً أو واحدًا من المجموعة التى ذهبت إلى طروادة. وهو هنا لا يقصد شيئا سوى الثناء العام غير المقيَّد بكون اليونانى شخصًا مثيرًا للإعجاب. ولكن بالأحرى على نحو ما يستخدم على العموم قد يبدو الموضوع إجابة بشكل مختلف إذا ما أشار إلى: « قطعة تتكون من مجموعة أو معاملة مبتذلة».

لقد حاولت الدراسات الحديثة تحديد الموضوع الجدلي topos، حيث إن أرسطو لم يقم بذلك، وهو فى الخطابة Rhetoric، ينص على أن عنصر الحجة وموضوعها الجدلي هما الشيء نفسه (انظر باتير Pater ، عام ١٩٦٨، الذي يعتبر الموضوع الجدلي topos قانونًا منطقيًّا أو سببًا، وهذا رأي عارضه ستامب Stump ، ١٩٨٨، الذي يعتبر الموضوع الجدلي استراتيجية).

يجب عدم اعتبار الطوبيقا Topica رغم تأثيرها وعاء النظرية والممارسة اليونانية والرومانية. ففي كتاب «السفسطة» Sophistis Refutation، يشير أرسطو إلى أن السوفسطائيين وضعوا مجموعة من تدريبات الطلاب التي كانت قابلة لإعادة الإنتاج عمومًا (انظر أيضًا شيشرون، Brutus ٤٦). وقد ظلت الطوبيقا Topica مهمة لأنها كانت فى «الأورجانون» Organon، أى مجموعة الأعمال الكاملة لأرسطو فى المنطق، وبسبب الشراح، الأكثر تميزًا الذين كان من بينهم الإسكندر الأفروديسي Alexander. (القرن الثاني الميلادى)، الذي أثر فى التراث البيزنطي، والعالمين المسلمين الفارابي فى (القرن العاشر)، وابن رشد فى (القرن الثاني عشر). [انظر **البلاغة العربية** **Arabic rhetoric**.]

وفي الغرب، يستمد تاريخ منطق العصور الوسطى مرارًا وتكرارًا من الطوبيقا Topics التى وضعها بوثيوس Boethius. فقد استخدم أبيلارد Abelard (ت ١١٤٤م) موضوعات بوثيوس، وليس أرسطو. ولكن فى سنة ١١٥٩ م يذكر جون John من سالزبوري أن الطوبيقا Topics لأرسطو قد تم تقديمه فى أثناء حياته. ويردد بوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤ م) الكثير من معالجة شيشرون: (فن الخطاب هو العثور على الحجج والحكم عليها، وهي المواضع الجدلية والتحليلات) ولكنه يقدم مفاتيح للتراث بين أرسطو وشيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.). وهناك أدلة إضافية ولكنها ضئيلة يقدمها الشراح، مثل الإسكندر

الفروديسي فى شرحه لطوبيقا أرسطو 67 .2، وكذلك واليز، ١٨٩١)، الذي يقدم تعريف ثيوفراستوس للموضوع الجدلي topos بأنه المبدأ الأول أو العنصر الذي منه نأخذ المبدأ الأول للمفردات، المعرَّف فى عمومه، وغير المعرَّف فى تطبيقاته. [انظر مقالة: نظرة عامة على **خطابة العصور الوسطى** **Medieval rhetoric**].

ويزعم شيشرون أنه كتب «الطوبيقا» Topica فى سبعة أيام، من الذاكرة، بينما كان فى طريقه من فيليا إلى ريجيوم. ولكن العمل لم يسعد طلاب أرسطو لأن شيشرون تعامل مع المواضع الجدلية topoi باعتبارها وسيلة للابتكار بدلاً من كونها حجة تحليلات للحجة، ولأنه يمزج بها نظرية الـــ stasis، وأخيرًا، فإنه يرتكب أخطاء فادحة وعشوائية تتضمن سردًا للأدلة الطبيعية. [انظر **stasis**.] وهذا العمل هو فى الواقع أداة مفيدة للابتكار وهو بلا شك يعكس الممارسة الهللينية. ويتبع بوثيوس شيشرون فى اللغة، والنظرية، ولكنه يتبع أيضًا ثيميستيوس Themistius ٣٨٨ – ٣١٧ ق. م.)، الذي يقول بوثيوس عنه، إنه قام بتعريف كل المواضع الجدلية. ويذكر بوثيوس **الموضوع الأعظم** proposito maxima باعتباره نوعًا واحدًا من الموضوعات/ الأماكن topos / locus، وهو مبدأ أول للدليل (المسلمة عند أرسطو)، وكذلك فهو يتبع شيشرون فى اهتمامه بالابتكار المنهجي، حيث يرى أن الموضع الجدلي هو topos /locus مستقرّ الحجة. وقد وصف شيشرون أيضًا الموضع باعتباره مَسْكَن البراهين (De oratore 2. 162).

من حيث الممارسة العملية، وكما توضح التمرينات المدرسية المعروفة باسم المناورات progymnasmata، فقد كان الإغريق والرومان يطلقون مصطلح الموضع الجدلي locus topos على جزء من الخطاب الذى يعظم فضل موضوع معين أو شره بالإشارة إلى حَدَث أو شخص معروف.

والتراث هنا فى حالة انحراف مباشر عن أرسطو، الذي انتقد المعلمين لإعطاء طلابهم منتجات الخطاب بدلا من منهج الخطاب. ورغم ذلك فقد أصبح الموضع الجدلي locus نقطة لقاء للكاتب والجمهور، وهو موضع مألوف، حيث يمكن اعتبار اختلاف مؤلف ما على أنه إعادة تناول للموضوع الجدلي والمعالجات المعروفة جيدًا. إن الكثير من الأدب اللاتيني هو موضع تقدير فى هذا الإطار، الذي يكافئ الإبداع، والتفاعل بين النماذج والكاتب والقارئ، ويتبنى تفسيرًا متعدد الطبقات.

[انظر أيضًا **السفسطة؛ البلاغة الكلاسيكية؛ ما لا يمكن إصلاحه؛ المنطق؛ البعد الضمني.** **Casuistry**; **Classical rhetoric**; **Irreparable, the**; **The Logos**; and **Tacit dimension**]

المراجع

Cole, Thomas. *The Origins of Rhetoric in Ancient Greece*. Baltimore, 1991.

تفسير إبداعى لحالة التنظير البلاغى قبل أرسطو.

Green - Pedersen, Niels J. *The Tradition of the Topica in the Middle Ages*. Munich, 1984.

مسح قيِّم للتراث الغربى مع ملخص مفيد للأبحاث عن بويثيوس.

Pater, W. A. De. "La fonction du lieu et de l'instrument dans les *Topiques.*" In *Aristotle on Dialectic. The Topics*, edited by G. E. L. Owen, pp. pp. 165–188. Oxford, 1968.

إصدار سلسلة من الأبحاث لباحثى الفلسفة القديمة.

Stump, Eleonore ed., and trans. *Boethius's In Ciceronis Topica*. Ithaca, N. Y., 1988.

مقدمة مفيدة مع ترجمة كاملة وهوامش.

Wallies, M., ed. *Commentaria in Aristotelem Graeca*, vol. 2, pt. 2. Berlin, 1891.

الطبعة المعتمدة لشرح الإسكندر الأفروديسي لكتاب طوبيقا «Topica» لأرسطو.

تأليف: W. Martin Bloomer

ترجمة: عزة شبل

مراجعة: مصطفى لبيب

الفنون الثلاثة Trivium

الفنون الثلاثة trivium والفنون الأربعة quadrivium هي تقسيمات نظمت ترتيب وعلاقات الفنون الحرة السبعة على مدار العصور الوسطى. تعنى الكلمة التقاء الطرق الثلاثة، أو منطقة عامة للجمهور مثل ميدان المدينة. كانت الكلمة تستخدم حتى فترة متأخرة تصل إلى القرن الثامن (استخدمها الباحث الكوين Alcuin) للإشارة إلى الفنون الثلاثة وهى النحو والبلاغة والجدل التى تتصل بالمنطق واللغة. أما مصطلح الفنون الأربعة فهو يعنى التقاء أربعة طرق.

وقد استخدم هذا المصطلح مبكرا ومن المرجح أنه استخدم لأول مرة فى بداية القرن السادس عندما استخدمه العالم ورجل الدولة الرومانى بوئثيوس Boethius ليشير إلى اجتماع العلوم الرياضية الأربعة (أو علوم القياس) وهى الهندسة والحساب والفلك والموسيقى. وقد ظلت فكرة الفنون الحرة السبعة التى تنقسم إلى قسمين لهما موضوعان مختلفان قائمة طوال العصور الوسطى (وبدرجة أقل فى عصر النهضة) كمبدأ إدراكى لمناهج دراسية عديدة، بداية من التعليم الأولى وحتى المدارس العليا، بما فيها الجامعات التى كان التأثير البعيد للفكرة إن لم يكن حضورها الآنى محسوسًا فيها.

لقد بدأ تجميع الفنون الثلاثة وهى النحو والبلاغة والجدل مع الرواقيين اليونان فى القرن الثالث قبل الميلاد. وعلى الرغم من أن مصطلح " الفنون الثلاثة" لم يستخدم إلا بعد هذا الوقت بألف عام، فإن فكرة الفنون الثلاثة (مجالات المعرفة، التخصصات المعرفية أو العلوم) التى يربط بينها علاقتها

باللغة والمنطق الشفوى، أصبحت ثابتة مع الفكر الرواقى. لقد قسم الرواقيون الفلسفة (بمعنى عموم المعرفة كلها) إلى ثلاثة أفرع: المنطق والأخلاق والطبيعة. وقد وضعوا داخل فرع المنطق (كلمة "اللوجوس" بمعنى "الكلمة" وأيضا بمعنى "المفهوم" أو "العقل") علوم النحو والبلاغة والجدل. ومن عدة قرون سبقت كان الفيثاغورسيون قد ربطوا الفنون الأربعة للقياس الرياضى وهى الهندسة والحساب والفلك والموسيقى أو الهارمونى (الانسجام) معا لأول مرة – وهو ما عرف فيما بعد باسم الفنون الأربعة). ولقد استمر النظام الرواقى الذى ربط بين فنون اللغة الثلاثة فى نفس الموقع القوى فى العصور الرومانية والعصور ما بعد الكلاسيكية. وقد كان فارو Varro (١١٦ – ٢٧ قبل الميلاد) العالم والنحوى هو أول عالم موسوعى جمع الفنون الثلاثة والفنون الأربعة معا فى بوتقة شاملة.

وقد وضع فى كتابه المسمى " كتاب التخصصات التسعة "، "Nine Books of Discipline" وهو الآن مفقود، قائمة بما أصبح فيما بعد يسمى بالفنون الحرة (وقد ضم فارو الطب والعمارة اللذين أُسقطا فيما بعد من القائمة). وفارو هو أيضا من وضع برنامجا فكريا لدراسة النحو اللاتينى معدلا وموسعا للنماذج اليونانية (عن اللغة اللاتينية ومعظمه قد اندثر).

ومن الممكن فهم الصلات بين الفنون الثلاثة بشكل واضح إذا ما أخذنا فى الاعتبار الطريقة التى كانت تدرس بها مرتبطة مع المدارس الرومانية الكلاسيكية. والجزء الأول من كتاب كينتليان شاهد على طريقة فهم المناهج الرومانية للعلاقة بين اثنين من الفنون هما النحو والبلاغة. ويعطى كينتليان تعريفين للنحو استمرا لفترة طويلة: إنه فن الكلام على وجه سليم وإنه فن تفسير مقاصد الشعراء. فى الدورين كليهما، يعد النحو من وجهة نظر كينتليان تمهيدًا لدراسة البلاغة وهى فن الكلام بشكل جيد. وقد كان الكلام

على نحو سليم يتطلب معرفة بالنظام النحوى الرومانى، الذى يصفه كينتليان وصفا عاما. ولكن تفسير الشعراء لا يتطلب فقط القراءة والتأويل وإنما أيضا التدريبات على الإنشاء عن طريق تقليد النماذج الأدبية والبدء فى التمكن من استخدام الأنواع والصور الجمالية. وقد حذر كينتليان مدافعا إن تلك هى المنطقة التى يجب فيها حراسة الحدود بين النحو والبلاغة خشية أن يجترئ المدرسون الأدنى شأنا وهم مدرسو النحو ويحاولوا الدخول إلى المجال الخاص بمدرس البلاغة. وهكذا فبينما كان ينظر هنا إلى النحو على أنه تمهيد للبلاغة، إلا أنه يشارك البلاغة وهى الفن اللغوى الأعلى درجة فى أشياء كثيرة. بالطبع هذا التداخل بين الفنين لم يشكل مشكلة سوى للمدارس الرومانية التى زعمت أن البلاغة متميزة باعتبارها الأولى بين العلوم (شيشرون عن الخطيب ٤٠١) وكينتليان (فقرة ١٧ - ١٨). فى الواقع لقد كان التداخل بين فن البلاغة والنحو فى مدارس العصور الوسطى بعد أن فقدت البلاغة تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية، وبالتالى قسطا كبيرا من مكانتها، مفيدًا للدراسات النحوية التى ورثت عن البلاغة الكثير من تعاليم الكتابة والأسلوب والتى استطاعت فيما بعد (خصوصا فى بداية القرن الثالث عشر) إنتاج نوع من البلاغة التعليمية كانت متأثرة جدا بالاهتمامات النحوية فى المحاكاة والتأويل الأدبى والأسلوب.

يعلن أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) فى بداية كتابه " فن الخطابة " أن البلاغة والجدل متممان لبعضهما. ويعتقد أن المدارس الرومانية قد قبلت هذا من حيث المبدأ. ولكن مع ميل الثقافة الرومانية إلى إعطاء المقام الأسمى فى التعليم للبلاغة، أصبح الجدل قسيم البلاغة (على الأقل اسميا) ومساعدها. لقد اشترك أيضا كل من الجدل والبلاغة فى دراسة الموضوعات، وهى أدوار الحجاج التى تفيد فى عملية اكتشاف أو إبداع الحجج (انظر: الإبداع،

والمواضع الجدلية). ولقد وفر الجدل الكثير من المصطلحات والأساليب التى طوعتها البلاغة فيما بعد لخدمة أغراضها. فمن هذه الوجهة، أصبح الجدل مسارا تمهيديا آخر للبلاغة. بالطبع كانت المكانة الفكرية للجدل أعلى من مكانة النحو، لكنه بكل تأكيد، لم يكن هو ذاته محققا للمثل التعليمية (كما كان عند أفلاطون). لقد اعتبر أرسطو موضوعات الجدل والبلاغة فعلا متناظرة ومتساوية: الموضوعات الجدلية تتناول المصطلحات داخل الأطروحة (التى يبنى عليها) بينما الموضوعات البلاغية تتناول مستوى الطرح نفسه، والحجاج البلاغى يميل إلى الربط بين أطروحات كاملة أكثر مما يربط بين مصطلحات منفصلة. ومن الواضح أن شيشرون (106 - 43 قبل الميلاد) كان يعتقد أن دراسة أساليب الاستنتاج المستخدمة فى الجدل مفيدة بل ضرورية للتحكم فى الحجاج البلاغى. كما أن تناوله للموضوعات فى كتابه "عن الإبداع" غير متأثر كثيرا بأرسطو ولكنه متأثر بنظرية الوضع للبلاغى الهيلينستى هيرمادوراس التيمنوسى المنشأ (نظام لموضوعات الحجاج موجود فى ظروف ومنازعات الفرض). ولكن هناك اهتماما أكثر صراحة فى كتب شيشرون اللاحقة: "الطوبيقا " (وهو رد فعل لكتاب "الطوبيقا" لأرسطو) و"عن الخطيب" بإدخال الجدل فى الإبداع البلاغى. وهو يهتم هنا أكثر بالأنواع العامة من التفكير ومسائل العلاقات المنطقية، ويميل إلى محو الحدود بين البلاغة والجدل، ولكنه محو فى صالح اهتمامات البلاغة (انظر Michael Left فى مقالته "مواضع الإبداع الجدلى فى النظرية البلاغية اللاتينية من شيشرون حتى بؤثيوس" (Rhetorica 1, 1983, pp.23 - 44) . وقد ظل تفضيل الاهتمامات البلاغية عند دراسة الجدل ثابتا حتى بعد كينتليان. فهذه العلاقة ظلت ثابتة حتى كتاب بؤثيوس المهم عن المواضع الجدلية المختلفة (الذى صدر فى أوائل القرن السادس) الذى عكس هذه العلاقة على نحو حاسم. فعند بؤثيوس تصبح البلاغة حقيقة ثانوية بالنسبة إلى الجدل. بينما يستخدم الجدل أطروحة

(هل من المفيد للرجل أن يتزوج؟) تبدأ البلاغة من الغرض المحدد بظروف (هل سيتزوج كاتو؟). وقد يستخدم كل من البلاغة والجدل اللغة نفسها فيما يتعلق باكتشاف الحجج، ولكن البلاغة أصبحت الآن مغايرة للجدل.

هكذا نشأت "الفنون الثلاثة" من فكرة تقاطع ثلاثة طرق هى: النحو والبلاغة والجدل. وفى التعليم الرومانى الذى جعل البلاغة مركزا للدراسات اللغوية، فضلت البلاغة فى الواقع النحو على الجدل لأن التركيز كان على الطريقة التى تستطيع بها البلاغة أن تفاوض علاقة مع كل من الفنيين الآخرين منفصلا. وكان ينظر إلى عناصر المناهج الدراسية الأخرى على أنها تدور حول البلاغة. ومع ذلك، فقد خلق هذا علاقة ديناميكية نوعا ما بين الفنون الثلاثة ولكن فى الفترات القديمة المتأخرة وفى أوائل العصور الوسطى، أي فى فترة المجموعات الموسوعية الكبرى حل محل هذه الديناميكية فى المناهج الدراسية علاقة فكرية نتيجة لاعتبار أن هذه الفنون تتخلل بعضها بعضًا ولا تنافس بعضها بعضا كما كان معتقدًا فى المدارس الرومانية. وفى العصور الوسطى كانت هناك ضغوطا من أجل الاحتفاظ بأكبر كم ممكن من المعارف القديمة، وبالتالى فنحن نشعر فى بعض الأحيان بأن أقسام المعرفة قد أصبحت مادية أكثر.

لقد أصبح كتاب مارتيانوس كابيلا Martianus Capella "زواج علوم اللغة مركيورى" الذى كُتب على الأرجح فى أوائل القرن الخامس الميلادى واحدا من الكتب الدراسية الأوسع قراءة فى العصور الوسطى. لقد كانت هذه الكتابات الشعرية والنثرية التى أخذت شكلا رمزيا أساسا لفنون العصور الوسطى الثلاثة والأربعة. فكما يوضح مترجم العمل إلى الإنجليزية دبليو إتش ستال W. H. Stahl كان لهذا الكتاب ميزة واضحة (على مجموعات أعمال أواخر العصر القديم الأخرى) وهى أنه كان متناسب الأجزاء وكان

يقدم تناولا شاملا لكل الفنون الحرة بين دفتى كتاب غير ضخم الحجم (ستال وجونسون ويورج ١٩٧١، ص ٢٢). فكتاب مارتيانوس يقدم قصة أسطورية مملوءة بالزخارف تم تركيبها على ملخصات موسوعية، والقصة هى أن مركيورى الذى كان يبحث عن زوجة نصح بأن يتزوج من الفتاة المتعلمة علوم اللغة فتجتمع العديد من الآلهة الكلاسيكية والشخوص الرمزية وحتى الفلاسفة فى السماء للاحتفال بالعرس. وفى حفل الزواج تتقدم كل من الفنون الحرة السبعة اللاتى يمثلن بشكل رمزى على أنهن سبع أخوات متعلمات للتحدث عن تخصصاتهن المنفردة وتهيمن مينرفا على هذا المشهد الأكاديمى الرمزى. والترتيب الذى تتقدم به الأخوات يوافق ترتيب الفنون الثلاثة والفنون الأربعة، وتعرض كل واحدة من الفنون منها على مدى جزء واحد. وقد كان مارتيناوس مستشعرًا للتبادل الفكرى بين الفنون: فالعروض مثلا قد تكون موضع اهتمام كل من النحو وهو فن لغوى وفن الموسيقى وهو أحد الفنون القياسية وهو ما كان سيفهمه الطلاب فى هذا العصر. كما كانوا سيفهمون أيضا أن المنطق هو الرابطة بين التحليل اللغوى للفنون الثلاثة والقياس الرياضى للفنون الأربعة. حتى لقد أطلق مارتيناوس مزحة على إمكان حدوث تداخل بين التخصصات، فعلى سبيل المثال، تقطع مينرفا بقدر من الازدراء حديث النحو عن الصور الجمالية والموضوعات لأنها تعتقد أنها تفوق الاهتمامات الأولية للنحو وأنها تصلح أكثر لكى تكون جزءًا من حديث البلاغة (لقد نجح مارتيناوس هنا فى إعطاء مذاق المنافسات المهنية التى كانت أكثر حدة وكانت جزءًا من التعليم الرومانى سابقا).

وفى مجموعات أعمال أخرى للفترة المتأخرة من العصر القديم والفترات المبكرة من العصور الوسطى، امتزجت الضغوط للحفاظ على النصوص من خلال استحواذ مسيحى على المنهج الكلاسيكى. فقد أعلن

أغسطين Augustine أن المعرفة الوثنية للعصور القديمة ينبغى أن تنقل إلى العهد المسيحى، بالضبط كما نقل العبرانيون معهم الذهب من مصر. وبالتالى فقد استفادت المعرفة المسيحية بأكبر قدر أمكن الاحتفاظ به واحتواءه من التعاليم الوثنية، ومن الممكن القول بأن كتاب "عن العقيدة المسيحية" Doctrina Christiana: لأغسطين على الرغم من أنه ليس بالضبط مجموعة أعمال فإنه تبنى الفنون الثلاثة بهدف مسيحى تأويلى إنجيلى: فالنحو ضرورى من أجل فهم الكتاب المقدس، والجدل مضمر فى تناول أغسطين للدلالة، إذ إن الإشارات مرتبطة بنظريته عن المعنى، ومن الممكن أن نقول إن البلاغة هى موضوع الرسالة بأكملها، بداية من الإبداع (العثور على مادة للحجاج من الكتاب المقدس وتأويلها) وحتى الإلقاء.

تعطى الموسوعة الضخمة لكاسيودورس (حوالى 585 - 490) بعنوان Institutiones divinarum et saecularum litterarum والتى وضعت خصيصًا من أجل تعليم الرهبان فى فيفاريوم خلاصة وافية للفنون من منظور مسيحى. ويركز الجزء الثانى من الموسوعة على الفنون الحرة معتمدا بشكل رئيسى على مصادر كلاسيكية متأخرة للفنون الثلاثة. أما الجزء الأول الذى يتناول الأدبيات الإلهية فيبين فيه كاسيودورس أهمية العلوم الكلاسيكية (الوثنية) فى تأويل الكتاب المقدس، وهو ما يبرر وجود ملخص للفنون فى النصف الثانى من الموسوعة. وعندما يكتب كاسيودورس عن الفنون الثلاثة فإنه لا يعطى النحو والبلاغة سوى اهتماما مقتضبا وعابرا، بينما يشغل الجدل مكانة مرموقة باعتباره "ما يميز الأصيل عن الزائف" وهو يسمح بمناقشة الأسئلة المعرفية الكبرى (مثل الفارق بين العلوم التأملية والعلوم العملية). هذا الاهتمام بالجدل مقتبس فى واقع الأمر من الفكر الأرسطى. ويعطى كاسيودورس مثالا مبكرا على احتفاظ العصور الوسطى بشكل الفنون الثلاثة، بينما أعادت توزيع

الأهمية بحيث أعطت أهمية أكبر للجدل لسهولة استخدامه فى مجالات فكرية جديدة. وقد كان النصف الثانى من الموسوعة الذى يركز على الفنون الحرة هو الأوسع انتشارا فى العصور الوسطى حيث كان مصدرا قريبا زمنيا لكتاب الموسوعات فى القرون القليلة التالية بما فيهم إيزيدور الإشبيلى Isidore of Seville (القرن السابع) الذى أصبحت موسوعته بعنوان: الأتيمولوجيا Etymologies هى الأخرى من أكثر الموسوعات التعليمية انتشارا. وكذلك رسائل الكوين Alcuin عن النحو والبلاغة والجدل التى كانت من أهم ما تم تأليفه فى فترة النهضة والتى تزامنت مع حكم الملك تشارلز. والكاتب الراهب رابانوس موروس Rabanus Maurus (حوالى 856 - 780)، وهو تلميذ لألكوين، الذى اعطت موسوعته بعنوان: Institutio clericorum مثالا لبّرامج تعليم الرهبان.

كما رأينا قدمت الثقافة الأكاديمية الرومانية بنية ثلاثية كانت البلاغة فيها هى المكون المركزى والمحورى. وقد احتفظت مجموعات الأعمال للفترة المتأخرة من العصر القديم وبدايات العصور الوسطى بنفس هذه البنية المثلثة. ولكن لم يكن الالتزام بإعطاء البلاغة الأولوية قويا بالضرورة. لهذا فقد تم إعادة توزيع القيمة والأهمية التى أعطيت للفنون المختلفة، كما بدأت تتغير أوضاع هذه الفنون داخل نماذج تقسيم العلوم. فعلى سبيل المثال، أعطى كاسيودورس كما رأينا أهمية كبرى للجدل، ولكن إيزيدورالإشبيلي Isidore of Seville فى الوقت نفسه الذى تناول فيه الفنون السبعة كلها عاد إلى النموذج الرواقى الذى قسم الفلسفة إلى: الطبيعة والأخلاق والمنطق وأدرج الجدل والبلاغة ضمن المنطق. ومن الملاحظ أن العصور الوسطى قد أخذت عن العصور السابقة ذلك البناء الذى يطلق عليه الفنون الثلاثة وفى الوقت الذى احتفظت بالبلاغة كإحدى مكوناته إلا أنها حولت الكثير من وظائفها إما

إلى النحو (الذى تناول الأسلوب ضمن تناول اللغة والإنشاء والتعليق على النصوص) وإما إلى الجدل (الذى استخدم التعاليم البلاغية من أجل شرح مشكلات تتعلق بالحجاج) [انظر الأسلوب]. وفى العصور الوسطى فقدت البلاغة الدور الذى كانت تلعبه فى الحياة المدنية خلال عصور الإغريق والرومان، ولكن تم الاحتفاظ بها كمجموعة من المبادئ الأكاديمية التى يمكن أن يستفيد منها فنى اللغة الآخرين. ومع هذا فقد تغير الوضع من بعض النواحى فى العصور الوسطى عندما تمت الاستعانة بالبلاغة لكى توفر للبيروقراطية المدنية التوثيق الذى كانت تتطلبه ودرست أيضا كفن لكتابة الرسائل. كما تم الاستعانة بالبلاغة فى العصور الوسطى على اعتبار أنها صيغة تستطيع أن توفر بعض المبادئ لفنون الوعظ الجديدة. ومن الممكن الربط بين صعود وهبوط قيمة الفنون الثلاثة والمفاهيم التى تكونت عن بنيتها الفكرية الداخلية، تلك التى انعكست فى مشاريع عديدة لتصنيف العلوم. ولقد أوضح ريتشارد ماكيون Richard Mckeon أن المناقشات الأكاديمية فى العصور الوسطى كانت دائما ما تخضع البلاغة للتخصص الرئيسى والذى كان يتغير، وإن ظل فى الغالب هو المنطق (المنطق بمعنى الاستدلال والحجاج والنزاع الذى كان الجدل فرعا منه) وهكذا فقد وصف توماس الأكوينى مثلا البلاغة فى القرن الثالث عشر بأنها من الأجزاء الفرعية للمنطق، وقد عرضها على أنها واحدة من الأشكال الثلاثة للمنطق الإبداعى ومنها: الجدل والأسلوب الشعرى، أي إنها تشمل نوعا من التفكير يؤدى إلى إثبات راجح. لاحظ أن الأسلوب الشعرى هنا قد حل محل النحو، وهذه الظاهرة تأتى من تراث نصى عربى كان يصنف كتابى "فن الخطابة" وفن الشعر" لأرسطو مع نصوص أرسطو عن المنطق، جاعلا النحو والبلاغة بهذه الصورة أجزاء من المنطق.

فى القرن الثانى عشر كانت البلاغة عادة ما تصور على أنها من فروع القسم العلمى من المنطق. فعلى سبيل المثال، لقد أعطى هيوج السانت فيكتورى Hugh of Saint Victor الذى كتب دليلا للطلاب شكلين للتصنيف، فى أحدهما يقسم المنطق اللغوى إلى نحو ومنطق عقلانى، ثم قسم بعد ذلك المنطق العقلانى إلى جدل وبلاغة. وفى الشكل الآخر وضع البلاغة والجدل معا فى قسم التفكير الاحتمالى الذى كان هو نفسه جزءًا من الفحص العقلى ratio disserendi فى الشكل الأول ثم فصل النحو عن البلاغة والجدل، وفى الثانى اختفى تماما، ونجد أن البلاغة يتغير مكانها عند الشراح الآخرين.

اعتبر تيرى الشارترى Tierry of Chartres الذى كتب تعليقا على كتاب شيشرون "عن الإبداع" فى منتصف القرن الثاني عشر البلاغة "جزءا أساسيا من "العلوم المدنية" civic sciences ، وهو أيضا قد فرق بينها وبين الجدل لأنها تستخدم الفرض فى مقابل القضية. وهذا الرأى الأخير مأخوذ مباشرة مما ذكره بوثيوس عن البلاغة والجدل. وواضح من نفس تعليق تيرى ومن السياق الأكاديمى للتعليق أنه كان أكثر اهتماما بالبلاغة كنقيض للجدل عنها كفن للشئون المدنية. وبعد وقت غير طويل من تعليق تيرى، كتب العالم الإسباني دومينيكوس جونديسالينوس Dominicus Gundissalinus تقسيما للعلوم. وقد أعطى فيه نظامين مختلفين تماما؛ فهو فى البداية وضع البلاغة والجدل والنحو معا كفنون للكلام فى الشئون المدينة، وقد جمعهم تحت التقسيم الأرسطي للعلوم التطبيقية، كما استعار تناول تيرى الشارترى للبلاغة كشئون مدنية، ولكنه وضع البلاغة والأسلوب الشعرى تحت المنطق أخذا عن التقليد العربي الذى صنف البلاغة والأسلوب الشعرى مع الأعمال المنطقية لأرسطو: "الأورجانون""Organon" . وقد اخترع اثنان من الشراح فى القرن الثاني عشر هما ويليم الكونشيسي William of Conches (الذى كان فى الغالب على صلة بمدرسة شارتر الكتدرائية) وكاتب آخر مجهول تقسيما علميا جديدا تماما هو "الفصاحة" التى تشمل البلاغة والنحو والجدل.

وفي القرن الثالث عشر، تحت تأثير العلم الأرسطي الذى تمت استعادته، كانت هناك محاولات جديدة مختلفة لوضع الفنون الثلاثة تحت تصنيفات معرفية أكبر، وفي بعض الأحيان كان يتم إدخال البلاغة ضمن الفنون الثلاثة، وفي أحيان أخرى كان يتم استبعادها من هذا الإطار التقليدى الذى وضعت فيه، وفي حوالى سنة ١٢٥٠ كتب باحث إنجليزى اسمه روبرت كيلواردبلي Robert Kilwardby رسالة عن التصنيف العلمي استخدم فيها النظام الأرسطى الذى قسم العلوم إلى تطبيقية ونظرية. وقد وسع كيلوادبي النظام الأرسطى، وأوجد فئة جديدة هى فنون الخطاب، وضع فيها الفنون الثلاثة كلها. وكان يرى فنون الخطاب على أنها مرتبطة بالفنون التطبيقية وإن كانت مختلفة عنها لأن فنون الخطاب تستخدم الكلام لخلق تأثير، بينما الفنون التطبيقية مثل الأخلاق تستخدم الأفعال لخلق تأثير. ومع هذا فلقد أدخل فى هذه الرسالة نفسها البلاغة وحدها فى فئة العلوم التطبيقية تحت فرع الأخلاق والعلوم المدنية لأن البلاغة كانت تستخدم للتفاوض حول الشئون الأخلاقية والسياسية. وبعد ذلك فى القرن الثالث عشر قسم دارسان باريسيان هما جون المنحدر من داسيا وجيل المنحدر من روما John of Dacia and Giles of Rome العلوم الإنسانية إلى العلوم الميكانيكية والعلوم الحرة، ثم قسما العلوم الحرة مرة أخرى إلى عملية وتأملية (أى علوم هدفها المعرفة أو النظرية، وليس الفعل). ثم وضعا فئة مساعدة للفنون العقلية وضعت فيها الفنون الثلاثة حتى يعترف بأنها تسرى على الأخلاق، وقالا إنها تأخذ من الجدل والسياسة. وفي نظام فكرى معتمد على العلم الأرسطى الذى يمثل الجدل فيه أداة المعرفة الرئيسية، لم يعد تشكيل الفنون الثلاثة القديم مفيدا فعلا، ومع هذا فنحن نرى أن التفكير الأرسطى فى أواخر العصور الوسطى قد حاول الاحتفاظ بمكان على الأقل للفئة المسماة "الفنون الثلاثة".

كانت فكرة الفنون الثلاثة باعتبارها ائتلافا بين ثلاثة فنون ناجحة كأداة فكرية وكتصنيف مجرد مفيدة فى التعبير عما اعتبر العلاقة الداخلية بين أجزاء المعرفة ولكن ليس واضحا إلى أى درجة توغلت فكرة "الفنون الثلاثة" باعتبارها مجموعة متماسكة من المواد فى الأنشطة التدريسية العملية اليومية. والأرجح هو أن مدارس العصور الوسطي تعلم "الفنون الثلاثة" باعتبارها ائتلاف فنون لغوية ثلاثة، أكثر مما كانت تدرس كل مكوناتها كاملة. وأوروبا فى أواخر العصور الوسطى (بداية من القرن الثانى عشر) من المؤكد أنها قد ركزت على النحو وهو الطريق للحصول على درجة عالية من التمكن فى اللاتينية، وقد استخدموا لهذه المادة الكثير من الكتب الأولية، ومجموعات كثيرة من النصوص استخدمت للقراءة، أشهرها "كتاب كاتو" المكون من ستة نصوص كلاسيكية. وفي الغالب درست هذه المدارس البلاغة كجزء من برنامج تدريبات الإنشاء اللاتينى، وغالبا كان التدريس عبارة عن مزيج من المادة الإنشائية (مثل كتاب "في الشعر" لهوارس) وعناصر للأسلوب ودراسة للصور الجمالية. أى إنها كانت بلاغة تطغي عليها الاهتمامات النحوية. أما المدارس العليا (المدارس الكاتدرائية فى القرن الثانى عشر، وبداية من القرن الثالث عشر، الجامعات) فقد ركزت على المنطق (خصوصا فى شمال أوربا). ومن المفترض أن الطلاب فى المدارس العليا كانوا بالفعل يعرفون النحو، وبالتالي جاء الاهتمام بالنصوص النحوية فى مناهج الجامعة فى القرن الثالث عشر قليلا مقارنة بالمدارس (منهج باريس فى ١٢١٥ يذكر قراءة بريسكيان Priscian النحوى الذى عاش فى أوائل القرن السادس ويذكر منهج أكسفورد فى ١٢٦٨ قراءة دوناثوس

النحوى فى القرن الرابع وبريسكيان) وأفضل قسم من المنهج الجامعى كان يكرس للمنطق القديم "لفرفريوس وبؤثيوس و"للمنطق الجديد" لأرسطو. وحتى فى جامعة بولونيا التى كان بها فى السابق حضور أقوى للبلاغة والنحو عن شمال أوروبا، غلب المنطق على هاتين المادتين وأصبح وضعهما تمهيديا. ولا يوجد دليل يثبت القيام بأى محاولات لوضع منهج يعكس النظام الكامل للفنون الحرة السبعة إلا فى منتصف القرن الخامس عشر فى لوائح جامعة أكسفورد. وعموما يمكن القول إنه بينما ظلت "الفنون الثلاثة" بناء فكريا متماسكا، فإنه لم يكن هناك أى تطبيق منفرد موحد لها فى أى مكان فى فترة واحدة، وعلى أحسن افتراض يمكن القول إنها كانت سلسلة من الخطوات (ربما غير منتظمة فى معظم الأحيان) حيث قامت المدارس الدنيا بالعمل التحضيرى المكون من النحو وبعض البلاغة، بينما ركزت المدارس العليا على الجدل والمنطق، مع إعطاء اهتمام متفاوت للنحو والبلاغة.

إن المقال الكلاسيكى لبول دى مان Paul de Man " مقاومة النظرية" يستخدم "الفنون الثلاثة" كما استخدمت فى العصور الوسطي لتوضيح التوتر المعرفي الكامن فى أى نظام "لغوى عن اللغة". "فالفنون الثلاثة" هى أكثر الأمثلة عمومية فى اللغويات. إن النحو يعطي نظاما لفك شفرة الاستخدام اللغوى، والجدل يربط اللغة بالتفكير بطرق تنظيمية صارمة. أما البلاغة فهي العامل من بين الثلاثة عوامل الذى يخلق استقرارا عاما لأنها تتعامل مع ما لا يمكن اختزاله فى اللغة وما يقاوم أى تفسيرات شفافة عن طريق النحو أو الجدل: إنها تتعامل مع الجانب الجمالي فى اللغة، مع تحريك الإحالات اللغوية، ونجاح الحجاج الذى يقوم على الاعتقاد أكثر من الحجاج الذى يهدف

إلى اليقين. ويختم بول دى مان بقوله إن البلاغة "من خلال علاقتها السلبية بشكل ناشط مع النحو والمنطق، تفكك ما تزعمه الفنون الثلاثة (واللغة بالتالى) من أنها مفهوم معرفي ثابت". وبالنسبة لدى مان من الممكن أن تكون التوترات داخل الفنون الثلاثة مفيدة لإمكان مقارنتها بحالة النظرية الأدبية المعاصرة المتنازع عليها دائما. إن إعادة التقييم المتعددة والمستمرة للفنون الثلاثة والعلاقة بينها من العصر القديم مرورا بالعصور الوسطى تشير إلى أن عدم الثبات الموجود فى مركز هذه الفكرة قد عرف بالحدس وأن تحدى محاولة حل عدم التحديد الموجود فى النظام كان بنفس قوة ضرورة تدريس النظام نفسه. (انظر أيضا: الجدل، اللوجوس، بلاغة العصور الوسطى)

المصادر والمراجع

Abelson, Paul. The Seven Liberal Arts: A Study in Medieval Culture. New York, 1906.

Arts libéraux et philosophie au moyen âge. Montréal, 1969.

هذه المجموعة العظيمة من المقالات المهمة المكتوبة بلغات متعددة هى إسهامات فى مؤتمر دولى عن فلسفة العصور الوسطى هى أفضل عمل من مجلد واحد يضم أبحاثا عن علوم ومعارف العصور الوسطى.

Copeland, Rita. "Lydgate, Hawes, and the Science of Rhetoric in the Late Middle Ages." Modern

Language Quarterly 53 (1992), pp.pp. 57–82.

يحتوى على معلومات وببليوجرافيا عن تصنيف العلوم والشعر فى اللغات المحلية.

Dahan, Gilbert. "Notes et textes sur la poétique au moyen âge." Archives d'histoire doctrinale et littéraire

du moyen âge 47 (1980), pp.pp. 171–239.

غنى بالمعلومات. شرح علمى عن مكانة الشعر بالنسبة للفنون الثلاثة.

De Man, Paul. "The Resistance to Theory." Yale French Studies 63 (1982), pp.pp. 3–20.

مقال كلاسيكى يعد مثالا على التفكيكية فيما يتعلق بالنظرية المعاصرة والتاريخ الفكرى

Hugh of Saint Victor. Didascalicon. Translated and edited by C. H. Buttimer. Washington, D.C., 1939.

Hugh of Saint Victor. The Didascalicon of Hugh of St. Victor. Translated by Jerome Taylor. New York,

1961.

Irvine, Martin. The Making of Textual Culture: "Grammatica" and Literary Theory, 350–1100. Cambridge,

U.K., 1994.

Le Goff, Jacques. Intellectuals in the Middle Ages. Translated by Teresa L. Fagan. Oxford, 1993.

مقدمة مركبة وممتعة لثقافة جامعات العصور الوسطى

Marrou, Henri. A History of Education in Antiquity. Translated by George Lamb. New York, 1956.

McKeon, Richard. "Rhetoric in the Middle Ages." In Critics and Criticism. Edited by R. S. Crane, pp.pp.

117–145. Chicago, 1952.

تركز هذه الدراسة الرئيسية التى طبعت للمرة الأولى فى ١٩٤٢على التقاليد الفكرية والفلسفية التى قامت بتعريف وضع البلاغة كتخصص داخل الفنون الثلاثة.

Minnis, A. J., A. B. Scott, with David Wallace, eds. and trans. Medieval Literary Theory and Criticism c.

1100–c.1375. Oxford, 1988

تعد هذه المجموعة من النصوص الرئيسية مصدرا رائعا عن المعارف والفنون فى العصور الوسطى

Murphy, James J. Rhetoric in the Middle Ages. Berkeley, 1974.

أفضل دراسة عن بلاغة العصور الوسطى وهو يتضمن معلومات غزيرة عن العلاقة بين النحو والبلاغة والمنطق

Orme, Nicholas. English Schools in the Middle Ages. London, 1973.

دراسة أساسية عن المدارس الأولية فى إنجلترا والطريقة التى مازالت تدرس بها الفنون الثلاثة.

Quintilian. Institutio oratoria. Translated by H. E. Butler. 4 vols. Cambridge, Mass., 1920.

Rajna, P. "Le denominazione Trivium e Quadrivium." Studi Medievali, n.s. 1 (1928), pp.pp. 4–36.

يحاجج رانجا أن مصطلح الفنون الثلاثة ومصطلح الفنون الأربعة استخداما للمرة الأولى فى عصر الملك كارل (القرن الثامن) لتمييز الفنون السبعة الحرة.

Rashdall, Hastings. The Universities of Europe in the Middle Ages. 3 vols. Edited by F. M. Powicke and A.

B. Emden. Oxford, 1987. First published 1936.

Riché, Pierre. Education and Culture in the Barbarian West. Translated by John J. Contreni. Columbia,

S.C., 1978. تغطى هذه الدراسة المهمة الفترة الانتقالية من القرن السادس حتى آخر القرن الثامن.

Stahl, William Harris, Richard Johnson, with E. L. Burge. Martianus Capella and the Seven Liberal Arts,

vol. 1, The Quadrivium of Martianus Capella. New York, 1971.

Stahl, William Harris, with E. L. Burge, trans. Martianus Capella and the Seven Liberal Arts, vol. 2, The

Marriage of Philology and Mercury. New York, 1977.

Wagner, David L., ed. The Seven Liberal Arts in the Middle Ages. Bloomington, Ind., 1983.

مقالات عامة كتبها علماء مميزون عن كل فن من الفنون وسياقه التاريخي.

تأليف: Rita Copeland

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

المنفعة Utility

ينصحنا مبدأ المنفعة أن نختار، فى أى مرة تواجهنا أزمة، المسلك الذى يسمح لنا بأكبر قسط من السعادة وأقل قدر من التعاسة. وبمعنى آخر علينا أن نجعل العالم مكانا جيدا إلى أقصى مدى لنعيش فيه. من الناحية الظاهرية تبدو المنفعة معيارا غير معقد بل وحتى حميدا للحكم ولكن المزيد من الفحص يؤدى إلى ظهور أسئلة مثيرة للخلاف: ما السعادة؟ كيف تقاس السعادة؟ سعادة من هى المهمة؟ كيف نزيل التضارب بين رغبتنا فى زيادة سعادتنا وواجبنا فى أن نكون أوفياء لثقة المجتمع ولوعودنا. ومنذ العصور القديمة، انجذب المفكرون إلى من يملكون طريقة تفكير معينة تجاه نوع ما من المنفعة كمعيار لتبرير السياسة العامة والخاصة والحكم عليها. هكذا كانت البلاغة باعتبارها أقدم فن عملى تهتم دائما بمبدأ المنفعة باعتباره موضوعا للحجاج. ولكن ينبغي أن يكون واضحا أن المنفعة ليست موضوعا واحدا محددا، بل هى كما قال شيشرون Cicero فى كتابه عن "الإلزام الأخلاقى" مصطلح عام يشير إلى مجموعة من المواقف البلاغية المرتبطة ببعضها وإن كانت كثيرا ما تتباين تباينا كبيرا.

جاء أحد أقدم أشكال مبدأ المنفعة utility وأكثرها استمرارية فى نقاش أرسطو عن نوع البلاغة التشاوري أو السياسي. فقد لاحظ أرسطو Aristotle (322 - 384 قبل الميلاد) أن الجمعيات السياسية عندما تفكر فى اقتراح سياسي، فإنها تحكم عليه باستخدام معيار النافع والضار فن الخطابة، نيويورك،

١٩٩١، ص ٤٩). وكما يلاحظ مترجم أرسطو جورج كينيدى George Kennedy، فإن الكلمة اليونانية sympheron عادة ما تترجم إلى "النافع" ولكن ترجمتها الحرفية هى" ما يجلب معه منفعة". إن النافع عند أرسطو مثله مثل كل أشكال المنفعة، يمثل معيارا قيميا يعتمد على النتائج، أى إن الجمعيات السياسية تقيم مدى صحة سياسة ما بناء على نتائجها المتوقعه (الأشياء التى تأتى معها، لا الصفات الأساسية فى السياسة. فأرسطو مثلا نصح الخطيب السياسي بعدم التركيز على مسائل العدالة والشرف وأن يركز بدلا من هذا على المزايا التى سوف تكسب أو تفقد عند تطبيق أو عدم تطبيق الاقتراح التشريعى.

ولكى يقدم السياسى قضية مقنعة كلامه مقنعا لابد أن تعرف أكثرية أعضاء الجمعية طبيعة النتائج التى يرغب فيها الخطيب. إن معظم الناس مدفوعين بالرغبة فى السعادة، ولكن السعادة هى مصطلح حمال أوجه بطبيعته. فالسعادة وفقا لرأى أرسطو ليست شعورا بسيطا ولا حالة عابرة، وإنما هى نشاط مركب من الازدهار الإنسانى. ولكى يزدهر الأفراد يحتاجون ليس فقط إلى الاستمتاع، ولكن أيضا إلى الصحة والثراء والأمن والسمعة والصداقة... إلخ. فأى من هذه الأجزاء من السعادة من الممكن أن يكون حافزا بالنسبة لأعضاء الجمعية السياسية؟ أي أجزاء تمثل الحافز الأكبر أمر سيختلف من مسألة لأخرى ومن جمعية لأخرى. فلكل شخص تفضيلاته التى تختلف عن تفضيلات الآخرين، والقرارات التى يتخذها أعضاء الجمعية تتعلق بترتيب أولويات رغباتهم.

ولقد وصف أرسطو "النافع" على أنه "خير طارئ"، لهذا فالاعتماد عليه كمعيار للقرارات الصائبة ليس مطلقا. فى المقام الأول، كثيرا ما يخطئ الجمهور فى افتراضاته عما سيجلب له السعادة. فمن المألوف والباعث على

اليأس أنه حتى بعد أن تتحقق أقوى وأهم رغباتنا، فإننا لا نكون أكثر سعادة عما كنا سابقا. بل إننا فى بعض الأحيان نشعر بعدم الرضا عندما تتحقق رغبتنا فعلا. وعلاوة على هذا فإن الجمعيات الديمقراطية قد ترغب فى ما هو غير عادل أو غير أخلاقي. وعلى ما يبدو كان موقف أرسطو هو أنه من الناحية المثالية سيكون لأعضاء الجمعية شخصيات فاضلة تجعلهم يقدمون الأخلاق والعدالة لأنها من الاعتبارات المهمة فى تحديد المزايا طويلة المدى والمستنيرة. أما من ناحية الممارسة الفعلية فإن الجمعيات الديمقراطية عادة لا تكترث بالظلم أو اللا أخلاقية إلا فى الحالات التى يصدف فيها أن يكون التصرف الصحيح موافقا للمصالح الضيقة فى تلك اللحظة.

كانت الإبيقيورية Epicureanism هى المنافس الرئيسي لرأى أرسطو حول مبدأ النفعية. وقد وسع أبيقور Epicurus (حوالى 271 - 341 قبل الميلاد) مجال مبدأ المنفعة وتطبيقه، فجعله المفهوم التعريفي فى نظرية الدافعية البشرية والمبدأ الرئيسي فى نظريته للأخلاق. وقد ذهب إلى أن كل الافعال الإنسانية، لا الأفعال السياسية، فقط تحركها رغبتنا فى تحقيق المنفعة. والمنفعة التى نسعى إليها هى السعادة. وعلى النقيض من أرسطو قال أبيقور إن السعادة تساوى الإحساس الذهنى باللذة وغياب الألم "كل فعل وترك يبدأ من اللذة ونحن نعود ثانية للذة فنستخدمها كمعيار لقياس كل خير (أبيكيورس، الشذرات الباقية، ١٩٢٦، ص ٨٧).

أما فيما يتعلق بتوركاتوس Torquatus ، المتحدث بلسان إيقيورس فى محاورة" دى فينيبس" De finibus لشيشرون، "إن غايات الخير والشر – أى اللذة والألم – لا تخضع للخطأ فى ذاتها، ولكن الناس يخطئون فى التعرف على ما يؤدى إلى اللذة أو الألم." (١٩٣١، ص ٥٩). وعلى الرغم من السمعة التى اكتسبها أبيقور، فإنه لم يسع لجعل "مبدأ اللذة" pleasure principle

رخصة تسمح بالفسوق أو بالبحث عن المتعة التى تؤدى إلى تدمير الذات. بل على العكس، فقد كان يبين أن ضبط النفس والتحكم فيها أمر ضرورى من أجل تحقيق الحياة الممتعة. اللذة فى ذاتها ليست سيئة، ولكن " بعض الوسائل المستخدمة لتحقيق اللذة تسبب اضطرابات أكبر بكثير من اللذة (الشذرات، ١٩٢٦، ص ٨٧). إن الآلام الناجمة عن أفعال مثل الإفراط فى المأكل أو المشرب أو الجنس إما أنها تلغى اللذة وإما أنها تترك مقدارا مساويا من الآلام. وعلى نحو مشابه فإن الأشخاص الذين يكرسون حياتهم لتحقيق اللذة التى تصاحب النفوذ والثراء والشهرة يحكمون على أنفسهم بأن يعيشوا حياة محمومة وقلقة لأن تلك الحياة تتوقف على أداء وأفعال الآخرين، وتخلو من الأمل الأكيد بأن أهدافهم سوف تتحقق. ويحاج أبيقور أنه إذا كانت اللذة هى الخير الحقيقي الوحيد والألم هو الشر الحقيقي الوحيد فإن أفضل حياة تكون تلك التى تتميز بالرضا وهدوء الأعصاب الناجمين من الصحة الجسمانية والسكينة الروحية. إن الإبقيورى المثالى يحيا حياة تتسم بالبساطة والاكتفاء الذاتى، حياة يتجنب فيها الترف ويكبح جماح الرغبات الفارغة أو المسعورة.

وعلى الرغم من أن أبيقور قد أكد على أن الحكمة ضرورية لاختيار المتع التى ستؤدى إلى خيرنا، فإنه لم يلجأ إلى الأوامر القاطعة المنبثقة من الواجب مثل أن يقول "عليك أن" أو "عليك ألا"، فمثل هذه العبارات غير موجودة فى نظريته الأخلاقية. فالقواعد الأخلاقية مهمة لكونها تعطى إرشادات بديهية من أجل تحقيق حياة اللذة، ولكن الالتزام البيوريتانى بهذه الإرشادات ليس بالأمر المعقول، بل إنه مؤذ؛ وعلى نحو مماثل فإنه اعتبر مفاهيم "القانون الطبيعى" و"العدالة الإلهية" اختراعات خطيرة للاهوتيين مزيفين تآمروا من أجل استعباد الرجال والنساء العاديين من خلال القلق والخوف. ليست العدالة إلا عقدا اجتماعيا، أو "تعهدا بتبادل المنافع" – يمنعنا

من الإضرار ببعضنا بعضًا أى إن القانون الذى يتوقف عن تحقيق علاقات مبهجة أو مفيدة بين الناس يكون قد أصبح قانونا غير عادل.

إن الأبقيورية بالاختصار، ضد التصوف وضد البيوريتانية وهى بشكل عام متفائلة بخصوص قدرة الإنسان على تحقيق السعادة. ولهذا فليس غريبا أن أبيقور قد أدين فى العصور الوسطى باعتباره زنديقا. فقد كان الاتجاه السائد بين مسيحيى العصور الوسطي الذين كانوا يؤمنون بأن الحياة الدنيا هى فترة اختبار يتحدد عليها مصير الإنسان الأبدى، هو أن ما يهم هو السعادة فى الآخرة وليس فى الدنيا. والسعادة الأبدية لا تتحقق عن طريق حسابات المتعة، ولكن فقط من خلال الطاعة للأوامر الإلهية.

ولكن عصر النهضة أزاح مفاهيم العصور الوسطي عن عجز الإنسان فيما يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأعاد تأكيد الأفكار الكلاسيكية عن كرامة الإنسان وعن العقلانية. وقد أسفر تجدد الاهتمام بتعاليم أبيقور فى فرنسا عن "اعتذارات" بيير جاسا ندى Pierre Gassandy (١٥٩٢ – ١٦٥٥) وفي الوقت نفسه كتب فى إنجلترا توماس هوبزThomas Hobbes وهو صديق جاساندى كتاب "ليفياثان" Leviathan (١٦٥١) وهو عمل يستند على افتراض إبيقيورى واضح وهو أن الناس مهتمة بتدعيم السعادة فى هذا العالم وكل الحقوق والواجبات الاجتماعية ناجمة عن هذا الاهتمام. وقد تكرر التعبير عن هذا الافتراض الإبيقيورى فى القرن الثامن عشر فى أعمال كتاب يتراوحون بين ماركيز دي كوندورسية Marquis de Condorcet وكلود هيلفيتوس Claude Helvetius الى ديفيد هيوم David Hume وجون بريستلى John Priestley.

ولكن الكاتب الأكثر ارتباطا فى الخيال الشعبي بإعادة إحياء الفلسفة الإبيقيورية هو جيرمى بنثام Jeremy Bentham (١٧٤٨ – ١٨٣٢) فبنثام هو الذى أعطى "مبدأ المنفعة" اسمه الإنجليزى. لقد ألهمه استخدام هيوم للكلمة

فى بحوث مبادئ الأخلاق (أوكسفورد، ١٩٧٥، ص ٢٣١) ومن الواضح أنه قد استخدمه دون كثير من التفكير وفيما بعد اشتكى الكتاب المتأخرون عنه من أن لكلمة المنفعة إيحاءات مضللة، ولكن الكلمة كانت قد اكتسبت رواجا سريعا حال دون التخلى عنها.

ولقد فهم بنتام كلمة "المنفعة" على أنها مرادفة لـــ"فائدة"، " ميزة" "اللذة"، "الخير" "السعادة" (مبادئ الأخلاق والتشريع، بافالو، ١٩٨٨، ص ٢). وعلى الرغم من التسمية الجديدة فلم يكن لدى بنتام أوهام عن جدة المذهب النفعي. لقد اتخذ بنتام، شأنه شأن أبيقور معيارا للحكم على الصواب والخطأ يعتمد على النتائج. فقبول أفعال ما أو استنكارها يتوقف فقط على قدرتها على زيادة أو تقليل سعادة الأشخاص المتأثرين. وحاول بنتام كما حاول أبيقور إماطة اللثام عن القانون والأخلاق. لقد تفوق فى إعطاء نقد أيديولوجى فضلا عن لغة المصلحة الذاتية. لقد اعتقد أن كلمات مثل "المشيئة الإلهية" و"القانون الأعلى" كلمات صممت لطلب الاتفاق المستبد ولإخفاء المستفيد من القانون والمتضرر منه.

وعلى الرغم من وجود عوامل كثيرة مشتركة بين مذهب المنفعة عند أبيقور والمذهب نفسه عند بنثام فإن الاثنين يختلفان حول نقطة مهمة. فالإبيقيورية مذهب للأخلاق الشخصية أى أنها تركز على زيادة سعادة الفرد، ولكن الإبيقيورية الحديثة هى على العكس نظرية للأخلاق الاجتماعية وهى تركز على زيادة المنفعة العامة. فكثيرا ما يذكر تصريح بنتام أن المقولة الرئيسية عن المنفعة هى " أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس" (الأعمال، أدنبره، ١٨٤٣، أما ص ٢٢٧). لهذه الجملة مشاكلها وقد هجرها بنتام سريعا، ولكنها مع هذا توضح التناقص بين اهتمام أبيقور بمصلحة الذات واهتمام بنتام بمصلحة المجتمع كله. من هذه الناحية يوجد شبه بين المنفعة عند بنتام والمفهوم نفسه عند أرسطو. لقد قدم بنتام المنفعة بشكل أساسي باعتبارها مبررا للسياسة الاجتماعية والتشريع السياسي.

وعلى الرغم من نقطة الاتفاق هذه فهناك فروق جلية بين بنتام وأرسطو فى الأمور الأخرى. لعل أهمها هو أن أرسطو كما رأينا قد اعتبر السعادة تكتلا مركبا لأنواع من الأنشطة الإنسانية، وعلى النقيض اعتبر بنتام أن السعادة ببساطة هى حاصل لمجموعة من اللذات. وهنالك سبعة ظروف هى التى تحدد القيمة الرقمية للذات والآلام: الكثافة، المدة، اليقين أو عدم اليقين، القرب أو البعد، الوفرة، النقاء، وعدد الأشخاص المتأثرين. وبعد أن أعطى بنتام قيمة رقمية للذات والآلام، اعتقد أنه من الممكن جمع وطرح هذه القيم على مقياس واحد رئيسي كما هو الحال مع النقود بهدف تحديد المزايا النسبية وطرق التصرف المختلفة.

وفي القرن التاسع عشر حلت نزعة بنتام الساذجة الشرح الأكثر تركيبا لمبدأ المنفعة الموجود فى كتاب "مذهب المنفعة" utilitarianism لجون ستيورات مل John Stuart Mill (الذى نشر للمرة الأولى فى ١٨٦١ وأعيد نشره فى الأعمال المجمعة، تورنتو ١٩٦٩).

كان ميل أكثر حساسية من سابقيه للاعتراضات الكثيرة التى أثيرت ضد النفعية عبر القرون، لهذا أعطى إجابات حريصة ومركبة لهذه الاعتراضات وقد اعترف ميل على وجه الخصوص بحقيقة سيكولوجية هى أنه ليس الدافع وراء كل الأفعال الإنسانية هو الرغبة فى الاستمتاع. ففي أحيان كثيرة مثلا تسيطر إملاءات الضمير على دوافعنا الأنانية. وقد أدت محاولة ميل تفسير فكرة "الضمير الأخلاقي تلك إلى انجذابه لدراسة المصادر السيكولوجية للسعادة والعلاقة بين السعادة وتكوين الشخصية. لقد رفض ميل إحصاءات بنتام واقترب من أخلاقيات أرسطو الفاضلة فحاج أن سؤال ما الذى يحدد الشخصية الجيدة له أولوية على سؤال ما الذى يجعل تصرفا ما سليما؟ أى إننا لا نستطيع الحكم على سلامة تصرف ما إلا إذا أخذنا فى الحسبان شخصية وتجارب الحكام أنفسهم.

وفى القرن العشرين أعلنت وفاة فكرة المبدأ النفعي أكثر من مرة. لقد زعم جون بلاميناتز John Plamenatz أن "النفعية قد هدمت" (النفعيون الإنجليز، أوكسفورد، ١٩٤٩، س ١٤٥). وبعد مرور خمس وعشرين سنة قال برنارد لويس Bernard Louis "ليس ببعيد ذلك اليوم الذى لن نسمع فيه عن النفعية (مع وضد النفعية، كيمبريدج، المملكة المتحدة، ١٩٧٣، ص ١٥٠). ولكن بعد حوالى ثلاثين عاما لا تزال الكتابات عن المبدأ النفعي تنهمر دون توقف. وكما يكتب جيفرى سكار Geoffery Scarre ، إذا كان المبدأ النفعي خطأ، "فإن إثبات ذلك يستهلك كمية هائلة من المجهود الذهنى" (النفعية، لندن، ١٩٩٦، ص ٢). وقد كانت الإدانات الأكثر تكرارا أو إصرارا للنفعية هى أيضا إدانات للبلاغة. وهكذا يجد كل من البلاغة والنفعية تأكيدا لصداقتهما (انظر: النوع التشاورى، مقال: السياسة).

مصادر ومراجع

Allison, Lincoln ed., The Utilitarian Response. London, 1990.

Berger, Fred. Happiness, Justice, and Freedom. Los Angeles, 1984.

يصحح الكثير من الأخطاء التى كررها نقاد نظرية المنفعة لمل.

Burks, Don M. "Psychological Egoism and the Rhetorical Tradition." Speech Monographs 33 (1966),

pp.pp. 400–418

يراجع الموضوع البلاغى "حب الذات"، خصوصا فى النظرية البلاغية فى القرن الثامن عشر.

DeWitt, N. W. Epicurus and his Philosophy. Minneapolis, 1954.

Glover, Jonathan ed., Utilitarianism and its Critics. New York, 1990.

Griffin, James. Well - Being: Its Meaning, Measurement and Moral Importance. Oxford, 1986.

أحد أفضل التناولات الموجودة لمبدأ المنفعة، وهو يعطى ملخصا شاملا عن القضايا الأصعب والأكثر تعقيدا فى قياس المنفعة.

Jones, Howard. The Epicurean Tradition. London, 1989.

Quinton, Anthony. Utilitarian Ethics. La Salle, Ill., 1989.

مسح مختصر ومتاح لتاريخ مذهب "المنفعة" وبعض الاعتراضات التقليدية عليها.

Scheffler, Samuel ed., Consequentialism and Its Critics. Oxford, 1988.

Stephen, Leslie. The English Utilitarians. London, 1900.

Vaughan, Frederick. The Tradition of Political Hedonism from Hobbes to J. S. Mill. New York, 1982.

Wilson, Fred. Psychological Analysis and the Philosophy of John Stuart Mill. Toronto, 1990.

دراسة بصيرة وإن كانت صعبة الفهم عن الأسس المأخوذة من علم النفس للنفعية الحديثة.

(كارين.إ.ودبى Karen E. Whedbee)

العبارة الجامعة[1] Zeugma

هذا المصطلح مصطلح نحوى وبلاغي فى آن واحد يستخدم لوصف ظاهرة لغوية تحدث عند حذف وحدات نحوية لصالح وحدة باقية يتم استخدامها لاستكمال معنى كلمتين أو عبارتين متطابقتين أو أكثر. وقد نقل جورج بوتينهام George Puttenham الفكرة إلى الإنجليزية فى كتابه" فى الشعر الإنجليزى" (١٥٨٩) عندما استخدم مصطلح "العبارة الجامعة" zeugma وقال لأننا نستطيع بكلمة واحدة أن نخدم عبارات كثيرة متشابهة. يمكننا أن نعقد مقارنة مع الرجل الذى يخدم سيدين فى الوقت نفسه ولكنهما من نفس البلد ونفس الأسرة" (ص ١٦٣ - ١٦٤). فإذا استخدم فى بداية العبارة، نطلق عليه الزعيم، وإذا استخدم فى نهايتها يطلق عليه المكافئ، وإذا وضع فى الوسط سمى "السائر فى الوسط" (تونهام) على سبيل المثال نجد فى المزامير "عندما خرج إسرائيل من مصر، خرج بيت يعقوب من شعب له لغة غريبة، كانت يهوذا ملاذه وإسرائيل سلطانه.

ولكن عندما تكون الكلمات أو العبارات غير منسجمة تكون النتيجة صورة نحوية. إذا كان النحو هو وحده المتأثر فى هذا الإجراء تكون النتيجة مصدرا نحويا واحدا، كما هو الحال فى "لا الرب ولا أنا يفرح بمن يشهد

---

(١) تركيب بلاغى تؤدى فيه الكلمة الواحدة أكثر من غرض في الجملة، ويتضح ذلك بصفة خاصة إذا كان الغرضان مختلفين تمام الاختلاف.

شهادة الزور" (شكسبير، ضاع مجهود الحب سدى، 346 - 205، ولكن إذا أثر المصدر على المعنى يصبح مصدرا دلاليا واحدا كما هو الحال فى هذا البيت الشعرى

"ما إذا كانت الفتاة سوف تكسر قانون ديانا، أو تفقد قلبها، أو عقدها، فى حفل راقص: (بوب، اغتصاب خصلة الشعر، ١٠٥٠٢، ١٠٩) حيث كلمة "تفقد" لها معنى حرفي مع كلمة "عقد" ولها معنى مجازى مع كلمة "قلب".

(انظر أيضا: المحسنات البلاغية، والشمول المعنوى syllepsis)

تأليف: Heinrich F. Plett

ترجمة: مها حسان

مراجعة: مصطفى لبيب

فهرس تفصيلي لمداخل موسوعة أكسفورد في البلاغة

تندرج جميع المداخل التي تحتويها الموسوعة ضمن المقولات المفاهيمية العامة المذكورة فيما يأتي. وتقدم الصفحات التالية من هذا القسم تفصيلاً للمحتوى، نُظِّم بواسطة مقولات مفاهيمية، وسوف نجد أن بعض عناوين المقولات هي ذاتها أسماء مداخل وردت في الموسوعة. وذُكرت بعض المداخل أكثر من مرة في هذا المحتوى التفصيلي، لأن المقولات المفاهيمية ليست حصرية بشكل متبادل. وقد رُتبت المداخل في الموسوعة أبجديًا على خلاف هذا الترتيب المفاهيمي.

عناصر البلاغة

أنماط الدليل

الإيتوس

الباتوس

اللوجوس

الجمهور

خطاطة الخطابة أو الكلام

الابتكار

الترتيب

الأسلوب

الحافظة (الذاكرة)

الإلقاء

المبادئ الرئيسة

الغايات:

الإقناع

اللباقة (البيان)

أنواع البلاغة:

تقليدية

غير تقليدية

موضوعات وثيقة الصلة

الفن

البلاغة الأفرو-أمريكية

التواصل

البلاغة المقارنة

التأليف

النقد

المناظرة

الملاءمة

الجدل

البلاغة النسوية

الهرمنيوطيقا (التأويلية)

التاريخ

النزعة الإنسانية

الفكاهة

الأيقونات التصويرية

علم اللغة

القانون

المنطق

الموسيقى

الشفاهية والكتابية

الخطابة

الفلسفة

الشعر

السياسة

مخاطبة الجمهور

بلاغة المثليين

الدين

العلم

الكلام

الفنون الثلاثة

استراتيجيات ومبادئ:

الغموض

اللون

كتب المصنفات والأقوال المأثورة

الأقوال الجدلية والحكمية

الأسلوب المتنوع

المحسنات البلاغية

القضية ونقيض القضية

تاريخ البلاغة

البلاغة في العصر اليوناني والروماني

البلاغة في العصور الوسطى

البلاغة في عصر الإحياء

البلاغة في القرن الثامن عشر

البلاغة في القرن التاسع عشر

البلاغة الحديثة

البلاغة فيما بعد الحداثة

أولاً: عناصر البلاغة

هناك عنصران يشكِّلان أساس الكيان البلاغي؛ الأول هو الرؤية الرحبة للدليل، والثاني هو الحضور المفاهيمي البارز للجمهور.

١- أنماط الدليل

أحد الملامح المميزة للبلاغة هو رؤيتها الرحبة للدليل، ومن ثَمَّ رحابة استخدامها له. يوجد - من منظور بلاغي - ثلاثة أنواع من الأدلة يمكنها أن تؤسس لقضية ما؛ الصفات الشخصية المدركة للمتكلم أو الكاتب (ethos)؛ الحجة أو الفكرة التي توجد في الرسالة ذاتها (logos)؛ والعواطف التي تُولَّد في نفوس الجمهور (Pathos). عرَّف أرسطو هذه المصطلحات في زمن مبكر في كتابه "الخطابة"، ورأى أن الإيتوس واللوجوس والباتوس هي أنماط "فنية artistic" للدليل؛ لأنها تعتمد على نحو كبير على فنية المؤلِّف في صياغة أسلوب الخطاب ذاته، بأكثر مما تعتمد على الأدلة الموجودة من قبل بوصفها شواهد أو إلزامات.

- يضم الإيتوس: المصداقية؛ وملامح الشخصية

- ويضم اللوجوس: الحجاج؛ والحقول الحجاجية؛ والاحتمالية والإمكان؛ والجدلية؛ والقياس الإضماري؛ والشاهد القصصي؛ والاستدلال؛ والحكمة العملية؛ وتلفظات أفعال الكلام.

- ويضم الباتوس: الفكاهة

٢- الجمهور

قدمت الموسوعة مناقشة موسعة للجمهور بوصفه عنصرًا مؤسِّسًا وفاعلاً في الممارسة البلاغية. هناك مقال عام عالج نوعين من الجماهير:

- الجماهير الغفيرة
- الجماهير الافتراضية

ثانيًا: الخطاطة:

يُنظر إلى عملية الإبداع البلاغي والفعل البلاغي نفسه بوصفه مؤلَّفًا من خمس ظواهر (تُسمى – على سبيل التنوع – بالفنون أو المبادئ أو الأركان)؛ هي الابتكار والترتيب والأسلوب والإلقاء والحافظة (الذاكرة). الظواهر الأربع الأول، توجد بشكل ضمني في كتاب أرسطو "الخطابة"، وهي جميعًا تُسفر بشكل كامل بحلول عصر شيشرون. على مر القرون، وجد اختلاف نظري حول هل تُشكِّل هذه الظواهر الخمس خطوات متتابعة لابد من السير وفقًا لها، أم إنها بالأحرى خصائص حقل من النشاط لا يمكن التمييز بينها افتراضيًا.

(أ) الابتكار

يتضمن الابتكار مجمل عملية البحث المبدئي في أسئلة غير يقينية، والتأمل في الإمكانيات البديلة للموقف، أو الأدلة أو المنظورات. وتتضمن الموضوعات الحديثة للابتكار: المحاكاة؛ المناسبة؛ الاحتمالية والمشروطية؛ المنظور المتنافر؛ المساءلة؛ الموقف البلاغي؛ الرؤية البلاغية؛ المعرفة الاجتماعية؛ البعد الضمني؛ المواضع.

(ب) الترتيب

يهتم الترتيب بمكانة الشكل في تأليف الخطاب وتحليله. وقد انصب الاهتمام على كلٍ من الشكل التقليدي، والشكل الحديث.

(ت) الأسلوب

نُظر إليه غالبًا على أنه البلاغة بكليتها، لكنه اعتُبِر في هذا الموسوعة جزءًا وظيفيًا في التأليف والتحليل. وقد حُلِّل مفهوم البيان وعناصره، وتم تتبعه عبر تاريخ الثقافة الغربية.

(ث) الحافظة (الذاكرة)

يتضمن هذا الجزء من البلاغة أنظمة الذاكرة والهندسة المعمارية للتذكر (مثل مسارح الذاكرة في عصر الإحياء)، وكذلك بعض الاعتبارات التي تخص تغير أولوية الذاكرة أو فقدها.

(ج) الإلقاء

يُنظر عادة إلى الإلقاء (سواء أكان شفاهيًا أم منقولاً عبر الطباعة أو إلكترونيًا) على أنه قرين فعل الإنشاء البلاغي.

ثالثًا: المبادئ العامة

(أ) الغايات

قُسِّمت غايات البلاغة عادة إلى مقولتين كبريين؛ بغض النظر عمَّا إذا كانت تنبع من البلاغي (المؤلِّف)، أو من الفعل البلاغي عمومًا:

المقولة الأولى: الإقناع؛ وتضم: الاقتناع، التماهي، الحكم، الحث (أو الوعظ).

المقولة الثانية: البيان أو اللباقة، وتضم الأسلوب السامي أو الرفيع.

(ب) أنواع البلاغة

ارتبطت الأنماط البلاغية عادة بالمناسبات الكبرى لها؛ تلك المناسبات تحدَّث عنها أرسطو بوصفها أنواعًا فرعية؛ بينما تكلم عنها شيشرون بوصفها أصنافًا بلاغية؛ وتضم هذه الأنواع: النوع الاستشاري (أو الشوري، أو السياسي، أو المداولاتي) مثل الخطب التي تلقى أمام مؤسسة صنع القرار السياسي؛ والنوع النيابي؛ مثل الخطب التي تُلقى أمام محكمة؛ ونوع الخطابة الحفلية (أو المحفلية)؛

مثل الخطب التي تُلقى في ساحات التأبين أو المدح أو الذم. ومنذ العصور القديمة، أُلحقت أنواع أخرى بالبلاغة أو تطورت من قلب أنواعها التقليدية. وقد ارتبطت جميعًا باعتبارات الجمهور والمناسبة وهي جميعًا مؤشرات على مقصد الكاتب أو المؤلِّف.

١- الأنواع التقليدية:

توجد ثلاثة أنواع بلاغية تقليدية، كل منها يرتبط باعتبارات الجمهور والمناسبة، ولكل منها غرض ضمني. وقد ارتبطت موضوعات بعينها، منذ قديم الزمان، بهذه الأنماط وأضيفت في العصور الحديثة بعض الموضوعات إليها.

(أ) النوع الاستشاري (السياسي، المداولاتي..): ويتضمن الموضوعات الفرعية الآتية:

(١) المصلحة

(٢) الحجاج بما يتعذر تعويضه أو إصلاحه

(٣) المنفعة

(ب) النوع النيابي: ويشمل نوعًا فرعيًا هو الاستقصاء الرباعي

(ج) النوع الحفلي: ويشمل موضوعا وثيق الصلة هو الحث أو الوعظ.

١- الأنواع غير التقليدية: وهي أنواع من الممارسة البلاغية نُظر إليها على أنها نتاج غير مباشر للأعراف الثقافية والتشكلات المؤسسية التي تجعلها متاحة. ولكن حين تتغير هذه الأعراف والتكوينات الاجتماعية فإنه يُحتمل أن يطرأ تحول على الأنواع البلاغية نفسها بطرق لا يُمكن توقعها. إن المواضيع الفرعية subtopics هي أنواع بلاغية تُعد سمات للثقافات والأحوال المجتمعية، ويمكن أن تكون مغايرة على نحو كبير للتشكلات الكلاسيكية. وتضم:

(أ) الحملات الانتخابية

(ب) البلاغة الرسائلية

(ت) بلاغة العرض والإيضاح

(ث) الأنواع الأدبية المهجنة

(ج) النصوص المدمجة

(ح) الحركات الاجتماعية

(خ) الاتصال التقني

رابعًا: موضوعات وثيقة الصلة

هناك حزمة كبيرة من الموضوعات المرتبطة بالبلاغة، وعناصرها، وغاياتها، ومخططاتها وأنواعها؟ ويستند الاختيار إلى درجة قوة الارتباط فيما بينها.

(أ) الفن

(ب) البلاغة الأفرو–أمريكية؛ وتتضمن مقالا افتتاحيًا، يتبعه ثلاثة مقالات فرعية هي:

١- البلاغة التحررية

٢- الوعي المزدوج

٣- القومية السوداء

(ت) التحايل الشرعي على القوانين

(ث) التواصل

(ج) البلاغة المقارنة؛ وتشمل الموضوعات الفرعية الآتية:

١- البلاغة العربية

٢- البلاغة الصينية

٣- البلاغة العبرية

٤- البلاغة الهندية

٥- البلاغة السلافية

(ح) التأليف؛ ويتضمن مقالاً افتتاحيًا تتبعه مناقشة لتاريخ أقسام اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة

(خ) النقد

(د) الملاءمة؛ وتشمل بالإضافة إلى مناقشة عامة للملاءمة، الموضوعات الفرعية الآتية:

١- مناسبة الحدث

٢- الحصافة (لباقة الحكمة والمعرفة)

٣- الفطنة/الحكمة

٤- التقوى العلمانية

(ذ) الجدل Dialectic

(ر) الجدالي Eristic

(ز) البلاغة النسوية

(س) الهرمنيوطيقا والتأويل؛ وتشمل مناقشة عامة للهرمنيوطيقا ومقالا فرعيًا عن نظرية التلقي

(ش) التاريخ

(ص) النزعة الإنسانية

(ض) الأيقونوجرافيا (التصوير بالرموز)

(ط) القانون

(ظ) علم اللغة

(ع) المنطق؛ ويشمل مناقشة عامة للمنطق، والموضوعات الفرعية الآتية:

١- الحجاج بالتشهير

٢- المغالطات

٣- القياس المنطقي

(غ) الموسيقى

(ف) الشفاهية و الكتابية

(ق) الخطابة

(ك) الفلسفة: ويتكون من مقالين؛ يناقش الأول العلاقة القديمة والمستمرة وغالبًا العدائية بين البلاغة والفلسفة، مع إعطاء عناية خاصة لمدارس الفكر المتنوعة، والجزء الثاني يدرس الموضوعات والمصطلحات الفلسفية الأساسية، ويدرس الاختلاف بينها وبين البلاغة، والفوائد التطبيقية لها.

(ل) الشعر

(م) السياسة: وتتضمن مقالاً عامًا حول السياسة؛ إضافة إلى ستة مقالات فرعية، هي:

١. البلاغة التأسيسية
٢. البلاغة النقدية
٣. البلاغة والشرعية
٤. البلاغة والسلطة
٥. الوجه الثالث للسلطة
٦. الفضاء الشخصي والتقني والعام للحجاج

(ن) مخاطبة الجمهور

(ه) بلاغة المثليين

(و) الدين؛ ويشمل مناقشة عامة للدين، بالإضافة إلى موضوع فرعي هو الخطب الوعظية

(ي) العلم

(أأ) الكلام

(ب ب) الفنون الثلاثة

خامسًا: الاستراتيجيات والمبادئ

يتضمن هذا القسم مجموعة عامة من التكتيكات التي ارتبطت بالبلاغة على مدار العصور:

(أ) الغموض
(ب) اللون
(ت) كتب التصنيفات والأقوال المأثورة
(ث) الخطبة الإقناعية والجدلية
(ج) الأسلوب المتنوع
(ح) المحسنات البلاغية:

يناقش هذا المدخل، مثله مثل مدخل الأسلوب، المحسنات البلاغية الكبرى (المجازات والمخططات)، التي كانت موضوعًا للدراسة في البلاغة والنحو. من بين هذه المحسنات الموضوعات المركزية الآتية:

١- الكناية
٢- الإطناب
٣- تماثل النهاية والبداية
٤- تكرار الصدارة
٥- التقديم والتأخير
٦- التكرار المغاير
٧- نقيض الدعوى
٨- الإسقاط البدئي
٩- التعسف المجازي
١٠- الوقف البلاغي
١١- المقابلة العكسية
١٢- الاستطراد
١٣- إيجاز الحذف

١٤- رد العجز على الصدر
١٥- اللف والنشر
١٦- تكرار النهاية
١٧- التكرار التوكيدي
١٨- إحلال الصيغ
١٩- تكرار النهاية
٢٠- التكرار التوكيدي
٢١- المجاز المرسل
٢٢- التقديم والتأخير
٢٣- تثنية الواحد
٢٤- المبالغة
٢٥- السجع
٢٦- الإثبات بالنفي
٢٧- الإرداف الخلفي
٢٨- المفارقة
٢٩- التوازي الصوتي
٣٠- الجناس
٣١- الاطناب
٣٢- الحشو
٣٣- الوصل البلاغي
٣٤- توقع الاعتراض قبل قوله
٣٥- التشخيص
٣٦- الزيادة الصوتية
٣٧- التشبيه
٣٨- الشمول المعنوي
٣٩- تكرار البدء والنهاية

٤٠- المجاز المرسل
٤١- العبارة الجامعة
٤٢- تقديم ما رتبته التأخير
٤٣- التقديم والتأخير
٤٤- التهكم
٤٥- الاستعارة
٤٦- الترصيع

سادسًا: تاريخ البلاغة

(أ) البلاغة في العصر الكلاسيكي.
وهو أطول مداخل الموسوعة، ويتضمن الموضوعات الفرعية الآتية:
١- المجادلة الأتيكية الآسيوية
٢- الإلقاء
٣- الأشكال الجورجيانية
٤- المدح والتقريظ
٥- السفسطائيون
(ب) البلاغة في العصر الوسيط.
مقال عام يقود إلى مناقشة للبلاغة في العصر الوسيط، تتعامل مع فن كتابة الخطابات والرسائل.
(ت) البلاغة في لغة عصر الإحياء وآدابه
(ث) البلاغة في عصر الإصلاح والإصلاح المضاد
(ج) البلاغة في القرن الثامن عشر
(ح) البلاغة في القرن التاسع عشر
(خ) بلاغة الحداثة
(د) بلاغة ما بعد الحداثة

ثبت المصطلحات

المصطلح	الترجمة
Abolitionist Rhetoric	البلاغة التحررية
Academic Contest Debate	مناظرات المسابقات الأكاديمية
African-American Rhetoric	البلاغة الأفرو – أمريكية
Allegory	الأمثولة
Ambiguity	غموض المعنى
Amplification	الإسهاب/الاستفاضة
Anadiplōsis	تكرار النهاية والابتداء
Anaphora	جناس الصدارة/الجناس الابتدائي
Anastrophē	الإقلاب
Antanaclasis	الصوت الواحد والمعنى المختلف
Anthropological Linguistics	علم اللغة الأنثروبولوجي
Antisthecōn	الإبدال
Antithesis	"النقيضة أو نقيض القضية" (في المنطق) أو "التقابل الدلالي" في البلاغة
Aphaeresis	حذف الصوت الأول
Apocopē	القطع (الموسيقى)

Aporia	التشكك
Aposiōpēsis	الانقطاع (البلاغي/الموسيقى)
Apostrophē	الالتفات
Applied Linguistics	علم اللغة التطبيقى
Arabic Rhetoric	البلاغة العربية
Argument Communities	جماعات الحجاج
Argumentation	الحجاج
Arrangement	نظم الكلام وترتيبه
Ars Dictaminis	فن كتابة الخطابات والرسائل
Ars Praedicandi	فن الوعظ المرتبط بالعصور الوسطي
Art	الفن
Asianism	الأسلوب الآسيوي أو أسلوب الزخرفة والكلمات الرنانة دون توصيل أفكار مهمة
Assonance	التوازي الصوتي
Asyndeton	الفصل (حذف العاطف)
Atticist–Asianist Controversy	الجدل الأتيكي-الأسيني
Audience	الجمهور
Auxēsis	"التصاعد" (الإيقاعي)
Black Nationalism	القومية السوداء
Caritas	قاعدة الإحسان أو الحب
Case Grammar	نحو (أجرومية) الحالة

Casuistry	التحايل الشرعي على القوانين
Catachrēsis	المشاكلة الخاطئة
Catēchēsis	الدعوة التبليغية التعليمية
Chinese Rhetoric	البلاغة الصينية
Chreia	مقولة أو واقعة لشخصية معروفة
Classical Rhetoric	البلاغة الكلاسيكية
Clinical Linguistics	علم اللغة السَّريرى
Color	اللون
Commonplace Books	كتب المصنفات (الأقوال المأثورة والحقائق البدهية)
Commonplaces	الأقوال المأثورة (والحقائق البدهية)
Communication	الاتصال (بين الآلات) أو التواصل (بين البشر)
Comparative Rhetoric	البلاغة المقارنة
Competence	الكفاءة
Composition	الإنشاء أو التأليف
Computational Linguistics	علم اللغة الحاسوبى
Concordances	قوائم الكلمات في سياقاتها المحددة
Congeries	المتآلفات
Constitutionalized Communication	التواصل المؤسساتي
Constitutive Rhetoric	البلاغة التأسيسية

Contingency	الاحتمالية
Contingency and Probability	المصادفة و الاحتمالية
Contrastive Linguistics	علم اللغة التقابلى
Controversia and Suasoria	الخطب الإقناعية و الجدلية
Copia	الأسلوب المتنوع
Court Oratory	خطابة المحاكم
Covering Laws	القوانين المفسّرة
Critical Rhetoric	البلاغة النقدية
Criticism	النقد
Cultural Feminism	النسوية الثقافية
Debate	المناظرة
Declamation	الخطابة
Decorum	الملاءمة أو اللياقة أو الذوق أو المناسبة
Deliberative Discourse	الخطاب المشاوراتي (التشاوري، السياسي، المداولاتي)
deliberative Eulogy	المدح السياسي
Deliberative Genre	نوع الخطابة التشاورية (السياسية، المداولاتية)
Delivery	الإلقاء
Description	الوصف
Dialectic	الجدل/الديالكتيك

Dialectical Topoi	المواضع الجدلية
Ars Dictaminis	فن الإنشاء/الكتابة النثرية والرسائل
Digression	الاستطراد
Discordia Concors	الانسجام عبر التنافر
Dispositio	الترتيب و التركيب
Dissoi Logoi	كلمات مختلفة
Divine Accommodation	المواءمة الإلهية
Donatist Heresy	هرطقة الحركة الدوناتية
Double – Consciousness	الوعي المزدوج
Doxa	الرأى الشائع (الاعتقادي)
Drama	دراما
Ecolinguistics	علم اللغة البيئي
Eighteenth Century Rhetoric	البلاغة في القرن الثامن عشر
Ellipsis	الحذف التقديري
Elocutio	الصياغة اللغوية
Elocutionary Movement	الحركة الخطابية
Eloquence	اللباقة أو البيان
Emblems	الصور الرمزية التصويرية
Enallage	التبديل
Enthymeme	القياس الإضماري
Epanalēpsis	المضاعفة

Epanodos	التقسيم
Epenthesis	الاتباع
Epideictic Discourse	الخطاب المحفلي (الحفلي)
Epideictic Genre	نوع الخطابة المحفلية (الحفلية)
Epiphora	
Epistolary Rhetoric	البلاغة الرسائلية
Epistrophe	تكرار نهايات الجمل
Epizeuxis	التكرار التأكيدي
Equity Feminism	نسوية المساواة
Eristic	جدالي
Ethics	الأخلاق
Ethno-linguistics	علم اللغة العرقى
Ēthopoeia	الانتحال [تقمص الشخصية]
Ethos	الإيتوس (الإقناع بمناقب الخطيب، أو طبائع الشخصية)
Eulogy	المديح
Evidence	الإثبات
Exemplum, exempla	الشاهد القصصي
Exhortation	الحث [النصح أو الوعظ]
Expediency	المصلحة
experiential Ambiguity	الغموض التجريبى
Expository Rhetoric	بلاغة العرض والإيضاح

Extended Public Debate	المناظرات العامة الموسعة
Fallacies	المغالطات
Feminist Rhetoric	البلاغة النسوية
Feminist Rhetorical Theory	النظرية البلاغية النسوية
Figures of Speech	المحسنات البلاغية
Forensic Discourse	الخطاب القضائي (النيابية)
Forensic Genre	نوع الخطابة القضائية (النيابية)
Forensic Rhetoric	البلاغة النيابية (القضائية)
Free Indirect Speech	الخطاب الحر غير المباشر
Generalized Phrase Structure grammar	نحو البنية العامة للجملة
Generative Grammar	النحو التوليدى
Generative Semantics	علم الدلالة التوليدى
Gorgianic Figures	المحسنات البلاغية الجورجياسية (نسبة إلى البلاغي والفيلسوف جورجياس)
Haptics	علامات الملامسة
Hebrew rhetoric	البلاغة العبرية
Hendiadys	تكافؤ الدلالة
Hermeneutics	الهرمنيوطيقا (التأويلية)
Historical Linguistics	علم اللغة التاريخى
Homiletics	فن الوعظ
HTML	لغة ترميز النص المدمج

Humanism	الاتجاه (المذهب) الإنساني
Humor	الفكاهة
Hybertext	النص المدمج
Hybrid genres	الأنواع الأدبية المهجنة
Hypallage	الإبدال النعتي (تبادل الصفات والأفعال)
Hyperbaton	الانحراف عن الترتيب الصحيح للكلام
Hyperbolē	المبالغة في الوصف
Hysteron Prōteron	تقديم ما مرتبته التأخير
Iconography	الأيقونوجرافيا (التصوير بالرموز)
Identification	التماهي
Ideographs	الرموز التصويرية
Illocutionary Verb	الفعل القولي
Imitation	المحاكاة (الإبداعية)
immediate Experience	التجربة الآنية
Impersa	الأوسمة
Impersonation	محاكاة الشخصيات التاريخية
Indian Rhetoric	البلاغة الهندية
Induction	الاستقراء
Inference	الاستدلال
Innovation	الابتداع
Inter Linguistics	علم اللغة البينى

Intercultural Communication	التواصل بين الثقافي
Communication Interpersonal	التواصل بين الأشخاص
Intrapersonal Communication	التواصل مع الذات
Invention	الابتكار
Inventiveness	القدرة على الابتكار
Inventory	بيان مفصل بالجوانب المختلفة
Irony	المفارقة الساخرة
Isocolon	الموازاة الممتدة/ حسن التقسيم الممتد
Journalism	الصحافة
Judgment	ملكة الحكم
Judicial Rhetoric	البلاغة القضائية
Kairos	مناسبة الحدث
Kinesics	العلامات الحركية
koinai Pisteis	السبل العامة للإقناع
Langue	اللغة
Law	القانون
Leap	الانتقال المفاجئ
Legal Rhetoric	البلاغة القانونية
Legitimacy	الشرعية
Legitimating	إضفاء الشرعية
Lexias	وحدات نصية مستقلة

Lexical Functional Grammar	النحو المعجمى الوظيفى
Liberal Feminism	النسوية الليبرالية
Linguistic Fragmatics	التداولية اللغوية
Linguistics	علم اللسانيات- علم اللغة
loci Communes	المواضع الاستدلالية
Logic	المنطق
Logical Argument	الجدال المنطقي
Logos	المنطق أو العقل أو الحجج المنطقية أو الكلام
Marxist Feminism	النسوية الماركسية
Mathematical Linguistics	علم اللغة الرياضى
Medals	الميداليات أو المسكوكات الفنية
Medieval Grammar	النحو في العصور الوسطى
Medieval Rhetoric	البلاغة في العصور الوسطى
Memory	الذاكرة (الحفاظة)
Metaphor	الاستعارة
Metonymy	الكناية
Mimēsis	المحاكاة الخلاقة
Mode	صيغة
Modern rhetoric	البلاغة الحديثة
Music	الموسيقى

Mythos	المثل المطابق للأسطورة
naïve Social Actors	الفاعلون الاجتماعيون الغفل
Neuro-linguistics	علم اللغة العصبى
Occasion	المناسبة أو الحدث
Onomatopoeia	المحاكاة الصوتية
Oral Epistemology	الإبستيمولوجيا الشفهية
Oratory	الخطابة
Oxymoron	الإرداف الخلفي
Paideia	"البايديا" أو التكوين التربوي للإنسان
Parabolē	المقارنة
Paradigm	نموذج إرشادي
Parliamentary Debate	المناظرات النيابية
Parole	الكلام
Paronomasia	الجناس
Parrallism	التوازي الصوتي
Partes Orationis	أقسام الخطبة
Pathopoeia	المثير العاطفي
Pathos	استثارة العواطف
Perennial Topics and Terms	الموضوعات والمصطلحات المتواترة
Performance	الأداء
Persona	القناع (أشخاص الرواية أو المسرحية)

Perspective by Incongruity	المنظور المتنافر
Persuasion	الإقناع
Phantasia	التخييل
Philosophy	الفلسفة
Phonetics	الصوتيات
Phonology	علم الأصوات
Phronesis	الحصافة (لباقة الحكمة والمعرفة)
Poetry	الشعر
Political Campaign Debate	مناظرات الحملات السياسية
Politics	السياسة
Praeteritio	الإلماع (الاعتراضي)
Pragmatics	التداولية
Presumed Audience	الجمهور المتجرى
Priori	الافتراضات القبلية
Probability	الاحتمالية
Problematology	علم الإشكاليات
Progymnasmata	تدريبات بلاغية تحريرية
Prolepsis	التوقع/الاستباق (السياقي أو التركيبي)
Pronuntiatio	الإلقاء
Proparalepsis (or Paragoge)	الإضافة الصوتية (الاختتامية)
Prosopopoeia	القناع (الصوت) الوهمي

Prosopopoeia	التشخيص
Prosthesis	الإضافة البدئية
Protention	استباق
Prudence	الفطنة/الحكمة
Psycholinguistics	علم اللغة النفسى
Public Communication	التواصل العام
Public Speaking	مخاطبة الجمهور
Qualifiers	أسرار القضية
Queer Rhetoric	بلاغة المثليين
Questioning	التساؤل
Radical Feminism	النسوية الراديكالية
Rebuttals	الرد/المتابعة
Reception Theory	نظرية التلقى (الاستقبال)
Reduction	الاختزال
Rederijkers	مجالس البلاغة
Refining	الترشيح
Relational Grammar	النحو العلائقى
Religion	الدين
Renaissance Rhetoric	البلاغة في عصر النهضة
Retention	التذكر
Rhetoric	البلاغة (الخطابة)

Rhetoric in the Age of Reformation and Counter-Reformation	البلاغة في عصر حركـة الإصـلاح الديني والحركة المضادة لها
Rhetorical Situation	الموقف البلاغي
Science	العلم
Secular piety	التقوى العلمانية
Semantics	علم الدلالة
Significant	الدال
Signifié	المدلول
Social Feminism	النسوية الاجتماعية
Socialist Feminism	النسوية الاشتراكية
Sociolinguistics	علم اللغة الاجتماعى
Solution (lysis)	الجواب عن مسألة
Sophists	السوفسطائيون
Sortie	التصاعد التدريجي للمعنى
Specialized Debates	المناظرات المتخصصة
Speech Acts	الأفعال الكلامية
Speech Acts, Utterances	تلفظات الأفعال الكلامية
Spin Control	السيطرة على الجمهور (عن طريق بث المعلومات)
Standard Theory	النظرية المعيارية
Stasis	الاستقصاء الرباعي

Structural Linguistics	علم اللغة البنيوى
Structuralism	البنيوية
Studia Humanitatis	الدراسات الإنسانية
Style	الأسلوب
Suasoria	الخطبة التعليمية المبنية علـــى حـــدث تاريخي
Syllepsis	الحذف البلاغي - التعليق المعنـــوي - الشمول المعنوي
Syllogism	القياس المنطقي
symbolic Ambiguity	الغموض الرمزى
Syncope	الترخيم الوسطي
Synecdochē	المجاز المرسل
Tacit Dimension	البُعد الضمني
Technical Communication	التواصل التقني
Technological Determinism	الحتمية التكنولوجية
Text Grammar	نحو النص
The Debaters	الأطراف المتناظرة
the Gutenberg Galaxy	مجرة جوتنبرج
The Irreparable	الحجاج بما يتعذر تعويضه أو إصلاحه
The Judge	القاضى
The Revival	البعث (الإحياء)

The Sublime	الأسلوب السامي (الرفيع)
Thesis	القضية
Topics	الموضوعات
Traditional Arrangement	النظم والترتيب التقليدي
Transformations	التحويلات
Trivium	العلوم الثلاثة
Typological Linguistics	علم اللغة التصنيفي
Utility	المذهب النفعي (مذهب المنفعة أو اللذة)
Visual Epistemology	الإبستيمولوجيا البصرية
Vita Active	حياة الفعل
Vita Contemplative	حياة التفكر
Warrant	البيّنة
Zeugma	العبارة الجامعة

مؤلفو الموسوعة ومداخلهم:

دانيل آلان: مدرس اللغات الكلاسيكية والأدب، جامعة شيكاغو، إلينوي

- مجازات الكلام الجورجانية.

جون أليسون: أستاذ، قسم اللغة اليونانية واللاتينية، جامعة أوهايو ستات

- القضية ونقيض القضية.

فرديريك أنتزاك: أستاذ البلاغة، ووكيل الكلية للبرامج الأكاديمية، جامعة أيوا، مدينة أيوا.

- إطلالة على التأليف.

جيمس أون: أستاذ مساعد تواصل الكلام، جامعة بنسيلفانيا ستات، يونيفيرسيتي بارك.

- المنظور المتنافر.

ويسلي أفرام: أستاذ مساعد التواصل، جامعة يال، مدرسة المقدسات، نيوهفن، كونيكتكت.

- النصح، الوعظ.

شادي بارتش: أستاذ الكلاسيكيات، جامعة شيكاغو، إيلينوي.

- التقريظ.

جيمس باوملين: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة ساوثويست ميسوري ستات، سبرينجفيلد.

• الإيتوس.

مارتن بلومر: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، جامعة نوتردام، إنديانا.

• المواضع الجدلية.

• الخُطبة.

• الخطب الإقناعية والجدلية.

واين بوث: أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة شيكاغو، إلينوي.

• النقد.

إرنست بورمان: أستاذ تواصل الكلام، جامعة مينوسوتا، مينيبوليس.

• الرؤية البلاغية.

مارجوري بويل: باحث مستقل، تورنتو، أونتاريو، كندا.

• الدين.

برنارد بروك: أستاذ التواصل، جامعة واين ستات، ديترويت، ميتشجن.

• التقوى العلمانية Secular piety.

روبرت بروك: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة ميسوري في كولومبيا.

• بلاغة الترسل .

• فن الإنشاء/الكتابة النثرية والرسائل.

كارلين كامبل: أستاذ تواصل الكلام، جامعة مينيسوتا، مينيبوليس.

• البلاغة النسوية؛ والبلاغة الحديثة.

روبرت كاب: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، كلية أوستن، شيرمان، تكساس.

- الحصافة (التدبر).

موريس تشارلاند: أستاذ مساعد التواصل، جامعة كونكورديا، مونتريال، كندا.

- السياسة، مقال حول البلاغة التأسيسية.

دافيد كوهن: أستاذ البلاغة والكلاسيكيات، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

- الخطابة.

ستيفن كولفين: أستاذ مساعد اللغة اليونانية، قسم الكلاسيكيات، جامعة يال، نيوهفن، كونيكتيكت.

- الجدال الأتيكي – الأسيوي.

ريتا كوبلاند: أستاذ الدراسات الكلاسيكية، جامعة بنسيلفانيا، فيلاديلفيا.

- البلاغة الوسيطة: إطلالة؛
- العلوم الثلاثة (النحو والبلاغة والمنطق) Trivium.

روبرت كوكس: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورث كارولينا في شابل هيل.

- ما يتعذر إصلاحه.

روبرت كريج: أستاذ مساعد التواصل، جامعة كولورادو في بولدر.

- التواصل.

كورتني ديلارد: طالب دكتوراه، جامعة تكساس في أوستن

- البلاغة التشاورية

روزا إلبري: مدرس البلاغة والإنشاء، جامعة تكساس في أوستن

• الإنشاء: إطلالة

ريكارد ليو إنوس: أستاذ كرسي ليليان رادفورد للبلاغة والإنشاء بجامعة تكساس كريستيان، فورت ورث

• الترتيب، مقال حول الترتيب التقليدي

جين فانستوك: أستاذ اللغة والأدب الإنجليزي، جامعة ميريلاند، كولدج بارك

• الترتيب، مقال حول الترتيب الحديث

إلين فانتام: أستاذ اللغة اللاتينية، جامعة برينستون، نيوجيرسي

• البيان

توماس فاريل: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورث ويستيرن إيفانستون، إلينوي

• الاستدلال؛

• المعرفة الاجتماعية؛

• التواصل التقني

ستيف فولر: أستاذ علم الاجتماع، جامعة ووريك، كوفنتري، المملكة المتحدة

• العلم

روبرت جاينس: أستاذ فن الدراما، جامعة أوبورن، مونتجومري، ألاباما

• الحصافة (لباقة الحكمة والمعرفة)

• الكلام

ديليب جاونكر: أستاذ مساعد البلاغة والدراسات الثقافية، جامعة نورث ويستيرن، إيفنيستون، إلينوي

- الحدوث والاحتمالية

ماري جاريت: أستاذ مساعد التواصل، جامعة واين ستات، ديترويت، ميتشجين

- البلاغة الصينية

توماس جودنايت: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورثويستيرن، إيفينستون، إلينوي

- الجدال والمناظرة
- السياسة: مقال حول الفضاءات الشخصية والتقنية والعامة للحجاج

بيتر جود ريتش: أستاذ القانون، مدرسة كاردوزو للقانون، نيويورك

- القانون

لورنس جرين: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة ساوثرن كاليفورنيا، لوس أنجلوس

- الباتوس (استمالة النفوس)

أندريا جرون – أوستريخ: مركز البلاغة ودراسات الإحياء، جامعة إيسن، ألمانيا

- المجانسة الاستهلالية Alliteration
- تماثل البداية والنهاية Anadiplōsis
- تكرار الصدارة Anaphora

- الإسقاط البدئي Aphaeresis
- القطع الموسيقي Apocopē
- المعضلة Aporia
- الانقطاع البلاغي (السكوت النجائي) Aposiōpēsis
- التجانس الصوتي Assonance
- الفصل بين الجمل أو الكلمات Asyndeton
- "التصاعد" (الإيقاعي) Auxēsis
- إيجاز الحذف Ellipsis
- التقسيم (اللف والنشر) Epanodos
- تكرار نهايات الجمل Epiphora
- التكرار التوكيدي Epizeuxis
- الوصل البلاغي Polysyndeton
- توقع حدوث الشيء قبل وقوعه (توقع الاعتراض قبل قوله) Prolēpsis.

روبرت هاريمان: أستاذ البلاغة ودراسات التواصل، جامعة دراك، دي مينس، إيوا

- الملاءمة أو اللياقة أو الذوق أو المناسبة Decorum

رودرك هارت: أستاذ كرسي التواصل، جامعة تكساس في أوستن

- الخطابة التشاورية (السياسية)

جيرار هاوسر: أستاذ التواصل، جامعة كولورادو في باولدر

- إطلالة على السياسة
- التماهي Identification

هانز هومان: أستاذ مساعد دراسات التواصل، جامعة سان جوزيه ستات، كاليفورنيا

- الاستقصاء الرباعي Stasis

روبرت هولب: أستاذ اللغة الألمانية، جامعة كاليفورنيا، بيركلي

- نظرية التلقي

مايكل هايد: أستاذ أخلاقيات التواصل، جامعة واك فوريست، وينستون – سالم، نورث كارولينا

- التأويليات

كاثلين جميسون:

- المولَّد (المهجَّن أو الهجين) Hybrid

شارون جافريس: مدرس دراسات التواصل، جامعة تكساس في أوستن

- الجمهور: إطلالة

جيمس يازنسكي: أستاذ مساعد التواصل وفن المسرح، جامعة بوجيه ساون، تاكوما، واشنطون

- الموقف البلاغي

نان جونسن: أستاذ مساعد اللغة الإنجليزية، جامعة أوهايو ستات، كولومبوس

• بلاغة القرن الثامن عشر

كرستوفر لايل جونسون: أستاذ تواصل الكلام، جامعة بنسلفانيا ستات، يونيفرسيتي بارك

• القياس المضمر Enthymeme، الفلسفة Philosophy، المواضع الجدلية والألفاظ المتواترة Perennial topics and terms، الحكمة العملية Practical wisdom

جيمس كاستلي: أستاذ مساعد اللغة الإنجليزية، جامعة هاوستون، تكساس

• الجدل

فرد كاوفلد: أستاذ فن التواصل، كلية إدجوود، ماديسون، ويسكنسون

• التلفظات بوصفها أفعال كلام

جورج كينيدي: أستاذ الكلاسيكيات، جامعة نورث كارولينا، هابل هيل

• البلاغة الكلاسيكية، والبلاغة المقارنة، والمحاكاة

مانفرد كينبوينتر: أستاذ مساعد، جامعة إنسبروك، النمسا

• علم اللغة

أندرو كينج: رئيس قسم دراسات الكلام، وأستاذ البلاغة، بجامعة لويزيانا ستات، باتون روج

• السياسة، مقال حول البلاغة والسلطة

جون كيربي: أستاذ الدراسات الكلاسيكية والأدب المقارن، جامعة بوردو، ويست لافاييت، إنديانا

- المناسبة (الظرف) Occasion

جورج نايدل: معيد، جامعة تكساس كريستيان، فورد وورث

- الوعظ والإرشاد Homiletics؛ بلاغة عصر النهضة Renaissance rhetoric؛ بلاغة عصر الإصلاح والإصلاح المضاد Rhetoric in the age of Reformation and Counter - Reformation.

كيري كراوس: أستاذ، معهد اللغة التشيكية، براغ، الجمهورية التشيكية

- البلاغة السلافية

ن. كريشناسوامي: أستاذ اللغة الإنجليزية، المعهد المركزي للغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد، الهند

- البلاغة الهندية

هـ. كرونس: أستاذ الأسلوبيات وممارسات الأداء، جامعة الموسيقى والفنون المسرحية، فيينا، النمسا

- الموسيقى

دون ليفي: أستاذ الفلسفة، جامعة أوريجون، إيوجين

- المنطق

ستيفان لوكاتش: أستاذ فن التواصل، جامعة ويسكونسين – ماديسون

- مخاطبة الجمهور

جاك لوندبورن: زميل كلار هال، جامعة كامبريدج، المملكة المتحدة

• البلاغة العبرية

جون ليونز: أستاذ اللغة الفرنسية، جامعة فيرجينيا، شارلوتفيل

• الشاهد القصصي Exemplum

بيتر ماك: مدرس مساعد، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة وورويك، كوفنتري، المملكة المتحدة

• الشعر

جوزيه أنتونيو مايورال: أستاذ نظرية الأدب، جامعة كومبلتنسي في مدريد، إسبانيا

• نقيض القضية Antithesis؛ الالتفات في المخاطبة Apostrophē، تصالب الكلام (المقابلة العكسية) Chiasmus؛ Ēthopoeia؛ المجاز المرسل Hypallagē؛ الترصيع (السجع المتوازي) Isocolon؛ التوازي التركيبي Parallelism، الإطناب Periphrasis؛ التشخيص (التجسيد) Prosōpopoeia

مايكل كالفن ماكجي: أستاذ دراسات التواصل، جامعة إيوا، إيوا سيتي

• الأيديوجراف

ريمي مكرو: أستاذ الدراسات البلاغية، أوهايو ستات، أثينا

• السياسة: مقال عن البلاغة النقدية

مارك لورانس مكفيل: أستاذ التواصل، جامعة يوتا، مدينة سالت لاك

• البلاغة الأفرو – أمريكية، الوعي المزدوج

ميشيل ماير: أستاذ البلاغة، جامعة ليبر في بروكسيل، بلجيكا

• علم الإشكاليات Problematology، التساؤل Questioning

توماس ميللر: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة أريزونا، توكسون

• بلاغة القرن الثامن عشر

تيرنس مورو: مدرس دراسات التواصل، كلية جوستافوس أدولفوس، سانت بيتر، مينسوتا

• البلاغة النيابية

آن موس: أستاذ اللغة الفرنسية، جامعة ديرهم، المملكة المتحدة

• كتب الأقوال المأثورة والمصنفات Commonplaces and commonplace books؛ الأسلوب المتنوع Copia

جين ديتز موس: أستاذ اللغة الإنجليزية، الجامعة الكاثوليكية الأمريكية، واشنطن العاصمة

• البلاغة في عصر الإحياء، البلاغة في لغة الإحياء وأدبه

فولفجانج موللر: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة فريدريك - شيللر، ألمانيا

• الأسلوب

محسن جاسم الموسوي: أستاذ بالجامعة الأمريكية في الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

• البلاغة العربية

جريجوري ناجي: أستاذ كرسي فرانسيس جونز للأدب اليوناني الكلاسيكي، وأستاذ الأدب المقارن، جامعة هارفارد، كامبريدج، ماسشوستس

- الشفاهية والكتابية

ريتشارد نات: أستاذ بمركز البلاغة ودراسات الإحياء، جامعة إيسن، ألمانيا

- مداخل الأمثولة؛ اللحن (التعسف المجازي)؛ الاستعارة؛ الكناية؛ التشبيه؛ المجاز المرسل

بيتر أوستريخ: أستاذ الفلسفة، هوكسهول أوجوستانا، نيوندتيلسو، ألمانيا

- السخرية

دانيل كييف: أستاذ مساعد تواصل الكلام، جامعة إلينوي في أوربان - شامباين

- الإقناع

كاثرين أولسون: أستاذ مساعد التواصل، جامعة ويسكونسون - ميلووكي

- الغموض

كرستين أورفاك: أستاذ التواصل، جامعة يوتا، سالت لاك سيتي

- السامي (الجليل)

هاينر بيتر: أستاذ البلاغة ودراسات الإحياء، جامعة إيسن، ألمانيا

- التقديم والتأخير، التكرار المغاير، مراعاة النظير، التنقيح، رد العجز على الصدر، الزيادة في الوسط، تكرار النهاية، التدرج البلاغي، تثنية

الواحد، تقديم ما مرتبته التأخير، الإثبات بالنفي، الإبدال، الإضافة البدئية، التعليق المعنوي (الشمول المعنوي)، التصريع.

جون ديرام بيترز: أستاذ مساعد دراسات التواصل، جامعة إيوا، إيوا سيتي

- الجمهور: الجماهير الغفيرة

هينريش بليت: أستاذ اللغة الإنجليزية، ومدير مركز البلاغة ودراسات الإحياء، إسن، ألمانيا

- الإفاضة؛ الوصف؛ الاستطراد، تبادل الصيغ؛ مجازات الكلام؛ المبالغة؛ الإرداف الخلفي؛ المفارقة؛ الاعتراض؛ التورية؛ المثير العاطفي؛ الحشو (التطويل)؛ الإضافة الصوتية (الاختتامية)؛ إطلالة على بلاغة عصر النهضة.

مارك بولوك: أستاذ مساعد التواصل، جامعة لويلا، بشيكاغو، إلينوي

- التقييم

جون بولاكوس: أستاذ مساعد البلاغة، جامعة بيتسبيرج، بنسلفانيا

- التشاجري – الجدلي؛ السوفسطائيون

إرفينج راين: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورثويستيرن، إيفانستون، إلينوي

- الحملات الانتخابية

توماس جيسي رواش: أستاذ مساعد التواصل، جامعة بورديو، كالموت، هاموند، إنديانا

• بلاغة العرض – التفسير والصحافية، السياسة: مقال حول الوجه الثالث للسلطة، التواصل التقني

ماثيو رولر: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، جامعة جون هوبكينز، بالتيمور، ماريلاند

• اللون

فيليب – جوزيف سالازار: أستاذ متميز في الآداب الإنسانية، مركز دراسات البلاغة، جامعة كابت تون، رودنبوش، جنوب أفريقيا

• بلاغة المثليين Queer

برنارد شولز: أستاذ الأدب العام والمقارن، جامعة جرونين، هولندا

• الفن

إيكارت شوترميف: أستاذ الكلاسيكيات، جامعة كولورادو في بولدر

• المصداقية

روبرت سكوت: أستاذ تواصل الكلام، جامعة مينسوتا، مينوبوليس

• البعد الضمني

هربرت دبليو سيمونز: أستاذ تواصل الكلام، جامعة تيمبل، فيلاديلفيا، بنسلفانيا

• الحركات الاجتماعية

بيتر سيمونسون: مدرس التواصل والبلاغة، جامعة بيتسبيرج، بنسيلفانيا

• السياسة: مقال حول البلاغة والمشروعية

توماس سلوان: أستاذ البلاغة، جامعة كاليفورنيا، بيركلي

• الفكاهة

مارجيك سبيس: أستاذ الأدب الهولندي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جامعة فيرجي، أمستردام، هولندا

• البلاغة الإحيائية: مقال حول مجالس البلاغة

جينيفر سترومر – جالي: طالب دكتوراه، جامعة بنسلفانيا، فيلادلفيا

• المولِّد (المهجَّن أو الهجين)

جان سوتون: أستاذ مساعد تواصل الكلام، جامعة بنسلفانيا ستات، يورك

• مناسبة الحدث Kairos

جيمس إم. تالمون: أستاذ مساعد البلاغة، جامعة ساوث داكوتا، بروكينجز

• المحللات (مغالطة الخروج على مبدأ عام)

روبرت تيريل: مدرس في قسم التواصل والثقافة، جامعة إنديانا، بلومينجتون

• البلاغة الأفرو – أمريكية، مقال حول النزعة القومية السوداء

يون ليو تو: أستاذ مساعد الكلاسيكيات، جامعة كولومبيا، نيويورك

• النوع البياني (العلِّي)

كلاوس أوهليج: أستاذ ورئيس اللغة الإنجليزية والدراسات الأمريكية، جامعة فيليب، ماربورج، ألمانيا

- النزعة الإنسانية

فرانز فان إيميرن: أستاذ تواصل الكلام ونظرية الحجاج والبلاغة، جامعة أمستردام، هولندا

- المغالطات

بريان فيكرز: أستاذ الأدب الإنجليزي، مركز دراسات الإحياء، إيدجنوسيك تكنيك، زيوريخ، سويسرا

- الفلسفة، مقال حول البلاغة والفلسفة

رايموند وادينجتون: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة كاليفورنيا، دافيس

- دراسة المصورات الدينية (الأيقونات)

جوزيف بي. والتر: أستاذ مساعد التواصل وعلم النفس الاجتماعي وتكنولوجيا المعلومات، معهد رينسيلار بوليتكنيك، تروي، نيويورك:

- الجمهور: مقال حول الجماهير الافتراضية

دوجلاس واتسون: أستاذ الفلسفة، جامعة وينبيج، مانيتوبا، كندا

- الحجاج بالتشهير Ad hominem

فيليب واندر: أستاذ دراسات التواصل، جامعة سان جوزيه ستات، كاليفورنيا

- المصلحة Expediency

باربرا وارنيك: أستاذ تواصل الكلام، جامعة واشنطن، سياتل

- النص المفرط؛ الاقتناع

والتر واتسون: أستاذ الفلسفة، جامعة نيويورك ستات في ستوني بroوك

- الابتكار

إيريك كينج واتس: أستاذ مساعد التواصل، جامعة واك فورست، وينستون – سالم، نورث كارولينا

- إطلالة على البلاغة الأفرو – أمريكية

كاثلين ك. ويليش: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة أوكلاهوما، نورمان

- الإلقاء

سوزان ويلز: أستاذ اللغة الإنجليزية، جامعة تمبل، فيلادلفيا، بنسلفانيا

- اللوجوس (الكلمة، العقل)

ويليام ن. ويست: مدرس اللغة الإنجليزية، جامعة نيفادا، رينو

- التذكر

كارين إي. ويدبي: مدرس التواصل، جامعة بوردو، ويست لافاييت، إنديانا

- المنفعة

كيرت هـ. ويلسون: مدرس البلاغة ودراسات التواصل، جامعة مينيسوتا، مينوبوليس

• البلاغة الأفرو – أمريكية، مقال حول بلاغة الإبطال

دبليو. روس وينتروود: أستاذ كرسي بروس ر. مكلدري في اللغة الإنجليزية، جامعة ساوثرن كاليفورنيا، لوس أنجلوس

• الإنشاء، مقال حول تاريخ أقسام اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة

إيه. جي. وودمان: أستاذ اللغة اللاتينية، جامعة دراهم، المملكة المتحدة

• التاريخ

دافيد زارفسكي: أستاذ دراسات التواصل، جامعة نورثويستيرن، إيفنستون، إلينوي

• الحجاج: الحقول الحجاجية، والمنطق القياسي

جان زيولكوسكي: أستاذ اللغة اللاتينية الوسيطة والأدب المقارن، جامعة هارفرد، كامبريدج، ماسشوستس

• بلاغة العصور الوسيطة، مقال حول علم النحو في العصور الوسيطة

المراجعان والمترجمون فى سطور:

الدكتور عماد عبد اللطيف (مراجع ومترجم)

درس البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة وجامعة لانكستر الإنجليزية. نشر أكثر من أربعين بحثًا بالعربية والإنجليزية، وله ستة كُتبٍ مؤلَّفة منفردًا هي: "لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير (٢٠٠٩)"، و"إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي" (٢٠١٢)، و"البلاغة والتواصل عبر الثقافات" (٢٠١٢)، و"تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف" (٢٠١٤)، و"البلاغة: آفاق جديدة لحقل معرفي قديم" (٢٠١٥). وحصل كتابه "بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة" (٢٠١٣) على جائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٣. مؤلِّف مشارك في موسوعة أكسفورد للشخصيات الأفريقية البارزة (أكسفورد)، ودائرة المعارف الإسلامية (ليدن). ترجم وراجع عددًا من الكتب المؤسِّسة في البلاغة وتحليل الخطاب. يعمل منذ عقدين من الزمان على تطوير اتجاه في الدرس البلاغي يُطلِق عليه "بلاغة المخاطَب (الجمهور)"؛ يُعزّز من الترابط المعرفي بين البلاغة العربية ودراسات التواصل وتحليل الخطاب.

للتواصل: emad.abdulatif@gmail.com

الدكتور حسام أحمد فرج (مترجم)

مدرس اللغويات بكلية اللغات والترجمة في جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، تخرج في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصل فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، وقد تخصصت أغلب دراساته في علم النص. ومن مؤلفاته: علم اللغة عند العرب؛ علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)؛ هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأبحاث منها: الأداء النصي واختلاف طرق التأويل؛ النص- السورة (دراسة نصية في تحديد الأطر التواصلية للقرآن الكريم)؛ والعنوان الصحفي في صحافة ما بعد ثورة ٢٥ يناير – مقاربة نصية.

للتواصل: hosamahmed70@hotmail.com

الدكتور محمد الشرقاوي (مترجم)

أستاذ مساعد للغويات العربية بجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة، حصل على الماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها عام ١٩٩٧، عمل بالجامعة الأمريكية حتى انتقل لهولندا للحصول على شهادة الدكتوراه التي نالها عام ٢٠٠٥ من جامعة راد باود برسالة في تاريخ العربية. عمل في الجامعة الأمريكية في القاهرة وجامعة القاهرة وجامعة بايرويت في ألمانيا وجامعة براون وجامعة وين ستيت في الولايات المتحدة. له كتابان بالعربية هما: التعريب في القرن الأول الهجري عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٧؛ والفتوحات اللغوية عن دار التنوير عام ٢٠١٣، كما أن له عددًا من المقالات العلمية عن تاريخ العربية وعددًا آخر من الكتب المترجمة.

للتواصل: mtarek2000@hotmail.com

الدكتورة عزة شبل محمد (مترجمة)

مدرس اللغويات بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٩٢م، وحصلت فيها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، ودرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. أشرفت على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وشاركت في عدد من الندوات العلمية والمؤتمرات المحلية والدولية، ولها عدد من الدراسات في مجال علم النص منها: علم لغة النص: النظرية والتطبيق؛ نحو منهج مقترح لدراسة لغة النص الأدبي؛ وبنية التكرار في لغة القصة القصيرة عند يوسف إدريس؛ والسياق وإنتاج الدلالة: نماذج من النظريات اللسانية الغربية.

للتواصل: azza_shebl_cu@hotmail.com

الدكتور محمد فوزي الغازي (مترجم)

دكتوراه في الترجمة ولغويات النص بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٩، وزائر أكاديمي لدراسات ما بعد الدكتوراه بجامعة لندن (SOAS) بإنجلترا عام ٢٠١٠؛ وهو أستاذ الترجمة المساعد بجامعة الملك عبد العزيز حتى أواخر عام ٢٠١٣، ثم مدرس الترجمة واللغويات بجامعة الإسكندرية؛ وهو محاضر ومترجم دولي رُشح للأمم المتحدة بنيويورك عام ٢٠١٠.

للتواصل: muhammadfi@yahoo.com

الدكتورة مريم أبو العز (مترجمة)

باحثة مصرية تخرجت من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن جامعة عين شمس، وحصلت على الماجستير في الدراسات اللغوية من جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة. تعمل مدرسًا مساعدًا بجامعة لانكستر حيث تُعِد درجة الدكتوراه. تتمحور اهتماماتها البحثية حول العلاقة بين الفصحى والعامية في مصر وكتابة العامية بحروف لاتينية وخطاب ثورة ٢٥ يناير، وقد نشرت عدة أوراق بحثية عن هذه الموضوعات.

للتواصل: mariam.aboelezz@gmail.com

الدكتور محمد مشبال (مترجم)

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بكلية الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب، ومنسق فرقة البلاغة وتحليل الخطاب. أصدر مجموعة من الكتب والترجمات؛ منها: مقولات بلاغية في تحليل الشعر (١٩٩٣). الصورة في الرواية (ترجمة). بلاغة النادرة (١٩٩٧). أسرار النقد الأدبي (٢٠٠٢). الهوى المصري في المخيلة المغربية (٢٠٠٧). البلاغة والأصول (٢٠٠٧). البلاغة والسرد (٢٠١٠). البلاغة والأدب (٢٠١٠). الأدب والنقد والواقع (٢٠١٠). بلاغة النص التراثي (٢٠١٣). البلاغة والخطاب (٢٠١٤).

للتواصل: medchbal@hotmail.com

الدكتورة مها عبد الحكيم حسان (مترجمة)

أستاذ الأدب المقارن بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة. لها أبحاث عديدة منشورة فى مجالات النقد الأدبى ودراسات الترجمة والدراسات النسوية والأدب المقارن ونظرية ما بعد الكولونيالية. عملت مترجمةً حرة مع العديد من الهيئات المحلية والدولية ولها ترجمات منشورة. شاركت فى ترجمة أكثر من موسوعة، كما أسهمت بمجموعة من الأبحاث فى مؤتمرات عن الترجمة. وهى تقوم أيضا بتدريس الترجمة فى جامعة القاهرة وتدرس الترجمة والترجمة الفورية فى جامعات غير حكومية.

للتواصل: mahahassan2003@yahoo.com

الدكتور بدر الدين مصطفى أحمد (مترجم)

مدرس فلسفة الجمال والفلسفة المعاصرة بقسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة. قام بالتدريس في أكاديمية الفنون وجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا. نشر العديد من الأبحاث والمقالات في مصر والكويت والأردن وسلطنة عمان والجزائر. له ثلاثة كتب مؤلَّفة، وشارك في تأليف كتابين، كما ترجم منفردا وبالاشتراك العديد من الكتب في الفلسفة والنقد الأدبي والبلاغة والجغرافيا والثقافة البصرية. عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

للتواصل: badrmostafa@hotmail.com

الدكتور حجاج أبو جبر (مترجم)

درس الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه عن أطروحة في النقد الثقافي عند عبد الوهاب المسيري، قام بدراسات ما بعد الدكتوراة في ألمانيا بمعهد الدراسات المتقدمة وجامعة هومبولت، ويعمل مدرسًا بأكاديمية الفنون بمصر، صدر له كتاب **Mapping the Secular Mind** عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بلندن.

للتواصل: hagagali@gmail.com

الدكتور خالد توفيق (مترجم)

أستاذ الترجمة وعلم اللغة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، وعضو اتحاد الكتاب. قام بالتدريس في عشر جامعات عربية وأجنبية، منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة الملك عبدالعزيز، وجامعة الفيصل بالمملكة العربية السعودية، وجامعة سيتي، وجامعة نيويورك فرع القاهرة. قام بوضع العديد من المناهج الدراسية لأقسام اللغات والترجمة في بعض الجامعات العربية، كما قام بتقويم مناهج الترجمة التي تدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا، ما بين مؤلَّف ومترجم. وقام بالإشراف، والمشاركة في الإشراف، على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه.

للتواصل: kh_tawfiq@yahoo.com

الدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى (مراجع)
أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم
بكلية الآداب - جامعة القاهرة

- عضو مجمع اللغة العربية، وعضو الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.
- حاصل على جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت عام ١٩٩٤.
- حاصل على جائزة رفاعة الطهطاوي في الترجمة من مصر عام ٢٠٠٦.

من أهم مؤلفاته

- دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (١-٤).
- نظرات فى فكر الإمام محمد عبده.

من أهم تحقيقاته للنصوص

- "الشكوك على جالينوس" لأبى بكر الرازى.
- "مقدمة ابن خلدون".

من أهم ترجماته

- "فلسفة المتكلمين فى الإسلام" لـــ هارى ولفسون.
- "فلسفة محى الدين بن عربى" لأبى العلا عفيفى.
- "الفلسفة اليونانية" لـــ جوليا أنّاس.

التصحيح اللغوي : محمد المصري

الإشراف الفني : حســــــن كامل